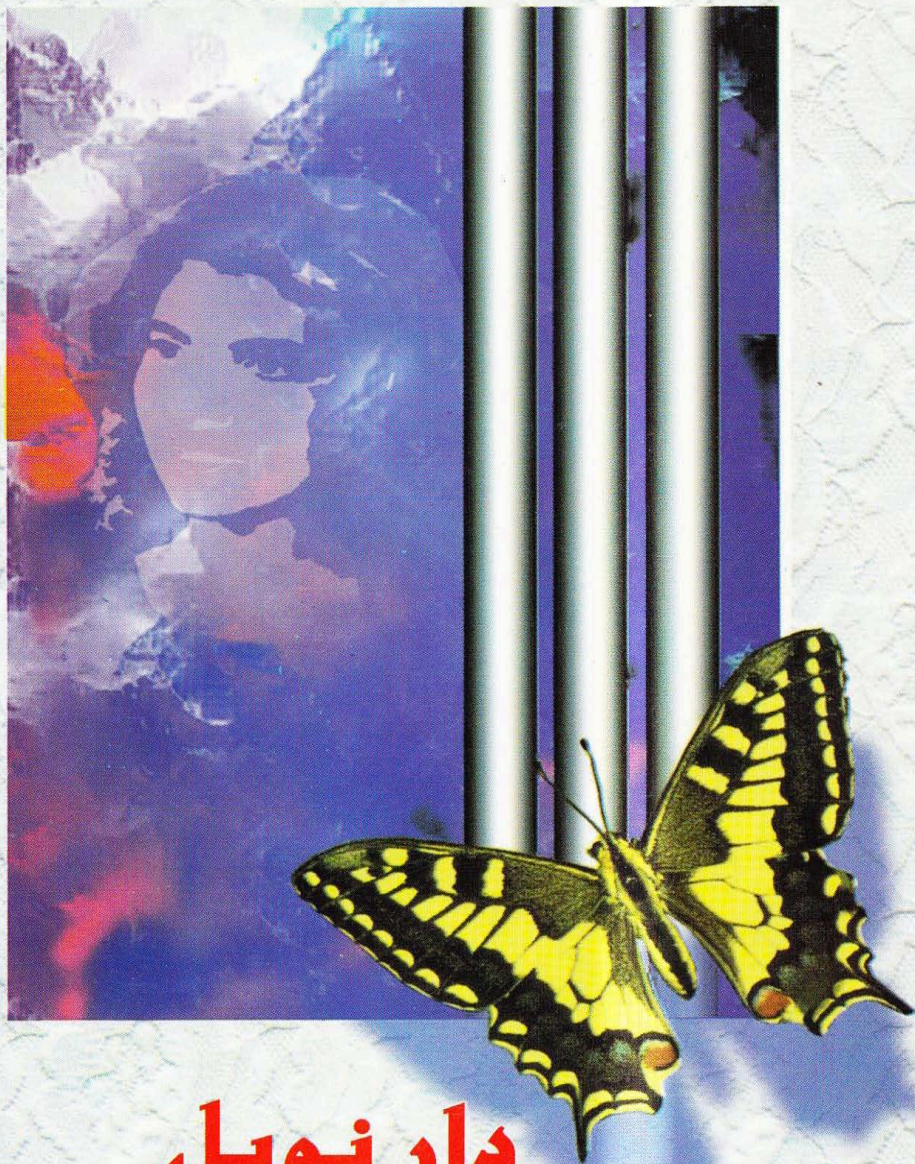


الفراشة

هنري شاربيير ترجمة: تيسير غراوي



الفراشة

HENRI CHARRIERE

PAPILLON

هنري شاربير

الفراشة

رواية

ترجمة تيسير غراوي

دار نوبل

سورية

* هنري شاريير

* ترجمة تيسير غراوي

* جميع الحقوق محفوظة

* دار نوبل

* شارع ميسلون - صالحيه هاتف ٢٣٦٨٧٣

* الطبعة الأولى - ١٩٨٢

* الطبعة الثانية - ٢٠٠٠

طريق المعفن

كانت الضربة قاصمة إلى درجة أنني لم أصبح منها إلا بعد ثلاثة عشر عاماً. والحقيقة أنها لم تكن ضربة عادية، فلقد تألب على تسديدها لي كثيرون.

نحن في السادس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣١، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً أخرجت من الزنزانة التي قضيت فيها عاماً، كنت قد حلقت ذقني وارتديت بذلة صنعتها يد ماهرة فأكسبته مظهراً أنيقاً، وقميصاً أبيض بعقدة زرقاء كأنها اللمسة الأخيرة في هذه الطلعة البهية.

كان لي من العمر خمسة وعشرون عاماً ومع ذلك كنت أبدو في العشرين. كان رجال الشرطة قد تحمدوا قليلاً مذهوشين بظهوري، فعاملوني بأدب جم، بل نزعوا من يدي الأغلال، كنا نحن الستة، أنا وخمسة رجال من الشرطة جالسين على مقعدين طويلين في قاعة خالية، وفي الخارج كان الجو مغشياً. ويقابلنا باب لا بد أن يكون متصلاً بقاعة المحكمة لأننا في القصر العدلي في باريس.

سأكون بعد لحظات متهمًا بجريمة قتل. جاء محامي الاستاذ ريمون هوبير لتحيتي وقال: ليس هناك أي دليل جاد ضدك، وأنا واثق من أننا سندخل سبيلنا، وابتسمت من قوله (أننا) وكأنه هو أيضاً سيمثل أمام المحكمة كمدّنب، وإذا ما صدر حكم من الأحكام فإنه سيناله هو أيضاً.

فتح الباب حاجب ودعانا للمرور. وانفتح مصراعان كبيران، فدخلت قاعة فسيحة محاطاً بأربعة من رجال الشرطة والمساعد إلى جانبهم. ولكي يكيلو لي الصفعة، فقد اصطبغ كل شيء بلون الدم: السجاد، الستائر وأثاث القضاة الذين سيحكمون علي بعد قليل.

وصاح صائح : محكمة.

وظهر من باب على اليمين ستة رجال مردفين: الرئيس وخمسة أعضاء وعلى رؤوسهم القلنسوات، توقف الرئيس عند كرسي في الوسط واحتل مساعده أماكهم عن يمين وعن شمال.

وخيم على القاعة صمت ثقيل وظل الجميع وقوفاً وأنا منهم، ثم جلسوا بعد جلوس هيئة المحكمة.

كان الرئيس، ويدعى بيفان، ممتلئ الخدين وردبها، وكان جهما، ينظر إلي بعينه دون أن يسمح لوجهه بالتعبير عن أي احساس، ولسوف يثير الجدل دون انحياز، ويوصفه رجل قضاء متمرس، حاول أن يفهم الجميع أنه غير قانع بإخلاص الشهود ورجال الشرطة، وأنه ليست له أية تبعة في تلك الضربة سوى أنه قدمها لي.

كان المدعي العام واسمه القاضي برادل، مرهوب الجانب يخشاه المحامون، وله صيت ذائع سيء بأنه الأول في إمداد المقصلة والسجون بالحكومين، في فرنسا وفيها وراء البحر.

وبرادل هذا يمثل ملاحقة الجريمة باسم المجتمع ويبداه الاتهام العام الرسمي الخالي من الإنسانية، إنه يمثل القانون وميزان العدالة، وهو الذي يحركه ويبدل قصارى جهده ليجعله راجعاً إلى جانبه. له عينا صقر، يغض جفنيه وينظر إلى بحدة من أعلى عليائه، أولاً من علو منبره الذي يرفعه عني وبهيكله الضخم، إذ لا يقل عن ١٨٠ سم طولاً، مما زاده غطرسة، وهو لا يفارق معطفه الأحمر، ولكنه يضع قلنسوته أمامه ويتكئ على يدين كبيرتين كالخطاط، وفي إصبعه خاتم ذهبي يدل على أنه متزوج، ويتألق في خنصره خاتم على شكل سمار حصان.

انحنى على قليلاً ليكون أكثر أهمية وكأنه يقول لي: «إذا كنت تظن أيها الشهم أنك تستطيع الإفلات مني فأنت على ضلال ووهم، فإن يدي هاتين سوف تمزقك مغالبهما المتأصلة في نفسي، وما كنت مرهوباً في صفوف المحامين ولا معدوداً في القضاء مدعياً عاماً خطراً إلا لأنني لا أدع فريستي تفلت من يدي. ولا أبالي إن كنت مجرمًا أم بريئاً، وكل ما يعني أن استغل كل ما هو ضدك، من مثل سيرتك الفجرية في مونتمارتر والشهادات الصادرة عن الشرطة وتصريحات رجال الشرطة. وبهذه التفاهات المتفرقة التي جمعها قاضي التحقيق سأجعلك إنساناً مكروهاً جداً الأمر الذي سيحمل المحلفين على إخفائك من المجتمع».

هكذا خيل إلي بوضوح وكأنني أسمعه يتكلم حقاً، هذا إن لم أكن في حلم إذ كنت منفعلًا جداً من أكل البشر هذا.

«تصرف أيها المتهم ولكن لا تحاول أن تدافع عن نفسك لأنني سأفقدك إلى طريق العفن. وأمل أن لاتثق بالمحلفين ولا تتوهم. فهؤلاء الرجال الاثنا عشر لا يفقهون شيئاً من هذه الحياة، انظر إليهم وهم مصطفون أمامك تر اثني عشرة قطعة جبن أحضروا إلى

باريس من مقاطعة قصية اشتهر أهلها بالخداع والمراوغة، إنيهم من صغار البرجوازيين والمتقاعدين والتجار، ولا جدوى من وصفهم لك ألا تستطيع أن تفهمهم وقد بلغت خمساً وعشرين سنة عشتها في مونتمارتر؟ إن بيغال والساحة البيضاء في نظرهم أمر رهيب كالجحيم، وكذلك فإنهم ينظرون إلى رواد الليل على أنهم أعداء المجتمع، وهم جميعاً فخورون بأن يكونوا محلفين في محكمة السين، زد على ذلك، وأؤكد لك أن هؤلاء البرجوازيين الصغار مثألون مما هم فيه من ضنك، وأنت شاب وسيم ولا يعجزني أن أعريك أمامهم كأنك دون جوان ليالي مونتمارتر وهكذا سأجعل من هؤلاء المحلفين أعداء لك منذ البداية وأنت الآن في أحسن هندام، وكان ينبغي أن تأتي بملايس رثة، وقد ارتكبت خطأ فادحاً في التكتيك لأنهم سوف يحسدونك على ملايسك. فهم يلبسون على الطريقة السامرية، ويحلمون في ارتداء ملابس يخططها لهم الخياط.»

الساعة الآن العاشرة، وها نحن أولاء مستعدون لافتتاح الجلسة وأمامي ستة قضاة ومدع عام سوف يضع كل قدرته الميكافيلية وذكائه كله في سبيل إقناع المحلفين بأنني مجرم أولاً، وبأن القرار الواجب اتخاذه هو السجن المؤبد أو الإعدام بالمقصلة ثانياً. سيحكمون علي بتهمة قتل أحد المدعومين من الوسط المونمارتري، وليس هناك أي دليل، ولكن «الديوك»^(*) سوف يشتون بأنني مجرم ببراين مزيفة، وسوف يقولون بأن لديهم معلومات سرية لاتدع مجالاً للشك وتحت أيديهم شاهد مهياً سلفاً ويدعى بولان وهو اسطوانة حقيقية مسجلة على رصيف الصاغة ٣٦ وسوف يكون التمثيلية المجدية في إثبات الاتهام. وعندما أصر على إنكاره له يسألني الرئيس بتجرد تام: تقول إن الشاهد كاذب ولكن لماذا يكذب؟

سيدي الرئيس! إذا كنت أمضي الليالي ساهراً مؤرقاً منذ توقيفي وحتى الآن، فليس السبب في ذلك تبكيك الضمير في مقتل رولان لوبوتي إذ لست بالقاتل. ولكن الذي أبحث عنه، هو معرفة السبب الذي يحفز هذا الشاهد على التحامل علي بغير حدود، وكلما تهالكت التهمة وضعفت جاء بعنصر جديد يقويها. ولقد توصلت أيها الرئيس إلى القناة بأن رجال الشرطة قد ضبطوا هذا الشاهد في جرم ما، وأنهم لقاء ذلك ساوموه على أن يشهد ضدي، ووعدوه بإطلاق سراحه عندما يصدر حكمك علي.

ولم ينجب ظني، فهذا الشاهد المائل الآن أمام المحكمة على أنه رجل شريف وغير محكوم بجرم سابق، قد ألقي عليه القبض فيما بعد بتهمة تعاطي المخدرات والمتاجرة بها. حاول الاستاذ هوير الدفاع عني، ولكنه لم يكن على مستوى المدعي العام غير أن الأستاذ بوفي توصل بسخطه أن يوجد بعض العقبات في وجه المدعي العام وللأسف لم يدم ذلك طويلاً فقد أطاحت به براعة براديل في هذا الصراع، فضلاً عن خداعه للمحلفين الذين

(*) يقصد بهم المحلفين. المترجم.

انفخت أوداجهم غروراً بسبب معاملتهم على قدم المساواة معه، ويكونهم مساعدين لتلك الشخصية المؤثرة.

وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً، انتهت لعبة الشطرنج وقيل للمحامي الذي يدافع عني: شاهك مات. وأدانتني المحكمة وأنا بريء...! وهكذا لفظ المجتمع الفرنسي الممثل في شخص المدعي العام براديل، شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، وقد قدم لي الرئيس بيفان هذا الطبق الدسم بصوت لا يتميز بأي طابع.

قف أيها المتهم. فنهضت وقد ران الصمت على القاعة وانقطعت الأنفاس وتسارع خفقان قلبي قليلاً، وكان المحلفون ينظرون إلي ويخفضون رؤوسهم خجلاً. أيها المتهم! لما كان المحلفون قد أجابوا بنعم على جميع الأسئلة، عدا سؤال واحد، وهو المتعلق بالعمد والتصميم، فقد حكمنا عليك بالأشغال الشاقة المؤبدة، فهل لديك ما تقول؟ فلم أحرك ساكناً، وكنت طبيعياً، ولكنني شددت قبضتي قليلاً على قضيب القفص الذي كنت أستند إليه، وقلت: نعم يا سيدي الرئيس، لدي أن أقول إنني بريء، وإنني ضحية مؤامرة بوليسية.

ومن إحدى الزوايا ترامى إلى سمعي همس من سيدات أنيقات مدعوات، كن جالسات خلف المحكمة. ودون أن أرفع صوتي قلت لمن: اسكن أنتن أيتهن السيدات ذوات اللآلئ، لقد جئتن هنا للاستمتاع بانفعالات وخيمة. لقد انتهت اللعبة، جريمة قتل وجد لها رجال شرطتكن ورجال العدل، حلاً، ولحسن الحظ. لذا فأنتن راضيات بذلك. صاح الرئيس: يا حراس قودوا المحكوم.

وقبل أن أغيب عن الأنظار سمعت صوتاً يناديني لاهتم يا زوجي. سوف ألفاك هناك هذه زوجتي النبيلة الجريئة نبئت التي جاءت تعبر لي عن حبها. فصفق لها رجال الطبقة الوسطى من الحاضرين في القاعة. إنهم على بينة من أمر هذه الجريمة.

ولدى عودتنا إلى الغرفة الصغيرة حيث كنا قبل المحاكمة، وضع رجال الشرطة القيد في يدي وربطني أحدهم بسلسلة قصيرة فجعل يدي اليمنى بيده اليسرى. كنا صامتين فكسرت الصمت أذ طلبت من أحدهم لفافة تبغ، فأعطاني المساعد واحدة وأشعلها لي، وفي كل مرة أرفع فيها يدي أو أضعها في جيبتي كان الشرطي يرفع يده أو يخفضها تبعاً لحركتي. دحنت تقريباً ثلاثة أرباع السجارة واقفاً، ولم ينبس أحد بكلمة. وأنا الذي قلت للمساعد وأنا أنظر إليه: إلى الطريق.

وبعد أن نزلنا سلماً مخفوراً باثني عشر رجلاً من الدرك، بلغت ساحة القصر الداخلية وكانت تنتظرنا هناك عربة السجن، ولم تكن من نوع الزنزانة. فجلسنا داخلها على مقعدين طويلين وكنا عشرة. قال المساعد: إلى سجن التوقيف.

سجن التوقيف

عندما بلغنا نهاية قصر ماري انطوانيت سلمني رجال الدرك إلى رئيس الحرس الذي وقع صك الاستلام وانصرفوا ساكتين، غير أن المساعد شد بغتة على يدي المكبلتين بالحديد. سألتني رئيس الحرس:

— كم حكموا عليك؟

— مؤبداً

— غير صحيح! ونظر إلى رجال الدرك وفهم أنها الحقيقة.

وهذا السجن البالغ من العمر خمسين عاماً والذي رأى الكثير الكثير وعرف حكايتي جيداً، قال هذا القول: أه. الأنذال. إنهم مجانين.

ثم إنه أطلق يدي من القيد بهدوء وتلطف بمرافقتي بنفسه إلى زنزانة مفروشة معدة خصيصاً للمحكوم عليهم بالإعدام أو الأشغال الشاقة أو للمجانين والخطيرين، وأغلق الباب دونه وهو يقول: تشجع، وسوف تأتيك حوائجك والطعام من زنزانتك الأولى. تشجع.

— شكراً لك، وثق جيداً أنني شجاع، وأرجو أن يبقى التأييد في حلوقهم.

وبعد دقائق طرق الباب فقلت: من؟ فأجابني صوت:

لا أحد سواي، أنا الذي أحمل البطاقة.

— لماذا، ماذا فيها؟

— أشغال شاقة مؤبدة. تحت المراقبة الدقيقة.

فكرت وقلت في نفسي: إنهم حقاً مجانين. هل يظنون أن الصدمة الدافعة التي نزلت برأسي يمكن أن تهزني وتقودني إلى الانتحار؟ إنني شجاع وسوف أظل شجاعاً، سوف أقارع الجميع وسأبدأ غداً بالتحرك.

وفي الصباح تساءلت وأنا أحسني القهوة، هل أستأنف الحكم؟ لماذا؟ هل تكون لي فرصة أفضل أمام محكمة أخرى؟ وكم يستغرق ذلك من الوقت الضائع؟ سنة وربما سنة ونصف السنة ولماذا؟ ليحكموا علي بعشرين عاماً بدلاً من التأييد؟ وما دمت قد عزمت على الفرار فالوقت لا يهم. وأعادي التذكر إلى قولة أحد المحكومين الذي سأل رئيس المحكمة قائلاً: «سيدي كم تدوم الأشغال الشاقة المؤبدة في فرنسا؟»

أخذت أدور في الزنزانة، ثم بعثت برسالة إلى زوجتي أعزيها ورسالة أخرى إلى إحدى شقيقاتي التي نافحت الجميع وحدها من أجلي.

انتهى الأمر وأسدل الستار، وفوو قرباي يتجرعون مرارة الأسى أكثر منى وأبي المسكين هناك في أقصى الولاية يلقي عناء حمل صليب ثقيل. ارتعشت أوصالي، ولكنني بريء، أنا بريء. ولكن من أجل من؟ نعم من أجل من؟ قلت لنفسى: لاتتسل بترداد البراءة، فإنهم سوف يسخرون منك.

أن ينال المرء حكماً مؤبداً مع الأشغال من أجل أمر تافه، ثم يدعي بعد ذلك أنه غير مذنب، فالأمر سيبدو مضحكاً، لذا فالصمت أجدى.

قبل صدور الحكم، وحينما كنت في سجن التوقيف، لم أفكر كم يكون السجن المؤبد ثقيلاً ولم أكن قد شغلت نفسي من قبل بمعرفة ما عسى أن يكون طريق العفن.

حسناً. ان أول ما ينبغي عمله هو الاحتكاك ببعض المحكومين الذين يحسن اتخاذهم رفاق الهروب في المستقبل. اخترت واحداً مرسلياً واسمه ديغا، وسوف أراه بالتأكيد عند الحلاق. فإنه سيذهب كل يوم ليحلق ذقنه، وسوف أطلب الذهاب إلى هناك، وبالفعل عندما وصلت رأيته ووجهه نحو الجدار. رأيته ينسحب خفية الى ما وراء الشخص الذي يليه حتى يتأخر دوره أكبر قدر ممكن. ثم أخذت مكاني إلى جانبه مباشرة بإزاحة رجل آخر وتم ذلك على وجه السرعة.

— كيف حالك ياديجا؟

— جيد «يا بابي» أنا محكوم بخمسة عشر عاماً وأنت؟ بلغني أن ثمنك كان غالياً.

— أجل — مؤبد.

— هل تنوي الفرار؟

— لا. ما يجب عمله هو الأكل الجيد، والرياضة البدنية. كن قوياً ياديجا ولسوف

نحتاج إلى عضلات قوية. هل لديك مال؟

— نعم. عندي عشرة آلاف فرنك بالعملة الأسترلينية. وأنت؟

— لا شيء.

— نصيحتي لك أن تتزود بالمال حالاً.

— هل محاميك هوير؟ إنه أبله، لن يستحصل لك على الأنوبة، أبلغ زوجتك ان

تذهب بالانوبة وفيها المال إلى داتته ولتودعه عند دومينيك الغني وأنا كفيل بوصوله إليك.

— صه. إن الحارس ينظر إلينا.

— إذن نستطيع الثروة.

— أوه لا شيء خطير، قال لي إنه مريض.

— ماذا به؟ سوء هضم في الجلسات.

وانفجر الحارس الضخم ضاحكاً.

هذه هي الحياة. ها أنذا في طريق العفن. يضحكون عالياً وهم يتندرون بفتى في

الخامسة والعشرين حكم عليه بالسجن مدى الحياة.

وحصلت على الأنوبة وهي مصنوعة من الألمنيوم وقد صقلت باعتناء وتفتتح بفمها

من الوسط بالضبط. لها طرف مذكر وطرف مؤنث وتحتوى على خمسة آلاف وستمائة فرنك بأوراق جديدة، وعندما سلمت إليّ قبلت طرفها. وهذه الأنوبة لايزيد طولها على ستة سنتيمترات وبضخامة الإبهام. نعم قبلتها قبل أن أضعها في الشرج، وتنفست عميقاً لتصعد في الكولون، إنها خزينتي. وبوسمهم أن يعروني تماماً وأن يبعدوا ما بين ساقي وأن يجعلوني أسعل وأن يشنوني أو يطوروني طياً؛ عبثاً يحاولون معرفة ما إذا كان معي شيء لقد صعدت عالياً في المعى الغليظة فقد صارت جزءاً مني. إنها حياتي، إنها حريقي إنها طريق الثار. . إنني أفكر في الانتقام، ولا أفكر في سوى ذلك. كان الظلام قد أرخى سدوله في الخارج. إنني وحدي في الزنزانة والمصباح الكبير في السقف يتيح للحارس أن يراي من ثقب الباب، والضوء الشديد يكاد يبهري. فوضعت على عيني منديلاً مطوياً فالنور يكاد يخطف بصري. أنا ممدد الآن على فراش فوق سرير حديدي، ولا توجد وسادة، أستعيد تفاصيل هذه الدعوى الرهيبة كاملة ولفهم تنمة هذه الحكاية الطويلة بعمق. ولفهم الأسس التي ساعدتني على الثبات في كفاحي يجب أن أكون أكثر إطالة وسأروي كل ما وقع لي وما رأيت في أيامي الأولى حيث دفنت حياً.

كيف اتصرف عندما أصبح طليقاً؟ وبما أن الأنوبة قد غدت في حوزتي فلا أشك لحظة في أن هروبي قد بات أكيداً.

أولاً سأعود إلى باريس في أسرع ما يمكن. وسوف أقتل أول من أقتل، ذلك الشاهد المزيف بولان، ثم أقتل اثنين من أولئك الحمقى، ولكن اثنين لا يكفيان بل يجب أن أقتلهم جميعاً أو على الأقل أقتل أكبر عدد منهم. وحالما أكون طليقاً سأسلك سبيل العودة إلى باريس وسوف أضع عبوة كبيرة من المتفجرات في صندوق. لا أعلم بالضبط ١٠، ١٥، ٢٠ كيلو. وسوف أقدر كم يلزمي من المتفجرات ليكون عدد الضحايا كبيراً. الديناميت؟ لا. . لم لا تكون المتفجرات مصنوعة من النيترو غليسرين؟ حسناً. لأبأس سوف استشير في ذلك من كان أعلم مني في هذا الشأن. أمّا رجال الشرطة فليطمئنوا إلى حسابهم ولسوف أكرمهم.

أنا دائماً مغمض العينين، والمندبل يضغط على جفني. أتخيل بوضوح الصندوق الذي لا يوحى منظره بالأذى بينما هو مشحون بالمتفجرات، والمنبه منظم بدقة يحرك المفجر في اللحظة الحاسمة، ويجب أن يكون الانفجار في الساعة العاشرة صباحاً في ساحة الشرطة القضائية ٣٦ رصيف الصاغة في الطابق الأول. في تلك الساعة يتواجد هناك ما لا يقل عن مئة وخمسين شرطياً ليأخذوا الأوامر ويستمعوا إلى التقرير. كم درجة ينبغي أن تصعد. حذار من الخطأ. . يجب توقيت الزمن بالدقة اللازمة لكي يصل الصندوق من الشارع إلى المكان المعد له في نفس اللحظة التي يجب أن يتفجر فيها. ولكن من يحمل الصندوق؟

حسناً ساكون آخر من يصل، سأصل في سيارة عامة إلى باب الشرطة القضائية وسأقول لاثنتين من الحراس بصوت متسلط: احملا هذا الصندوق إلى قاعة الإخبار والشهادات وأنا على أثركما، وقولا للمفوض دويون إن المفتش الأول دويوا أرسل هذا، وسأصل على الفور. ولكن هل يطيعان؟ وإذا اتفق أن وقعت من بين كل هؤلاء الحمقى على اثنتين من الأذكياء في هذه المجموعة؟ إذن حبطت الخطة وكبا الجواد. علي أن أجد شيئاً آخر. فتشت وبحث ولم أجد في ذهني ولم أصل إلى وسيلة مضمونة مئة بالمئة.

نهضت لأشرب قليلاً من الماء وشعرت بالصداع من شدة التفكير، ثم عدت إلى الاستلقاء دون عصابة على عيني وكانت الدقائق تمر بطيئة. وهذا النور... هذا النور يا إلهنا الطيب، يا إلهنا الطيب! بللت المنديل وأعدته. والماء البارد أنعشني، وبثقل الماء التصق المنديل بجفني أكثر من ذي قبل. سوف استخدم هذه الطريقة بعد الآن. فهذه الساعات الطويلة التي كنت أخطط فيها للانتقام في المستقبل كانت عصبية إلى درجة كنت فيها أتحرك وكأن الخطة قيد التنفيذ.

كل ليلة وفي قسم من النهار كنت أسرح في باريس كما لو أن أوهامي غدت واقعاً. بكل تأكيد سأهرب وأعود إلى باريس. وواضح أن أول عمل أقوم به هو إجراء الحساب مع بولان أولاً ويأتي بعده دور الدجاجات رجال الشرطة ثم المحلفين. هل تستمر حياتهم هادئة؟ لا بد أنهم عادوا أدراجهم إلى أماكنهم. هؤلاء المتداعون المنتعمون بشعور الرضى والارتياح لأنهم أنفوا مهمتهم بنجاح، تهتز أعطافهم غروراً وإحساساً بالاهمية أمام جيرانهم ومعارفهم ومواطنيهم الذين ينتظرونهم شعث الشعور ليلتهموا الحساء. حسناً. وهؤلاء المحلفون ماذا أفعل بهم؟ لا شيء. إنهم أغبياء، مساكين لم يكونوا قد أعدوا للقضاء، فالدركي المتقاعد يتصرف كالدركي، والجمركي يتصرف كالجمركي، وبائع الحليب كأى فحام. إنهم خضعوا لمشية المدعي العام الذي لم يجد مشقة في وضعهم في جيبه. فليسوا حقاً مسؤولين. هكذا تقرر كل شيء ونظم وقضي فيه، فلن ألحق بهم أذى.

قلت لنفسي وأنا أكتب هذه الأفكار كلها والتي سيطرت علي منذ سنوات عدة والتي عاودتني بغزارة ووضوح عجيب: إلى أي مدى يمكن أن يؤثر الصمت المطبق والعزلة التامة المفروضة على رجل في مستقبل العمر، محصور في زنزانة وماذا يمكن أن تترك الحياة العنيفة قبل التحول إلى الجنون؟ يخلق حيث يطيب له التحليق: في بيته، عند أمه وأبيه في مراحل حياته المختلفة وبخاصة في (قصور أسبانيا) التي يبدعها خياله الخصب، يبدعها بشكل حيوي بعيد عن التصديق، وبهذا الانقسام الفظيع يصل إلى الظن بأنه يعيش بكل ما كان يحلم به. ستة وثلاثون عاماً مرت، ومع ذلك فإن قلبي يسيل بدون عناء ليرسم ما فكرت فيه حقاً في تلك الفترة من حياتي.

لا. لن الحق بالمحلفين أي أذى. أما المدعي العام فهو الذي يجب أن أزيله من الوجود. له عندي وصفة جاهزة، وصفها الكسندر دوماس في رواية مونت كريستو تماماً كما حصل مع الشخص الذي وضع في كهف وترك يفتس جوعاً.

هذا القاضي مسؤول. هذا الصقر المتري بالأمر جدير بأن أنفذ فيه أشنع ما يمكن من الانتقام. وهكذا بعد بولان، ورجال الشرطة ساهتم بوجه خاص بهذا الوحش الكاسر.

سوف أكتري دارة (فيلاً). ويجب أن يكون فيها قبو عميق بجدران سمكية وباب ثقيل جداً وإذا لم يكن الباب سميكاً بالقدر الكافي سدده بنفسي بالألواح. وبعد أن أستأجر الدارة سوف أحاصره وأختطفه، بعد أن أكون قد ثبت في الجدار حلقات لأقيده بها في الحال، وعند ذلك يكون لي أنا الحساء اللذيذ وأنا في مواجهته، وسوف أهدق فيه بدقة تحت أجفاني المغمضة. أجل سأنظر إليه بالطريقة نفسها التي كان ينظر بها إلي في المحكمة. المشهد جلي واضح إلى درجة أحس فيها بحرارة أنفاسه في وجهي لأنني قريب جداً وجهاً لوجه ونكاد نتلامس.

وتلتصع عيناه كعيني الباز وهما مجنونتان بفعل الضياء الشديد الذي أسلطه عليه وكأنه صادر عن منار فيتفصد عرقاً، وتسيل حبات العرق كبيرة على وجهه المحتقن بالدماء.

أسمع استثنائي وأصغي إلى إجاباته وأعيش هذه اللحظة بعنفها.

أها القذرا! هل تذكرتي؟ هذا أنا بابيون الذي دفعت به وأنت مبتهجة إلى الأشغال الشاقة المؤبدة. هل تعتقد بأن هذا يساوي تلك السنوات التي قضيتها في تثقيف نفسك ثقافة عالية؟ وما أمضيت من الليالي ساهراً على القوانين الرومانية وغيرها؟ وما تعلمت من اللغة اللاتينية واليونانية؟ وما كرسيت من سني شبابك لتصبح خطيباً عظيماً؟ ما هدفك؟ أيها اللثيم! هل أبدعت قوانين اجتماعية خيرة وجديدة؟ هل اقنعت الجماهير بأن السلام هو أفضل الأشياء في العالم؟ هل تصيدت فلسفة من دين باهر؟ أو بكل سذاجة، هل أثرت في الآخرين بسمو إعدادك الجامعي ليكونوا أفضل أو ليتوقفوا عن الشر؟ قل لي هل استخدمت علمك في إنقاذ الرجال أم في إغراقهم؟ لم تفعل ذلك البتة ولا شيء من ذلك.

حافظ واحد كان يحركك. هو أن تصعد وتصعد، أن تصعد سلم حرفتك المقرزة للنفس. المجد عندك أن تزود السجون بالرجال، وأن تمد بهم الجلادين والمقاصل باستمرار. لو كان ديبلر ممن يعترفون بالجميل ولو قليلاً لوجب عليه في نهاية كل سنة أن يبعث إليك بصندوق من الشمبانيا الفاخرة أليس بفضلك أيها الخنزير زاد عدد من قطع رؤوسهم هذا العام خمسة أو ستة على أية حال أنا الذي أمسك بك هنا مقيداً إلى الجدار بقوة، وأرى ثانية ابتسامتك. نعم أرى ابتسامة الظفر التي ارتسمت على وجهك حين لفظ القاضي حكمه علي استناداً إلى تحقيقاتك.

وتراى لي أن هذا قد حصل بالأمس فقط. ومع ذلك كان هذا منذ سنوات، منذ كم سنة؟ منذ عشر سنوات؟ عشرين سنة؟

ولكن ما الذي جرى لي؟ تحسس نفسك يا بابيون أنت قوي، لماذا عشر سنوات ولماذا عشرون؟ أنت شاب في ريعان الصبا، وفي أحشائك ٥٦٠٠ فرنك. أقسمت معاهداً نفسي أن لا يطول الأسر أكثر من عامين.

ستغدو أبله يا بابيون! فهذه الزنزانة وهذا الصمت سيوديان بك إلى الجنون.

لم يبق عندي سجائر، أشعلت آخرها أمس. سأتمشى، ولست في حاجة إلى أن أغمض عيني ولا أن أضع المنديل عليها لرؤية ما سوف يجري، لذا نهضت. طول الزنزانة أربعة أمتار، أي خمس خطوات من الباب إلى الجدار. بدأت السير وقد تشابكت يداي خلف ظهري وعدت أدراجي.

حسناً. فكما قلت لك، أراك بجلاء تام وأرى ابتسامتك الظافرة، وسوف أحولها إلى ابتسامة صفراء، ولكن حالك أحسن من حالي إذ لم يكن باستطاعتي أن أصرخ، أما أنت فتستطيع ذلك. اصرخ، اصرخ كما تشاء وبأشد ما تستطيع. ماذا أفعل بك؟ وصفة دوماس؟ أتركك تموت جوعاً؟ لا. هذا لا يكفي. أولاً أفقأ عينيك. لا تزال تبدو متصراً، لأنني لو فقت عينيك فإنك تريح فرصة عدم مشاهدتي، ومن ناحية أخرى سأحرم نفسي من الاستمتاع برؤية ما ينعكس على حذقتيك. أجل سأترك لك عينيك.

أرغب في أن أقطع لسانك الرهيب اللاذع كالسكين بل هو أكثر من سكين، إنه كموس الحلاقة. هذا اللسان الفاجر الذي أذلكته في حرفتك المجيدة. نفس اللسان يقطر حلوة للزوجة والغلمان والعشيقة أنت تعشق؟ أو بالأحرى أمعشوق أنت؟ نعم. وأنت لا يمكن إلا أن تكون مفعولاً بك. بكل تأكيد يجب أن أقطع لسانك لأنه المنفذ لأفكارك وتعرف كيف تحركه. أقنعت هيئة المحكمة بالإجابة بنعم على أسئلتك. وبفضل هذا اللسان صورت رجال الشرطة قديسين، كرسوا أنفسهم للحق، ويتفاحة شاهد جعلت التاريخ يقف على رجليه. وبفضل هذا اللسان أيضاً جعلت المحلفين الاثني عشر ينظرون إلي وكأنني أخطر رجل في باريس. ولولا هذا اللسان الذرب الماكر القادر على الإقناع المتمرس بتشويه الناس والوقائع والأشياء، لكنت حتى الآن جالساً في المقهى الكبير على الساحة البيضاء، وليس ثمة ما يحركني من هناك. طيبعي أن أنتزعه ولكن بأية آلة؟

مشيت ومشيت حتى ضقت ذرعاً، ولكنني أتخيله أمام وجهي، وانطلقاً الضوء فجأة وبدأت خيوط الفجر تدخل إلى غرفتي من النافذة. كيف؟ هل نحن في الصباح؟ بعد أن أمضيت الليل أحلم في الانتقام، ما أسعدها من ساعات قضيتها هذه الليلة الطويلة وما كان أقصرها. أرهفت السمع وأنا على السرير، فالصمت مطلق إلا من صوت (تيك) من حين لآخر على بابي. هذا هو الحارس الذي كان يرتدي خفاً حتى لا يثير الضجة، والذي جاء يرفع مغلاق الثقب الصغير ويلصق عينه عليه ليأني دون أن أراه.

فالالة التي تفهمها الجمهورية الفرنسية هي الآن في مرحلتها الثانية، فهي تعمل

بصورة تدعو إلى الإعجاب، ففي المرحلة الأولى أزاحت رجلاً كان يمكن أن يسبب لها الضرر والمتاعب، ولكن هذا لا يكفي، فلا ينبغي لهذا الرجل أن يموت بسرعة، ولا ينبغي أن يفلت منها بالانتحار. فهي تحتاج إليه، إذ ما فائدة إدارة السجون التأديبية، إذا لم يكن هناك سجناء؟ ويستحسن أن نراقبه ونرسله إلى السجن ليكون السبب في رزق موظفين آخرين.

والعودة إلى الصرير أضحكتني. لا تشغلن بالك، أيها الحارس، ولا داعي لذلك، فانا لن أهرب منك، وعلى الأقل ليس بهذه الطريقة تخشى علي من الانتحار ولا أطلب سوى شيء واحد هو الاستمرار في الحياة بصحة جيدة قدر الإمكان وأن أسرع إلى غويان الفرنسية حيث والحمد لله سترتكون حماقة بإرسالي إليها واعلم يا حارس السجن الذي يحدث صوت (تيك) في كل لحظة أن زملاءك ليسوا من خدم الكاهن في القديس. أنت والد طيب بالنسبة إلى الحراس هناك. أعرف ذلك منذ زمن طويل فنباليون عندما أوجد سجن الميناء، سألوهم من تتخذ من الحراس على هؤلاء المجرمين؟ قال: ألتخذ حراساً أكثر إجمالاً منهم. وبالتالي أدركت أن مؤسس سجن الميناء لم يكذب.

كلاك، كلاك وانفتحت كوة في وسط بابي عشرون ستمتراً وكذلك حُرّضها، وقدموا لي القهوة وكرة من الخبز وزنها سبع مئة وخمسون غراماً، وبما أنني محكوم فليس لي الحق بالمطعم. ولكن أستطيع بالشراء الحصول دائماً على علبة السجائر وبعض الزاد من دكان متواضع؛ خلال بضعة أيام لن أحصل على شيء فسجن التوقيف هو المدخل إلى الانفرادي.

أدخن لاسي سترايك بلدة، وثمن العلبة منه ٦,٦٠ فرنكات وقد اشترت منه علبتين، وأنا أنفق من مدخراتي لأنها ستؤخذ مني لتسديد نفقات الدعوى. أبلغني ديغا على ورقة مدسوسة في الخبز أن أذهب إلى مكان التنظيف والتعقيم: وفي علبة الكبريت ثلاث قملات، فأخرجت الأعواد فوجدت القملات سميكة وأعرف ماذا يعني هذا. سأطلع المراقب عليها، وهكذا فإنه سيرسلني في الغداة مع كل حوائجي بما في ذلك الفراش إلى قاعة التخيير لقتل الجراثيم فقط لا قتلنا نحن بكل تأكيد. وفعلاً في اليوم التالي وجدت ديغا هناك ولا مراقب في قاعة البخار ونحن وحدنا.

شكراً لك يا ديغا، بفضلك حصلت على الأنبوبة.

— ألا تضايقتك؟

— لا.

— في كل مرة تذهب فيها إلى المرحاض، اغسلها جيداً قبل إعادتها.

— نعم. إنها محكمة الإغلاق، على ما أعتقد، لأن الأوراق المطوية فيها كطيات

الأكورديون، بحالة جيدة. هذا وقد مضى على حملي لها سبعة أيام.

— إذن الحال على ما يرام.

— ماذا تنوي أن تفعل يا ديغا.

— سأنتظر بالجنون لأنني لا أنوي ولا أريد الذهاب إلى سجن الميناء وربما أمضيت

في فرنسا ثمانية أعوام أو عشرة، ولي علاقات قد تمكنتني من الحصول على عفو عن خمس سنوات على الأقل.

— ما سنك؟

— اثنان وأربعون عاماً.

— أنت مجنون. لو أنك أمضيت عشر سنوات من أصل خمس عشرة سنة فسوف

تخرج هراً. هل تخشى الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقة؟

— أجل. أخاف من سجن الميناء ولا أخجل من الاعتراف لك بذلك. الوضع في

غويان رهيب، ففي كل عام ينقص عدد السجناء بنسبة ثمانين بالمئة، فوج يتبعه فوج، وكل فوج يتراوح عدده بين ألف وثمان مئة، وألفي رجل. فإن لم يصبك الجذام أصابتك الحمى الصفراء أو الزحار الذي لا يمهل، أو السل، أو الحمى المستتعية أو الملاريا وإذا نجوت من هذا كله فإن فرصاً عديدة ستتاح لقتلك من أجل الحصول على ما تملك، أو أن تموت في حجر من الجحور.

صدقني يا بابيون لا أقول لك هذا لتيأس ولكني عرفت العديد من المحكومين الذين عادوا إلى فرنسا بعد أن أمضوا فترة قصيرة تتراوح بين خمس سنوات وسبع فانا أعرف الحقيقة التي لا ريب فيها. إنهم أشلاء بشرية حقيقية. يمضون في المستشفى تسعة أشهر في العام ويقولون إن الهروب أمر مستحيل، كما يعتقد كثير من الناس.

— أصدقك يا ديغا، ولكنني أثق بنفسي ولن يخيب سعائي. ثق بذلك تماماً. فانا

بحار أعرف البحر، ويمكنك أن تطمئن إلى أنني سأسرع في الهروب. وأنت هل تتصور نفسك تقضي عشر سنوات في الانفرادي؟ حتى ولو أنهم خفضوا لك خمس سنوات، وهذا غير مضمون، هل تعتقد أنك قادر على احتمالها قبل أن يصيبك الجنون بسبب العزلة التامة؟

أما أنا في الساعة الراحنة، في هذه الزنزانة، دون كتب ودون خروج ودون التكلم مع أحد فإنني أضرب الأربع والعشرين ساعة يومياً بستين دقيقة بل بست مئة، ومع ذلك ستبقى بعيداً عن الحقيقة.

— هذا ممكن. إنما أنت شاب وأنا لي من العمر اثنان وأربعون.

— اسمع يا ديغا. قل لي بصراحة. ما أخشى ما تخشاه؟ ألسنت تخشى السجناء

الآخرين؟

— بصراحة يا بابي! نعم. فكل الناس يعلمون أنني مليونير. لذا فإن احتمال قتلي مجرد الظن بأنني أحمل خمسين ألفاً أو مئة ألف فرنك ليس بعيداً.
— اسمع. هل تريد أن نتفق؟ فلا تصل أنت إلى الجنون وأظل أنا دائماً إلى جانبك نتكاتف معاً؟ أنا قوي وسريع الحركة وتعلمت المصارعة منذ صغري وأحسن استخدام السكين جيداً. إذن فمن جهة المحكومين الآخرين كن مطمئناً. سنفرض احترامنا وسنفرض هيبتنا. أما في الهروب فلنسا في حاجة إلى أحد، عندك مال وعندي مال، وأحسن استخدام البوصلة وقيادة مركب، فماذا تريد فوق ذلك؟

نظر في عيني ثم تعانقنا واتفقنا. وبعد لحظات انفتح الباب فذهب في جهته مع امتعته، وكذلك ذهبت أنا في جهتي ولم تكن متباعدين وصرنا نقابل من حين إلى آخر عند الحلاق، أو عند الطبيب، أو في الكنيسة يوم الأحد.

كان ديغا قد وقع بتهمة تزوير العملة، من قبل الدفاع الوطني، وكان أحد المزورين قد صنعها بطريقة مبتكرة جداً. كان يمسح عن الورقة النقدية الرقم ٥٠٠ فرنك بطريقة متكاملة ويعيد طباعتها بالرقم مئة ألف. وبما أن الورقة هي ذاتها، فإن المصارف والتجار كانوا يقبلونها بكل ثقة ودام ذلك عدة سنوات حتى ضاقت بالدائرة المالية المذاهب. إلى أن أتى يوم أوقف فيه رجل يدعى بريوله، بالجرم المشهود، وكان ديغا، في البار الذي يملكه، آمناً مطمئناً، حيث يلتقي كل ليلة كبار أشرار المسافرين في العالم وكأنهم على موعد عالمي.

كان في العام ١٩٢٩ مليونيراً. جاءته إلى البار في إحدى الليالي، سيدة جميلة صبية ترتدي أحسن الثياب وسألت عن ديغا.

— أنا هو. ماذا تودين؟ تفضلي إلى الغرفة المجاورة.
— أنا زوجة بريوله. هو الآن في سجن باريس، لأنه باع عملة مزيفة التقيت به في غرفة استقبال الصحة، وأعطاني عنوان المشرب (البار) وطلب مني أن أطلب منك مبلغ عشرين ألف فرنك لأدفعها للمحامي.

وعندها، لم يجد أحد كبار الأشرار في فرنسا وهو ديغا، أمام خطر امرأة تعلم دوره في أعمال التزوير، إلا جواباً واحداً، ما كان ينبغي أن يبيحه ولا أعرف زوجك مطلقاً، وإذا كنت في حاجة إلى المال، فما عليك إلا أن تسلمي نفسك للرجال، فسوف تكسبين فوق حاجتك وخاصة أن لك مثل هذا الجمال.

وهرعت المسكينة مغتابة والدمع ملء عينيها، ثم ذهبت إلى زوجها تروي له ما حصل؛ وفي اليوم التالي سرد بريوله للقاضي — وقد استفزه الحق — كل ما لديه من معلومات، متهمًا ديغا بشدة بأنه الرجل الممول للأوراق النقدية المزيفة.

فخضع ديفاً لمراقبة وملاحقة مجموعة من أكفأ رجال الشرطة في فرنسا، وبعد شهر كان ديفاً والمزور والطابع وأحد عشر من مساعديهم في قبضة العدالة في ساعة واحدة، وفي أماكن متعددة. وأودعوا السجن، ومثلوا أمام محكمة السين، وقد دامت المحاكمة أربعة عشر يوماً، وقد دافع عن كل متهم محام عظيم وبريوليه مصرّ على أقواله وكانت النتيجة أنه من أجل عشرين ألف فرنك وكلمة نابية حمقاء أن تحطم ديفاً وكأنه زاد عشر سنوات عمراً، وحكم عليه بخمس عشرة بالأشغال الشاقة. هذا هو الرجل الذي عقدت معه اتفاقاً على الموت والحياة.

حضر الأستاذ ريمون هوبير المحامي ليراني. لم يكن حاد الذكاء ولكنني لم أوجه إليه أية كلمة عتاب.

واحد، اثنان، ثلاثة، نصف دورة. وهكذا كنت أذرع أرض الزنزانة جيئة وذهاباً من النافذة إلى الباب ولعدة ساعات. أذخن وأحس بالثقة والائتزان وبالقدرة على احتمال أي شيء. وقد عاهدت نفسي أن لا أفكر في الوقت الحاضر بالانتقام.

المدعي العام، لندعه عند النقطة التي تركته فيها مربوطاً بحلقات الجدار في مواجهتي، دون أن أحزم أمراً في طريقة قتله.

وفجأة انطلقت صرخة يائسة حادة محزنة جداً، وصلت إلي عبر الباب كأنها صرخات رجل يعذب مع أننا لسنا في شرطة العدل هنا. وما من وسيلة لمعرفة ما يجري، وقد قلبت هذه الصرخات في الليل كياني.

لا غرو في أن هذه الصرخات شديدة حتى اخترقت بابي المبطن. ربما كانت صرخات مجنون. ومن السهل تخمين ذلك في هذه الزنزانات حيث لا شيء يصل إليك. كنت أخطب نفسي بصوت مرتفع: وأنت ماذا يهمك؟ فكر في نفسك، لا شيء غير نفسك وغير شريكك الجديد ديفاً. كنت أهبط وأعلو وقد وجهت ضربة من يدي إلى صدري وآلمت نفسي جداً، إذن كل شيء على ما يرام، فعضلات ذراعي تعمل بشكل جيد، وساقاي؟ هنياً لهما لأنني أمشي منذ أكثر من ست عشرة ساعة دون أن أتعب.

اخترع الصينيون قطرة الماء التي تنزل على رأسك، والفرنسيون هم الذين اخترعوا الصمت، لقد طرحوا كل وسيلة للتسلية، لا كتب، ولا ورق، ولا قلم، والشباك ذو القضبان الضخمة، مسدود بالواح فيها بعض الثقوب التي تسمح بمرور قليل من بقع الضوء كأنها نفذت من غربال.

كنت كثير الانفعال بتلك الصرخة التي تمزق القلب. أدور كالوحش في القفص حقاً، عندي الاحساس بأنني منبوذ من الجميع، ووجدت نفسي مدفوناً حياً، أجل أنا وحيد، وكل ما حصل لن يكون سوى صرخة.

فتح الباب، ودخل خوري عجوز، ولست الآن وحدي فعندي خوري هنا أمامي .
- مساء الخير يا ولدي . اعذرني لتأخري بالقدوم إليك أذ كنت في إجازة . كيف
حالك؟

دخل الخوري المعجوز الطيب دون تكلف وجلس ببساطة على فراشي الحفير.

- من أين أنت؟

- من أرديش .

- أبوك؟

- ماتت أمي عندما كنت في الحادية عشرة وأبي أحبني كثيراً .

- ماذا كان يشتغل؟

- مدرساً .

- هل هو على قيد الحياة؟

- أجل .

- لماذا تتكلم عنه في الماضي ما دام حياً؟

- لأنه إذا كان حياً فأنا ميت .

- أوه ! لا تقل هذا . ماذا فعلت؟

وفي لمح البرق فكرت بأنه من السخف أن أدعي البراءة فأجيب بسرعة :

- قال رجال الشرطة بأنني قتل رجلًا، وإن هم قالوا ذلك، فيجب أن يكون هذا
صحيحاً .

- هل كان المقتول تاجراً؟

- لا . كان قوَّاداً .

- أمن أجل عملية لصوصية حكموا عليك بالأشغال الشاقة المؤبدة؟ لا أفهم هل

هو اغتيال؟

- لا . قتل عن غير عمد .

- غير معقول يا ولدي المسكين ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك . هل تصلي معي؟

- يا سيدي الخوري ! ما تلقيت تعليماً دينياً لذا فأنا لا أعرف كيف أصلي .

- لا بأس يا ولدي، سأصلي من أجلك . إلنا الطيب يحب أولاده جميعاً من تعمّد

منهم أم لم يتعمّد . سوف تكرر كل قول أقوله . هل تريد؟

عيناه تفيضان بالعدوية، ووجهه الكبير يطفح بالطيبة المشرقة، فأحسست بالحنج من
الرفض . فلما ركع ركعت مثله : «أبانا الذي في السماء...» ودعا وصلى ثم لم أنمالك عن
البكاء . والاب الطيب الذي رأى دمعي، تناول عن وجهي دمعة كبيرة وحملها إلى شفتيه
وشربها وقال :

— ودموعك يا بني بالنسبة إلي مكافأة كبرى من الرب أرسلها لي عن طريقك.
شكراً ثم قلبي في جيبي وهو ينهض. نحن الآن على السرير من جديد جنباً إلى جنب.
— منذ متى لم تذرف دموعك؟
— من أربعة عشر عاماً؟
— أربعة عشر عاماً؟ لماذا؟
— يوم وفاة أمي.
— أخذ يدي في يده وقال: اصفح عن الذين تسببوا لك في الألم.
وسرعان ما سحبت يدي من يده وبوثة واحدة كنت في وسط الزنزانة بصورة لا
شعورية.

— آه. لا. إلا هذا. لن أصفح أبداً. وهل تريد يا أبت أن أسرك بشيء؟ في كل
يوم وليلة وفي كل ساعة ودقيقة، أمضي وقتي في تدبير: متى وكيف وبأية طريقة أستطيع
قتل الأشخاص الذين قادوني إلى هنا.
— أنت تقول هذا يا بني وتؤمن به. أنت شاب في ريعان الصبا. ففي عمرك
المقبل سوف تعدل عن المعاقبة والانتقام.
وهانذا بعد أربع وثلاثين سنة أفكر مثله.
وأعاد القول ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟
— هل تسدي لي خدمة؟
— ما هي؟

— أن تذهب إلى الزنزانة ٣٧ وتقول لديغا، أن يطلب عن طريق محامي، نقله إلى
مركز (كان) وأن تخبره بأنني طلبت اليوم ذلك. يجب أن نرحل بسرعة من سجن التوقيف
إلى أحد المراكز، حيث يتم تأليف الأفواج الذاهبة إلى غويان إذ لوفاتنا المركب الأول
لوجب أن تنتظر سنتين أخريين في السجن الانفرادي قبل أن يأتي مركب آخر. وبعد أن
تراه يا سيدي الخوري يجب أن تعود إلى هنا.
— وبأية حجة أعود؟

— بحجة أنك نسيت كتاب فروض الدين مثلاً، أنا بانتظار الجواب.

— ولم أنت مستعجل في الذهاب إلى هذا الشيء الزهيب الذي يسمونه سجن
الميناء.

نظرت إلى هذا الخوري الرسول الحقيقي من عند الله وأنا واثق من أنه لن يخونني.
وقلت: لأتمكن من الهروب بأسرع ما يمكن يا أبت.

— إن الله سيكون في عونك، أنا واثق من ذلك، وسوف تبدأ حياة جديدة. لدي
إحساس بهذا، تنبؤ عينك عن إنسان طيب وقلب نبيل. سأذهب إلى الرقم ٣٧. وانتظر
مني الجواب.

ولم يلبث أن عاد. لقد وافق ديفاً. وترك الخوري كتابه حتى اليوم التالي. أي شعاع شمس أضاء اليوم زنزاني؟ وبه كل شيء كان مضاء بفضل هذا الرجل إذا كان الإله موجوداً فلماذا يسمح بوجود كائنات بشرية على الأرض، متفاوتة جداً: النائب العام، الشرطة، بولان، ثم الخوري، خوري سجن التوقيف. إن زيارته أحسنت إليّ وخدمتي كثيراً.

الجواب عن الطلبات لم تطل كثيراً. فبعد أسبوع تواجد سبعة رجال في الساعة الرابعة صباحاً مصطفين في عمر السجن، والحراس كانوا حاضرين على أتم استعداد.

خلعنا ملابسنا ببطء، وتعرينا، وكان الطقس بارداً، وكان جسمي مثل لحم الدجاج، وقيل لنا: «اتركوا حوائجكم أمامكم واستديروا نصف دورة وسيروا خطوة إلى الخلف».

ووجد كل واحد منا نفسه أمام صرة. وصدر أمر بارتداء الملابس. قميصي الحريري الذي كنت ألبسه حل مكانه قميص واسع مصنوع من كتان خام قاس، واستبدلت ببذلي الجميلة سترة وينطالاً من الصوف الخشن، واختفى حذائي فوضعت قدمي في قبقاب.

إلى ذلك اليوم كان لنا مظهر الرجل العادي. نظرت إلى الآخرين فكان منظرهم يثير الاشتماز. لقد انتهت شخصية كل واحد منا وفي دقيقتين تحولنا إلى نزلاء سجن الميناء. — إلى اليمين، إلى الاصطفاف، إلى الأمام سر.

وصلنا إلى الساحة مخفوريين بعشرين حارساً، وأدخلونا مترادفين إلى خزائن ضيقة في عربة انفرادية. كنا في طريقنا إلى بوليو وهو اسم المركز في (كان).

السجن المركزي في كان

ما كدنا نصل حتى أدخلنا إلى مكتب المدير الذي كان يتربع على أثاث ملكي، على منصة ارتفاعها متر.

— احترسوا فإن المدير سيحدثكم.

— أيها المحكومون! أنتم هنا بصفة ودیعة، ريثما يتم ترحيلكم إلى سجن الميناء. هذا منزل قوة والصمت إجباري في كل لحظة. لا تتوقعوا زيارة ولا رسالة من أحد. هناك وسيلتان لخدمتكم، إحداها تودي بكم إلى سجن الميناء، هذا إذا سلكتم سلوكاً

حسناً، والأخرى تؤدي بكم إلى المقبرة، في حال سوء السلوك. والمتبع عندنا هو ما يلي: أقل هفوة تصدر عن أحدكم سوف يكون عقابها ستين يوماً في حبس مظلم لا تحصلون فيه على غير الخبز والماء. لم يستطع أحد أن يقاوم عقوبتين متتاليتين فيه. تحيي للمستمتع الطيب.

ثم توجه بالخطاب إلى بييرو المجنون الآتي من اسبانيا وقال له:

— ماذا كانت مهنتك في الحياة العامة؟

— مصارع ثيران، يا سيدي المدير.

فصاح وقد أثاره الجواب إلى درجة الجنون:

— أبعادوا عني هذا الرجل.

وفي أقل من دقيقتين كان أربعة أو خمسة من الحراس ينهالون ضرباً على رأس مصارع الثيران هذا، ثم حمل بعيداً منا على عجل سمعناه يصرخ ويشتم.. ويقول: خمسة مقابل واحد؟ ومعهم أيضاً مقامع؟ يا للأندال!

ثم علت صيحة حيوان جريح مشرف على الموت ثم تلاشى كل شيء، ما عدا احتكاك شيء يجر على الأرض.

إذا لم نفهم شيئاً بعد هذا المشهد فلن نفهم شيئاً. كان ديغا بجاني فلمس بنطالي بطرف إصبعه وفهمت قصده، وكأنه يقول لي: اثبت جيداً إذا أردت الوصول حياً إلى سجن الميناء.

بعد عشر دقائق ألقى كل واحد منا نفسه في زنزانه في المعسكر التأديبي في المركز، ما عدا بييرو المجنون الذي أنزل إلى سجن معتم رهيب تحت الأرض وشاء الحظ أن يكون ديغا في زنزانه مجاورة لي.

منذ قليل عرضنا على رجل أحمر الشعر عملاق طوله مئة وتسعون سنتراً أو يزيد. وهو أعور ويحمل بيده اليمنى سوطاً من عصب الثور. إنه السيد هنا. إنه سجين، ولكنه موظف في التعذيب بأوامر الحراس، إنه الرعب والهول للمحكومين ويستفيد منه الحراس في جلد وضرب الرجال دون أن ينالهم التعب، هذا من جهة، وفي حال الوفاة فلا يحملون تبعه ذلك أمام الإدارة. عرفت قصة هذا الوحش البشري فيما بعد عندما قمت بدورة تمرير قصيرة. هنئاً لمدير المركز بحسن اختياره جلاده.

كان هذا الرجل عاملاً في مقلع للحجارة وقد عزم في أحد الأيام الجميلة على الانتحار، حيث كان يعيش في مدينته الصغيرة في الشمال، كما عزم في الوقت نفسه على قتل زوجته، مستخدماً في ذلك اصبعاً ضخمة من الديناميت، وكانا يقطنان في الدور الثاني من بناء مؤلف من خمسة أدوار. كانت امرأته نائمة حين أشعل لفاقه وأحرق فتيل

الديناميت الذي كان يمسكه بيده اليسرى، وكان الانفجار عنيفاً والحصيلة كما يلي: تمزقت زوجته إرباً إرباً وجمعت أشلائها بالملقعة، وانهار جزء من البناء وقتل ثلاثة أطفال تحت الانقاض، وكذلك قتلت امرأة عجوز عمرها سبعون عاماً، وتفاوت جراح الآخرين في الخطر. أما هو فقد خسر قسماً من يده اليسرى فلم يبق له منها سوى الخنصر ونصف الإبهام، كذلك أصيبت عينه اليسرى وأذنه اليسرى كما أصيب بكسر في رأسه ترك نفرة في مؤخرة الجمجمة. ومنذ أن حكم عليه وهو هنا سيد المحكومين في زنانات هذا المركز، ونصف المجنون هذا يستطيع أن يتحكم في رقاب التعساء الذين يقعون تحت يديه، كما يحلو له...

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.. وتبدأ حركة المجيء والذهاب ولا تنتهي، من الجدار إلى باب الزنانة. وقد حرم علينا الاستلقاء أثناء النهار.

يصبحو الجميع منذ الساعة الخامسة صباحاً على صوت صفارة حادة. وينهض الواحد منا فيرتب سريره ويفتسل، ثم يمشي أو يجلس أمام منضدة صغيرة مثبتة بالجدار.

وثالثة الاثافي في هذا النظام أن السرير يرتفع مطوياً نحو الجدار، ويبقى معلقاً، وبهذه الطريقة لا يستطيع السجين أن يتمدد وفي وسعهم مراقبته بصورة أفضل.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، واستمر في السير أربع عشرة ساعة. وللوصول إلى آلية هذه الحركة الدائرية، ينبغي التدريب على خفض الرأس، واليدان خلف الظهر، والمشي لا ريث ولا عجل. وينبغي أن تكون الخطوات متساويات المسافة، ثم أدور آلياً إلى طرف الزنانة على القدم اليسرى، وإلى الطرف الآخر على القدم اليمنى. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. الزنانات هنا أحسن إضاءة مما كانت عليه في سجن التوقيف. نسمع من الخارج ضجيج المعسكر التأديبي، كما يأتينا صخب بعضهم من الريف وخاصة في الليل إذ يصل إلى سمعنا صفير العمال أو غناؤهم وهم في طريق عودتهم إلى منازلهم مغتبطين بعد أن شربوا كأساً من عصير التفاح. تلقيت هدية عيد الميلاد من شق كان في الألواح التي تسد النافذة فرأيت الريف مكللاً بالثلج الناطع البياض. والقمر الفضي يلقي ضوءه على بعض الأشجار السامقة القائمة، حتى لكان المشهد بطاقة بريدية نموذجية لعيد الميلاد. تحركت الريح فهزت الأشجار فنضت عنها معطفها الأبيض فبرزت فروعها عارية.

عيد الميلاد لكل الناس، وهو عيد ولو في ركن صغير من السجن. إن الإدارة تكرمت بالسماح للسجناء بشراء قطعتين من الشوكولا. أقول قطعتين لا قرصين من الشوكولا. وهاتان القطعتان كانتا لنا عشاء العيد للعام ١٩٣١.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. لقد حولني قمع العدالة إلى رقاص ساعة، فالذهاب

والإياب في الزنزانة هما كل عالمي. لا شيء البتة يسمح به في الزنزانة. ولا يحق للسجين أن يتسلل بأي شيء، ولو أنهم فاجؤوني وأنا أنظر من خلال الشق الخشبي في النافذة لأنزلوا بي عقاباً صارماً. وفي الواقع ألم يكونوا على حق؟ إذ ما أنا في نظرهم سوى ميت حي. فبأي حق أسمح لنفسي بالاستمتاع بمنظر الطبيعة؟

رأيت فراشة تطير، لونها أزرق صافٍ فيه خط أسود. وهذه نحلة تطن غير بعيدة عنها وكلتاها قرب النافذة. عمّ تبحث هاتان الحشرتان في هذا المكان؟ فكأنهما جتا بشمس الشتاء. هذا إن لم تكونا مقرررتين^(١) وترغبان في دخول السجن. فراشة في الشتاء؟ إنه البعث. كيف لم تمت؟ وهذه النحلة لماذا تركت خليتها؟ إن الاقتراب من هنا عمل طائش.

ومن حسن طالعهما أن السيد ليس له جناحان وإلا لما عاشتا طويلاً. نرو بيارد هذا سادي فظيع، وبالحدس تكهنت أن شيئاً ما سيحدث بيننا. ومن سوء الحظ أن إحساسي لم يخطئ.

وفي اليوم التالي من زيارة هاتين الحشريتين الساحرتين تمارضت. إذ نفذ صبري، وكدت أختنق من الوحدة، واشتقت إلى سماع أي صوت، إلى رؤية أي وجه ولو كان قبيحاً.

عروني في الممر عرياناً تماماً في هذا البرد القارس، ووجهي نحو الجدار على بعد أربع أصابع فقط منه. كنت قبل الأخير بين المصطفين الثمانية أنتظر دوري ليكشف علي الطبيب. كنت أريد أن أرى الناس ونجحت. فأجابني السيد وأنا أهمس بضع كلمات في أذن جولو الملقب بالرجل ذي المطرقة، وكانت ردة الفعل عند هذا الوحش الأحمر عنيقة فسدد إلي لكمة خلف رأسي طوتني نصفين. ولما كنت لم أره وهو يوجه اللكمة، اندفعت نحو الجدار فاصطدم وجهي به وجرى الدم غزيراً. وبعد أن نهضت من كبوتي ترنحت وحاولت أن أتحمق عما حصل لي، وكنت تهبأت لحركة احتجاج، وهذا ما كان يتوقعه هذا الرجل الضخم فركلني برجله في بطني، ورمى بي إلى الأرض كرة أخرى وجعل يجلدني بسوطه المصنوع من عصب الثور.

لم يحتمل جولو هذا المشهد فوثب عليه، ثم ساد هرج ومرج، وثار شغب فظيع، وكان جولو مغلوباً وواقعاً تحت، ووقف الخفراء يشاهدون المعركة ببرود، وانشغل الجميع عني بعد إذ نهضت. بغته رأيت الطبيب منحنياً على الأريكة محاولاً أن يرى من قاعة الانتظار ما يجري في الممر. وكان غطاء القدر عنده يتراقص يفعل ضغط البخار، وهذا القدر فوق موقد يعمل على الفحم يدفيء غرفة الطبيب، وبالتأكيد كان البخار ينقي الهواء.

(١) تحسان بالبرد الشديد.

وفي الحال وبردة فعل سريعة، أمسكت بالقدر وعلى الرغم من إحساسي بالحرق لم أفلته، وألقيت بهذا الماء الغالي في وجه السيد الذي لم يرني لانشغاله بجولو. وانطلقت من حنجرتي صرخة راعية وتدحرج على الأرض. وكان يرتدي ثلاثة قمصان صوفية شرع يخلعها الواحد بعد الآخر في صعوبة بالغة. ولما وصل إلى الثالث كان جلده قد انسلخ معه. وكان عنق المايوه ضيقاً، وبعد الجهود التي بذلها للخروج منه، التصق بجلد صدره وبقسم من جلد عنقه ووجنته، وكذلك احترقت عينه السليمة الوحيدة فصار أعمى. وأخيراً استوى قائماً بشكله القبيح ولحمه الطري الدامي، فاستغل ذلك جولو فسدد له ركلة برجله في صميم خصيتيه، فانهار العملاق وأخذ يتقيأ ويسيل لعابه، فقد نال حسابه، ونحن لم نضيع شيئاً في الانتظار. لم يكن الحارسان اللذان شهدا هذا المشهد على كفاءة كافية لمجابهتنا، فأطلقا إشارة الإنذار طالين إمداداً، فوصل العديد منهم من كل حذب وأمطرونا بضربات المقامع، وأخذت نصيبي من هذه الضربات السريعة الأمر الذي أفقدني الإحساس. ثم ألقيت نفسي عارياً في سجن مظلم يغور تحت الأرض بمقدار دورين (طابقين) والماء يغمر أرض هذا السجن، واستعدت شعوري بالتدريج، وتلمست بيدي جسمي المروض، ووجدت في رأسي ما يزيد على اثني عشرة حدة. كم كانت الساعة لست أدري. لا ليل هنا ولا نهار ولا نور. سمعت صوت ضربات آتية من بعيد: بان بان. بان وكأنها رموز لاسلكية. وكان لزاماً علي أن أطرق على الجدار مرتين إن أردت الاتصال. ولكن بأي شيء أطرق؟ وأنا لا أميز شيئاً في العتمة. لا شيء يمكن أن ينفعني. بقضة يدي؟ مستحيل لأنها منهوكتان. اقتربت من الجهة التي افترضت أن أجدها عند الباب، فاصطدمت بالقضبان دون أن أراها. وبالتحسس والتلمس عرفت أن الباب على

بعد متر مني، يفصلني عنه شبك يلامس أصابعي، وذلك بغية إبعاد أي شخص عن تناول السجن الخطر لأنه في قفص. ويمكن التحدث معه ورشه بالماء، وإلقاء الطعام له، وإهانته، دون خوف من خطره. ولكن الشيء الجميل في هذا أيضاً أن أحداً لا يستطيع أن يضربه دون أن يعرض نفسه للخطر، لأن ذلك يقتضي فتح باب القفص.

الدقات تتكرر من وقت إلى آخر. ترى من يستطيع أن يناديني لأنه يخاطر بذلك. وطئت قدمي شيئاً صلباً فأمسكت به إذا هي ملعقة خشبية تناولتها وتهيأت للرد عليه. ألصقت أذني بالجدار فسمعت: بان. بان. بان. بان. بان. فاجبت: بان. بان. وهاتان النقرتان تعنيان للمنادي: استمر فانا معك. وبدأ النقر الرامز إلى الحروف الأبجدية التي تقول:

— بابي كيف حالك؟ هل أوديت كثيراً؟ كسر ذراعي. كان هذا جولو، وتحادثنا مدة ساعتين غير أبهين بإمكانية ضبطنا متلسين، بل كنا مندفعين تبادل العبارات. قلت له: — ليس في جسمي كسور إنما رأسي مليء بالحذبات، وكذلك ليس هناك جروح. وأخبرني بأنه رآهم وهم ينزلوني جراً من قدمي، وعند كل درجة كان رأسي يرتطم

بالدرجة التالية. أما هو فلم يفقد الوعي. ويعتقد أن حروق تروبيارد كانت شديدة وأن الصوف ساعد على ذلك، وجروحه كانت عميقة. وثلاث نقرات سريعة ومتكررة فهمت بأنه يقول بأن هناك ضجة، فتوقفت. وبالفعل، بعد لحظات وإذا بصوت يصيح: إلى الورا أيها القدر. تراجع إلى آخر الزنزانة. ثم قف وقفة استعداد وبلا حركة. (إنه السيد الجدي الذي يتكلم) اسمي باتون(قضيبي) وأنا جدير بهذا الاسم. وأضاء الحجر الذي أنا فيه بمصباح بحري كبير وظهر جسمي العاري.

— إليك ما تلبسه. ولا تتحرك من مكانك. وهاك الماء والخبز (٥٠ غراماً من الخبز ولتر ماء) لا تتناول كل شيء دفعة واحدة. لأنك لن تنال شيئاً قبل مضي أربع وعشرين ساعة. ثم صرخ كالوحش ورفع المصباح نحو وجهه فرأيته يتسم من غير خبث، ووضع إصبعه على فمه، وأشار بأصبع أخرى إلى ما تركه لي من الحوائج، إذ كان في الممر حارس، وأراد أن يفهمني بأنه ليس عدواً. وفي الواقع وجدت في قطعة الخبز قطعة كبيرة من اللحم المسلوق، وفي جيب البنتال ثروة: علبة سجائر وقداحة من فتيل الصوفان. هذه الهدايا تساوي المليون هنا، وقميصان بدلاً من واحد، وسروال صوفي طويل إلى الكعفين.

وسوف أذكر باتون هذا. إنه جاء يشكر لي أني أزحت من دربه تريبو يارد. لقد كان قبل حادث الحرق مساعداً للسيد. أما الآن وبفضلي أنا فقد غدا السيد الأكبر، وما بالقليل هذا اللقب. وبالإجمال إنه مدين لي بالترقي، وأدلى باعترافه بالجميل.

وبما أن تحديد مكان صدور الإشارات اللاسلكية يستلزم صبراً طويلاً فلا يستطيع

أحد أن يقوم بهذه المهمة سوى السيد. والحراس الخاملون كانوا مطمئنين إلى باتون على حين كنت أحدث مع جولو بالرموز البرقية في بحبوحة وسعة طيلة النهار. ومنه علمت أن الرحيل إلى سجن الميناء بات وشيكاً في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر.

بعد يومين أخرجنا من الحجر وكل واحد منا محاط بحارسين، وساقونا إلى مكتب المدير. وقد كان في مواجهة الباب وخلف المنصة ثلاثة أشخاص هم قوام هيئة المحكمة وقام المدير بمهمة رئيسها، كما مثل معاونين مساعد المدير ورئيس المراقبين.

— ها انتما اذن يها الشهمان! ماذا عندكما من القول؟

كان جولو شاحباً وعيناه منتفختين وربما كان مصاباً بحمى، ويده مكسورة منذ ثلاثة أيام ولا بد أنه يعاني منها اشد المعاناة.

أجاب جولو بهدوء: يدي مكسورة.

— نعم أنت الذي شئت أن تكون مكسورة، حتى تتعلم كيف تهاجم الناس. سيراك الطبيب عندما يحضر وأمل أن يكون ذلك خلال أسبوع. وهذا الانتظار نوع من

التحية فربما نفعلك. الأم، ولا أظنك تتوقع أن أستدعي الطبيب من أجل رجل على شاكلتك. انتظر إذن حتى يتاح لطبيب المركز الحضور وسوف يعنى بك. وهذا لا يمنع أن أمركما بالبقاء في السرداب حتى إشعار آخر.

نظر جولو إلي وكأنه يقول: «هذا الرجل ذو الهندام الحسن يتصرف بحياة الكائنات البشرية بمثل هذه السهولة». وأدبرت أنا وجهي نحو المدير ونظرت إليه، فحسب أنني أريد الكلام فقال لي: ألا يرضيك هذا القرار؟ ماذا لديك من القول؟ فأجبت:

— أبداً يا سيدي المدير. إنما أشعر برغبة في أن أبصق عليك، ولكنني لن أفعل خشية أن يتسخ لعابي.

فأصابه الدهول، واحتقن وجهه بالدم، ولم يستوعب حقيقة ما جرى للتو. ولكن رئيس الحرس صاح بالمرافقين: ابعده، واعتنوا به جيداً، وأتمنى أن أراه خلال ساعة يطلب الصفح زاحفاً. وسوف نؤدبه واجعله ينظف حذائي بلسانه من أعلاه ومن أسفله. وإني أعهد به إليكم لتضربوه ضرباً مبرحاً. اثنان من الحراس قتلوا ذراعي الأيمن، وآخرون قتلوا ذراعي الأيسر، وطرحوني أرضاً، ورفعوا يدي على ارتفاع كتفي وكبلوني بقيد له سلاسل، فمعدوا السبابة اليسرى بالإبهام الأيمن ورفعني رئيس الحرس كالحيوان من شعري. لا داعي لسرد ما فعلوا بي، ويكفي القول بأنهم جعلوا يدي مكبلتين خلف ظهري أحد عشر يوماً. إنني مدين بحياتي لباتون لأنه كان في كل يوم، يلقي إلي في سحني المعتم برادي المعتاد، ولكنني لا أقوى على تناوله وأنا مقيد، بل ما كنت أستطيع الوصول إليه حتى ولو دفعت الخبز رأسي نحو الشبك لأتناوله بأسناني. ولكن باتون كان يلقي لي منه قطعاً بحجم اللقمة بمقدار واف يمسك على رمقي. كنت أجمع قطع الخبز بقدمي على شكل كومة صغيرة ثم انبطح على الأرض وأمضغها جيداً حتى لا أضيع شيئاً.

وفي اليوم الثاني عشر فكوا وثاقي، وكان الفولاذ مغروساً في لحمي والحديد في بعض المواضع مغطى باللحم المتورم. وقد أصاب رئيس الحرس خوف بقدر ما أصابني من الإغواء من شدة الألم. ولما عدت إلى الصواب أخذوني إلى المستوصف حيث نظفوني بماء الأوكسجين، وطلب الممرض أن أحقن بإبرة مضادة للكلز. كانت ذراعي متخشبتين ولا أستطيع إعادتهما إلى حالتها الطبيعية وبعد التدليك بالزيت والكافور لمدة نصف ساعة تمكنت من خفضهما على طول جسمي. نزلت إلى السرداب ثانية وحين رأى رئيس الحرس قطع الخبز الإحدى عشرة قال لي: ستكون لك وليمة! والغريب أنك لست على درجة من النحول بعد أحد عشر يوماً من الصوم.

— عندي الكثير من الماء يا حضرة الرقيب.

— آه. هذا هو. لقد فهمت. والآن كل كثيراً لتستعيد صحتك ثم انصرف.

يا للأحق! يقول هذا وهو مقتنع بأنني لم أذق طعاماً منذ أحد عشر يوماً وبأنني إذا

التهمت كل شيء دفعة واحدة فسوف أموت من التهمة. وفي المساء جاءني باتون بتيغ وورق. فدخلت ودخلت ونفتت الدخان من ثقب في جهاز التدفئة المركزية المعطل دوماً، وطبعي أن تكون له على الأقل هذه الفائدة.

وبعد قليل ناديت جولو، وكان يعتقد أنني لم آكل منذ أحد عشر يوماً وينصحنى بالاعتدال والتمهل إذا أكلت. وخشيت أن أصارحه بالحقيقة خوفاً من قدر يستطيع فك رموز مخاطباتنا البرقية، فيعرف السر أثناء مروره. أما هو فلا تزال ذراعه في الحبس، ويتمتع بروح طيبة. وهنأني على الثبات والجرأة. في رأيه إن القافلة باتت على وشك الرحيل إذ قال له الممرض بأن اللقاحات المعدة لتلقيح المحكومين قبل رحيلهم قد وصلت.

لم يكن جولو حكيمًا حين سألني عن الأنبوية إذا كنت محتفظاً بها حتى الآن. — نعم انقذتها ولكن كابدت حتى احتفظت بهذه الثروة مكابدة لا توصف. عندي في الشرح قروح دامية.

بعد ثلاثة أسابيع خرجنا من السرايب. ماذا جرى؟ اخذنا حماماً منعشاً بالماء الساخن والصابون، وأحسست بعودة الروح.

كان جولو يضحك كالطفل، وكان يسيرو المجنون يشع جوار الحياة في وجهه وبوجودنا في السرايب ما كنا ندرى شيئاً مما حصل. ولم يشأ الحلاق أن يجيب عن سؤالني المقتضب الذي همست به بطرف شفهي «ماذا جرى؟» فرد علي رجل مجهول قدر الوجه:

— في ظني أنه تم العفو عنم كانوا في السرايب وربما خافوا من مفتش قادم. المهم أنكم أحياء.

واقتادونا إلى السجون الانفرادية العادية وعند الظهر كان أمامي حساء حار بعد ثلاثة وأربعين يوماً، وقد وجدت فيه قطعة خشبية كتب عليها: «الرحيل بعد ثمانية أيام والتلقيح غداً» من أرسل لي هذا؟ لم أدر؟ أنا على يقين من أن سجيناً تلطف بإعلامنا وهو يعلم بأن واحداً منا يكفي لإذاعة الخبر بين الجميع، وبالتأكيد أن الرسالة وصلتني بمحض المصادفة. أسرعرت إلى الاتصال بجولو لإعلامه... «حوّل». وكنت أسمع طيلة الليل الاتصالات. أما أنا فقد توقفت حالماً بعثت برسالتني.

أنا مرتاح جداً في سريري، ولا أريد شيئاً يضجرنى ويعيدني إلى السرداب.

على طريق سجن الميناء سان مارتن دوره

في المساء أرسل لي باتون ثلاث سجاثر وورقة مكتوباً عليها: اعلم أنك ترحل حاملاً مني أطيب الذكرى: أنا سيد ولكنني أحاول التخفيف عن المعاقين قدر المستطاع.

أخذت هذه المهمة على عاتقي، لأنه لي من الأولاد تسعة، وأنا متلهف للحصول على العفو، سأحاول أن أنال العفو من غير أن ألحق الأذى بأحد. وداعاً، وأتمنى لك حظاً سعيداً والقافلة تسير بعد غد.

وبالفعل جمعونا في الغداة زمراً، كل زمرة تتألف من ثلاثين رجلاً، في ممر المعسكر التأديبي، وحضر ممرضون من (كان) وأجروا لقاحات ضد الأمراض الاستوائية لثلاثة لقاحات لكل واحد، وليتران حليياً. ديفاً بالقرب مني شارد الدهن. ولم تكثرث بالتزام الصمت لأننا نعلم أنه لا يمكن إعادتنا إلى السرداب بعد أن تم تلقيحنا. كنا نثرثر بصوت منخفض وعلى مسمع من الحراس الذين لا يجرؤون على الاعتراض بسبب وجود ممرضى المدينة. قال ديفاً: هل عندهم من عربات السجن الفردية ما يكفي لنقلنا جميعاً دفعة واحدة؟

— لا أظن ذلك.

— سان مارتن دوره بعيدة، وإذا نقلوا منا كل يوم ستين رجلاً، فإن عملية النقل ستدوم عشرة أيام، لأن عددنا يبلغ ست مئة.

— المهم أننا لقحنا. وهذا يعني أن أسماءنا على القائمة وسنكون في وقت قريب في سجن الأشغال الشاقة. تشجع يا ديفاً بدأت المرحلة الثانية. اتكل على كما اتكل عليك. - فرأيت الرضى بادياً في عينيه اللامعتين. فوضع يده على ذراعي وقال: على الحياة والموت. إن الحوادث الجذرة بالذكر في القافلة قليلة. وأكثر ما كان يزعجنا، الإحساس بالاختناق

داخل «الخزانة» الإفرادية. وكان الحراس يحرمون علينا الهواء حتى حين فتحت الأبواب قليلاً لدى وصولنا إلى لا روشيل. اثنان من رفاقنا وجدا ميتين اختناقاً.

المسكعون تجمعوا على الرصيف، لأن سان مارتن دوره جزيرة. وكان لزاماً أن يأخذوا لنا مركباً لاجتياز المضيق وقد شهدنا الكشف على شيطانين مسكينين، ومن واجب الدرك تسليمنا في القلعة أحياء أو أمواتاً، لذا حملوا معنا الجثتين على المركب. ولم يدم العبور طويلاً، وتمكننا من استنشاق هواء البحر الطيب. قلت لديفا: بدأنا نشم رائحة الهروب فابتسم، وكذلك افتر ثغر جولو عن ابتسامة وقال: أجل إنها رائحة الهروب. أنا سأرجع إلى هناك حيث هربت منذ خمسة أعوام، ثم أوقعت نفسي كالأبله حين كنت ذاهباً إلى الليف^(١) لأحطمه فأوقعني، كان ذلك منذ عشر سنوات. لنبق ملاًزمين، ففي سان مارتن نوضع اعتباطاً في زمر، تتألف كل زمرة من عشرة أشخاص.

لقد أخطأ جولو. فحين وصلنا نودي عليه باسمه مع اثنين آخرين وعزلوا كانوا ثلاثة فارين من سجن الميناء، وأعيد القبض عليهم ويوضعنا في الزنزانة زمراً عشرة بدأت حياة الترقب، ولنا حق الكلام والتدخين والغذاء الجيد وليست هذه الفترة خطرة إلا على «الأنوية» إذ يستدعونك فجأة ودون أن تعرف السبب، ويعرونك تعرية كاملة، ويفتشونك بدقة بدءاً من زوايا الجسم وحتى أخمص القدم، ثم يأتي دور الامتعة، وأخيراً تؤمر بارتداء ملابسك وتعود من حيث أتيت. من الزنزانة إلى المطعم إلى الساحة كنا نمضي الساعات في المشي مترادفين رتلاً. واحد، اثنان. واحد، اثنان. كنا نمشي رتلاً مؤلفاً من مئة وخمسين رهيناً مثل ذيل (النفاق) الطويل، والقباقيب تفرقع. السكوت مطلق وإجباري. ويعد أن ينفرط العقد، نجلس على الأرض في مجموعات تتشكل حسب الطبقات الاجتماعية أولاً رجال العصابات الحقيقيون الذين لا يتمتعون كثيراً بالأصل: الكورسيكيون، المرسيليون، التولوزيون، البروتانيون، الباريسيون، الخ. ويوجد أرديشي واحد، هو أنا، وتكرماً لأرديش يجب القول بأنه لا يوجد في هذه القافلة المؤلفة من ألف وتسع مئة رجل سوى اثنين من أرديش: حارس حقول قتل زوجته، وأنا. وهذا ناجم عن أن الأرديشين رجال شجعان. أما بقية المجموعات فتألف بأي شكل، لأن الذين يأتون إلى سجن الميناء أكثر من يغادرونه. أيام الترقب تسمى أيام الملاحظة والمراقبة، وفي الواقع كنا مراقبين من كل الزوايا.

بعد ظهر أحد الأيام كنت جالساً في الشمس عندما اقترب مني رجل يضع على عينيه نظارات، وكان قصيراً ونحيلًا. حاولت أن أعرف من أي إقليم هو، فلم يكن ذلك سهلاً بسبب لباسنا الموحد.

(١) الليف هو الذي يأكل ويشرب مع اللصوص ويحفظ متاعهم ولا يسرق معهم: المترجم.

— هل أنت بابيون؟ وكانت له نبرة كورسيكية واضحة جداً
— نعم. ماذا تبغني مني؟
قال: اتبعني إلى المراحض، وانصرف.
— قال لي ديفغا إنه كورسيكي، فهو حتماً من لصوص الجبال، ولكن ما عساه يريد منك؟

— سأعرف ذلك.
اتجهت نحو المراحض في وسط الباحة، وهناك تظاهرت بالتبول. وكان الرجل إلى جانبي في الوضع ذاته. قال ودون أن ينظر إلي: أنا صهر باسكال باترا. وقد أوصاني في غرفة الانتظار أن التجيء إليك عند الضرورة والحاجة.
— آه نعم. باسكال. إنه صديقي. فماذا تريد؟
— لا أستطيع حمل الأنبوبة فأنا مصاب بالزحار. ولا أعرف أحداً أعهد بها إليه. وأخشى أن يسرقوها مني أو يعثر عليها الحراس أرجوك يا بابيون احملها لبضعة أيام فقط.
وأطلعني على أنبوته وهي أكبر من أنبوتي، وخفت أن يكون قد نصب لي شركاً، أو أنه طلب ذلك ليعرف إذا كنت أحمل واحدة فإن قلت له: لا أستطيع حمل اثنتين، عرف. فسألته ببرود: كم بداخلها؟

— خمسة وعشرون ألف فرنك.
فأخذت الأنبوبة نظيفة جداً وأدخلتها أمامه، وأنا أتساءل هل يستطيع رجل أن يحمل اثنتين؟ لست أدري.

نهضت وارتديت بنطالي. كل شيء على ما يرام ولست متضايقاً. قال لي قبل أن ينصرف: اسمي إيناس كالكانبي. شكراً لك بابيون. رجعت إلى مقربة من ديفغا وقصصت عليه على انفراد ما حدث.

— اليس ثقيلًا؟

— لا.

— إذن لن نتكلم عنه أبداً.

— بحثنا عن عائدين من السجن إذ كنا متعطشين للمعلومات.. كيف الوضع هناك؟ كيف يعاملون السجناء؟ ما العمل للبقاء مثنى، مثنى؟ الخ. وشاءت الظروف أن نعرث على شخص فضولي، إنه شيء عجاب. إنه من كورسيكا ولكنه ولد في سجن الميناء. كان أبوه مراقباً هناك. وكان يعيش مع أمه في جزر السلام. ولد في جزيرة رويال إحدى ثلاث جزر. والأخريان هما سان جوزيف وجزيرة الشيطان.

ويا لسخرية القدر عاد إلى هناك لا بصفة ابن المراقب بل بصفة سجين. حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة اثني عشر عاماً، بسبب سرقة مع استخدام الكسر.

إنه فتي في التاسعة عشرة، طلق المحيا ذو عينين صافيتين. أدركنا أنا وديفغا في الحال

أنه متقلب وليس لديه سوى نظرة عابرة من الوسط هناك. وعلى كل حال من الممكن استنباط بعض المعلومات المفيدة حول ما ينتظرننا. فقد حدثنا عن الحياة في الجزر حيث عاش أربعة عشر عاماً. أعلمنا مثلاً أن مربيه في الجزر كان سجيناً مشهوراً تورط في عملية مبارزة بالسكين. وأسدى لنا نصائح ثمينة: منها مثلاً، أنه من أجل الهروب ينبغي أن يكون الانطلاق من الأرض العظمى لا من الجزر لأن هذا مستحيل ثانياً أن لا يكون السجين مسجلاً في زمرة الخطرين، لأنه بهذه الملاحظة، ما أن يصل إلى سان لوران، وهو مرفأ الوصول، حتى يحجر عليه في الجزر لمدة محددة أو مدى الحياة، حسب درجة الملاحظة. والمحجور عليهم في الجزر بصورة عامة، تقل نسبتهم عن خمسة في المئة، بالنسبة لمجموعة الموقوفين إلى هناك. والآخرين يبقون في الأرض العظمى. وحسب رواية ديغا، الجزر سليمة صحياً أما الأرض العظمى فهي موبوءة وتمتص السجين شيئاً فشيئاً بكل أنواع الأمراض ووسائل الموت أو القتل.

وألمنا أن لا يحجر علينا في الجزر. غير أنني كنت أحس بشجى في قلبي: ما العمل لو عدوني من الخطرين؟ بسبب الأشغال الشاقة المؤبدة وحادثة تربويارد، وحادثة المدير. ما أجملي (يا حلاوة).

وفي أحد الأيام راجت دعوة إلى الالتجاء إلى المستوصفات بأية حجة. لأن الضعفاء جداً والمرضى جداً، والذين لا يطيقون السفر يدرسون لهم السم في الطعام. ويبدو أنها قصة ملفقة، لا أساس لها من الصحة، وأكد لنا أحد الباريسين واسمه فرنسيس لا باس: أن هذا كلام فارغ. وقد كان هناك فعلاً رجل مسموم، ولكن أخاه وهو موظف في المستوصف شرح له ملابسات الحادثة. هذا الشخص المتحرر كان مختصاً بالصناديق الحديدية. ويحكي أنه سطا على السفارة الألمانية في جنيف أو في لوزان أثناء الحرب العالمية لحساب الاستخبارات الفرنسية، وحصل على وثائق هامة جداً، فصار عميلاً فرنسياً. ولذا أخرجه الشرطة من السجن حيث كان عليه أن يمضي عقوبة مدتها خمس سنوات. ومنذ عام ١٩٢٠ كان يعيش مطمئناً بعد عملية أو عمليتين في السنة. وكلما وقع في مازق ذهب إلى المكتب الثاني مستغلاً خدماته، والمكتب بدوره يتدخل لتخليصه. إلا أنه في هذه المرة، لم تنجح محاولته فقد نال عقوبة لمدة عشرين سنة. وهذا هو الآن يذهب معنا، وتعارض لثلاث يرافقه القافلة ودخل المستوصف. ولكن حبة من السيانونر أنهت القضية، حسب رواية شقيقه، واستراحت الصناديق الحديدية والمكتب الثاني.

هذه الباحة تعج بالأخبار الصحيح منها والمفلق، وعلى كل حال كنا نسمعها لتزجية الوقت.

وكننا كلنا ذهبنا إلى المرحاض في الساحة أو داخل السجن كان ديغا يرافقني حرصاً على الأنويتين فيقف أمامي أثناء ذلك ويحسني عن انظار الفضوليين. أنبوية واحدة بحد ذاتها قصة فيها بالك باثنتين كنت أحملها؟ وخاصة أن صحة كالكاني تزداد سوءاً.

بالأمس جرت محاولة لاغتيال كلوزيو عند الحلاق، وأصيب بطعنتين قريبتين من القلب، ونجا من الموت بأعجوبة. وعرفت حكايته عن طريق أحد أصدقائه، وأنها لقصة غريبة. هذه الجريمة كانت تصفية لحساب وقد مات فاعلها بعد ست سنوات من هذه الحادثة في كايين على إثر تناول بيكاربونات البوتاس كانت مدموسة مع العدس. مات وهو يعاني من آلام مبرحة. والمرضى الذي ساعد الطبيب في تشريح الجثة، أحضر لنا قطعة من أمعائه طولها عشرة سنتيمترات وكان فيها سبعة عشر ثقباً. وبعد شهرين وجد القاتل مختفياً في سرير مرضه، ولم يعرف غريمه.

ها قد مضى علينا في سان مارتين دوره اثنا عشر يوماً، والمعتقل يقص بالسجناء. والعسس يصعدون المراقب المحيط ليل نهار.

حدثت ضوضاء عند الحمامات الرشاشة (الدوش) بين أخوين كانا يختصمان مثل كليين. وضع أحدهما في زنزانتنا ويدعى أندره بايار، وقال لنا إنه لا يمكن أن يعاقبه، لأن لدى الحراس أوامر بعدم جمع الأخوين مهما كانت الأسباب، وعندما عرفنا السبب بطل العجب: كان أندره قد قتل امرأة ثرية، ونخبأ أخوه إميل المال المسروق.

وألقي القبض على إميل بتهمة سرقة وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات وفي أحد الأيام، وبين جماعة من السجناء، هجم على أخيه الذي لم يرسل له مალأ ليشتري سجائر، فتخلّى عن العلبة وهدهد قائلاً سوف ترى. وصرخ بأن أندره هو الذي قتل المرأة، وهو أي إميل خبأ المال، لهذا فإنه عندما يخرج من السجن لن يعطيه شيئاً. وعجل أحد السجناء إلى المدير ليروي له ما سمع. ولم يطل الأمر حتى أوقف أندره وحكم على الأخوين بالإعدام، وفي المركز الصحي كانا في زنزانتين متجاورتين. وتقدم كل منهما بالتماس العفو. وأجيب إميل إلى طلبه بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ورفضوا طلب أندره. وبدافع إنساني أبقوا إميل في معسكر المحكوم عليهم بالإعدام. وكان الأخوان يقومان بنزهاتهما جنباً إلى جنب والسلاسل في أقدامهما. وفي اليوم السادس والأربعين، فتح باب أندره في الساعة الرابعة والنصف وكان المدير وكاتب المحكمة والمدعي العام الذي طالب برأسه، حاضرين إنها ساعة تنفيذ الحكم بالإعدام. وفي اللحظة التي تقدم فيها المدير للكلام وصل المحامي مهرولاً يتبعه رجل آخر يحمل بيده ورقة سلمها للمدعي العام. وانسحب الجميع إلى المر. وكان حلق أندره جافاً حتى غص بريقه. مستحيل، لا يمكن إيقاف تنفيذ جاز. ومع ذلك فقد حصل، ولم يتم هذا إلا في اليوم التالي بعد ساعات من القلق والاستجوابات، وعلم من المحامي، أنه في ليلة التنفيذ اغتيل رئيس الجمهورية دومر، ولكنه لم يمت لساعته، وقضى المحامي ليلة يترصد أمام باب المستشفى، بعد أن أخبر وزير العدل بأن الرئيس لو مات قبل التنفيذ بساعة (من الساعة الرابعة والنصف إلى الساعة الخامسة) فسوف يطلب إيقاف التنفيذ لشغور منصب الرئيس. مات دومر في الدقيقة الثانية بعد الساعة الرابعة. فما بين إعلام الديوان، والإسراع إلى السيارة

وصل المحامي متأخراً ويتبعه حامل الأمر بالتأجيل. تأخر ثلاث دقائق عن فتح باب زنزانه أندره. وأنزلت عقوبة الإعدام الى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة لكلا الآخرين.

وفي الواقع في يوم انتخاب الرئيس الجديد ذهب المحامي إلى قصر فرساي. ومنذ أن تم انتخاب البير لوبران تقدم المحامي بالتماس العفو. ولم يسبق أن رفض رئيس جديد طلباً قدم إليه. وتابع أندره يقول: وقد وقّع لوبران على الموافقة وهأنذا سجين حي معافى بينكم في الطريق إلى غويان.

نظرت إلى هذا الناجي من المفصلة وقلت في نفسي: على الرغم من كل ما كابدت فإنه لا يوازى العذاب الذي ذاقه هذا الرجل.

ومع ذلك لم تقم بيننا ألفة قط فمجرد التفكير بأنه قتل العجوز المسكينة من أجل مالها أحس بالاشمئزاز. وفوق هذا كله كانت له الفرص كلها. وفيما بعد قتل أخاه في جزيرة سان جوزيف. وقد رآه عدد من السجناء: كان أميل واقفاً على صخرة يصطاد السمك بالشص ولم يكن يفكر إلا في صيده وجيلة الأمواج الصاخبة طغت على كل صوت آخر تقدم أندره من أخيه من الخلف ويده قصبه من الخيزران طولها ثلاثة أمتار فدفعه دفعة واحدة في الظهر أفقدته توازنه. ولما كان الموضع مرتعاً لأسماك القرش فإنه قدم لها وجبة اليوم.

وفي المساء نودي عليه وبسبب غيابه عد مفقوداً في محاولة للفرار ولم يعد أحد يذكره، وحين كان بعض السجناء يقومون بجمع الأصداف في أعلى الجزيرة رأوا ذلك المشهد. وطبيعي أن جميع الرجال علموا بذلك ما عدا الجنود. ولم يكثر أندره قط.

رفع الحجر عنه «لحسن سلوكه» وفي سان لوران حظي دومارني بحسن الرعاية وكانت له زنزانه صغيرة خاصة. وحدث له مع أحد السجناء حادثة إذ دعاه إلى زنزانه لأمر شنيع فقتله بطعنة سكين، ولم يعاقب بحجة الدفاع عن النفس. ومنذ أن قضى على السجين وهو يعامل معاملة حسنة لأنه حسن السلوك!!

سان مارتين دوره تغص بالمساجين ويمكن فرزهم إلى فريقين: ست مئة ألف سجين وتسع مئة منفي. فسجين الميناء يجب أن يكون قد ارتكب شيئاً خطراً أو على الأقل أن يكون متهماً بجريمة، والعقوبة الدنيا هي سبع سنوات مع الأشغال الشاقة تتدرج حتى المؤبد والمخفف عنه حكم الإعدام. والمنفيون لهم شأن آخر. ويكون الرجل منفياً إذا صدرت بحقه ثلاثة أحكام إلى سبعة. صحيح أنهم لصوص لا يرجى صلاحهم، وواضح أن من حق المجتمع أن يدافع عن نفسه، ومع ذلك فمن العار على شعب متحضر أن تكون لديه عقوبة لاحقة هي النفي. فهناك لصوص صغار غير ماهرين، غالباً ما يقعون في يد العدالة في سهولة، فيصنفون مع المنفيين، ويتساوون من حيث النتيجة مع المحكوم عليهم بالمؤبد، وهم في حياتهم للصوصية كلها لم يسرقوا أكثر من عشرة آلاف فرنك. وفي هذا

أعظم تفرغ لمعنى الحضارة الفرنسية. ليس من حق الشعب أن يتقم في صورة سريعة أو أن يخلع الأشخاص الذين أسأوا إلى المجتمع، فهؤلاء الأشخاص أولى بالعناية بدلاً من معاقبتهم بصورة لا إنسانية.

سبعة عشر يوماً مرت بنا، ونحن في سان مارتن دوره، وعرفنا اسم المركب الذي سيقلنا إلى سجن الميناء وهو «لامارتنيير» وسيكون على متنه سبعون وثمانين مئة وألف محكوم. وفي هذا الصباح تواجد ثمانين مئة محكوم في فناء القلعة منذ ساعة تقريباً ونحن واقفون في صفوف عشرية تملأ الساحة المستطيلة. انفتح الباب وظهر للعيان رجال يرتدون ملابس مغايرة لللباس الحراس الذين نعرفهم. يلبسون لباساً عسكرياً جيداً بلون سماوي ولكنه يختلف أيضاً عن لباس الدرك والجنود. يتمنطقون بزئار عريض يتدلى منه غمد المسدس وتبرز منه قبضة السلاح، وهم يعدون ثمانين رجلاً تقريباً، لوحث الشمس وجوههم، من مختلف الأعمار، ما بين خمسة وثلاثين إلى خمسين عاماً. والكهول منهم أكثر رقة من الشباب الذين انتفخت صدورهم كبراً بأهميتهم. وكان في صحبة رئيسهم المدير وضابط برتبة عقيد، وثلاثة أو أربعة أطباء يؤدون خدمة العلم من المستعمرات وراهبان بلباس بيضاء.

أمسك العقيد بيده بوقاً وقربه من فمه، وتوقعنا أن نسمع إيعازاً للتهيؤ والاستعداد. لا شيء من هذا. إنما صاح: انتبهوا جميعاً. منذ هذه اللحظة تنتقلون إلى عهدة وتبعية سلطات وزير العدل ممثل إدارة السجون الإصلاحية في غويان الفرنسية والتي مركزها الإداري في مدينة كاين. أيها السيد المقدم بارو. أسلمك ستة عشر سجيناً وثمانين مئة، الموجودين هنا، وهذه لائحة بأسمائهم. تفضل وتثبت من أنهم جميعاً حاضرون. وبدأ التفقد فوراً: فلان - حاضر - فلان - حاضر واستمر ذلك ساعتين وكل شيء في نظام. وشهدنا بعد ذلك التوقيع بين الإدارتين على منضدة صغيرة أحضرت لهذه الغاية. المقدم بارو يحمل على كتفه من الشارات بقدر ما يحمله العقيد، ولكن بلون ذهبي لا بلون فضي، كما هي عند الدرك. أخذ المقدم دوره في الكلام فقال: أيها المبعدون، وهي الكلمة التي نعتيكم بها بعد الآن فنقول: المبعد فلان وسيكون كل منكم مقصوداً بذلك.

أنتم منذ الآن خاضعون لقوانين سجن الميناء وانظمته ومجالسه المحلية التي تتخذ عند المقتضى القرارات اللازمة بحكمكم. ومن حق هذه المجالس المستقلة استقلالاً إدارياً، أن تصدر مختلف الأحكام من الحكم العادي إلى الحكم بالإعدام، ولا شك أن هذه العقوبات التأديبية من سجن وأشغال، وإفراد، يتم تنفيذها في مختلف الأماكن التابعة للإدارة. ورجال الشرطة الذين ترونهم أمامكم يسمون بالمراقبين، وجين تتوجهون إلى أحدهم بالخطاب تقولون له: سيدي المراقب. بعد تناول الحساء يأخذ كل منكم كيساً بحرياً مع ملابس السجن، وليكن كل شيء على بصيرة، ليس لكم من متاع غيرها. ستبحرون غداً

عل متن المارتينيز، سنسافر معاً ولا تياسوا من الرحلة، ستكونون هناك في سجن الميناء في حال أفضل من أي سجن في فرنسا. سيكون في مقدوركم التكلم واللعب والغناء والتدخين. وليس عليكم أن تخافوا من سوء المعاملة، إذا سلكتكم السلوك الحسن، واطلب منكم التريث إلى حين الوصول إلى سجن الميناء للنظر في خلافاتكم الشخصية، فالنظام أثناء الرحلة قاس، وأمل أن تفهموه، ومن كان منكم مريضاً ولا يقوى على السفر، فليذهب إلى المستوصف ليكشف عليه الأطباء المرافقون للقافلة، وأتمنى لكم رحلة موفقة. وهكذا انتهت المراسم.

— ما رأيك يا ديفاً؟

— يا عزيزي بابون! أرى أنني كنت على حق، حينما قلت لك إن الخطر الأكبر هو من المحكومين أنفسهم، فهذه العبارة التي قالها «تريشوا» حتى نصل إلى سجن الميناء للنظر في خلافاتكم، لها دلالات كثيرة. ترى كم سيقع من حوادث القتل والاعتداء؟

— لا تأبه لهذا وثق بي.

بحثت عن فرنسيس لا بأس وقلت له:

— ألا يزال أخوك مريضاً؟

— أجل. إنه من جماعة النفي وليس من المحكومين بالأشغال الشاقة

— تعجل الاتصال به، واطلب منه مبضعاً وإذا كان يرغب في أن ندفع له أحطني علماً بالمبلغ الذي يريده، وسوف أدفع ما يجب دفعه. وبعد ساعتين كان في حوزتي مبضع ذو مقبض فولاذي متين. ولا عيب فيه غير أنه كبير، ولكنه سلاح رهيب.

جلست قريباً جداً من مراحيض الباحة وأرسلت إلى كالكاني أطلبه لأرد له أنبوتيه، ويبدو أن العثور عليه صعب، في وسط هذه الجموع الغفيرة المائجة التي تملأ الباحة، بشماني مئة رجل. ولم ير أحد جولو ولا غيتو ولا سوزيني منذ وصولنا إلى اليوم.

من حسنات الحياة المشتركة أن المرء يعيش، يتكلم، ويتمي إلى مجتمع جديد إذا صح أن نسميه مجتمعاً. هناك الكثير للكلام عنه، وللسماع عنه، والقيام به، وليس هناك متسع للتفكير به. وبالنظر إلى الماضي ما أسرع ما يتبدد ويتراجع إلى المرتبة الثانية من حياتنا اليومية. كنت أظن أنني حالماً أكون في حبس الأشغال الشاقة، سأنسى من أنا ولماذا جئت أسقط هنا وكيف؟ وذلك لكي أنصرف عن التفكير إلا في شيء واحد وهو الهروب.

ولقد خدعت نفسي لأن أعظم الأمور شأناً وأعلها منزلة هو المحافظة على حياتنا. أين هم رجال الشرطة والقضاة، والمحلفون؟ أين أبي وزوجتي، وأصدقائي؟ إنهم هناك أحياء ولكل واحد منهم مكانة في قلبي، وكأنهم اليوم ليست لهم هذه الأهمية كما كانوا عليه من قبل وذلك بسبب حمى التفكير بالرحيل وبالقفز إلى عالم المجهول والصدقات والمعارف المختلفة.

والحقيقة هي أن هذا ليس سوى انطباع ساذج، فعندما أريد ذلك أحقق ما أريد، ففي اللحظة التي تفتح فيها ذاكرتي فإنهم جميعاً لديها حاضرون. ها هوذا كالكاني، قد أحضروه لي. إنه على الرغم من نظارته القوية لا يكاد يرى، وتبدو عليه العافية. اقترُب مني ودون أن يتفوه بكلمة شد على يدي فبادرته بالقول:

— أريد أن أرد لك أنبوتك فأنت الآن على أحسن حال ونستطيع حملها والحفاظ عليها، وإنها لمسؤولية كبيرة على عاتقي خلال الرحلة، ثم ما يدرينا، هل يكون أحدنا إلى جانب الآخر أو هل يرى أحدنا الآخر؟ إذن يستحسن أن تستردها.

نظر إلي كالكاني نظرة حزينة

— هيا إلى المراحيض لأسلمها لك.

— لا. لا أريدها احتفظ بها لنفسك هدية مني.

— لم تقول ذلك؟

— لا أريد أن يقتلني أحد من أجلها، وأوثر أن أبقى حياً بدون مال على أن أموت بسببها. إني أمنحك إياها. وبعد هذا لا داعي لأن تجازف بحياتك من أجل مالي، وإذا جازفت فعل الأقل أنك تجازف في سبيل مالك أنت.

— أنت خائف؟ هل هددك أحد؟ فما من أحد يرتاب بأنك تحمل شيئاً.

— هناك ثلاثة من العرب يقتضون أثري باستمرار، لهذا السبب لم أت لرؤيتك لثلاثي أثير الظنون بأنني على علاقة معك. كلما ذهبت إلى المراحيض في الليل أو في النهار أت واحد منهم فيجلس بالقرب مني فأريه جهازاً وعلانية، دون أن أظهر العمد، بأنني لا أحمل شيئاً ومع ذلك لم يكفوا عن مراقبتي. ويعتقدون بأن أنبوتي مع رجل آخر ولا يعرفون من هو، ويتبعون خطاي ليعرفوا في أي وقت تعود الأنبوبة إلى حوزتي.

نظرت إلى كالكاني ولاحظت أنه فعلاً منخلع الفؤاد، مضطهد، فقلت له:

— أي مكان من الفناء يرتادون؟

— ناحية المطبخ وغرفة الغسيل

— حسناً ابق هناك، وأنا أت على أثرك. لا. تعال معي. فتوجهت معه نحو هؤلاء العنزات. نزعنا المشوط من تحت قلنسوتي، وأخفيت حده داخل الكم الأيمن، والكم في يدي ولما وصلت إلى هناك وجدتهم أربعة. ثلاثة من العرب وواحد كورسيكيا يدعى جيراندو، وكان منعزلاً عن الآخرين وهو المحرض لهم، ولا بد أنه يعرف أن كالكاني صهر باسكال ماترا، وأنه لا يمكن أن يكون بغير أنبوبة.

— كيف الحال يا موكران

— جيد يا بابيون، وأنت كيف حالك.

— لست على ما يرام وقد جثت لأراك، وأقول لك بأن كالكاني صديقي فإن أصابه

مكروه، فأنت أول من أحاسب يا جيراندو.

انتصب موكران جيراندو قائماً وهو طويل مثلي (١٧٤) سم تقريباً، عريض المنكبين، فانتفض وثار وهم بالقيام بحركة لبدة المعركة، فأخرجت الشرط اللامع الجديد، وأمسكت به ملء يدي، وقلت له:

— إذا تحركت فسوف أقتلك كما أقتل كلباً.

هزته رؤيتي مسلحاً وفي مكان لا ينقطع فيه التفتيش، وأدهشه موقفي، وطول السلاح، فقال:

— نهضت للمناقشة لا للقتال.

كنت أعلم أنه كاذب، ولكن من مصلحتي أن أترك له باب النجاة مفتوحاً أمام أصدقائه، وجعلت له مخرجاً جميلاً.

— حسناً. ما دمت قد نهضت للمناقشة...

— ما كنت أدري أن كالكاني صديقك وكنت أظنه من الطبقة الدنيا، ويجب أن تدرك أنه في حالة الإفلاس لا بد من إيجاد شيء لإعداد الهروب.

— حسناً. هذا طبيعي. ويحق لك يا موكران أن تكافح من أجل حياتك.

أما هذا فعنده حصانة، فأصرف نظرك إلى مكان آخر. مد لي يده فصافحته أف. لقد أحسنت التخلص. وفي الحقيقة، لو قتلت هذا الرجل لما تمكنت من السفر غداً. وتنبهت فيا بعد إلى جسامه الخطأ الذي وقعت فيه. عاد معي كالكاني، فقلت له:

— لا تحدث أحداً بما جرى، فلا أريد أن يوسعني الأب ديغا سباً وشتياً. حاولت إقناع كالكاني باسترجاع أنبوتيه فوعد بذلك في اليوم التالي أي قبل الرحيل، وكان حريصاً على أن لا أسافر ومع أنبوتان.

في تلك الليلة كنا في الزنزانة أحد عشر رجلاً وكلهم واجهون، ذلك أنهم يفكرون كثيراً أو قليلاً بأن هذا اليوم هو الأخير الذي نقضيه على أرض فرنسا. وكل واحد فينا يشده الحنين إلى الوطن ويؤله أن يغادر فرنسا إلى الأبد إلى أرض مجهولة هي قدرنا وإلى نظام مجهول.

جلس ديغا إلى جانبي صامتاً، قرب الباب الشبكي الذي يطل على المرفيتسرب إلينا الهواء أكثر من أي مكان آخر. إنني أشعر بالضيق. فالأنباء عما ينتظرنا متضاربة جداً. أفرح أم أحزن أم أياس؟

الرجال في هذه الزنزانة كلهم من المتيمين إلى العصابات ما عدا الكورسيكي الصغير الذي ولد في السجن فهو في الحقيقة ليس من هذا الوسط إنهم في حالة من الغموض وعدم التبلور. وجلال هذه اللحظة أحرصهم وكان دخان السجائر يخرج من الزنزانة كالسحابة ويجرها هواء الممر، وإذا أراد أحدهم أن يتجنب وخز الدخان في عينيه كان عليه أن ينخفض إلى ما تحت سحب الدخان. ولم نستطع نوماً ما عدا أندره بايار الذي نام نومة أبدية.

مر شريط حياتي أمامي سريعاً: طفولتي التي درجت في أسرة يغمرها الحب والأدب والنبل. أزهار الحقول وخرير السواقي وطعم الجوز، والصيد، والخوخ الذي كان يمنحنا إياه بستاننا بوفرة، وعطر الزهرة الخجول التي كانت تنبت في الربيع أمام باب دارنا. تذكرت داخل الدار وخارجها والأقرباء؛ لقد مر هذا كله أمام عيني كما يعرض الفيلم. هذا الفيلم الناطق الذي يسمعي صوت أمي المسكينة التي أحبتني حباً جماً، وصوت أبي الرؤوف، ونباح كلبة الصيد كلارا التي كانت لوالدي والتي كنت ألعب معها في الحديقة. وأترابي من بنين وبنات رفاق اللعب في أسعد لحظات حياتي. هذا الفيلم الذي أشهده دون سابق تصميم، هذا الفانوس السحري الذي أضاء ساحة اللاشعور ضد إرادتي، ملأ ليلتي هذه بانفعال عذب، ليلة الترقب لقفزة نحو عالم المجهول، عالم المستقبل. إنها ساعة إجراء الحسابات: عمري ستة وعشرون عاماً، صحي جيدة جداً، وفي أحشائي ست مئة وخمسة آلاف فرنك هي ملكي، وخمسة وعشرون ألفاً لكالكاني. ودعياً إلى جانبي معه عشرة آلاف. اعتقد أنني أستطيع الاعتماد على أربعين ألف فرنك. فإذا كان كالكاني عاجزاً عن حماية مبلغه هنا فسيبقى كذلك فوق المركب، وفي غويان، وهو من ناحيته يعلم ذلك، ولهذا لم يأت لاسترجاع ماله إذن أستطيع الاعتماد على هذا المبلغ دون أن أفارق كالكاني بطبيعة الحال، ويجب أن يستفيد منه فالمال ماله وليس لي منه شيء وسوف استخدمه لخيرته وصالحه، وسوف أستفيد منه أيضاً بصورة مباشرة. أربعون ألف فرنك مبلغ كبير، أستطيع أن أشتري به شركاء سواء من السجناء الذين يقضون عقوبتهم أو الذين يطلق سراحهم أو المراقبين. فالحسابات إيجابية النتائج. وحال وصولي يجب أن أهرب بصحبة ديغا وكالكاني. هذا هو الموضوع الوحيد الذي ينبغي أن يستقطب مشاعري وأفكاري. تلمست المشرط فأحسست بالرضى عندما شعرت ببرودة مقبضه الفولاذي، واقتناء سلاح رهيب كهذا يبعث على الثقة. ولقد عرفت قدره في حادثة العرب.

اصطف السجناء حوالي الساعة الثالثة صباحاً أمام شبك الزنزانة وأحد عشر كيساً بحرياً من القماش السميك المترع، وعلى كل كيس بطاقة، أستطيع أن أرى واحدة من وراء الشبك، قرأت: بيير. العمر ثلاثون سنة - الطول: ثلاثة وستون ومئة سنتيمتر. القياس: اثنان وأربعون - الحذاء: أربعون - السجل - X.

بيير هذا، هو بييرو المجنون من بوردو حكم عليه في باريس لمدة عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة من أجل جريمة قتل. إنه فتى طيب مستقيم وصادق أعرفه جيداً. أطلعتني هذه البطاقة على مدى تنظيم الإدارة التي تدير سجن الميناء. وهنا أفضل مما عليه الحال في القلعة، حيث يجربون الأمتعة على السجن تجريباً. هنا كل شيء مدون، وكل واحد يحصل على أمتعة مفصلة على جسده. ومن طرف الشبك المحاذي لسطح الكيس رأيت أن لون اللباس أبيض مخطط بخطوط طولانية حمراء ولايس هذا اللباس لا يخفى عن الأنظار

ويعرض لإرادتي كنت أبحث في ذهني عما يرسمه هذا الذهن من صور للمحكمة والقضاة والمحلفين والمدعي العام.. الخ فلا يطاوعني ولا أستطيع أن أحصل منه إلا على الصور الواقعية. وأدركت أنه لكي أعيش المشاهد التي عشتها حية في سجن التوقيف أو بوليو فلا مناص من العزلة التامة، وأحسست إذ أدركت هذا، بشيء من السلوان، وفهمت أن الحياة الجماعية التي تنتظرنني ستفرز لي حاجات أخرى، وردود فعل أخرى، وخططاً أخرى.

اقترب بيير المجنون من الشبك وقال:

— كيف الحال بابي؟

— وأنت؟

— لا بأس. لقد كنت أحلم دوماً بالسفر إلى أمريكا، وبما أنني مقامر لم أستطع توفير نفقات السفر، ولكن رجال الشرطة فكروا في أن يقدموا لي هذه الرحلة مجاناً. حسناً، ليس لدينا ما نقوله غير هذا أليس كذلك يا بابي؟

كان يتكلم على سجيته دون تبجح ولا مباهاة وتحس إحساساً صادقاً بثقته بنفسه وهذه الرحلة المجانية التي قدمها له رجال الشرطة ليذهب إلى أمريكا لها فوائدها.

— أنا أفضل الذهاب إلى سجن الميناء على البقاء خمسة عشرة سنة في سجن إفرادي في فرنسا.

— يبقى أن نعرف النتيجة النهائية يا بييرو، ألا تعتقد ذلك؟

— الإصابة بالجنون في الزنزانة، أو الموت في بؤس فيزيولوجي في سجن تحت الأرض من سجون فرنسا هو أسوأ من الموت بالحذام أو بالحمى الصفراء هناك. هذا رأيي.

— وكذلك هو رأيي

— انظر هذه البطاقة إنها بطاقتك

انحنى فنظر إليها مدققاً ليقرأها فتهجأها ثم قال:

— إنني متشوق لارتداء هذه الملابس، أشتهي أن أفتح هذا الكيس وأن البس. لن يقولوا لي شيئاً لأن هذه الامتعة أعدت لي.

— دعها وشأنها. تريث. ليس الآن أوان المتاعب فأنا بحاجة إلى الهدوء.

فأطاع وانسحب مبتعداً عن الشبك.

نظر إلي لويس ديغا وقال:

— يا صغيري! هذه ليلتنا الأخيرة وغداً نبتعد عن وطننا الجميل

— وطننا الجميل جداً ليس فيه عدالة جميلة يا ديغا. يمكن أن نتعرف على بلاد

أخرى أقل جمالاً من بلدنا، ولكن وسائلهم في معاملة من أخطؤوا أكثر إنسانية. لا أعتقد أنني أحسنت القول، ولكن المستقبل سوف يكشف إن كنت على حق. وخيم الصمت من جديد.

الرحيل إلى سجن الميناء

في الساعة السادسة أعلن الاستعداد على ظهر السفينة، جاء بعض السجناء يقدمون لنا القهوة ثم وصل أربعة من المراقبين في ملابسهم البيض الناصعة، والأزرار ذهبية اللون. وكان لأحدهم شارات ذهبية على شكل ٧ على الكم الأيسر ولا شيء على كتفيه.

— أيها المبعدون! اخرجوا مثنى مثنى في الممر، وليحضر كل منكم الكيس الذي يخصه فالاسم مكتوب على البطاقة. خذوا أكياسكم وتراجعوا نحو الجدار مقابل الممر، والكيس أمامكم.

استغرقت عملية الاصطفاف ووضع الأكياس أمامنا عشرين دقيقة
— انزعوا ملابسكم واحزموها بالسترة من أكمامها حسناً جداً. أنت هناك! اجمع الصرر وضعها في الزنزانة. البسوا أولاً السروال، ثم النسيج الجلدي المسرود، ثم البنطال المخطط السميك، ثم السترة، ثم الجوارب، ثم الحذاء. هل ارتديتم جميعاً؟
— نعم يا سيدي المراقب.

— حسناً. اتركوا المدرعة^(١) خارج الكيس لوقت المطر لتحميكم من البرد. اتبعوني مثنى مثنى.

سار ذو الشارات في المقدمة واثنان على الجانب، والرابع في المؤخرة. كانت وحدتنا الصغيرة تتوجه نحو الساحة. وفي أقل من ساعتين كان ثمان مئة من السجناء مصطفين. ونودي على أربعين رجلاً وكنا في جملتهم مع لويس ديغا وثلاثي الهاربين جولو وكالكاني وسانتني. واصطف هؤلاء الأربعون عشراً عشراً، وعلى رأس كل وحدة مراقب لا قيود ولا أغلال. وفي الأمام على بعد ثلاثة أمتار منا يمشي عشرة من رجال الدرك القهقري وجوههم نحونا والبنادق القصيرة بأيديهم.

فتح رتاج القلعة وبدأت الوحدة بالسير وكلما تقدمنا في خروجنا انضم إلينا عدد من رجال الدرك مسلحين بالبندقيات أو الرشيشات وجمهرة مجنونة من الفضوليين يبعدهم رجال الدرك عنا، وقد جاؤوا ليشهدوا ترحيلنا إلى سجن الميناء. وأثناء المسيرة سمعنا صغيراً خفيفاً صادراً من نافذة احد المنازل، رفعت رأسي فرأيت زوجتي نينيت وصديقي أنطوان، وعلى نافذة أخرى كانت زوجة ديغا وصديقه أنطوان جيلي. وقد رأهم ديغا أيضاً. كنا نمشي وأبصارنا شاخصة نحو النافذة بقدر ما سمح به الوقت. وهذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها زوجتي وصديقي الذي مات فيها بعد في حادث انفجار في مرسيليا.

(١) الدراعة أو المدرعة: لباس من الصوف: كتزة أو بولوفر: المترجم.

الصمت مطبق ولا ينبس أحد بينت شفة، فلا صجين ولا مراقب ولا دركي ولا أحد من الجمهور عكر هذه اللحظة المؤثرة فعلاً حيث يدرك الناس كلهم أن هؤلاء الثماني مئة وألف الرجل سيخفقون من الحياة إلى الأبد.

صعدنا على ظهر السفينة، ونحن الأربعين الأوائل توجهنا إلى قاع السفينة، إلى قفص محاط بقضبان حديدية كبيرة، ورأيت لوحة مثبتة كتب عليها: قاعة رقم ١ أربعون رجلاً، فئة خاصة جداً، حذر واحتياط. أعطي كل واحد منا سرير أرجوحي ملفوف، وتوجد حلقات كثيرة لتعليق الأشرطة الأرجوحية.

فوجئت بأحدهم يعانقني، إنه جولو. إنه يعرف هذا كله حق المعرفة، لقد سبق له مثل هذا الموقف منذ عشر سنوات. قال:

— أسرع. تعال من هنا وعلق كيسك في الحلقة التي سوف تعلق عليها سريرك الأرجوحي. فهذا المكان قريب من كُوتين مغلقتين، ولكن عندما يبحر سوف تفتحان فنستشق الهواء دوماً فهنا خير مكان. عرفت جولو بديفا. وبينما هما يتحدثان تقدم رجل فاعترضه جولو بذراعه وقال له:

— لا تأت من هنا أبداً إذا أردت الوصول حياً إلى السجن هل فهمت؟

— نعم.

— هل عرفت السبب؟

— نعم.

— إذن إنصرف.

وأنصرف الرجل وسرديفاً بمظهر القوة هذا ولم يخف سعادته إذ قال:

— معكم استطيع النوم هادئاً.

فأجابه جولو.

— أنت هنا أكثر أمناً مما لو كنت في دارة (فيلا) على الشاطئ ولها نافذة مفتوحة.

استغرقت الرحلة ثمانية عشر يوماً وحدث فيها حادث واحد:

في إحدى الليالي، صحا النائمون على صرخة مدوية، ووجد شخص مقتول بمذبة مغروسة بين كتفيه وقد نفذت من تحت السرير وطولها عشرون سنتمراً. المذبة سلاح رهيب.

وعلى الفور حضر خمسة وعشرون أو ثلاثون مراقباً وقد شهروا علينا مسدساتهم وبنذرياتهم وصاحوا بنا:

— تعروا جميعاً وبدون تأخير

ونخلعنا ملابسنا وأدركت أن هناك حملة تفتيش، فوضعت المشرط تحت قدمي اليمين العاري متكناً على ساقَي الأيسر بصورة أشد لأن نصله يجرحني ولكن قدمي تغطي

المشروط. مر أربعة من المراقبين وبنوا بالتنقيب والبحث في الأحذية والملابس، وقبل أن يدخلوا تركوا أسلحتهم وأعادوا إغلاق الباب على أنفسهم وهناك في الخارج من يراقبنا وسلاحهم مسدد نحونا باستمرار. وقال أحد رؤسائهم: من يتحرك يقتل. وعثروا أثناء التفتيش على ثلاث مدى ومسمارين كبيرين مشحوزين وفتاحة سدادات، وأنبوبة ذهبية، وأخرج ستة رجال إلى السطح وهم عراة. ثم وصل رئيس القافلة المقدم بارو وبصحبه طبيبان من المستعمرات وقائد السفينة. وبعد أن خرج المراقبون عدنا إلى ارتداء ملابسنا دون انتظار الأوامر، والتقطت مشرطي. انسحب المراقبون إلى آخر السفينة وكان بارو في الوسط والآخرين قرب السلم يقابلهم الرجال الستة العراة وهم على خط مستقيم وفي حالة تاهب. قال المراقب الذي اشترك في التفتيش مشيراً إلى السكين وإلى صاحبها: هذه لهذا.

— صحيح. إنها لي.

قال بارو: حسناً. سيكمل رحلته في زنزانة فوق الآلات. وهكذا كان كل رجل يتعرف على أدواته: صاحب المسامير على مساميره وصاحب فتاحة القوارير على فتاحته. الخ.

وأخذ كل واحد منهم يصعد السلم وهو لا يزال عارياً، ويرافقه اثنان من الحرس. وبقي على الأرض سكين وأنبوبة ذهبية لرجل واحد. إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، ذو بنية قوية، ولا يقل طوله عن ثمانين ومئة سنتيمتر. جسم ضليع وعينان زرقاوان. قال الحارس وهو يمد الأنبوبة الذهبية:

— هذه لك، أليس كذلك؟

— نعم إنها لي.

قال المقدم بارو وماذا تحتوي؟

— ثلاث مئة ليرة انجليزية ومئتي دولار وماستين وزن كل واحدة منها خمس قراريط.

— حسناً سنرى.

وفتح الأنبوبة وبما أن الجنود يتحلقون حول المقدم، فإن أحداً لم ير شيئاً ولكن سمع صوته وهو يقول: صح، ما اسمك؟

— سيلفيديا روميو.

— أنت إيطالي؟

— نعم ياسيدي.

— لن نعاقبك على اقتنائك الأنبوبة وإنما من أجل هذه المدية.

— عفوا سيدي هذه المدية ليست لي.

قال الحارس: لا تقل هذا لأنني وجدتها في حذائك.

— أكرر بأن السكين ليست لي.

— إذن أنا كذاب.

- لا. وإنما أخطأت.
قال المقدم: ولمن تكون إذن؟ وإذا لم تكن لك فإنها لأحدهم.
- إنها ليست لي وهذا كل شيء.
- إذا كنت لا تريد أن نجسك في حبس فوق مراجل السفينة التي سوف تشويك شيئاً فقل لمن هذه المدية؟
- لا أدري
- أيعثر في حذائك على سكين ولا تعرف لمن هي؟ أنتخذني هزواً؟ فلماذا إنها لك، وإما أنك تعرف من وضعها. أجب.
- ليست لي وليس علي أن أقول لمن هي، ومتى كنت لشرطتكم جاسوساً؟
أم تراني أحد حراس السجن اعتباطاً؟
- أيها المراقب ضع الأغلال في يدي هذا الرجل. وسوف تدفع غالياً ثمن هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الانضباط.
وأخذ المقدمان يتحدثان فيما بينهما. ووجه قائد السفينة أمراً لمعلم آخر كان صاعداً إلى أعلى السلم.

وبعد لحظات جاء بحار بروتاني حباه الله بسطة في الجسم، يحمل بيده دلواً خشبياً ممتلئاً حتى بماء البحر، وجبلاً بضخامة الرسغ. ربط الرجل إلى آخر درجة في السلم على ركبتيه، وطفق البحار يغطس الحبل في ماء الدلو وينهال به ضرباً على مؤخرة الشيطان المسكين وعلى كليتيه وظهره ببطء ولم تصدر من بين شفثيه أنه واحدة حتى سال الدم من جسمه.

وفي صمت القبور هذا انطلقت صيحة احتجاج من قفصنا:
- يا عصابة الأنزال، أيها القتلة، أيها القذرون الفاسدون وكلما أمعنوا بالتهديد بإطلاق النار ازددنا زججاً. وفجأة صاح المقدم: علي بالبخار.
وأدار بعض البحارة دواليب وانطلقت نفاثات البخار التي هبت علينا بقوة، إلى درجة أننا انبطحنا جميعاً في أقل من دقيقتين، لأن البخار كان موجهاً على ارتفاع الصدر، وهيمن علينا خوف جماعي، ولم يجرؤ المحترقون على الشكوى، ولم يدم هذا غير دقيقة واحدة، ولكنه أربب الجميع.

آمل أن تكونوا قد فهمتم أيها الرؤوس اليابسة، ولأقل حادثة سأطلق عليكم البخار مفهوماً؟ انهضوا.
ثلاثة رجال فقط احترقوا فعلاً فأرسلوا إلى المصح، وأعيد المجلود إلينا، وقد توفي بعد ست سنوات.

خلال هذه الأيام الثمانية عشر من الرحيل، اتسع وقتنا لجمع المعلومات، أو حاولنا أن نتكون لدينا فكرة عن سجن الميناء، فما من شيء كان يجري وفق تخميناتنا، ومع ذلك

فعل جولو المستحيل لتزويدنا بالأخبار. علمنا مثلاً بأن سان لوران قرية تبعد عن البحر عشرين كيلومتراً، على نهر يدعى ماروني، وقد وضع جولو قائلاً:

— في هذه القرية سجن الإصلاحية التابع لمركز السجن البحري. وفي هذا المركز يجري الاقتراع لفرزنا إلى قثات. فالبعدون يذهبون مباشرة إلى إصلاحية تسمى سان جان وهي تبعد مئة وخمسين كيلومتراً والسجناء يصنفون على الفور في ثلاث زمر:

أولاً. الخطرون جداً وسوف ينادى بأسمائهم ساعة وصولهم، ويوضعون في زنزانات المعسكر التأديبي بانتظار نقلهم إلى جزر سالو ويحتجزون فيها إلى وقت محدد أو مدى الحياة. تقع هذه الجزر على بعد خمس مئة كيلو متر من سان لوران ومئة كيلومتر من كاين. وتدعى الكبرى رويال والثانية سان جوزيف وصغرى الثلاثة جزيرة الشيطان، والرجال في هذه الجزيرة سجناء سياسيون.

ثانياً. الخطرون في الزمرة الثانية ويبقون في معسكر سان لوران حيث يقومون بأعمال البستنة والزراعة، وإذا اقتضى الأمر أرسلوا إلى معسكرات قاسية جداً مثل معسكر فورسته، شارفن، كاسكارد السيرك الأحمر، وأخيراً الكيلومتر اثنان وأربعون المدعو بمعسكر الموت.

ثالثاً. زمرة الأسوياء، وهم يستخدمون في الإدارة والمطابخ وتنظيف القرية وفي مختلف الأعمال، كالنجارة والحداة والصنع، والكهرباء والتنجيد والخياطة.. الخ.

إذن الساعة الحاسمة هي ساعة الوصول. فإذا نادونا وقادونا باسمائنا إلى الزنزانة، فمعنى ذلك أننا احتجزنا في الجزر وقضي على كل أمل في الهروب. وتبقى لدينا فرصة، واحدة، وهي إحداث جرح في الركبة أو البطن لننقل إلى المستشفى ومنه نهرب. يجب أن نتجنب الذهاب إلى الجزر بأي ثمن. وهناك فرصة أخرى إذا كان المركب الذي سوف ينقل المحجوزين غير مهياً للقيام بالرحلة فلا مناص من إخراج النقود لرشوة الممرض لكي يحقنا بإبرة من روح التريپتاتين في المفصل ويدخل شعرة مغموسة في البول فيحدث الالتهاب، أو أنه ينشقنا الكبيريت، ثم نقول للطبيب إن الحرارة بلغت الأربعين، وخلال هذه الأيام من الانتظار يجب الذهاب إلى المستشفى مهما كلف الأمر. وإذا لم يناد علينا وتركتنا مع الآخرين في برأكات المعسكر وحينئذ سيكون لدينا متسع من الوقت للتحرك. وفي هذه الحالة ينبغي أن نبحث عن موظف في داخل المعسكر، بل نجرب رشوة المحاسب ليؤمن لنا في القرية مكان نزاح المجاري أو الكناس أو أي عمل في منشأة أحد المتعهدين المدنيين وبالخروج من الإصلاحية والعودة مساء سوف نتاح لنا فرصة الاتصال مع المحكومين المحررين الذين يعيشون في القرية، أو مع الصينيين لكي يهيئوا لنا الهروب. قيل لنا: تجنبوا المعسكرات حول القرية فكل من يدخلها تحطفه الموت في سرعة. وهناك معسكرات لم يعيش فيها رجل أكثر من ثلاثة أشهر. وفي الغابة يفرض على السجن أن يقطع متراً مكعباً من الخشب في اليوم. كل هذه المعلومات الثمينة جمعها لنا جولو خلال

الرحلة . وبالنسبة إليه فإنه يستعد للذهاب إلى السرداب لأنه عائد من هروب وهو يحمل في أنبوتيه سكيناً أو بالأحرى موسى صغيرة وعند الوصول سوف يخرجها ويشق بها ركبته، وأثناء نزوله من المركب سيرمي بنفسه عن السلم على مشهد من الجميع، ويظن أنه سينقل مباشرة إلى المستشفى وهذا ما حصل بالفعل .

سان لوران دو ماروني

استبدل المراقبون ملابسهم لإجراء التبادل، عادوا إلى ملابسهم البيض ووضعوا على رؤوسهم قلمسوات من نوع جديد خاص بالمستعمرات بدلاً من عمارتهم السابقة . قال جولو: لقد وصلنا . وصار الجو خانقاً لشدة الحر بعد إغلاق الكوى التي من خلالها رأينا الغابة فنحن إذن في ماروني، والماء موحل . هذه الغابة العذراء خضراء ومزهرة، والطيور تخلق مذبذبة من صوت صفارة السفينة التي تجري في ببطء شديد عما يسمح برؤية تفاصيل الأشياء يسر وراحة، ورؤية هذه النباتات الخضرة القائمة الكثيفة والنامية جداً . رأينا المنازل الخشبية وسطوحها المصنوعة من صفائح التوتياء . النساء والرجال السود أمام منازلهم ينظرون إلى المركب في عبورة . وقد اعتادوا رؤيته وهو يفرغ شحنته البشرية، لهذا لم تبدر عنهم أية إشارة تحية أثناء مروره . ثلاث صفرات وضجيج مروحة السفينة أنبأتنا بالوصول ثم سكن هدير الآلات حتى لتكاد نسمع طنين الذبابة، لا همس ولا كلام . جولو معه موساه مفتوحة، شق بها البنطلان من ناحية الركبة ومزق أطراف الخياطة، وعليه أن لا يجرح ركبته إلا عند الجر حتى لا يقطر دمه على الأرض من مسافة أطول .

فتح المراقبون باب القفص واصطففنا ثلاث ثلاث وكنا في الصف الرابع . كان جولو بيني وبين ديغا، ثم صعدنا الجسر وكانت الساعة الثانية من بعد الظهر، وشمس لاهبة تدهم جمجمتي الخليقة وعيني . وبعد اصطفاطنا على الجسر توجهنا نحو المعبر، ولدى اهتزاز العمود الناشيء عن دخول أوائل القادمين على المعبر، وضعت كيس جولو على كتفه بينما راح هو يشد جلد ركبته ويفرز فيه موساه فأحدث بضربة واحدة جرحاً طوله بين سبعة وثمانية سنتمترات وسلمني الموس، وامسك كيسه وفي اللحظة التي سلك فيها المعبر رمى بنفسه وتدرج إلى أسفل . فرفعه ولما راوه جريحاً أحضروا له محفة . وسار (السيناريو) وفق الخطة المرسومة وذهب بحمله رجلان على الحفة .

كانت هناك جبهة من الناس مختلفة ألوان ملابسهم تنظر إلينا بفضول . سود وسمر،

هنود وصينيون، وحثالة من البيض (هؤلاء البيض ربما كانوا من السجناء المحررين) كانوا يتفحصون كل من وضع قدمه على اليابسة، وقد اصطف بعضهم خلف بعض. ومن الطرف الآخر مراقبون ومدنيون في هندام حسن وغلمان ونساء قصصن شعورهن قصة صيفية. وكلهم يضعون على رؤوسهم قبعات المستعمرة. وهم أيضاً ينظرون إلى القادمين الجدد. وعندما بلغ عددنا المئتين اهتزت القافلة مشينا مسافة عشر دقائق تقريباً حتى وصلنا إلى باب عالٍ ذي ألواح من السنديان، كتب عليه «إصلاحية سان لوران دوماروني» الاستيعاب: ثلاثة آلاف شخص. انفتح الباب ودخلنا عشرين عشرين.

إلى الأمام سر: واحد، اثنان، - واحد، اثنان. وقد شهد وصولنا العديد من السجناء الذين تعلقوا بالنوافذ أو الحجارة الكبيرة ليملؤوا أعينهم بمنظرنا.

وحين وصلنا إلى وسط الفناء نودي علينا أنقفوا. ضعوا أكياسكم أمامكم. وأنتم الآخرون وزعوا عليهم القبعات، وأعطى كل منا قبة من القش، وما كان أخزجنا إليها، إذ سقط ثلاثة منا بتأثير ضربة الشمس.

أخذنا أنا وديغا نتبادل النظرات، لأن جندياً ذا شارة على كفه أمسك بلائحة بيده، وتذكرنا ما قاله لنا جولو. نادى على غيتو، وقيل له: من هنا، وأحاط به مراقبان، وذهب سوزيفي كذلك وجيرازول.

- جولو بنبار!

- جولو بنبار (وهو جولو) مجروح وقد نقل إلى المستشفى.

- حسناً هؤلاء هم المحتجزون في الجزر. ثم أضاف:

- انتبهوا. من يسمع اسمه فليخرج من الصف مصطحباً كيسه على كتفه، وليذهب

للأصطفاف أمام البركة الصفراء ذات الرقم - ١ -

- فلان! حاضر.. الخ

تواجدنا أنا وديغا، وكارييه مع المصطفين الآخرين أمام البركة، وفتح بابها فدخلنا قاعة مستطيلة، يبلغ طولها عشرين متراً تقريباً. وفي وسطها عرصة متران. وعن اليمين وعن الشمال حاجز حديدي يمتد من أول القائمة حتى آخرها، وأسرة من القماش مشدودة بين الحاجز والجدار، ولكل سرير غطاء.

يختار كل واحد المكان الذي يعجبه. ديغا وبييرو المجنون وسانتوري وغرانده وأنا أخذنا أمكنتنا متجاورين. وتشكلت على الفور جماعتنا. توجهت نحو آخر القاعة فראيت رشاشات الاستحمام (الدوش) على اليمين، والمراحيض على اليسار وليس فيها ماء جارٍ. تسلفنا قضبان النوافذ وشاهدنا عملية التوزيع على القادمين الآخرين. كنا أنا وبييرو وديغا في غاية الإبتهاج لأننا لم نحتجز ولأننا في بركة واحدة، وإلا كنا في زنزانة كما أوضح لنا جولو. الجميع محبورون وبعد أن استتب كل شيء في حوالي الساعة الخامسة قال لنا

غراندته: إنه لشيء غريب في هذه القافلة لم يناد على محتجز واحد. وهذا لعمرى أفضل.
غراندته هذا، هو الذي سرق الصندوق الحديدي من معامل الكهرباء وقد أضحكت
هذه العملية فرنسا كلها.

على خط الاستواء، الليل والنهار يأتيان بغير شفق ولا سحر. يولج من أحدهما إلى
الأخر فجأة طوال السنة، وفي الساعة ذاتها. يحلّ الظلام في الساعة السادسة والنصف
مساء. وفي تلك الساعة يحضر سجينان عجوزان ومعهما مصباحان يعملان على النفط
فيعلقانها في السقف فيصدر عنها ضوء خافت، وهكذا يبقى ثلاثة أرباع المهجع في غيب
دامس وفي الساعة التاسعة يستسلم الجميع للنوم. يكاد الحر يقتلنا، ولا نحس نسمة،
فتعرينا إلا من السروال. استلقيت بين ديغا وبيرو وثرثرتنا ثم غمنا وفي صباح الغد، كان
الليل لا يزال مرخياً سدوله عندما دق النفير. فنهضنا واغتسلنا وارتدينا الملابس. قدموا لنا
قهوة وخبزاً مضاعفاً وقد ثبت إلى الجدار رف خشبي لنضع عليه الخبز والصحن وباقي
حوائجنا دخل علينا في الساعة التاسعة مراقبان وسجين شاب في ملابس بيض غير مخططة.
الجنديان من كورسيكا ويتكلمان اللغة الكورسيكية مع مواطنيهم من السجناء، وفي هذه
الأيام كان المريض يتجول في المهجع وعندما اقترب مني قال لي:

— كيف الحال بابي هل عرفتني؟

— لا

— أنا سيرا الجزائري تعرفت عليك عند دانتني في باريس.

— آه نعم لقد تذكرتك الآن. إنك أبعدت عام تسعة وعشرين وتسع مئة وألف أي

منذ عشر سنوات وهلا تزال هنا؟

— نعم. لا يمكن الذهاب في مثل هذه السرعة. أنصحك بأن تتمارض. ومن هذا؟

— هذا صديقي ديغا.

— وانت أيضاً سوف أسجل اسمك في عداد المرضى. أنت يا بابيون مصاب

بالزحار، وأنت أيها الكهل مصاب بأزمات الريو. سأراكما في العيادة في الساعة الحادية
عشرة، ولي معكما حديث.

ثم تابع طريقه ونادى بصوت مرتفع: من فيكم مريض؟

ثم توجه نحو من رفعوا أصابعهم وسجل أسماءهم، ثم مربنا ثانية ولكنه هذه المرة في
صحبة مراقب أسمر عجوز فقال:

— أقدم لك يا بابيون رئيسي، إنه المراقب الممرض بارتلوني. يا سيد بارتلوني هذان

صديقاَي اللذان حدثتك عنهما.

— حسناً يا سيرا سنرتب الأمور في العيادة، اتكل علي.

وفي الحادية عشرة جاؤ والاستدعائنا، وكنا تسعة مرضى، واجتزنا المعسكر سيراً على

الأقدام بين البراكات، ووصلنا إلى براكاة جديدة وهي الوحيدة المصبوغة بالأبيض، وعليها صليب أحمر، فدخلنا إلى قاعة الانتظار حيث تواجد ستون شخصاً تقريباً.

كان في كل ركن من أركان القاعة مراقبان، وظهر سيرا بقميصه الأبيض الناصع كقمصان الأطباء. فقال: أنت، وأنت، ادخلا فدخلنا حجرة عرفنا للتو إنها حجرة الطبيب، وكان يتحدث إلى ثلاثة من الكهول باللغة الإسبانية عرفت منهم لأول وهلة الأسباني فرناندز الذي قتل ثلاثة من الأرجنتينيين، في مقهى مدريد بباريس. وبعد أن تبادلنا الحديث أدخله سيرا إلى مرحاض يطل على القاعة، ثم سار نحونا — دعني أقبلك يا بابيون فأنا سعيد بأن أسدي خدمة لك ولصديقك أوه دعني أتكلم.. كلاهما محجوز عليه أنت بابيون مدى الحياة وصديقك لمدة خمس سنوات. هل معكما مال؟

— نعم

— اذن ليعطني كل منكما خمس مئة فرنك وغداً تنتقلون إلى المستشفى أنت بسبب الزحار، وأنت يا ديغا اقرع الباب ليلاً، والأفضل من ذلك أن يتادي أحدكم الحارس ويعلمه بأن ديغا يحتق وعلي الباقي. بابيون لا أسالك إلا شيئاً واحداً إذا تبرمت من شيء أعلمني حتى أسرع إلى تلييتك.

مقابل مئة فرنك أسبوعياً يمكن الاحتفاظ بنا في المستشفى شهراً. دخل فرناندز إلى دورة المياه وأعطى سيرا خمس مئة فرنك على مشهد منا، ثم دخلت أنا وقدمت له بعد خروجي ألفاً وخمس مئة فرنك، فرفض خمس المئة وقال لي: هذا المبلغ هو للحارس ولا ابتغي لنفسى شيئاً، فنحن أصدقاء أليس كذلك؟ وفي اليوم التالي كنا أنا وديغا وفرناندز في زنزانة واسعة في المستشفى، وكان ديغا قد لحق بنا في منتصف الليل. ومرض هذه القاعة رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، واسمه شاتال، وعنده كل المعلومات عنا من سيرا، فحين يحضر الطبيب سيقدم له نتيجة فحص للبراز ترتفع فيه نسبة الجراثيم ارتفاعاً عالياً، وبالنسبة لديغا فقد أشعل له قليلاً من الكبريت قبل الزيارة بعشر دقائق ونشقه غاز الكبريت بواسطة منشفة كانت على رأسه، وفرناندز تورم خده من جراء حقنه تحت الجلد داخل الوجنة وانتفخت إلى أكبر مدى ممكن خلال ساعة من الزمن، وكان هذا الممرض ذا ضمير حي إلى درجة أن الورم قد بلغ العين وأغمض جفنيها. الزنزانة في الطابق الأول من بناء فيه حوالي سبعين مريضاً ومعظمهم يشكون من الزحار.

سألت الممرض عن جولوف فقال: إنه في البناء المقابل، وهل ترغب في أن أبلغه شيئاً؟

— نعم. قل له: إن بابيون وديغا هناك وإننا سنظل من النافذة.

كان الممرض يستطيع الدخول إلى القاعة والخروج منها متى شاء، وما عليه إلا أن يقرع الباب فيفتحه عربي وهو سجين مكلف حمل المفاتيح وهو بهذا يساعد المراقبين.

على عین الباب ويساره يجلس ثلاثة من المراقبين، والبنادق القصيرة على ركبهم. وقضبان النوافذ هي خطوط سكة حديدية، وتساءلت كيف يمكن قطعها. جلست الى النافذة. بيني وبين البناء الذي فيه جولو حديقة زاحرة بالأزهار الجميلة. ظهر جولو على الشباك، ويده لوح حجري أسود كتب عليه بالحكك: «برافو».

وبعد ساعة أحضر لي الممرض رسالة من جولو قال فيها: «أحاول الانتقال إلى قاعتكم، وإذا لم أفلح حاولوا أنتم الحضور إلى قاعتي. إن في قاعتكم أعداء لكم. إذن أنتم محتجزون؟ صبراً لسوف نتمكن منهم. إن الحادث الذي جرى لنا في محطة الكهرباء حيث تشاركنا الألم ربط أحدنا بالآخر رباطاً وثيقاً.»

كان جولو اختصاصياً بمطرفة الخشب، لذا لقب بالرجل ذي المطرفة. . كان قد وصل في سيارة أمام دكان بائع مجوهرات في وضح النهار، في الوقت الذي كانت فيه المجوهرات في المقدمة مكونة في أغلبها. وكان يقود السيارة رجل آخر، توقفت السيارة، والمحرك لا يزال يعمل، فنزل مسرعاً مجهزة بمطرفة خشبية ضخمة، فحطم الواجهة بضربة قوية، وتناول أكبر عدد ممكن من علب المجوهرات، وعاد إلى السيارة التي انطلقت مسرعة. وبعد أن نجح في ليون وأنجه وتور والهافر، هاجم محلاً كبيراً للمجوهرات في باريس في الساعة الثالثة بعد الظهر مستولياً على مليون مجوهرات تقريباً. ولم يرو لي لماذا وكيف انكشفت هويته. حكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً. وهرب بعد أربع سنوات، وقبض عليه ثانية وهو في طريق عودته إلى باريس، إذ كان يبحث عن الذي أخفى عنده المسروقات ليقضه لأنه لم يسلم لأخته المبلغ الذي كان مديناً به إليه. رآه هذا الرجل المؤمن على المال في الشارع الذي يسكن فيه، فأخبر رجال الشرطة بوجوده، فتم القبض عليه وأعيد معنا إلى السجن.

مضى على وجودنا في المستشفى أسبوعان، وبالأمر أعطيت شاتال مئتي فرنك وهذا هو الثمن لبقائنا كلينا في المستشفى. ولكي نكتسب اعتباراً، وزعنا التبغ على من ليس عنده، عقد أحد المحكومين بالأشغال الشاقة صداقة مع ديغا، واسمه كارورا، وهو من مرسيليا وصار مستشاراً له. وكان يقول له مراراً وتكراراً إذا كنت تملك مبلغاً من المال، فإن أهل هذه القرية يعرفون ذلك (عن طريق الصحف التي تأتي من فرنسا وفيها ذكر عمليات السطو الكبيرة) وبالتالي يفضل عدم الهروب، لأن السجناء الذين أطلق سراحهم يتربصون بالهاربين ويقتلونهم ليسلبونهم أمبيوتهم. وقد أخبرني ديغا بحواره مع العجوز كارورا. عبثاً حاولت إقناعه بأن هذا العجوز لا يصلح لشيء، وقد مضى عليه في السجن عشرون عاماً، فضرب بكلامي عرض الحائط، وقد جهدت كثيراً لكي يلتزم بعهدي له.

أوصلت بطاقة صغيرة إلى سيرا، أطلب منه فيها أن يرسل لي كالكاني، ولم يطل الأمر ففي الغداة كان كالكاني في المستشفى، في قاعة لا قضبان لها. ما العمل لإعادة الأنوبة له؟ أحطت شاتال علماً، بأنني أرغب التكلم معه لأمر ضروري، وأوهمته بأن المسألة تتعلق

بالفرار، ووعدني بإحضاره لمدة خمس دقائق عند الساعة الثانية عشرة بالضبط، أي ساعة تبديل الحرس، وذلك بأن يرفعه لي من الشرفة ليكلمني من النافذة، وكل ذلك دون مقابل. لقد وافاني كالكانى الى النافذة ظهراً، وعلى الفور وضعت أنبوبتي في كفه فوقف أمامي يبكي. وبعد يومين أرسل لي بجملة مع خمس ورقات من فئة ألف فرنك وكلمة واحدة: شكراً.

رأى شباتال، الذي أحضر لي المجلة، المبلغ ولم يفاتحني به، وأردت أن أمنحه شيئاً فرفض فقلت له:

— نحن نرغب في الهروب فهل تشاركنا؟

— لا يا بابي، أنا مرتبط بجهة أخرى، ولا أرغب في محاولة فرار قبل مضي خمسة أشهر أي إلى حين إطلاق سراح شريكى وسوف يكون الفرار معداً إعداداً أفضل وأوثق.

وبما أنك من المحتجزين فأنا أقدر سبب استعجالك. ولكن الهروب من هنا مع وجود هذه القضبان الحديدية أمر عسير جداً، ولا تتوقع مني عوناً، فأنا لا أود المجازفة بمكانى. إنني أنتظر هنا خروج صديقى بصبر وأناة.

— جيد جداً يا شاتال، فالصراحة في هذه الحياة واجبة. ولن أخاطبك بعد الآن في شيء أبداً.

قال: — ومع ذلك سأحمل لك البطاقات وأقوم بمهمات.

— شكراً شاتال.

سمعنا هذه الليلة طلقات رشيش، ثم علمنا في اليوم التالي أن رجل المطرقة قد هرب. أعانه الله. لقد كان صديقاً طيباً. ويبدو أن الفرصة سنحت له فاستغلها. هنيئاً له. وبعد خمسة عشر عاماً أي في سنة ١٩٤٨ كنت في هايتي حيث ذهبت بصحبة مليونير فنزويلي ووقعت عقداً مع رئيس الكازينو لأكون مديراً للميسر. وفي احدى الليالي وبينما كنت خارجاً من أحد الملاهي. حيث شربنا الشمبانيا كانت معنا في جملة الفتيات فتاة سوداء كالليل، غير أنها مثقفة كآية فتاة فرنسية عريقة قالت لي: جدتي الكاهنة تعيش مع كهل فرنسي. إنه هارب من كاين وهو معها منذ عشرين عاماً. إنه ثمل دوماً واسمه جول المطرقة. وفي الحال صحت من سكرتي وقلت:

— يا صغيرتي اصحبيني إلى جدتك الآن. وفي السيارة تكلمت السوداء مع السائق بلغة أهل هايتي فسلك بنا مسالك عديدة وفي الطريق مررنا بحانة متألفة. طلبت من السائق أن يتوقف فنزلت ودخلت ثم اشتريت زجاجتين من الشمبانيا وزجاجتين من الروم من الصناعة المحلية. ثم استأنفنا السير حتى وصلنا إلى شاطئ البحر أمام بيت أنيق أبيض مسقوف بالقرميد وماء البحر يكاد يصل إلى السلم. قرعت الفتاة الباب فخرجت امرأة سوداء طويلة اشتعل رأسها شيئاً، ترتدي

ثوباً ضافياً يبلغ كعبها. وتحدثت المرأتان بلغتهما، ثم قالت لي المرأة المسنة: تفضل، الدار دارك. دخلت قاعة نظيفة بضيئها مصباح وتكثر فيها الأسماك والعصافير.

— هل تود رؤية جولو؟ انتظر سيحضر.

جول، جول، هناك من يريد مقابلتك.

جاء رجل حافٍ، يرتدي منامة مخططة ذكرتني بملايس السجن وقد بدا عليه الهرم. قال:

— حسناً بول دوننج (كرة الثلج)، منذ الذي جاء يطلبني في مثل هذه الساعة؟

بابيون؟ مستحيل.

وأقبل يضمني بين ذراعيه وقال:

— قربي المصباح يا بول دوننج لأرى وجه صديقي. أجل هو أنت. أنت حقاً، فأهلاً بك.

فالمسكن والمبلغ الصغير الذي أملكه وحفيدة زوجتي كلها لك. ما عليك إلا أن تأمر.

شربنا الشمبانيا والروم وبين الفنية والفنية كان جولو يغني: قهرناهم أخيراً أترى؟ لا شيء يعدل المغامرة. لقد مررت بكونومبيا وينا فكوستاريكا وجامايكا، وهأنذا هنا منذ

عشرين عاماً، وأنا سعيد مع «كرة الثلج» هذه. وهي خير ما يمكن أن يتمناه رجل من

النساء. متى ترحل؟ أتبقى هنا طويلاً؟

— لا أسبوعاً فقط.

— ماذا جئت تفعل هنا؟

— لأتعهد الميسر في الكازينو بعقد مع مديره مباشرة.

— أتمنى لو تبقى طول حياتك بالقرب مني في هذا البلد الأسود، وأذا تعاقدت مع المدير

فاحذره، فإنه سيسعى لقتلك إذا رآك موفقاً في عملك.

— شكراً لك على هذه النصيحة.

— أما أنت يا كرة الثلج فأعدي حفلك الديني «ليس للسائحين» أريده حفلاً خاصاً

بصديقي. وفي فرصة أخرى سأحدثك يا بابيون عن هذا الحفل الديني المسمى «فودو» «ليس

للسائحين».

إذن جولو هرب. وأنا وديغا وفرناندز لا نزال نترقب. ومن وقت إلى آخر أمعن النظر

في قضبان النوافذ دون أن أثير انتباه أحد. إنها فعلاً خطوط سكك حديدية ولا حيلة لنا فيها.

بقي أن ندرس الفرار من الباب. هناك ثلاثة من الخفر المسلحين يحرسونه ليل نهار، وشدت

الحراسة بعد أن فر جولو. والدوريات تتابع عن كثب، والطبيب غدا أقل وداداً.

لا يأتي شتال أكثر من مرتين في اليوم، إما لحقن الإبر أو قياس الحرارة. ومر أسبوع

آخر، ودفعت مني فرنك مجدداً. وديغا يخوض كل حديث إلا حديث الهروب. رأى بالأمس

مبضي فقال: أما زلت تحتفظ به؟ لماذا؟ فأجبت في اكتئاب: لحماية نفسي ولحمايتك عند الضرورة.

— لم يكن فرناندز إسبانياً، بل أرجنتينياً، وهو كرجل لا عيب فيه وهو مغامر حقيقي، ولكنه تأثر أيضاً بما يروجه العجوز كارورا، وقد سمعته يوماً يقول لديغا: يبدو أن الجزر صحية جداً على نقيض الحال هنا وليس الطقس فيها حاراً. أما هنا فالإصابة بالزحار ممكنة جداً ويكفي أن تذهب إلى المراحض لتنتقل إليك الجراثيم. ففي كل يوم يموت في هذه القاعة رجل أو رجلان من أصل سبعين رجلاً وذلك بسبب هذا المرض. والظاهرة الغريبة التي تجدر ملاحظتها هي أنهم يموتون جميعاً عند انحسار الجزر البحري بعد الظهر أو في المساء ولم يمض أحد منهم في الصباح. لماذا؟ سر من أسرار الطبيعة.

دخلت هذه الليلة في حوار مع ديغا، قلت له: إن حامل المفاتيح العربي يدخل أحياناً في الليل إلى القاعة بغير تحفظ، ويكشف الأغشية عن وجوه بعض المرضى. وبمقدورنا أن نضربه ونرتدي ملابسه (فنحن جميعاً في القميص والخف ليس أكثر) وبعد هذا أخرج فأباغت أحد الجنود وانتزع منه بندقيته وأشهرها في وجوههم ثم أدخلهم الزنزانة وأوصد عليهم الباب، ثم نفقز عن جدار المستشفى من جهة ماروني ونلقي بأنفسنا في الماء، ثم نترك أنفسنا يدفعنا التيار جانحاً بنا وبعد هذا يخلق الله ما لا تعلمون. وبما أننا نملك المال فباستطاعتنا أن نشترى مركباً ومواد غذائية ونبحر. فرفض صديقاى هذه الخطة بل انتقداها. وأحسست أن اندفاعهما قد خمد، وخاب ظني، والأيام تمر والليالي تكرر.

نحن هنا منذ ثلاثة أسابيع إلا يومين ولم يبق سوى عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً في أقصى حد لمحاولة الهروب.

إن هذا اليوم لا أنساه، يوم الواحد والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٣٣. دخل القاعة جوان كلوزيو الرجل الذي حاولوا قتله في سان مارتين عند الخلاق. عيناه مغمضتان وممّلتان بالبثور وهو شبه أعمى. وكان شاتال مرة يهيم بالخروج فلحقت به. وفي سرعة قال لي: نقل المحتجزون إلى الجزر منذ أكثر من أسبوعين، أما هو فقد نسوه. ومنذ ثلاثة أيام أخبر عنه أحد المحاسبين، فوضع في عينيه حبة خروع، فعيناه المتقيحتان أوصلتاه إلى المستشفى. وقد كان شديد الحماسة للهروب وقال إنه مستعد أن يفعل أي شيء حتى القتل إذا اقتضى الأمر في سبيل الفرار. يملك ثلاثة آلاف فرنك. وحين تغسل عيناه بالماء الفاتر يستطيع الرؤية بوضوح. أطلعته على خططي في الهروب فاستحسنها ولكنه تابع يقول: لا بد، لكي نفاجئ المراقبين، من خروج اثنين منا أو ثلاثة إن أمكن، ونستطيع أن نفك أرجل السرير ويجعل كل منا رجل السرير ويهوي بها على رأس حارس. وفي رايه: إذا كانت بيدنا بندقية فإنهم يستبعدون أن نطلق النار، وبوسعهم طلب النجدة من الآخرين، من الجناح التالي من حيث هرب جولو، وهو على بعد عشرين متراً أو دون ذلك.

الهروب الأول – الفرار من المستشفى

لاقيت هذا المساء ديغا وبعده فرناندز. وصرح ديغا بأنه لا يتق بنجاح خطتي، وأنه سيدفع مبلغاً كبيراً ليتخلص من الحجر. لذا طلب مني أن أكتب لسييرا أسأله إن كان هذا ممكناً. وفي اليوم نفسه أحضر شاتال البطاقة والجواب التالي: لا تدفعوا شيئاً لأحد للتخلص من الحجر، إنه أمر يأتي من فرنسا ولا يستطيع أحد رفعه حتى ولا مدير الإصلاحية نفسه وإذا كنتم متبرمين من وجودكم في المستشفى فيمكنكم الخروج غداً رحيل السفينة «مانا» إلى الجزر.

بقينا في معسكر الزنانات ثمانية أيام بانتظار نقلنا إلى الجزر. وربما كان الهروب من هنا أفضل من الهروب من المستشفى. وفي البطاقة ذاتها كتب لي سييرا يقول: إذا شئت أرسلت لك سجيناً مطلق السراح، ليتحدث معك وليهيء لك مركباً خلف المستشفى. إنه تولوني اسمه جيزو وهو الذي دبر فرار الدكتور بوغرات منذ عامين.

ولكي أراه، كان علي أن أذهب للتصوير الشعاعي في جناح خاص بهذا الغرض. ويقع هذا الجناح في نطاق المستشفى. وقد وصل إليه الطلقاء في ذلك اليوم بأوامر مزيفة. وأوصاني بأن أنزع الأثوية قبل الذهاب إلى الأشعة ففعلت، لأن الطبيب سيكشفه إذا نظر إلى ما دون الصدر. فأجبت بأن يرسل جيزو إلى الأشعة وأن يتفق مع شاتال لتيسير إرسالي أيضاً إلى هناك. وأخبرني سييرا بأن اللقاء سيتم بعد غد في الساعة التاسعة مساءً.

في اليوم التالي طلب ديغا الخروج من المستشفى وكذلك فرناندز بعد أن أبحرت «مانا» صباحاً، وهما يأملان الهروب من زنانات المعسكر، وتمنيت لهما التوفيق. أما أنا فلم أغير خطتي.

رأيت جيزو. إنه كان محكوماً وأفرج عنه، جاف كالسردين. وجهه أسمر وعليه أثر الجرحين كبيرين خفيفين، وعينه تدمع باستمرار عندما ينظر إليك. ما أقبح وجهه وما أبشع نظرتة، إنه لا يوحى بالثقة، والمستقبل سوف يكشف صدق ظني. دخلنا في صلب الموضوع في سرعة.

— يمكن أن أعد لك مركباً يتسع لأربعة أشخاص أو خمسة على الأكثر مع برميل من الماء، والأغذية، والقهوة، والتبغ، ثلاثة مجاديف، وأكياس طحين فارغة، وإبرة وخيطان لتصليح الشراع، وقلع لمقدم المركب، بوصلة وفأس وسكين وخمس لترات نافيا (روم غويان) وكل ذلك مقابل ألفين وخمس مئة فرنك. وسيدخل القمر المحاق بعد ثلاثة أيام. ومنذ الآن وحتى أربعة أيام، إذا قبلت وجددتني بانتظارك في المركب كل ليلة من الساعة الحادية عشرة وحتى الثالثة صباحاً. وخلال ثمانية أيام وبعد الربع الأول من القمر لن أنتظرك. وسيكون المركب تجاه الزاوية نحو أسفل الجدار بالضبط. وتحرك متلمساً الجدار لأنك لن تستطيع رؤية المركب حتى ولو كنت على بعد مترين منه. لم أكن واثقاً منه ومع ذلك قلت له: نعم.

فقال — وأين المال؟ قلت: سأبعث به مع سيرا وافترقنا دون مصافحة، ودون باعث على الارتياح.

ذهب شاتال في الساعة الثالثة إلى المعسكر يحمل المبلغ إلى سيرا وقلت في نفسي: إنني أقامر بهذا المبلغ، وهو من عطاء كالكاني، إنها لمغامرة حقاً، والمهم أن لا يشرب المبلغ مع (التافيا). استطار لب كلوزيو فرحاً بالفكرة، فهو واثق من نفسه ومعني ومن نجاح الخطوة. شيء واحد كان يزعجه وهو أن العربي حامل المفاتيح لا يدخل القاعة إلا في ساعة متأخرة من الليل. وهناك مشكلة ثانية: من الرجل الثالث الذي نختاره لنطرح عليه الفكرة؟ يوجد كورسيكي من مدينة نيس يدعى بياجي. هو في السجن البحري منذ عام ١٩٢٩. وهو في هذه القاعة تحت المراقبة المشددة لأنه قتل شخصاً، ولما يصدر بحقه حكم حتى الآن. أنا وكلوزيو كنا نناقش إمكانية مفتاحته في هذا الموضوع وتحديد الزمن لذلك. وبينما نحن نتحدث بصوت خفيض تقدم منا شاب مراهق في الثامنة عشرة من عمره. جميل جمال المرأة، ويدعى ماتوريت، حكم عليه بالإعدام لقتله سائق تكسي، ثم خفف الحكم إلى سبعة عشر عاماً نظراً لحدائثة سنه. وكان معه شريك في السادسة عشرة من عمره.

وبدلاً من أن يتراشقا التهم أمام هيئة المحكمة، كان كل منهما ينسب المسؤولية لنفسه، مع أن السائق لم يصب بسوى رصاصة واحدة. وهذا الموقف أكسبهما عطف جميع السجناء.

تقدم منا ماتوريت الرقيق رقة الأنثى، وبصوت نسائي طلب منا نأراً فأعطيناه. وأهديته فوق ذلك أربع سجائر وعلبة أعواد ثقاب فشكرني بابتسامة جذابة، وتركانه يعود، وعلى حين

غرة قال كلوزيو: «بابي لقد نجونا». هذا الماعز سيدخل إلى القاعة بقدر ما نريد وفي الساعة التي نشاء. لقد صار مضموناً في جيبنا.

— كيف؟

— الأمر يسر. سنكلم ماتوريت الصغير في أن يغري الماعز ويجعله عاشقاً له. أنت تعلم أن العرب يحبون الفتيان. من الآن وحتى ساعة اقتياده للدخول ليلاً للإيقاع بالصبي ليس بعيد. وعليه أن يلجأ إلى أساليب الاستدراج كأنه يقول له بأنه خائف من أن يراه أحد، وذلك ليختار له الأوقات التي تناسبنا.

— دعني أتصرف.

ذهبت إلى ماتوريت فاستقبلني بابتسامة مشوقة، وهو يحسب أنه استشارني بابتسامته الأولى. وبادرت إلى القول:

— أنت مخطيء.. اذهب إلى المراحض.

فذهب وهناك قلت له:

— إذا كررت كلمة عما سأقوله لك، فقد حكمت على نفسك بالموت هل تريد أن تفعل كذا وكذا من أجل المال؟ كم تريد لتسدي لنا خدمة؟ أم أنك تفضل الهروب معنا؟

— حسناً أؤثر الهروب معكم. هذا وعد. هذا وعد. وتصافحنا. ذهب لينام، وأنا كذلك بعد أن أؤثر بضع كلمات مع كلوزيو.

في الساعة الثامنة مساءً جلس ماتوريت إلى النافذة فاستدعى العربي فجاء وحده وجرى الحديث بينهما بصوت منخفض.

وفي العاشرة نام ماتوريت وغما نحن وإحدى عينينا مفتحة. دخل العربي إلى القاعة، وقام بجولتين وخلال ذلك وجد رجلاً ميتاً، فقرع الباب ولم يمض وقت طويل حتى دخل رجلان ومعهما محفة، فحملوا الميت. وكان في ذلك خدمة لنا إذ شجعه على القيام بجولات في أية ساعة من الليل، ويليعاز منا ارتبط ماتوريت معه بموعد في اليوم التالي وفي الساعة الحادية عشرة. وفي الوقت المحدد وصل حامل المفاتيح ومر أمام سرير الصغير وشده من قدمه ليوقظه ثم توجه نحو المرحاض وتبعه ماتوريت. وبعد ربع ساعة خرج حامل المفاتيح متجهاً نحو الباب وخرج في اللحظة ذاتها ماتوريت ونام دون أن يكلمنا. وباختصار كان اليوم التالي ممثلاً ولكن في الساعة الثانية عشرة. وهي الساعة التي حدها له الصبي.

وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣. كانت رجلان من أرجل السرير معدتين للخلع، لاستخدامهما موضع العصا. كنت انتظر كلمة من سيررا. وصل شاتال

المرضى بدون ورقة وقال لي فقط: كلفني سيرا أن أبلغك بأن جيزو ينتظرك في الوقت المحدد ونتمنى لك حظاً سعيداً.

في الساعة الثامنة مساء قال ماتوريت للعربي:

— تعال بعد منتصف الليل، فقد نستطيع البقاء معاً مدة أطول في مثل تلك الساعة، وقبل الرجل هذه الدعوة.

وفي منتصف الليل بالضبط، كنا على أتم استعداد. دخل العربي في الساعة الثانية عشرة والربع، واتجه رأساً إلى سرير ماتوريت وشده من قدميه وتابع سيره نحو المراحيض، دخل ماتوريت معه. اقتلعت رجل السرير فأحدثت ضجة خفيفة لدى وقوعها، ولم يحصل مثل هذا مع كلوزيو. وكان علي أن أقف خلف باب المراحيض، وكلوزيو يمشي نحوه ليلفت انتباهه، وبعد انتظار عشرين دقيقة جرى كل شيء في سرعة فائقة. فلدى خروج العربي من المراحيض بوغت برؤية كلوزيو، فقال له: ماذا تفعل هنا؟ مالي أراك متصباً وسط القاعة في هذه الساعة؟ اذهب إلى النوم. ولم يلبث أن تلقى الضربة على أم رأسه، فسقط دوغماً ضجة وأسرعت إلى ارتداء ملابسه ولبست حذاءه، ثم جررته إلى قرب السرير وأتبعته بضربة أخرى على قذاله قبل إدخاله كلياً تحت السرير. فقد نال حسابه.

لم يتحرك أحد من الرجال الثمانية النائمون في المهبج. أسرعت نحو الباب وخلفي كلوزيو وماتوريت، وكلاهما في القميص وحسب. قرعت الباب ففتحه الحارس. فشهرت الحديدة في وجهه. تك، نزلت الضربة برأسه. والحارس الجالس مواجهاً له سقطت منه البندقية، فقد كان نائماً بالتأكيد، وقبل أن يتحرك بادرته بضربة. هذان الحارسان لم يصرخا بل ظلّا مجتمعين على نفسيهما فوق كرسيهما، أما الذي ضربه كلوزيو فقد صاح متأوهاً ثم انهار، وتمدد على طوله كالخشبة، فالتقطنا أنفاسنا، فهذه الصيحة قد بلغت كل الأسماع، في تصورتنا، وفي الحقيقة كانت قوية ومع ذلك فإن أحداً لم يتحرك. لم ندخلهم إلى القاعة بل ذهبنا حاملين معنا ثلاث بندقيات. كلوزيو في المقدمة والغلام في الوسط وأنا في الخلف. نزلنا على ضوء ضعيف. ترك كلوزيو رجل السرير واحتفظت بها في اليد اليسرى، وفي اليمنى بندقية. لا شيء في الأسفل، والليل حولنا حالك السواد وعلينا أن نمنع النظر لنرى الجدار المحاذي للنهر، فغلبنا السير وجعلت من نفسي السلم القصير، فصعد كلوزيو وفرج ساقيه وسحب ماتوريت، وبعدهما صعدت. وانزلنا في الظلام من الجهة الأخرى من الجدار، فوقع كلوزيو في حفرة وتأنى من هذه الوقعة في رجله. أما أنا وماتوريت فقد وصلنا سالمين، نهضنا وكنا تركنا البندقيات قبل الوثوب وعندما حاول كلوزيو النهوض لم يستطع وقال إن رجله انكسرت. تركت ماتوريت عند كلوزيو وركضت باتجاه الزاوية وكفي تحتك بالجدار. وكان الظلام دامساً، ولدى وصولي إلى طرف الحائط لم أستطع أن أتين شيئاً وصارت يدي تلامس الهواء، وارتطم وجهي بشيء وسمعت من ناحية النهر صوتاً يقول هذا أنت؟

– نعم . أنت جيزو؟

– نعم .

فأشعل عوداً لنصف ثانية فقط فعينت موضعه ونزلت في الماء ووصلت إليه ، وكان معه شخص آخر .

– اصعد أولاً . من هذا؟

– بابيون .

– حسناً .

– جيزو! يجب الرجوع قليلاً إلى الخلف . لقد كسر صديقي ساقه وهو يرمي بنفسه من أعلى الجدار .

– إذن خذ هذا المجداف .

– وتوغلت المجاديف الثلاثة في الماء . وسرعان ما قطع المركب الخفيف مئة المتر التي تفصلنا عن المكان الذي تقدر أنها فيه ، لأننا لا نرى شيئاً وناديت كلوزيو ، فقال جيزو بربك لا تتكلم . وأنت يا «أنفله» أدر دولاب القداحة حتى يتطاير الشرر منها فيراننا . صفر كلوزيو صفرة من بين أسنانه . وهذا الصغير لا يحدث ضجة ولكنه مسموع وكأنه فحيح الأفعى ، كان يصفر دون انقطاع ليقودنا إليه . نزل أنفله وأخذ كلوزيو بين ذراعيه ووضع في المركب ، وصعد ماتوريت ثم أنفله . كنا خمسة ، وارتفاع الماء قريب من حافة المركب بمقدار اصبعين . قال جيزو:

– لا تقوموا بأية حركة قبل أن تنذروني بها . بابيون كف عن التجديف وضع المجداف بين ركبتيك . أقلع يا أنفله .

وسرى المركب مسرعاً في الدجى بعون التيار . وبعد أن ابتعدنا مسافة كيلومتر عن الإصلاحيّة المعتمة إلا قليلاً بسبب مولدها الكهربائي المنهوك ، أصبحنا في وسط النهر وكدنا نظير من السرعة الجنونية التي يقودنا بها التيار . رفع أنفله مجدافه ، ومجداف جيزو على فخذه يحافظ به على توازن المركب . فهو لا يدفعه بل يوجهه فقط . قال جيزو:

– في مقدورنا الآن أن نتكلم وندخن فكل شيء على ما يرام في اعتقادي . هل أنت واثق من أنك لم تقتل أحداً؟

قال أنفله – اسم الله . لقد خدعتني يا جيزو . لقد قلت لي إنها رحلة بدون متاعب فإذا بها رحلة هروب محتجزين .

— أجل إنهم من المحجور عليهم، ولم أشأ إعلامك بهذا، وإلا لما أقدمت على مساعدتي وأنا بحاجة إلى رجل. لا تغضب ولا تفتن. فانا أتحمّل التبعة وحدي.

— صدقت يا جيزو. من أجل مئة فرنك أعطيتني إياها، لا أريد المقامرة برأسي إن كانت هناك جريمة قتل، أو بحكم مؤبد إن كان هناك جريح. قلت لأنفله:

— سأقدم لك ألف فرنك هدية مني.

— حسناً. هذا إنصاف، وشكراً لك. ونكاد نموت جوعاً في القرية، والخلاص أسوأ من السجن، فعل الأقل نؤتي في السجن بالطعام والثياب.

قال جيزو لكلوزيو: لعلك لا تعاني من ألم غمض؟

— لا بأس. ولكن ما نفعل بساقي المكسورة بابيون؟

— سوف نرى. أين وجهتنا يا جيزو؟

— سأخبركم في خليج صغير يقع على بعد ثلاثين كيلو متراً من الشاطئ الذي نصل إليه، وهناك تمكثون ثمانية أيام ريثما تمضي حلة مطاردة الجنود لكم، وملاحقة صيادي الرجال. ويجب أن تتظاهروا بأنكم خرجتم لتوكم من ماروني ودخلتم البحر. صيادو الرجال يذهبون في مراكب لا محرك لها، وهم خطرون، فإشعال النار، والسعال، والكلام شؤم عليكم إن كانوا غير بعيدين عن مرمى السمع. أما مراكب الجنود فذات محركات وتستطيع الدخول إلى الخليج.

أضواء جنح الليل، والساعة تقارب الرابعة صباحاً. عثرنا على الشارة التي يعرفها جيزو وحده، بعد بحث طويل، فدخلنا بين أشجار غابة. وبعد مرورنا انتصبت خلفنا كالستار الكثيف يحمينا. ويجب أن يكون المراء ساعراً ليعرف إذا كان الماء كافياً لحمل مركب.

دخلنا وتوغلنا في الغابة أكثر من ساعة ونحن نباعد بين الأغصان التي تعترض سبيلنا. وفجأة وجدنا أنفسنا في مكان يشبه القناة فتوقفنا، وكان الجرف أخضر معشوشباً نظيفاً، والأشجار باسقة والنور لا ينفذ من بين أوراقها رغم أن الساعة قد بلغت السادسة. وتحت هذه القبة المهيبة، كنا نسمع أصوات ألوف الحيوانات التي نجهلها.

قال جيزو. هنا عليكم أن تنتظروا ثمانية أيام. وسوف آتي إليكم بعد سبعة أيام لأخضر لكم أغذية. ثم أخرج من بين النباتات الكثيفة زورقاً صغيراً طوله حوالي مترين، وفي داخله مجدافان وبهذا الزورق سيعود مع المد إلى سان لوران.

والآن لنلتفت إلى كلوزيو المستلقي على الضفة ولا يزال في القميص وساقاه عاريتان، قطعنا بالفأس أخشاباً جافة وصنعنا منها ألواحاً، وأخذ أنفله يشد على رجل كلوزيو الذي ينضج عرقاً، وفي لحظة من اللحظات قال: توقف، في هذا الوضع يخف الألم. فالعظم إذن في

مكانه، ووضعت رجله بين لوحين خشبيين ربطا بحبل من القنب جديد، وجدناه في المركب، واستراح كلوزيو. كان جيزو قد اشترى أربعة بنطالات، وأربعة قمصان وأربع دراعات. ارتدى ماتوريت وكلوزيو ملابسهما وبقيت أنا بملابس العربي حامل الفاتيج وشربنا الروم وهذه هي الزجاجاة الثانية التي تفرغ منذ رحيلنا والشراب باعث للحرارة، والبعض يلسعنا دون انقطاع، غمسنا كيس تبغ في قرعة، ونفثنا خلاصة النيكوتين على الوجوه والأيدي والأرجل. صارت الدراعات لا تطاق فقد اشتدت حرارتنا في هذه الرطوبة.

قال أنفله: أنا ذاهب. أين ألف الفرنك التي وعدت بها؟

انتحيت جانباً ورجعت بغير إبطاء، ومعى ورقة الألف جديدة. قال جيزو: إلى الملتقى. لا تتحركوا من هنا قبل ثمانية أيام، وسنأتي في اليوم السابع وتبحرون في اليوم الثامن. أصنعوا الشراع والقلع. رتبوا كل شيء في المركب وأصلحوا سكانه وإذا مرت عشرة أيام ولم نرجع فهذا يعني أننا أوقفنا في القرية وإن الهجوم على الحارس قد زاد العملية سوءاً ولا بد أن يكون قد أثار ضجة، وخاصة أن كلوزيو، كما أخبرنا، لم يترك البندقية في أسفل الجدار بل ألقى بها من فوقه قريباً من النهر، وهو لا يستطيع الجزم بأنها قد وقعت في النهر. قال جيزو: إن هذا أمر مستحسن، فإذا لم يعثروا عليها اعتقد القناصة بأنكم مسلحون. وبما أنهم أشد الناس خطراً عليكم فليس، والحالة هذه، أن تخشوا شيئاً. وما داموا يتسلحون بالمسدسات والسيوف الخشبية، ويتوهمون بأنكم تملكون بندقية فلن يغامروا بمهاجمتكم. إلى اللقاء. إلى اللقاء.

في حال انكشاف أمرنا يجب علينا أن نهجر المركب ونغشي في اتجاه معاكس لمجرى النهر حتى نصل إلى الغابة وبالإستعانة بالبوصله، نتجه دوماً نحو الشمال، وسوف تكون لنا فرص عديدة لنلاقي بعد مسيرة يومين أو ثلاثة، معسكر الموت المسمى شارفان وهناك ينبغي أن ندفع لأحدهم مالا كي يخبر جيزو بالمكان الذي نحن فيه.

لقد رحل الرجلان وبعد دقائق غاب زورقهما عن الأنظار فلم نعد نرى شيئاً ولا نسمع شيئاً.

غمر ضوء النهار الغابة بصورة فريدة حتى كأننا تحت قناطر تتلقى الشمس من أعلى ولا تسمح بمرور أشعتها إلى الأرض، وبدأ الحر يشتد، وألقينا أنفسنا وحدنا، وضحكنا لأول وهلة بقهقهات كأصوات العجلات. والمنفص الوحيد هو ساق كلوزيو، وقد قال: ما دامت رجلي محاطة بالواح خشبية، فلا بأس عليها. أوقدنا ناراً، وسخنا القهوة، وشربنا قهوة محلاة بسكر غير مكرر، وما كان أطيبها.

لقد بدنا الكثير من نشاطنا منذ الليلة البارحة، فلم نقدر على تفقد أمتعتنا أو تفنيش المركب، وأرجأنا هذا لإشعار آخر، فنحن أحرار، أحرار، أحرار. ولم يمض علينا في السجن أكثر من سبعة وثلاثين يوماً، وإذا نجحنا في الهروب فإن الحكم المؤبد لم يكن طويلاً: وبما

سيدي كم تطول الأشغال الشاقة المؤبدة في فرنسا؟ وانفجرت ضاحكاً، وكذلك ضحك ماتوريت الذي كان محكوماً بالسجن المؤبد. أما كلوزيو فقد قال: لا تتعجلوا الفرح بالنصر، فلا تزال كولومبيا بعيدة عنا، وهذا الزورق المصنوع من شجرة محترقة أتفه من أن يكون صالحاً لامتناء ثيغ^(١) الموج. ولم أرد على كلامه لأنني بصريح العبارة، كنت حتى اللحظة الأخيرة أعتقد أن هذا الزورق معد لقلنا إلى مكان نجد فيه مركباً حقيقياً يمخرنا البحر. ولما اكتشفت سوء تقديري لم أجروا على الكلام لئلا أثبط عزيمتي صديقي. هذا ومن جهة أخرى بما أن جيزو كان يرى هذا طبيعياً، لم أشأ أن أظهر بمظهر الجاهل بالمرائب المستخدمة في الهروب.

أمضينا اليوم الأول بالحديث والتعرف على هذه الأرض المجهولة. أنواع من القردة والسنجاب تتوالت فوق رؤوسنا. ثم ورد قطع من الخنازير البرية الصغيرة لتشرب وتغتسل وقد يبلغ عددها الألفين، دخلت في الخليج ساعة وهي تقطع فروع الأشجار المتدلية. ثم خرج تمساح ولا أدري من أين خرج وأمسك بإحدى قوائم خنزير، فصرخ كالمضائع، وعندئذ هاجمت جموع الخنازير التمساح وارتمت عليه تحاول عضه في مفصل خطمه الكبير ويكل ضربة من ذيله كان يترنح خنزير على اليمين وعلى الشمال وأصيب أحدها في رأسه فطفا على صفحة الماء، ويطنه نحو الهواء. وفي الحال التهمته الخنازير الأخرى، وامتزج ماء الخليج بالدماء، ودام المشهد عشرين دقيقة، واختفى التمساح في الماء ولم نعد نراه.

ثمنا تلك الليلة نوماً هادئاً، وفي الصباح شربنا القهوة، نزعنا عني دراعتي لأغتسل وقد وجدت في المركب صابونة من صنع مرسيليا، وحلق لنا ماتوريت لحانا بالمشروط أما هوفلم تبت لحيته بعد. وعندما تناولت دراعتي الصوفية لأرتديها رأيت عليها عنكبوتاً ضخماً متعلقاً بها ثم سقط، له وبر طويل أسود بنفسجي ولا يقل وزنه عن نصف كيلو، فسحقته في اشمزاز.

لقد أخرجنا كل شيء من المركب حتى برميل الماء وقد غدا لونه مائلاً إلى البنفسجي ويخيل لي أن جيزو أكثر من وضع البيرمنغنات في داخله ليحفظه، والكبريت في زجاجات محكمة السد، والمسحاة، والبوصلة المدرسية التي تشير إلى الجهات الأربع فقط وليس لها درجات، وطول الصاري متران ونصف المتر وقد خطنا أكياس الطحين من أطرافها على شكل شبه منحرف بحبل وذلك لدعم الشراع، وقد صنعت قلعة^(٢) يساعد على رفع مقدم السفينة. وعندما وضعت الصاري لفت نظري أن قعر المركب ليس متيناً، والثقب الذي يوضع فيه الصاري بالٍ ومتآكل وحين وضعت المفك لتثبيت رزات الأبواب التي تدعم سكان السفينة، انغرز كما ينغرز في الزبد، فالمركب مصاب بالتلف. وهكذا قادنا جيزو إلى الهلاك فاطلعت الآخرين على جلية الأمر رغمًا عني، إذ لا يحق لي أن أخفي عنها ذلك. ما العمل؟ وعندما يعود جيزو سنرغمه على إيجاد مركب آخر أكثر أمناً، لذا سنجرده من سلاحه، وأنا مسلح

(١) ثيغ الموج: وسطه وأعلاه.

(٢) القلع: شراع صغير مثلث الشكل.

بالمدينة والفأس، سأذهب معه لإحضار مركب آخر من القرية، وإنها لمخاطرة كبيرة، ولكنها أقل خطراً من ركوب البحر في هذا التابوت. وبالنسبة للغذاء فعندنا منه قارورة زيت وعلب من الطحين وبها نستطيع أن نذهب بعيداً. رأينا هذا الصباح مشهداً غريباً: رأينا قرودة ذات وجوه رمادية مع قرودة ذات وجوه سوداء كثيفة الشعر، وكلا الفريقين في عراك. وقد أصيب ماتوريت أثناء المشاجرة بضربة من فرع شجرة نزل برأسه وخلق في رأسه حلبة بحجم الجوزة.

مضت خمسة أيام وأربع ليال ونحن لا نزال هنا، وفي هذه الليلة نزل المطر مدراراً، فالتجأنا إلى ظل أوراق أشجار موز بري، والماء يسيل على ظاهر تلك الأوراق فتحميناً من البلل ما خلا أقدامنا. وفي الصباح وأثناء تناولنا القهوة فكرت في جيزو، يا له من مجرم، إذ استغل عدم خبرتنا ليرك لنا هذا المركب المتداعي ويدفع بثلاثة رجال إلى موت محقق لكي يكسب خمس مئة فرنك أو ألفاً. وتساءلت: لو أنني أجبرته على تزويدي بمركب آخر، ألا أقتله بعد هذا؟ أهاج عالماً الصغير أصوات نوع من العصافير (أبو زريق) وكانت حادة وثاقبة. فطلبت من ماتوريت أن يأخذ السيف الخشبي ويذهب مستطعماً، فعاد بعد خمس دقائق وأشار لي: أن اتبعني، فتبعته حتى وصلنا إلى مكان يبعد مئة وخمسين متراً عن موضع الزورق فرأيت دُراجاً عجيباً معلقاً في الهواء، ويبلغ حجمه ضعف حجم الديك، وقد وقع في فخ وتعلق من رجله على الشجرة. وبضربة من السيف الخشبي قطعت رأسه لأتخلص من هذا الصوت الشنيع. فقدرت وزنه بخمسة كيلوغرامات. له ظفر كظفر الديك، وقررنا أكله. ولكن بعد شيء من التأمل قلنا: إن أحداً قد وضع الشرك، ولا بد أن تكون هناك أشراك أخرى، هيا نستكشف، رجعنا وتلفتنا في كل مكان فوجدنا شيئاً غريباً، إنه حاجز، ارتفاعه ثلاثون ستمتراً مصنوع من ورق الشجر وعريشة متشابكة، على بعد عشرة أمتار من الخليج، ويمتد موازياً للماء. وكان هناك فخ له سلك من النحاس الأصفر، معلق من أحد طرفيه بغصن شجرة متشعب تحجبه أعواد من الخشب، وللحال فكرت بأن الحيوان يصطدم بالحاجز ويماشيه باحثاً منفذ، وحين يعثر على الباب يقع سلك الفخ ويهز الغصن ويجد الحيوان نفسه معلقاً في الهواء إلى أن يأتي صاحب الأشراك ويأخذه. إن هذا الاكتشاف قد أقلق بالنا، والحاجز ليس قديماً وتبدو عليه العناية، فنحن إذن في خطر أن يفترض أمرنا. و ينبغي أن لا نشعل النار نهائياً، أما في الليل فلن يأتي الصياد، وعزمنا على القيام بجولة استكشافية للمراقبة صوب الأفخاخ.

المركب محتجب تحت الأغصان، وكذلك الأدوات محتجة في الغابة. أكلنا تلك الليلة الدراج أو الديك والله أعلم. وتنشطنا بالمرق، وكان اللحم المسلوق لذيقاً، وأكل كل منا صحنين. أنا الحارس اليوم وحتى الساعة العاشرة، ولكن شغلتي جماعة من النمل الكبير الحجم، الأسود اللون. وكل غملة تحمل قطعة من ورق النبات إلى موضع للنمل كبير، وقد أنسيت الحراسة، ويبلغ طول النملة الواحدة ستمتراً ونصف وأرجلها عالية، تحمل قطعة من الورق، تبعثها حتى وصلت إلى النبات التي تقشره، فرأيت تنظيمًا رائعاً. فهناك القاطعات، ولا

عمل لها سوى تحضير قطع الورق في سرعة مذهلة. تقص ورقة ضخمة من نوع ورق الموز، وتجعلها قطعاً متساوية. وذلك بمهارة فائقة لا يصدقها العقل، وترمي بهذه القصاصات إلى الأرض وفي الأسفل يوجد صف من النمل من الفصيلة ذاتها ولكن تختلف قليلاً. لها على جانب فكها خط رمادي. تصطف هذه النمل على شكل نصف دائرة تراقب النمل الحمال.

الحمالات يصلن عن اليمين في صف واحد، ويذهبن عن اليسار إلى مملكة وتتزود في سرعة قبل أن تعود إلى الانتظام، وأثناء الاستعجال قد تحدث إعاقة للسير، وعندها تتدخل شرطة النمل، وتدفع بالنملات إلى المكان الذي يجب أن تكون فيه. ولم أستطع أن أفهم الذنب الخطير الذي ارتكبته عاملة، حتى أخرجت من الصف واجتمع عليها ثلثتان من الشرطة فقصت الأولى رأس العاملة، والثانية قطعت الجسد من ارتفاع الصدر، وأوقفت الشرطتان عاملتين فوضعتا ما في فمهما، ثم شرعتا بالحفر بأرجلهما ودفنتا أجزاء النملة المقتولة ثم أهالنا عليها التراب.

جزيرة الحمام

كنت في حالة استغراق تام أتأمل هذا العالم الصغير، وأتبع جنوده لأرى إذا كانت المراقبة مستمرة حتى الوصول إلى مملكة النمل، وإذ أفاجأ بصوت يقول لي:

— لا تتحرك وإلا فأنت ميت. التفّت نحوي.

رأيت رجلاً عاري الصدر، يرتدي بنطالاً قصيراً (من الكاكي) ينتعل حذاء من الجلد الأحمر، وييده بندقية ذات فوهتين، متوسط الطول بدين، لفحت الشمس بشرته، و عيناؤه وأنفه يغطيها قناع من الوشم الأزرق، وفي وسط جبينه وشم آخر.

— هل أنت مسلح؟

— لا

— ما عددكم؟

— ثلاثة.

— خذني إليهم

— لا أستطيع لأن أحدهم يملك بندقية ولا أحب لك أن تقتل قبل معرفة غرضك.

— حسناً. لا تتحرك وتكلم بهدوء.

— هل أنتم الفارون الثلاثة من المستشفى؟

— نعم

— من هو بابيون؟

— أنا.

— حسناً. تستطيع القول بأنك بهروبك هذا، قد أحدثت ضجة في القرية. وقد أوقفوا نصف المجرمين الذين أطلق سراحهم وهم الآن في مركز الشرطة.

دنا مني وقد خفض فوهة البندقية نحو الأرض، ومد لي يده وقال: أنا بروتون ذو القناع. هل سمعت شيئاً عني؟

— لا. ولكنني أرى أنك لست قنصاً.

— أنت على حق. أنا هنا أضع أشراكاً لاصطاد الدراج. ولا بد أن النمر قد اختطف أحدها، إن لم تكونوا أنتم.

— لا. نحن من أخذه.

— هل تريد قهوة؟

وكان في كيس يحمله خلف ظهره ترمس، فقدم لي قهوة وشرب. قلت له: تعال لترى أصدقائي، ولتجلس معنا.

ضحك من الكذبة التي قلتها عن البندقية وقال: لن يأتيكم قنص للبحث عنكم، لأن الجميع يعلمون أنكم تملكون بندقية، ثم سرد لي أنه في الغويان منذ عشرين سنة، وقد أطلق سراحه منذ خمس سنوات فقط، وعمره الآن خمس وأربعون سنة، وأنه بسبب الحماسة التي ارتكبها بوشم وجهه لم تعد الحياة في فرنسا تروق له. وهو يعيش هذه الغابة، فمنها فقط مورد رزقه: من جلد أفعى، أو جلد ثمر، أو مجموعة من الفراشات، وخاصة صيد الدراج وهو حي والذي نحن أكلناه، وقال إن ثمنه يساوي مئتين أو مئتين وخمسين فرنكاً. وعرضت عليه الثمن فلم يقبل. ثم روى لنا ما يلي:

هذا الطائر المتوحش هو ديك الغابة. وهو بطبيعة الحال لم ير ديكاً ولا دجاجة ولا إنساناً. اصطاد الواحد وأخذه إلى القرية وأبيعه لأصحاب المداجن، وهو مطلوب جداً. ودون أن تقص له جناحيه ودون أن تفعل أي شيء آخر، تضعه عند هبوط الليل في المدجنة، فتجده في الصباح، عند فتح الباب منتصباً هناك وكأنه يعد الدجاجات والديوك التي تخرج فيتبعها، ويأكل مما تأكل ويحبل بصره في كل صوب وناحية، في الأسفل وفي الأعلى والغياض المجاورة، إنه مثل كلب الحراسة بالضبط ولا نظير له. وفي المساء يقف عند الباب، ولا أحد يفهم كيف يعرف أن دجاجة أو دجاجة قد نقصتا فيذهب لإحضارهما، وهو يدخل الدجاجات والديوك بنقرة من منقاره ليعلمها كيف تتواجد في الوقت المحدد، ويقتل الجرذان والأفاعي والعناكب وكثيرات الأرجل، وما أن يلوح في الجو

طير جارج حتى يدفع بالجميع إلى الاختفاء بين الأعشاب ويبقى وحده في مواجهته. وإلى جانب ذلك فإنه لا يقادر المدججة أبداً هذا هو الطائر العجيب الذي أكلنا كاي ديك عادي.

وأخبرنا بریتون كذلك بأن جيزو وأنفله وثلاثين من ذوي السوابق قد أوقفوا في مركز شرطة سان لوران لمعرفة إذا كان أحدهم يطوف حول المكان الذي خرجنا منه. والعربي قد أودع في سجن إفرادي بتهمة الاشتراك في الجرم، ولم تترك الضريتان اللتان نزلتا برأسه أي جرح، على حين أن الحارسين الآخرين ظهرت على رأس كل منهما حديتان خفيفتان وأردف بریتون: أما أنا فما اعتراني هم، لأن الجميع يعلمون بأنني لا أمارس إعداد الهروب لأحد، إن جيزو قدر ونذل.

وعندما حدثته عن الزورق أحب أن يراه وما كان يفعل حتى صاح: إنه يقودكم إلى الهلاك إذ لا يمكن لهذا الزورق بأية حال أن يعوم أكثر من ساعة في البحر، ومع أول موجة قوية يصادفها سوف ينشطر شطرين، إياكم أن تركبوه، فركوبه انتحار مؤكد.

— إذن ما العمل؟

— هل معك مال؟

— نعم

— سأقول لك ما يجب أن تفعله. وخير من هذا، سوف أساعدك فإنك جدير بالمساعدة، وسوف أبذل لك ولرفيقيك المعونة من غير مقابل، إلى أن يتم لكم الظفر. إياكم أن تقربوا القرية لأي سبب ومهما كلف الأمر. ولكي تحصلوا على مركب جيد عليكم أن تقصدوا جزيرة الحمام. ففي هذه الجزيرة ستلتقون بمثي أبرص تقريباً وليس عندهم مراقبون، ولا يؤم الجزيرة إنسان سليم، حتى الطبيب. وفي الساعة الثامنة من كل يوم يأتي مركب حاملاً المؤونة لمدة أربع وعشرين ساعة. يسلم ممرض المستشفى صندوقاً من الأدوية لاثنتين من الممرضين المصابين بالجذام أيضاً وهما اللذان يعتنيان بالمرضى. لا ينزل في هذه الجزيرة أحد، لا حارس ولا قناص ولا خوري. ويعيش البرص في أكواخ من القش صغيرة ابتناها بأنفسهم. لهم قاعة مشتركة يجتمعون فيها. يربون الدجاج والبط لتحسين مائدتهم المألوفة، ولا يستطيعون رسمياً بيع أي شيء لخارج الجزيرة، ويتعاملون بصورة غير مشروعة مع سان لوران وسان جان، ومع الصينيين في مستعمرة غويان الهولندية. وكلهم قتلة خطرون وقلما يقتل بعضهم بعضاً، وإنما يرتكبون جرائم مختلفة حين يخرجون من الجزيرة مخالفين بذلك قانون حظر الخروج عليهم، ثم يعودون لإخفاء أعمالهم المنكرة. وللقيام بهذه الرحلات يمتلكون عدداً من المراكب المسروقة من القرية. والحراس يطلقون النار على كل زورق يدخل الجزيرة أو يخرج منها. ولهذا فإن البرص يحملون الزورق بالحجارة. وعند الإبحار يجرونه وهم تحت الماء ثم يفرغونه من الحجارة فيعود عائثاً على السطح. في الجزيرة كل شيء، ومن كل عرق، ومن كل بقعة من بقاع فرنسا.

والخلاصة إن مركبك ينفك في ماروني فقط ويشترط أن لا يكون محملاً فوق طاقته.
أما ركوب البحر فيحتاج إلى مركب آخر، وأحسن المراكب ما كان في جزيرة الحمام.

— ما العمل إذن؟

— أنا أرافقك في النهر فقط، إلى أن تصبح الجزيرة على مرمى البصر، وقد لا تعثر عليها، وقد تقع في خطأ. والجزيرة على بعد مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً من المصب، فيجب حينئذ الرجوع إلى الورا. إنها تبعد عن سان لوران بمقدار خمسين كيلو متراً، سأضعك في أقرب موضع ممكن. وسأجتاز أنا النهر مع زورقي الذي ستقطره. وعليك أن تتصرف في الجزيرة.

— لم لآتي معنا إلى الجزيرة.

— يا صاحبي، وضعت يوماً قدمي على طرف الجزيرة، واتفق أن وصل مركب الإدارة رسمياً، وكان ذلك في رابعة النهار، ومع ذلك لقيت من العنت ما كفاي. اعذرني يا بابي. لن أطأ هذه الجزيرة على الإطلاق، ثم إنني سأكون عاجزاً عن ضبط اندفاعي حين أكون قريباً منهم. سينالكم من وجودي أذى، أكثر مما يصيبكم من الخير.

— متى نرحل؟

— عندما يجيم الظلام.

— كم الساعة يا بریتون؟

— الساعة الثالثة.

— حسنًا، انام قليلاً.

— لا. يجب أن ترتب أمورك على الزورق.

— ولكن سأذهب في الزورق فارغاً، ثم أعود لإحضار كلوزيو الذي يبقى هنا لحراسة أمتعتنا.

— مستحيل، فإنك لن تستطيع العثور على المكان ثانية حتى في النهار وفي النهار لا ينبغي لك أن تجري في النهر بأية حال، لأن الرصاص سينال عليك بلا توقف. فالنهر خطر.

مالت الشمس نحو المغيّب. ذهب بریتون لإحضار زورقه. ربطه خلف زورقنا. جلس كلوزيو بالقرب من بریتون الذي حمل المجذاف، وماتورت في الوسط وأنا في المقدمة. خرجنا من الخليج بصعوبة وعندما بلغنا النهر كان الليل على وشك الهبوط. كان قرص الشمس كبيراً مصطبغاً باللون الأحمر، يلهب الأفق من جهة البحر بشواظ من نار. ألف نار تعج في النار تصارع بعضها بعضاً لتكون أشد وطأة وأكثر حمرة وأعظم اصفراراً، وأشد برقشة في الأماكن التي تمتزج فيها الألوان. كنا نرى مصب هذا النهر العظيم على بعد عشرين كيلو متراً، بوضوح، وهو يتسارع متلاًثماً بالتبر فوق لجين ماء البحر. قال بروتون: هذه نهاية الجزر وبعد ساعة تحسون بالمد، ونستفيد منه في الخروج إلى ماروني.

وهكذا سيدفعنا في سرعة إلى الجزيرة بدون جهد.

وفجأة أظلمت الدنيا. قال بروتون: إلى الأمام جدفوا بقوة لنحتل مكاناً في وسط النهر، لا تدخنوا.

وغاصت المجاديف في الماء وسرنا مع التيار مسرعين، شوت، شوت، شوت كنت مع بروتون في توازن ندفع المجداف في وقت معاً، وماتوريت يبذل طاقته، وكلما تقدمنا نحو الوسط شعرنا بالمد الذي يدفعنا، وانزلقنا في سرعة. وكنا نشعر بالتغير كل نصف ساعة، والمد يزيد من قوته، ويسرع في جرننا معه، وأصبحنا على مقربة من الجزيرة بعد ست ساعات، فاتجهنا نحوها على خط مستقيم.

قال بروتون بصوت منخفض: إنها بقعة كبيرة في وسط النهر، جانحة قليلاً نحو اليمين، إنها هناك. لم يكن الظلام حالكاً، إنما تعذرت الرؤية بسبب الضباب الملاس لسطح النهر. اقتربنا حتى تبين لنا مقاطع الصخور، فركب بروتون زورقه وفصله عن زورقنا. وبكل بساطة قال: أتمنى لكم حظاً سعيداً.

— شكراً

— لا شكر على واجب

ولما لم يبق بروتون موجهاً لزورقنا فإنه اندفع مستقيماً نحو الجزيرة، وحاولت تعديله بتدويره فلم أفلح، فسرنا مع التيار، حتى وصلنا إلى نباتات تتدلّى فوق الماء، وكان الزورق مندفعاً بقوة، رغم أنني كنت أكبحه بمجدافي، ولو أننا صادفنا صخوراً بدلاً من الأشجار والأغصان لتحطم الزورق وضاع كل شيء: الغذاء، والأدوات، إلخ. نزل ماتوريت في الماء وسحب الزورق فانزلق إلى مكان تظله أشجار كثيفة، وسحب، ثم سحب، ثم ربطنا الزورق فشربنا جرعة من الروم، وصعدت وحدي إلى الضفة تاركاً صديقي في الزورق. مشيت والبوصلة في يدي، وكسرت عدداً من الأغصان تاركاً في أماكن متعددة قصاصات من كيس الطحين، كنت أعددتها قبل ذلك. رأيت ضوءاً خافتاً، وثلاثة أكواخ من القش، فتقدمت وأنا حائر، كيف أقدم نفسي لهم، فقررت أن أدعهم يكتشفوني، أشعلت سيجارة ولما أضاء عود الثقاب، أسرع نحوي كلب صغير نابحاً محاولاً أن يقفز علي، وأن يعضني من ساقي، ونساءلت ألا يكون مصاباً بالبرص؟ يا لي من أحمق، الكلاب لا تصاب بهذا المرض.

— من هناك؟ هذا أنت يا مارسيل؟

— لا. رجل هارب.

— ماذا جئت تفعل هنا؟ تسرقنا؟ أتظن لنا مالاً؟

— لا أنا بحاجة إلى مساعدة

— مجانية أم مأجورة؟

— صه يا شويت.

وإذا أربعة أشباح تخرج من الأكواخ.

تقدم أيها الصديق أراهن على أنك أنت الرجل صاحب البندقية. فإن كانت معك ضعها على الأرض، ولا تخش شيئاً.

تقدمت فإذا أنا بالقرب منهم ولا زال الوقت ليلاً ولم أتين ملاحظهم ومددت يدي في غباوة، ولكن أحداً منهم لم يمسه. وقد فهمت متأخراً. إن هذه الحركة غير متفق عليها هنا، ولم يريدوا لي العدوى. قال شويت: لندخل إلى الكوخ، وكان مضاء بسراج زيت موضوع على منضدة. قيل لي اجلس فجلست على كرسي من القش لا مسند له، أوقد شويت ثلاثة سرج زيتية، ووضع واحداً على المنضدة قبالي بالضبط، والدخان المتصاعد من فتيل هذا السراج الذي يشتعل بالزيت النباتي ذو رائحة تبعث على التقرز. كنت أنا جالساً، وهم الخمسة واقفون، لا أرى وجوههم، ووجهي واضح القسمات لأنني على مستوى السراج، وهذا ما قصدوه. وقال صاحب الصوت الذي أمر شويت بالصمت: اذهب يا لانكي إلى المنزل العام لنعرف إذا كانوا يريدونه هناك، وعد إلينا بالجواب سريعاً، وبخاصة إذا كان توسان راضياً.

— ليس في مقدورنا هنا أن نقدم لك شيئاً لتشرب يا صديقي إلا إذا أردت البيض نيئاً. ووضع أمامي سلة من البيض مترعة.
— لا. شكراً.

جلس أحدهم على يميني، وعندئذ رأيت أول وجه أبرص وكان فظيلاً. بذلت جهدي لأمنع نفسي من الالتفات عنه، أو لأمنع ظهور آثار انطباعي بهذا المشهد. فالأنف متآكل لحماً وعظماً وليس في الوجه سوى فتحة في الوسط قلت في نفسي: هذا خير من فتحتين. فتحة ولكنها كبيرة بمقدار حجم فرنكين. والشفة السفلى على اليمين متآكلة، كشفت عن ثلاثة أضراس طويلة صفراء ترى دخولها في عظم الفك العلوي حيث لا أسنان، ليس له سوى أذن واحدة. وضع يده على المنضدة وحولها ضماد، إنها اليد اليمنى ويمسك بين إصبعيه مما تبقى من يده اليسرى سيكاراً غليظاً وطويلاً. ربما صنعه بنفسه لأنه ملفوف من ورقة تبغ نصف ناضجة، متشربة باللون الأخضر، ليس له أجفان إلا على العين اليسرى، والعين اليمنى لا جفن عليها وفيها قرح عميق يمتد إلى أعلى حتى يضع بين شعر رمادي كثيف، قال بصوت مبجوح:

سنساعدك يا هذا، وأنت تحتاج إلى زمن طويل لتصبح مثلي وهذا ما لا أريده لك.

شكراً

— اسمي جان الشجاع، أنا من الضواحي. عندما أتى بي إلى السجن كنت أجهل وأقوى وأوفر صحة منك. وبعد عشر سنوات انظر كيف أصبحت.

— ألا يعتنون بك؟

— بلى. أنا في تحسن منذ بدأت باستعمال الحقن من زيت الشوماجرا. انظر... ثم أدار رأسه وأراني الجانب الأيسر «بدأ هذا الجانب يجف» فأحسست بقلبي يعتصر إشفاقاً عليه. وحركت يدي لالأس وجنته تعبيراً عن التعاطف معه، فمال إلى الوراء، وقال لي: شكراً لهذه الرغبة ولكن لا تلمس مريضاً، ولا تأكلن ولا تشربين من قصعته.

لم أر وجهاً فيها رأيت إلا وجه أبرص استطاع الثبات أمام نظري. على عتبة الباب، بدا ظل رجل قصير أطول قليلاً من القزم، قال:

— أين الرجل؟ توسان والآخرين يرغبون في رؤيته خذوه إلى المركز.

نهض جان الشجاع وقال اتبعني. ومشينا جميعاً في الظلام، أربعة. أو خمسة في المقدمة، أنا وجان بجاني وأخرون في الخلف، وبعد دقائق ثلاث وصلنا إلى ساحة ينيرها نور آت من القمر ضئيل. هذه الساحة هي القمة المسطحة للجزيرة، وفي الوسط منزل ينبعث من نافذته ضوء، وأمام الباب حوالي عشرون رجلاً بانتظاري. فاتجهنا نحوهم ولما وصلنا تفرقوا ليتركوا لنا مجالاً للمرور. قاعة مستطيلة طولها عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار تقريباً، فيها ما يشبه المدفأة يوجد فيها الحطب، محاطة بأربعة حجارة كبيرة ذات ارتفاع واحد. والقاعة مضاعة بمصباحين كبيرين وقودهما النفط. جلس على الكرسي رجل أبيض الوجه، لا يمكن تحديد عمره، وجلس خلفه خمسة أو ستة رجال.

— أنا توسان الكورسيكي، ولا بد أنك بابيون؟

— نعم.

— تسري أخبار السجن بنفس السرعة التي تتحرك بها. أين وضعت البندقية؟

— ألقيناها في النهر.

— في أي مكان؟

— مقابل جدار المستشفى، وبالضبط عند المكان الذي قفزنا منه

— إذن من الممكن استردادها.

— افترض ذلك لأن الماء في هذا المكان ضحل

— كيف عرفت هذا؟

— اضطررنا إلى النزول في الماء لنحمل صديقنا الجريح إلى الزورق.

— ما به؟

— كسرت ساقه

— ماذا فعلت من أجله؟

— وضعت له أغصانا مشطورة من وسطها شطرين، وجعلت لساقه منها ما يشبه

الغل.

- هل يكابد المأ؟
 - أجل.
 - أين هو الآن؟
 - في الزورق
 - قلت إنك جئتنا باحثاً عن معونة فما تلك المعونة؟
 - أريد مركباً.
 - تريد أن نعطيك مركباً؟
 - وعندني المال لأدفع الثمن.
 - حسناً سأبيعك مركبي وهو متين وجديد، سرقة الأسبوع الفائت من آليينا. إنه ليس مركباً بل هو عابر للأطلسي، إنما ينقص شيء وهو الخيزوم^(١). وفي مدى ساعتين سنجهز المركب بواحد. وفيه كل ما ينبغي: السكان مع حاجزهم والصاري من الخشب والحديد وطولة أربعة أمتار، وشراع جديد جداً مصنوع من الكتان. كم تدفع لي؟
 - قل لي الثمن الذي تريده. فأنا لا أعرف قيمة الأشياء هنا
 - ثلاثة آلاف فرنك، إذا استطعت ذلك فإن لم تستطع فما عليك إلا أن تحضر لي البندقية الليلة القادمة ونجري التبادل.
 - لا. إني أؤثر الدفع.
 - لا بأس. صفقة معقولة. لا بوس! قدم له القهوة.
 لا بوس هو هذا الرجل القصير الذي جاء يدعوني. توجه نحو رف مثبت في الجدار فوق المدفأة، فأخذ صحناً لامعاً جديداً ونظيفاً وصب فيه القهوة من قارورة، ووضعها على النار، وبعد قليل سحب الصحن ووضع القهوة في أقداح موضوعة قرب الحجارة. مال توسان ودار بالقهوة على الرجال الجالسين خلفه. وقدم لي لا بوس الصحن وقال لي: اشرب ولا تخف لأن هذا الصحن مخصص للمسافرين لم يشرب منه أي مريض. فتناولته وشربت القهوة ثم وضعت فوق ركبتي. وخلال ذلك رأيت في الصحن إصبعاً ملتصقة وبينما كنت أتثبت مما ترى عيني سمعت لا بوس يقول: ها قد فقدت إصبعاً أخرى يا للشيطان أين وقعت؟ قلت له: إنها هنا، وأشرت إليه أن ينظر في الصحن فترعها وألقى بها في النار وقال:
 - بإمكانك أن تشرب لأنني مصاب بالبرص الجاف وسوف تتقطع أوصالي قطعة قطعة ولكنني لا أعدي أحداً. ثم فاحت رائحة لحم محترق وقلت في نفسي: هذه رائحة الأصبع المحترق. قال توسان:
 - أنت مضطر للبقاء هنا سحابة النهار حتى يمضي وقت المد. وعليك أن تذهب لإعلام صاحبك. أحضر الجريح إلى كوخ من الأكواخ، واجمع كل ما

(١) خيزوم السفينة خشبة ممتدة من طرف السفينة إلى طرفها الآخر وهو بمثابة العمود الفقري لها.

في الزورق ودعه يجري. لا يستطيع أحد أن يساعدك ولعلك تفهم السبب. فانطلقت جرياً إلى صاحبي وحملنا كلوزيو إلى كوخ وبعد نصف ساعة أفرغ الزورق إفراغاً تاماً منظماً وبكل عناية. طلب لابوس أن نقدم له الزورق مع المجذاف هدية فأعطيته إياهما، وهو يريد أن يقوده إلى مكان يعرفه. ومرت الليلة سريعاً، وقد نمنا نحن الثلاثة في الكوخ على أغطية جديدة أرسلها توسان. وصلتنا مغلفة بورق تغليف جيد ومتين. رويت لكلوزيو وماتوريت، ونحن ممددون على الأغطية، تفاصيل ما جرى منذ وصولي إلى الجزيرة، والصفقة المعقودة مع توسان. تفوه كلوزيو بكلمة حمقاء دون أن يفكر بها: إذن الهروب يكلف خمس مئة وستة آلاف فرنك، وأنا أعطيك نصفها، أي ثلاثة الآلاف التي أملكها.

— لسنا هنا في صدد حسابات أرمنية، فأنا أدفع ما دام معي مال، وبعد ذلك سنرى.

لم يدخل أحد علينا من المرضى. طلع النهار ووصل توسان وقال:
— صباح الخير، يمكنكم الخروج مطمئنين، لا يمكن لأحد هنا أن يزعجكم؛ هناك شخص تسلق شجرة النارجيل — جوز الهند — في أعلى الجزيرة، يترصد مراكب الحراسة في النهر، فلم يد منها مركب. وما دامت هناك راية بيضاء تعوم فهذا معناه لا شيء تحت البصر، وإن رأى شيئاً نزل ليعلمنا. في وسعكم أن تقطفوا الثمر بأنفسكم وتأكلوه إن شئتم ذلك، فقلت له:

— شكراً، والخيزوم يا توسان؟

— سنقوم بصنعه من خشب باب المستوصف، إنه من الخشب الثقيل ويلزمنا لوحان فقط. وكنا قبلاً أخرجنا المركب في الليل منتهزين الظلام. تعال أنظر إليه.

فذهبتا. حقاً إنه مركب بديع طوله خمسة أمتار، جديد كل الجدة وفيه مقعدان خشبيان. أحدهما مثقوب بثقب يسمح بمرور الصاري، وهو ثقيل، وقد وجدنا أننا وماتوريت مشقة في تدويره. الشراع والحبال جديدة، وعلى جوانبه حلقات ليلحق عليها الحمولة بما في ذلك برميل الماء. وشرعنا في العمل، وعند الظهر كان الخيزوم مثبتاً في السفينة من الخلف إلى الأمام بقوة بمسامير لولبية. تحلّقت بنا البرص ينظرون إلينا ونحن نعمل ودون أن يتفوهوا بكلمة، وتوسان يرشدنا إلى طريقة العمل، ونحن ننفذ. لم أر قروحاً في وجه توسان الذي يبدو سوياً، ولكنه عندما يتكلم يلاحظ أن جانباً واحداً من وجهه يتحرك هو الجانب الأيسر وقد قال لي إنه مصاب بالبرص الجاف. صدره وذراعه الأيمن مشلولان ويتوقع شلل ساقه اليمنى. عينه اليمنى جامدة وكأنها من زجاج، ولكنه يرى بها دون أن يستطيع تحريكها.

لن أذكر اسم واحد من المصابين، إذ قد يجهل من أحبهم أو عرفهم الحالة الرهيبة التي وصلوا إليها، وكيف كانت تنقطع أوصالهم وهم أحياء. كنت أخاطب توسان وأنا أعمل، ولم يتكلم أحد سواه، إلا مرة واحدة حينما ذهبت لإحضار بعض المفصلات

التي انتزعوها من أثاث المستوصف، قال لي أحدهم: لا تأخذها، دعها هنا، لقد شقيت في انتزاعها، وقد سال عليها شيء من دمي فمسحته. فقام أبرص وسكب (الروم) عليها وأشعل النار مرتين ثم قال: الآن تستطيع استعمالها.

قال توسان أثناء العمل لواحد من البرص:

— أنت سبق لك أن ذهبت مراراً، اشرح لبايون ما ينبغي عمله، لأن أحداً من هؤلاء الثلاثة لم يسبق له أن هرب. وفي الحال بدأ يشرح: في وقت مبكر من هذا المساء يحين موعد الجزر وهو يبدأ في الساعة الثالثة. وفي الساعة السادسة ستجد أمامك تياراً قوياً يقودك في أقل من ثلاث ساعات مسافة مئة كيلو متر من موضع الخروج. ويجب أن تتوقف في الساعة التاسعة، وتنتظر ست ساعات وعندئذ يبدأ موعد المد، والمركب مربوط بشجرة ربطاً وثيقاً، وتكون الساعة حينئذ الثالثة صباحاً. لا تتعجل الرحيل في تلك الساعة، لأن التيار لا يتراجع بهذه السرعة. ضع نفسك وسط النهر في الساعة الرابعة والنصف صباحاً، ويبقى لديك ساعة ونصف الساعة قبل طلوع النهار تستطيع أثناء ذلك أن تسير خمسين كيلو متراً، هذه الفترة هي الفرصة الذهبية إذ ينبغي أن تدخل البحر في الساعة السادسة أي ساعة الإصباح. وعندها لن يستطيع الخفراء أن يلحقوا بك إذا راوك. لأن المد يكون قد بدأ وهم عند سد الخروج، ولن يتمكنوا منك، لأنك تكون قد جاوزت السد.

هذا الكيلومتر السذي عليك أن تتجازه عندما يرونك، هو حياتك.

— وماذا عندك في الزورق؟ فهنا لا يوجد سوى شراع واحد

— شراع وقلع.

— هذا المركب ثقيل يتحمل قلعين أحدهما في المقدمة أسفل الصاري والآخر متنفخ وخارج عن المقدمة ليدعمها. انشر الأشرعة مستقيمة فوق أمواج البحر وهي عظيمة عند المصب. اجعل رفيقك ينأمان في قاع المركب حفظاً على توازنه، وأمسك أنت بمقبض السكان جيداً ولا تربط حبل الشراع بساقيك، بل مرره من الحلقة المعدة لهذا الغرض في المركب، ثم لفه لفة واحدة حول معصمك، فإن اجتمعت قوة الريح إلى حركة انتقال موجة كبيرة، ووجدت أنك تواجه خطر السقوط في البحر أثناء التفاتك، فما عليك إلا أن ترخي كل شيء في الحال، فترى أن المركب استعاد توازنه. وبعد أن يتم ذلك لا تتوقف، بل دع المركب يعوم واخرج دوماً نحو الأمام في صميم الريح مع القلعين الخلفي والأمامي. وفي المياه الزرقاء فقط يتسع لك الوقت لإنزال الشراع ثم استئناف السير بعد رفعه. هل تعرف الطريق؟

— لا. أعرف فقط أن فنزويلا وكولومبيا تقعان في الشمال الشرقي.

— صح. ولكن حذار من الاتجاه نحو الساحل، فهناك غويان الهولندية التي تسلم الهاربين، وكذلك غويان الانكليزية. أما ترينيداد فلن تسلمك إنما تجبرك على الرجوع بعد خمسة عشر يوماً. وفنزويلا تسلمك بعد أن تستخدمك في رصف الطرق مدة سنة أو

ستين. كنت أصغي بكل جوارحي، لقد ذكر أنه كان يذهب بين حين وآخر، وبما أنه مصاب بالبرص فقد كانوا يردونه على الفور. واعترف بأنه لم يذهب أبعد من غويان الانكليزية (جورج تاون). والبرص غير باد عليه، إلا في قدميه اللذين فقدتا أصابعهما كلها؛ فهو حافي القدمين. طلب مني توسان إعادة النصائح التي سمعتها ففعلت دون خطأ. قال جان الشجاع في هذه اللحظة: كم يحتاج من الوقت ليكون في عرض البحر؟ فسبقت إلى القول:

— أسير ثلاثة أيام شمالاً، شمال شرق، ومع الانحراف ساكون شمال — شمال، وفي اليوم الرابع سأتحجه شمال غرب، وهذا يؤدي إلى الغرب بالضبط. قال الأبرص: برفو. أنا في المرة الأخيرة لم أسر في اتجاه الشمال الشرقي سوى يومين. وهكذا وقعت في غويان الانكليزية. ثلاثة أيام باتجاه الشمال تنتهي إلى شمال ترينيداد أو باربادوس. ودفعة واحدة تتخطى فنزويلا.

قال جان الشجاع: توسان بكم بعت مركبك؟

— بثلاثة آلاف. هل غلوت في الثمن؟

— لا. قلت هذا لمجرد العلم لا أكثر. هل تستطيع الدفع يا بابيون؟

— نعم.

— هل يبقى لديك مال؟

— لا هذا كل ما غنمك، ثلاثة آلاف بالضبط في حوزة صديقي كلوزيو.

قال جان: توسان أود أن أبيعك مسدسي لمساعدتهم، فبكم تشتريه؟

— بألف فرنك. وأنا أيضاً أريد مساعدتهم.

قال ماتوريت وهو ينظر إلى جان الشجاع: شكراً لكم جميعاً.

وشكر لهم كلوزيو، أما أنا فقد شعرت بالحنج لأنني كذبت وقلت: لا يمكن أن أقبل هذا منك إذ لا مبرر لهذا. فنظر إلي وقال: أجل هناك مبرر. ثلاثة آلاف مبلغ كبير علماً بأن توسان يخسر بهذا الثمن ألفين، فهو يعطيك مركباً شهيراً. إذن ليس هناك مسوغ أن لا أفعل ما فعلت من أجلكم. وكان الموقف مؤثراً حقاً. وضع شويت قبعته على الأرض، وها هم أولاء البرص يلقون بالنقود في داخلها، وتقاطروا من كل مكان ليضعوا أي شيء، وأحسست بالخزي يحتاج كياني، ولم يبق بالإمكان أن أعترف بوجود المال معي. ما العمل يا إلهي، لقد قابلوا عاري بنبل جم: «أرجوكم لا تبذلوا هذا البذل الكثير». قال رجل زنجي أسود مشوه، ليس لكفيه أصابع:

إن المال لا ينفعنا في عيش. اقبله ولا تحجل، فهو لا يفيدنا إلا في الميسر أو تقبيل النساء البرص اللاتي يأتين من حين لآخر من البينا.

وقد وجدت في هذا القول بعض العزاء، وحال دون البوح بحقيقة ما عندي من المال. ثم أعدوا لنا مئتي بيضة مشوية، ووضعوها في صندوق عليه علامة الصليب الأحمر، فهذا هو

الصندوق الذي تلقوه اليوم وفيه الدواء اليومي. وأحضروا كذلك سلحفتين حيتين، لا يقل وزن الواحدة منها عن ثلاثين كيلو غراماً، وأوراق تبغ، وقارورتين ممتلئتين بأعواد الثقاب، وكيساً يحوي خمسين كيلوغراماً من الرز، وكيسين من فحم الخشب، وموقد كاز وهو من المستوصف، وكمية من البنزين. كانت هذه المجموعة البائسة متعاطفة معنا ويريدون المساهمة في إنجاح خطتنا، وكأنها تخصهم. جر الزورق إلى قرب المكان الذي وصلنا إليه، وعدوا المال الذي جمع في القبة فبلغ ثمان مئة فرنك، وكان علي أن أدفع لتوسان فوقه ألفاً ومئتي فرنك ليس غير.

أعطاني كلوزيو أنبوتيه ففتحتنا أمام الجميع فكان فيها ورقة من فئة الألف وأربع ورقات من فئة خمس مئة فرنك، فقدمت لتوسان ألفاً ومئتين، فرد لي ثلاث مئة فرنك ثم قال خذ هذا المسدس هدية مني، لقد جازفت كثيراً، ولا ينبغي في اللحظة الأخيرة أن تخطيء فإن له صوتاً مدوياً، وأمل أن لا تستخدمه.

لم أدر كيف أشكر له أولاً، وللآخرين ثانياً. والمرض أيضاً أعد لنا صندوقاً ضمنه قطناً وكحولاً وأسبريناً وضماً وصبغة يود، ومقصاً، ولاصقاً. وأحضر أحد البرص خشبتين مصقولتين وضماًدين جديدين بغلافهما، وذلك لتغيير ما كان على ساق كلوزيو. وفي حوالي الساعة الخامسة أمطرت السماء. قال جان: وانتك الفرصة ولا خوف من أن يراكم أحد بوسعكم الرحيل واغتنام نصف ساعة من الوقت. وهكذا تكونون على مقربة من المصب للانطلاق في الرابعة والنصف صباحاً قلت له: كيف يمكنني معرفة الساعة؟

— المد في صعوده والجزر في انحساره ينبئانك بذلك.

وضعنا المركب في الماء وهو ليس كالزورق، إنه يقفز فوق الماء أربعين سنتمتراً تقريباً وهو يحمل بالمواد وبنا نحن الثلاثة.

الصاري ملفف به الشراع ومعد، فنحن لسنا بحاجة إليه إلا عند الخروج. وضعنا الدفة ومقبضها وعصا الأمان وأكثر من وسادة للجلوس. رتبنا في قاع المركب عشاً من الأغطية. لم يشأ كلوزيو أن يغير ضماده، إنه عند قدمي بيني وبين برميل الماء، وجلس ماتوريت في الصدر. وللحال أحسست بشعور الطمأنينة بخلاف ما كنت عليه في الزورق.

لا يزال المطر ينهمر، وعلي أن أنزل إلى وسط النهر قليلاً إلى اليسار من جهة الساحل الهولاندي. قال جان الشجاع: وداعاً. أسرعوا. وقال توسان: أرجو لكم التوفيق. ودفع المركب بقدمه دفعة قوية.

— شكراً لك توسان، وشكراً لك يا جان، وألف شكر للجميع. وفي سرعة تواريما عن الأنظار على أكتاف الجزر الذي تحرك منذ ساعتين ونصف الساعة في سرعة مذهلة. ولا يزال المطر يهطل والرؤية متعذرة حتى على بعد عشرة أمتار منا. كان ماتوريت

في المقدمة منحنيًا محملاً، خشية أن نصطدم بصخور جزيرتين صغيرتين كانت في طريقنا. حل المساء. كانت شجرة ضخمة تماشينا في النهر في سرعة أبطأ من سرعتنا لحسن الحظ، وقد كانت تسبب لنا الضيق. والصجر بفروعها. ولم يدم ذلك طويلاً وتخلصنا منها وتابعنا السير في سرعة ثلاثين كيلو متر. كنا ندخن ونشرب الروم وقد أعطانا البرص ست زجاجات مقششة.

والأمر الغريب، أن واحداً منا لم يتكلم عن القروح الفظيعة التي شاهدنا على عدد من المصابين بالجذام. وكان حديثنا يدور حول محور واحد: عن سلامة طويتهم. وعن كرمهم واستقامتهم، وعن حسن طالعنا بلقاء بروتون ذي القناع الذي أرشدنا إلى جزيرة الحمام.

ولا يزال المطر يهطل، وازداد غزارة وتبللت حتى العظام، ولكن هذه الدراعات الصوفية الممتازة تحفظ الحرارة على ما فيها من بلل شديد. ولم أشعر بالبرد ما عدا يدي التي أمسكت بها مقبض الدفة، فقد يبست تحت المطر.

وفي هذه اللحظة قال ماتوريت: نحن ننحدر في سرعة تزيد على أربعين كيلو متراً في الساعة. كم مضى من الوقت على انطلاقنا في تقديركم؟

قال كلوزيو: سأخبرك، انتظر قليلاً. ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة
— أنت مجنون؟ كيف قدرت ذلك؟

— كنت أعد منذ بدء الرحلة ثلاث مئة ثانية، وفي كل مرة كنت أقطع جازاة من ورق المقوى وأصبح عندي الآن تسعة وثلاثون جازاة وكل واحدة تساوي خمس دقائق فيكون الناتج ثلاث ساعات وربع الساعة، وإذا لم أكن مخطئاً، فلن نستطيع النزول مع الجزر بل سنصعد مع المد الجديد ونعود أدراجنا، وذلك في فترة تتراوح بين خمس عشرة وعشرين دقيقة.

دفعت بمقبض الدفة منحرفاً نحو اليمين ومقرباً من الضفة، إلى جانب غويان الهولندية وقبل ملازمة الغاية، توقف التيار. فلم تنزل مع التيار ولم نصعد، ولا يزال المطر منسكباً. امتنعنا عن التدخين والكلام والهمس. تناولت المجذاف ورفعته، وبدأت بالتجديف بنفسني ووضعت مقبض السكان تحت فخذي الأيمن ولامسنا الأرض بهدوء تمسكنا بالأغصان ولذنا بها، ونحن الآن في العتمة الناجمة عن كثافة النباتات. النهر رمادي اللون مغطى بالضباب، ومن المستحيل على المرء أن يعرف موضع البحر، أو موضع مصب النهر، لولا المد والجزر.

الرحلة الكبرى

سوف يستمر المد ست ساعات، يضاف إليها ساعة ونصف بانتظار الجزر وسوف أستطيع النوم ست ساعات على الرغم مما أنا فيه من هيجان. يجب أن أنام، فإذا ما خرجنا إلى البحر فمتى أستطيع نوماً؟ تمددت بين البراميل والصاري. مد ماتوريت بين المقعد والبرميل غطاء يكون لي سقفاً وملاذاً، ثم غمت نوماً عميقاً. لا شيء يزعجني أو يعكر علي منامي الثقيل لا حلم ولا مطر، ولا ضجة سيئة. غمت طويلاً إلى أن جاء ماتوريت يوقظني: بابي! نظن أن الوقت قد حان أو أوشك. والجزر قد بدأ منذ زمن، والمركب اتجه نحو البحر والتيار يجري تحت أصابعي مسرعاً. وانقطع المطر، والقمر في ربعه الأول يسمح لنا برؤية واضحة لمسافة مئة متر، والنهر يحمل الأعشاب والأخشاب، بأشكال سود، نظرت باحثاً عن خط الفصل بين النهر والبحر، فنحن لا نحس حركة الريح. ترى هل هناك ريح من وسط النهر؟ هل هي شديدة؟ خرجنا من تحت مظلة الغابة. المركب مشدود إلى غصن كبير بحبل معقود به. وحين نظرت إلى السماء قدرت موضع الساحل، نهاية النهر وبداية البحر.

فقد نزلنا إلى أبعد مما كنا نظن، وكان لدي إحساس بأننا لا نبعد عن المصب أكثر من عشرة كيلومترات. تناولنا جرعة من الروم طيبة، واستشرت أصحابي في نصب الصاري فوافقوا، فرفعناه إذا هو مثبت جيداً في قاعدته وفي الثقب الذي يمر منه في المقعد. رفعت الشراع وهو ملفوف لم ينشر. القلعان الخلفي والأمامي جاهزان، سيرفعهما ماتوريت عندما أرى أن الوقت قد حان. ولكي يعمل الشراع، ماعليتنا إلا أن نرخي الحبل المثبت في الصاري، وأنا من مكاني أبدأ العمل. ماتوريت في الأمام مع مجدافه وأنا في الخلف مع مجدافي ويجب أن نفصل عن الضفة بقوة وسرعة حين يكف التيار عن صحبتنا.

استعداد. إلى الأمام. بفضلته تعالى..

وأعاد كلوزيو: بفضلته تعالى. وقال ماتوريت: ثقني بين يديك وأقلعنا، ودخلنا الماء متعاونين، ندفع الماء بالمجاديف، وأنا أعزز المجداف وأسحبه، وكذلك ماتوريت وانفصلنا بيسر، ولم نكد نحرف عشرين متراً عن الضفة حتى نزلنا مئة متر مع التيار، وبغثة تحرك الهواء ودفعنا نحو وسط النهر. ماتوريت! ارفع القلعين مدعومين جيداً. ولم تلبث الريح أن ملأتها، فشب المركب كالحصان ومرق مروق السهم وفجأة أضاء النهر بصبح وضاح، وأصبحتنا نتبين في سهولة، وعلى مسافة كيلومترين الساحل الفرنسي على اليمين، والهولاندي على بعد كيلو متر واحد على اليسار وصرنا نرى بوضوح الخراف البيض وأعني بها ذرا الأمواج.

قال كلوزيو: اسم الله، لقد أخطأنا الوقت. هل نظن الخروج ممكناً

— لا أدري.

— تأمل. ما أعلى ارتفاع الموج! هل سيبدأ الجزر؟

— مستحيل. أنا أرى أشياء تنحدر.

قال ماتوريت: لن يكون الخروج في إمكاننا ولن نصل في الوقت المحدد.

— اخرس، والزم مكانك بالقرب من القلوع، وأنت يا كلوزيو اسكت أيضاً. بان —

إن. بان. إن والنار تطلق علينا. والطلق الثاني حددت موقعه. لم يصدر عن الحراس. إنه أت من غويان الهولندية. رفعت الشراع فانفتح بقوة حتى كاد يرفعه ويبحرني من معصمي، ومال المركب خمساً وأربعين درجة، وأخذت من الريح قدر المستطاع ولم يكن ذلك صعباً إذ لم تكن الريح شديدة. بان — إن، بان — إن، بان إن. ثم انتهى كل شيء وغدونا إلى الشاطئ الفرنسي أقرب، ولهذا توقف إطلاق النار، وسرنا في سرعة تبعت على الدوار بريح كاسرة. والقيت نفسي في وسط المصب وفي دقائق معدودات كدت الأمس الشاطئ الفرنسي ورأيت بوضوح رجالاً يهرعون نحو الشاطئ. حولت المركب عن الشاطئ بأكثر ما يمكن من الهدوء، وأنا أشد حبل الشراع بكل ما أوتيت من قوة. وغير القلعان الاتجاه تلقائياً فدار المركب ثلاثة أرباع الدورة، فأرخيت الشراع، فخرجنا من المصب، والريح تدفعنا من خلف. أف. لقد سارت الأمور سيراً حسناً، وبعد عشر دقائق صادفتنا أول موجة وكادت تعرقل مسيرتنا فعلوناها في يسر، وكان صوت المركب فوق ماء النهر شويت، شويت قد تحول إلى تاك — إي — تاك، تاك — إي — تاك، وكنا نعلو هذه الأمواج رغم ارتفاعها بنفس السهولة التي يقفز بها صبي في لعبة الخروف، تاك — إي — تاك، والمركب يصعد ويهبط مع الموج دون أن يهتز أو يدور، ولا شيء سوى صوت اصطدام هيكل المركب بالبحر عندما ينحدر مع الموج. صالح كلوزيو بجلء رثته: هورا، هورا، لقد خرجنا. وتتويجاً لانتصارنا هذا على العوامل بعث لنا ربنا الكريم إشراقة شمس رائعة. تلاحقت الأمواج على الإيقاع ذاته، وكلما توغلنا في البحر قل ارتفاعها. وكان الماء قذراً موحلاً ويرى من الشمال أسود، وبعد قليل صار أزرق صافياً. ولم أبق في حاجة إلى البوصلة، فالشمس على كتفي الأيمن، وكنت أزجي المركب إلى الأمام في صميم الريح، وقد انحرف قليلاً لأنني تركت الحبل فانطوى الشراع نصف طية، بدلاً من أن يكون مشدوداً. وبدأت المغامرة الكبرى. نهض كلوزيو راغباً في الخروج. أخرج رأسه ثم جسده، ليمعن النظر، وأقبل ماتوريت يساعده على الاعتدال، وجلس في مواجهتي وقد أسند ظهره إلى البرميل ولف لفاقة من التبغ وأشعلها، ثم قدمها لي، وأخذنا ثلاثتنا بالتدخين.

قال كلوزيو: هاتوا الشراب لنشرب نخب خروجنا هذا، وصب ماتوريت الصهباء في

ثلاثة أقداح من المعدن ونجمرعنا. ماتوريت جالس على يساري، ينظر بعضنا إلى بعض،

فالوجوه مشرقة بالبشر والحيور، وربما كان وجهي كذلك. وعندئذ قال لي كلوزيو:

— أين تذهب بنا أيها القبطان؟

— إلى كولومبيا إن شاء الله.

— إن الله سوف يشاء ذلك. باسم الله.

رغبت الشمس ولم نجد مشقة في تخفيف أنفسنا، تحول قميص المستشفى إلى برنس على الطريقة العربية، تركناه مبللاً على رؤوسنا لتبقى ندية، ولتحمينا من ضربة الشمس. المياه زرقاء، ويبلغ ارتفاع الموج ثلاثة أمتار، وهي مديدة مما يتيح لنا سفراً مريحاً، والرياح مواتية، فنبتعد مسرعين عن الساحل ومن حين إلى آخر أراه يتضاءل في الأفق، ويقدر ما كنا نبتعد عن هذه الكتلة الخضراء كانت تبوح لنا بأسرار وشاحها المزركش وبينما كنت مشغولاً بالنظر إلى خلفي مرت موجة ذكرتني بالانضباط وبمسؤوليتي عن حياتي وحياة الآخرين. قال ماتوريت: سأطبخ لكم رزاً. وقال كلوزيو أنا أمسك بالموقد، وأنت تمسك بالقدر.

زجاجة البنزين مودوعة في المقدمة بعيدة عن النار. ما أطيب رائحة الرز بالدهن. أكلناه حاراً، وممزوجاً بالسردين، وتلا ذلك فنجان من القهوة.

— ما رأيك في جرعة من الروم؟

رفضت أن أشرب. لأن الطقس حار، ومن جهة أخرى لم أكن من المدمنين. كلوزيو يصنع لي لافاة كل دقيقة، ويشعلها لي، والوجهة الأولى على المركب كانت حسنة. وقد رنا أن تكون الساعة العاشرة صباحاً بحسب ميل الشمس. لا يزال أمامنا خمس ساعات فقط، ومع هذا نحس بأن الماء تحتنا عميق جداً، وتناقص ارتفاع الموج كثيراً وكنا نقطعه دون أن يرتطم المركب بسطح الماء، وقد أدخلت في حسابي أنني لا أحتاج للبوصلة نهائياً. ومن وقت لآخر كنت أضع الشمس متناسبة مع البوصلة وأقود بموجب ذلك، فهذا سهل. انعكاس الشمس أتعب عيني. وندمت على عدم اقتناء نظارات سود. وعلى حين غرة قال كلوزيو:

— ما كان أسعدني بلقائك في المستشفى.

— لست وحدك، فانا أيضاً سعيد بقدمك، فكرت بديغا وفرناندز لو أنها أطاعاني لكانا معنا الآن.

— كان أمامك عوائق لاستدراج العربي إلى المهجع في الوضع الملائم والوقت المناسب.

— أجل ولكن ماتوريت قدم لنا خدمة كبرى، وأهنيء نفسي بإحضاره معنا لأنه جريء وحاذق.

قال ماتوريت: أشكر لكما معاً ثقتكما بي، رغم حداثة سني، ووضعي ولن أذكر وسعاً لأكون سامياً.

— وفرانسوا سييرا كم تأقت نفسي لأن يكون معنا وكذلك كالكاني.
— كم تبدل الأمور يا بايون. غير معقول. لو كان جيزو رجلاً مستقيماً وأعطانا مركباً صالحاً لكان بوسعنا أن ننتظرهم. هو ييء لهم سبيل الهرب ونحن نصحبهم معنا. إنهم يعرفونك ويعلمون جيداً أنك لم تأت بهم لأن هذا مستحيل.

— وبهذه المناسبة يا ماتوريت، كيف اتفق وجودك في هذه القاعة مع وجود مراقبة على درجة عالية في المستشفى؟

— ما كنت أدري أنني من المحجور عليهم، ذهبت للعبادة لوجود ألم في حلقي وللنزهة أيضاً، ولما رأي الطبيب قال لي: أرى في ملفك أنك محجور عليك في الجزر، لماذا؟ قلت: لا أعلم يا دكتور وما معنى محجور علي؟
— حسناً. لا شيء. اذهب إلى المستشفى، وهكذا وجدت نفسي هناك، وهذا كل شيء.

قال كلوزيو: أراد أن يسدي لك خدمة.

— ترى ما الدافع لعمله هذا؟ ولا بد أنه يقول لنفسه: إن هذا الذي حميته لم يكن غيباً إلى هذا الحد ما دام قد استطاع الفرار، رغم أن وجهه يشبه أطفال القداس.

ثم أخذنا نتداول حقاقت. قلت: وما يدريكم أننا ستقابل جولو الرجل ذا المطرقة. إنه سيظل بعيداً بحيث سيبقى في الغابة.

قال كلوزيو: أنا قبل ذهابي تركت له كلمة على الوسادة «ذهبنا ولم نترك عنواناً» فضحكنا كثيراً.

أبحرنا خمسة أيام بدون حوادث، ففي النهار كانت الشمس في مسارها شرق غرب، تغني عن البوصلة التي استعملها ليلاً فقط.

وفي اليوم السادس طلعت تحيينا شمس مشرقة، وهذا البحر فجأة، وبعض الأسماك كانت تقفز في الهواء قريباً منا. كنت منهوكة من التعب في تلك الليلة، وكان ماتوريت يغمس قطعة قماش في ماء البحر ويمسح بها وجهي ليمنع عيني من الغمض ومع ذلك استسلمت إلى سبات عميق، فعمد كلوزيو إلى إحراقي بنار السجارة، وبما أن البحر ساكن عزمت على النوم، فأنزلا الشراع وأحد القلعتين وأبقيا على القلع الخلفي، وكنت أنا في القاع مرمية كالميت، يحمي الشراع الوارف فوق من أشعة الشمس. استيقظت على هز ماتوريت وهو يقول لي: الساعة الآن الثانية عشرة أو الواحدة. أيقظتك لأن الهواء بدأ يبرد، وفي الناحية التي تأتي منها الريح سواد يسد الأفق. فنهضت وأخذت مكاني والقلع الذي رفعناه دفع المركب في بحر مصقول، وفي الغرب خلفي خيام السواد، والهواء يزداد

برودة، والقلعان كافيان لحث المركب على الشد. أحكمت ربط الشراع بالصاري وقلت أثبتوا جيداً فالعاصفة مقبلة علينا.

وبدأت قطرات كبيرة تنهال علينا، والسواد يقترب منا في سرعة فائقة، فوصل إلينا في أقل من ربع ساعة، واجتاحنا ريح عاصفة غربية، وبفعل ساهر تشكلت الأمواج في سرعة لا تصدق، وعلاها الزبد، واحتجبت الشمس كلياً، وانهمر المطر من أفواه القرب، وامتنعت علينا الرؤية، والأمواج أثناء ارتطامها بالمركب ترسل إلى وجهي رذاذاً يصفه صفعاً. إنها العاصفة، أول عاصفة أراها، بكل ما في الطبيعة الغاضبة من دوي: من قصف الرعد والبرق والمطر والأمواج والريح المعولة التي تزجر من حولنا، وصار المركب كالقشة في نزوله وفي صعوده، على ارتفاع مرعب وانخفاض عميق حتى خيل إلينا أننا لن نخرج أبداً. ورغم هذا الغوص الذي يفوق الخيال، فإن المركب يعود إلى الصعود ليمتطي متن موجة جديدة وهكذا دواليك. أمسكت بمقبض الدفة بكلتا يدي، وفكرت في أنه يحسن أن نقاوم موجة آتية من العمق إلى أعلى. وفي اللحظة التي كنت أستعد لتفادياها تدفق الماء إلى المركب وغمره إلى عمق خمسة وسبعين سنتيمتراً، وبانفعال وعن غير قصد مني دخلت في موجة. وفي هذا خطر شديد. ومال المركب حتى أوشك أن ينقلب. ومع هذا الميل الشديد أفرغ أكثر ما فيه من الماء.

صاح كلوزيو: برافو. أراك ملماً بالملاحة، فسرعان ما أفرغت المركب. قلت: نعم. أرايت؟

ليته عرف أنني بقلة خبرتي، أوشكنا. ننقلب بالمركب. وعزمت على أن لا أصارع في اتجاه معاكس للموج، ولم أعد أهتم باتجاه معين، ولكن بالمحافظة قدر المستطاع على التوازن. ركب الأمواج ونزلت معها طوعاً إلى أسفل ثم صعدت مع البحر وأدركت على الفور، أن اكتشافي هذا مهم جداً، وهكذا تحاشيت الكثير من الأخطار.

أقلعت السماء، وبقيت الريح مولولة، وصار في مقدوري الآن أن أرى ما حولي والرؤية أمامي حسنة، وخلفي سواد ونحن وسط هذين الطرفين.

وانتهى كل شيء حوالي الساعة الخامسة، وعادت الشمس إلى إشراقها، والريح عادية، والموج أقل ارتفاعاً، فنصبت الشراع واستأنفنا السير مسرورين من أنفسنا. أفرغ صديقي ما تبقى من الماء ببعض الأوعية، وأخرجنا الأغذية ونشراها على الصاري، فجفت سريعاً بحركة الريح.

أكلنا الرز والطحين والزيت والقهوة مضاعفاً، ثم احتسينا الروم. مالت الشمس نحو الغيب منيرة سطح البحر الأزرق بكل ما فيها من لهب. فكان منظرأ عجبا لا ينسى: السماء زرقاء مشوية بسمرة وقد غاصت الشمس إلى نصفها في البحر، وأرسلت أشعتها الصفراء بعضها إلى السماء وإلى غيومها البيض، وبعضها إلى البحر، والأمواج الصاعدة

زرقاء عند قاعدتها ثم تميل إلى الاخضرار، وعلى رؤوسهن تيجان حر أو وردية أو صفر تبعاً للشعاع الذي يصافحها. انتابني شعور بالأمان، تخالطه عذوبة مبهمة ومع هذا الأمن إحساس بالثقة بالنفس، لقد أحسنت التخلص. واستفدت من هذه العاصفة العابرة، وتعلمت وحدي كيف أتصرف في مثل هذه الحالات ولسوف أدلج في صفاء تام.

— أي كلوزيو! أرايت هذه الحركة في تفريغ المركب؟

— لو لم تفعل ذلك يا صديقي ولاقينا موجة أخرى لانتكسنا في الماء. أنت بطل.

قال ماتوريت: هل تعلمت هذا في البحرية؟

— أجل. أرايت كيف تنفع دروس البحرية الحربية بعض النفع؟

لقد انحرطنا كثيراً. وبالا اعتماد على الريح والأمواج المتماثلة سنحدد مقدار انحرافنا خلال أربع ساعات.

سأسير شمال غرب لتعديل الانحراف. حل المساء فجأة منذ أن غابت الشمس في البحر مرسله آخر شرارثا البنفسجية. أبحرنا ستة أيام آخر من غير متاعب إلا من قطرات من المطر العاصف تصيينا والتي لم تدم مرة أكثر من ثلاث ساعات ولم تبلغ العاصفة السابقة في طولها.

كانت الساعة العاشرة صباحاً. ولا نحس بنسمة هواء، وقد سيطر الهدوء. نمت ما يقرب من أربع ساعات، ثم أفقت وشفطاني تحترقان وقد تقشر جلدهما وكذلك أنفي، ويدي لا بشرة لها، وقد أصاب كلوزيو وماتوريت ما أصابني. مسحنا على وجوهنا بالزيت مرتين ولم يكن هذا كافياً، جففتنا شمس خط الاستواء. والساعة الآن الثانية — تقديراً — حسب ميل الشمس واغتنمنا فرصة هدوء البحر لتدبير إحداث ظل بالشرع. وحامت بعض الأسماك حول المركب من الناحية التي كان كلوزيو يغسل فيها الأواني. تناولت السيف الخشبي وقلت لماتوريت: ألق بشيء من الرز وكان هذا الرز قد فسد بعد البلل ونحمر، فجمع السمك حول نقطة الرز، ولأمس سطح الماء وكان رأس إحداها يخرج من الماء، فعاجلتها بضربة حاسمة جعلت بطنها مرفوعاً نحو الهواء، وكانت تزن عشرة كيلو غرامات فطبختها بعد تنظيفها بالماء الملح وأكلناها في المساء مع الطحين.

ها قد مضى على دخولنا البحر أحد عشر يوماً، ولم نر خلالها سوى مركب واحد من بعيد في الأفق. وقلت في نفسي: أيها الشيطان أين نحن؟ في عرض البحر، هذا ثابت وأكد ولكن في أي وضع بالنسبة إلى ترينيداد، أو أية جزيرة انكليزية أخرى. لقد ذكرنا الذئب... وبالفعل شاهدنا أماناً وعلى خط مستقيم نقطة سوداء بدأت تتعاطف شيئاً فشيئاً. هل هذا مركب أم زورق لخدمة البواخر؟ لقد أخطأنا الظن إنه لم يتجه نحونا. إنها سفينة. لقد ميزناها الآن جيداً. إنها تقترب لا ريب في ذلك ولكن منحرفة عنا. فليست تمر علينا في طريقها. ونظراً لسكون الريح فإن أشرعتنا تتدل أسبانية حزينة، والمركب لم

يرنا بالتأكيد. ثم بوغتنا بدوي الصافرة، ثم ثلاث طلقات نارية، ثم بدأت السفينة تتجه نحونا. قال كلوزيو: والأمل أن لا تقترب منا أكثر مما ينبغي. قلت: لا خطر علينا منها، فسطح البحر ساكن كسطح الزيت.

إنها حاملة نفط، وبمقدار ما تقترب غميز أناساً على سطحها، وواضح أنهم كانوا يتساءلون ماذا يفعل هؤلاء الرجال هنا في عرض البحر في مركب كقشرة الجوزة. اقتربوا منا في تودة، وميزنا الآن ضباط الباخرة ورجالاً آخرين من الطاقم، ورأينا رجالاً في قمصان ملونة، إنهم مسافرون. أمسافرون على ناقلة نفط؟ هذا نادر الحدوث. اقتربوا أكثر. قال لنا القبطان باللغة الانكليزية:

— من أين أنتم قادمون؟

— من غويان الانكليزية.

قالت سيدة: أتكلمون الفرنسية؟

— أجل يا سيدتي.

— ماذا تفعلون وسط البحر؟

— نذهب حيث يشاء الله.

تكلمت السيدة مع القبطان ثم قالت:

— إن القبطان يدعوكم للصعود على الباخرة وسوف يرفع لكم زورقكم.

— قولي له: إننا نشكر له، فنحن مرتاحون في زورقنا.

— لماذا لا تريدون المساعدة؟

— لأننا فارون، ولا نريد الذهاب في وجهتكم.

— أين تذهبون؟

— إلى المارتنيك أو أبعد أيضاً. أين نحن؟

— في عرض البحر.

— أي طريق يؤدي إلى الأنتيل؟

— هل تعرفون قراءة خريطة انجليزية؟

— نعم.

وبعد قليل، أنزلوا لنا بحبل خريطة انجليزية وعلب سجائر، وفخذاً مشوياً.

— أنظر في الخريطة.

— يجب أن اتجه غرباً وقليلاً نحو الجنوب حتى نصل إلى الأنتيل الانجليزية هل هذا

صحيح؟

— نعم

— كم ميلاً تقدر المسافة بالتقريب؟

قال القبطان: ستكونون هناك خلال يومين.

— إلى اللقاء، ولكم الشكر جميعاً.

وذهبت الناقلة بهدوء وكادت تلامسنا. فابتعدت خوفاً من دوران مروحتها. وفي تلك اللحظة رمى لي أحد البحارة قبعته البحرية، فوقعت وسط مركبتنا، فلبستها. وكان عليها شريط أصفر ذهبي ومرساة. وبعد يومين، وصلنا إلى ترينيداد دون متاعب.

ترينيداد.

أنذرتنا الطيور بقرب اليابسة قبل أن نراها بوقت طويل. وكانت الساعة السابعة والنصف صباحاً عندما أقبلت تطوف حولنا.

— وصلنا يا رجال! وصلنا في المرحلة الأولى من الهروب وهي المرحلة الصعبة، تحيا الحرية. ولقد فاض البشر على وجوهنا بانفعال طفولي. وكانت وجوهنا مطلية بدهن. التارجيل الذي أهدانا إياه من قابلناهم في البحر، لتخفيف الحروق.

وساقتنا ريح ناعسة بسرعة معقولة، فوق بحر قليل الاضطراب. وحوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر شاهدنا تفاصيل جزيرة طويلة، تمتد على ساحلها بيوت بيضاء، وعلى قممها أشجار التارجيل، ولا نزال عاجزين عن تمييزها إن كانت جزيرة أم شبه جزيرة وكذلك إن كانت هذه المنازل مسكونة أم لا. وأمانا مسافة ساعة لنتمكن من رؤية الناس الذين يتراکضون على الشاطئ الذي توجهنا نحوه. وفي أقل من عشرين دقيقة رأينا جمهرة مبرقشة متجمعة. لقد خرج أهل القرية كلهم لاستقبالنا. وعرفنا فيما بعد أن اسم القرية: سان فيرناندو، وعلى بعد ثلاث مئة متر من الساحل أقيمت بالمرساة فتشبتت في سهولة، وفعلت هذا لأرى رد الفعل عند هؤلاء الناس من جهة، ولكي أحمي مركبي من المرجان، إن وجد، من جهة أخرى. طوينا الأشرعة وانتظرنا. ولم يعتم أن اتجه نحونا زورق صغير فيه زنجيان، وبصحبتها رجل أبيض، وفوق رأسه قبعة رجال المستعمرة. قال الأبيض بلغة فرنسية صافية:

- مرحباً بكل في ترينيداد، واقترب ثغر الزنوج عن أسنان بيض.
- شكراً لكم على هذا الترحيب. هل الشاطئ رملي أم مرجاني؟
- إنه رملي وبوسعكم بلوغ الشاطئ دون خطر.

سحبنا المرساة ودفعنا الأمواج برفق إلى الشاطئ وما كدنا نصل حتى خاض عشرة رجال في الماء، وجروا المركب إلى اليابسة. كانوا ينظرون إلينا ويلمسونا بحركة تدليل.

النساء الزنجيات يلاقيننا بحركة بالأيدي. وكلهم يريدوننا ضيوفاً عندهم. هذا ما ترجمه لي الأبيض، قبض ماتوريت على حفنة من الرمل وأدناها من فمه ليقبلها، وهذا من الهديان، اصطحب الرجل الأبيض كلوزيو إلى داره القريبة جداً من الشاطئ بعد أن وصفت له حالته، وقال: بالإمكان ترك كل شيء حتى غد ولا تمتد يد أحد إليه.

الجميع ينادي: يا قبطان، وضحكت من هذه المعمودية. وكانوا يقولون لي بالانجليزية ما معناه: قبطان عظيم! يقوم برحلة على ظهر مركب صغير. وطلبنا منهم دفع المركب بعيداً وقطره بمركب آخر كبير مركون على الشاطئ. وبعد هبوط الليل، لحقت بالانكليزي إلى بيته. وهو مسكن ذو طابق واحد تعثر عليه على كل أرض انجليزية. بضع درجات خشبية، وباب له ستار معدني. دخلت خلف الانكليزي وماتوريت يتبعني. وحين دخلت رأيت كلوزيو جالساً بفطرسه على أريكة، ورجله المكسورة ممددة على كرسي وتحف به امرأة وفتاة.

قال السيد: هذه زوجتي، وهذه ابنتي، وعندني ولد يدرس في بريطانيا. وقالت السيدة بلغة فرنسية: أهلاً وسهلاً بكم في هذا المنزل. وقالت الفتاة وهي تجر مقعدين من الخيزران: تفضلاً بالجلوس. — شكراً لكم. لا تزعجا نفسيكما من أجلنا

— لماذا؟ نحن نعلم من أين أنتم. كونوا مطمئنين، وأكرر القول: أهلاً بكم في منزلنا فهذا السيد محام ويدعى ماستر بوين، ومكتبه في العاصمة، وتبعد أربعين كيلو متراً من بورت أوف سين عاصمة ترينيداد. قدموا لنا شايًا مع الحليب، وكعك توست، وزبدة ومرى. وهذه أول سهرة لنا كرجال أحرار، لن أنساها أبداً. لم يسألنا أحد عن الماضي، إنما كانت الأسئلة فضولية عابرة، ليس وراءها غرض كشف الأسرار: كم يوماً قضينا في البحر؟ وكيف كانت الرحلة؟ وهل تألم كلوزيو كثيراً؟ وهل نرغب في إشعار الشرطة غداً أو نريد انتظار يوم آخر قبل إعلامهم. هل آبلؤنا أحياء؟ هل لنا زوجات أو أولاد؟ وهل نرغب في الكتابة إليهم؟ فهم مستعدون لإيداع رسائلنا في البريد.

ماذا أقول؟ لقد كان استقبلاً منقطع النظر سواء من الشعب أم من هذه الأسرة التي منحت ثلاثة هارين عناية لا توصف.

استشار ماستر بوين طبيباً من أجل كلوزيو فطلب إحضاره إلى العيادة غداً ليجري له تصويراً شعاعياً ويتوقف ما ينبغي عمله على نتيجة الصورة.

اتصل ماستر بوين هاتفياً بعميد جيش السلام في سان أوف سين. وأفاد هذا بأنه سيعيد لنا غرفة في فندق الجيش تأتي إليها متى شئنا، ونحتفظ بمركبنا إذا كان في حالة جيدة، لأننا في حاجة إليه عند الإياب. وسأل إذا كنا مبعدين أم سجناء، وقد بدا على المحامي السرور عندما علم أننا سجناء.

قالت لي الفتاة: هل ترغب في الاستحمام والحلاقة؟ لا ترفض، فإن هذا لن يسبب لنا مضايقات وسوف تجد في الحمام أمتعة، أمل أن تناسبك.

دخلت الحمام واستحمت وحلقت، وخرجت ممشط الشعر، مرتدياً بنطالاً رمادياً، وقميصاً أبيض، وحذاء «تنس» وجوربين أبيضين.

قرع الباب هندي، وكان يتأبط عليه فأعطاها ماتوريت قائلاً له بأن الطبيب قد لاحظ بأن قامتي قريبة لقامته قليلاً أو كثيراً، ولست في حاجة إلى أمتعة. أما بالنسبة إليه - أي إلى ماتوريت القصير - فليس عند المحامي من هو بطوله. ثم انحنى أمامنا، على طريقة المسلمين، وانصرف.

ما عساني أقول في هذه القلوب الطيبة؟ لقد اختلجت في فؤادي مشاعر يعجز عنها الوصف. أوى كلوزيو إلى فراشه مبكراً، وبقينا نحن الخمسة نتبادل الآراء في مختلف الموضوعات. وأكثر ما كان يحير هاتين السيدتين الساحرتين هو كيف كنا نفكر في وسيلة للحياة من جديد. ولا شيء عن الماضي، بل عن الحاضر والمستقبل.

كان ماستر بوين يبدي أسفه لأن ترينيداد لا تقبل بإقامة الفارين على أرض الجزيرة، وقد وضع لي بأنه كان قد طالب بمثل هذا الإجراء في حق البعض مراراً، غير أنهم لم يستجيبوا مرة واحدة. كانت الفتاة تتكلم بلغة فرنسية صافية جداً، كأبيها، لا لكنة فيها ولا خطأ في اللفظ. إنها شقراء ويكسو النمش جسدها، يتراوح عمرها بين السابعة عشرة والعشرين سنة، قالت:

- أنتم شباب والحياة في انتظاركم، لا أعرف ماذا اقترعتم حتى حكم عليكم، ولا أريد أن أعرف، ولكن ما تحليتم به من شجاعة، في إلقائكم بأنفسكم في البحر على ظهر مركب صغير كهذا، لتقوموا بأطول وأخطر رحلة، لدليل على أنكم على أتم استعداد لتفعلوا أي شيء ومهما غلا الثمن لكي تتحرروا. وهذا جدير بالتقدير والإعجاب.

فمنا حتى الساعة الثامنة، وحين صبحونا، وجدنا المائدة جاهزة. وقالت لنا المراتان:
- إن المستر بوين قد ذهب إلى بورت أوف سين ولن يعود إلا بعد الظهر حاملاً معه المعلومات الضرورية لتصرفوا بما فيه صلاح أمركم.

هذا الرجل الذي غادر منزله تاركاً فيه ثلاثة من المجرمين، قد أعطانا درساً لا مثيل له. يريد بذلك أن يقول: أنتم رجال أسوياء. ولكم أن تحكموا على ثقتي بكم، ولما بمض على معرفتي بكم أكثر من اثنتي عشرة ساعة. تركتكم وحدكم في بيتي، مع زوجتي وابنتي.

وهذا الأسلوب الصامت في مخاطبتنا يتابع القول: رأيت فيكم بعد حوارتي معكم أنتم الثلاثة أنكم جديرون بالثقة إلى درجة لا أرتاب فيها، أنكم لن تسيئوا التصرف في بيتي لا من حيث القول، ولا التلميح ولا العمل. تركتكم في مسكني كما لو كنتم أصدقاء

قدامى. هذه البادرة تركت في نفوسنا أبلغ الأثر. لست بذلك المفكر الذي يستطيع، أيها القارئ - إذا قدر أن يكون لهذا الكتاب قراء - أن يصور لك بحمية كافية، وقرينة جبارة هذا التأثير وهذا الانطباع العظيم في احترام أنفسنا وإعادة الاعتبار إن لم يكن في بناء حياة جديدة - فهذه المعمودية الخيالية، وحماس النقاء والطهارة، وهذا الارتفاع بكيان فوق الوحد الذي أوقعتني فيه المحكمة، وهذه الطريقة في وضعي بمواجهة مسؤولية حقيقية، كل هذه الأمور جعلت مني، ومن أيسر السبل، رجلاً آخر، غير هذا المجرم المعقد الذي يسمع صرير القيود وهو حر، ويعتقد في كل لحظة أن أحداً يراقبه، وأن كل ما رآه وعاناه، وكل الذي كابده، وكل المسببات التي خلقت منه رجلاً خالغ العذار فاسداً، خطراً في كل آن، المطواع الإيجابي ظاهرياً، والرهيب في ثورته، كل هذا قد أعمى بعضاً سحرية. فشكراً لك يا أستاذ بوين محامي صاحبة الجلالة. شكراً لك لأنك خلقت مني رجلاً في أقصر زمن.

الفتاة الشقراء ذات العيون الزرق زرق البحر، والتي تحوطنا بالعناية، تجلس معي تحت أشجار النارجيل في دار والدها. والأزهار الحمر والصفرة والبفسجة، تكسب هذه الحديقة لمسة شاعرية، وهي ضرورية في هذه اللحظة.

قالت: يا سيد هنري (منذ كم من الزمن لم أسمع كلمة سيد)، فكما أخبرك والذي إن سوء الفهم الخاطيء عند السلطات الانجليزية، تحول مع الأسف، دون بقائك هنا. ولكنها منحتك خمسة عشر يوماً فحسب تستريح فيها ثم تستأنف رحلتك في البحر ساذهب غداً لأرى مركبك إذا كان خفيفاً ومجهزاً جيداً لهذه الرحلة الطويلة التي تنتظرك. ولنا وطيد الأمل أن تصل إلى بلد أكثر إكراماً للضيف وأوفر تفهماً له. كل الجزر البريطانية تتبع الأسلوب نفسه في المعاملة. وإني أطلب منك إذا صادفت في رحلتك المقبلة عذاباً اليماً، أن لاتمنى مثله للشعب الذي يسكن هذه الجزر، فإنه غير مسؤول عن هذه النظرة إلى الأمور. إنها أوامر صادرة عن أشخاص لا يعرفونكم. عنوان والذي هو ١٠١ شارع الملكة، بورت أوف سين، ترينيداد. وأطلب منك أن تكتب إلينا - وأرجو أن توفق لهذا - بضع كلمات لنعرف مصيرك.

كنت منفعلاً، فعبت جواباً. ثم دنت السيدة بوين منا، إنها امرأة جميلة في حوالي الأربعين من عمرها. بيضاء ذات شعر كستناوي، وعينين خضراوين، ترتدي ثوباً أبيض وبسيطاً جداً، وعليه عقدة بيضاء، وتنتعل حذاء أخضر صافياً. قالت:

- لن يحضر زوجي قبل الساعة الخامسة. إنه مشغول بالحصول على ترخيص من أجل ذهابك إلى العاصمة بسيارته بدون خفير من الشرطة، وكذلك فهو يريد أن يجنك المبيت في مركز الشرطة في الليلة الأولى. صديقك الجريح سيذهب مباشرة إلى عيادة طبيب صديق، وأنتما الآخران تذهبان بعد ذلك إلى فندق «جيش السلام».

جاء ماتوريت لينضم إلينا في الحديقة وكان قد ذهب ليرى المركب الذي تكنفه الفضوليون، ووجد كل شيء على حاله لم يمس، وقد عثر هؤلاء الفضوليون على رصاصة داخلية تحت السكان فطلب أحدهم أن ينتزعها لتكون له ذكرى. فقال له ماتوريت: كابتن. كابتن. أي يجب استشارة القبطان. ثم قال لي: لماذا لا نطلق سراح السلحفاتين؟ قالت الفتاة: أعندكم سلاحف؟ هيا بنا نراها.

فذهبنا، وفي الطريق التقت بهندية صغيرة فاتنة، فأخذت بيدي دون مصانعة. وقال الجميع باللغة الانجليزية ما معناه: نهارك سعيد.

أخرجت السلحفاتين وقلت: ما نفعل بهما؟ أنلقي بهما في البحر، أم تريدينهما في حديقتهن؟

— إن ماء الخوض الداخلي من ماء البحر. سنضعهما في هذا الخوض؛ وهكذا ستبقيان من ذكراكم.
— ليكن ما شئت.

وزعت على الناس كل ما في المركب، ما عدا البوصلة والتبغ والبرميل والسكين والسيف الخشبي والفأس والأغطية، والمسدس الذي أخفيته بين طياتها ولم يره أحد.

وصل ماستر بوين وقال: يا سادة! كل شيء على ما نحب ونشتهي. سنضع أولاً الجريح في العيادة، ثم نذهب إلى الفندق. وضعنا كلوزيو في المقعد الخلفي للسيارة، وبينما كنت أقدم شكري للفتاة، أقبلت السيدة ويدها حقبة وقالت: تفضلوا بقبول بعض الأشياء من زوجي تقدمها لكم من صميم القلب. ماذا تقول في هذا اللطف الإنساني كله.

— نشكرك شكراً لا حدود له.

ركبنا السيارة، ومقودها إلى اليمين، ووصلنا إلى العيادة في الساعة السادسة إلا ربعاً. اسم هذا المستوصف سان جورج، صعد المرضون حاملين كلوزيو على محفة إلى غرفة فيها هندي جالس في سريره. أقبل الطبيب وصافح بوين ثم صافحنا، وهو لا يعرف اللغة الفرنسية، ولكنه أفهمنا أن كلوزيو سيقى العناية اللازمة وأنها نستطيع زيارته في الوقت الذي نشاء، وقمنا بجولة في المدينة في سيارة بوين. وقد فتنا بمشاهدتها مضاءة، وبسياراتها ودراجاتها. أناس من كل عرق: الأبيض والأسود والأصفر، هنود وهندستانيون، يمشون جنباً إلى جنب على أرصفة هذه المدينة ذات الأبراج مدينة بورت أوف سين. ولدى وصولنا إلى فندق جيش السلام رأينا أن طابقه الأرضي فقط من الحجر وأما سائر الطوابق (الأدوار) من الخشب. وهو واقع على ساحة حسنة الإضاءة. استقبلنا ضابط برتبة نقيب ومعه أركان حربه رجالاً ونساء. يتكلم الفرنسية قليلاً. والآخرين يخاطبونها بالانجليزية التي لا نفهمها، ولكن وجوههم المستبشرة، وعيونهم المرحبة تنطق بالإيناس، ورافقونا إلى

حجرة في الطابق الثاني فيها ثلاثة أسرّة، والثالث معد لكلوزيو، مع حمام جذاب وصابون ومتشقة، تحت تصرفنا. وبعد أن أرشدونا إلى الغرفة قال الضابط: إذا رغبتكم في الطعام فالعشاء مشترك وموعده الساعة السابعة أي بعد نصف ساعة.

— لا. لسنا جائعين.

— إن شئتم القيام بجولة في المدينة فهاكم دولارين انتيلين لتناول القهوة أو الشاي أو المرطبات، واحذروا الضياع. وحين تريدون العودة اسألوا عن طريقكم بهذه العبارة الانجليزية... ومعناها: رجاء، جيش السلام.

وبعد عشر دقائق كنا في الشارع. مشينا على الأرصفة واصطدمت أذرعنا بالناس وما من أحد ينظر إلينا، ولا أحد يلتفت إلينا، وتنفسنا بعمق، نتذوق بالتذاذ تام طعم الحرية، في خطواتنا هذه. وهذه الثقة المستمرة بتركنا أحراراً في مدينة كبيرة أنعشتنا، وزادت من ثقتنا بأنفسنا، بل قوت ضمائرنا، فلا يمكن أن نخون هذا الإيمان في داخلنا. أنا وماتوريت مشينا وئيداً وسط الجمهور وكنا في حاجة إلى أن نغاشي أناساً آخرين، وأن نتغير، وإلى أن نتشبه بهم لنكون جزءاً منهم، فدخلنا مشرباً (بار) وطلبنا جعة، وكانت الانجليزية لغة التخاطب.

طلبنا كأسين من الجعة وهذا طبيعي جداً. ولكن على الرغم من هذا فقد بدا لنا طريفاً أن تقدم لنا امرأة هندية، في أنفها صدفة ذهبية، وتقول لنا بعد تقديم ما طلبناه نصف دولار يا سيدي. وهي تبسم عن أسنان لؤلؤية، وعيناها سوداوان وعلى جانبيها تجهيزات خفيفة، وشعرها كشلال أسود يساقط على كتفيها، وتفتح طوق ثوبها عن نحرها عند مجرى العبير من النهدين فينمآن عن جمال كثير.

هذه الأمور التي تبدو للناس جميعاً بدهية كانت في أعيننا كوهم ساحر. قلت لنفسي: انظر بابيون، ليس حقيقة ما تراه ولا يمكن أن يكون حقيقة، أن تحول بهذه السرعة من ميت حي، من محكوم عليه مدى الحياة إلى رجل حر..

دفع ماتوريت الثمن وبقي معه نصف دولار. كانت الجعة منعشة ولذيذة عما دفعه إلى القول: هل لك في كأس أخرى؟

ورأيت أن لا نقدم على هذه الجولة الثانية من الشراب فقلت له:
— على رسلك. لم تمض ساعة على تحليقك في جو الحرية الحقيقية، ثم تريد أن تشرب حتى الثمالة.

— رجاء يا بابي. لا تبالغ كثيراً. فإذا شربنا كوين من الجعة فلا زلنا بعيدين عن منزلة السكرى.

— قد تكون على حق، ولكن من اللياقة أن لا نرغمي في أحضان المملذات التي تجود

بها لحظتنا هذه بل يجب أن نتذوقها بالتدرج لا بطريقة جشعة، ثم إن هذا المال من جهة أخرى ليس لنا.

— أجل. إنك لعل صواب ينبغي أن نتعلم كيف نكون أحراراً بالقطارة. فذلك أقرب إلى الحكمة. نزلنا إلى الشارع الكبير وارتز ستريت. إنه الشارع الرئيسي الذي يخترق المدينة من أقصاها إلى أقصاها؛ وبدون أن ندري وصلنا إلى المرفأ، ونحن مأخوذون بمراى القطارات الكهربائية والحميز التي تبحر العربات، والسيارات، وإعلانات السينما الوهاجة أو اللعب الليلية. وكذلك عيون الزنجيات والهنديات الصغيرات وهن ينظرن إلينا متضاحكات.

أمامنا مراكب مضاعة، مراكب سياحية بأسساء أخافة: باناما، لوس انجلوس، بوسطن كوبيك، ومراكب حمولة: هامبورغ، أمستردام، لندن، تترادف على طول رصيف الميناء متلاصقات، وهناك أيضاً مشارب وحانات ومطاعم تغص بالرجال والنساء يشربون أو يغنون أو يتخاصمون بأصوات عالية. وعلى حين غرة شعرت بحافز لا يقاوم، يغريني بالاختلاط بهذه الجمهرة التي ربما كانت شعبية ولكنها متنعمة بالحياة.

في فناء أحد المشارب رأينا خلف الواجهات الزجاجية محارات وثناذ بحرية وجراداً بحرياً^(١) وسكاكين بحرية وبلحاً بحرياً وهناك معروضات من الفاكهة البحرية تغري المارين. والمتناضد عليها أغطية ذات مربعات بيض وحمري، ومعظم العملات يدعونك إلى الجلوس، إنهن بنات سمر ذوات ملامح ناعمة، خلاسيات ولكن ليست هن تقاطيع الزنج، ملاسهن من كل لون، واسعات الطوق، كواشف عن الصدر، يغرينك بالاستمتاع بكل هذا، اقتربت من إحداهن وقلت بالانجليزية، وأنا أعرض عليها ورقة مالية من فئة ألف فرنك: هل تنفع العملة الفرنسية هنا؟

— نعم سأبدها لك.

فأخذت الورقة وغابت في القاعة المزدحمة بالناس ثم عادت وقالت: تعال. رافقتني إلى الصندوق حيث يقوم عليه رجل صيني فقال:

— أنتم فرنسيون؟

— أجل

— تريدون صرف ألف فرنك؟

— أجل

— كلها بالدولارات؟

— أجل

— جوازات السفر؟

— لا أحمل.

(١) جيري، ريان

— بطاقة بحارة؟

— ليس عندي

— أوراق هجرة؟

— لا توجد

— حسناً.

ثم خاطب المرأة بكلمتين، فنظرت في القاعة باحثة، ثم اتجهت نحو بحار له قبعة تشبه قبعتي، ذات شريط ذهبي ومرساة، وأتت به إلى الصندوق، فقال له الصيني: هوبتك. وبكل برود كتب الصيني ليصلاً بصرف مبلغ ألف فرنك ووقع عليه، وأمسكت المرأة بذراعه وذهبت به بعيداً وهو لا يدري ما حصل. وقبضت أنا مئتين وخمسين دولاراً أنتيلياً، منها خمسون من فئة الدولار أو الدولارين، فمنحت الفتاة دولاراً ثم خرجنا وجلسنا إلى إحدى الموائد والتهمنا من فواكه البحر، وشربنا خمر صافاً وكانت لليلة.

الهروب الأول – تابع قرينداد

استعدت في ذاكرتي ليلة الحرية الأولى في هذه المدينة الانجليزية. كنا نذهب إلى كل مكان سكارى بالنور، والدفع ملء قلوبنا، نتلمس في كل آونة روح هذه الجماعة السعيدة الضاحكة التي تفيض هناة.

أحد البارات غاص بالبجارة وبهؤلاء الفتيات اللاتي ينتظرهن لابترازهم ولكن من غير ابتذال ولا دنس، ولا يوازن بالنساء الفاجرات في باريس أو الهافر أو مرسيليا، إنهن شيء مغاير ومختلف عن تلك الوجوه المطلية بالمساحيق، المطبوعة بالرديلة والتي ارتسم عليها العهر، وليس هن تلك العيون المحمومة الماكرة. إنهن نساء جلودهن من كل لون: من الصينية إلى السوداء الأفريقية مروراً بذوات لون الشوكولا، والشعر الأملس، إلى الهندية أو الجاوية التي التقى أبواها في زراعة الكاكاو وقصب السكر، إلى المهجنة من الصيني والهندية ذات الصدفة الذهبية في الأنف، إلى المستهتره بملامح رومانية ووجه نحاسي تضيئه عينان نجلوان لامعتان وطفوان^(١) ونحر واسع مكشوف يكاد يقول: انظر إلى النهدين ما أكملهما. جميع هؤلاء الفتيات يزين رؤوسهن بأزهار مختلفة الألوان، يصرخن بالحب بغير انحطاط ولا تجارة، ولا يوحين بأنهن محترفات، فهن يستمتعن حقاً، وبحس المرء بأن المال ليس جوهرياً في حياتهن.

ذهبت أنا وماتوريت نترنح من مشرب إلى مشرب كجعلين^(٢) يتهافتان على المصباح ولدى إطلالتنا على ساحة صغيرة تغمرها الأضواء، رأيت ساعة كنيسة أو معبد، وكانت

(١) الرطفاء من كانت أهداب عينيها طويلة

(٢) الجعل نوع من الخنفساء.

تشير إلى الثانية صباحاً. لنعد مسرعين، فلقد أسأنا التصرف. ولا بد للنتيب من أن تكون لديه فكرة سيئة عنا. لنسرع. أوقفت سيارة أوصلتنا ودفعنا دولارين ودخلنا الفندق في خجل. فاستقبلتنا في القاعة جندي شقراء شابة يتراوح عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين. ولم تبد عليها الدهشة ولا الغيظ من هذا التأخر بل كان استقبالها لطيفاً. وبعد أن تلفظت بكلمات قدرنا أنها للترحيب، أعطتنا مفتاح الغرفة وتمنت لنا ليلة سعيدة. وجدت في الحقبة (بيجامة) وقبل أن نطفئ النور قال لي ماتوريت: إننا نشكر لربنا ما أجزل لنا من عطاء في وقت قصير. ما رأيك يا بابي؟

— اشكر له عني، ونعم ما قلت. إن ربك عظيم وكريم. ثم أطفأت المصباح. وأوينا إلى الفراش.

إن هذا النشور والعودة من القبر، والخروج من المقبرة حيث كنت مدفوناً، وكل هذه المباحج المتتالية، وحمام تلك الليلة الذي ردت معه الروح في خضم أشياء أخرى، أثارتني جميعاً وحرمتني من لذيق الكرى. وكانت صور هذه الأشياء والأحاسيس المتداخلة، تصل إلي، وأنا مطبق الأجفان، من خلال منظر سحري، وبغير ترتيب زمني. وتمر أمامي بدقة وتفصيل ولكن من غير ترابط: المحكمة، سجن التوقيف، ثم مرضى الجذام، ثم سان مارتن دوره، فريبورد وجيزو، والعاصفة، ويمكن القول إن ما عشته منذ سنة يتراحم للظهور في مجموعة ذكرياتي وكأنه رقصة أشباح نورانية في مكان مظلم.

عبتاً حاولت إبعاد هذه الصور فلم أفلح. والأنكى أن هذه الصور كانت مصحوبة بالأصوات: صراخ الخنازير، وصياح الدراج، وعويل الريح، وصخب الأمواج، ويلف ذلك كله صوت الرابطة التي كان يعزف عليها الهنود منذ لحظات في مختلف البارات التي مررنا بها. وأخيراً استسلمت لسلطان النوم عند مطلع الفجر.

فرع ماستر بوين الباب حوالي الساعة العاشرة وهو يتسم وقال:

— صباح الخير يا صديقي. ألا زلتنا نأتمن؟ لقد رجعتا متأخرين، وأرجو أن تكونوا قد هتما جيداً.

— صباح الخير. حقاً لقد عدنا متأخرين. اعذرونا.

— لا.. ولو.. هذا أمر طبيعي بعد كل ما كابدما. ومن حقكما أن تستفيدا من الليلة الأولى بعد نيلكما حريتكما. أنا جئتكما لأرافقكما إلى مركز الشرطة ويجب أن تمثلنا أمامها للتصريح رسمياً بأنكم دخلتم البلاد بصورة مشروعة، وبعد هذا الإجراء الشكلي سنذهب لزيارة صاحبكما، وقد أجريت له صورة شعاعية منذ الصباح الباكر وسوف نعرف النتيجة بعد قليل.

أسرعنا في ارتداء ملابسنا. ثم نزلنا إلى القاعة الأرضية حيث كان الضابط بانتظارنا وبرفقته بوين. قال الضابط بلغة فرنسية رديئة: صباح الخير يا أصدقائي.

– صباح الخير جميعاً. كيف حالكم؟
قالت لنا إحداهن وهي ذات رتبة في جيش السلام:
– هل وجدتما بورت أوف سين لطيفة؟
– نعم يا سيدتي. ولقد سررنا بها كثيراً.

احتسبنا فنجاناً من القهوة وتوجهنا إلى مركز الشرطة مشياً على الأقدام لأنه لا يبعد أكثر من مئتي متر تقريباً، وحيانا رجال الشرطة، ونظروا إلينا بدون فضول. دخلنا مكتباً مهيباً بعد أن مررنا بحارسين بالملابس الموحدة الكاكية. فنهض الضابط – وهو في الخمسين من عمره، ويرتدي قميصاً وربطة عنق من الكاكي وعليه شارات وأوسمة، وينظراً قصيراً، وخاطبنا باللغة الفرنسية فقال:

– صباح الخير، تفضلاً، أود أن أحدثكما قليلاً قبل استقبالكما بصفة رسمية. ما العمر؟

– ست وعشرون، وتسع عشرة سنة.

– لم حكم عليكما؟

– بجرم عادي

– ما العقوبة؟

– أشغال شاقة مؤبدة

– إذن ليس جرمكما عادياً بل جريمة قتل.

– لا يا سيدتي: أنا بسبب اعتداء

قال ماتوريت: أنا بسبب جريمة قتل، ولكن خفف الحكم لحداثة سني (سبع عشرة

سنة)

– في السابعة عشرة، يعني المرء ما يفعل ولو كنت في بريطانيا لشنقوك. حسناً ولكن ليس للسلطات البريطانية أن تدين العدالة الفرنسية وإغا نقطة الخلاف بيننا هي إرسال المحكوم عليهم إلى غويان الفرنسية. نحن نعلم أن هذه العقوبة غير إنسانية ولا تليق بأمة متحضرة مثل فرنسا. ولكن لسوء الحظ لا يمكنكم البقاء في ترينيداد ولا في أية جزيرة انكليزية. فهذا مستحيل. لذا أطلب منكم أن تلعبوا اللعبة بشرف، ولا تبحثوا عن مناص كالمرض أو آية حجة أخرى لتأخير رحيلكم. وفي وسعكم أن تستريحوا بحرية تامة، في بورت أوف سين من خمسة عشر يوماً إلى ثمانية عشر. ويبدو مركبكم جيداً، وسوف تأتي به إلى المرفأ هنا، وإذا كان هناك ما يجب إصلاحه، فإن نجاري البحرية الملكية يقومون به، وسوف نزودكم قبل الرحيل بكل الأغذية الضرورية وببوصلة وخريطة بحرية. وأرجو أن تستقبلكم بلاد أمريكا الجنوبية، ولا تذهبوا إلى فنزويلا فإنهم يجبرونكم على العمل في تعبيد الطرق إلى أن يتم تسليمكم إلى فرنسا.

بعد غلطة كبيرة لا ينبغي أن يضيع الرجل إلى الأبد. أنتم شباب أصحاء وتبدو

عليكم الرقة، وأمل إذن بعد الذي عانيتموه أن لاتقبلوا الظفر بكم وإلى الأبد، ولا شيء يشير إلى العكس سوى حادثة حضوركم إلى هنا. ويسعدني أن أكون أحد العوامل التي تساعدكم على أن تكونوا رجالاً صالحين وقادرين على حمل التبعات، وأنغى لكم التوفيق، وإذا اعترضتكم مشكلة فاليكم رقم الهاتف وسوف يرد أحدهم باللغة الفرنسية.

قرع الجرس، فدخل مدني، فأخذنا إلى غرفة فيها عدد من رجال الشرطة، ومدنيون يطبعون على الآلة وتولى مدني أخذ تصريحاتنا.

— لم أتيتم إلى ترينيداد؟

— لنستريح.

— من أين قدمتم؟

— من غويان الفرنسية

— لقد ارتكبتم في هرويكم جريمة سببت ضرراً فاحشاً أو موتاً للآخرين.

— لم نجرح أحداً جرحاً خطيراً.

— كيف عرفتم ذلك؟

— عرفناه قبل ذهابنا.

— أعماركم؟ وضعكم الجزائري بالنسبة لفرنسا؟ الخ... أيها السادة نمنحكم إقامة مدتها تتراوح بين خمسة عشر يوماً وثمانية عشر لتستريحوا، أنتم أحرار حرية مطلقة خلال هذه الفترة، وإذا غادرتم الفندق أعلمونا. أنا الرقيب وبلي، ونجدون على بطاقتي هذه رقم الهاتف الرسمي ورقمي الخاص. وإذا حدث شيء أو احتجتم إلى عون اهتفوا لي مباشرة، ونحن نعلم أنكم موضع ثقتنا بكم. وأنا على يقين من أنكم ستكونون في عافية.

وبعد لحظات رافقنا ماستر بوين إلى المستشفى، وسر كلوزيو برؤيتنا ولمنحدثه بشيء عن ليلتنا البارحة في المدينة، واكتفين بالقول بأنهم تركوا لنا الحرية في الذهاب إلى المكان الذي يحلو لنا. وكان ذلك مفاجأة له فقال: بدون رقابة؟

— نعم بدون رقابة.

— إنهم قوم ظرفاء هؤلاء العجول المشوية (الانكلين).

عاد بوين الذي كان قد خرج لمقابلة الطبيب، فحضر معه فسأل كلوزيو:

— من جبر الكسر قبل ربطه بالألواح الخشبية؟

قلت: أنا ورجل آخر غير موجود معنا الآن.

— لقد أحسنتنا صنعاً، ولنا بحاجة إلى كسر جديد في الساق. فشظية الساق المكسورة قد أحكم إلصاقها. ويقتصر عملنا الآن على وضع الجص والحديدة لكي تتمكن من المشي قليلاً. هل تؤثر البقاء هنا أو الذهاب مع صاحبيك؟

— أفضل الذهاب معها.

— حسناً ستذهب غداً للالتحاق بها.

فارتبكنا ونحن نقدم شكرنا. انسحب ماستر بوين والدكتور. وقضينا فترة الضحى وجزءاً من الظهر مع صاحبنا، وكم كنا محبورين عندما اجتمع شملنا نحن الثلاثة في غرفتنا في الفندق والنافذة الواسعة مفتوحة، والمراوح تدور لترطب الجو، وهنا بعضنا بعضاً على ما تمتعت به سحتنا من نضارة، والطلعة الحسنة التي كستنا إياها ملابسنا الجديدة، وعندما اشتط بنا الحديث عن الماضي قلت:

— دعونا ننسى الآن الماضي قدر المستطاع، ولننظر في حاضرننا ومستقبلنا. أين المسار؟ إلى كولومبيا؟ إلى باناما؟ كوستاريكا؟ يجب أن نستشير بوين عن البلد الذي يسعفنا الحظ أن نكون له أصدقاء.

اتصلت به هاتفياً في مكتبه فلم أجده، واتصلت به في منزله في سان فيرناندو فردت ابنته، وبعد تبادل بعض الكلمات قالت لي:

— يا سيد هنري. بالقرب من سوق السمك سيارات كبيرة عائدة إلى سان فرناندو، لم لا تأتون لقضاء فترة ما بعد الظهر عندنا؟ احضروا وأنا بانتظاركم.

ها نحن أولاً في طريقنا إلى سان فرناندو. وكان كلوزيو فاخراً في هندامه نصف العسكري بلون التبغ. عودتنا إلى هذا البيت الذي استقبلنا بكثير من الأنس والدعة، أهاجت فينا التأثير، وكان هاتين السيدتين قد لمستا فينا هذا الشعور، فبادرتا إلى القول في وقت واحد:

— ها قد رجعتن إلى بيتكن، أيها الأصدقاء الأعزاء. اجلسوا واستريحوا.

واستغتنا عن ندائنا بكلمة سيد كلياً توجهتا إلينا بالخطاب، وصارتا تناديان باسم كل منا هنري ناولي السكر، اندره (وهو اسم ماتوريت) هات كذا.

— يا سيدة ويا آنسة بوين نسأل الله أن يكافئكما على ما بذلتما من أجلنا، وأن يغمر روحكما الساميتين بسعادة سرمدية يعجز اللسان عن وصفها، لقاء ما منحتمانا من ممرات.

كنا نتناقش معها وننشر الخريطة على المنضدة. المسافات طويلة: طول الطريق إلى أول مرفأ كولومبي وهو سانتا مارتا، مئتان ألف كيلومتر، وإلى باناما ألفان ومئة كيلو متر، وإلى كوستاريكا خمس مئة ألف كيلو متر.

وصل ماستر بوين، قال: اتصلت بجميع القنصليات وعندي خبر طيب وهو أنكم تستطيعون التوقف في كوراساو بضعة أيام للاستراحة. وبالنسبة إلى كولومبيا فليس عندهم شيء منظم عن موضوع الهاربين، وأفاد القنصل أنه لم يسبق أن وصل هاربون عن طريق البحر إلى كولومبيا، ومثل ذلك في باناما وغيرها. قالت مرغريت ابنة بوين: أعرف لكم مكاناً آمناً ولكنه بعيد جداً لا يقل عن ثلاثة آلاف كيلو متر.

قال الأب: وأين هو؟

— في هوندوراس البريطانية، والحاكم فيها «عراي»،

التفت إلى أصحابي وقلت: إنها من الممتلكات الانكليزية في الجنوب تناخم جمهورية هوندوراس، ونحدها من الشمال المكسيك.

وهكذا قضينا الظهيرة، تساعدنا مرغريت وأمها في رسم خطة الرحيل، والمرحلة الأولى من ترينيداد إلى كوراساو ألف كيلو متر.

والمرحلة الثانية من كوراساو إلى إحدى الجزر الواقعة على طريقنا.

والمرحلة الثالثة هوندوراس البريطانية.

وبما أننا لا نعلم ماذا يمكن أن يحصل في البحر فإننا عزمنا على أن نحمل معنا صندوقاً خاصاً زيادة على ما سوف تقدمه لنا الشرطة من المؤونة. سيكون معنا على سبيل الاحتياط أطعمة محفوظة: لحوم، خضار، رب الفواكه، وأسماك... الخ... قالت لنا مرغريت: إن السوبر ماركت المسمى سلفاتوري سيقدم هذه المحفوظات على سبيل الهدية، وفي حالة رفضكم سنشتريها أنا وأمي.

— لا يا آنسة...

— اسكت يا هنري

— مستحيل، فنحن نملك مالاً، وسوف نسيء إلى أنفسنا في استغلال طبيبتكم عندما نكون قادرين على شراء هذه الأغذية بأنفسنا.

المركب في بورت أوف سين على سطح الماء تحت حماية البحرية الحربية. افترقنا على موعد اللقاء قبل الرحيل. كنا نخرج كل ليلة في الحادية عشرة على التقوى. كان كلوزيو يجلس على مقعد في أكثر الساحات حيوية. وكان كل واحد منا يأخذ دوره في الجلوس إلى جانبه بينما يتسكع الآخر في المدينة. مضت عشرة أيام على وجودنا هنا، وبدأ كلوزيو يمشي في لين ويسر بفضل الحديدية المثبتة تحت الحصص، وقد تعلمنا الذهاب إلى المرفأ في القطار الكهربائي. وكنا نذهب أحياناً بعد الظهر، وفي مساء كل يوم. كان رجال الشرطة يؤدون لنا التحية، والجميع يعرفون من نحن، ومن أين أتينا وما كان لأحد منهم أن يلمح أو يعرض بأي شيء كان. وقد لاحظنا أن أصحاب البارات الذين يعرفوننا كانوا يتقاضون ثمن طعمانا وشرابنا بأسعار تقل عما يؤخذ من البحارة. وكذلك كانت تفعل الفتيات. والمالوف أنهم عندما يجلسن إلى المائدة مع البحارة أو الضباط أو السياح يشربن دون توقف ويسعين إلى حملهم على البذل قدر المستطاع، وفي البارات التي يجري فيها الرقص كانت الواحدة منهم لا تراقص أحداً إلا بعد أن يقدم لها عدداً من كؤوس الراح مقدماً. فإنهن يتصرفن بشكل مغاير تماماً يجالسنا لفترة طويلة ولا يشربن إلا بعد إلحاح منا وإذا قبلن بذلك فلا يتناولن إلا الأقداح الصغيرة، بل يكتفين بالجمعة، أو بشيء من الوسكي الحقيقي

مع الصودا، وكان هذا السلوك يبعث فينا الغبطة، لأنه وسيلة غير مباشرة للقول: إننا نعرفكم ونعرف وضعكم ولكن قلوبنا معكم.

أعيد صبغ المركب وزيد في ارتفاع حافته مقدار عشرة سنتيمترات، وأصبح الحيزوم أكثر صلابة وتوثيقاً، وضلوع المركب الداخلية لا ينقصها شيء فالمركب على أتم صورة، واستبدل الصاري بواحد آخر أخف وأطول، والقلعان المصنوعان من قماش أكياس الطحين استبدل بهما قماش جيد بلون التراب الأحمر، وقدم لي قبطان في البحرية بوصلة تعين جميع الجهات، وشرح لي كيف أستطيع بالاستعانة بالخريطة معرفة المكان الذي أنا فيه بصورة تقريبية. ولكي نصل إلى كوراساو حددنا الطريق باتجاه الغرب منحرفاً ربع انحراف نحو الشمال.

عرفني قبطان البارجة على ضابط بحري وهو المقدم في سفينة مدرسية اسمها «تاريون» وقد طلب مني هذا المقدم أن أخرج بمركبي من المرفأ قليلاً إذا لم يكن لي في ذلك ازعاج، وذلك في الساعة الثامنة في صباح اليوم التالي. لم أفهم السبب ولكنني وعدته. وفي الغداة كنت في البحرية في الوقت المحدد مع ماتوريت.

صعد معنا في المركب أحد البحارة وخرجت من المرفأ بريح مواتية. وبعد ساعتين وبينما كنا مشغولين بتوجيه المركب في غدو ورواح، وصلت بارجة حربية اصطفت على جسرهما الضباط والعناصر، بلباسهم الأبيض، مروا بنا وصاحوا (هورا). داروا دورة ورفعوا العلم وأنزلوه مرتين. هذه تحية رسمية لم أفهم مغزاها. دخلنا إلى البحرية حيث رست البارجة، ونحن أيضاً ربطنا البارجة. وأشار البحار الذي يرافقتنا أن أتبعوني، فصعدنا ظهر البارجة حيث استقبلنا المقدم من أعلى الجسر. ثم أطلقت صفارة منغمة طلقاتها احتفاءً بمقدمنا. وبعد تقديمنا للضباط عرضنا على طلاب البحرية وضباط الصف الذين كانوا في وقفة استعداد. وخاطبهم المقدم بكلمات باللغة الانجليزية ثم انفرط عقدهم. شرح لي ضابط شاب ما كان يقوله المقدم للطلاب من أننا نستحق الإعجاب والتقدير، لأننا استطعنا بهذه الوسيلة البدائية التي سافرنا على متنها، أن نقوم برحلة طويلة، وبأننا سنقوم برحلة أطول وأخطر. فشكرنا لهذا الضابط هذا الشرف العظيم الذي أولانا إياه. ثم أهدانا ثلاثة «شمعات» بحرية، استفدنا منها فيما بعد، وهي ملابس غير قابلة لنفوذ الماء، لونها أسود وهي ذات قلنسوة ومغلاق (سحاب) كبير.

جاء ماستر بوين قبل سفرنا بيومين ليرانا، وليطلب منا بناء على طلب مدير الشرطة، أن نصحب معنا ثلاثة من السجناء الذين قبض عليهم منذ أسبوع. حل هؤلاء في الجزيرة على حين عاد أصحابهم إلى فنزويلا، حسب إفادتهم. ولم أكن مرتاحاً لهذا الطلب ولكن نبل معاملتهم حال دون رد طلبهم، إنما طلبت أن أراهم قبل أن أعطي الجواب. فجاءت سيارة من سيارات الشرطة لتلقي لمقابلة مدير الشرطة، وذلك الضابط

ذي الشارات، الذي استجوبنا لدى وصولنا وكان ويلي ترجماننا.

— كيف أحوالك؟

— شكرًا. نتمنى أن تسدي لنا خدمة.

— إذا كانت ممكنة فعل الرحب والسعة.

— في السجن ثلاثة فرنسيين مبعدين، أمضوا في الجزيرة ثلاثة أسابيع بصورة غير مشروعة ويدعون أن رفاقهم قد تخلوا عنهم ورحلوا. ونظن أنهم أغرقوا مركبهم، وكل واحد فيهم يدعي أنه لا يحسن قيادة مركب، ونعتقد أنها ذريعة لكي ننشئ لهم مركبًا. ونحن نرغب في ترحيلهم. وإنه ليؤسفني أن أضطر إلى تسليمهم إلى مفوض أول مركب فرنسي يمر من هنا.

— يا سيادة المدير سأفعل المستحيل ولكنني أرغب في إجراء حوار معهم. ولا يخفى عليكم أنه من الخطر أن يرافقنا ثلاثة مجهولين.

— أقدر ذلك. يا ويلي. مر بإخراج الفرنسيين الثلاثة إلى الباحة.

أريد أن أراهم وحدي وقد طلبت من الرقيب أن ينسحب.

— هل أنتم سجناء مبعدون؟

— لا، نحن محكومون بالأشغال الشاقة.

— لم ادعيتم أنكم مبعدون؟

— حسبنا أنهم يُفضلون الرجل الذي يرتكب جنایات صغيرة على الذي يرتكب جريمة كبيرة ولقد شعرنا بالخطأ. وأنت من أنت؟

— أنا محكوم بالأشغال الشاقة.

— لا نعرفك

— أنا من القافلة الأخيرة، وأنت؟

— من قافلة عام ١٩٢٩

قال الثالث: وأنا في السابعة والعشرين.

— لقد استدعاني المدير ليطالب مني أن آخذكم أنتم الثلاثة معي على مركبي، ونحن كذلك ثلاثة ويقول إذا لم أقبلكم فإنه يرى نفسه مضطراً لتسليمكم إلى أول مركب فرنسي يمر. وخاصة أنكم لاتحسنون قيادة مركب. ما رأيكم؟

— لأسباب تحصنا لا نريد الرجوع إلى البحر. ويمكن أن نتظاهر بالذهاب معكم.

ستوصلنا إلى رأس الجزيرة وأنت تتابع رحلتك

— لا أستطيع أن أفعل ذلك.

— لماذا؟

— لأنني لا يمكن أن أكافئ الجميل الذي أحاطوني به بمثل هذا العمل القدر.

- أظن أنه قبل الانكليز، يجب أن تفكر بالمحكومين.
- لماذا؟
- لأنك واحد منا.
- نعم، ولكن المحكومين يتفاوتون فيما بينهم تفاوتاً كبيراً. فربما كنت تختلف عنكم أكثر من اختلافي عن الانجليز. والمسألة نسبية كما ترون.
- إذن ستركنا نقع في أيدي السلطات الفرنسية؟
- لا. ولكن لا أريد أيضاً أن تغادروا المركب قبل بلوغ كوراساو.
- قال أحدهم: لا أملك الجراءة على أن أبداً من جديد.
- اسمعوا. يجب أن تروا المركب أولاً، فربما كان المركب الذي سافرتم عليه رديئاً.
- قال الآخرون: لنجرب.
- حسناً. سأطلب من المدير السماح لكم بالذهاب لرؤيته
- ذهبنا إلى المرفأ ومعنا العريف وبلي. وبدت عليهم الثقة عندما رأوا المركب.

الرحلة الجديدة

- سافرنا بعد يومين والثلاثة المجهولون. وقد حضر لوداعنا أسرة بوين، واثننا عشرة من فتيات الباربات، ولا أدري كيف علمن برحيلنا، وقائد جيش السلام.
- وجاءت إحداهن وقبلتني، فقالت مرغريت ضاحكة: هل خطبت بهذه السرعة؟ وليس الأمر جداً
- إلى اللقاء جميعاً. ولا أقول وداعاً. واعلموا علم اليقين، أنكم حللتم من قلوبنا رجباً وتركتم أثراً لا يزول أبداً.
- وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر رحلنا نبحرنا قاطرة فأخرجتنا من المرفأ سريعاً. ودون أن أسمح عبرتي كنت أنظر حتى آخر لحظة، إلى هذه المجموعة التي جاءت تودعنا، وكانت تلوح بمناديل بيضاء كبيرة، وما كاد حبل القاطرة ينفصل عن مركبنا حتى انتفضت الأشعة. ودفعنا الأمواج الأولى من الملايين من الموجات التي تنتظر أن نخترقها قبل بلوغ الهدف. في المركب مديتان، أحل واحدة، ومع ماتوريت واحدة أخرى والفأس قرية من كلوزيو وكذلك السيف والخشبي. ونحن واثقون أن الآخرين غير مسلحين. وقد وضعنا في

حسابنا أن يظل أحدنا يقظاً طوال الرحلة. وعند غروب الشمس رافقتنا سفينة المدرسة حوالي نصف ساعة ثم حيننا وابتعدت عنا.

— ما اسمك؟

— لوبلوند

— من أي قافلة؟

— من السابعة والعشرين

— العقوبة؟

— عشرون سنة

— وأنت؟

— كارغيريت. القافلة التاسعة والعشرون. خمس عشرة سنة. من بروتون.

— أنت من بروتون ولا تعرف كيف تقود مركباً؟

— لا.

— أنا أدعى دوفيل، وأنا من أنجه، مؤبد، من أجل كلام أحق قلته في المحكمة، ولولا ذلك لكان الحكم عشر سنوات على أبعد تقدير. القافلة التاسعة والعشرون.

— ما الكلام الذي قلته؟

— قتلت زوجتي بمكواة. وخلال المحاكمة سألتني أحد المحلفين، وما كنت أعرف سبب السؤال، لماذا استعملت المكواة لضربها؟ فقلت: ضربتها بالمكواة لأنها ذات تماثيل قبيحة. فمن أجل هذه العبارة الحمقاء دفعت الثمن غالياً.

— من أين كانت مغادرتكم؟

— من معسكر للعمل في الأحراج يسمى كاسكاد، يبعد ثمانين كيلو متراً من سان لوران، ولم يكن ذلك صعباً لأننا كنا نتمتع بكثير من الحرية، واستفدنا نحن الخمسة من كل التسهيلات.

— كيف خمسة؟ وأين الآخر؟ .. وخيم الصمت.

قال كلوزيو: يا رجل! ليس هنا إلا الرجال. وبما أننا مجموعة فيجب أن نعرف.

نكلم.

قال البروتوني: سأقول لكم كل شيء؛ في الحقيقة لقد ذهبنا خمسة، والآخران الغائبان قالوا لنا بأنهما كانا من صيادي الساحل، ولم يدفعاً شيئاً من أجل الهروب وقالوا: إن العمل على ظهر المركب يساوي أكثر من المال. ثم تبين لنا في الطريق أن لا هذا ولا ذلك يعرف شيئاً من البحرية، ولقد أوشكنا على الغرق عشرين مرة، وسرنا بمحاذاة الساحل أولاً غويان الهولندية ثم الانجليزية ثم ترينيداد. وبين جورج تاون وترينيداد قتلت الذي كان يدعي أنه يستطيع أن يكون قائداً للهروب. وإنه ليستحق القتل، لأنه في سبيل الهروب مجاناً عمد إلى خداعنا جميعاً بقدرته البحرية. والآخر ظن أننا سنقتله وفي وقت كان

الطقس فيه رديئاً ألقي بنفسه في الماء طوعاً فتدبرنا أمرنا على قدر طاقتنا بعد أن ترك سكان المركب، فامتلاً بالماء أكثر من مرة وكادت صخرة تحطمننا فنحنونا بأعجوبة. وهذا الكلام كلام رجل، وهو صحيح كله ودقيق.

قال الآخرون: هذا صحيح وهذا ما جرى، وقد أجمعنا كلنا على قتله. ما تقول في ذلك يا بآيون؟

— لست مهياً لأكون قاضياً

فألح البروتوني وقال: ماذا تفعل لو كنت مكاننا؟

— يجب التفكير حتى أكون عادلاً. ويجب أن يعيش الإنسان تلك اللحظة ويغير ذلك لا تعرف الحقيقة.

— قال كلوزيو: لو كنت أنا لقتلته، لأنه كذب كذبة تكلف الجميع حياتهم.

— حسناً لنكف عن هذا الحديث. ولكنني أتصور أنكم لاقيتم من الرعب الشيء

الكثير. ولا تزالون تعانون من آثاره. وإذا كنتم الآن في البحر فذلك لأنكم مكرهون. ليس هذا صحيحاً؟

أجابوا بصوت واحد: بلى.

— لا أريد هنا فزعاً مهما حصل وعلى كل منكم أن لا يظهر خوفه، ومن خاف

فليسكت. هذا المركب جيد وقد أثبت ذلك ونحن الآن أكثر حمولة عما كان عليه من قبل وقد زاد ارتفاعه عشرة سنتيمترات وهذا يعوض سعة الحمولة الزائدة.

دخنا وشربنا القهوة وكنا قد أكلنا جيداً قبل الرحيل. وكنا اتفقنا على ألا نأكل قبل صباح الغد. نحن في التاسع من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٣. فمئذ اثنين وأربعين يوماً كانت بداية الفرار من القاعة المصفحة، في مستشفى سان لوران، وقد خبرنا بذلك كلوزيو محاسب الشركة. صار عندي قبل الرحيل ثلاثة أشياء هامة: ساعة فولاذية اشتريتها من ترينيداد، ويوصله حقيقية في علبتها المضاعفة المعلقة، وهي دقيقة جداً بتفرعاتها، ونظارات سود. وكان لكل من كلوزيو وماتوريت قبعة.

ثمانية أيام انطوت بدون حوادث، ما عدا عثورنا مرتين على مجموعة من الدلافين فأسالت منا عرقاً بارداً. مجموعة مؤلفة من ثمانية، أخذت تتلاعب بالمركب، تمر من تحته ثم تظهر من الأمام بالضبط وكان أكثر ما أثارنا هو اللعبة التالية: ثلاثة دلافين على شكل مثلث، أحدها في الأمام والآخرون متوازيان في الخلف تهاجنا من الأمام في سرعة جنوبية، وفي اللحظة التي تصل فيها إلى المركب تغطس في الماء ثم تخرج من اليمين ومن اليسار، وكلما اشتدت الرياح وامتلاً الشراع زادت سرعتنا وبالتالي تزيد الدلافين من سرعتها. وقد دام ذلك ساعات، وكان هذا يبهتنا لأن خطأ صغيراً في حسابها يقلبنا رأساً على عقب.

الثلاثة الجدد لم يقولوا شيئاً، ولكن كان يجب أن ترى وجوههم المتفككة.

في منتصف الليلة الرابعة هبت عاصفة هوجاء، وكان حقاً شيئاً راعياً. والأسوأ من

ذلك أن الأمواج لم تكن تتلاحق في اتجاه واحد، بل كان بعضها يصدم بعضاً. بعضها عميق وبعضها سطحي. ولم نفهم كيف كان يحصل هذا، ولم يتفوه أحد بكلمة، سوى ما كنت أسمعه بين الفينة والفينة من كلوزيو: تابع يا صديقي، فهذه الموجة مثل سابقتها، أو: احترس من موجة قادمة من الخلف وأحياناً أو نادراً ما كانت تأتي الأمواج من ثلاث جهات صاخبة تطفح بالزبد.

كنت أقدر سرعتها وأتظن سلفاً زاوية الهجوم، ولكن خلافاً لكل منطق، وفجأة تأتيني موجة قائمة تماماً من أسفل المركب وتتكرر هذه الأمواج على كتفي، وبطبيعة الحال يدخل قسم كبير منها إلى المركب. والرجال الخمسة يفرغون الماء بما في أيديهم من الأواني دون توقف، وعلى الرغم من كل هذا لم يمتلئ المركب مرة إلى أكثر من رבעه وبهذا لم نتعرض قط لخطر الغوص إلى أسفل.

دام هذا العيد الغريب نصف الليل الثاني، أي ما يقرب من سبع ساعات والأمطار حجبت عنا الشمس حتى الساعة الثامنة.

سكنت العاصفة وأشرقت شمس جديدة منذ بداية النهار لامعة بكل ما فيها من لهب، فحينئذها بفرحة غامرة، وأسرعنا إلى شرب القهوة قبل كل شيء. قهوة ساخنة ممزوجة بحليب نستله وأكلنا كعكة بحرية قاسية كالحديد تصبح لذيدة حال غمسها في القهوة.

إن الصراع مع العاصفة في الليل أوهن قواي، فلم يبق لي صبر ولا جلد. ورغم شدة الريح وارتفاع الأمواج الفوضوية، فقد طلبت إلى ماتوريت أن يحل مكاني ريثما أنام قليلاً. لم تمض دقائق عشر، حتى انخدع ماتوريت بالاتجاه، وامتلاً المركب بالماء إلى ثلاثة أرباعه. وسبح فيه كل شيء، من علب ومواقد وأغطية... أسرعت إلى السكان والماء يغمري إلى بطني، وجثت في الوقت المناسب للإمساك وتقادي موجة متكسرة آتية من فوقنا، وبحركة من السكان وجهت مؤخرة المركب بقوة نحو الموجة، فلم تدخل فيه، ولكنها دفعتنا مسافة عشرة أمتار نحو الأمام. وبادرنا جميعاً إلى تفريغ المركب من الماء. والإناء الذي كان بيد ماتوريت يغرف خمسة عشر لترات دفعة واحدة. ولم يهتم أحد باستعادة شيء منها كان ثمنه، ولم يكن لدينا جميعاً سوى فكرة ثابتة وحيدة هي الإفراغ، الإفراغ إفراغ ما أمكن من الماء في سرعة لأنه يجعل المركب ثقيلًا ويمنعه من مدافعة الموج، ولا بد من الاعتراف بأن المجهولين الثلاثة قد أبلوا بلاء حسناً. والبروتوني إذ رأى صندوقه تحمله المياه اتخذ قراره وحده وبدون تردد الاهتمام بتسكين المركب، والتخلص من ميل الماء إذ دفعه خارج المركب دون جهد. وبعد ساعتين كان كل شيء جافاً، ولكننا خسرنا الأغطية وموقد النفط وكيس الفحم، والبنزين، وبرميل الماء، وهذا الأخير فقدناه بإرادتنا. وأردت تغيير بنطالي فالفيت أن حقيتي هي أيضاً قد جرفت المياه، وخسرنا كذلك مشمعان من ثلاثة. وجدنا في أسفل المركب زجاجتين من الروم. وأما التبغ فقد ضاع أو تبلل، واختفى الورق مع العلب المعدنية البيضاء. قلت:

— يا رجال. نأخذ أولاً جرعة من الروم ثم نفتح الصندوق الاحتياطي، لنرى على أي شيء يكون اعتمادنا. يوجد عصير فواكه يجب أن نشره بالتقنين. ولدينا علب بسكويت وزبدة. أفرغوا علبة واصنعوا منها فرنية. وسوف نضع علب المحفوظات (الكونسروة) في قعر المركب لنشعل النار من خشب الصندوق. ولقد نالنا جميعاً شيء من الخوف والآن قد زال الخطر. لا يقولن أحد إنني ظمآن، ولا يقولن أحد إنني جوعآن أو أرغب في التدخين. اتفقنا؟

— نعم بابي اتفقنا.

كان الجميع انضباطيين، وسأقت لنا العناية الإلهية رباحاً أتاحت لنا صنع حساء من علبة لحم بقرى وفي القصعة الملأى بهذا الحساء كنا نغمس كعك العسكر فجعلنا في بطوننا لزقة حارة وطيبة، وكافية حتى الغد. وضعنا قليلاً جداً من الشاي الأخضر لكل واحد منا. وفي الصندوق الاحتياطي وجدنا صندوق سجائر فيه ثمانية وعشرون علبة، وكل علبة تحوي ثمانية سجائر. قرر الخمسة الآخرون أن لي وحدي حق التدخين كي أظل يقظاً، وحتى لا يكون هناك حاسد. رفض كلوزيو أن يشعل لي السجارة، بل اكتفى بأن يقدم لي النار. وبفضل هذا التفاهم لم يحصل بيننا أي حادث معكر.

أيام ستة مرت على مغادرتنا ولم أتم. وهذا المساء كان البحر كسطح الزيت. فتمت قرابة خمس ساعات وقبضتاي مغلفتان، واستيقظت الساعة العاشرة مساءً، كل شيء هادئ وساكن. وقد أكلوا بدوني، ووجدت نوعاً من الطعام مصنوعاً من طحين الذرة صنعاً جيداً. وأكلت كذلك شيئاً من (النقائق) المدخنة، وكانت وجبة لذيدة. وكان الشاي بارداً تقريباً ولا بأس في ذلك، وأخيراً دخننا بانتظار أن تسعفنا الريح.

كانت السماء متلألئة بالنجوم ونجم الشمال يتألق ببريق أخاذ، ويرى الدب الأكبر والدب الأصغر بوضوح. لا سحابة في الجو، والبدر يتكبد السماء ذات النجوم.

البروتوني يرتعش من البرد، فقد أضع معطفه فأعثره المشمع.

نحن في اليوم السابع. قلت: يا رجال! لسننا بعيدين عن كوراساو ونجبل لي أنني صعدت شمالاً أكثر مما ينبغي. سأنه بعد الآن غرباً، ويجب أن لا نخطئ جزر الأنثيل الهولندية، والمسألة غدت خطيرة، لأنه لم يبق عندنا ماء عذب للشرب، وضياعنا الأغذية ما عدا الاحتياطي.

قال البروتوني: نحن نثق بك بابيون. وردد الآخرون الكلام نفسه وبصوت واحد. — شكراً.

واعتقد أن ما قلته هو الأصوب. ولم تكن الريح مرضية تلك الليلة، إلا أنه في الساعة الرابعة هب نسيم أتاح لنا استئناف السير، وقد تزايد هذا النسيم صباحاً. ودما

ستاً وثلاثين ساعة بقوة دفع كافية، فجرى المركب شداً مع موجات خفيفة تلطم هيكل السفينة.

كوراساو

لاحت لنا طيور البحر، وكنا قبلاً سمعنا زقزقاتها في أواخر الليل، ثم رأيناها تطوف حول المركب وقد وقف أحدها على الصاري، وهو يروح ويغدو ثم يحط من جديد واستمرت هذه الرياضة ثلاث ساعات إلى أن انجلى الليل بصبح متلألئ الشمس. لا شيء في الأفق يشير إلى اليابسة. يا للشيطان! فمن أين أتت هذه الطيور إذن؟ عبثاً كانت أعيننا نحاول البحث طيلة النهار وليس هناك أي دليل على وجود أرض. وسطح البدر في لحظة غياب الشمس، وهذا القمر الاستوائي مضيء جداً، حتى أن انعكاساته كانت تضايقي، وقد ذهبت الموجة الشهيرة إياها بنظاراتي السوداء، وبجميع عمراتنا. وحوالي الساعة الثامنة، رأينا في الأفق بعيداً وبعيداً جداً خطأً أسود وسط هذا الليل المظلم الذي غدا كالنهار في إشراقه.

قال أحدهم: هذه هي الأرض بالتأكيد.

— أجل إنها الأرض حقاً.

وباختصار كان الجميع على اتفاق. فكل واحد رأى الخط المظلم الذي لا بد أن يكون الأرض وظللت أحدى بقية الليل بهذا الظل الذي بدأ يتوضح شيئاً فشيئاً. لقد وصلنا بريح قوية خالية من السحب، وبموجة عالية وطويلة، إلى اليابسة بأقصى سرعة.

هذه الكتلة السوداء ليست مرتفعة فوق مستوى سطح الماء كثيراً، وليس ما يشير إلى الساحل أصخري هو أم رملي. وكان القمر قد مال إلى المغيب من الجهة المقابلة وشكل ظلاً يحول دون الرؤية الجلية، على الخط الملامس لسطح الماء سلسلة من الضوء الذي كان متصلاً ولم يلبث أن صار متقطعاً. اقتربت كثيراً إلى مسافة كيلو متر تقريباً، وألقيت بالمرساة.

الريح عاتية والمركب يدور حول نفسه، وكلما مرت موجة رفعته عالياً فهو إذن في اضطراب، وأصبحنا في وضع غير مريح. وهذا طبيعي، لأن الأشرعة قد طويت. وكان بالإمكان أن نتنظر حتى الصباح على ما نحن فيه من مكروه، بشرط أن يكون الوضع آمناً. غير أن المرساة أفلعت؛ ولكي أستطيع توجيه المركب يجب أن يمشي وبغير ذلك لا يمكن السيطرة عليه. رفعنا القلعة. والشيء الغريب أن المرساة لم تكن تثبت بسرعة.

سحب رفاقي الجبل فإذا به من غير مرساة. لقد ضاعت ورغم ما بذلت من جهد فإن الأمواج تقربنا من الصخور. وبات الخطر محققاً. فعزمت على رفع الشراع والانطلاق بعنف نحوها. نجحت بحيث ألقينا أنفسنا بين صخرتين ولكن المركب تحطم، ولم يرتفع صوت بالصياح، وقلت لينج بنفسه من يستطيع النجاة، ومع هجوم الموجة التالية ألقينا بأنفسنا في لجنتها بغية الوصول إلى تلك الأرض متدحرجين أو مهشمين، إنما على قيد الحياة. ولكن الذي أصاب كلوزيو كان أسوأ مما أصابنا بسبب رجله التي لا تزال في الجص، وتخضب وجهه وذراعه ويده بالدم من جراء ما نالها من السليخ، ونحن الآخرين، أصبنا ببعض الرضوض في ركبنا وأيدينا وكعوبنا. وأنا دميت أذني نتيجة احتكاكها بالصخرة. فمهما حدث، فتحن جميعاً أحياء على الأرض الجافة في مأمن من الأمواج.

وعند انبلاج الصبح استعدت الشمع وعدت إلى المركب الذي بدأ يتفكك، وانتزعت البوصلة التي كانت مثبتة في المقعد الخلفي.

لم يكن على الأرض أحد، ولا في الضواحي. تأملنا ملياً فراينا أضواء ناجمة عن مجموعة من المصابيح لإرشاد الصيادين وعرفنا فيما بعد أن المكان خطر.

مشينا نحو الداخل فلم نجد إلا أشجار الصبار الضخمة وحميراً، حتى وصلنا إلى بئر وقد خارت قوانا، إذ كنا نتناوب حمل كلوزيو على أيدينا التي كنا نشبكها على شكل كوسي، وعثرنا حول البئر على هياكل عظمية لبعض الحمير والماعز، والبشر قد نصب مأواها، وأجنحة الطاحون التي كانت سابقاً تمتاح ماء البئر، تدور الآن على غير طائل. تقدمنا نحو بيت مفتوح الأبواب وأخذنا نصيح: هولا، هولا! ولكن ما بالربع من أحد. وجدت على المدفأة كيساً من قماش مربوطاً بحبل صغير فتناولته وفتحت فتفتت الجبل، وإذا هو مملوء بمسكوكات عملة هولندية. إذن نحن في أرض هولندية إما بونير وإما كوراساو وإما أروبا. أعدنا الكيس إلى مكانه دون أن نمس ما فيه، ثم شربنا كل بدوره بوساطة مغرفة. ولم يكن في البيت أحد، ولا في الأطراف إنسان. عاودنا المسير ببطء بسبب كلوزيو، وإذا بسيارة فورد قديمة تعترض طريقنا.

— هل أنتم فرنسيون؟

— أجل يا سيد.

— تفضلوا بالركوب في السيارة. جلس ثلاثة منا في صدر السيارة وتمدد كلوزيو على ركبهم وجلست أنا وماتوريت إلى جانب السائق.

— هل غرقت سفيتكم؟

— نعم.

— وهل غرق منكم أحد؟

— لا.

— من أين مقدمكم؟
— من ترينيداد.
— وقبلًا؟
— من غويان الفرنسية.
— من سجناء الميناء أم من السجناء المبعدين؟
— من سجناء الميناء.
— أنا الدكتور نال صاحب هذه الأرض وهي شبه جزيرة ملاصقة لكوراساو، وتسمى جزيرة الحمير. فالحمير والماعز تعيش هنا على الصبار ذي الأشواك الطويلة والتي يدعوها الشعب هنا «أنسات كوراساو»

قلت: إن هذا لا يرضي أنسات كوراساو الحقيقية.
ففرق هذا الرجل ضاحكاً، وهو رجل بدين وطويل.
كانت سيارة الفورد تلهث وكأنها مصابة بالربو ولم تلبث أن توقفت من تلقاء نفسها.
فقلت وأنا أشير إلى قطع من الحمير:
— إذا/عجزت السيارة عن المسير نستطيع جرّها.
— عندي في الصندوق ما يشبه النير ولكن المهم في الأمر أن تتمكن من القبض على
حمارين من هذه الحمير، وأن نضع لهما النير، وليس ذلك سهلاً.

رفع الرجل الضخم غطاء المحرك، فوجد أن السلك الواصل إلى أحد «البواجي»
قد انفصل بسبب ارتجاج السيارة، وقبل أن يرجع إلى السيارة دار حولها كمن يخاف شيئاً.
استأنفنا سيرنا. وبعد أن مررنا بدروب خربة خرجنا من السيارة لنواجه حاجزاً يسد
الطريق عند بيت صغير أبيض، وتكلم الدكتور باللغة الهولندية مع رجل أسود نظيف
الملابس، وكان هذا الأخير يردد مراراً يا. يا. يا ماستر. ثم التفت بعد ذلك إلينا وقال:
لقد أمرت هذا الرجل أن يستبقيكم في صحبته وأن يعطيكم الماء إذا عطشتم ريثما أعود،
تفضلوا بالنزول، فنزلنا وجلسنا على العشب تحت الظل، ثم ذهبت سيارة الفورد..
توف، توف.. ولم تكد تبعد خمسين متراً حتى قال لنا الأسود بلهجة هولندية كلمات
انكليزية وفرنسية وهولندية وإسبانية، فهما منها أن سيده الدكتور (نال) ذهب لإحضار
الشرطة لأنه خائف منا وطلب منه الانتباه لنفسه لأننا لصوص هاريون. وهذا الشيطان
الحجين المسكين لا يدري ما يفعل لإرضائنا، فجهز لنا قهوة مصفاة أنعشتنا بعض الشيء
في هذا الحر. انتظرنا أكثر من ساعة ثم وصلت سيارة شاحنة وفيها ستة من رجال الشرطة
يرتدون ملابس على الطريقة الألمانية، ثم سيارة مكشوفة سائقها بملابس الشرطة وثلاثة
رجال، وخلفهم الدكتور (نال).

نزلوا من السيارة وكان أصغرهم سنّاً حليق الرأس حتى درجة الصفر فخاطبنا قائلاً:

أنا رئيس الأمن في كوراساو، وعلى عاتقي مسؤولية اعتقالكم. هل اقترعتم جرماً منذ وصولكم إلى هنا؟ ومن منكم فعل ذلك؟

— سيدي . نحن محكومون هاربون أتينا من ترينيداد منذ ساعات فقط عند تحطم مركبتنا على صخوركم وأنا رئيس هذه المجموعة الصغيرة وأستطيع أن أؤكد لكم أننا لم نرتكب أدنى هفوة.

التفت المفوض نحو الدكتور (نال) وخاطبه بالهولندية، وبينما كانا يتناقشان وصل رجل على دراجة وصار يتكلم ويثرثر ويوجه خطابه إلى الدكتور أكثر مما يكلم المفوض — مسيو (نال) لم قلت لهذا الرجل إننا لصوص.

— لأن هذا الرجل الذي ترونه هناك أنبأني قبل أن ألقاكم، بأنه كان محتباً خلف صبرة-ورآكم تدخلون داره وتخرجون منها، وهو مستخدم عندي، يعتني بقسم من الحمير. — ألانتا دخلتا الدار أصبحنا لصوصاً؟ إنها حماقة ما تقول لم نأخذ سوى الماء. هل ترى في هذا سرقة؟

— وصرة النقود؟

— الصرة؟ لقد فتحتها فعلاً، وانفض خيطها أثناء الفتح، ولم أفعل شيئاً آخر سوى أنني نظرت إلى نوع العملة لأعرف في أي بلد نحن، وأرجعت المال إلى الصرة بدقة وأمانة إلى المكان نفسه على رف المدفأة.

حرق بي المفوض ثم التفت فجأة نحو الرجل صاحب الدراجة وخاطبه بقسوة. وأراد الدكتور نال، الكلام فمعه المفوض من التدخل بجفاء ألماني.

وأركب المفوض الرجل إلى جانب سائق سيارته، وركب معه اثنان من الشرطة وانطلق.

دخل معنا الدكتور والرجل الذي يرافقه وقال: يجب أن أشرح لكم: إن هذا الرجل أخبرني بأن الصرة قد اختفت. وقبل أن يأمر المفوض بتفتيشكم سأل ذلك الرجل وهو يقدر أنه كاذب. فإذا كنتم أبرياء فأني شديد الأسف لما حصل ولكن ليس الذنب ذنبي. وعادت السيارة بعد أقل من ربع ساعة، وقال المفوض: لم تقل سوى الحقيقة. وهذا الرجل كذاب وقح. ولسوف يعاقب على أنه كاذب أن يلحق بكم الأذى.

وفي هذه الأثناء ركب الرجل في الشاحنة وكذلك صعد رجال الخمسة. ولما همت بالصعود أمسك بي المفوض وقال: خذ مكانك في سيارتي إلى جانب السائق. وكانت السيارة تجري بنا مسرعة أمام الشاحنة حتى غابت عن أبصارنا، وسلكتنا دروباً معبدة إلى أن دخلنا المدينة. وكانت منازلها مبنية على النمط الهولندي، وكل ما فيها نظيف جداً، ومعظم الناس يركبون الدراجات. دخلنا مركز الشرطة ومررنا من مكتب فسيح يضم عدداً من ضباط الشرطة في لباسهم الأبيض، وكل واحد خلف منضدته، إلى غرفة أخرى مجهزة بمكيف للهواء، الجو فيها منعش

نهض رجل طويل أشقر قد يبلغ الأربعين من العمر، وتكلم بالهولندية. وبعد أخذ ورد قال المفوض باللغة الفرنسية: أقدم لك المفوض الأول لشرطة كوراساو.

— سيدي المفوض! هذا الرجل فرنسي وهو رئيس مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص أوقفناهم.

— حسناً. مرحباً بكم في كوراساو بصفة لاجئين تحطمت سفينتهم. ما اسمك؟

— هنري.

— حسناً يا هنري، قد تكون مررت بفترة عصيبة في حادثة الصرة، ولكنها حادثة رفعت من شأنك، لأنها برهنت بلا ريب على أنك رجل شريف. ساوصي لك بغرفة حسنة الإضاءة وفراش صغير لتستريح. حالك هذه تابعة للحاكم الذي يصدر بشأنها الأوامر. أنا بنفسى والمفوض ستوسط إكراماً لك.

ومدّ لي يده مصافحاً وخرجنا. وفي الباحة قدم لي الدكتور نال اعتذاره ووعد بالتدخل من أجلنا. وبعد ساعتين كنا جميعاً محتجزين في غرفة رحة مستطيلة تضم اثني عشر سريراً. ومنضدة خشبية، ومقاعد في الوسط.

طلبنا من الشرطي من خلال شبك النافذة أن يشتري لنا، مما معنا من دولارات ترينيداد، شيئاً من التبغ والورق وأعواد الثقاب، فلم يأخذ المال، ولم نفهم بماذا أجاب.

قال كلوزيو: هذا الأسود الأنوسي، يبدو عليه الحزم والوقار. لم نحصل على التبغ فخبطت على الباب، فانفتح على الفور وظهر رجل قصير خلاصي بملابس رمادية من نمط السجناء ويحمل على صدره رقماً، لدفع الالتباس، فقال لنا:

— المال. من أجل السجائر.

— لا. نريد تبغاً وورقاً وأعواد ثقاب.

عاد بعد هنيئة يحمل ما طلبناه مضافاً إليه وعاء يتصاعد منه بخار الشوكولا أو الكاكاو. وشرب كل واحد منا مما جاء به هذا السجين.

وجيء في طلبي بعد الظهر. وعدت أدراجي إلى مكتب مفوض الشرطة الذي قال:

— إن الحاكم أصدر أوامره بتخلية سبيلكم في الباحة وحسب. قل لصحبك أن لا يحاولوا الفرار فإن العواقب وخيمة. وأنت بوصفك رئيساً لهم يمكنك الخروج إلى المدينة كل يوم مدة ساعتين من العاشرة إلى الثانية عشرة، وبعد الظهر من الساعة الثالثة إلى الخامسة. هل معك مال؟

— نعم. عملة انكليزية وفرنسية.

— سيرافك شرطي مدني أثناء خروجك حيث تشاء.

— وما تفعلون بنا؟

— أظن أننا سنرحلكم واحداً بعد واحد على ناقلات بترول من مختلف الجنسيات. ونظراً لوجود أعظم مصافي النفط العالمية في كوراساو، والتي تعالج نפט فتزويلا، فإنه

يدخلها ويخرج منها من الناقلات ما يتراوح عدده بين العشرين والخمسين والعشرين يوماً، من كل البلاد. هذا هو الحل الذي أتصوره لكم. لأنكم سوف تصلون إلى الدول، خالين من المشاكل.

— أي البلاد مثلاً؟ بناما، كوستاريكا، غواتيمالا، نيكاراغوا، المكسيك، كندا، كوبا، الولايات المتحدة، أو البلاد الخاضعة للنفوذ البريطاني؟
— مستحيل، وأوربا كذلك مستحيلة. اطمئنوا، وثقوا بنا، ودعونا نعمل على مساعدتكم لتبدأوا رحلة نحو حياة جديدة.
— شكراً أيها المفوض.

وقصصت على رفاقي بأمانة ما سمعت. فقال كلوزيو، وهو أزدل من في العصابة:
— ما رأيك يا بابيون؟
— لا أدري. وأخشى أن تكون هناك خدعة لكي نبقي هادئين فلا نهرب.
— وأنا أخشى أن تكون على حق.
والبروتوني آمن بهذه الخطة العجيبة — وهو صاحب حادثة المكواة — فقال:
— لم يبق لدينا مركب، إذن لا مغامرة. وهذه الخطة مؤكدة. يصل كل واحد منا إلى بلد ما على ظهر ناقلة كبيرة وندخل بصفة رسمية إلى ذلك البلد.
وشاطره الرجل الأصهب هذا الرأي.
— وأنت ماتوريت؟

هذا الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً، هذا الغلام الذي أصبح عرضاً ومصادفة سجيناً، هذا الصبي الرقيق في ملاحه رقة النساء. قال بصوته العذب:
— هل تصدقون أن رجال الشرطة هؤلاء، ذوي الرؤوس المربعة سيطلبون لكل واحد منا بطاقة شخصية مربية أو مزيفة؟ أنا لا أظن ذلك. لنفترض في أسوأ الأحوال أنهم استطاعوا أن يفضوا النظر عنا لنمتطي ظهر ناقلة نطف بصورة غير مشروعة ساعة الإقلاع لا أكثر، فإنما يفعلون ذلك ليتخلصوا منا بدون متاعب. هذا رأيي ولا أصدق هذه الحكاية.

نادراً ما كنت أخرج في الصباح للشراء. ومضى الأسبوع الأول ولا جديد. وبدأت أعصابنا تتوتر. وفي أحد الأيام رأينا بعد الظهر ثلاثة من الرهبان يحيط بهم رجال الشرطة يزورون الزنزانات والمهاجع. توقفوا طويلاً عند زنزانة زنجي متهم باستعمال العنف. وقد افترضنا أنهم سيأتون إلى قاعتنا، فاستلقى كل منا في سريره. وبالفعل دخل الثلاثة ومعهم الدكتور نال ومفوض الشرطة وآخر من ذوي الشارات، بلباسه الأبيض مما يشير إلى أنه ضابط بحري.

قال المفوض باللغة الفرنسية:

— مولاي. ها هم أولاء الفرنسيون وقد كان سلوكهم مثالياً.

— أهنتكم يا أولادي. لنجلس على المقاعد حول هذه المنضدة بحيث نكون في وضع أفضل للحديث.

فجلس الجميع، حتى من كانوا في صحبة الأسقف، وأتوا بكرسي كان أمام الباب الخارجي ووضعوه على رأس المنضدة، ليستطيع الأسقف رؤية الجميع.

— الفرنسيون كلهم تقريباً من الكاثوليك. من منكم غير كاثوليكي؟
لم يرفع أحد منا يده، وتذكرت الخوري في سجن التوقيف الذي عمدني تقريباً بأن اعتبر نفسي كاثوليكياً، وإني لذلك.

— أصدقائي! إنني أنحدر من أصل فرنسي، وأدعى إيرنيه دوبرتين. كان أجدادي من البروتستانت الذين لجؤوا إلى هولندا، في الوقت الذي كانت فيه كاترين دوميسيس تلاحقهم حتى الموت. أنا إذن فرنسي الأرومة، وأسقف كوراساو المدينة التي فيها من البروتستانت أكثر مما فيها من الكاثوليك، وحتى هؤلاء قلوبهم عامرة بالإيمان ويمارسون واجباتهم الدينية فما وضعكم؟

— ننتظر أن نحمل على ناقلة للنفط الواحد تلو الآخر.

— كم واحداً هجر بهذه الطريقة؟

— حتى الآن لا أحد.

— هوم.. ما رأيك في هذا أيها المفوض؟ أجب بالفرنسية إذا سمحت، لأنك نحيدها.

— يا مولاي! ان الحاكم هو الذي تبني هذه الفكرة مخلصاً، وذلك لمساعدة هؤلاء الرجال، وأقول بإخلاص إن أحداً من ضباط البواخر لم يقبل أن يجعل واحداً منهم وخاصة ان ليس معهم جوازات سفر.

— من هنا يجب أن نبدأ ألا يستطيع الحاكم أن يمنح لكل منا جوازاً استثنائياً؟

— لا أدري. إنه لم يحدثني بذلك قط.

— سأقيم بعد غد قداساً من أجلكم. هل ترغبون في الحضور إلي غدأ بعد الظهر لتدلوا باعترافاتكم؟ سأسمع شخصياً لأساعدكم لكي يغفر لكم ربكم خطاياكم. أرسلوهم لي في الساعة الثالثة إلى الكاتدرائية. هل هذا ممكن؟

— نعم

— أتمنى أن يأتوا في سيارة عامة أو في عربة خاصة.

قال الدكتور نال:

— سأصحبهم بنفسي يا مولاي.

— شكراً يا بني. وأنتم يا أولادي لا أعدكم بشيء إلا قولاً واحداً صحيحاً وهو أنني منذ هذه اللحظة، سأبذل أقصى جهد لما فيه نفعكم.

وعندما رأينا الدكتور نال يقبل خاتمه، ثم تلاه البروتوني، لسنا بشفاها الخاتم الأسقي ورافقه إلى سيارته الواقفة في الباحة.

وفي الغداة، كنا جميعاً على كرسي الاعتراف. وأنا كنت الأخير.

— هيا بني! ابدأ بالخطيئة الكبرى أولاً.

— يا أبانا. أنا لست معمداً ولكن خورياً في سجن فرنسا قال لي: إن كنت معمداً أم لا، فنحن جميعاً أبناء الرب الطيب.

— عنده حق. سنخرج من الاعتراف وتحذني بكل شيء.

فرويت له حياتي بالتفصيل، وكان أمير الكنيسة هذا يصغي لي بصبر وانتباه وأناة دون أن يقاطعني. فأخذ يدي بين راحتيه، وغالباً ما كان ينظر إلى عيني، وإذا مررت بمواطن يصعب فيها الاعتراف يفض بصره ليساعدني على الاعتراف.

كان هذا الراهب الذي طوى ستين عاماً من عمره ذا عينيّن صافيتين، ووجه نقي، تعكس شيئاً طفولياً. ولا ريب في أن روحه الطاهرة النقية تحمل الطيبة اللامتناهية التي كانت تشع في سمات وجهه ونظراته الصافية وتدخل إلى نفسي كأنها البلسم على الجرح. وبكل رقة وعذوبة، وكفائي بين راحتيه كان يحذني همساً: إن الرب يمنح أولاده الصبر على احتمال شقاوة البشرية. فمن اختاره ضحية لشروها، خرج منها أقوى وأنبل من ذي قبل. ألا ترى يا بني؟ لو لم تكن قاسيت هذه المحن لما تساميت إلى هذه الدرجة، التي اقتربت فيها من الحقيقة الإلهية. وخير ما أقول: إن الناس، والأجهزة وتشابك هذه الآلة الرهيبة التي سحقتك والمخلوقات الشريرة في أعماقها والتي عذبتك بمختلف الوسائل، وألحقت بك أفدح الأضرار، إنها كلها في الوقت نفسه أسدت إليك أكبر خدمة يمكن أن تؤديها. فقد جعلوا منك كائنًا جديداً سامياً إلى أعلى درجات السمو فإذا كنت اليوم تشعر بالشرف وسلامة الطوية، وحب الخير، والمروءة اللازمة لتخطي العقبات فأنت مدين لهم في ذلك. إن فكرة الانتقام ومعاينة كل إنسان بمقدار إساءته إليك لا تستطيع أن تسعد مخلوقاً مثلك، يجب أن تكون منقذاً للرجال، لا أن تعيش للإساءة. حتى ولو كنت مؤمناً بأن هذا هو العدل. لقد كان الله كريماً معك وقد قال لك: ساعد نفسك أساعدك. وقد أعانك في كل شيء. بل أتناخ لك أن تنقذ رجالاً آخرين وتقودهم إلى الحرية، ولا تعتقد أن الأثام التي ارتكبتها كبيرة إلى هذا الحد، فكثير من الرجال ذوي المراتب الاجتماعية العليا أوقعوا أنفسهم في ذنوب أخطر من ذنوبك. أما هم فيها جرى عليهم من قصاص العدالة البشرية لم يبلغوا ما بلغت من الارتقاء.

— شكراً لك يا أبي. لقد قدمت لي خيراً عظيماً لا أنساه مدى الحياة. ثم قبلت

يديه.

— ستعود يا بني لتواجه أخطاراً جديدة، وأود أن أعمدك قبل ذهابك فما رأيك؟

— يا أبي! دعني هكذا في الوقت الحاضر، فإن أبي لم ينشئي تنشئة دينية وله مع ذلك قلب كالذهب. وعقب وفاة والدي، عرف كيف يعثر على كلمات الأمل وحركاتها واهتماماتها ولو أنني رضيت بالمعمودية لشعرت بأنني اقترفت ما يشبه الخيانة في حقه، دعني إلى الوقت

الذي أكون فيه حراً، وتكون لي هوية ثابتة، وطريقة في العيش السوي. وعندما أكتب له سأسأله إن كنت أستطيع أن أحرر فلسفته دون أن أسبب له ألماً وأقبل بالمعمودية.
- إنني أفهمك يا بني، وأنا على يقين بأن الله معك، إنني أباركك، وأتضرع إلى الله أن يحفظك.

قال الدكتور نال: ها هو الأسقف إيرنيه دوبروين يبرز في هذا الوعظ بأكمل مزاياه.
- بالتأكيد يا سيدي. والآن ماذا تنوي أن تفعل؟
- سأطلب من الحاكم أن يصدر أمره للجمرك بأن يتركوا لي الأفضلية في أول بيع للمراكب المصادرة من المهرين، وسوف تأتي معي لتبدي رأيك وتختار المناسب، وأما بالنسبة إلى الباقي كالغذاء واللبسة فأمرها يسير.

منذ أن وعظنا الأسقف والزوار يأتون دون انقطاع، وبخاصة في المساء حوالي الساعة السادسة. وهم يريدون التعرف علينا. يجلسون على المقاعد، ويبد كل واحد منهم شيء يضعه على سرير من الأسرة دون أن يقول أتيت بهذا. وحوالي الساعة الثانية من بعد الظهر تأتي أخوات صغيرات وتصحبهن الرئيسة. وهن يتكلمن اللغة الفرنسية بإتقان جيد. وسلاهن ملأى دوماً بكل ما لذ وطاب من صنع أيديهن. والراهبة الرئيسة شابة دون الأربعين من عمرها، وهي لا تبدي شعرها، فقد جمعتها تحت قلنسوة بيضاء. وعيناها زرقاوان وحاجباها أشقران؛ من أسرة هولندية ذات شان (حسباً أفاد الدكتور نال). وقد كتبت إلى هولندا لإيجاد طريقة غير طريقة إعادتنا إلى البحر. وقضينا معاً وقتاً طيباً. ولقد استعادتني حكاية هروبنا تكراراً. وكانت تطلب مني أحياناً أن أرويها على الأخوات اللواتي يصحبنها وهن يتقن اللغة الفرنسية. وإذا نسيت، أو قفزت عن تفصيل من التفاصيل، فلنأخذ نذكرني بلطف: هنري لا تستعجل، لقد تخطيت الدراج، أو: لماذا نسيت قصة النمل اليوم، فقصتها هامة جداً إذ بسببها أخذك البروتوني ذو القناع على حين غرة. كنت أقص كل هذا، لأنها لحظات عذبة جداً، وهي، على نقيض ما عشناه، كضوء سماوي يضيء بصورة وهمية، طريق العفن، طريق الزوال.

رأيت المركب. إنه مركب فاخر طوله ثمانية أمتار، ذو حيزوم جيد، وصار مرتفع، وأشرعة واسعة. إنه أنشيء حقاً لمكافحة التهريب. فهو مجهز أحسن تجهيز، ولكنه مليء بالاختام الشمعية الجمركية. وفي المزد العلفي، جاء رجل وبدأ بستة آلاف فلورين، أي ما يعادل ألف دولار، وباختصار اشترينا بستة آلاف فلورين وفلورين، وكان ذلك بعد أن همس الدكتور نال بيبضع كلمات في أذن الرجل.

في خمسة أيام كان كل شيء حاضراً، فالمركب مطلي طلاء جديداً، ومتخم بالزاد المرتب في قاع السفينة التي لها نصف سطح، إنها فعلاً هدية تهدي للملك. وكان معنا ست حقائب لكل واحد منا حقيبة وفيها أمتعة جديدة، وأحذية وكل ما يلزم من ملابس وهذه الحقائب منضدة تحت قماش غير قابل لنفوذ الماء، وموضوعة على سطح السفينة.

سجن ريوهاشا

أقلعنا ويزوغ الشمس، وقد جاء الدكتور والأخوات الصغيرات لوداعنا، وانفصلنا عن الرصيف في يسر. وساقتنا الريح فوراً، وكان الإبحار طبيعياً.

ذرت الشمس قرنها وتوقعنا يوماً صافياً. وقد لاحظت أن الشراع كثير على هذا المركب الخفيف؛ فوضعت في حسابي أن أكون حذراً. جرينا بأقصى سرعة. مركبنا أصيل في سرعته غير أنه غيور ومثير. أخذت جهة الغرب بالضبط. عزم الرجال الثلاثة الذين انضموا إلينا في ترينيداد، على النزول، وهم لا يرغبون في رحلة طويلة. وهم كما قالوا، واثقون بي، ولكنهم غير مطمئنين إلى الأحوال الجوية، وبالفعل، إن النشرات التي قرأناها في السجن، كانت تتوقع أحوالاً جوية سيئة وأعاصير، ولا بد من الإقرار بأنهم على حق. وقد تم الاتفاق بيننا على إنزالهم فوق شبه جزيرة معزولة وغير مأهولة تدعى الكاجيرا، ثم نرجع نحن الثلاثة قاصدين هندوراس البريطانية. كان الطقس رائعاً، والسماء تتلألأ بمصابيحها بعد نهار مصح، والقمر في ربعه الأول وقد يسر لنا ضيافاً طريقتي الرحلة، قصدنا الساحل الكولومبي على خط مستقيم. ألقينا بالمرسة وسبرت العمق شيئاً فشيئاً للتأكد من إمكانية الرسو. ولسوء الطالع كان الغور بعيداً، فوجب أن نقرب من ساحل صخري وفي هذا خطر كبير ونحن نحتاج إلى عمق لا يقل عن مئة وخمسين استمتراً. تصافحنا، ونزلوا وعلى رأس كل منهم حقيبة ثم تقدموا نحو اليابسة. راقبنا العملية باهتمام وفي شيء من الكآبة، فقد كان هؤلاء الرفاق متجاوبين معنا، وعلى مستوى الظروف والأحوال. وتأسفنا لمغادرتهم المركب. وبينما كانوا يتجهون صوب الشاطئ سكنت الريح دفعة واحدة. يا للعة. المهم أن لا يكون أهل القرية قد كشفونا. اسم القرية «ريوهاشا» مدوّن على لوحة.

هذا أول مرسى فيه شرطة، ونأمل أن لا يكون كذلك. ويبدو أننا ابتعدنا عن النقطة المقصودة بسبب المنارة الصغيرة الموجودة على الرأس الذي مررنا به انتظرنا طويلاً وقد توارى الثلاثة عن الأنظار وهم يلوحون لنا بمندبل أبيض مودعين. نريد رياحاً تفكنا عن هذه الأرض «الكولومبية» التي هي بالنسبة لنا علامة استفهام. وما يدرينا هل يعود هؤلاء الفارون الثلاثة أم لا. كلنا كنا نفضل الضمان في هندوراس البريطانية على المجهول في كولومبيا.

لم تتحرك الريح إلا في الساعة الثالثة من بعد الظهر وأمكن السفر. فرفعت الشراع على مدها، وجرى بنا المركب رهواً^(١) ساعتين، وإذا بمرأى^(٢) محمل بالرجال يتوجه نحونا وانطلقت

(١) سيراً ليناً سريعاً.

(٢) مركب للمراقبة والحراسة.

منه عيارات نارية في الهواء لإيقافنا، فشددت ولم أطمع، محاولاً الوصول إلى عرض البحر للخروج من المياه الإقليمية، فاستحال ذلك. فهذا المركب القوي تمكن منا بعد أقل من ساعة ونصف الساعة من المطاردة، عشرة من الرجال سدّدوا نوحنا البنادق وأجبرونا على الرجوع.

هؤلاء الجنود أو رجال الشرطة يتميزون بوجوه خاصة، ويرتدون بنطالاً قذراً كان في الماضي أبيض، وقميصاً صوفياً لم يغسل قط، وهم حفاة، ما عدا رئيسهم فهو أحسن كسوة وأكثر نظافة. ولئن كانوا في ثياب رثة فلإنهم مدججون بالسلاح.

فهم يحزمون أوساطهم بحزام مليء بالذخيرة، ويحملون بندق حربية وعلاوة على ذلك يحملون خنجرأ في غمده، ولكن مقبضه في متناول اليد، وهذا الذي ينادونه كومندان، له رأس خلاصي مجرم، ويحمل مسدساً كبيراً يتبدل أيضاً من نطاق محشو بالرصاص. ولما كانوا لا يتكلمون إلا الإسبانية، فلم نفهم شيئاً مما يقولون. فلا نظراتهم ولا حركاتهم ولا نغمات أصواتهم توحى بشيء من الود، فكل ما فيهم يوحي بالشحناء والعداوة.

وصلنا إلى ساحة سجن محاط بجدار صغير، وفيها عشرون سجيناً قذراً من ذوي اللحى. وهم بين قائم وقاعد. وبدت البغضاء على عيونهم، وبعضهم يقول: قاموس، قاموس. وكأنهم يقولون هيا، هيا.

لقد شق علينا أن نرى كلوزيو يمشي وثيداً، والحديد والجص لا يزالان في ساقه وإن تحسنت مشيته عن ذي قبل. الكومندان تخلف عنا ثم أدركنا ويده البوصلة والمشمع، يأكل من أطباقنا وشوكولانا، فأدركنا في الحال أن ما عندنا سيفقدو نبأ. ولم نخطيء. حسبنا في قاعة كريمة ذات شباك وحديد، والأرض خشبية، وعلى جانب منها نوع من الوسائد الخشبية بدلاً من الأسرة.

وبعد ذهاب رجال الشرطة وإغلاق الباب، سمعنا صوتاً ينادي: أيها الفرنسيون، أيها الفرنسيون! إنه أحد السجناء.

— ماذا تريد؟

— فرنسي. غير طيب، غير طيب.

— غير طيب، ماذا؟

— الشرطة

— الشرطة؟

— نعم. الشرطة غير طيبين.

قال هذا وانصرف.

حل الظلام وأضيئت القاعة بمصباح كهربائي ضعيف التوتر، نور ضئيل. وبدأ البعوض يثر في أذاننا ويحط على أنوفنا. ما أحلانا. كم كلفنا غالياً إنزال أولئك الرجال. ما

العمل؟.. ما كنا ندري، وخاصة أن الريح قد استعصت علينا.

قال كلوزيو: إنك قد اقتربت كثيراً.

— اسكت. ليس الآن وقت تبادل التهم، أو اتهام الآخرين. إنه وقت التكاليف أكثر من أي وقت مضى.

— معذرة يا بابين. أنت على حق، إنها ليست غلطة أحد.

— إنه لمن الظلم بعد كفاحنا أن نصل في هروبنا إلى هذا المكان الذي لا يقل مرارة.

— لم يفتشنا أحد بعد، وأنبوبة المال في جيبي، وإني أتعجل وضعها في مكانها، وكلوزيو هذا حذوي، وقد أحسنا صنعا في أننا تداركنا هذا، ومن جهة أخرى هذه حافظة للنقود محكمة وليست بذات حجم، ويمكن أن تبقى معنا.

الساعة الآن — على ذمة ساعتى — الثامنة مساء، وقد احضروا لنا سكرًا غير مصفى جيداً، فهو بلون الكستناء، قطعة بحجم جمع الكف لكل واحدنا، وما يشبه العلب من عجينة الرز المطبوخ بالماء والملح. وقيل لنا: بيوناس نوشس.

قال ماتوريت: ربما كان معناها تصبجون على خير.

وفي الغداة قدموا لنا في الساعة السابعة، في الساحة، قهوة فاخرة في إناء خشبي. مر الكومندان حوالى الساعة الثامنة فطلبت منه الذهاب إلى المركب لإحضار بعض حاجياتنا إما أنه لم يفهم، وإما أنه تظاهر بعدم الفهم. كلما أمعنت النظر إليه وجدت فيه وجه قاتل. يحمل في يده اليسرى قارورة في غلاف جلدي، يخرجها ويفتحها ويشرب جرعة ويصق ثم يد لي القارورة. ومقابل هذه اللقطة الودية الأولى. أخذتها وشربت. ولحسن الحظ لم أتجرع منها إلا قليلاً، إنها كالنار في مذاقها، كثيرة الكحول، لاهبة؛ بلعتها في سرعة وبدأت بالسعال، فقرقر هذا الهندي المهجن بالزنجي ضاحكاً. وفي الساعة العاشرة أقبل رجال مدنيون يرتدون كسوة بيضاء، وربطة عنق، وكانوا ستة أو سبعة، ودخلوا بناء يبدو أنه إدارة السجن. فأرسلوا في طلبنا، وكانوا جميعاً جالسين على كراسي نصف دائرية في قاعة تصدرتها لوحة كبيرة لضابط أبيض كثير الزخرفة، إنها صورة رئيس كولومبيا ألفونسو لوبيز.

أحد هؤلاء السادة اجلس كلوزيو وهو يتحدث بالفرنسية ونحن بقينا واقفين.

رجل الإدارة نحيل، له أنف كمنقار النسر، وعليه نظارات مبتورة، ولقد بدأ باستجوابي والترجمان لم يترجم شيئاً إنما قال:

— السيد الذي سيقوم باستجوابك هو قاضي مدينة ريوهاشا، والآخر هم أصدقاؤه من الأعيان، وأنا الذي أقوم بالترجمة من هايتي، أشرف على أعمال الكهرباء في هذه الولاية، وأنصوّر أن من بين هؤلاء الرجال من يلم باللغة الفرنسية قليلاً ولو لم يقولوا ذلك، حتى القاضي نفسه.

وصبر القاضي على هذه المقدمة، وبدأ الاستجواب باللغة الأسبانية، وتداول الهايتي

الاسئلة والإجابات

- أأنت فرنسي؟
- نعم.
- من أين أتيت؟
- من كوراساو
- وقبل ذلك؟
- ترينيداد
- وقبلأ
- من المارتينيك.
- أنت تكذب. لأن قنصلنا أئذنا منذ أكثر من أسبوع بمراقبة السواحل لأن ستة من الفارين من سجن الإصلاحية في فرنسا، وأنهم سيحاولون النزول عندنا.
- حسناً نحن فارون
- إذن من كايين؟
- نعم
- إذا كان بلد نبيل مثل فرنسا طردكم بعيداً وعاقبكم بقسوة، فذلكم أنكم خطرون جداً.
- ربما
- لصوص أم قتلة؟
- مجرمون
- سيان. إذن أنتم من الوجهاء أين الثلاثة الآخرون؟
- لم يغادروا كوراساو.
- تكذب أيضاً. أنزلتهم على بعد ستين كيلومتراً من هنا في بلد اسمه كاستيت ولحسن الحظ أوقفوا، وسيكونون هنا بعد بضع ساعات. هل سرقتم هذا المركب؟
- لا. قدمه أسقف كوراساو هدية لنا.
- حسناً. ستيقون هنا محتجزين إلى أن تتخذ الحكومة قراراً بشأنكم.
- ونظراً لارتكابكم جريمة إنزال ثلاثة من رفاقكم على أرض كولومبية، وبالتالي لمحاولتكم الرجوع إلى عرض البحر، فقد حكمت عليك بالسجن ثلاثة أشهر بوصفك رئيساً، وعلى رفيقك كل منهما بشهر واحد. اسلكوا سلوكاً حسناً، إن شئتم أن لا تعاقبوا جسدياً على أيدي رجال شرطة قساة. هل لديك ما تقول؟
- لا. إنما أريد أن نستعيد حوائجنا وأغذيتنا من على ظهر المركب.
- كل هذا مصادر من قبل رجال الجمر، ما عدا قميصاً وبنطالاً وحذاء لكل منكم، والباقي مصادر، فلا تلحوا، ولا حيلة لكم مع القانون.
- ثم انسحبنا إلى الساحة، وتجمع سجناء البلد البؤساء حول القاضي وصاحوا دكتور، دكتور فمر مخترقاً جمعهم وقد امتلات نفسه صلفاً وكبرياء دون أن يجيب ودون أن يتوقف.

خرجوا من السجن وغابوا عن الأنظار.

وفي الساعة الواحدة وصل الثلاثة الآخرون في شاحنة، يحرسهم سبعة أو ثمانية رجال مسلحين، فترجلوا خجلانين مرتبكين ومعهم حقائبهم، فدخلنا القاعة في رفقتهم.

قال البروتوني: ما أفدح الخطأ الذي ارتكبناه، وجعلناكم تتورطون، ونرجو أن تصفح عنا يا بابيون. إن أردت قتلي فافعل. ولن أدافع عن نفسي. لم نكن رجالاً. فعلنا ذلك خشية البحر، ولكن بعد أن رأينا ما رأينا من كولومبيا وأهلها، بدت أخطار البحر أضحوكة بالنسبة لخطر الوقوع بين أيدي أمثال هؤلاء الرجال. هل وقعتم بسبب انعدام الرياح؟

— أجل يا بروتون. ليس لي أن أقتل أحداً، ارتكبنا الخطأ جميعاً، وما كان علي إلا أن أرفض إنزالكم. وما كان شيء من كل هذا قد حصل.

— أنت طيب جداً يا بابي.

— لا. أنا منصف وحسب.

ثم رويت لهم استجواب القاضي، وأخيراً ربما أطلق الحاكم سراحنا. — يا ليت هذا يحصل. لنأمل، فالأمل سر الحياة. وفي رأيي أن سلطات هذا البلد نصف متحضرة، فهي لا تستطيع اتخاذ قرار لمثل حالتنا هذه والقرار يجب أن يكون من سلطة أعلى من أجل بقاءنا هنا أو إعادتنا إلى فرنسا، أو إرجاعنا إلى مركبتنا لإبعادنا. والطامة الكبرى أن يكون القرار في أيدي هؤلاء الرجال، ونحن لم نرتكب أية جريمة على أرضهم، ولم نلحق الضرر بأحد.

انصرم الأسبوع الأول ونحن على ما نحن عليه، لم يتبدل شيء سوى حديث عن إمكانية نقلنا تحت حراسة مشددة إلى مدينة أكبر تبعد مئتي كيلومتر، واسمها سانتا مارتا. ولم تتغير سحنة رجال الشرطة القراصنة، ولم يتغير موقفهم منا.

بالأمس كاد أحدهم يطلق النار علي لأنني أخذت صابونتي عن المغسلة. لا زلنا في هذه الغرفة الفاسدة بما فيها من البعوض، ولكنها أنظف مما كانت عليه حين قدمنا لأن ماتوريت والبروتوني كانا يغسلانها كل يوم.

بدأ اليأس يتسرب، إلى نفسي وكدت أفقد الثقة بنفسي، هذا العرق الكولومبي، وهو المهجين من الهندي والزنجي، أو الخلاسي من الهنود والاسبان، الذين كانوا في غابر الأزمان أسياد هذا البلد، قد خيب ظني.

أعارني أحد السجناء الكولومبيين جريدة قديمة صادرة في سانتا مارتا، فرأيت على الصفحة الأولى صورنا نحن الستة وتحتها صورة ضابط الشرطة يقبضه الواسعة المصنوعة من القش، وبين شفثيه سيجار، ثم صورة تضم عشرة رجال من الشرطة مسلحين، ففهمت أن أسرنا قد غدا رواية وقد ضخم الدور الذي لعبه هؤلاء، وكان كولومبيا بأسرها قد نجت من

خطر محقق بتوقيفنا، ومع ذلك فإن صور المجرمين أقرب إلى القلب وأملأ للعين من صور رجال الشرطة، فعلى الأقل كان للمجرمين ملامح رجال أشرف أكثر مما كان لرجال الشرطة. فهؤلاء مع الأسف يكفي أن تنظر إلى قائدهم حتى تفهم.

بدأت أتعلم بضع كلمات إسبانية: الهروب = فوغارس، السجن = بريزو، قتل = ماتار، السلسلة = كادونا، القيد = اسبوزا، الرجل = أومبره، المرأة = موجير.

الهروب من ريوهاشا

في ساحة السجن شخص، لا يفارق الحديد يديه، وقد اتخذته صديقاً. كنا ندخن السيجار نفسه. سيجار طويل دقيق وثقيل. المهم أن ندخن. فهمت منه أنه مهرب بين فنزويلا وجزيرة عرابية. وهو متهم بقتل خضر السواحل، ويتنظر محاكمته. كان في بعض الأيام يبدو هادئاً، بصورة غريبة، على حين كان الآخرون عصبيين ومهتاجين. وتوصلت إلى الملاحظة التالية: إنه هادئ عندما يزوره أحدهم ويمضغ أوراقاً يؤتاها. وفي أحد الأيام قدم لي واحدة، ففهمت على الفور، لأن لساني وقبة حلقي وشفتي فقدت الإحساس. فالأوراق أوراق الكوكا.

يبلغ هذا الرجل الخامسة والثلاثين من العمر. له ذراعان أشعران، وشعر صدره غزير أسود فاحم أجعد، حافي القدمين وتعلوها قشرة سمكة، وكثيراً ما كان ينزع منها قطعاً بزجاجة أو بمسمار يغرزها فيها ولا يصل إلى اللحم، وهو مشهور بقوته.

قلت للمهرب ذات مساء «فوكا انت وأنا» وكنت قبلاً طلبت من الرجل الهايتي لدى زيارته لنا أن يحضر معجاً فرنسياً-إسبانياً، وفهم الرجل وأشار إلي بأنه هو أيضاً يتمنى الهروب، ولكن الأغلال تمنعه من الحركة، إنها أغلال أمريكية ذات فُرْضة لها شق من أجل المفتاح الذي هو بالتأكيد مفتاح مسطح. صنع البروتوني خطأً صغيراً من سلك معدني مفلطح الطرف. وبعد عدة محاولات توصلت إلى فتح قيد صديقي الجديد حين أشاء. إنه في الليل وحده في سجن مظلم، قضبان غليظة، أما القضبان عندنا فهي دقيقة، ويمكن أن نفرجها ونباعد ما بينها. ولا يبقى سوى قضيب واحد للنشر عند انطونيو - الكولومبي يدعى انطونيو - فكيف الوصول إلى منشار صغير.

— بلاتا (مال)

— كوانتو (كم؟)

— سانت بيزو

— بالدولارات.

— عشرة

— وباختصار بعشرة دولارات أعطيتها له كان في حوزته منشاران للمعدن. وقد شرحت له بطريقة الرسم على أرض الساحة، أنه في كل مرة ينشر فيها قليلاً، يجب أن يمزج الإشارة بشيء من عجينة الرز التي تقدم لنا، ويسد بها الشق جيداً. وفي اللحظة الأخيرة وقبل الدخول فتحت له قيداً واحداً. وإذا ما أرادوا التثبت منها فإنه يضغط عليها قليلاً فتتغلّق تلقائياً. أمضى ثلاثة أيام في نشر القضيب، وأعلمني أنه في أقل من دقيقة ينهي قطعه، وأنه يستطيع أن يطويه بيديه، وسوف يأتي للقاتي. وأفهمني بأن السماء غالباً ماتمطر. — برعميرا نوشه دي الوفا (في أول ليلة تخطر فيها السماء) سأتي.

في تلك الليلة نزل المطر مدراراً، وكان أصحابي على علم بما أخطط، فلم يتبعني أحد منهم، وهم يظنون أن المنطقة التي سوف أذهب إليها بعيدة جداً.

أريد الذهاب إلى رأس شبه الجزيرة الكولومبية، على الحدود الفنزويلية، وقد كتب على الخارطة التي معنا بأن هذه الأرض تدعى كاجيرا. وهذه الأرض المتنازع عليها لا هي فنزويلية ولا كولومبية.

قال الكولومبي: ايزو اس لاتيرا دولوس انديوس «أي هذه الأرض للهنود» وليس فيها شرطة تابعة لفنزويلا أو كولومبيا. وبعض المهرين يمرون من هناك، والامر لا يخلو من خطورة لأن الهنود لا يسمحون بدخول رجل متمدن إلى أراضيهم. وكلما توغلنا في الأرض كانوا أشد خطراً.

على الشاطئ صيادون هنود الذين هم بوساطة هنود آخرين أكثر تحضراً يتاجرون مع قرية كاستيليت، وقرية أخرى.

انطونيو لا يرغب في الذهاب إلى هناك، لأنه هو وبعض أصحابه اشتبكوا في معركة مع الهنود، وقتلوا عدداً منهم إذ اضطروا إلى اللجوء إلى ساحل أرضهم على مركبهم المحمل بالبضائع المهربة.

تعهد انطونيو بمرافقتي إلى نقطة قريبة جداً من كاجيرا، على أن أتابع السير وحدي، وإنه لمن نافلة القول بأنه كد كثيراً ليفهمني لأنه كان يستعمل ألفاظاً غير موجودة في المعجم.

في تلك الليلة كان المطر غزيراً كالسيل وكنت قرب النافذة، وعندي خشبة سأجعلها نقطة ارتكاز لإبعاد القضبان بعضها عن بعض، وتجربة قمنا بها منذ ليلتين وجدنا أنها تتباعد في سهولة.

— ليستو «أي مستعد»

ظهر وجه أنطونيو ملتصقاً بالقضبان، فهصرها وقد عاونه في ذلك ماتوريت والبروتوني فلم تتباعد فقط بل اجتثت من جذورها، فدفعوني بعد أن رفعوني ثم شعرت بضربات على مؤخرتي قبل أن أختفي. فأنا الآن في الساحة، وكان المطر المنهمر كالسيل يحدث ضجيجاً جهنمياً في سقوطه على السطوح المصنوعة من الحديد المصفح.

أخذ أنطونيو بيدي وجرتي نحو الجدار، وكانت الوثبة لعبة لأن الجدار لا يرتفع أكثر من مترين، ومع ذلك جرحت يدي بإحدى قطع الزجاج الملصقة في أعلى الجدار. لا بأس هيا إلى الطريق.

هذا المقدس أنطونيو تعرف على الطريق وسط هذه الأمطار التي تحول دون الرؤية إلى أبعد من ثلاثة أمتار، واستغل ذلك ليجتاز القرية بأكملها بعزم ثابت. ثم سلكنا طريقاً بين الغابة والساحل، وبعد فترة ضاء جنح الليل قليلاً، ودنا وقمنا بجولة في الغابة وكانت لحسن الحظ قليلة الكثافة، ثم عدنا إلى الدرب. وبقينا جادين في السير تحت وابل الأمطار حتى انشق عمود الصباح. وكان أعطاني عند رحيلنا ورقة من أوراق الكوكا فعضفتها على نحو ما كان يفعل في السجن. طلع الصباح وأنا لا أحس تعباً. هل كان هذابثاير الورقة؟ بكل تأكيد. ورغم طلوع النهار فقد ثابرتنا على المشي، ومن حين لآخر كان ينطح و يضع أذنه على الأرض الجارية بالمياه ثم تستأنف السير.

له طريقة عجيبة في المشي، فهو لا يمشي ولا يجري. إنه نوع من القفز الخفيف المتتابع المتوازن، ويؤرجح ذراعيه، وكأنه يجذف الهواء، ويظهر أنه سمع شيئاً فجرتني إلى داخل الغابة، والمطر لا يزال يهطل. وبالفعل قد مرت أمامنا مدحاة حجرية يسحبها جرار تستعمل حتماً لبسط الطريق.

الساعة الآن العاشرة صباحاً، والسماء أقلعت والأرض ابتلعت ماءها، والشمس مشرقة. دخلنا الغابة، بعد أن سرنا مسافة كيلو متر على العشب لا على الدرب.

استلحقنا تحت نبتة كثيفة جداً محاطة بنبات متشابك كثير الشوك. وظننت أننا أصبحنا في أمان ومع ذلك فإن أنطونيو لم يسمح لي بالتدخين ولا بالتكلم، بصوت منخفض. أنطونيو لم يكف عن ابتلاع عصارة الورق، ففعلت مثله ولكن باعتدال. أراني في جيبه أكثر من عشرين ورقة. عندما يبتسم في الظلال يكشف عن أسنان لامعة جميلة. ما أكثر البلهوض هنا، مضغ سيجاراً ثم لوث وجهه وكفيه بلعابه المليء بالنيكوتين.

الساعة السابعة مساءً، وقد أضاء القمر الطريق. وضع إصبعه عند الرقم ٩ وقال: ايلوفيا (مطر) ففهمت ان المطر سيهطل في الساعة التاسعة. وبالفعل أمطرت السماء في الساعة التاسعة والدقيقة العشرين. عاودنا المسير، وتعلمت منه القفز أثناء السير والتجديف

بالذراعين لأبقى على مستواه. سرنا سيراً حثيثاً ومع ذلك لم نركض ولم يكن ذلك صعباً. دخلنا في الغابة ثلاث مرات بسبب مرور سيارة ثم شاحنة ثم عربة يجرها حماران. وبفضل هذه الأوراق لم أشعر بالتعب، وطلع الفجر، وتوقف سقوط الأمطار في الساعة الثامنة، وعندئذ عدنا إلى المشي على العشب بتؤدة لمسافة كيلو متر، ثم التجأنا إلى الغابة نختم فيها. والمزعج في هذه الأوراق، أننا لا نستطيع نوماً، فلم يغمض لنا جفن منذ ارتحلنا. اتسعت حدقتا انطونيو حتى لم يبق لهما بؤبؤ. ولا بد أن عيني صارتا كعينيته.

الساعة التاسعة ليلاً والمطر ينهمر وكأنه ينتظر هذا الوقت انتظاراً. وعلمت فيما بعد أنه في خط الاستواء عندما تهطل الأمطار في الربع الأول من القمر في ساعة محددة، فإن هذا يتكرر كل يوم، وكذلك يتوقف في ساعة معينة. سمعنا هذه الليلة فسي بداية الشوط، صيحات، ثم رأينا أنواراً. قال انطونيو: هذه كاستيت ويدون تردد أخذ هذا الشيطان بيدي ودخلنا الغابة. وبعد ساعتين من السير الشاق ألقينا أنفسنا على الطريق، غمسي ونقفز بقية الليل وجزءاً كبيراً من النهار، وقد جففت الشمس ثيابنا.

ثلاثة أيام انقضت ونحن مبتلون، ثلاثة أيام لم نأكل خلالها سوى قطعة من السكر غير النقي. هذا هو اليوم الأول الذي يبدو فيه انطونيو واثقاً من أننا لن نقابل أشراراً. فهو يمشي في اطمئنان، ولم يعد يضع أذنه على الأرض. منذ ساعات ونحن غمسي فوق رمل ندي تنكبنا الطريق، ثم توقف أنطونيو ليتفحص أثراً على الرمل، عرضه خمسون سنتماً يمتد من البحر حتى الرمل الجاف. فتبعنا الأثر، ووصلنا إلى مكان ازداد الأثر فيه عرضاً وبشكل دائري. غرز انطونيو عصاه، وعندما سحبها وجد عليها سائلاً أصفر يشبه مع البيض. ساعدته في حفر حفرة بأيدينا، وبعد لأي، ظهر عدد من البيض يتراوح بين ثلاث مئة وأربع مئة. لا أستطيع تحديده. إنها بيوض سلاحف بحرية وليس لها قشور بل غشاء فقط. أخذنا منها ملء القميص، وربما حمل أنطونيو ما يقارب المئة. خرجنا من الشاطئ واخترقنا الطريق لدخول الغابة، وفي منأى عن أعين الرقباء جلسنا نأكل. وأشار انطونيو أن لا أكل سوى الأصفر. كان يشق الجلد الذي يغلف البيضة بأسنانه ويترك السائل الأبيض يسيل ثم يرشف المحة. واحدة لي واحدة له. تمددنا بعد أن شبعنا غاية الشبع، وقد اتخذنا من معطفنا وسادة. قال انطونيو:

— غدأتابع السير وحده مدة يومين ولن يصادفك بعد الآن شرطي.

كان عهدنا بآخر محطة للحدود الساعة العاشرة مساء، عرفناها بنباح الكلاب ويمزول مضاع تجنبتنا هذا المركز بطريقة أشبه بالسحر اتبعها انطونيو.

سرنا طيلة الليل دون حيلة أو حذر. ولم يكن الطريق عريضاً فهو إلى الممر أقرب، وهو خال من الأعشاب، ومع ذلك فهو مطروق، لا يزيد عرضه على خمسين سنتماً. ويمتد محاذياً للغابة ويشرف على الشاطئ، على ارتفاع مترين تقريباً. وكنا نرى في بعض

الأماكن آثار حدوات الخيول والحمير. جلس أنطونيو تحت فرع شجرة كبير، وأشار إلى بالجلوس، وكانت أشعة الشمس حادة، فنظرت إلى ساعتي فكانت الحادية عشرة، ولكن الشمس تشير إلى الثانية عشرة. وضبطت ساعتي على ذلك. أفرغ أنطونيو كيس أوراق الكوكا فوجد منها سبعمائة وأربعين، واحتفظ لنفسه بثلاث. انسحبت قليلاً داخل الغابة، ثم رجعت ويدي مئة وخمسون دولاراً من عملة ترينيداد، وستون فلورين، فقدمت له المبلغ. فنظر إلي مذهوئاً، ولمس الأوراق، ولم يدرك كيف كانت على هذه الحال من الجفاف والجدّة، وهو لم يرني أجففها بعد كل الذي أصابنا من المطر، فشكر لي. فكر ملياً وهو يتأمل المال الذي بين يديه، ثم أخذ ست أوراق من فئة خمس فلورينيات، ورد لي الباقي ورفض المال رغم إلحاحي. وفي هذه الأثناء تغير في نفسه شيء. كنا اتفقنا على أن لا نفرق هنا، ويبدو الآن وكأنه يريد مصاحبتي يوماً آخر، فدار نصف دورة ليفهمني ذلك.

حسناً. ازدردنا بعض مع البيض وأشعلنا سيجاراً، بعد نصف ساعة من الجهد ونحن نقدح حجرين لإحداث شرارة تلهب هشيئاً.

انطلقنا وسرنا ثلاث ساعات حين لاقينا رجلاً على جواد مقيلاً نحونا على استقامة واحدة. كانت على رأسه قبعة من القش وساعة، ويتعلل حذاءً عالياً قليلاً، ولا يلبس بنطالاً بل نوعاً من السراويل الجلدية، ويرتدي قميصاً أخضر وسترة أقل خضرة تشبه ملابس العسكر، وهو مسلح ببندقية قصيرة خفيفة وجيلة جداً، ومسدس كبير في الحزام.

— كارامبا، أنطونيو، هيجو ميو، (يا ولدي)

ومن بعيد جداً عرف أنطونيو الفارس، ولم يقل لي شيئاً، ولكنه كان يعرف القادم فقد كان واضحاً. ترجل عن جواده. هذا الشهم النحاسي اللون ذو الأربعين عاماً، وتبادل معه ضربات على الأكتاف بدلاً من طريقة العناق. وقد رأيت هذه الطريقة متبعة في كل مكان.

— من هذا؟

— كومبانيرو دوفوغا (رفيقي في الهروب) إنه فرنسي.

— إلى أين تقصد؟

— إلى أقرب مكان من الصيادين الهنود

— يريد المرور من الأرض الهندية للدخول في فنزويلا، وهناك يبحث عن وسيلة للعودة إلى عرابة أو كوراساو.

— كاجيرا الهندية سيئة ولست مسلحاً. خذ.

وأعطاني خنجرأ في غمده الجلدي وقبضته مصنوعة من قرن مصقول.

جلسنا على طرف الممر. نظرت فرأيت حذائي ممزقاً والدم يجري من قدمي. وتحدث

أنطونيو والفارسي حديثاً مستعجلاً ووجدنا أن خطتي باجتياز كاجيرا لا ترضيهما.

أشار إلى أنطونيو بامتطاء صهوة الجواد وحذائي مربوط على كتفي. بقيت حافياً ريثما تحف جروحي. فهمت هذا كله بالإشارة. ركب الفارس جواده وأعطاني أنطونيو يده، ودون أن أفهم شيئاً إذا بالجواد يعدو بي وأنا خلف صديق أنطونيو وساقاي مفرشتان. خب بنا الجواد خباً الليل كله والنهار كله. وكنا نتوقف بين الفينة والفينة فيقدم لي زجاجة من الأنيسون فأرشف منها قليلاً.

وعندما طلع النهار توقف فأعطاني جيناً قاسياً وكمكتين وستاً من أوراق الكوكا، وأهداني كيساً من نوع خاص لا ينفذ إليه الماء، لأضع فيه هذه الأشياء. فملقته في نطاقي، وأخيراً هصرني بين ذراعيه، وربت على كتفي كما فعل مع أنطونيو ثم جرى يسابق الريح.

الهنود

ثابت على المشي حتى الساعة الواحدة من بعد الظهر، فما لاحظت لي في الأفق غابة ولا شجر. كان البحر يتموج بلألاء فضي تحت أشعة شمس لاهية. مشيت حافياً، ولا زال حذائي على كتفي الأيسر منذ أن كنت على ظهر الحصان. وفي اللحظة التي عزمت فيها على النوم، لاحظت لي عن بعد خمس أو ست شجرات أو صخور فحاولت تقدير المسافة: ربما كانت عشرة كيلومترات. تناولت نصف ورقة كبيرة وصرت أمضغها أثناء سيرتي بخطوات واسعة. وبعد ساعة ميزت هذه الأشياء فكانت أكوخاً سقفها من القش أو من أوراق النبات بلون كستنائي. ومن إحداها يتصاعد دخان. ثم رأيت أناساً وراؤني، وسمعت أصواتاً ورأيت إشارات تقوم بها جماعة باتجاه البحر، وحينئذ رأيت أربعة مراكب تقترب من الشاطئ في سرعة، ونزل منها عشرة رجال تقريباً. تجمع الناس أمام الأكواخ وأخذوا ينظرون نحوي فرأيت رجالاً ونساء عراة إلا من أشياء تتدلى من أمام وتستر عورتهم. خطوط نحوهم ببطء ثلاثة منهم كانوا يحملون الأمواس وعسكون بالسهم بأيديهم.

لا إشارة ولا ترحيب ولا صداقة بل وسرعان ما انقض علي كلب كان ينبع كالمسعور، وعضني في أسفل الرولة^(١) من ساقاي وانتزع قطعة من بنطالي، ثم أعاد الكرة

(١) بطة الساق

وهجم علي فأصابه سهم صغير في مؤخرته، ولم أدر مصدره، فولى هارباً وهو يهر، ثم دخل أحد البيوت.

اقتربت وأنا اعرج إذ لم يكن مازحاً في عفته، وأصبحت على بعد عشرة أمتار من الجماعة. لم يتحرك أحد، ولم يتكلم أحد. والأطفال خلف أمهاتهم، أجسامهم عارية نحاسية اللون مفتولة العضلات بديعة. وللنساء أنداء ناهدة وجامدة كبيرة الحلمات، ورأيت واحدة فقط ذات ثدين كبيرين ومتهدلين. كان أحدهم نبيلاً جداً في هيئته. وتقاطيعه الدقيقة تنم عن عراقاة أصله، ونبيل محته لا هراء في ذلك. اتجهت نحوه مباشرة ولم يكن معه قوس ولا سهم. طوله بقدر طولي، شعره مقصوص بطول شعر حاجبه أذناه يغطيهما شعر أسود آتٍ من الخلف حتى أعلى شحمة الأذنين. عيناه رماديتان بلون الحديد. ليس في صدره شعر، ولا في ذراعيه ولا ساقيه، فخذاه النحاسيتان مفتولتا العضلات، وساقاه متناسقتان ودقيقتان، وقدماه عاريتان. توقفت على بعد ثلاثة أمتار منه، وتقدم مني خطوتين ونظر في عيني، ودام هذا الفحص دقيقتين. وجهه الخالي من التجاعيد لم يتحرك، فكانه تمثال نحاسي بعينين براقيتين، حازمتين ثم ابتسم ولسـ كتنفي، وتبعه في ذلك الآخرون، فأخذوا يلمسونني بأيديهم. ثم أخذتني فتاة هندية من يدي وأدخلتني إلى ظل كوخ، وهناك كشفت بنطالي عن ساقتي، والجميع من حولها قاعدون. مد لي أحدهم سيجاراً مشتعلاً فتناولته وبدأت بالتدخين. وهم أيضاً يدخنون نساء ورجالاً. مكان العضة لم يرقأ جراحه، وقد اقتطع من لحمي قطعة، بحجم مئة الفلس. نزع الفتاة الشعر وغسلت الجرح بماء البحر الذي كانت تأتي به فتاة هندية أخرى، وكانت تضغط عليه لتوقف النزف ولم تكتف بذلك بل راحت تحك الفجوات التي وسعتها بقطعة من الحديد مسنونة، وكنت أبذل جهداً لكي أثبت ولا أتحرك، لأن عيون القوم ترمقني، وجاءت فتاة أخرى لتساعدني فكانت تزاحمني بعنف، وإزاء هذه الحركة أغرق الجميع في الضحك، أدركت أنها تريد أن تفهم الأخرى بأنني لها وحدها، وهذا ما سبب لها الضحك. ثم قصت ساقني البنتال إلى ما فوق الركبتين، وهيات على حجر أشنة بحرية أحضرت لها ووضعتها على الجرح، وضمدته بعصابة شقتها من بنطالي. وقد سرت بعملها هذا فأشارت إلى أن أنهض فنهضت، وتركت سرتي. ومن فتحة القميص شاهدت وشم فراشة كان في أسفل عنقي. نظرت ثم كشفت عن وشم آخر، ثم نزع يديها قميصي واهتم الجميع نساء ورجالاً بما في صدري من الوشم، إذ كان على اليمين وشم سجين من كالفي. وعلى اليسار رأس امرأة، وعلى المعدة رأس ثمر، وعلى العمود الفقري وشم بحار مصلوب. وعلى عرض الظهر مما يلي الكليتين وشم صيد النمر، مع الصيادين وأشجار النخيل، والأفيال، والنمر. ولما رأى الرجال هذا الوشم أبعثوا النساء وأخذوا يتلمسون الوشم بدقة وأناة. وكل واحد يتأمل وشمًا، وصاروا يبدون آراءهم بعد أن أبدى الرئيس رأيه.

ومنذ هذه اللحظة تبتني العشيرة، وتبتني النساء منذ اللحظة التي ابتسم فيها

الرئيس وليس كتفي. دخلنا أكبر الأكواخ. وكنت في غاية العجب. الكوخ مستدير، ومبني من الطين الأحمر القرميدي، وله ثمانية أبواب، وفي الداخل تحمل الألواح الخشبية أسرة أرجوحة موشحة بألوان زاهية ومصنوعة من الصوف الصافي، وفي الوسط حجرة ملساء مستديرة وحولها حجارة مسطحة للجلوس عليها. وعلى الجدران علقت بندقيات ذات فوهتين، وسيف حربي، وقسي من مختلف المقاييس، ولفت نظري غلاف سلحفاة ضخمة يستطيع رجل أن ينام فيه. ومدفأة من الحجارة المصقوفة بعضها فوق بعض في أبداع ترتيب، وقد بدت متجانسة لا أثر فيها للأسمنت. وعلى المنضدة نصف قرعة في قاعها مقدار حفتين أو ثلاث من اللؤلؤ. سقوني في إناء من خشب شراباً مصنوعاً من الفاكهة المخمرة، فهو لاذع حلو وطيب جداً. ثم أحضروا لي على ورقة موز، سمكة مشوية على الجمر وتزن كيلو غرامين. دعيت إلى الطعام، فأكلت بتمهل. وعندما انتهت من هذه السمكة اللذيذة قامت المرأة تأخذني من يدي إلى الشاطئ لأغسل يدي وفي بماء البحر ثم عدنا. وبينما كنا جالسين على شكل دائري كانت الفتاة الهندية تضع يدها على فخذي، وكنا نحاول تبادل المعلومات عن أنفسنا بالإيماء والكلام.

نهض الرئيس فجأة ودخل إلى آخر الكوخ وعاد ويده قطعة من الحجر الأبيض وبدأ يرسم على المنضدة: رسم أولاً هنوداً عراة وبيوتاً وبحراً، وعلى يمين القرية الهندية رسم بيوتاً ذات نوافذ ورجالاً ونساء بالملابس. الرجال يحملون بندقية أو عصا، ورسم على يسار القرية قرية أخرى رجالها يحملون البنادق، ويضعون على رؤوسهم القبعات وجوههم قذرة ونساؤهم مستترات. ولما أمنت النظر لاحظت أنه نسي شيئاً وهو الطريق من قريتهم إلى تلك القرية، ولشرح وضع هاتين القريتين بالنسبة إلى قريته، رسم من جهة فنزويلا على اليمين شمساً مائلة بدائرة، وخطوطاً تصدر عن محيطها، ومن جهة القرية الكولومبية رسم شمساً يقطعها الأفق بخط متعرج. فلا مجال للخطأ: فالشمس تشرق من جهة وتغرب من جهة أخرى. نظر الرئيس الشاب إلى عمله بفخر، وأقبل الحاضرون كل بمفرده ينظر إلى الرسم. ولما آنس مني أنني فهمت الذي أراده كله، أخذ قطعة الطباشير وغطى القريتين بخطوط واستثنى قريته. ففهمت بأنه يريد القول بأن أهل القريتين أشرار، ولا يريد أن تكون له بهما صلة، وأهل قريته وحدهم طيبون. ولن يقول هذا الكلام!!

مسح المنضدة بقطعة صوفية مبللة، وحين جفت وضع بيدي قطعة الحكك، فقد جاء دوري بالحديث عن نفسي بطريقة الرسم.

قصتي أعقد مما رسم. رسمت رجلاً مكبلاً، بين رجلين مسلحين ينظران إليه ثم رسمت الرجل نفسه وهو هارب والمسلحان يلاحقانه والبندقية مسددة نحوه، وكررت هذا الرسم ثلاث مرات، وفي كل مرة تبعد المسافة بينه وبينهما، وأخيراً توقف الرجلان، وأنا أتابع الركض نحو قريتهم التي رسمها، مع الهنود والكلب، يتقدمهم رئيسهم وقد بسط لي ذراعيه، ولم يكن ما رسمت على درجتي من الضعف، إذ بعد حوار جرى بين الرجال فتح

الرئيس لي ذراعيه كما في الرسم. إذن فهموا كل شيء. في الليلة ذاتها اقتادته الهندية إلى كوخها حيث يعيش معها ست هنديات وستة هنود. وأقامت سريراً كالأرجوحة، مصنوعاً من الصوف المبرقش، وهو عريض يتسع لاثنتين. استلقيت عليه باتجاه الطول. أما هي فقد استلقت على سرير آخر ولكن باتجاه معاكس، ففعلت مثلها، ثم جاءت تضطجع إلى جانبي، فلامست جسدي وأذني وعيني وشفتي بأصابعها الطويلة الدقيقة ولكنها خشنة ملأى بالجروح الملتئمة، أصابع صغيرة غير أنها ذات أثلام وذلك من جراء الاحتكاك بالمرجان أثناء الغوص على اللؤلؤ. وعندما أخذت يدي أدعستها طراوتها ورقتها وخلوها من الخشونة وبعد ساعة أمضيتها في السرير. نهضنا وتوجهنا إلى كوخ الرئيس، فعرضت علي البندقيات لأتفحصها، وهي من عيار اثني عشر وستة عشر، من صنع سانت إيتين، ومعها ست علب من العيارات النارية.

كانت هذه الهندية متوسطة الطول، ولها عينان رماديتان بلون الحديد كعيني الرئيس، وجانب وجهها صاف جداً، وشعرها مجدول طويل يصل إلى وركها، ونهادها رائعا التكوين عاليان على شكل إحصاة، ونهايتها أشد سواداً من جلدها النحاسي. ولم تكن تعرف التقييل بل تعض عضاً خفيفاً متكرراً فعلمتها التقييل المتحضر.

إذا سرنا معاً كانت ترفض المشي إلى جانبي بل تمشي خلفي ولا حيلة في هذا. أحد هذه الأكواخ كان خالياً في حالة سيئة. وبمساعدة نساء أخر ربت سقفه بأوراق النارجيل (جوز الهند)، وصلحت الجدار بعجينة ترابية حمراء.

عند الهنود أنواع من الحديد القاطع: سكاكين، خناجر، سيوف، فؤوس، معازق، مذارى، ومصنوعات متفرقة من النحاس والالمنيوم، ومرشات ماء، وأفران، وبراميل حديدية وخشبية وأسرة أرجوحية من الصوف متسعة جداً، ومزخرفة ومضفورة الحواشي، وذات رسوم ملونة من الأحمر القاني إلى الأزرق الفيروزي، إلى الأصفر الكناري، إلى الأسود.

سوف يتم تجهيز المنزل قريباً، وشرعت الفتاة تحضر أشياء قدمها لها الهنود (حتى جل الحمام) قلموا حجراً منصوباً فوق ثلاثي الأرجل لإيقاد النار، وسريراً أرجوحياً يتسع لأربعة، وأكواباً... وقدوراً... الخ.

كنا نتبادل المداعبات منذ خمسة عشر يوماً أي منذ وصولي، ولكنها كانت تقاوم بعنف، التماذي حتى النهاية، ولا أدري ما السبب؟ لأنها هي التي تثيرني وفي اللحظة السعيدة ترفض. وبدون أي نوع من المراسم ظللنا تحت سقف هذا الكوخ.

كان لمنزلنا الحديد ثلاثة أبواب أحدها في مركز الدائرة، والبابان الأخران متقابلان. وهذه الأبواب الثلاثة على دائرة البيت المستدير تشكل مثلثاً متساوي الساقين، ولهذا الأبواب استعمالها.

أنا أستعمل في دخولي وخروجي الباب الشمالي، وهي عليها أن تدخل وتخرج من الباب الجنوبي فلا ينبغي أن أدخل من بابها، ولا ينبغي لها الدخول من بابي، والباب الكبير لا يدخله أحدنا إلا مصحوباً بأصدقاء أو زائرين. وعندما أؤننا إلى بيتنا صارت لي.

ولا أريد الدخول في التفاصيل فقد أصبحت لي حبيبة ملتزمة تلتف بي التفاف العريشة بالعود وبالحففة عن الجميع بغير استثناء، كنت أمشط شعرها وأجدله، وكانت تبدو على وجهها سعادة يعجز عنها الوصف. وفي الوقت نفسه كانت تخشى أن يفاجئنا أحد. لأنني فهمت أن الرجل لا يجوز له أن يمشط شعر زوجته ولا أن يملك يديها بحجر الخفان ولا أن يقبلها بصورة ما في فمها. سكنا أنا ولالي (وهذا اسمها) في بيت. والذي أثار عجبني هو أنها لم تكن تستعمل الأواني المصنوعة من الحديد أو الألمنيوم وما كانت تشرب في كأس، بل تؤثر الأواني الفخارية المطبوخة والتي صنعوها بأيديهم. المرش ينفع في الاستحمام. أما الاسترخاء فقد كان في البحر.

شهدت فتح الأصداف بحثاً عن اللؤلؤ، والنساء المتقدمات في السن يقمن بهذا العمل. ولكل امرأة تصطاد اللؤلؤ كيس، ويوزع المحصول على الشكل التالي: نصيب للرئيس، يمثل المشاركة، ونصيب للصيد، ونصف النصيب للتي تفتح الأصداف ونصيب ونصف للتي تغوص، وإذا كانت الغواصة تسكن مع أسرتها فإنها تعطي لآلئها لعمها. ولم أفهم أيضاً لماذا يدخل العم أول من يدخل إلى بيت الراغبات في الزواج، ويأخذ بيد الفتاة، ويطوف بها حول الشاب، ويضع ذراع الرجل الأيمن حول خصر المرأة، والسبابة من الأمام تدخل في السرة، وإذا ما أنجز هذا، انصرف.

إذن حضرت فتح الأصداف، ولكنني لم أشهد الصيد، إذ لم أدع إلى ركوب الزورق. إنهم يصيدون بعيداً عن الشاطئ مسافة خمس مئة متر تقريباً. وتعود لالي في بعض الأيام والحدوش تغطي ساقها أو جنبها بسبب المرجان، وقد يسيل دمها من هذه الحدوش وعندئذ تسحن أشنة بحرية وتدعكها على الجرح.

لم أكن أفعل شيئاً دون دعوة، بالإشارة، إلى فعله. وما كنت أدخل منزل الرئيس إذا لم يشدني أحدهم، أو هو نفسه، من يدي.

لالي يخامرها شك في أن ثلاثاً من أترابها، يستلقين على العشب، ويختلسن النظر أو يسترقن السمع، لما نفعل أو نقول، عندما نكون وحدنا في البيت.

رأيت بالأمس الرجل الهندي الذي يقوم بالاتصال بين القرية الهندية وأول نقطة حدود كولومبية، على بعد كيلو مترين من مركز الحدود، وتسمى هذه القرية لاقبلا، وكان لهذا حماران. ولا يعرف كلمة إسبانية واحدة فكيف إذن يجري التبادل؟

كتبته على ورقة، مستعيناً بالمعجم، الحاجات التالية: إبر خياطة، حبر صيني أزرق

وأحمر، خيطان، وذلك لأن الرئيس طلب مني مراراً أن أرسم له وشماً.

رجل الاتصال هذا، قصير ونحيل، في جذعه أثر لجرح رهيب يمتد من الأسفل إلى الكتف الأيمن وقد التأم هذا الجرح تاركاً ندبة ضخمة كالإصبع.

توضع اللآلئ في علبة سيجائر، والعلبة مقسمة أقساماً وتفرز اللآلئ فيها بحسب حجمها. عندما ذهب الهندي، رافقته بترخيص من الرئيس الذي أعارني بندقية ذات فوهتين، وست طلقات نارية، وذلك ليضمن رجوعي، لأنه يعلم بأنني لا أهرب ومعني أشياء ليست تخصني. لم يكن الحمامان محملين، فركبت على أحدهما وركب الرجل على الحمام الآخر. سرنا طيلة النهار على نفس الطريق التي سلكتها في قدومي، إلى مسافة تقصر عن مركز الحدود بمقدار ثلاثة أو أربعة كيلو مترات. أدار الهندي ظهره نحو البحر، ثم توغل داخل الأوص وفي حوالي الساعة الخامسة وصلنا إلى حافة جدول حيث توجد منازل للهنود، فأقبلوا جميعاً ليروني، وتكلم أحدهم كلاماً طويلاً إلى أن حضر شخص ذو ملامح هندية: الأنف والعينان والشعر، ما عدا اللون، فقد كان أبيض بياضاً كاملاً، وعيناه حراوان بلون الأبوس يرتدي بنطالاً من الكاكي. وهنا فهمت أن مرافقي الهندي لا يذهب إلى أبعد من هذا المكان.

قال لي الهندي الأبيض: هل أنت القاتل الذي هرب مع أنطونيو؟ إنه قريب برباط الدم الممتزج.

ولكي يربط رجلان بهذا الرباط، يربطان ذراعيهما متلاصقين، ثم يجري كل منهما مديته على ذراع الآخر ويغرسها قليلاً، ثم يضرع ذراع صاحبه بدمه هو ثم يلحق كل منهما دم الآخر.

— ماذا تريد؟

— أريد إبراً وحبراً صينياً أزرق وأحمر ولا شيء آخر.

— سيصلك هذا خلال الربع الأول من القمر.

إنه يتكلم الأسبانية خيراً مني، ويعرف كيف ينشئ علاقات مع المتحضرين، وكيف ينظم التبادل مدافعاً عن مصالح عشيرته في حماسة. وقدم لي قبل أن نفترق عقداً مصنوعاً من قطع الفضة الكولومبية، فضة ناصعة البياض، وقال: هذا من أجل لالي ثم أردف: عد لأراك. ولكي يتأكد من عودتي أعطاني قوساً.

رجعت وحدي. وفي منتصف الطريق، التقيت بلالي وفي صحبتها إحدى أخواتها وهي صغيرة لا يزيد عمرها على ثلاثة عشر عاماً، أما لالي فتبلغ من العمر سبعة عشر عاماً. وما أن أدركتني حتى انقضت على كالمجنونة، وأخذت تحددش صدري بأظافرها، فحجبت وجهي عنها، ثم أشبعني نهشاً وعضاً في عنقي، وقد بذلت جهداً في الإمساك بها مستخدماً كل ما أملك من قوة. ثم سكنت فجأة. أركبت الصغيرة على الحمام، ومشيت

أنا ولالي خلفها متشابكين رأيت في الجو في عتمة الليل عيني براقين فاطلقت النار عليها دون أن أعرف أي شيء هما فسقطت شوحة.. وحرصت لالي على أخذها فعلقته بسرج الحمار.

وصلنا القرية سحراً، وكنت مرهقاً، وأردت أن استحم فقلت لالي غسلي، ثم اغتسلت هي وأختها، وعندما دخلتا جلستا بانتظار غليان الماء لصنع شراب من الليمون والسكر وبعد أن نامت الصغيرة شرحت لي الكبرى بأنها ظنت أنني أسعى للحصول على معلومات لكي أرحل عن القرية وظنت أيضاً بأنني غير سعيد معها، وربما نجحت أختها في اجتذابي.

استيقظت وأصابع لالي تداعب أجفاني. وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، والصغيرة غائبة. ونظرت لالي إلي في حنان وحب بعينيها الواسعتين، وكانت سعيدة لأنها عرفت حبي لها، وأني لم أذهب راغباً عنها.

جلس أمام الباب، الهندي الذي اعتاد أن يقود زورق لالي. فهمت أنه بانتظارها، فابتسم لي وأغمض عيني بإيماءة مضحكة جميلة وكأنه يقول: أعلم أنها نائمة. جلست إلى جانبه، وتحدثت عن أشياء لم أفهمها. إنه شاب ضليع، عريض المنكبين، عبل العضلات وكأنه أحد قدامى المصارعين. صار يتأمل وشمي بإمعان ويتفحصه، ثم أشار إلي بأنه يرغب في الوشم فأومأت إليه برأسي أن نعم، وربما فهم مني أنني لا أعرف.

وصلت لالي، وجسمها مطلي بالزيت، وهي تعلم أنني لا أحب هذا، وأفهمتي أن الماء في هذا الطقس الغائم بارد. هذه الحركات المضحكة حيث تخلط الجذ بالهزل، كانت جميلة، وقد طلبت منها أن تكرر مراراً متظاهراً بأنني لم أفهم. ولما أشارت إليها أن تعيد مطت شفتيها عابسة، وتقصد بذلك في وضوح: أأنت غبي، أم أنا عاجزة عن التعبير عن سبب وضع الزيت؟

مر بنا الرئيس تصحبه هنديتان تحملان ضباً أخضر ضخماً قد تبلغ زنته خمسة كيلو غرامات. وهو يحمل قوساً وسهاماً، وكان قد اصطاده بسهم، ودعاني إلى الطعام بعد قليل.

كانت لالي تتكلم وهو يلامس كتفي ويشير إلى البحر، وكأنه يقول لي: باستطاعتك أن تذهب مع لالي إن شئت.

ذهبنا معاً نحن الثلاثة: لالي، ورفيقها في الصيد، وأنا. كان المركب صغيراً خفيفاً مصنوعاً من الخشب وقد وضع في الماء بسهولة، إذ ساروا في الماء حاملين الزورق على الأكتاف، وتوغلوا في البحر. والإبحار عملية غريبة. أولاً يصعد الهندي من الخلف ويده مجداف كبير، ولالي تمسك بالزورق والماء يغمرها إلى صدرها، فتحفظ توازنه وتمنعه من العودة إلى الشط ركبت وجلست في الوسط. وفي اللحظة التي قفزت فيها لالي إلى سطح

الزورق كانت ضربة مجداف الهندي تدفعنا نحو البحر. وكانت الأمواج تأخذ شكلاً أسطوانياً وتزداد ارتفاعاً كلما تقدمنا في البحر. وعلى بعد خمس أو ست مئة متر من الشاطئ، عمر ضيق وعميق، تتواجد عنده سفيتان للصيد. ربطت لالي ضفائرها برأسها بوساطة خمس شرائط جلدية حمراء، ثلاثة على خط عرض الرأس واثنان على خط طوله. وكان بيدها سكين قوية. لحقت لالي قضيباً حديدياً يزن خمسة عشر كيلو غراماً كان يستخدم كمرساة، أنزله الرجل إلى العمق. بقي المركب راسياً ولكنه غير هادئ فهو يعلو ويهبط مع كل موجة. كانت لالي تنزل إلى العمق ثم تصعد خلال ثلاث ساعات، والعمق غير مرئي ولكن يمكن تقديره بالوقت الذي يستغرقه نزول لالي فهو على بعد خمسة عشر متراً أو ثمانية عشر. وفي كل مرة كانت تخرج محارات في الكيس، والهندي يفرغه في الزورق. وتتعلق لالي بحافة الزورق مدة خمس أو عشر دقائق لتستريح.

غيرنا المكان مرتين، وفي المرة الثانية كانت الحصىلة أكثر والمحارات أكبر. عدنا إلى اليابسة والموجة تدفعنا نحو الشاطئ، وكانت العجوز بانتظارنا، تركنا لها نقل المحار إلى الرمل، ويساعدها الهندي في ذلك، وبعد الانتهاء منعت لالي العجوز من فتحها، وهي التي بدأت بهذا بطرف سكينها. فتحت ثلاثين محارة في سرعة قبل أن تجد لأولوة واحدة. وغني عن القول إنني التهمت منها ما لا يقل عن أربع وعشرين محارة. ولا بد أن الماء في قاع البحر بارد لأن لحمها بارد.

استخرجت لالي يهدوء لأولوة بحجم حبة الحمص المشوي (القضامة). ما أشد لمعانها، وهبتها الطبيعة هذا التدرج في التغير، لتكون ملء العين. تناولت لالي اللؤلؤة بين أصبعها فوضعتها في فمها، احتفظت بها برهة ثم أخرجتها لتضعها في فمي. وفهمت بسلسلة من حركات فكها أنها تريد مني أن أهرسها بين أضراسي ثم ابتلعها، ولم أستطع معصيتها أمام توسلاتها العذبة فسحقت اللؤلؤة بين أسنانني وابتلعت حطامها. ثم فتحت أربعاً أو خمساً وأعطيتها لأزدردها، طامعة في أن تنزل اللؤلؤ في أحشائي جيداً. أرقدتني على الأرض كطفلة وفتحت فمي لتأكد من أنه لم يبق شيء بين أسناني. وأخيراً ذهبنا تاركين الآخرين يعملان. أنا هنا منذ شهر، ولا يمكن أن أخطيء، لأنني في كل يوم أسجل اليوم والتاريخ على ورقة.

وصلت الإبر مع الخبر الصيني الأحمر والأزرق والبفسجي. واكتشفت عند الرئيس أمواساً للحلاقة لم تستعمل قط، فالهنود مرد. أحد هذه الأمواس يصلح لقص الشعر مدرجاً. وشمّت الرئيس زاتو على ذارعه. رسمت له رجلاً هندياً، على رأسه ريش من كل الألوان، وكان مفتوناً بهذا وطلب مني أن لا أرسم شيئاً لأحد قبل أن أنتهي من وشم صدره. يريد وشم رأس النمر كالذي في صدري، بأنيابه الكبيرة. ضحكت لأنني لا أحسن رسماً جيلاً كهذا.

كانت لالي قد نفتت شعر جسمي كله، فهي لا تكاد ترى شعرة حتى تبادر إلى

نزعها، وتدعك مكانها بأشنة البحر ممزوجة بالرماد. ولكن الشعر ينبت من جديد، وبشكل أقوى على ما بدا لي.

هذه (التعاونية) الهندية تسمى كاجيرا. يعيشون على الشاطئ وفي السهل حتى أسفل الجبل، وفي الجبال تعيش جماعات أخرى حياة جماعية تسمى موتيلون.

الكاجيرو كانوا، كما أسلفت، على اتصال غير مباشر بالحضارة، عن طريق وسيط التبادل. فجماعة الشاطئ يصدرون اللؤلؤ والسلاحف الكبيرة الحية التي قد تزن إحداها مئة وخمسين كيلوغراماً تقريباً، ومع ذلك فهي لا تجارى في وزنها سلاحف أوريتون أو ماروني الذي يصل إلى أربع مئة كيلو غرام. وغلاف جسمها قد يصل إلى مترين طولاً وإلى أكثر من متر عرضاً إذا وضعت السلاحفة على ظهرها فلا تستطيع حراكاً. رأيت البعض منها تنقل بعد ثلاثة أسابيع من قلبها على ظهورها وقد تركت بغير طعام ولا شراب، ولم تمت.

أما الضب الأخضر الكبير، فهو لذيق المأكّل، ولحمه لذيق وأبيض وطري، وكذلك البيوض التي تشوى في الرمل، ذات طعم شهى، غير أن شكله لا يفتح الشهية.

كلما عادت لالي من الصيد جاءت بنصيبها من اللؤلؤ فأعطني إياه. وكنت أضعه في كأس من الخشب دون فرزها، يختلط أكبرها بأوسطها بأصغرها. ولكن لي على حدة لؤلؤتين ورديتين، وثلاثاً سوداً، وسبعاً رمادية بلون المعدن، رائعة الجمال وكلها موضوعة في علبة أعود نقاب. وعندي كذلك لؤلؤة ضخمة نادرة المثال على شكل المشمشة وبحجم المشمشة الحمراء أو البيضاء في بلدنا. هذه اللؤلؤة الفريدة من نوعها ذات ألوان ثلاثة متوضعة بعضها فوق بعض وبحسب الجو يغطي أحدها على اللونين الآخرين: الطبقة السوداء، أو الطبقة الفولاذية اللون الضاربة إلى السمرة، أو الطبقة الفضية ذات الانعكاس الوردي.

ويفضل اللاليء أو السلاحف فإن القبيلة لا ينقصها شيء، بل إنها تملك أشياء لا تخدمهم في شيء، على حين أن آخرين قد ينتفعون بها، وهم يفتقرون إليها. مثال ذلك إنه لا توجد في العشيرة امرأة واحدة. وقد حصلت في مركب غارق، على خشبة مربعة طول ضلعها أربعون سنتمراً، ومطلية من أحد وجهيها بالنيكل، فاستعصت بها عن المرأة لأرى وجهي عند الخلاقة.

سياستي بالنسبة إلى أصدقائي كانت سهلة، فإما كنت أفعل شيئاً يتقص من سلطة الرئيس ومعرفته وكذلك بالنسبة إلى عجوز هندي يعيش وحيداً على بعد أربعة كيلو مترات في داخل الأرض، محاطاً بالأفاعي ويعزّزتين واثني عشر خروفاً ونعجة. إنه الساحر عند مختلف قرى كاجيرا. هذا الموقف أزال عني حسد الحساد، وأبعد نظرة السوء، حتى أصبحت بعد شهرين محبوباً من الجميع بغير استثناء، وفاتني أن أقول إن الساحر كان يملك أيضاً عشرين دجاجة. فإذا علمنا أن ليس في القريتين اللتين أعرفهما، دجاج ولا غنم، ولا عتر أدركنا أن اقتناء حيوانات أليفة يعد امتيازاً من الساحر.

ففي كل صباح كانت تذهب كل هندية بدورها إلى الساحر تحمل له في سلة على رأسها سمكاً وقواقع بحرية حديثة العهد. ويحملن له أيضاً كعكاً من طحين الذرة الصفراء مصنوعاً في صباح اليوم نفسه ومشوياً على حجارة محاطة بالنار. وأحياناً، وليس دائماً، كن يرجعن بشيء من البيض واللبن الرائب. وعندما رغب الساحر في أن أذهب لرؤيته أرسل لي ثلاث بيضات وسكيناً خشبية مصقولة، وقد صحتني لالي إلى منتصف الطريق، ثم جلست تنتظرنى تحت ظل أشجار الصياد الضخمة. وضعت السكين الخشبية في يدي وأشارت بذراعها إلى اتجاه السير.

يعيش المعجوز الهندي في قذارة كريهة في خيمة مصنوعة من جلد البقر المشدود ووجهها المستور بالأوبار نحو الداخل. في الوسط ثلاثة أحجار، ونار يحس المرء أنها لا تنطفئ. وهو لا ينام في سرير أرجوحي ولكن فوق سرير مصنوع من الأغصان يعلو فوق الأرض بمقدار متر تقريباً. الخيمة واسعة بعض السعة، فوق مساحة تزيد على عشرين متراً مربعاً، وليس لها جدران باستثناء بعض الأغصان من الجهة التي تأتي منها الريح. رأيت أفعين طول إحداها ثلاثة أمتار، وبضخامة الذراع، وطول الثانية متر واحد، وعلى رأسها ما يشبه الرقم ٧ بلون أصفر.

لا أفهم كيف تستطيع أن تجد الحماية تحت هذه الخيمة، عززت ودجاجات ونعجات، والحمار أيضاً.

تفحصني الهندي من كل النواحي، وسألني أن أخلع بنطالي القصير الذي قصته لالي. ولما تعريت كالدودة، أجلسني على حجر قريب من النار. ألقى على النار أوراقاً خضراً فاثارت دخاناً وفاحت منها رائحة التعناع، وكاد الدخان يخنقني، فلم أسعل واستمر هذا ما يقرب من عشر دقائق، وبعد هذا أحرق بنطالي، وأعطاني شيتين لستر العورة، أحدهما من جلد الخروف والآخر من جلد الحية، لين كالقفاز، وأدخل في ذراعي سواراً جلدياً مضموراً من جلد الخروف والماعز والأفعى، عرضه عشرة سنتمترات وثبت بقذ من جلد الأفعى، ويشد أو يرخى حسب الرغبة.

كان في عقب الساحر الأيسر، قرح كبير. بحجم قطعة الفرنكين، يغطيه الذباب، ومن وقت إلى آخر يذبه، وحينها يحس بالضيق يذر الرماد على الدم. وبعد أن احتضني الساحر هممت بالانصراف، فأعطاني سكيناً من خشب أصفر من السكين التي أرسلها لي وقد شرحت لي لالي بأنه في حال رغبتني في رؤيته يجب أن أرسل له السكين الصغيرة وإذا رضي بمقابلتي أرسل لي السكين الكبيرة. فارقت هذا الرجل المعجوز جداً، وقد لفت نظري هذه التجميعات الكثيرة في وجهه وعنقه. ولم يكن في فمه سوى خمس أسنان ثلاث من أسفل واثنتان من أعلى وأمام، وعيناه مشقوقتان على شكل اللوز ككل الهنود وأجفانه مثقلة بالعضون، فإذا أغمضها بدت كرتان مستديرتان لا رمش لهما. وليس له حاجبان،

والشعر على كتفيه خشن وجعد وأسود ومقصوص إلى مستوى سطح الجلد تقريباً. ويضع عصاة مشرشرة تصل إلى شعر الحاجب شأن كل الهنود. انصرفت وأنا في غاية الضيق من تعرض مؤخرتي العارية للهواء، وأحسست بأنني غدوت مضحكاً. وغاية الأمر إنه الهروب ولا يجوز المزاح مع الهنود، والتصرف في حرية يعني الإزعاج. نظرت لالي إلى «ورقة التين» فأغرقت في الضحك حتى بانث نواجذها التي لا تقل جمالاً عن اللؤلؤ الذي تصطاده. تفحصت السوار والقُدّ المصنوع من جلد الحية، ولكي تعرف إذا كنت قد اجتزت امتحان الدخان نشقت رائحتي، وبهذه المناسبة إن حاسة الشم عند الهنود قوية.

لقد تعودت هذه الحياة، ووجدت أنه لا ينبغي الاستمرار في العيش على هذا النحو زمناً طويلاً وإلا فقدت كل رغبة في الرحيل. كانت لالي تراقبني دون كلل، وكانت تتمنى لو أساهم في حياتهم المشتركة بنشاط أكبر. رأيتي مثلاً أخرج لصيد السمك، وهي تعلم أنني أجيد التجديف واستخدام الزورق الصغير الخفيف بمهارة. من هنا كانت أمنيته أن أصبح رجل زورقها في الصيد، وليس ذلك بعسير، ولكن هذا لا يناسبني.

كانت لالي أحسن فتيات القرية غوصاً. فزورقها دوماً يأتي بأكبر كمية من المحارات وبأكبر اللآلئ حجماً، وذلك لأنها تغوص في أماكن أكثر عمقاً، بخلاف الأخريات. وأنا أعرف أيضاً أن الفتى الذي يقود زورقها هو شقيق الرئيس، فإن أنا ذهبت مع لالي أكن مخطئاً في حقه وهذا ما لا ينبغي أن أفعله.

عندما رأيتي لالي سهمان مفكراً ذهبت من جديد لإحضار أختها التي أسرعت فرحة ودخلت البيت من بابي الخاص، وهذا أمر له مغزاه الكبير. لقد وصلنا معاً إلى الباب الكبير المواجه للبحر وافترقتا. دارت لالي نصف دورة ودخلت من بابها ودخلت زورايما الصغرى من بابي. لزورايما ثديان قد نهذا حديثاً، فهما بحجم ثمر المندرين. ولم يكن شعرها طويلاً، فهو مقصوص إلى مستوى الذقن، وعصاة جبينها ذات الحمل قد تتجاوز الحاجبين إلى الجفنين وفي كل مرة تدعوها أختها مثل هذه الدعوة كانتا تبادران إلى الإستحمام بعد أن تتجردا من ورقة التين وتعلقانها على السرير. وكانت تذهب من عندنا حزينة لأنني لم ألامسها.

جرح الرجل المرافق للالي في الصيد، في ركبته جرحاً عميقاً وواسعاً، فحمل إلى الساحر، فعاد وقد ثبت رجله بتراب الغضار الأبيض. فذهبت في ذلك الصباح إذن للصيد مع لالي. ونزلنا إلى الماء بالطريقة ذاتها المتبعة عند ذاك الرجل على أكمل وجه. وقد أخذتها إلى مكان أبعد من المعتاد، وكادت تطير فرحاً بوجودي معها على الزورق، وادهنت بالزيت قبل أن تغطس، وكان العمق أسود قائماً. ففكرت أنه لا بد أن يكون الماء بارداً.

مرت بالقرب منا ثلاث زعانف سمكة من أسماك القرش، فلفت نظرها إليها، فلم تلق على ذلك أهمية.

الساعة الآن العاشرة صباحاً، والشمس ترسل أشعتها. غطست لالي والكيس حول ذراعها الأيسر والسكين في المشد المتصل بحزامها، فعلت ذلك دون أن تدفع الزورق بقدميها كما يفعل الرجل العادي، ثم توارت في خفة خرساء في عمق الماء المظلم. وربما كان الغوص الأول للسبر والارتياح فقط، بدليل أنها لم يكن في كيسها سوى القليل من المحار. لقد خطرت ببالي فكرة: توجد على ظهر الزورق بكرة ذات سيورجلدية. فربطت الكيس ربطة مضاعفة وأعدته إلى لالي، ثم تركت البكرة تدور أثناء نزولها، فكانت تجر معها الحبل الجلدي ويظهر أنها فهمت العملية. وبعد غوص طويل، صعدت بدون الكيس فتمسكت بالزورق لتستريح وأشارت إلى أن أسحب الكيس ففعلت. وفي لحظة معينة بقي الكيس عالقاً بالمرجان فغاصت وخلصته. وصل الكيس وهو ممتلئ إلى نصفه فأفرغته في الزورق. وفي هذا الصباح غاصت لالي ثماني مرات على عمق خمسة عشر متراً وكاد الزورق يمتلئ وكان بينه وبين الامتلاء مقدار إصبعين. وحين أردت سحب المرساة كان الزورق على درجة من الثقل أشرفنا معها على الغرق. فاضطرت إلى فصل حبل المرساة وتعليقه بالمجداف الذي سيبقى عائماً إلى حين عودتنا؛ وبلغنا الشاطئ بدون حادثة. كانت المعجوز والرجل الهندي بانتظارنا في المكان الذي تفتح فيه المحارات بعد كل رحلة صيد. وكان الرجل مسروراً بادی الأمر لأننا جمعنا هذا المقدار من الأصداف. فشرحت له لالي ما فعلت. إن ربط الكيس يخفف عنها التعب أثناء الصعود ويتيح لها حمل مقدار أكبر من المحار فصار يتأمل كيفية ربط الكيس باهتمام كبير؛ فكه في محاولة أولى ثم أعاد تركيبه، فنظر إلي فخوراً بنفسه. ولدى فتح المحارات وجدت المعجوز ثلاث عشرة لؤلؤة. وما كان من عادة لالي أن تنتظر فتح المحار بل كانت تذهب إلى البيت تنتظر حصتها. أما هذه المرة فقد بقيت حتى آخر محارة. ابتلعت محتوى خمس وثلاثين محارة، وازدردت لالي خساً أو ستاً. وزعت المعجوز الحصص فاللاليء متساوية الحجم تقريباً وهي بقدر حبة الحمص تقريباً. جعلت كومة من ثلاث لآلئ للرئيس، ومثلها لي، وخساً للالي. أخذت حصتي ومددت يدي للهندي فرفض أن يأخذها، ولكنني فتحت يده ثم أطبقته على اللآلئ فسكت. كانت زوجته وابنته تراقبان هذا المشهد عن كثب، ثم أقبلتا تضحكان وأنضمنا إلينا. هذا وقد ساعدت في حمل الصياد إلى كوخه. تردد صدى هذا المشهد ما يقارب الأسبوعين. وفي كل مرة كنت أعطي الصياد حصته. وبالأمر احتفظت لنفسي بواحدة من أصل ست. ولما وصلت إلى البيت أجبرت لالي على أكلها فجن جنونها من الفرح وراحت تغني من حين إلى آخر كنت أذهب للقاء الهندي الأبيض الذي طلب مني أن أنادي به «زوريلو» وهذا الاسم معناه في اللغة الإسبانية: الثعلب الصغير. وأخبرني بأن الرئيس طلب منه الاستفسار مني عن سبب عدم رسم رأس النمر، فافهمته بأنني لا أحسن الرسم. وبعد الاستعانة بالمعجم طلبت منه أن يحضر لي مرآة مستطيلة بمساحة صدري، وورقاً شفافاً وريشة دقيقة وزجاجة خبز، وورقاً فحمياً وإن لم يجد فقلماً شحمياً كبيراً. وكذلك طلبت منه أن يحضر لي أمتعة مع ثلاثة قمصان بلون كاكوي وأن يحتفظ بها

عنده.

وعلمت منه أن رجال الشرطة سألوه عني وعن أنطونيو فأجابهم بأنني تجاوزت الجبل إلى فنزويلا وبأن أنطونيو قد لدغته حية فمات. وعلم منهم أيضاً أن الفرنسيين لا زالوا مرتنين في السجن في سانتا مارتا.

في منزل زوريلو نفس الأشياء الموجودة في منزل الرئيس: مجموعة من الأواني الغضارية المزخرفة برسوم عزيزة على الهنود، نوع من السيراميك الغني بشكلة ورسومه والأوانه، وتوجد أسرة أرجوحية فاخرة من الصوف النقي، بعضها أبيض، وبعضها ملون وله بنود، وعنده جلود حيّات مدبوغة، وجلود ضبان^(١) وجلود جواميس، وسلال مصفورة من عرائش بيض وأخرى من عرائش ملونة. وقال لي: إن هذه الأشياء جميعاً من صنع هنود هم من نفس العرق الذي تنتمي إليه عشيرتي، وهم يعيشون تحت أخشاب في غابة تبعد مسيرة خمسة وعشرين يوماً عن هنا. ومن هذا المكان تأتي أوراق الكوكا، وقد أعطاني منها عشرين، لأمضغ واحدة منها حين تظلم الدنيا في عيني. وقبل أن يودعني طلبت منه بالإضافة إلى ما أوصيته به، أن يحضر لي بعض الصحف والمجلات الإسبانية، لاني تعلمت الكثير من المعجم في غضون شهرين.

ليس عنده أخبار عن أنطونيو سوى أنه حصلت معركة جديدة بين المهريين وخفر السواحل أسفرت عن مقتل خمسة من الخفر وواحد من المهريين، ولم يقع المركب في الأسر. لم أعر في القرية على نقطة واحدة من الكحول إلا هذا الشيء المتخمر من عصير الفواكه. وإذا رأيت عنده زجاجة من الأنيسون طلبتها منه فأبى أن يعطينيها، وقال: إذا كنت تستطيع شربها هنا فافعل، أما أن تحملها معك فهذا أمر غير ممكن، وقد كان هذا الهندي حكيماً وعاقلاً.

فارقتة وانصرفت على ظهر حمار أعارنيه، وهذا الحمار يعود في الغداة من تلقاء نفسه إلى الدار. حملت معي كيساً فيه سكاكر من كل الألوان، وكل حبة مغلفة بورقة دقيقة كما حملت ستين علبة سجائر.

كانت لالي تنتظري على بعد ثلاثة كيلو مترات من القرية مع شقيقتها، ولم يحدث ما يكدر. ورضيت بأن نسير جنباً إلى جنب متشابكين. وكانت تتوقف بين وقت وآخر لتقبلي في فمي، على الطريقة الحديثة. ولدى وصولنا قصدت الرئيس لأقدم له السكاكر والدخان. جلسنا قدام الباب المواجه للبحر، وشرينا من الشراب المتخمر البارد المحفوظ في جرار. لالي على يميني تحيط فخذي بذراعيها، وأختها على يساري في الوضع نفسه وكانتا تمتصان السكر، فالكيس أمامنا مفتوح، والنساء والأطفال يتناولون منه خلسة. دفع الرئيس

(١) جمع ضب.

برأس زورايما نحو رأسي، ليفهمني بأنها تريد أن تكون لي زوجة مثل لالي. أخذت لالي يدي ووضعتها على ثديها لتريني أن ثدي أختها صغير، وأني من أجل هذا لا أريدها، فرفعت أكتافي، فضحك الجميع. وبدت زورايما تعدة جداً، وعندئذ أخذتها بين ذراعي ودغدغت ثدييها فعادت إليها إشرافة وجهها.

دخنت عدة سيجارات، وحاول بعض الهنود أن يدخنوا، فألقوا بالسيجارة وعادوا إلى السيجار فتناولوه وناره من الفم. أمسكت بذراع لالي لنذهب، فحييت الجميع ومشت لالي خلفي وزورايما خلفها. هيأتنا سمكاً مشوياً على الجمر، إنها دوماً الأكلة اللذيذة الممتعة.

حصلت على المرأة والورق الدقيق، وورق نقل الرسم وزجاجة صمغ لم أكن أوصيت بإحضارها ولكنها قد تنفع، وعدة أقلام شمعية متوسطة القساوة، والمجبرة والريشة. علقت المرأة بخيط، على ارتفاع صدري وأنا قاعد، وظهر على سطحها وشم رأس النمر بوضوح تام وبكل التفاصيل، ونظرت إلى لالي وزورايما بفضول واهتمام بالغين. واتبعت الخطوط بالفرشاة وبما أن الحبر كثير السيولة فقد احتجت إلى الصمغ، فمزجت شيئاً منه بالحبر، وبعد هذا كان كل شيء على ما يرام، وفي ثلاث جلسات، ومدة كل جلسة ساعة، كان على سطح المرأة صورة انعكاس رأس النمر بالتمام والكمال. ذهبت لالي لإحضار الرئيس فتناولت زورايما يدي ووضعتها على ثدييها، وبدا عليها أنها عاشقة تعدة، تطفح الشهوة والحب من عينيها، وبدون وعي مني بطحتها أرضاً وسط الكوخ ونلت منها وطراً، فزفرت قليلاً وأنت، وتوتر جسمها من فرط لذتها، فضمتني ولم ترد إفلاتي، فانسملت من بين ذراعيها برفق، وأسرعت إلى البحر للاستحمام لأن جسمي تمرغ بالتراب، فتبعثني واغتسلنا معاً، فدلكت ظهرها، ودلكت هي ذراعي وساقني ثم عدنا إلى المنزل، فوجدنا لالي قاعدة في المكان الذي كنا فيه ولدي دخولنا فهمت كل شيء، فنهضت وأحاطت عني بذراعيها وقبلتني في خنان، وأخذت أختها من يدها وأخرجتها من بابي وعادت فخرجت هي من بابها. سمعت خبطاً في الخارج، خرجت فראيت لالي وزورايما وامرأتين أخريين يحاولن نقب الجدار بحديدة، فأدركت أنهن يردن فتح باب رابع، وقد لجأن إلى بل الجدار بالمرشة لئلا يتصدع، وأنجزن هذا العمل في وقت يسير، ودفعت زورايما بالأنقاض خارج المنزل، وبعد الآن هي التي تدخل وتخرج من هذا الباب، ولا أحد سواها يدخل من بابي.

حضر الرئيس يصحبه ثلاثة من الهنود، وأخوه الذي أوشك جرح ساقه أن يلتئم. ورأى الرسم على المرأة ورأى نفسه، وأذهله إتقان الرسم، كما دهش من رؤية وجهه، ولم يدرك ما أنوي عمله. وبعد أن جف على المرأة وضعتها على المنضدة ووضعت فوقها الورقة الشفافة، وشرعت أنسخ في خفة وسرعة؛ إن هذا هيّن والقلم المتوسط القساوة يتتبع الخطوط بكل أمانة، وفي أقل من نصف ساعة، أخرجت صورة طبق الأصل على مرأى من كل العيون المتلهفة المهتمة، وتداول الحاضرون الصورة وهم يوازنون بينها وبين النمر

الموشوم على صدري. مدت لالي على المنضدة وبللت بطنها بخرقه مبللة، ثم وضعت ورقة النقل التي رسمتها منذ قليل، رسمت بعض الخطوط التي ظهرت آثارها على بطن لالي فكانت رائعة غاية الروعة. وعندئذ فهم الرئيس أن كل ما كابدت من مشقة كان من أجله.

الناس الصرخاء الذين لا يراؤون وهم على درجة حسنة من التربية الحضارية، تكون ردود الفعل عندهم عفوية، وسرعان ما يبدو عليهم الفرح أو الحزن، السرور أو الغم، الاهتمام أو اللامبالاة. ومعظم الهنود الأقحاح مثل هؤلاء الكاجيريين، صرخاء وقلوبهم مفتوحة لذا فإنهم يتجاوزوننا في كل شيء، فإذا تبنا إنساناً جعلوا كل ما يملكون ملكاً له. وفي مقابل هذا، إذا أنسوا من هذا الإنسان أدنى عناية فإنهم يتأثرون تأثراً عميقاً بحكم طبيعتهم الموهبة الحساسة.

قررت إحداث الخطوط العريضة بالموسى بحيث تثبت أطراف الصورة النهائية منذ الجلسة الأولى وبعد ذلك سيكون الوزر بثلاث إبر مثبتة في طرف عود. وسأبدأ العمل غداً.

تمدد زاتو على المنضدة، وبعد أن نقلت الرسم بقلم قاس عن الورقة الدقيقة إلى ورقة أخرى بيضاء أكثر مقاومة، طبعته على الجلد الجاف الذي كان قبلاً مطلياً بماء الغضار الأبيض فظهرت الطبعة وتركتها تجف جيداً. كان الرئيس يتمدد متيسباً لا يتحرك خشية أن يفسد الرسم الذي أريته إياه في المرة. شطبت الخطوط بالموسى فسال الدم خفيفاً. وكنت أجفئه. دهنت الصدر كله بالخبر الصيني الأزرق وثبت في سهولة إلا في المواضع التي يسيل منها الدم بسبب عمق الجرح قليلاً. وفيما عدا ذلك كان الرسم فائق الروعة. وبعد ثمانية أيام كان على صدر زاتو صورة رأس النمر وهو فاغر فاه، كاشف عن لسانه الوردي وأسنانه البيض، وظهر أنفه وشواربه السود وعيناه. وكنت مسروراً من عملي فقد فاق ما كان مرسومًا على صدري دقة وحيوية، وعندما سقطت القشور أعدت الوزر بالإبر في بعض المواطن، وكان زاتو محبوراً، فطلب من زوريلو أن يؤمن له ست مرايا له واحدة، ولكل كوخ امرأة.

تمضي الأيام والأسابيع والشهور، فنحن الآن في شهر نيسان (ابريل) وهو الشهر الرابع الذي ينقضي على وجودي هنا. وصحتي في تمام الحسن، وأنا قوي. وقد اعتدت السير حافياً وكنت أسمى طويلاً وأنا أطارد الضبان الكبيرة دون تعب.

نسيت أن أقول إنه بعد زيارتي الأولى للساحر أوصيت زوريلو أن يحضر لي صبغة اليود وماء الأوكسجين وقطناً وضماًداً وشيئاً من حبوب الكينا وستوفارسول. كنت رأيت في المستشفى سجيناً مصاباً بدمل بحجم دمل الساحر. وكان المريض شاتال يسحق حبة الستوفارسول ويرش المسحوق فوق الدمل. وقد حصلت عن طريق زوريلو على هذه

الاشياء كلها مضافاً إليها مرهم. أرسلت إلى الساحر السكين الخشبية الصغيرة وأجابني بإرسال سكينه. وكان إقناعه بالمعالجة أمراً عسيراً. ثم رضي بأن أعطني به وبعد زيارات عدة تضاعل حجم الدم إلى النصف، ثم تابع الساحر وحده العلاج. وفي يوم جميل أرسل لي سكينه الخشبية لأذهب إليه وكان قد تمكن البرء منه ولم يعلم أحد بأنني أنا الذي عالجت.

زوجتي لا تتركاني. فعندما تكون لالي في الصيد تبقى معي زورايما، وإذا ذهبت زورايما لازمتني لالي.

ولد للزعيم زاتو ولد. ذهبت زوجته أثناء المخاض إلى الشاطئ وأوت إلى صخرة كبيرة تحجبها عن الأنظار. وحملت زوجة زاتو الثانية سلاً كبيراً فيه كعك وماء عذب وسكر غير مصفى أسمر على هيئة المخروط يزن كيلو غرامين. فولدت في حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، وقبيل الغروب أقبلت نحو القرية وهي تنادي زاتو وترفع الوليد بين يديها إشارة إلى أنه غلام. ولو أنها أنجبت أنثى لرجعت دون أن تصيح صيحات الفرح ودون أن ترفع المولودة عالياً بين ذراعيها. هذا ما فسرته لي لالي ببعض الإشارات والحركات. تقدمت الهندية ثم توقفت بعد أن رفعت الغلام بين يديها، فرفع زاتو ذراعيه صائحاً ولكن دون أن يتحرك نهضت الزوجة ثم خطت بضعة أمتار، وتكرر هذا مراراً في الثلاثين متراً الأخيرة، ولم يتزحج زاتو عن عتبة كوخه، إنه أمام الباب الكبير والناس عن يمينه ويساره. توقفت الأم على مسافة خمسة أمتار ورفعت الغلام بين أطراف ذراعيها وصاحت، وحينئذ تقدم زاتو وتناول الصبي من تحت إبطه ورفع به دوره على طول ذراعيه واستدار نحو الشرق وصاح ثلاث مرات وفي كل مرة كان يرفع ذراعيه ثم أجلسه على ذراعه الأيمن ومدده على صدره ثم أدخل رأسه تحت إبطه وقد ستره بذراعه الأيسر ودخل من الباب الكبير ولم يعد، ثم تبعه القوم والأم آخروهم وشربوا كل ما عنده من الشراب المشابه للخمر.

وخلال الأسبوع الأول كانوا يرشون الماء صباحاً ومساءً أمام كوخ زاتو، ثم يأخذ الرجال والنساء يلبدون الأرض ضرباً بكموبهم أو بأقدامهم، وهكذا صنعوا دائرة واسعة من الأرض الغضارية الحمراء الملبدة جيداً وفي الغداة أخرجوا خيمة من أديم الثور واسعة وقدرت أن احتفالاً سيقام.

تحت قبة الخيمة نصبت قدور مصنوعة من الغضار المشوي وهي ملأى بشرابهم المفضل الذي كان في جرار ضخمة لا يقل عددها عن عشرين، صفت حولها الحجارة، وأحضرت أحطاب خضر وبابسة، أخذت كومتها تزدد كل يوم، وكثير من هذا الحطب كان البحر قد لفظه منذ زمن بعيد وكان بعضه أبيض مصقولا، وتوجد جذوع ضخمة سحبت من المياه، منذ متى؟ قدر ولا حرج. وصنعوا من الحجارة شععين من الخشب على

ارتفاع واحد، هما الحاملان لسفود^(١) ضخمة. وأحضرت أربع سلاحف مقلوبة على ظهرها وأكثر من ثلاثين ضباً حياً من حجم واحد كبير، مغالبها متشابكة بصورة تحول دون هروبها، وخروفان.

كل هذا الزاد ينتظر الذبح ثم الأكل، وكذلك كانت هناك ما يزيد على ألفي بيضة من بيض السلاحف في صباح أحد الأيام وصل خمسة عشر فارساً من الهنود وحول أعناقهم قلائد وعلى رؤوسهم قبعات واسعات من القش. سيقانهم وأفخاذهم ومؤخراتهم عارية. ويرتدون سترات من جلد الخروف صوفها نحو الداخل وليس بذات أكمام. وكان كل واحد منهم يتمنطق بخنجر كبير، واثنان منهم يحملان بندقيتي صيد ذواتي فوهتين، ومع رئيسهم بندقية وسترة جلدية سوداء وحزام مليء بالرصاص. وكانت خيولهم بديعة جداً وصغيرة وعصبية، ولونها رمادي مبرقش باللون الأبيض، وخلفهم على أرداف الخيول يحملون حزمة عشب يابس. لقد أعلنوا عن وصولهم من بعيد بإطلاق النار من بنادقهم. ورئيسهم يشبه زاتو وأخاه شبيهاً غريباً ولكنه أكبر سناً. نزل عن جواده الأصيل ثم توجه نحو زاتو وأخيه، وتبادلوا الملامسة بالاكشاف، ودخل الدار وحده ثم عاد متبعواً بالهندي والغلام بين يديه فعرضه على الجميع ثم فعل ما فعله زاتو. وبعد تعريضه نحو الشرق ستره تحت إبطه وعضده الأيسر، ودخل الدار مجدداً. عند ذلك ترجل جميع الفرسان، وعقلوا خيولهم بعيداً قليلاً والمخالي معلقة في أعناقها. وعند الظهر أقبلت الهنديات في عربة ضخمة تجرها أربعة خيول ويقودها زوريلو. وفي العربة ما لا يقل عن عشرين هندية شابة وسبعة أو ثمانية أطفال وكلهم من الذكور. وقبل وصول زوريلو قدمي زاتو إلى الفرسان بدءاً من رئيسهم.

لفت نظري في قدم زاتو أن خنصره الأيسر مشدود وملتف فوق الاصبع الأخرى وأخوه كذلك ومثلها الرئيس الذي وصل. ثم أراني تحت ذراع كل واحد منهم شامة سوداء، ففهمت أن القادم الجديد أبوه.

إن وشم زاتو نال إعجاب الجميع وبخاصة صورة رأس النمر. ولجميع الهنديات القادמות رسوم على أجسادهن ووجوهن، من الألوان. كانت لالي تقلد البعض منهن قلائد من قطع المرجان حول أعناقهن، وللبعض الآخر قلائد من الصدف. شاهدت هندية جميلة أكثر طولاً من الأخريات اللاتي كن متوسطات الطول. جانب وجهها إيطالي، كأنها جوهرة. شعرها أسود بنفسيجي، وعيناها خضراوان كالزبرجد، وأهدابها طويلة. ولها حاجبان مقوسان، وقد قصت شعرها قصيراً على الطريقة الهندية، والعصابة المهدبة لها خط في وسطها يقسمها قسمين بحيث ينزل قسم من الأهداب على بين الوجه وقسم ينزل على يساره فيغطيان الأذنين. ثدياها حقان من العاج متقاربان جداً في خط البداية عند منبهما

(١) السفود: حديدة يشوى بها، وتسفيد اللحم تنظمه فيها للاشتاء.

ثم يتباعدان في انسجام تام. عرفتني لالي بها وصحبتها إلى بيتنا مع زورايما وقتاة أخرى هندية صغيرة تحمل قعاباً^(١) وريشات للرسم مصنوعة من الأعواد التي ربطت أطرافها بخيوط من الصوف والواقع إن الزائرات يرغبن في صبغ الهندييات في قريتي. ولقد شهدت عملاً فنياً قامت به الهندية الحسنة على جسد لالي وزورايما. كانت تغمس المنقش (ريشة الرسم) في عدد من الألوان لتؤدي رسومها وحينئذ أمسكت بريشتي ورسمت ابتداء من سرة لالي نبتة يتفرع منها فرعان كل فرع يتجه نحو قاعدة الثدي. ثم رسمت تويجات وردية وقمة الثدي باللون الأصفر فبدأ كأنه برعم يتفتح وقد ظهرت فيه مدقته وقد رغبت الثلاث الآخر في أن أصنع هن مثل ذلك. فأعطيت زورايلا برغبتين فسمح لي أن أفعل ذلك متى شئت. وما الذي لم أفعله هنا؟ في غضون ساعتين رسمت أهداء الهندييات الضيوف وغيرهن. وألحت زورايما أن أرسم عليها ما رسمت على جسد أختها بالضبط. وفي هذه الأثناء كان الهنود يشوون على السفود الخروفين. أما لحم السلحفاة فيشوى مقطّعاً على الجمر، وهو لحم أحمر طيب مثل لحم العجل.

جلست بالقرب من زاتو وأبيه تحت الخيمة، الرجال يأكلون في ناحية والنساء في ناحية باستثناء اللاتي يقمن على خدمتنا. واختتم العيد بنوع من الرقص في وقت متأخر من الليل. ولترقيص الراقصين كان هندي يعزف على شبابة تعطي أصواتاً حادة وقليلة التلون، ويضرب على طبلين من جلد الخروف. سكر بعض الهنود والهندييات ولكن لم يقع ما يعكر الصفو. جاء الساحر على حمار، ونظر الجميع إلى القشرة التي حلت مكان الدم الذي كانوا يعرفونه، وكانت مفاجأة لهم أنه شفي منه. أنا وزريلو وحدنا على بيته من أمره، وقد فسر لي زوريلو بأن رئيس العشيرة الذي قدم، هو والد زاتو واسمه جوستو ومعناه العادل، وهو القاضي الذي يحل الخلافات التي تقع بين أبناء قومه وبين أبناء القبائل الأخرى، والتي هي أيضاً من أصل كاجيري. وقال لي: إذا امتد الخلاف إلى قبيلة أخرى مثل (لابو) فإنهم يجتمعون للمناقشة فيما إذا كانت الحرب لازمة أم أن الحل بطريقة ودية ممكن. وإذا قتل أحد من قبيلة أخرى، فالاتفاق قام على أن القاتل يجب أن يدفع الثمن لتجنب الحرب، وقد يبلغ أحياناً مئتي رأس من الثيران، لأن القبائل في الجبال وفي أسفل المنحدرات يملكون الكثير من البقر والثيران. ولسوء الطالع أنهم لا يلقحون هذه الأبقار لقاحات مضادة للحمى القلاعية. فهذا الوباء يفتك بعدد كبير من هذه الحيوانات. ولهذا الأمر حسنة، إذ لولا الوباء لبلغ عدد الحيوانات مبلغاً كبيراً.

هذه الماشية لا يمكن أن تباع في كولومبيا أو فنزويلا ويجب أن تبقى في حدود منطقتها خشية العدوى. قال زوريلو: في الجبال كثير من مهربي القطعان.

طلب مني الزعيم الزائر جوست عن طريق زوريلو الذهاب إلى قريته حيث يزيد

(١) جمع قعب وهو وعاء للشرب صغير

عدد الأكواخ على المثة، كما طلب إحضار لالي وزورايما. وأنه سوف يعطيني كوخاً من أجلنا جميعاً، وأن لا أحمل معي شيئاً. فالكوخ سوف يكون مجهزاً بكل ما يلزم. وطلب إحضار أدوات الوشم فقط لأرسم له أيضاً رأس النمر ونزع عن معصمه حزاماً جلدياً للقوة وقدمه لي. وحسب أقوال زوريلو أن هذه البادرة ذات مغزى كبير تعني أنه صديقي وأنه ملزم بتنفيذ رغباتي وسألتني إن كنت أرغب في اقتناء جواد، قلت نعم ولكن لا أستطيع قبوله لعدم توفر العشب الكافي، فقال إن لالي وزورايما تستطيعان عند الضرورة الذهاب مسافة نصف يوم على الحصان حيث العشب الطويل والجيد، وحيث قبلت الحصان على أمل إرساله عما قريب.

وقد اغتنمت زيارة زوريلو الطويلة هذه لأعرب له عن ثقتي به وعن أمني بأن لا يخونني يذكر ما أفكر به من الذهاب إلى فنزويلا أو كولومبيا. وقد وصف لي الأخطار المحدقة في الثلاثين كيلو متراً الأولى حول الحدود. وبحسب معلومات المهربين إن الحدود الفنزويلية أشد خطراً من الحدود الكولومبية، هذا وقد وعد بأنه سوف يصحبني بنفسه إلى الحدود الكولومبية حتى سانتا ماريا، وأضاف أنه سبق له أن سلك هذا الطريق وفي رأيه أن الحدود الكولومبية أفضل. واتفقنا على شراء كتب تعليم اللغة الإسبانية حيث توجد عبارات ثابتة. وفي رأيه إذا تعلمت اللججة في الكلام بشكل قوي فإن هذا يفيدني، لأنهم سيتبرمون بي ويثرون عندما يسمعونني ويكملون الجملة من تلقاء أنفسهم دون أن يفتنوا إلى اللهجة أو نبرة اللفظ، فاتفقنا على ذلك، وسوف يحضر لي كتاباً ومصوراً دقيقاً قدر المستطاع ويبيع لي لآلتي إذا اقتضى الأمر بعملة كولومبية.

وقد أوضح لي بأن الهنود بدءاً من الزعيم لا يمكن إلا أن يكونوا بجاني حين اتخذ قراراً في الرحيل إن كنت راغباً فيه، ولسوف يأسفون لفراقني، ويدركون أن من حقي الطبيعي أن أعود بما أملك. إنما العقبة الكأداء هي زورايما ولالي إذ هما قادرتان على قتلي بطلقة من بندقية. وشيء آخر لم أكن على علم به هو أن زورايما حامل، لم ألاحظ هذا وقد أدهشني المفاجأة.

انتهى الاحتفال وذهب الجميع والخيمة الجلدية قوضت، وعاد كل شيء إلى ما كان عليه، على الأقل من حيث المظهر.

حصلت على الحصان الأبيض المبرقش بالرمادي، وله ذيل ضافٍ فوق الأرض. وعرف رمادي بلاتيني بديع. لالي وزورايما كثيبتان. استدعاني الساحر ليقول بأن لالي وزورايما سألتاه إن كان في وسعها إعطاء الحصان زجاجاً مسحوقاً بغية قتله دون خطر عليهما، فهما عن فعل ذلك، لأن قديساً هندياً من قديسيهم — لا أدري أي قديس — يحرسني ويحوطني بالرعاية ولأن الزجاج سيتحول إلى بطنيها. وأضاف بأنه يعتقد بأن لا خطر ولا يمكن الجزم بذلك، وعلي أن أكون حذراً، فإن وجدنا أنك تعد الأهبة للسفر

جاداً ولالي بصورة خاصة ستطلق عليك النار - هل يمكنكني أن أحاول إقناعهما بأنني سأعود؟ يجب أن لا أبدي لها رغبة في الرحيل.

استطاع الساحر أن يقول لي ذلك لأنه استقدم زوريلو في اليوم نفسه ليكون ترجماناً. فعدت أدراجي إلى البيت وزوريلو غادر سالكاً طريقاً تغاير طريقي، ولم يعلم أحد من القرية أن الساحر استدعى زوريلو في الوقت الذي استدعاني فيه.

ها هي ذي ستة أشهر تنسلخ على وجودي هنا، وأنا استعجل الرحيل. دخلت يوماً فرأيت لالي وزورايا منكبتي على المصور تحاولان فهم ما تمثله هذه الرسوم. والذي أقلق بالهما وجود أربعة أسهم. على المصور تشير إلى نقاط أربع أساسية. فهما مدهوشتان حائرتان، ولكنها قدرتا أن هذه الورقة شيء هام جداً في حياتنا يستحق النظر بدأ بطن زورايا يتضخم، وأحست لالي بشيء من الغيرة، فكانت تجبرني على الحلوة في أية ساعة. أما زورايا فقد تقنع بساعات الليل لحسن الحظ.

ذهبت لمقابلة جوست والد زوتو، وفي رفقتي لالي وزورايا، واستخدمت الرسم الذي لا زالت أحتفظ به لأطبع رأس النمر على صدره، وانتهيت منه خلال ستة أيام لأن قشرة الجرح سقطت سريعاً، بفضل غسله بالماء الممزوج بقطعة صغيرة من الكلس الحي. وشعر ببهجة ما بعدها بهجة حتى أنه كان ينظر إلى نفسه بالمرآة كل يوم عدة مرات. وقد حضر، خلال إقامتي هناك، زوريلو. وبإذن مني تحدث مع جوست عن خطتي، لأنني أرغب في تبديل الجواد. إن خيول كاجيرا رمادية مبرقشة باللون الأبيض وليس في كولومبيا ما يماثلها، ويملك جوست ثلاثة جياد صهباء. وما أن علم جوست بالخطوة حتى بعث في طلب الخيول فاخترت الجواد الذي بدا لي أنه أكثرها هدوء فأسرجه لي، ثم وضع الركاب والشكيمة^(١) الحديدية على حين أن الشكائم عندهم من عظم وليس للخيل سروج. وبعد الانتهاء من تجهيزه على الطريقة الكولومبية وضع في يدي أعنة جلدية بنية اللون. ثم عد لزوريلو وعلى مرأى مني تسعاً وثلاثين قطعة ذهبية، وقيمة كل منها مئة بيزو. وقد احتفظ بها ليوم سفري، وشاء أن يعطيني بندقية متعددة الطلقات فرفضتها إذ قال لي زوريلو بأنني لا أستطيع دخول كولومبيا مسلحاً. وعندئذ أعطاني جوست سهمين طويلين كالإصبع ملفوفين بالصوف ومغلفين بغمد جلدي. أخبرني زوريلو بأنها مسمومان بسم ناعم، ونادر الوجود. لم يكن زوريلو قد رأى من قبل سهاماً مسمومة، بله الحصول عليها، وكان عليه أن يحتفظ بها حتى يوم سفري. ولم أدر كيف أعبر لجوست عن اعترافي بأبائيه البيض، وبكل ما فعله من إحسان من أجلي. وقال لي، عن طريق زوريلو، بأنه يعرف شيئاً عن حياتي، والجانب الذي يجهله لا بد أن يكون حافلاً لأنني رجل كامل. وأنه لأول مرة في حياته يعرف رجلاً أبيض عن كثب، وكان ينظر إلى البيض على أنهم جميعاً

(١) الحديدية المعارضة في فم الفرس

أعداء. وأنه سوف يجبههم وسيتعرف على رجل أبيض مثلي. وقال لي: فكر قبل أن ترحل إلى أرض يكثر فيها أعداؤك، أما على هذه الأرض فالجميع أصدقاؤك. وقال: إنه هو وزاتو سيسهران على لالي وزورايما، وسيكون لولد زورايما مكانة الشرف في العشيرة، إذا كان ذكراً بطبيعة الحال. ولا أريدك أن تذهب. ابق ولسوف أقدم لك أجمل هندية رأيتها في الاحتفال، إنها يافعة، وتحبك. وباستطاعتك البقاء هنا معي، وسيكون لك كوخ كبير، وما تشاء من البقر والثيران.

فارت هذا الرجل العظيم وعدت إلى قريتي وعلى طول الطريق لم تقل لالي كلمة، وكانت جالسة خلفي على الحصان الأصهب، والسرج يחדش فخذيها، وزورايما كانت خلف رجل هندي على حصانه. وذهب زوريلو لقريته من طريق آخر.

حل في الليل برد، فتناولت لالي سترة من جلد الخروف أعطاها جوست وارتدتا دون أن تفوه بكلمة أو أن تشرح شيئاً أو أن تشير إلى شيء. قبلت السترة لا أكثر ولم تثبت بجسمي لتتمكن في الركوب. ولما وصلنا إلى القرية ذهبنا للسلام على زاتو، فذهبت هي بالحصان وربطته أمام البيت وحزمة العشب أمامه ولم ترفع عنه سرجه أو تنزع شكميته. عدت إلى البيت بعد قضاء ساعة طيبة مع زاتو.

عندما يجزن الهنود وبخاصة النساء فإنهن يقطنن ويعبسن فلا تتحرك في وجوههن عضلة، وترى عيونهن غرقى في الأسى، ولكن لا يذرفن دمعاً. قد يألمن ويتحسرن ولكن لا يبكين. في إحدى تحركاتي أصبت زورايما في بطنها فدفعها الألم إلى الصراخ، فنهضت عندئذ خوفاً من تكرار ذلك، وذهبت إلى سرير آخر معلق على مستوى منخفض جداً فرقدت فيه. ولم ألبث أن شعرت بأن أحداً قد لمسه فتظاهرت بالنوم. كانت لالي جالسة على جذع خشبي تنظر إلي ولا تتحرك. وبعد هنية أحسست بوجود زورايما. وكان من عادتها أن تتمطر برائحة زهرالبرتقال، تسحقه وتدعك به جلدها. كانت تشتري الأزهار في أكياس صغيرة من هندية كانت تتردد على القرية بين الفينة والفينة. وعندما استيقظت وجدتها على حالهما لا تتحركان. طلعت الشمس والساعة الآن الثامنة، فأخذتها إلى البحر وتعددت على الرمل الجاف، فجلست لالي كما جلست زورايما فداعبتها في ثديها وبطنها فظلت باردة كالرخام، مددت لالي وقبلتها في فمها فأطبقت شفيتها.

جاء الصياد ينتظر لالي فلما رأى وجهها فهم وانسحب. لقد تعبت حقاً ولم أدر ما أفعل. داعبتها وقبلتها لأبرهن لها على حيي فلم تخرج من فمها كلمة. واضطربت متألماً لمجرد التفكير بحالهما، وكيف تكون حياتها بعد رحيلي. لالي تطرح نفسها علي في يأس وتريد بالاكراه أن أعاشرها فإيا الباعث على ذلك؟ لا يمكن إلا أن يكون شيء واحد، هو أنها تريد الحمل مني ولأول مرة، رأيت منها هذا الصباح بادرة غير من أختها، فبينما كنت الألف زورايما في صدرها وبطنها، كانت هي تعضي في شحمة أذني عضاً خفيفاً، وكنا مستلقين على الشاطئ، فوق الرمل الناعم في وهدة محجوبة عن الأنظار. وصلت لالي، وأمسكت

بذراع زورايما ومررت يدها على بطنها المنتفخ، ثم أشارت إلى بطنها هي، الأملس المسطح. نهضت زورايما وكأنها تقول: إنك على حق ثم انصرفت. كانت المرأتان تعدان لي كل يوم طعاماً ولا تاكلان. واستمرتنا ثلاثة أيام على هذه الحال. أخذت الجواد، وكدت ارتكب خطأ جسيماً ارتكبه منذ خمسة شهور حين ذهبت لزيارة الساحر. وفي الطريق عدلت عن رأيي، وبدلاً من الذهاب إليه كنت أذرع الأرض ذهاباً وإياباً على بعد مئتي متر من خيمته فرأني وأشار إلي بيده كي أقبل عليه. وتمكنت بعد لاي أن أفهمه بأن لاي وزورايما لا تاكلان فأعطاني نوعاً من الجوز لأضعه في الماء العذب في البيت، فرجعت ووضعت الجوزة في الجرة، فشربتنا مراراً ولم نأكلا. لاي لا تذهب إلى الصيد، وبعد أربعة أيام من الصوم، قامت اليوم بعمل جنوني. ذهبت بغير مركب سباحة على بعد مئتي متر تقريباً ثم عادت ومعها ثلاثون عمارة لأكلها. إن ياسهما الأيكم أربكني إلى درجة أنني أضربت أيضاً عن الطعام. دام ذلك ستة أيام: لاي راقدة، وقد ارتفعت درجة حرارتها وخلال هذه الفترة امتصت بضع ليمونات، هذا كل شيء. زورايما تأكل مرة في اليوم عند الظهر. لقد ضاقت في وجهي المذاهب. جلست إلى جانب لاي، وهي ممتدة على الأرض فوق أرجوحة مطوية تقوم مقام الفراش وهي تنظر إلى السقف باستمرار دون أن تتحرك. نظرت إليها وإلى زورايما وبطنها المتكور، ولا أعلم على وجه التدقيق لماذا انفجرت باكياً. هل بكيت على نفسي أم عليها؟ الله أعلم. بكيت وذرفت الدمع غزيراً. أخذت زورايما تنن، والتفت لاي فرأت بكائي، فنهضت فجأة، وجلست على مقربة مني وصارت تنن أنيناً خافتاً وتقبلني وتلاطفني وزورايما تربت على كتفي، وطفقت تتكلم وتتكلم، وفي الوقت نفسه كانت زورايما ترد عليها وكأنها تلومها. أخذت لاي قطعة من السكر بحجم قبضة اليد وذوبتها ثم تناولته على جرعتين، ثم خرجت مع زورايما. جرتا الحصان، الذي وجدته مسرجاً عند خروجي وقد وضعت شكيمته، والعنان مربوط بمقبض السرج. لبست سترة زورايما الصوفية، وقد وضعت لاي على السرج سريراً أرجوحياً مطوياً.

ركبت زورايما أولاً في المقدمة على عنق الفرس تقريباً، وأنا في الوسط، ولأي في الخلف. كنت مشوشاً حتى أنني ذهبت ولم أسلم على أحد، ولم أعلم الرئيس.

كنت أعتقد أننا ذاهبون إلى الساحر فسلكت الطريق نحوه، فشددت لاي الرسن وقالت: زوريلو فاتجهنا نحو زوريلو. وكانت في الطريق تقبلي مراراً في عنقي. كان الرسن يبدي اليسرى وباليدي اليمنى كنت أداعب زورايما إلى أن وصلنا قرية زوريلو تماماً في اللحظة التي وصل هو فيها من كولومبيا ومعه ثلاثة حمير وحصان تكدست عليها الأحمال. دخلنا الدار فتكلمت لاي أولاً ثم زورايما، فشرح لي زوريلو ما قالت:

إلى اللحظة التي بكيت فيها كانت تعتقد أنني «أبيض» لا أقيم لها وزناً، وأني عازم على الرحيل، وهي تعرف هذا، وكنت مخادعاً كالأنبي لاني لم أخبرها ولم أفهمها، وأنها منيت بخيبة أمل كبيرة، وبأن هندية مثلها تستطيع إسعاد رجل، وإن رجلاً مسروراً راضياً

لا يمكن أن يرحل، وأنها تفكر بأنه ليس هناك ما يسوغ استمرار حياتها بعد جريمة على مستوى هذه الخطورة. وقالت زورايما مثل ذلك وأضافت أنها تخشى أن يكون ولدها مثل أبيه زائفاً لا عهد له، وأن يطلب إلى زوجاته أموراً صعبة التحقيق جداً. وأنها تبذلان حياتهما في سبيل ولا تفهماني. وتساءلت لماذا أهرب منها فراري من الكلب الذي عضني يوم قدومي؟ فقلت:

— ماذا تفعلين يا لالي لو كان أبوك مريضاً؟
— سأمشي على الشوك في سبيل العناية به
— ماذا تفعلين لو أنك طردت طرد البهائم ليقتلوك في الوقت الذي تستطيعين فيه الدفاع عن نفسك؟
— سأبحث عن عدوي في كل مكان لأدفنه في حفرة سحيقة لا يستطيع بعدها الخروج منها

— وإذا تحقق هذا كله، فماذا تفعلين لو أن عندك زوجتين رائعتين تنتظرنك؟
— سأعود على حصان.
— وهذا ما سوف أفعله بكل تأكيد
— وإذا رجعت فوجدتني عجوزاً وقبيحة؟
— سأعود قبل أن تصبحي عجوزاً وقبيحة بكثير.
— نعم. لقد سال الدمع من عينيك ولا يمكن أن تفعل ذلك تصنعاً. في وسعك الذهاب متى شئت ولكن على مرأى من الجميع في وضوح النهار، لا كما يذهب اللصوص. يجب أن تعود في نفس الساعة التي أتيت فيها، بعد الظهر، وأنت في أحسن هندام. ولعلك تتساءل لماذا الذي سوف يسهر علينا ليل نهار؟ زاتو هو الزعيم، ولكن يجب أن يكون هناك رجل يرعانا. يجب أن تذكر أن البيت بيتك دوماً. ولن يدخله رجل سوى ابنك، إن كان في بطن زورايما ذكراً. وفيها عداه لن يدخل بيتك رجل. وبناء عليه، يجب على زوريلو أن يحضر يوم سفرك ليترجم كل ما عندك من قول.

فما عند زوريلو، وكانت ليلة عذبة ندية، وكان لهمسات شفاء المراتين نغمات حب مؤثرة هزت أعطافي.

عدنا نحن الثلاثة على الحصان متتدين حرصاً على بطن زورايما. وعلي أن أسافر بعد ظهور الهلال بثمانية أيام لأن لالي أرادت التأكد من حملها، ففي الشهر القمري الأخير لم تر دماً، وخشيت أن تكون مخطئة، ولكنها في هذا الشهر إن لم تطمئ فهذا دليل على أن الجنين قد تكوّن.

يحضر زوريلو كل ما يلزم من ملابس يجب أن ارتديها هناك، عندما أتحدث إلى الكاجيريين عارياً. ليلتذ يجب أن نذهب نحن الثلاثة إلى الساحر، وهو الذي يخبرنا، إذا

كان الباب الخاص بي سيفلق أم سيظل مفتوحاً، فهنا تفضلان معرفة ذلك على البقاء
منبوذتين ومبتذلتين في نظر نساء ورجال القرية.

وحين تلد زورايما ستخرج مع صياد لاستخراج كثير من اللآلئ التي سوف تحتفظ
بها من أجل. ولاي ستعود بعد فترة للصيد كل يوم لتملأ وقتها. ولقد ندمت على أنني لم
أتعلم من لغة الكاجيرو سوى بضع كلمات، فعندي الكثير لأقوله لهم، ولا أستطيع قوله
عن طريق المترجم.

وأول شيء نفعله عند وصولنا هو مقابلة زاتو لنعرض عليه اعتذارنا عن ذهابنا دون
إذن منه. ولا يقل زاتو نبلاً عن أخيه، فقبل أن أنطق بكلمة واحدة وضع يده على عنقي
وقال: ويلو أي: اسكت. سيهل الهلال الجديد بعد اثني عشر يوماً وإذا أضفنا ثمانية أيام
للمراقبة سيكون المجموع عشرين يوماً ويومئذ سأكون على درب الرحيل.

نظرت في المصور من جديد مبدلاً بعض التفاصيل في أسلوب اجتياز القرى.
وأعدت النظر فيها قاله جوست. في أي مكان سوف أكون أكثر سعادة من سعادي هنا؟
حيث يحبني الجميع. ألا أصنع شقائي بيدي إذا رجعت إلى الحضارة؟ المستقبل سوف
يكشف عن ذلك. هذه الأسابيع الثلاثة مرت كالحلم. فقد تأكدت لآلي من حملها، وهكذا
سيكون بانتظار عودتي ولدان أو ثلاثة. لماذا ثلاثة؟ أخبرتني لآلي بأن والدتها أنجبت توأمين
مرتين. ذهبا إلى الساحر وأوصى بأن لا يغلق بابي الخاص، إنما نضع غصن شجرة عند
مدخله. والسرير الذي كنا ننام عليه نحن الثلاثة يجب أن يبقى معلقاً وتنام عليه المراتان
لأنها بمثابة شخص واحد. ثم أجلسنا قرب النار ووضع فيها أوراقاً خضراً أحاط بنا
دخانها أكثر من عشر دقائق.

رجعنا إلى دارنا ننظر زوريلو الذي وصل بالفعل في المساء ذاته. أمضينا الليل كله
متحلقين حول النار أمام بيتي نتكلم وكنت، بوساطة زوريلو، أقول لكل هندي قولاً كريماً
وكان يجب ببعض القول. وعندما مقعت الشمس انسحبت أنا ولاي وزورايما إلى الكوخ
نستمع بحبنا طيلة النهار. ركبنا زورايما فوقي لتشعري بنفسها. ولاي تلتف بي وكان
لبلاً قد تثبت في عضوها الذي كان ينبض كنبض القلب.

الرحيل بعد الظهر قلت (وزوريلو يترجم):

زاتو! يا زعيم هذه العشيرة العظيم، يا من استقبلني ومنحني كل شيء جئتكم طالباً
السماح لي بمغادرتكم لعدة شهور قمرية.

— لماذا تريد مفارقة أصدقائك

— لأعاقب من طاردوني مطاردتهم لوحش. وبفضلك أنت وفي قرينك وجدت الأمن
والحمى وعشت سعيداً، أكلت أطيب الطعام، وعاشت أنبل الأصدقاء، ولي زوجتان

وضعتا الشمس في صدري. ولكن هذا كله لا ينبغي أن يحول رجلاً مثلي إلى دابة لحاء إلى كهف دافئ وبقيت فيه كل الحياة هرباً من مرارة الكفاح. سوف أواجه أعدائي، وأذهب إلى أبي الذي يحتاجني. أما هنا فأنني أترك روحي في زوجتي لالي وزورايما، وفي الأولاد الذين هم ثمرة التحامنا. كوخني لها وللأولاد الذين سيولدون. وأمل منك يا زاتو، إذا نسي أحد هذا أن تذكره، وأطلب بالإضافة إلى حذرك واحتراسك أن يقوم رجل يدعى أوسلي بحماية أسرتي ليل نهار. لقد أحببتكم جميعاً وسوف أبقى عبداً لكم، وسوف أفعل المستحيل لأرجع إليكم في أسرع وقت، وإذا مت وأنا أتمم واجبي، فإن روحي ستأتي إليكم، إلى لالي وزورايما وأولادي، وإليكم جميعاً يا هنود الكاجيرا، فأنتم أسرتي.

دخلت كوخني تتبعني لالي وزورايما. ارتديت قميصاً وبنطالاً كاكياً وجوارب وحذاء. سرت وأنا أتلقت طويلاً نحو هذه القرية المحبوبة إلى قلبي شبراً فشيراً، حيث قضيت ستة أشهر كاملة. عشيرة الكاجيرا هذه مرهوية الجانب تهاها القبائل الأخرى والرجال البيض على حد سواء. أما أنا فقد وجدت فيها متنفساً لا نظير له، وملاذاً من شرور الرجال، ووجدت في كفها الحب والأمن والاستقرار والنبيل.

وداعاً كاجيرو. وداعاً أيها الهنود المستوحشون في شبه جزيرة كولومبية – فنزويلية، أرضكم العظيمة لحسن الحظ، لا ينازعكم عليها أحد، وبعيدة عن كل تدخل من الحضارتين اللتين تحيطان بكم – طريقتكم في العيش والدفاع عن أنفسكم علمتني شيئاً هاماً جداً أفادني في مستقبلي وهو: لأن أكون هندياً متوحشاً خير من أكون مجازاً في الآداب والقضاء.

وداعاً لالي وزورايما. وداعاً للمرأتين اللتين لا يشق لهما غبار في ردود الفعل القريبة من الطبيعة، واللتين تسلكان سلوكاً عفواً فطرياً. إنهما وضعتا ساعة الرحيل كل ما في الكوخ من لآلئ في كيس صغير من القماش.

عودتي مؤكدة لا ريب فيها، ولكن متى؟ وكيف؟ لست أدري. إنما عاهدت نفسي على هذا. ركب زوريلو عند الأصيل حصاناً، واتجهنا نحو كولومبيا، وكان معي قبعة من القش، وكنت أمسك بعنان الفرس. كان رجال القبيلة بدون استثناء يسترون وجوههم باليد اليسرى، ويمدون اليد اليمنى نحوي، يقصدون بهذا أنهم لا يودون رؤيتي مرتحلاً. لأن هذا يمز في نفوسهم، يمدون الأذرع بإشارة تعبر عن رغبتهم في الاستمساك بي. رافقتني لالي وزورايما قرابة مئة متر، وبقينا كائنات تهمان بتقبيلي عندما رجعتا فجأة إلى البيت وهما تنتحبان دون أن تلتفتا نحوي.

العودة إلى الحضارة سجن سانتا مارتا

لم يكن الخروج من منطقة كاجيرا الهندية عسيراً. اجتزنا مراكز حدود لا فيرا دون حادث. استطعنا على الحصان أن نجوب في يومين ما قطعته في زمن طويل مع أنطونيو. وليس غير هذه المراكز الحدودية ما هو خطر جداً. وهناك أيضاً خط طوله مئة وعشرون كيلو متراً إلى ريوهاشا القرية التي منها هربت. بدأت مع زوريلو أول تجربة حوار مع مدني كولومبي التقينا به في استراحة يباع فيها الطعام والشراب وقد أحسنت التخلص/بشهادة زوريلو. إن الفأفة تساعد كثيراً على طمس اللهجة وأسلوب الكلام. سلكنا طريق العودة إلى سانتا مارتا، وعلى زوريلو أن يفارقني في منتصف الطريق ليعود أدراجه هذا الصباح. وقد فارقني فعلاً، واتفقنا على أن يأخذ معه الحصان. وفي الواقع إن اقتناء جواد يشبه اقتناء مسكن في قرية محددة، وحينئذ تكون المغامرة في أن يكون المرء مكرهاً على الإجابة عن أسئلة محرجة: هل تعرف فلاناً؟ ما اسم المختار؟ ماذا تفعل السيدة الفلانية؟ لذا فضلت السير على الأقدام على ركوب الباص أو الشاحنة، وبعد سانتا مارتا في القطار، ويجب حينئذ أن أبدو أمام الجميع غريباً يعمل في أي مكان من هذه المنطقة ويعمل أي شيء.

كان زوريلو قد بدل ثلاث قطع ذهبية وأعطاني ألف بيزو. إن العامل الجيد يكسب في اليوم بين ثماني وعشر بيزات. إذن بإمكانني العيش زمناً طويلاً.

ركبت شاحنة كانت ذاهبة إلى مكان قريب جداً من سانتا مارتا حيث المرفأ الهام الذي يبعد مئة وعشرين كيلو متراً عن نقطة افتراقي عن زوريلو. وهذه الشاحنة ذاهبة لتحميل الماعز أو الجديان لا أعرف بالضبط.

كانت الحانات على الطريق تتباعد خمسة أو ستة كيلو مترات، وكان السائق ينزل

عند كل حانة ويدعوني للشراب. يدعوني وأنا أدفع. وفي كل مرة كان يشرب خمسة أو ستة أقذاح من كحول كالنار، وأنا أتناظر بالشرب، وما كدنا نقطع مسافة خمسين كيلو متراً حتى أمسى ثملاً مغموراً كالأتان، حتى أنه أخطأ الطريق ودخل في درب موحل غرزت فيه الشاحنة وتعذر الخروج، ولم يأبه لهذا بل راح يغط في نوم عميق في الخلف بعد أن طلب مني أن أنام في حجرة القيادة؛ وحرث في أمري إذ لا يزال أمامنا مسافة أربعين كيلو متراً إلى سانتا مارتا ووجودي معه يحول دون طرح الأسئلة علي في مصادفتي مع الآخرين. ومن ناحية أخرى كان يمكن أن أصل في وقت أقصر مما لو ذهبت ماشياً رغم الوفيات العديدة التي كان يقفها. لذا عزمت على النوم وقد أوشتك الصبح أن ينبج أشرفت الشمس والساعة تقارب السابعة. وصلت عربة يجرها جوادان، والشاحنة تعترض سبيلها. أيقظوني وهم يحسبونني السائق، نظراً لوجودي في حجرة السائق فتظاهرت بالنوم وأنا أفاني، وكان إيقاظي المفاجيء جعلني لا أدري ما حوي. أفاق السائق وناقش سائق العربة. ورغم المحاولات العديدة لم نتوصل إلى إخراج الشاحنة، فالوحد قد بلغ محور السيارة، ولم تبق لنا حيلة.

كان في العربة راهبتان ترتديان اللباس الأسود ومعهما ثلاث فتيات صغيرات. وبعد مناقشات عديدة اتفق الرجلان على تمهيد جانب من الأرض لكي تعبر العربة، أحدهما يلبها على الطريق والآخر على القسم المهد، وعلى مسافة عشرين متراً. وبالإستعانة بمحصد قصب السكر (وهي أداة يحملها كل رجل في الطريق) كانا يقطعان كل ما من شأنه الإعاقة، وأنا أرتبه في الدرب لأقلل من الارتفاع، وكيلا تغرس العربة في الوحل. وبعد ساعتين من العمل كان المرء جاهزاً. وسألتي الأختان عن وجهة سيرتي بعد أن شكرتا لي. قلت: سانتا مارتا. قالتا: ولكنك لا تسلك الطريق الصحيح وينبغي أن ترجع إلى الورا معنا، نقودك إلى مكان قريب جداً يبعد ثمانية كيلو مترات عن سانتا مارتا. استحال علي الرفض لأنه سيبدو أمراً مريباً. وإذا زعمت بأنني أود البقاء هنا مع سائق الشاحنة لمعاونته فإن هذا يقتضي كلاماً مطولاً وفي ذلك صعوبة شديدة، لذا آثرت القول: غراتسيا، غراتسيا (أي شكرًا). فجلست في الخلف إلى جانب الصغيرات، والأختان الطيبتان على مقعد أمامي إلى جانب السائق. انطلقنا مسرعين لاجتياز بضعة الكيلو مترات التي دخلناها خطأ. ولما وصلنا إلى الطريق العام سرنا سيراً حثيثاً. وعند الظهر نزلنا عند استراحة لتناول الطعام. جلس السائق والفتيات الصغيرات إلى مائدة، وأنا والأختان إلى مائدة أخرى. الراهبتان شابتان يتراوح عمراهما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، بشرتهما بيضاء صافية. إحداهما إسبانية والأخرى إرلندية، سألتني الإرلندية في لطف:

— أنت لست من هنا أليس كذلك؟

— أجل. أنا من برانكيا.

— لا. لست كولومبياً، فشعرك أشقر، ووجهك أسمر لوحته الشمس. من أين أنت

قادم؟

— من ريو هاشا
— ماذا كنت تفعل هناك؟

— عامل كهرباء.

— آه. لي صديق في شركة الكهرباء يدعى بيزو، إنه إسباني، هل تعرفه؟

— أجل

— هذا يسرني.

وبعد الطعام نهضتا لغسل أيديهما. وعادت الإيرلندية وحدها. نظرت إلى وقالت بالفرنسية:

— لن أخونك ولكن رفيقتي تقول بأنها رأت صورتك في إحدى الصحف. أنت الفرنسي الهارب من سجن ريو هاشا أليس كذلك؟
وجدت أن الإنكار أخطر فقلت:

— نعم يا أختاه، وأتوسل إليك أن لا تذكرني شيئاً عن هذا. لست ذلك الإنسان الشرير كما صوروني في الصحف. أنا أحب الله وأعظمه.

جاءت الإسبانية فقالت لها الأخرى نعم. فردت بقول سريع لم أفهمه. وبدأ عليهما التفكير. ونهضتا من جديد وذهبتا نحو المغسلة من جديد. وخلال الدقائق الخمس التي غابتا فيها، فكرت كيف أتصرف بسرعة. هل يجب أن أرحل؟ هل يجب أن أبقى؟ هذا يعود إلى ما تفكران فيه في الإخبار عني. فإن ذهبت فسرعان ما يعثر علي، فليس في المنطقة دغل أو حرج، وكذلك فلإن الطرق المؤدية إلى المدن هي بالتأكيد سريعة المراقبة. واستسلمت للقدر الذي لم يكن ضدي حتى اليوم.

عادتا باسمتين وسألتي الإيرلندية عن اسمي فقلت انريك.

— حسناً يا إنريك. ستأتي معنا إلى الدير وهو على بعد ثمانين كيلو مترات من سانتا مرتا. ولا تخشى شيئاً على الطريق وأنت معنا في العربة ولا تتكلم فسوف يظن الجميع أنك تعمل في الدير.

دفعت الأختان ثمن الطعام. اشتريت اثنتي عشر علبة سجائر وقداحة صوفان وشققنا طريقنا إلى الدير. وعلى طول الطريق لم توجه لي الأختان أية كلمة، وقد سرني هذا لأن الخوذي لن يتنبه إلى أنني لا أحسن التكلم. وقفنا أصيلاً عند استراحة كبيرة ورأيت باصاً مكتوباً عليه: ريو هاشا — سانتا مارتا. ورغبت في ركوبه فاقتربت من الإيرلندية وقلت لها إنني أميل إلى ركوب هذا الباص. قالت: إنها لمخاطرة. فعلى الطريق ما لا يقل عن مركزين للشرطة يطلبون من المسافرين هوياتهم. وهذا لا يحصل في العربة.

فشكرت لهما بحرارة. وحينئذ زال فجأة ما كان في قلبي من غم حل به منذ اكتشافهما لشخصيتي. وعلى العكس كان من حسن حظي أن قابلت هاتين الأختين الطيبتين. وبالفعل وصلنا عند حلول الغسق إلى مخفر للشرطة وقد تعرض للتفتيش باص قادم من

سانتا مارتا وذاهب إلى ريوهاشا. رقدت على أرض العربة والقبعة من القش تغطي وجهي وتظاهرت بالنوم. والطفلة الصغيرة ذات الأعوام تنام حقاً متكئة برأسها على كتفي. وعندما مرت العربة أوقف الحوذي عربته بين المخفر والباص. قالت الراهبة الإسبانية:

— (كومو استان بور اكي) أي كيف حالكم هنا.

— جيد جداً يا أختاه

— أنا مسرورة هيا يا أولادي.

وذهبنا في هدوء. وفي العاشرة مساء مررنا على غفر آخر يعج بالأضواء. وهناك صفان من العربات من كل نوع واقفة في الانتظار. تفتح صناديق السيارات ورجال الشرطة ينظرون داخلها رأيت امرأة اجبرت على النزول وقد فتشوا حقيبة يدها ثم قادوها إلى المخفر ومن المحتمل أن لا يكون معها بطاقة شخصية.

لا حيلة لنا في هذه الحالة، فالعربات مترددة، ونظراً لوجود صفين لا يمكن أن يكون لنا عمر خطوة فخطأ خطأ المسافة، ويجب أن نخضع للانتظار. ألقيت نفسي ضائعاً. أمامنا باص صغير مزدحم بالمسافرين، وعلى السطح في أعلاه حقائب وطرود كبيرة. وفي الخلف أيضاً نوع من الشبك الكبير مليء بالطرود. أربعة أشراف أنزلوا الركاب وليس لهذا الباص سوى باب واحد من الأمام نزل الرجال، والنساء وعلى أذرعهن أطفالهن، ثم صعدوا واحداً بعد واحد.

سيدولا، سيدولا. وأخرجوا جميعاً بطاقتهم وعليها صورهم ثم أبرزوها.

زوريلو لم يحدني قط عن هذا. ولو كنت أعلم لربما تدبرت واحدة مزيفة. وفكرت إذا تجاوزت هذا المخفر في أن أدفع أي مبلغ للحصول على (سيدولا) أي هوية شخصية، قبل أن أغادر سانتا مرتا إلى يرانكيا وهي مدينة ذات شأن وعدد سكانها كما يذكر المعجم مثان وخمسون ألفاً.

رباه ما أطول الإجراءات في هذا الأتوبوس. التفتت الأخت الإيرلندية نحوي وقالت لي اطمئن يا أنريك. وما كنت أود منها هذه العبارة غير الحكيمة، فقد سمعها السائق ولا شك، وتقدمت عربتنا بدورها في هذا الضوء الباهر. قررت أن أجلس لأن الاستلقاء قد يوحى بأنني أحتجى. أسندت ظهري إلى ألواح العربة الخشبية ووجهي نحو ظهر الأختين، ولا يرى مني سوى جانب وجهي والقبعة مضغوطة فوق رأسي ولكن دون مبالغة.

قالت الراهبة الإسبانية:

— كومو استان تودوس بور اكي) كيف حالكم جميعاً هنا؟

— جيد جداً أيتها الأخوات ولكن ما الذي أخرجكم إلى الآن؟

— حالة طارئة، لذا لا تؤخرونا، فنحن في عجلة من أمرنا.

— هيا. الله معكم. يا أختينا.

— شكراً يا أولادي . حفظكم الله .

— آمين .

ومررنا دون أن يطلب منا أحد شيئاً . ويبدو أن الانفعالات في هذه الدقائق العصبية قد أثرت في الأختين ، فشكنا من ألم في بطنهما . إذ ما كادت العربية تبعد مئة متر من هناك حتى أوقفنا العربية وتوغلنا في الدغل قليلاً ثم استأنفنا السير . وشرعت بالتدخين وكنت متأثراً ، حتى إذا صعدت الإيرلندية قلت لها : شكراً يا أختاه .

لا شيء يستحق الشكر ، ولكن داخلنا من الخوف ما سبب لنا اضطراباً في أحشائنا . وصلت إلى الدير موهناً وكان له باب وسور كبيران . أخذ السائق الخيول إلى المبيت ، وسبقت البنات الصغيرات إلى داخل الدير . وعلى عتبة الساحة انعقدت مناقشة بين الراهبة الحارسة والأختين . قالت لي الإيرلندية بأنها لا تريد إيقاظ الراهبة الأم لتطلب منها السماح بالمبيت في الدير . وهنا فقدت الحزم والقرار . كان ينبغي أن استغل هذا الموقف لكي أنسحب واذهب إلى سالتا مرتا بحيث أعلم أنه لم يبق بيبي وبينها سوى ثمانى كيلو مترات . هذا الخطأ كلفني فيها بعد سبعة أعوام في السجن . وأخيراً استفاقت الأم العليا . أعطيت غرفة في الطابق الثاني . كنت أرى من النافذة أضواء المدينة وميزت المنارة ، وأضواء مركز عسكري . كان يخرج من المرفأ مركب كبير .

ثم . وعند شروق الشمس قرع الباب ، وكنت أرى رؤيا رهيبة : لالي تفتح بطنها أمامي وتخرج منه الجنين إرباً .

حلقت لحيتي ، وأسعرت في تمشيط شعري ، ونزلت إلى الطابق الأول وكانت الأخت الإيرلندية في أسفل السلم ، فاستقبلتني بطيف ابتسامة على ثغرها .

— صباح الخير يا هنري . هل تمت جيداً ؟

— نعم أختاه

— تفضل أرجوك إلى مكتب الأم التي تود رؤيتك .

فدخلنا فראيت امرأة جالسة خلف مكتب . وجهها في غاية القسوة . لها من العمر خمسون سنة أو تزيد . تنظر بعينين سوداوين ، تخلوان من الأنس والوداعة .

— هل تحسن التكلم باللغة الاسبانية

— قليلاً جداً .

— حسناً ستقوم الأخت بالترجمة . قيل لي إنك فرنسي .

— نعم أماه .

— هل أنت هارب من سجن ريوهاشا ؟

— أجل أماه .

— منذ متى ؟

— منذ سبعة أشهر تقريباً .

— ماذا فعلت خلال هذه الفترة؟

— كنت مع الهنود

— ماذا؟ مع الكاجيرو؟ شيء لا يقبله العقل. أبداً هؤلاء الوحوش لم يقبلوا إنساناً
قط على أرضهم، ولم يستطع مبشر الدخول إليها. هل تتصور؟ لا أقبل هذا الجواب أين
كنت قل الحقيقة.

— أماه كنت عند الهنود وعندي البرهان.

— ما هو؟

— لآلء صادوها بأنفسهم.

وفككت الكيس المعلق بدبوس في وسط ظهر ستري، فطرحتها أمامي.

— كم لؤلؤة؟

— لا أعلم خمس مئة، ست مئة.

— هذا ليس ببرهان، قد تكون سرقتها من مكان ما.

— أماه. لكي يكون ضميرك مرتاحاً. سأبقى هنا إن شئت، الوقت الكافي، إلى أن
تحصلي على المعلومات، إذا كانت هناك سرقة لؤلؤ. وعندي مال، وسوف أدفع نفقات
مبقي هنا، وأعد أنني لن أتحرك من غرفتي إلى اليوم الذي تتخذين فيه قراراً معاكساً.
نظرت إلي نظرة ثابتة وسرعان ما تبادر إلى ذهني أنها تحاول أن تقول: وإذا هربت؟
أنت هربت من السجن، والمهرب من هنا أسهل.

— سأترك لك اللآلء التي هي ثروتي وأنا أعلم أنها في يد أمينة.

— حسناً. هذا معقول. لا، لست ملزماً بالبقاء في الغرفة تستطيع النزول إلى
الحديقة في الصباح، وبعد الظهر، حين تكون الفتيات في الكنيسة، وسوف تأكل مع
الطباخين، في المطبخ.

خرجت من هذه المقابلة وأنا بين الشك واليقين. وفي الوقت الذي كنت أهم فيه
بالصعود إلى غرفتي قادتني الارلندية إلى المطبخ. قدموا لي القهوة بالحليب في جام^(١)،
وخبزاً أسود طازجاً وزبدة. شهدت الأخت فطوري واقفة واجمة ويبدو عليها القلق. قلت:
— شكراً لك أختاه على كل ما فعلت من أجلي.

— كنت أتمنى أن أفعل أكثر ولكن خرج الأمر من يدي يا صديقي هنري.

وبعد هذه الكلمات خرجت من المطبخ وأنا جالس أرى من النافذة المدينة والمرقا
والبحر، والريف في الضواحي حسن الزرع.

لا أستطيع التخلص من الإحساس بالخطر حتى أنني عزمت على الفرار في الليلة
القادمة لا أبالي بالآلء، لتحفظ بها للدير أو لنفسها. الأم الكبيرة لا توحى بالثقة،
ومن جهة أخرى لا يمكن أن تخدعني، إذ كيف يتفق لراهبة دير عالية أن لا تتكلم اللغة

(١) زبدية، أو سلطانية.

الفرنسية؟ هذا نادر جداً إذ أن ساهرب الليلة. سأنزل بعد ظهر اليوم إلى الساحة للنظر في المكان الذي يمكن أن أنسل منه.

وحوالي الساعة الواحدة قرع الباب:

— تفضل بالتزول للغداء يا هنري.

— شكراً. سأتي حالاً.

وبينما كنت جالساً على المائدة ولما أبدأ بأكل اللحم والبطاطا المسلوقة انفتح الباب وظهر رجل مسلح ببندقية، وأربعة من رجال الشرطة في ملابسهم البيض ويأيدهم المسدسات.

— لا تتحرك وإلا قتلتك!!

ووضع القيد في يدي. صاحت الراهبة الإيرلندية صيحة وأغمي عليها. وتعاونت على حملها راهبتان كانتا في المطبخ.

قال رئيسهم، قاموس أي هيا بنا.

صعد معي إلى غرفتي، ونبشوا أمتعتي فعثروا على القطع الذهبية الست والثلاثين، وكل واحدة تساوي مئة بيزو. وبقي معي الأنبوبة دون أن يفتنوا لها. وكذلك السهمان وربما حسبوها قلمين. وفي ارتياح مفضوح وضع الذهب في جيبه جهازاً ثم خرجنا. وكان في الساحة عربة ما. تكدست أنا ورجال الشرطة الخمسة في العجلة التي انطلقت بنا بسرعة ويقودنا سائق في ملابس شرطي، أسود كالفحم.

لقد قضي علي، ويجب أن لا أعترض، وأن أحاول التزام جانب الوقار، وليس علي أن أتمس رحمة. خطر ببالي هذا كله خطور السهم وقلت لنفسي: كن رجلاً، والمهم أن لا تفقد الأمل، وعندما ترجلت من العربة عزمت على الظهور بمظهر الرجال وقد نجحت في ذلك إلى درجة أن الضابط بادر إلى القول بعد أن تفحصني: إن هذا الفرنسي جريء ولا يبدو عليه الخوف من وقوعه بين أيدينا، دخلت مكتبه، ورفعت قبعتي وجلست قبل أن يطلب مني ذلك، ووضعت خرجي بين قدمي.

— توسابس هايلار اسبانيول؟ هل تتكلم الإسبانية؟

— لا

— ناد الحذاء

— وبعد لحظات وصل رجل قصير يرتدي صدارة زرقاء ويده مطرقة الحدائين

— هل أنت الفرنسي الذي فر من ريوهاشا منذ عام؟

— لا

— أنت تكذب

— أنا لا أكذب. ولست ذلك الفرنسي الذي فر منذ عام.

— فك قيوده. اخلع سترتك وقميصك. (أخذ ورقة ونظر إلى الوشم المرسوم عليها)

- هل أنت فاقد إيهامك الأيسر.
- أجل
- إذن هو أنت
- إنه غيري. لأنني لم أهرب منذ سنة، بل منذ سبعة أشهر.
- سيان
- بالنسبة إليك سيان أما بالنسبة إلي فلا.
- إني أرى: أنت قاتل غودجي، ان كنت فرنسياً أو كولومبياً، فكل القتلة متشابهون في كونهم صعباً قيادهم. أنا المقدم الثاني في هذا السجن، ولا أدري ما عساهم يفعلون بك وفي الوقت الحاضر ستتضم إلى زملائك القدامى.
- أي زملاء؟
- الذين أتيت بهم إلى كولومبيا.
- تبعت رجال الشرطة الذين قادوني إلى سجن تشرف شبكته على الباحة فوجدت أصدقائي الخمسة فتعانقنا. قال كلوزيو: تصورنا أنك نجوت إلى الأبد يا صديقي. وبكى ماتوريت مثل ولد صغير. والثلاثة الآخرون اعتصرهم الأسى. واللقاء بهم من جديد يمنحني قوة. قالوا لي: حدثنا.
- فيما بعد، وماذا عنكم؟
- نحن هنا منذ ثلاثة أشهر
- هل عاملوكم معاملة حسنة؟
- ليست بالحسنة ولا السيئة. ونحن بانتظار نقلنا إلى برانكيا حيث يبدو أنهم سوف يسلموننا إلى السلطات الفرنسية.
- يا لعصبة الأندال! والهروب؟
- أتفكر بالهروب وأنت واصل لتوك.
- لا، ولكن أحياناً. أو تظن أنني أهجر الوطن هكذا؟ هل المراقبة مشددة؟
- المراقبة في النهار قليلة، أما في الليل فتوجد حراسة مخصصة من أجلنا.
- ما عددهم؟
- ثلاثة.
- كيف ساقك؟
- أحسن، ولا أعرج.
- هل أنتم محبسون دوماً؟
- لا. نتفصح في الساحة، ساعتين في الصباح وثلاث ساعات بعد الظهر.
- كيف هم السجناء الآخرون الكولومبيون؟
- فيهم رجال خطرون. هم لصوص أكثر منهم قتلة.
- كنت أتحدث مع كلوزيو بعد الظهر على انفراد عندما نوديت. تبعت الشرطي،

ودخلت المكتب الذي دخلته في الصباح، فرأيت المقدم المسؤول عن السجن وفي صحبته المقدم الذي استجوبني. كرسي الشرف يحتله رجل قاتم اللون يقرب من السواد، وهو بهذا اللون أقرب إلى الزنج منه إلى الهنود. شعره قصير جعد، إنه شعر زنجي يناهز الخمسين من عمره، عيناه سوداوان ماكرتان، شارباه قصيران جداً، يعتليان شفة ضخمة من فم ينم عن سرعة الغضب، قميصه مفتوح، ولا يضع ربطة للعنق. وعلى ذراعه الأيسر شارة خضراء وبيضاء وعليها بعض الزخارف، والحداء أيضاً هناك.

— أيها الفرنسي لقد قبض عليك بعد فرار دام سبعة أشهر. ماذا كنت تفعل خلال هذه الفترة.

- كنت عند الكاجيرو.
- لا تسخر مني وإلا طلبت تأديبك.
- إني أقول الحقيقة.
- لم يعيش أحد عند الهنود، عدا أنهم قتلوا من خفر السواحل هذه السنة خمسة وعشرين.
- لا. المهربون هم الذين قتلوا خفر السواحل.
- كيف عرفت ذلك.
- عشت هناك سبعة أشهر فالكاجيرو لا يخرجون من أرضهم أبداً.
- حسناً. قد يكون ذلك صحيحاً. ولكن من أين سرقت الست والثلاثين قطعة ذهبية

- إنها لي فقد أعطانيها رئيس القبيلة في الجبل اسمه جوست.
- من أين لهندي أن يحصل على هذه الثروة؟ وكيف يعطيها؟
- يا رئيس. هل توجد سرقة ذهب من فئة مئة بيزو.
- لا. هذا صحيح. ليس في اللوائح سرقة. وهذا لا يمنع من أن نستعلم.
- افعل ذلك إكراماً لي.
- أيها الفرنسي. ارتكبت خطأ فادحاً بهروبك من سجن ريوهاشا، والخطأ الأدهى أنك هربت رجلاً كان سيقول رماً بالرصاص لقتله عدداً من خفر السواحل. والآن علمنا أنك مطلوب من قبل فرنسا حيث عليك أن تتحمل عقوبة السجن المؤبد. أنت قاتل خطر. لذا لن أغامر بهروبك من هنا بتركك مع الفرنسيين الآخرين. ستبقى في سجن مظلم حتى ساعة ترحيلك إلى برانكيا. والقطع الذهبية ستعاد إليك إذا لم يظهر أنها مسروقة.

خرجت متقاداً إلى سلم منحدر تحت الأرض أكثر من خمس وعشرين درجة. وصلنا إلى مر هزيل النور، وعلى جانبيه أفقاص. فتحوا أحدها ودفعوني إلى داخله، وعندما يغلق الباب، وهو مغل على المشى تفوح رائحة عفنة من أرض لزجة. كانوا ينادونني من كل جهة، وخلف كل نقب مشبك بالحديد سجين أو سجينان أو ثلاثة.

— فرنسي، فرنسي! لم أنت هنا؟ ماذا فعلت؟ هل تعلم أن هذه الزنانات أعدت للموت؟

ونادى مناد:

— اسكتوا. دعوه يتكلم.

— أجل أنا فرنسي، وأنا هنا لأنني هربت من سجن ريوهاشا (وقد فهموا هذه اللجلجة باللغة الأسبانية كل الفهم).

— تعلم هذا يا فرنسي! في قاع الزنانة دف خشبي للنوم، وعلى يمينك علبة فيها ماء فلا تبدده لأنك لن تعطى سواء إلا القليل كل صباح، وعلى يسارك دلو عوض عن المراحيض غطه بسترتك. فلست هنا في حاجة إلى السترة نظراً لشدة الحر، وذلك لتخفف الرائحة نحن جميعاً نسد دلائنا ببعض أمتعتنا.

اقتربت من الشباك محاولاً تمييز الوجوه، فتوضحت لي معالم وجهين فقط كانا مقابلين لي وقد التصق وجهاهما بالشبك. أحدهما من طراز هندي إسباني، من نفس جنس رجال الشرطة الذين أوقفوني في ريوهاشا، والآخر أسود، وليس سواده حالكاً، إنه شاب يافع، وقد أُنذرتني بأن الماء في أرض السجن يرتفع كلما اشتد المد، وعلي أن لا أجزع فإن الماء لن يرتفع أكثر من مستوى البطن، وأن لا أقبض على الجرذان التي تتمكن من الركوب علي، إنما أكتفي بتسديد ضربة لها، وقال: ولا تضربها إذا شئت أن لا تعضك. سألته:

— منذ كم أنت هنا؟

— منذ شهرين

— والآخرين

— ليس فيهم من زاد مكثه على ثلاثة أشهر، والذي أمضى ثلاثة أشهر ولم يخرج فإنه لا حالة هالك.

— ما أطول مدة قضاها رجل هنا؟

— ثمانية أشهر، ولكن لم يبق من يبقى طويلاً.

وهذا الشاب منذ شهر وهو لا يستطيع الوقوف إلا على ركبتيه، وإذا جاء يوم يطغى فيه المد فإنه يكاد يموت غرقاً.

— ولكن بلدكم بلد متوحش.

— لم أقل لك إن بلدنا متمدن، وليس بلدكم متحضراً كذلك، ماداموا قد حكموا عليك مؤبداً. عندنا في كولومبيا، إما الإعدام وإما عشرون سنة، ولا يوجد حكم بالسجن المؤبد.

— دع عنك هذا، فكلهم سواء في كل مكان.

— هل قتلت كثيراً؟

— لا. قتلت واحداً.

— مستحيل لا يحكمون هذه المدة الطويلة برجل واحد.

— أؤكد لك أن هذا صحيح.

- إذن أنت ترى معي أن بلدك لا يقتل وحشية عن بلدي.
 - لندع المناقشة في البلد. أنت على حق فرجال الشرطة في كل مكان قدرون.
 وأنت ماذا فعلت؟
 - قتل رجلًا وابنه وامرأته.
 - لماذا؟
 - لأنهم ألقوا بأخي الصغير إلى الخنزيرة لتأكله.
 - مستحيل. يا للفظاعة.
 - كان أخي وعمره خمس سنوات يلقي بالحجارة على ولدهم فجرحه في رأسه.
 - ليس هذا مسوغاً لقتله.
 - هذا ما قتلته عندما علمت بالامر.
 - وكيف عرفت؟
 - غاب أخي ثلاثة أيام. وبينما كنت أبحث عنه وجدت أحد نعليه في دمنه^(١) كانت
 أخرجت من حظيرة الخنزيرة، وبينما كنت أنبش فيها وجدت جورباً أبيض مضرجاً بالدم
 ففهمت، واعترفت الأم قبل أن أقتلها، وجعلتهم يصلون قبل أن أطلق النار. والطلقة
 الأولى حطمت ساقَي الأب.
 - أحسنت صنعاً بقتلهم، ما عساهم يفعلون بك؟
 - عشرون عاماً على الأكثر.
 - ولماذا أنت هنا؟
 - ضربت شرطياً من أسرهم كان هنا في السجن، ثم أبعدوه، لذا فأنا مرتاح.
 انفتح باب المر ودخل حارس مع سجينين يحملان برميلاً خشبياً معلقاً على
 قضيبين، وخلفهم حارسان يحملان بندقيتين. كانوا يخرجون الدلاء المستعملة بدلاً من
 المراحيض، ويفرغون ما فيها في البرميل، والروائح تسمم الجو إلى درجة الاختناق.
 وعندما وصلوا إلي ألقى لي الذي حمل دلو، بطرد صغير على أرض السرداب فدفعته
 برجلي إلى الداخل في سرعة. ولما انصرفوا وجدت عليتي سجائر وقداحة صوفان وورقة
 مكتوب عليها باللغة الفرنسية. أشعلت أولاً سيجارتين وألقيت بهما إلى الرجلين المقابلين.
 وناديت جاري فمد يده وتناول السجائر وهو بدوره مدها للآخرين وبعد هذا التوزيع،
 أشعلت لفافتي وحاولت أن أقرأ ما في الورقة على ضوء المرفلم أتمكن. وحينئذ برمت
 الورقة التي لفت بها عليتي السجائر، برماً دقيقاً، وبعد جهد متكرر أشعلت الورقة وقرأت:
 «تشجع بابيون، اعتمد علينا، وانتبه جيداً. سنرسل لك غداً ورقة وقلماً لتكتب
 إلينا. نحن معك حتى الموت».
 فاشاع هذا القول في قلبي حرارة. فهذه الكلمة الصغيرة بالنسبة إلي مجدية للعزيمة

(١) مزبلة.

والنشاط، فأنا لست وحدي وبوسعي الاعتماد على صحي.
ما من أحد يتكلم، فالجميع يدخنون، وتوزيع السجائر جعلني أعرف أن عدد السجناء في سراديب المهلاك تسعة عشر. وهأنذا من جديد في طريق العفن. وهذه المرة إلى الأعتاق. فأخوات الرب الطيب، كن أخوات الشيطان. ومع ذلك فأنا واثق بأن من وشى بي لم تكن الراهبة الأيرلندية ولا الإسبانية. أية حماقة ارتكبتها بوثوقي بالراهبات.

آه. لا. لسن هن من فعل هذا. ربما فعله السائق الذي تكلمت الاختان أمامه بالفرنسية مرتين أو ثلاثاً دون تبصر ولا حذر. هل سمع؟ ماذا بهم؟ المهم أنني وقعت، وقعت بجذ. سواء أكان من أوقفني الأخوات أم السائق أم الراهبة الأم فالنتيجة واحدة.

لقد ألقي بي في هذا السرداب الشنيع الذي يفيض بالماء مرتين في اليوم بتأثير المد، والحر خائق جداً، نزعتم قميصي فينبطالي، وخلعت حذائي وعلقت الجميع بالشبك الحديدي. لقد قطعت ألفين وخمس مئة كيلو متر لأصل إلى هنا؟ ما أفظع هذا المآل حقاً. رباه! لقد كنت كريماً جداً معي فهل تتخل عني؟ ربما كنت غاضباً علي. أما وهبت لي حرية؟ وامرأتين راعيتين لا امرأة واحدة، والشمس والبحر، ومنزلاً كنت فيه سيداً بلا منازع. هذه الحياة في أحضان الطبيعة، هذه الحياة البدائية ولكن ما أعذبها وأهدأها من حياة. وهذه الهدية الفذة التي قدمها لي ألا وهي الحرية فلا حراس ولا قضاء، لا حساد ولا أشرار يحيطون بي، وأنا الذي لم أقدر هذه النعمة حق قدرها. هذا البحر بزرقته واخضراره وظلمته أحياناً، وشروق الشمس المغمور بالطمأنينة الصافية العذبة. هذا الأسلوب في العيش دون مال، ولا ينقص شيء ضروري لحياة رجل. كل هذا وطنته بقدمي وازدريته لأذهب، وإلى أين؟ إلى مجتمعات لا تريد أن تحو علي، إلى مخلوقات لا تكلف نفسها معرفة ما يكمن في نفسي من أسباب الصلاح. إلى عالم يدفعني عنه، ويرمي بي بعيداً عن الأمل، إلى تجمعات لا تفكر إلا في شيء واحد، هو إلزالي بأية وسيلة كانت.

عندما يسمع أولئك الرجال الاثنا عشر في القضاء خبر اعتقالي سوف يمرحون ويضحكون. الشاهد، ورجال الشرطة والمدعي العام، إذ لا بد أن يتيسر صحفي فيرسل النبأ إلى فرنسا. وحين يذهب رجال الشرطة إلى أقاربي ويعلمون لهم هروبي يسعدون بفرار صغيرهم أو أخيه من أيدي الجلادين، والان إذا علموا بالقبض عليه ثانية فسوف يغتمون مرة أخرى.

لقد أخطأت إذ تنكرت لعشيرتي. أجل أستطيع القول «عشيرتي» لأنهم جميعاً تبونني. لقد أخطأت واستحق ما جرى لي. ومع ذلك لم أهرب لأزيد في عدد الهنود في أمريكا الجنوبية. يا إلهي يجب أن أعيش في مجتمع متحضر سوي، وأبرهن على أنني جزء منه دون أن أكون خطراً عليه. هذا هو قدرتي معك أو بدون عونك. يجب أن أقيم الدليل على

أنني قادر حاضراً ومستقبلاً على أن أكون مخلوقاً سوياً إن لم أكن أفضل من أفراد آخرين في مجتمع ما أو بلد ما.

دخنت سيجارة. بدأ الماء يصعد حتى وصل إلى كعبي، فناديت الأسود وقلت له:

— كم يبقى الماء في الزنانة؟

— هذا منوط بقوة المد، ساعة أو ساعتين على الأكثر.

سمعنا بعض السجناء يصيحون: «استاله كاندو» أي وصل. وبدأ الماء يرتفع بالتدريج و شيئاً فشيئاً. تعلق الأسود والخلاسي بالقضبان الحديدية وتدلّى سيقانها في الممر وأحاطا بأذرعها قضيبين. سمعت ضجة في الماء. هذا جرد بحجم الهر، يحاول الصعود على الشبك، فتناولت حذائي ولما جاء من ناحيتي، سددت له ضربة على رأسه فجرى في الممر يصرخ. قال الأسود:

— يا فرنسي هل شرعت في الصيد؟ إذا أردت قتلها جميعاً فإنك لن تنتهي. اصعد على الشبك وتمسك بالقضبان وابق هادئاً.

اتبعت نصيحته ولكن القضبان تقطع فخذي، فلا أستطيع الثبات في هذا الوضع. كشفت الدلو، واستعدت سترتي وربطتها بالقضبان وتزلقت عليها فكانت لي كرسيّاً، مما يتيح لي في هذا الوضع احتمالاً أفضل. لأنني الآن شبه قاعد.

إن هجوم الماء وما يحمله معه من الجردان وكثيرات الأرجل والسرطانات الصغيرة هو أخطر وأكبر ما يستطيع احتماله بشر.

وبعد أن انحسر الماء بعد ساعة طويلة، يبقى وحل لزج، يزيد سمكه على ستمتر. لبست حذائي كيلا أخوض في الوحل. رمى الأسود بخشبة طولها عشرة ستمترات لأجرف بها الوحل ابتداء من خشبة النوم وحتى الممر. إن هذا العمل استغرق نصف ساعة، وجعلني لا أفكر إلا به. إنه أمر ما.. قبل المد التالي لن يكون عندي ماء خلال إحدى عشر ساعة بالضبط، إذن الساعة الأخيرة هي ساعة الفيضان. ولمعرفة إقبال الماء من جديد يجب عد الساعات الست حيث يكون الجزر والساعات الخمس حيث يعود إلى الصعود.

فأجريت هذا التفكير المضحك:

بابيون. أنت مقدر لك أن تكون على صلة مع مد البحر وجزره، والقمر — شئت أم أبيت — له أهمية كبيرة بالنسبة إليك وإلى حياتك. فبفضل المد والجزر استطعت الخروج من ماروني عندما هربت من سجن الميناء. وبحساب ساعة المد خرجت من ترينيداد ومن كوراساو، وإذا كنت قد وقعت في ريوهاشا فذلك لأن الجزر لم يكن بالقوة الكافية ليعيدني بصورة أسرع وأنت الآن تحت رحمة هذا المد الدائم الثابت.

إذا قبيض لهذه الصفحات أن تنشر يوماً ما، فلأنني واجد بين القراء من يرثي لحالي مما كابدت وتحملت من عذاب في هذه السجون الكولومبية. فهؤلاء هم الأخيار، وأما

الآخرون من أقاربي الاثني عشر الذين حكموا علي أو أخوة المدعي العام، فسوف يقولون: إنه يستحق ذلك ولو أنه بقي في سجن الميناء لما جرى له ما جرى وهل أقول لكم أيها الطيبون، ولكم أيها الشامتون، إنني لا أعرف اليأس أبداً وأفضل أن أكون في هذا السجن من القلعة الكولومبية القديمة التي بنتها محاكم التفتيش الاسبانية، على البقاء في جزر السلام حيث يجب أن أكون في هذه الساعة. لا يزال أمامي الكثير من محاولات الهرب، وأنا في هذا الثقب العفن لا زلت بعيداً عن سجن الميناء بمقدار ألفين وخمس مئة كليومتر

وما ندمت على شيء ندمي على عشيرتي الكاجيرا ولاي وزورايما، وعلى هذه الحرية في الطبيعة التي ليس فيها رغد الحضارة ولكنها أيضاً بدون شرطة ولا سجن ولا زنزانة. لا أفكر إلا بهؤلاء المتوحشين الذين لم يخطر ببالهم أن يمارسوا مثل هذا التعذيب على أعدائهم، فما بالك في رجل مثلي لم يرتكب قط جريمة في حق الكولومبيين.

استلقيت على اللوح الخشبي، ودخنت سيجارتين أو ثلاثاً في آخر الزنزانة، لثلا يرى الآخرون الدخان، وعندما أرجعت للأسود خشبته، ألقيت له بسيجارة مشتعلة، وهو بدوره فعل مثلي بثاقب نظره. هذه التفاصيل التي تبدو تافهة هي في مشاعري ذات قيمة. وهذا دليل على أننا نحن المنبوذين من المجتمع، لا تزال لدينا بقية على الأقل من أدب السلوك ورقة الاحتشام.

وليس الحال هنا كما في سجن التوقيف. أنا هنا أستطيع أن أحلم وأن أحوم في القضاء دون أن اضطر إلى وضع المنديل لحماية عيني من النور الباهر.

منذا الذي أخبر الشرطة بوجودي في الدير؟ آه لو عرفته يوماً لجعلته يدفع الثمن. ثم قلت لنفسني: لا تكن غيباً يا بابيون، فكر بما ستفعله في فرنسا. لم تأت إلى هنا، وأنت الضائع، لكي تسيء إلى أحد، ولا بد لهذا الواشي من أن تعاقبه الحياة نفسها، وإذا رجعت يوماً ما فليس من أجل الانتقام أعود بل من أجل لالي وزورايما، وربما من أجل أولادك منها. وإذا كتبت لي العودة إلى هذا البلد فسوف يكون ذلك من أجلهم، ومن أجل رجال الكاجيرا كلهم لأنهم أسعدوني بقبولي بينهم كواحد منهم.

لا زلت في طريق العفن، وفي زنزانة تحت الماء، وأنا في طريق الفرار والحرية شأوا لي هذا أم أبوا هذا شيء يستحيل إنكاره.

حصلت على ورقة وقلم وعلتي سجائر. وقد مضى على وجودي هنا ثلاثة أيام بل ثلاث ليالٍ إذ يستوي الليل والنهار. وبينما كنت أشعل السيجارة لم أستطع إخفاء شعور الإعجاب بهذا التفاني بين السجناء، فكيف يخاطر هذا الكولومبي الذي يأتي باليدخال؟ ولو أنه وقع لكان مصيره إلى هذه الزنزانة بلا ريب.

فهو حين قبل مساعدتي في محنتي ودون أن يعرفني لم يكن شجاعاً فحسب بل كان على درجة من النبيل نادرة. وبالطريقة نفسها في إشعال الورقة قرأت:

نحن نعلم يا بابين أنك صامد. برافو. خبرنا عن أحوالك. نحن على ما نحن عليه. جاءت راحة تتكلم الفرنسية لثراك ولم يسمحوا لها بمخاطبتنا ولكن أحد الكولومبيين قال لنا بأنه تسنى له أن يقول لها إن الفرنسي في سراديب الفناء. فقالت إنها ستعود. هذا كل شيء. إليك قبلاتنا. أصدقائك. ليست الإجابة سهلة ومع ذلك كتبت:

شكراً لكم على كل شيء، وإني لصبار على ما ينوبني. اكتبوا إلى القنصل الفرنسي، وما يدريكم. فهو صاحب التوكيل. ففي حالة الحوادث يجب أن يكون هناك من يستحق العقاب. لا تلمسوا رأس السهمين. فليعيش الهروب.

الهروب إلى سانتا مرتا

بعد ثمانية وعشرين يوماً، وبدخل من قنصل بلجيكي في سانتا مرتا، يدعى كلوزن، أخرجت من هذه المغارة الدنسة. وكان الرجل الأسود، ويدعى بالاسيوس قد خرج بعد ثلاثة أسابيع من وصولي. وهو صاحب فكرة إعلام أمه في إحدى زياراتها بأن تخبر البلجيكي بأن بلجيكياً مسجون في هذه الزنزانات المظلمة. وقد واثته الفكرة حين رأى القنصل يزور بلجيكياً يوم الأحد. في أحد الأيام اقتادوني إلى مكتب المقدم الذي بادرنى بالقول:

— أنت فرنسي فلماذا تقدمت بطلب التماس إلى القنصل البلجيكي. وكان في المكتب رجل يرتدي الملابس البيض يناهز الخمسين من عمره، شعره أشقر حتى كاد أن يكون أبيض، ووجهه مستدير ممتلئ متورد، وكان جالساً على أريكة وعلى ركبتيه محفظة جلدية، وفي الحال تحققت من صفته.

— أنت الذي تقول ذلك. أنا اعترفت بأنني هربت من العدالة الفرنسية، ولكنني بلجيكي قال الرجل القصير ذو الوجه الذي يشبه وجه خوري:

— ها، هل رأيت؟

— لم لم تقل هذا؟

— بالنسبة إلي، ليس لهذا أهمية، لأنني لم أرتكب جرماً ذا شأن على أرضكم سوى أنني هربت وهذا طبيعي بالنسبة لكل سجين.
— حسناً ستكون مع رفاقك، ولكن يا سيدي القنصل أذكرك بأنه عند أول محاولة للفرار ساعيدته إلى حيث أتى. خذوه إلى الحلاق ثم ضموه إلى زملائه. قلت بالفرنسية:
— شكراً لك يا سيدي القنصل؛ شكراً جزيلاً على ما تجشمت من أجل.
— يا إلهي، كم عانيت في هذه الزنزانة الشنيعة، انصرف مسرعاً، قبل أن يرجع هذا الحيوان عن رأيه، ساعد لرؤيتك. إلى اللقاء.

لم يكن الحلاق موجوداً، والتحقت برفاقي، ويبدو أنه كانت لي صورة غريبة، لأنهم لم يكفوا عن القول إننا ننكر. مستحيل. ماذا فعل بك القذرون؟ حدثنا، كلمنا عن شيء. هل أنت أعمى؟ ماذا في عينيك؟ لماذا توالي بين فتحهما وإطباقهما؟
— لأنني لم أعود هذا النور، هذا الضياء شديد جداً ويخرج عيني اللتين ألفتا الظلام. جلست وأنا أنظر نحو الزنزانة. ما أحسن الحال هنا.
— تفوح منك رائحة العفن، هذا أمر لا يتصوره عقل.

تعريت تماماً ووضعوا ملابسني قرب الباب. كان ذراعاي وظهري، وفخذاي وساقاي مليئة بآثار اللدغ الحمراء مثل لدغات البق عندنا، وعضات السراطين الصغيرة التي كانت تقوم مع المد. لقد كنت شنيعاً، ولم أكن في حاجة إلى مرآة لأعرف هذا.

هؤلاء السجناء الخمسة الذين شاهدوا الكثير في حياتهم، انعقدت ألسنتهم، وأذهلتهم رؤيتي على هذه الحال.

نادى كلوزيو شرطياً وقال له: إذا لم يكن هناك حلاق فإن الماء موجود في الباحة. فاجابه بأن عليه انتظار الخروج. خرجت عارياً وكلوزيو يحمل لي ملابس نظيفة لأرتديها.

وبمعاونة ماتوريت اغتسلت واغتسلت بصابون محلي أسود. وكلما اغتسلت زالت عن جسمي أدراج جديدة. وبعد اغتسال بالصابون تارة وبالماء تارة عدة مرات أحسست بأنني نظيف. جففت جسمي بالشمس في خمس دقائق ثم ارتديت ملابسني. وصل الحلاق وأراد أن يمز شعري جزاً قلت له: لا. قص عادية واحلق لحيتي وسوف أدفع لك.
— كم؟
— بيزو

قال كلوزيو: اتقن عملك وسوف أدفع لك اثنين.
أحسست بأن الروح قد ردت إلي بعد الاستحمام والحلاقة والملابس النظيفة. زفاقي يستعيدونني الحديث عن الماء وصعوده، وعن كثيرات الأرجل، والوحل، والسراطين، والقاذورات في البرميل، والأموات المخرجين وقد ماتوا إما حتف أنوفهم وإما إنتجاراً وإما شنقاً، وإما بالانتحار على أيدي رجال الشرطة. الأسئلة تنهال علي دون توقف، والكلام

الكثير أعطشني، وفي الساحة رجل يبيع القهوة ففي خلال الساعات التي قضيتها في الساحة شربت أكثر من عشرة فناجين قهوة ثقيلة محلاة بسكر غير مصفى، وكانت في فمي أطيب شراب في العالم. جاء الرجل الأسود لتحيتي. وشرح لي بصوت منخفض حكاية أمه مع القنصل البلجيكي، فصافحته في حرارة، وكان فخوراً بأنه سبب خروجي، ثم انسحب وهو في غاية السرور، وقال: لقد تكلمنا ما فيه الكفاية وسوف نتحدث غداً.

رأيت سجن رفاقي قصراً. فكلوزيو له سرير أرجوحي، يخصه اشتراه بمالي، أجبرني على النوم فيه. فتمددت فيه في اتجاه مخالف، فاستغرب هذا، وشرحت له بأنه إذا نام على السرير طويلاً فهذا يعني أنه يجهل طريقة استعماله.

كنا نأكل ونشرب وننام ونلعب بالداما والورق ونتكلم اللغة الإسبانية فيما بيننا ومع رجال الشرطة والسجناء الكولومبيين لتتمكن من هذه اللغة.

كل هذه النشاطات كانت تحمل نهارنا وجزءاً من ليلنا. إن النوم في الساعة التاسعة يشق على النفس. لهذا كانت تفاصيل الهروب من المستشفى من سان لوران إلى سانتا مارتا تتسلل أمام عيني وتتطلب الاستمرار وسوف تستمر، وقلت في نفسي: استعد قواك فهناك مراحل جديدة. كن واثقاً.

وجدت السهمين، وورق الكوكا، إحداهما جافة تماماً والأخرى لا تزال خضراء قليلاً فمضغتها فنظر إلي الجميع مدهوشين، فشرحت لهم بأن الكوكاتين يصنع من هذه الأوراق.

— أنت تسخر منا

— ذق

— فعلاً إنه يخدر اللسان والشفتين.

— هل يباع منه هنا؟

— لا أدري. كيف فعلت يا كلوزيو لتظهر المال من وقت إلى آخر؟

— بدلت في ريوهاشا ومنذ ذلك الحين وأنا في نظر الجميع أملك المال.

— عندي ست وثلاثون قطعة ذهبية من فئة مئة بيزو مع المقدم وكل قطعة تساوي

ثلاث مئة بيزو. وسوف أثير موضوعها في يوم من الأيام.

— إنها لثروة، ساومه عليها.

— إنهم جشعون

— فكرة حسنة.

تحدثت يوم الأحد مع القنصل البلجيكي، والسجين البلجيكي. هذا السجين منهم بسوء الائتمان في شركة أمريكية للموز، وقد كرس القنصل نفسه لحمايتنا وهو متحمس لإسداء خدمة لي وقد دون استمارة سجل لي فيها تصريحاً بأنني ولدت من أبوين بلجيكيين في بروكسل.

حدثته عن الراهبات واللائي. ولكنه وهو البروتستانتى لا يعرف الراهبات ولا الخوارة إنما يعرف الاسقف قليلاً. ونصحني أن لا أطلب القطع الذهبية لأن في ذلك مخاطرة، وأنه يجب التصريح بذلك قبل الذهاب إلى برانكيا بأربع وعشرين ساعة. وقال: يمكن التصريح بحضوري فهل لديك شهود؟

— أجل

— في الوقت الحاضر لا تطلب شيئاً فإنه قادر على إرجاعك إلى السرداب، وربما سعى إلى قتلك. حقاً إنها ثروة صغيرة. والقطعة لا تساوي ثلاث مئة بيزو كما تظن بل خمس مئة. إنه مبلغ ضخم، قد تلعب بالنار. أما بالنسبة لموضوع اللائي فالأمر مختلف. أمهلني لأفكر.

سألت الأسود إذا كان يطمح إلى الهروب معي، وكيف يجب، في رأيه، أن انصرف.

فأريد وجهه عندما سمع الحديث عن الهروب.

— أرجوك يا رجل. دعك حتى من التفكير فيه، فإنك ملاق موتاً بطيئاً شنيعاً. ولقد دقت شيئاً من طعمه. اصبر حتى تكون في مكان آخر في برانكيا. أما هنا فهو انتحار. هل تريد أن تموت؟ استكن. ففي جميع أنحاء كولومبيا لا يوجد سرداب كالذي عرفته، فلماذا تخاطر هنا؟

— نعم، ولكن الجدار هنا ليس مفرطاً في الارتفاع، وهو هين نسبياً.

— هين؟ لا. لا تتكل علي، لا في الذهاب ولا في المساعدة ولا في الكلام. ثم فارقي مدعوراً وهو يقول:

لست إنساناً سوياً أيها الفرنسي، أنت مجنون، إذ تفكر بأمر كهذا هنا في سانتا مرتا. كل صباح وكل أصيل كنت أنظر إلى هؤلاء السجناء الذين هم في هذا المكان، لارتكابهم جرائم خطيرة وجوه تنطق بالإجرام ولكن المرء يحس بأنهم خاضعون للسيطرة، لأن الجزع من الذهاب إلى هذه السرايب يشلهم شللاً تاماً.

منذ أربعة أيام رأينا خروج شيطان مريد من السرداب، رأسه أكبر من رأسي، ويدعى كيماش مشهور بأنه خطر جداً. تحدثت معه، وبعد عدة نزعات قلت له:

— كيماش! هل ترغب في الهروب معي؟

فنظر إلي وكأنني شيطان وقال: حتى أعود من حيث جئت إذا أخفقنا؟ لا. شكراً إن قتل أمي أهون عندي من العودة إلى هناك.

وهذا آخر من حاولت معه، ثم لم أعد إلى ذكر الهروب مع أحد.

في اليوم التالي رأيت المقدم رئيس السجن. توقف ونظر إلي وقال: كيف حالك؟

— جيد. وسأكون في حال أفضل لو حصلت على القطع الذهبية.

— لماذا؟

- لأنني أتمكن من توكيل محام.
- تعال معي.
- وأخذني إلى مكتبه. فنحن وحدنا. قدم لي سيجاراً - لا بأس - وأشعله. ومن حسن إلى أحسن.
- هل تتكلم الإسبانية لفهم وتجييب إذا حدثتك ببطء؟
- نعم.
- حسناً تقول إنك راغب في بيع الست والعشرين قطعة ذهبية.
- لا. الست والثلاثون.
- أجل، أجل. وبالمبلغ تريد توكيل محام. وليس أحد سوانا نحن الاثنين يعرف أن هذه النقود لك.
- بل. هناك الرقيب والرجال الخمس الذين أوقفوني، ثم المقدم الآخر الذي صادرها مني وسلمها لك، ثم قنصل بلادي.
- آه. آه. (يئون) وهذا أفضل حين يكون عدد من الناس على اطلاع على الموضوع.
- وهكذا نستطيع التصرف بوضوح. أنت تعلم أنني قدمت لك خدمة كبيرة إذ سكت ولم أعمم طلب الاستعلام على مختلف أقسام الشرطة في البلاد التي مرت بها لموافاتنا بمعلومات عن سرقة قطع ذهبية.
- ولكن يجب أن تفعل.
- لا. لم أفعله لصالحك.
- شكراً أيها المقدم.
- هل ترغب في أن أبيعها لك؟
- بكم؟
- بالسعر الذي دفع لك، كما قلت ثلاث مئة بيزو للقطعة الواحدة، وسوف تعطيني مئة بيزو عن كل قطعة مقابل ما قدمت لك من خدمة. فما رأيك؟
- لا. سترد لي القطع عشراً عشراً وأنا أدفع لك عن كل قطعة ميتين، لا مئة واحدة وهذا يساوي ما فعلته من أجلي.
- أيها الفرنسي إنك خبيث جداً. ما أنا إلا ضابط كولومبي مسكين كثير الوثوق قليل الذكاء، أما أنت فرجل ذكي وماكر جداً.
- حسناً. ما العرض الذي تريد أن تقدمه لي.
- غداً سأحضر الشاري إلى مكنتي هنا وهو يقدم العرض بعد أن يرى القطع وبالتساوي. إما هذا وإما فلا. وسوف أرسلك إلى برانكيا مع النقود أو أحتفظ بها قيد التحقيق.
- لا. إليك عرضي الأخير الرجل يأتي إلى هنا ويرى القطع، وكل ما زاد على ثلاث مئة وخمسين بيزو للقطعة فهو لك.

- حسناً. ولكن أين ستضع هذا المبلغ الكبير؟
- في لحظة تسليم المال تستدعي القنصل البلجيكي. سأعطيه إياها ليدفع للمحامي.
- لا. لا أريد شاهداً.
- إنك لن تجازف، فأنا سأوقع لك اعترافاً بأنك أعدت الست والثلاثين قطعة.
- اقبل وإذا كنت مستقيماً معي فسوف أعرض عليك اقتراحاً آخر.
- ما هو؟
- ثق بي. إنه جيد كالأول. وفي العرض الثاني سيكون المبلغ مناصفة.
- ما هو؟ قل لي.
- عجل غداً وفي الساعة الخامسة مساءً، عندما يصبح المبلغ في مأمن مع القنصل سأقول لك الموضوع الآخر.
- وكانت المقابلة طويلة، وعندما عدت مسروراً إلى الباحة، كان رفاقي قد دخلوا إلى الزنزانة.
- ماذا يجري؟ فرويت لهم الحوار بأكمله، فأغرقوا في الضحك على الرغم مما نحن فيه.
- يا له من ثعلب، ولكنك تفوقت عليه في السرعة. هل تعتقد أن الأمور ستسير وفق هواك؟
- إنني أقامر بمئة بيزو مقابل متين مما في الجيب. ليس هناك من يقامر؟
- وأنا أعتقد أن المسألة ميسرة.
- قضيت الليل مفكراً بالموضوع الأول في حكم المنتهي، والموضوع الثاني موضوع اللآلئ، والمسألة محلولة أيضاً، وسوف يسر كثيراً في استعادة اللآلئ. وأما المسألة الثالثة هي أن أعطيه كل ما حصلت عليه مقابل أن يبيء لي سرقة مركب من المرفأ، وأستطيع شراءه بما أملك في الأنوبة وسوف أرى إن كان يثبت أمام هذه المحاولة. بماذا أغامر؟ فبعد العمليتين الأولى والثانية لن يستطيع معاقبتي. سنرى.
- لا تبع جلد الدب. يمكنك التريث حتى برانكيا. ولكن لماذا؟ فالمدينة أكثر أهمية من هذه، والسجن فيها أدهى وسوف تكون مراقبتك أكبر، وستكون الجدران أعلى. ينبغي أن أعود إلى الحياة مع لالي، وزورايما، سأهرب في سرعة. وأنتظر هناك سنوات، وسوف أذهب إلى الجبل مع القبيلة التي تملك البقر وأكون على اتصال بالفنزويليين.
- هذا الهروب يجب أن أسعى لإنجاحه بأي ثمن وكنت طوال الليل أدبر كيفية الوصول إلى الموضوع الثالث.
- ولم يكن الغد بعيداً. ففي الساعة التاسعة صباحاً جيء في طلبي لأقابل سيداً ينتظرنى عند المقدم. بقي الشرطي خارجاً. وكنت أمام رجل في الستين من عمره يرتدي

ملابس رمادية وربطة عنق رمادية اللون. وعلى المنضدة قبة كبيرة واسعة من نوع قبعات رعاة البقر. وكان على ربطة عنقه وشكل بارز، لؤلؤة رمادية وزرقاء فضية. ولا يخلو هذا الرجل النحيل من بعض الأناقة.

— صباح الخير؟

— هل تتكلم الفرنسية؟

— نعم يا سيدي، أنا لبناني الأصل. أرى أنك تملك قطعاً ذهبية من فئة بيزو وأنا ولوع بأمثالها. وتريد خمس مئة بيزو لكل واحدة.

— لا. ست مئة وخمسين.

— معلومات خاطئة، فسعرها الأعلى خمس مئة وخمسون.

— اسمع ما دمت ستأخذها كلها فأنا أبيع بست مئة.

— لا. بخمس مئة وخمسين.

وباختصار اتفقنا على خمس مئة وثمانين. صفقة معقولة.

— ماذا قلت؟

— تمت الصفقة أيها المقدم وسيكون البيع بعد الظهر.

وانصرف الرجل وقال المقدم:

— جيد جداً فما مقدار ما يعود لي؟

— مئتان وخمسون في القطعة. أرايت؟ لقد أعطيتك مثلين ونصف ما أردت أن تكسب في القطعة.

فابتسم وقال: والأمر الآخر؟

— أولاً على القنصل أن يحضر ويقبض المبلغ، وبعدئذ منصرفه سأقول لك الموضوع الثاني.

— إذن هناك موضوع ثانٍ حقاً؟

— لقد وعدتك.

— أرجو أن يتحقق ذلك.

وفي الساعة الثانية كان القنصل واللبناني حاضرين. وأعطاني هذا الأخير مبلغ عشرين ألفاً وثمان مئة بيزو. وسلمت القنصل البلجيكي اثني عشر وست مئة، والمقدم ثمانية آلاف ومئتين وثمانين. ووقعت إيصالاً للمقدم بأنه أعاد لي القطع الذهبية الست والثلاثين. ثم بقينا وحيداً أنا والمقدم، وخبرته بخبر الراهبة الكبيرة.

— كم لؤلؤة؟

— من خمس مئة إلى ست مئة.

— يا لها من لصة! وسوف ألزمها بإعادتها إليك أو تودعها لدى الشرطة. وسوف أصرح بذلك.

— لا. سوف تذهب لتراها بنفسك حاملاً في رسالة باللغة الفرنسية. وقبل أن تفاتها بالرسالة تستدعي الإيرلندية.

— فهمت ان الإيرلندية هي التي ستقرأ الرسالة المكتوبة بالفرنسية وترجمها. فانا ذاهب إليها.

— انتظر الرسالة.

— حقاً.

وصاح من الباب المفتوح: يا جوزه هيء العربى مع شرطيين.

وجلست إلى مكتب المقدم وعمل ورقة من أوراق السجن كتبت الرسالة التالية:

. سيدتي كبرى راهبات الدير. إلى الأخت الإيرلندية المحسنة.

عندما قاذى الرب اليكم كنت اعتقد أنني ساجد منكم عوناً وهو حق من حقوق كل مضطهد، في الشريعة المسيحية. وكنت أودعت عندكم كيساً من اللآلئ هو ملكي، وذلك لمنحكم الثقة بأنني لن أغادر بطريقة غير مشروعة سقفاكم الذي يحمي بيتاً من بيوت الله. وظن شخص حقير أن من واجبه إخبار الشرطة التي سارعت إلى اعتقالني عندكم. وأرجو أن لا تكون هذه النفس الدنيئة التي قامت بهذه المبادرة نفساً تابعة لإحدى بنات الله في منزلكم، ولا أستطيع القول بأنني أستطيع أن أسامح هذا المخلوق الفاسد ذكراً كان أم أنثى، وإلا أكن قد قلت فندا^(١). بل على العكس إنني أتضرع إلى الله أو إلى أحد القديسين من قلب مجروح، أن يعاقب بغير رحمة من ارتكب هذه الخطيئة الفظيعة.

ارجوك يا سيدتي الكبيرة أن تردي إلى المقدم سيزاريو كيس اللآلئ الذي أودعته عندك، وهو يعيده إلي بصورة شرعية دينية، وأنا واثق من هذا. هذه الرسالة، تكون عندك بمثابة إيصال. وتفضلني... الخ.

ولما كان الدير يبعد ثمانى كيلومترات، فقد عادت العربى بعد ساعة ونصف الساعة وأرسل المقدم في طلبي.

— عل ما يرام. عدها لتأكد من عدم النقصان.

عددتها، لا من الثبوت من كمائها، بل لمعرفة عددها. فبين يدي هذا الفاجر الآن خمس مئة واثان وسبعون لؤلؤة.

— هل هذا صحيح؟

— نعم.

— نو فالتو؟ ألا ينقص شيء؟

— لا. والآن حدثني.

— لدى وصولي إلى الدير كانت الكبيرة في الباحة، وكان الشرطيان يحفان بي،

فقلت: مدام! لأمر خطير يمكن أن تعرفيه بالحدس، أرى من الضروري التحدث مع الإيرلندية بحضورك.

(١) كذباً

— وبعد ذلك؟

— كانت الأخت الإيرلندية تقرأ الرسالة للكبيرة مضطربة، وهذه الأخيرة لم تفه بكلمة، بل خفضت رأسها، وفتحت درج مكتبها وقالت:

— هذه هي صرة اللآلئ لم تمس، وليغفر الله لمن ارتكب هذه الجريمة بحق هذا الرجل. قل له بأننا نصلي من أجله.

وهكذا انتهى المقدم من القول ووجهه يشع بالحبور.

— ومتى يباع اللؤلؤ

— غداً. لن أقول لك: من أين لك هذا؟ إنما أعلم أنك قاتل خطر، وفي الوقت نفسه أرى فيك رجلاً يحفظ العهد. ورجلاً شريفاً. دونك هذا اللحم، وزجاجة النبيذ، والخبز الفرنسي، لكي تحتفي بهذا اليوم الذي لا ينسى، عم مساء. ووصلت مصحوباً بزجاجة خمر، وقرابة ثلاثة كيلو غرام من اللحم المدخن وأربعة أرغفة فرنسية طويلة، وكانت وجبة عيد. اللحم والخبز والخمر، تقلص حجمها في سرعة. فقد أكلنا جميعاً وشربنا في نهم.

— هل تصور أن المحامي يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا؟

فضحكت، والمساكين أنفسهم صدقوا حكاية المحامي.

— لا أدري، فالمسألة تتطلب دراسة واستشارات قبل أن ندفع له.

قال كلوزيو: الأفضل أن لا تدفع له إلا في حال نجاحه.

— حقاً ينبغي أن نجد محامياً يقبل هذا العرض.

وقطعت الحديث، فقد خجلت.

وفي الغداة عاد اللبناي، وقال:

— المسألة معقدة، إذ يجب فرز اللآلئ بحسب قياسها، ثم بحسب إشراقها، وأخيراً بحسب شكلها. ونبدأ بالفرز تبعاً للحجم والتكوين وتابع اللبناي قائلاً: وباختصار ليس الأمر معقداً فحسب، بل فوق هذا ينبغي إحضار زبون آخر أكثر اختصاصاً. وفي غضون أربعة أيام ننتهي. ودفع لنا ثلاثين ألف بيزو. وفي آخر لحظة سحبت لؤلؤة وردية واثنين سوداوين لأقدمها هدية لزوجة القنصل البلجيكي. فاستغلا ذلك وقالوا إنها تساوي خمسة آلاف بيزو. ومع ذلك أخذتها بهذا الثمن. هذا وقد تمنع القنصل كثيراً قبل أن يقبل بها. ودفع له على سبيل الأمانة لي مبلغ خمسة عشر ألف بيزو. إذن غدوت أملك سبعة وعشرين ألفاً. والآن نسلك في الموضوع الثالث، فكيف وبآية طريقة أسلك إليه. يكسب العامل الجيد في كولومبيا بين ثمان وعشر بيزو إذن مبلغ سبع وعشرين ألفاً يعد ضخماً. إذن سأضرب الحديد وهو حام. قبض المقدم ثلاثاً وعشرين ألفاً فإذا أضف إليها سبعة وعشرين، فسوف يملك خمسين ألفاً. قلت له: أيها المقدم! كم يلزم من المال لإقامة تجارة يكون معها المرء في حال أفضل من حاله؟

— التجارة الجيدة تحتاج إلى رأسمال يتراوح بين خمسة وأربعين وستين ألفاً.

- وما مردودها؟ ثلاثة أضعاف كسبك؟ أربعة أضعاف؟
 - أكثر. خمسة أو ستة أضعاف دخلي.
 - ولم لا تصبح تاجراً؟
 - يجب أن يكون معي ضعف ما أملك.
 - اسمع. عندي عرض ثالث أطرحه عليك.
 - لا تعبت بي.
 - لا. بل أؤكد لك. هل تريد المبلغ الذي أملك؟ إنه لك حين تشاء.
 - كيف؟
 - أن تدعني أهرب.
 - اسمع يا فرنسي. أنا أعلم أنك لا تثق بي في الماضي كنت على حق. أما الآن، وقد خرجت بفصلك من البؤس، وأستطيع شراء بيت، وإرسال أولادي إلى مدارس خاصة، تأكد أنني صديقك ولا أريد أن أنهيك، ولا أن يقتلك أحد. هنا لا أستطيع فعل شيء من أجلك ولو في سبيل ثروة. لا يمكنني تهريبك مع توفر فرص النجاح.
 - وإذا برهنت لك العكس؟
 - سنرى. ولكن قبل ذلك فكر جيداً.
 - هل لك صديق صياد؟
 - نعم.
 - ربما كان قادراً على إخراحي إلى عرض البحر، ويبيع مركبه.
 - لا أدري.
 - كم يساوي المركب تقريباً؟
 - يساوي ألفي بيزو.
 - إذا أعطيت سبعة آلاف وأعطيتك عشرين.
 - يا فرنسي. أنا يكفيني عشرة آلاف، وأترك لنفسك شيئاً.
 - رتب الأمور.
 - هل تذهب وحدك؟
 - لا.
 - كم واحداً؟
 - نحن ثلاثة.
 - ساكلم صديقي الصياد.
- أذهلني هذا الشخص في تغيره نحوي، ولئن كان وجهه وجه مجرم، فإنه يخفي في أعماق قلبه أشياء جميلة. تكلمت في الباحة مع كلوزيو وماتوريت. فقالا لي: افعل ما يحلو لك. ونحن على إثرك سائران.
- إن اللقاء هما قدرهما في يدي يبعث في نفسي شعوراً عظيماً بالرضى والارتياح، لأنني

حملت على عاتقي تبعة كبرى ولكن ينبغي إشعار رفيقينا الآخرين.
انتهينا من لعبة الدومينو، وقاربت الساعة التاسعة مساءً وهو وقت شرب القهوة. ناديت:
كافيترو.. وقدمت لنا ستة فناجين من القهوة الساخنة. قلت يجب أن أحدثكم. واعتقد أن
في مكنتي محاولة الهروب مجدداً. ولسوء الحظ لا يتوفر هذا إلا لثلاثة فقط، وطبيعي أن
أذهب مع كلوزيو وماتوريت، وإذا كان لدى أحدكم ما يقوله في هذا الصدد فليقل
بصراحة. فنحن مستمعون. قال البروتوني: إن هذا هو الإنصاف من كل وجه. فأنتم
الثلاثة فررتم من الأشغال الشاقة معاً ومن جهة أخرى فإن وجودكم في هذا الوضع ما كان
ليحصل لولا خطؤنا إذ طلبنا إليكم إنزالنا في كولومبيا. شكراً لك يا بابيون على أنك
استشرتنا، ولك الحق فيما تفعل. ونرجو الله أن يوفقكم. أما إذا وقعتم فإنه الموت المحقق
في أسوأ الشروط.

— نحن نعلم ذلك.

حدثني المقدم بعد الظهر وأخبرني بأن صاحبه الصياد قد وافق. وسأل عما نحتاجه في
السفينة.

— برميل ماء عذب سعة خمسين لتراً، وخمسة وعشرين غراماً من طحين الذرة وست
لترات زيتاً، وهذا كل شيء.

قال المقدم: ستبحر بشيء قليل.

— أجل.

— أنت رجل قيم.

— حسناً. لقد عزمنا على القيام بالمرحلة الثالثة.

قال بيروود: فعلت هذا من أجل أولادي. صدق أو لا تصدق. ثم من أجلك أنت،
لأنك جدير به بسبب شجاعتك.

— أعرف أن هذا صحيح. وشكراً لك.

— ماذا تفعل حتى لا يرى أنك على اتفاق معي؟

— لن تتحمل أية مسؤولية. سأذهب ليلاً أثناء وجود المقدم الآخر.

— ما خطتك؟

— ستبدأ غداً بإنقاص الحراس واحداً، وبعد ثلاثة أيام ستعفي واحداً آخر.

وعندما لا يبقى سوى واحد ستقيم مرقباً تجاه الزنزانة. ففي أول ليلة مطيرة سيلجأ الحارس
إلى المرقب محتمياً وأقفز أنا من الشباك الخلفي. وبالنسبة إلى النور حول الجدار ستقوم
بنفسك لقطع التيار. هذا كل ما أطلبه منك، وتستطيع ذلك بأن تأتي بسلك نحاسي بطول
متر وتربط بكل طرف منه بحجر ثم تلقي به على السلكين الموصولين بالمصباح التي تضيء
أعلى الجدار. وعلى الصياد أن يربط المركب بسلسلة يحكم قفلها بنفسه، وبطريقة لا يضيغ
معها وقت فتحه، وتكون الأشرطة جاهزة للنشر مع ثلاثة مجاديف.

— ولكن في السفينة محرراً.
— آه... هذا أفضل. فليضع المحرك عند نقطة التحرك. وليذهب إلى أول مقهى
ليشرب الكحول. وعندما يرانا قادمين يتمركز عند مؤخرة المركب في مشمع أسود.
— والمثال؟

— عشرون ألف التي نخصك سأقطع كل ورقة من أوراقها قطعتين، وسبعة الآلاف
سأدفعها مقدماً للصيد. سأعطيك أنصاف الورق مقدماً. والأنصاف الأخرى سيردها لك
فرنسي سيبقى هنا وسوف أعلمك من هو.
— ألا تتق بي؟ هذا شيء غير مستحسن.

— لا. ليست المسألة مسألة ثقة، ولكن قد يقع خطأ عند قطع التيار، وحينئذ لن
أدفع، ولن أذهب إذا لم ينقطع التيار.

وأصبح كل شيء جاهزاً بواسطة المقدم. وأعطيت الصيد سبعة آلاف بيزو. والآن
وبعد خمسة أيام لم يبق من الحراس سوى واحد. ووضع المرقب. وانتظرنا المطر ولكن السماء
بخلت به. وكان القضيبي الحديدي قد نشر بمنشار أعطانا إياه المقدم، وكان المحز^(١) عالياً
وفضلاً على ذلك فقد كان مستورا بقفص فيه بيغاء بقصد التمويه وكان البيغاء يقول
بالفرنسية «قدارة».

نحن الآن على أحر من الجمر. لقد حاز المقدم على أنصاف الأوراق النقدية. وها
نحن أولاً ننتظر كل ليلة أن يهطل المطر ولا مطر. وعلى المقدم أن يقطع التيار قبل نقطة
الصفر بساعة واحدة تحت الجدار من الناحية الخارجية. لا شيء من المطر في هذا الفصل
إنه لأمر عجيب. وأصفر سحابة تترامى لنا من خلال الشبك في الصباح تملأ نفوسنا أملاً ثم
لا شيء. وكدنا نفقد عقولنا. سهرنا ست عشرة ليلة. وبلغت قلوبنا الحناجر. وفي صباح
يوم أحد جاء المقدم بنفسه يطلبني وقادني إلى مكتبه وأعاد لي أنصاف الأوراق النقدية.
قلت: ماذا جرى؟

— يا فرنسي، يا صديقي لم يبق أمامك سوى ليلة واحدة. فغداً صباحاً ترحلون إلى
برانكيا. وأرد لك من مبلغ الصيد ثلاثة آلاف فقط لأنه أنفق الباقي. وإذا شاء ربك أن
يسوق المطر هذه الليلة فإنك ستجد الصيد في انتظارك وتعيد إليه هذا المبلغ وتأخذ
المركب، وأنا لي فيك ثقة ولا أخشى شيئاً. واحتبس المطر.

(١) المحز = مكان القطع.

هروب في بارانكيا

في الساعة السادسة صباحاً ثمانية جنود، واثنان من خفر السواحل وبصحبتهم ملازم، وضع الأغلال في أيدينا. وها نحن أولاً في شاحنة عسكرية في طريقنا إلى بارانكيا - قطعنا مئة وثمانين كيلو متراً في ثلاث ساعات ونصف الساعة. وفي الساعة العاشرة كنا في سجن يدعى سجن الثمانين.

رغم ما بذلنا من جهود فقد تواجدنا في برانكيا. وهي مدينة ذات شأن، وأول مرفأ كولومبي على الأطلسي ولكنها واقعة في داخل مصب نهر ريوجدلينا. وسجنها سجن هام، فيه أربع مئة سجين ومئة مراقب، وهو منظم كأى سجن في أوروبا. يحيط به أسوار عالية تبلغ ثمانية أمتار. استقبلنا أركان حرب السجن وعلى رأسهم المدير دون غريغوريو. ويتألف السجن من أربع باحات اثنتان من جهة واثنان من الناحية الأخرى، تفصل بينهما كنيسة طويلة حيث يقام القداس وتصلح لأن تكون قاعة للزيارات. ولدى التفتيش وجدوا معي ثلاثة الآلاف بيزو والسهمين الصغيرين. واعتقدان من واجبي أن أخبر المدير بأنهم مسمومان، لكي يعاملونا معاملة طيبة.

«هؤلاء الفرنسيون معهم حتى السهام المسمومة»

وجودنا في هذا السجن في بارانكيا هو في نظرنا أخطر برهة في مغامرتنا. لأننا هنا سنسلم إلى السلطات الفرنسية. أجل برانكيا التي تضاءلت في أعيننا إلى حجم السجن الكبير، مثل نقطة الاختبار. ينبغي الهروب مهما كان ثمن التضحية، وعلي أن أغامر.

زنزانتنا في وسط الفناء وهي أشبه بالقفص منها بالزنزانة، يستريح سقفه الإسمنتي فوق قضبان حديدية غليظة. في إحدى زواياه المراحلض والمغاسل. والسجناء الآخرون وعددهم مئة موزعون في زنزانات منقوبة في جدران هذه الباحة ويبلغ طولها أربعين متراً وعرضها عشرين. والشبك يطل على الفناء. ويعلو كل شبك نوع من الإفريز من الحديد المصفح يمنع دخول المطر إلى الزنزانة. وليس في القفص سوانا نحن الفرنسيين الستة. وهو واقع في المركز حتى يكون تحت أنظار السجناء والحراس بوجه خاص.

نمضي النهار في الباحة من الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساء. ندخل إلى القفص ونخرج منه كما نشاء. ويمكننا التحدث في الباحة.

وبعد وصولنا بيومين، جمعونا نحن الستة في الكنيسة بحضور المدير وبعض رجال الشرطة، وعدد من الصحفيين والمصورين.

— هل هربتم من السجن الفرنسي في غويان؟

— لا ننكر ذلك.

— ما الجرائم التي نسبت إليكم حتى نلتئم هذه العقوبات القاسية؟
— ليس لهذا أهمية. والمهم أننا لم نرتكب جرماً في الأراضي الكولومبية. وبلدكم لا يرفض منحنا الحق في حياة جديدة فحسب، بل يجعل رجاله صيادين للرجال، وأشرافاً في خدمة الحكومة الفرنسية.

— كولومبيا تفكر في أن لا تقبل بكم على أرضها.
— أنا شخصياً واثناً من رفاقي كنا ولا نزال عازمين على عدم العيش في هذا البلد، ولقد أوقفونا نحن الثلاثة في عرض البحر، وعلى العكس من ذلك كنا قد بذلنا أقصى جهد للابتعاد عنها
قال مندوب صحفي عن جريدة كاثوليكية: إن الفرنسيين في الغالب من الكاثوليك مثلنا نحن الكولومبيين.
— من الممكن أن تكونوا قد عمدتم كاثوليكين، ولكن سلوككم ببعدهم عن المسيحية.

— وماذا تعيرون علينا؟
— إنكم تساعدون المجرمين الذين يلاحقوننا، بل تقومون بأعمالهم نيابة عنهم. ألم تجردونا من سفيتنا ومن كل ما غلك، وهو ما أهدي إلينا من رجال الكاثوليك في جزيرة كوراساو، والذي قدمه لنا الأسقف إيرنيه دوبردين بكل نبل؟ ولا نجد مسوغاً لإعراضكم عن مغامرة في تجربة إصلاحنا المريب، فضلاً عن أنكم تحولون بيننا وبين الذهاب بعيداً بوسائلنا الخاصة إلى بلد قد يقبل بالمغامرة. وعملكم هذا غير مستساغ.
— أتحقدون علينا نحن الكولومبيين؟
— لا نحقد عليهم في ذاتهم إنما على نظامهم الأمني والقضائي.
— ماذا تعني؟
— أعني أن كل خطيئة قد يقع فيها صاحبها، إذا أريد له أن يقع. دعونا نذهب بحراً إلى بلد آخر.

— سوف نسعى للحصول على أمر بذلك.
وما أن هدنا إلى الباحة حتى بادر ماتوريت إلى القول:
— دعنا هذه المرة من الأوهام يا رجل. حسناً هل فهمت؟ نحن نتقلب في النار. والقفز من المقلاة لن يكون سهلاً.
— أصدقائي الأعزاء، لست أدري إن كنا نقوى باتفاقنا، ولكنني أقول: إن كل واحد منا يستطيع أن يفعل ما يحلو له. وأما أنا فينبغي أن أهرب من هذا السجن الشهير. استدعيت يوم الخميس إلى قاعة الزيارات، فرأيت رجلاً حسن الهندام في حواري الأربعين من عمره. نظرت إليه فوجدته يشبه لويس ديغا شبيهاً غريباً.

— هل أنت بابيون؟

— نعم.

- أنا جوزيف أخو لويس ديغا
 - قرأت في الصحف وجئت لرؤيتك.
 - شكراً.
 - هل رأيت أخي هناك؟ وهل تعرفه؟
 - رويت له ملحمة ديغا إلى يوم افتراقنا في المستشفى. فأخبرني بأن أخاه في جزر السلام وهذا الخبر جاء من مرسيليا.
 مواعيد الزيارة في الكنيسة أيام الخميس والأحد، وأعلمني أن في بارانكيا يعيش اثنا عشر فرنسياً اتوا يبحثون عن الثروة مع نسائهم. وكلهم قوادون.
 وفي حي خاص من أحياء المدينة حوالي ثماني عشرة موسماً يمارسن البغاء بامتياز وحذق على الطريقة الفرنسية. دائماً نفس الطراز من الرجال، نفس النمط من النساء اللاتي ينشرن على الأرض اختصاصهن القديم قدم العالم، وحسن الاستمتاع به، من القاهرة إلى لبنان، ومن انكلترا إلى استراليا ومن بيونس أيريس إلى كاراكاس، ومن سايفون إلى برازافيل.
 أعلمني جوزيف ديغا بخبر جيد، هو أن القوادين الفرنسيين غير راضين. إنهم يخشون أن يكون لقدومنا إلى سجن هذه المدينة أثر في هدوء بالهم أو إلحاق الضرر بتجارهم المزدهرة.
 وبالفعل لو أن واحداً منا، أو أكثر، هرب من السجن، فإن رجال الشرطة سيذهبون بصورة بدوية إلى منازل الفرنسيين، حتى ولو لم يذهب المهرب إليهم في طلب المعونة منهم. ومن هنا فإن الشرطة ستكشف أشياء كثيرة: أوراقاً مزورة أو إجازات إقامة باطلة، أو ملغاة. فالبحث عنا يثير تحقيقات في الشخصية والإقامة. وهناك رجال ونساء لو اكتشفوا لأصابتهم متاعب جمة. هذه هي المعلومات التي حصلت عليها، وأضاف بأنه تحت تصرفي لأي غرض. وبأنه سيأتي لرؤيتي كل خميس وأحد. فشكرت لهذا الرجل الذي بدا لي أنه مخلص في وعوده. وأحاطني علماً كذلك بأنه تم الاتفاق مع فرنسا على تسليمنا إليها. وهذا حسب ما ورد في الصحف..
 - إيه يا سادة! لدي الكثير مما أقوله لكم.
 فقال الخمسة بصوت واحد وفي استغراب: ماذا؟
 - أولاً ليس هناك ما نتعلق به من الأوهام، وقد بات التسليم مقررًا. ستأتي سفينة خاصة من غويان الفرنسية لتحملنا من هنا، وبالتالي لإعادتنا إلى حيث كنا، وأخيراً إن وجودنا هنا يقلق القوادين الذين ينعمون بالاستقرار في هذه المدينة. جوزيف لا يبالي بالنتائج ولكن زملاءه في المهنة يخشون هروب أحدها، الأمر الذي يسبب لهم المتاعب.
 فأغرق الجميع في الضحك وظنوا أنني أمزح. قال كلوزيو:
 - يا سيدي فلان. أرجوك هل أستطيع الهروب؟

— كفانا مزاحاً، إذا جاءت مومسات لرؤيتنا ينبغي أن نطلب منهن بأن لا يعدن إطلاقاً مفهوم؟
— مفهوم.

في باحثنا كما قلت حوالي مئة سجين كولومبي، وهم بعيدون عن الغباء. فيهم لصوص مهرة وفيهم مزورون مشهورون، وغشاشون حاذقون، ومختصون بالهجوم بالسلاح، وفيهم تجار السوق السوداء المدهشون، وفيهم بعض القتلة الذين أعدوا بالتدريبات المتواصلة إعداداً خاصاً لممارسة القتل وهي مهنة شائعة في أمريكا، وهناك الأغنياء والسياسيون والمغامرون الذين يستأجرون خدمات هؤلاء القتلة لمصالحهم.

الجلود ذات ألوان متباينة، بدءاً من الأسود الإفريقي السنغالي إلى الجلد المشاكه لون الشاي، إلى القرميدي المنغولي ذي الشعر الناعم الأملس بلون أسود بنفسجي، إلى الأبيض النقي.

قمت ببعض الاتصالات، وأدخلت في حسابي قدرة بعض الأفراد المتخيرين، وإرادتهم الهروب. ومعظمهم مثلي. وبما أنهم خائفون، أو محكومون بعقوبة طويلة الأمد، فلأنهم يعيشون في تحفز دائم للهروب.

في أعلى الأسوار الأربعة المحيطة بهذه الباحة المستطيلة تدور طريق مضاء ليلاً. وفي كل زاوية برج صغير فيه حارس. وهكذا يتواجد أربعة حراس على رأس عملهم ليل نهار. يضاف إليهم حارس في الباحة على باب الكنيسة، وهو غير مسلح.

الغذاء متوفر، وعدد من السجناء يبيعون ما يؤكل وما يشرب كالقهوة وعصير الفاكهة المحلية كالبرتقال والأناس والباباي الخ وهذه الأشياء يؤتى بها من خارج السجن. ومن حين لآخر يتعرض هؤلاء الباعة إلى هجمات مسلحة مذهلة في سرعتها. وقبل أن تتاح لهم فرصة رؤيتهم يأتي المعتدون بمنشفة كبيرة يلفون بها وجوه ضحاياهم لئلا يسمع صراخهم. ويسددون السكين إلى خاصرتهم أو عنقهم والتي قد تغوص في أجسادهم بعمق لدى أية حركة. وهكذا يسلبون الضحايا ما معهم قبل أن يقولوا أف، ثم يتبعون ذلك بضربة على القذال عند نزع المنشفة. ومهما يحصل فإن أحداً لا يتكلم. وأحياناً يرتب البائع ما يبيعه ويبحث عن سدد له الضربة، فإذا كشفه حصلت معركة بالمدى.

جاءني لسان يعرضان علي اقتراحاً، فأصغيت لهم بانتباه. ويبدو أن في المدينة رجال شرطة من اللصوص.

وهذان الزائران يعرفانهم جميعاً، وأوضحا لي بأنه إذا لم يتسلم أحدهم الحراسة على باب الكنيسة مرة في الأسبوع عدوا ذلك من سوء طالعهم. إذن يجب أن أحصل على مسدس أثناء الزيارة. وإذا سلمت جدلاً بأن الشرطي اللص رضي كارهاً وبدون عناء بأن يترك باب الخروج من الكنيسة الذي يطل على مركز صغير للحراس يضم أربعة أو ستة رجال،

فإنني أفاجئهم والمسدس بيدي وحينئذ لن يستطيعوا منعنا من النزول إلى الشارع، ولا يبقى سوى أن نتوارى في الزحام الشديد.

لم يرق لي هذا المخطط كثيراً. فالمسدس يجب أن يكون صغير الحجم بعبارة ٦,٣٥ على الأكثر، كي أتمكن من إخفائه. ولكن هذا المسدس الصغير لا يجيف أحداً من الحراس الخوف الكافي، فيحاول أمراً فاضطر إلى قتله. فصرفت النظر عن هذه الحيلة.

إن فكرة التحرك لا تعذب أحداً غيري، وكذلك رفاقي، ولكن بفارق أنهم في بعض الأيام التي يصابون فيها بالوهن، يصلون إلى درجة الاستسلام للبقاء في السجن حتى يأتي المركب الذي سيقطننا. ويمكن أن نتصور التعذيب الذي سوف نتعرض له هناك. ويناقش أصحابي كيف يمكن أن يكون عقابنا، وما شكل المعاملة التي نتظرنا. قلت لهم: - لا أستطيع سماع حماقاتكم، وعندما تودون الخوض في الحديث عن هذا المستقبل، لا تشركوني فيه؛ اذهبوا إلى ركن لا أكون فيه ثم تناقشوا. فهذه القدرية التي تتكلمون بها لا يقبلها إلا عاجز. فهل أنتم عاجزون؟ هل فينا واحد استؤصلت خصيته؟ إذا حصل ذلك فأخبروني. لأنني سأقول لكم: أيها الرجال؛ إنني عندما أفكر بالهروب، إنما أفكر به من أجل الجميع، وحين تلمع في فكري خطة للهروب، فذلك من أجل الجميع، وبالنسبة إلى ستة أشخاص ليس الأمر سهلاً.

وأقول لكم كلما اقترب الموعد دون أن أفعل شيئاً، هان علي قتل شرطي كولومبي لكسب الوقت. لأنهم لن يرسلوني إلى فرنسا إذا قتلت لهم شرطياً، وحينئذ سيكون لدي متسع من الوقت. وبما أنني سأبقى وحدي فسوف يكون هروبي أيسر.

إن الكولومبيين يعدون مخططاً آخر لا بأس في تنظيمه: في يوم القديس صباح الأحد، تكون الكنيسة غاصة بالزوار والسجناء. أولاً نصغي إلى القديس معاً، ثم ينتهي الواجب في الكنيسة، ويبقى السجناء الموعودون بالزيارة.

طلب مني الكولومبيون حضور القديس يوم الأحد لأكون على بينة مما يجري حتى ننسق العمل يوم الأحد القادم. وقد عرضوا علي أن أكون رئيس الفتنة ولكنني رفضت هذا الشرف، إذ لا أعرف العناصر التي سوف تتحرك، معرفة جيدة.

أجبت نيابة عن أربعة فرنسيين، فالبروتوني والرجل ذو المكواة، لا يريدان المساهمة، وليس في هذا مشكلة، فما عليهم إلا الامتناع عن الذهاب إلى الكنيسة.

يوم الأحد ذهبنا نحن الأربعة الضالعين في العملية إلى القديس. هذه الكنيسة مستطيلة الشكل تنصدها الجوقة، وفي الوسط، من كل جانب بابان يشرفان على الباحثين. والباب الرئيسي يطل على مركز الحرس وهو محفوظ بشبك يقف خلفه الحراس وعددهم عشرون. وأخيراً خلفهم الباب المؤدي إلى الشارع، وبما أن الكنيسة تغص بالناس فإن الحراس يتركون الشبك مفتوحاً، وهم يظنون أثناء أداء مهمتهم واقفين

متراسين. ومن بين الزائرين سيأتي رجلان، وأسلحة تحملها نساء بين أفخاذهن، ويسلمن هذه الأسلحة حال دخول الناس وهي عبارة عن مسدسين كبيرين من عيار ثمانية وثلاثين، أو خمسة وأربعين. وسوف يحصل زعيم المؤامرة على مسدس ذي عيار كبير من امرأة ستسحب فور تسليمه. ويبدأ الهجوم دفعة واحدة عندما يرن غلام الجوقة الجرس الرنة الثانية. ومهمتي أنا أن أضع المديّة في عنق المدير دون غريغوري وأقول له: أعط الأوامر بإطلاق سراحنا وإلا قتلتك.

وهناك رجل آخر يقوم بالمهمة ذاتها مع الخوري، والثلاثة الآخرون يشهرون أسلحتهم على الشرطين الواقفين أمام شباك مدخل الكنيسة الرئيسي. ومن لا يرم سلاحه يقتل. أما غير المسلحين فيجب اخراجهم أولاً، وسوف نتخذ المدير والخوري متراسين لحماية ظهورنا وإذا سارت الأمور في مجراها الطبيعي فإن رجال الشرطة يتركون أسلحتهم على الأرض، ورجالنا المسلحون يدخلونهم إلى الكنيسة. ونخرج بعد أن نغلق الشباك أولاً، ثم الباب الخشبي. وسوف يكون مركز الحراس خالياً نظراً لوجودهم جميعاً في القداس بصورة إلزامية.

وفي الخارج سيكون في انتظارنا شاحنة على بعد خمسين متراً علق خلفها سلم صغير لسرعة الصعود، وتنطلق الشاحنة عندما يصعد زعيم الفتنة، والذي عليه أن يكون آخر من يصعد. وهكذا يجري كل شيء وفق ما خطط له فرناندو. أما جوزيف ديغا فلن يحضر إذ يكون مشغولاً بإعداد سيارة عامة مزيفة، لأننا نحن الفرنسيين لن نركب في الشاحنة، ثم يأخذنا إلى مخبأ قد أعدّه لنا.

كنت طوال الأسبوع مضطرباً، أنتظر العملية بفارغ الصبر. تمكن فرناندو من الحصول على مسدس بوسيلة أخرى وهو من عيار خمسة وأربعين، من الحرس المدني الكولومبي، وإنه فعلاً رهيب. وفي يوم الخميس جاءت إحدى نساء جوزيف لترافني، وهي لطيفة جداً وأخبرتني بأن السيارة ستكون صفراء، لثلا يكون هناك التباس.

— شكراً.

— أتمنى لكم حظاً سعيداً

وقبلتني في وجنتي في رقة وهي متأثرة قليلاً.

قال الخوري: ادخلوا ادخلوا ولتملؤوا الكنيسة لسماع صوت الحق.

كلوزيو على أتم استعداد وماتوريت تبرق عيناه والآخر لا يفارقتي قيد أنملة. أخذت مكاني رابط الجأش. والمدير دون غريغوري جالس هناك على كرسي بجانب امرأة بدنية، وأنا واقف ملتصقاً بالجدار، وكلوزيو على يميني، والآخران على يساري. وكنا قد ارتدنا الملابس المناسبة التي لا تلفت النظر إذا خرجنا إلى الشارع. المديّة مجردة على زندي الأيمن يشدها مطاط قوي، ويسترها كم قميصي الكاكي الموثوق العري عند المعصم.

وفي اللحظة التي ينهض فيها الجميع منحنية أعناقهم خاشعة أبصارهم وكأنما يحشون عن شيء. يقرع صبي الجوقة الجرس قرعاً متواتراً ثم يقرع ثلاث قرعات متميزات، القرعة الثانية هي إشارتنا، ويعرف كل منا دوره.

القرعة الأولى.. القرعة الثانية.. ألقيت بنفسي على دون غريغوريو والخنجر أسفل عنقه الضخم المتجدد، وصاح الخوري: الرحمة لا تقتلونني. وسمعت الثلاثة الآخرين، ودون أن أراهم، يأمرّون الحراس بإلقاء أسلحتهم. وكل شيء يجري وفق الخطة المرسومة. أمسكت دون غريغوريو من ياقة بذلته الجميلة وقلت له اتبعني ولا تخف، فلن الحق بك أي أذى.

والخوري كان تحت حلقة موسى حلاقة بالقرب من جماعتي. وقال فرناندو: — قاموس فرانس قاموس ألا سألدا (أي هيا أيها الفرنسيون هيا اخرجوا)

دفعت بأصحابي نحو الباب المطل على الشارع وأنا أحس بنشوة الظفر حين دوى طلقان ناربان وهوى على أثرهما فرناندو وأحد المسلحين، ومع ذلك تقدمت مسافة متر نحو الأمام ولكن الجنود نهضوا وسدوا علينا طريقنا بينادقهم ومن حسن الحظ أنه كان بيننا وبينهم نساء فمنعهم من إطلاق النار.

ثم سمعنا طلقين من بندقية، وطلقاً من مسدس ورفيقنا الثالث المسلح سقط على الأرض، وكانت قد سنحت له طلقة عشوائية فجرحت فتاة صغيرة.

كان دون غريغوريو شاحباً كالأموات، فقال لي هات السكين، فسلمتها له، ولا جدوى من استمرار المعركة. ففي أقل من ثلاثين ثانية تبدل الموقف. وعلمت بعد أسبوع أن التمرد قد أخفق بسبب سجين من الباحة الأخرى كان يشاهد القداس بدافع الفضول من خارج الكنيسة فأنذر حراس الجدار منذ اللحظات الأولى، فقفزوا عن الجدار إلى الباحة من علو يزيد على ستة أمتار فجاء أحدهم من جهة والآخر من جهة أخرى من الكنيسة، وأطلقا النار من خلال القضبان الحديدية للأبواب الجانبية على المسلحين اللذين كانا يهددان الحراس بأسلحتهما، وقتل الثالث أثناء مروره في مجال الرمي. بقيت أنا إلى جانب المدير الذي كان يصدر أوامره صارخاً.

وهكذا تواجد ستة عشر سجيناً، وفيهم الفرنسيون الأربعة، في السرداب، وليس لنا من الغذاء إلا الخبز والماء.

زار جوزيف دون غريغوريو، واستدعاني وقال إنه إكراماً لجوزيف سوف يعيدني إلى الباحة أنا وأصحابي، وبفضل جوزيف هذا عدنا بعد عشرة أيام من الفتنة إلى زنازنتا ذاتها وأعيد الكولومبيون أيضاً. وحين وصلنا إليها، طلبت أن نقف بضع دقائق حداً على فرناندو وزميليه القتيلين في العملية وقد قال لي جوزيف في إحدى زيارته بأنه قام بجمع

تبرعات من القوادين بلغت خمسة آلاف بيزو، وبها استطاع إقناع دون غريغوريو. هذه البادرة من القوادين رفعت من أقدارهم في نظرنا. ما العمل الآن؟ وماذا نبتدع من جديد؟ ومع ذلك لن أعترف بالهزيمة، ولن أنتظر وصول السفينة دون أن أقرر شيئاً.

تمددت عند المغاسل العامة محتمياً من الشمس حيث أتمكن، ودون أن يحس بي أحد، مراقبة حركة تبديل الحراس على السور الدائري. ففي الليل ينادون كل عشر دقائق: أيها الحارس كن حذراً. وهكذا يتأكد رئيس المركز من أن أحداً من هؤلاء الأربعة لا ينام. وإذا سكوت أحدهم كرر الحارس النداء حتى يسمع الإجابة.

اخال أنني وجدت ثغرة: في كل ركن من الأركان الأربعة في المعر الدائري، ما يشبه الخيمة يتدلى منها حبل ربطت في طرفه علبة. وإذا أراد الحارس قهوة نادى صاحب القهوة (الكافيتيرو) الذي يصب له مقدار فنجان أو فنجانين في العلبة ويسحب الحارس الحبل. وللخيمة في أقصى اليمين ما يشبه البرج البارز على الباحة. قلت في نفسي: لو صنعت محجناً^(١) كبيراً وربطته بطرف حبل مضافور لأمكن التسلق عليه في سهولة، وفي ثوان معدودات، أستطيع عبور الجدار المشرف على الشارع. والمشكلة الوحيدة هي كيف يمكن تحييد الحارس. أراه ينهض ويقوم بوضع خطوات على السور الدائري وواضح أنه متضايق من الحر. وأنه يقاوم التعاس بشدة. هذا ما أصبو إليه اسم الله... يجب أن ينام. صافع الحبل، وإذا وجدت المحجن المضمون، فسوف أنيمه وأجرب حظي.

وخلال يومين هيات حبلأ مبرماً من قماش القمصان وبخاصة القمصان الكاكي، ومن السهل نسبياً الحصول على محجن. إنه أحد حوامل الرواق المثبت على أبواب الزنانات ليحميها من المطر. أحضر لي ديغا زجاجة شراب منوم فعال، وبحسب التعليمات يجب تناوله بمقدار عشر نقط، والزجاجة تحوي على ما يقرب من ست ملاعق كبيرة.

أولاً عودت الحارس أن يتقبل مني ما أقدمه له من القهوة فكان يدي بعليته فأضع له فيها في كل مرة ثلاثة فناجين قهوة، وبما أن الكولومبيين يحبون الكحول، وفي المنوم شيء من طعم الأنيسون، استحضرت زجاجة أنيسون وقلت للحارس:

— هل ترغب في قهوة على الطريقة الفرنسية؟

— وكيف هي؟

— تحتوي على الأنيسون.

— حاول، أولاً أريد أن أذوقها.

تذوق عدد من الحراس قهوتي بالأنيسون، والآن عندما أقدم القهوة يقولون لي: على الطريقة الفرنسية «إذا سمحت...» وأسكب لهم الأنيسون.

(١) المحجن. الكلاب

حانت ساعة الصفر، نحن في يوم السبت ظهراً، والطقس حار جداً وأصدقائي يعلمون أن لا مجال لمرور اثنين. غير أن كولومبياً يحمل اسماً عربياً (علي) قال: بأنه سوف يصعد بعدي، فقبلت، لأن ذلك بالتالي يجنيه العقوبة. ومن جهة أخرى لا أستطيع حمل المحجن والحبل، فقد يتسع الوقت للحارس لمراقبتي. عندما أقدم له القهوة، ففي رأينا يجب أن ينتهي كل شيء في دقائق خمس. ناديت الحارس وقلت له:

— هل أنت بخير؟

— نعم

— هل لك في قهوة؟

— أجل. وتفضل على الطريقة الفرنسية.

— انتظر سأحضرها لك.

ذهبت إلى صاحب القهوة وطلبت منه فنجانين وسكبت فيهما محتوى الزجاجاة كلها من النوم. وإذا بهذا المقدار لم يكن كافياً لإسقاطه كالخشبة. وصلت إلى مهوى الحبل ورآني أصب الأنيسون علانية.

— هل تريدها ثقيلة؟

— نعم.

فوضعت مقداراً آخر وسكبت القهوة كلها في علبته ورفعها في الحال. مرت خمس دقائق، عشر، عشرون ولم ينم. والآنكى، أنه بدلاً من أن يجلس كان يمشي خطوات ذهاباً وإياباً، والبندقية في يده، رغم أنه شرب حتى الشمالة. وفترة الحراسة ساعة. كنت أتتبع حركاته على أحر من الجمر والبندقية بين ساقيه ورأسه يميل نحوكتفه. أصدقائي، واثنان أو ثلاثة من الكولومبيين كانوا مثلي يتابعون بلهفة شديدة ردود فعله. قلت للكولومبي هيا إلى الحبل، وكان يستعد لرميه، عندما نهض تاركاً بندقيته تسقط على الأرض. وصار يتمطى ويحاول أن ينقل ساقه ولكنها تبقى في مكانها ولم يبق سوى ثماني عشرة دقيقة لتبديل الحراسة. فدعوت ربي سراً أن يغيثني: أتضرع إليك، أعني مرة أخرى، وأتوسل إليك لا تذرني... ولكن توسلاتي إلى إله المسيحيين لم تجد فتيلاً هذا الإله الذي لا يقدر الظروف أحياناً وبخاصة لمن كان مثلي زنديقاً.

اقترب مني كلوزيو وقال: عجيب أن هذا الأحق لم ينم. تناول الحارس بندقته، وفي اللحظة التي انحنى فيها لتناولها، هوى على طولهِ فوق الطريق الدائري، وكأنه مصعوق.

والقى الكولومبي المحجن ولكنه لم يعلق، بل وقع من جديد، فرمى به ثانية فتشبث. فشده قليلاً ليختبر ثباته وتحققت منه بنفسي، وعندما وضعت قدمي على الجدار لأقوم بأول نقلة في الصعود قال لي كلوزيو: احذر فقد جاء البديل، وتمكنت من الانسحاب

قبل أن يراني أحد، وبغريزة الدفاع والصدقة بين السجناء أحاط بي عدد من الكولومبيين، واحتووني بينهم، ومشينا إلى الجدار، وخلفنا وراءنا الحبل معلقاً بالجدار، ورأى الحارس البديل، بلمح البصر، المحجن والحبل والرجل المدد مع بندقيته، فجرى مترين أو ثلاثاً وضغط على زر الإنذار، وهو يعتقد أن هناك هروباً. فجاء بالمحفة لنقل النائم، وتواجد أكثر من عشرين شرطياً ومعهم دون غريغوريو، فرفع الحبل وأمسك بالمحجن بيده. وبعد دقائق كان الشرطيون يحتلون الباحة وأسلحتهم مشرعة، وأجرى التفقد. وكان على كل من نودي باسمه أن يدخل الزنزانة، وكانت المفاجأة أن العدد لم ينقص. وأعيد التفقد زنزانة بعد زنزانة مع المراقبة المشددة فما اختفى أحد.

وحوالي الساعة الثالثة سمح لنا بالخروج إلى الباحة. وترامى إلينا أن الحارس يشخر وقبضته مطبقتان، ولم تجد في إيقاظه أية وسيلة استخدموها. كان شريك الكولومبي لا يقل عني نصباً، إذ كان على يقين تام من نجاحنا، وثار على المصنوعات الأمريكية لأن النوم من صنع أمريكي.

— ما العمل؟ هل نعاود؟

هذا كل ما كان عندي من كلام للكولومبي. وظن أنني أردت القول بالعودة إلى تنويم حارس آخر فقال: هل تعتقد أن هؤلاء الحراس على درجة من الغباوة بحيث تجد واحداً منهم يقبل شرب القهوة على الطريقة الفرنسية. ورغم هذه اللحظة المأساوية لم أمالك من الضحك.

— بكل تأكيد يا رجل.

نام الشرطي ثلاثة أيام وأربع ليال، وأخيراً عندما استيقظ قال: لا ريب أنني نومت هذه القهوة الفرنسية، فاستدعاني دون غريغوريو لسماع أقوالي. وأراد رئيس الحرس أن يضربني بالسيف فوثبت إلى ركن من أركان الغرفة فأغضبته، ورفع آخر سيفه، فتوسط دون غريغوريو فتلقى الضربة في كتفه فتهاذى على الأرض وقد انكسرت ترقوته وصرخ صرخة شديداً. فلم يعد الضابط يهتم إلا به فرفعه واستغاث دون غريغوريو فبادر من المكاتب المجاورة موظفون مدنيون ووقع عراك بين الضابط والشرطيين والحارس الذي نومه من جهة، وعشرة من المدنيين أرادوا الثأر للمدير من جهة أخرى. وقد جرح في هذه المعركة عدد منهم جروحاً طفيفة وأنا الوحيد الذي لم يصب بأذى. والمهم لم تبق المشكلة مشكلتي، إنما هي بين المدير والضابط. وانتقال المدير إلى المستشفى أعادني إلى الباحة.

— ستري فيما بعد يا فرنسي.

حضر المدير في اليوم التالي مجصص الكتف، وطلب مني تصريحاً خطياً ضد الضابط. فأعلنت بكل سرور كل ما يودون التصريح به. ومن ثم أدرجت قضية النوم في طبي النسيان ولم تبق موضع اهتمام وهذا من حسن حظي.

وبعد انقضاء عدة أيام، عرض جوزيف ديغا تنظيم عملية من الخارج وكنت أحطته علمًا بأن الهروب ليلاً مستحيل بسبب الإضاءة على الطريق الدائري، ففكر في قطع التيار بواسطة عامل كهربائي وجده يخفض قاطع التيار الموجود خارج السجن، وأنا أتدبر شراء الحارس من جهة الشارع والحارس الموجود في الباحة على باب الكنيسة. ولكن الأمر أعقد مما كنا نعتقد. أولاً أنا ملزم بإقناع غريغوريو بضرورة الحصول على عشرة آلاف بيزو بحجة إرسالها إلى أسرتي عن طريق جوزيف الذي سيكرمه بطبيعة الحال بمبلغ ألفي بيزو ليشتري هدية لزوجته، وكذلك الأمر بالنسبة للذي ينظم المناوبة والتوقيت، يجب أن يشتري، ولكنه لا يرغب في الإشتراك في المفاوضات مع الحارسين الآخرين. وعلي أنا أن أجدهما وأنعامل معهما. وبعد ذلك أقدم له اسميهما، ليصار إلى ترتيب مناوبيتهما في الحراسة حسب إشارتي. التحضير لهذه العملية الجديدة استغرقت قرابة الشهر. وأخيراً كل شيء كان محمداً، وبما أنه ليس علينا حرج من شرطي الباحة، فإن القضيب الحديدي سيقطع بمنشار.

عندي ثلاث شفرات. سينشر الكولومبي صاحب المحجن القضيب الحديدي على عدة مراحل.

ولهذا الكولومبي صديق يتظاهر بالجنون منذ فترة من الزمن، ففي ليلة العملية سيضرب على صحيفة معدنية من التوتياء، ويغني بأعلى صوته.

إن الكولومبي يعلم بأن الحارس لم يرض بالتعامل معنا إلا على أساس هروب اثنين من الفرنسيين وقال: لو أن رجلاً ثالثاً صعد فإنني سأطلق عليه النار. ومع ذلك يريد علي أن يجرب حظه قائلاً: إنه في حال التسلق ملتصقين جيداً لن يميز الحارس في الظلمة الواحد من الاثنين. أجرى كلوزيو وماتوريت قرعة والفائز فيها هو الذي يهرب معي وقد فاز كلوزيو.

أقبلت الليلة غير مقمرة وقد أخذ كل من الرقيب والشرطين نصف الأوراق المعتادة له، وقد كانت مقصورة من قبل، والنصف الآخر سوف يقبضونه من الحانة الصينية (باريو شينو) من عند امرأة جوزيف ديغا.

أطفئت الأنوار، فداهنا القضبان، وفي أقل من عشر دقائق كانت منشورة، فخرجنا من الزنزانة في قميص وبنطال قائمين. انضم إلينا الكولومبي في الممر وهو عار إلا من سروال قصير أسود. تسلقت شبك باب سجن في الجدار وتجاوزت الإفريز ورميت بالمحجن وطول حبله ثلاثة أمتار فأصبحت في الطريق الدائرة على أعلى السور، في أقل من ثلاث دقائق، دون أن أحدث ضجة. انبطحت منتظراً كلوزيو وكان الظلام حالكاً وفجأة رأيت أو بالأحرى قدرت أن يداً تمتد فأمسكت بها وسحبت. فحدثت قعقة مدوية، وذلك أن كلوزيو مر بين الإفريز والجدار، وعلق من حلقة حزام بنطاله بالصفائح المعدنية، فتوقفت

طبعاً عن السحب بعد هذا الصخب الذي حدث. كُفّت صفائح القصدير عن القعقة، فسحبت من جديد، وقد توهم كلوزيو أنه تخلص، وفي وسط هذه الجلبة التي أحدثتها صفائح القصدير انتزعته بقوة وجعلته يتسنىم^(١) السور، وانطلق رصاص البندقيات من مختلف المراكز إلا من ناحيتنا، فطار صوابنا فوثبنا من جهة خاطئة، إلى شارع ينخفض تسعة أمتار على حين أن الشارع الآخر على اليمين لا ينخفض عن أعلى السور أكثر من خمسة أمتار. والحصيلة: انكسرت ساق كلوزيو اليمنى من جديد، وأنا لم أستطع النهوض إذ انكسرت قدمي، وعرفت في وقت متأخر أن الكسر كان في العقبين، والكولومبي انفك منه مفصل الركبة. وطلقات البندقية أخرجت الحراس إلى الشارع فأحاطوا بنا تحت ضوء مصباح كبير وهاج، والبنادق مصوبة نحونا. فأخذت أبكي من الحزن وإمعاناً في سوء الحظ، لم يصدقوا بأنني لا أستطيع النهوض فأعدت إلى السجن زحفاً على الركب، وتحت ضربات الحراب. وكان كلوزيو يقفز على رجل واحدة وكذلك فعل الكولومبي. كان الدم ينزف من جرح في رأسي بسبب ضربة من أخمص البندقية.

استفاق دون غريغوريو على طلقات النار. وكان ينام في مكتبه وهو المناوب تلك الليلة لحسن الحظ، ولولاه لقضي علينا بضربات أعقاب البنادق والحراب. وأكثرهم اندفاعاً ضدي ذلك الرقيب الذي رشوته ليعين الشريكين في العملية. وقد أوقف دون غريغوريو هذه الهجمة الشرسة علينا، وهدد بإحالة من يجرحنا إلى المحكمة، فشلهم جميعاً بهذا القول الساحر. وفي اليوم التالي وضعت ساق كلوزيو في الجص في المستشفى وقام أحد السجناء، وهو مجبر للعظام، بإعادة مفصل ركبة الكولومبي إلى وضعه الطبيعي، وشدها بعصابة.

وفي الليل انتفضت قدمي حتى غدت كل واحدة منها بحجم رأسي، واصطبغتاً بلون أحمر أو أسود، وتورمتا في نهايتهما. غطسها الطبيب في ماء فاتر، ثم علق عليهما العلق ثلاث مرات يومياً. وعندما كانت العلقة تمتلئ دماً، تسقط من تلقاء نفسها ثم توضع في الخل لتفرغ ما امتصته من الدم، وأغلق جرح رأسي بست قطب.

كتب أحد الصحفيين مقالاً ضدي، ولفق فيه أخباراً: فروي أنني كنت زعيم التمرد في الكنيسة وأنني سممت حارساً، وإن آخر ما فعلته أنني دبرت هروباً جماعياً بالاشتراك مع البعض من الخارج، إذ قطعوا تيار المحول، وانتهى إلى القول إننا نأمل من فرنسا أن تسارع في أقرب وقت ممكن لتخلصنا من مجرمها الأول.

جاء جوزيف بصحبة زوجته آني ليراني، وحضر الرقيب والشرطيان كل على انفراد ليأخذوا أنصاف الأوراق النقدية. وسألني آني ماذا يمكنها أن تفعل، قلت لها: ادفعي لأنهم التزموا بعهدهم وإذا أخفقتنا فليس هذا من ذنبهم.

(١) يعلو (كما يركب البدوي على سنام الجمل) ..

منذ أسبوع أخذوا يطوفون بي في الباحة فوق نقالة اتخذتها سريراً. كنت محمداً وقدمائي مرفوعتان ومستندتان إلى شريط من القماش مشدود بين قطعتين من الخشب مثبتتين عمودياً على ذراعي النقالة. قدمائي متورمتان ومحتقتان بالدم المتخثر. لا أستطيع الاتكاء بهما على أي شيء حتى في حالة الاستلقاء. وهذا الوضع هو أنسب وضع لتجنب الآلام. وبعد مرور خمسة عشر يوماً من كسر قدمي خف ورمهما إلى النصف. وعرضوني على الأشعة، فبين أن عقيّ مكسوران. أي ساقى طيلة حياتي بقدمين مفطحتين.

أعلنت صحيفة اليوم انه في نهاية الشهر ستصل سفينة وعلى ظهرها مجموعة من الشرطيين الفرنسيين وقالت الصحيفة إن السفينة تدعى مانا. ونحن الآن في الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) أي لم يبق سوى ثمانية عشر يوماً. ويجب أن ألعب لعبتي الأخيرة، ولكن أية لعبة هذه وأنا مكسور القدمين؟

كان جوزيف يائساً، وأخبرني حين زارني أن الرجال والنساء جميعاً في حانة باربوشينو مهتمون جداً بما أقاسيه في كفاحي من أجل حريتي. ويعز عليهم أن يروني بعد أيام أسلم إلى السلطات الفرنسية. وقد أشاع هذا الاضطراب والبلبل في المستعمرة كلها، وقد أثلج صدري أن أرى قلوب هؤلاء الرجال ونسائهم إلى جانبي.

صرفت النظر عن فكرة قتل شرطي كولومبي وفي الحقيقة لا أستطيع الإقدام على إلغاء إنسان من الوجود من غير ذنب، قدرت أن يكون له أب أو أم يعيلها أو زوجة أو أطفال. وتبسمت حين فكرت في قتل شرطي شرير ليست له أسرة. أستطيع أن أسأله مثلاً: لو أنني قتلتك ألا يفتقدك أحد؟

في صباح الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، اسودت الدنيا في عيني. نظرت إلى حجر حمض البيكريك لو أنني أكلته لاكتسب وجهي شحوباً. وإذا نقلت إلى المستشفى فقد أستطيع الخروج منه بوساطة رجال يشترهم جوزيف.

وفي الغداة كنت شاحباً بلون الليمون، وجاءني جوزيف فرآني في الباحة مضطجعاً في الظل على النقالة، وقدمائي مرفوعتان إلى الهواء. وعلى الفور وبدون لف ولا دوران وبدون تبصر قلت:

— لك مني عشرة آلاف بيزو إذا استطعت نقلي إلى المستشفى.
— سأحاول يا فرنسي، لا من أجل عشرة آلاف بيزو، وإنما يحز في نفسي أن أراك تستमित في سبيل الحصول على حريتك. وفي اعتقادي أنهم لن يرسلوك إلى المستشفى بسبب تلك المقالة في الصحيفة، إنهم خائفون. أرسلني الطبيب بعد ساعة ولم تمس قدمائي الأرض أنزلوني من سيارة الإسعاف على محفة ثم أعادوني إلى السجن بعد ساعتين، وبعد إجراء فحوص وتحاليل للبول دون أن أتحرك من المحفة.

اليوم، الخميس التاسع عشر من شهر أكتوبر (تشرين الأول). حضرت آني، زوجة جوزيف مصحوبة بـ زوجة رجل كورسيكي، ومعها بهجائر وبعض الحلوى. وبكلامهما الودي أحسنوا إلي أيمّا إحسان. ومن الجميل حقاً أنهما أظهرتا من مظاهر الود والصدقة ما حوّل نهاري الحافل بالمرارة، إلى يوم مشرق عذب. وإني لأعجز عن التعبير عما كان لهذا التضامن من خير، خلال إقامتي في سجن الثمانين. وكم أنا مدين لجوزيف الذي مضى في مساعدتي على الهروب إلى حد المقامرة بحريته وأوضاعه.

من كلام آني تولدت عندي فكرة، إذ قالت في حديثها:
عزيزي بابيون لقد فعلت كل ما في وسع بشر أن يفعله، لتستعيد حريتك، ولم ينقصك سوى أن تفجر السجن.

— ولم لا؟ لم لا أفجر هذا السجن العتيق وفي ذلك خدمة لهؤلاء الكولومبيين، فإذا فجرته ربما قرروا بناءه من جديد بحيث تتوفر فيه الشروط الصحية، وبعد أن قبّلت هاتين الشابتين الساحرتين قبلة الوداع قلت لآني:

— اطلبي من جوزيف أن يوافيني يوم الأحد.

وقد حضر جوزيف يوم الأحد في الثاني والعشرين فقلت له:

— اسمع. افعل المستحيل لكي يأتيني أحدهم بإصبع ديناميت ومفجر وسلك بيكفورد، ومن جانبي سأفعل ما يلزم للحصول على مثقب وثلاث فتائل.
— ماذا تنوي أن تفعل؟

— أريد أن أفجر جدار السجن في وضح النهار. واتفق مع سائق تكسي مزيف على خمسة آلاف بيزو لهذا الموضوع. ولينتظر كل يوم في الشارع خلف ماخور ميديلين من الساعة الثامنة صباحاً وحتى السادسة مساءً. سندفع له خمس مئة بيزو كل يوم، إذا لم يحدث شيء، وإذا حدث شيء ندفع له خمسة آلاف، ومن النقب الذي سيحدثه الديناميت في الجدار سأصل إلى التكسي على ظهر كولومبي شديد المراس، وعليه الباقي. فإن عثرت على السائق فأرسل لي الديناميت وإلا كانت نهاية النهايات وفقدنا كل رجاء.
— اتكل علي.

وفي الساعة الخامسة، تحاملت على ذراعي متكثاً على شخصين إلى الكنيسة وقلت: أريد أن أصلي وحدي، وأرسلت في طلب دون غريغوريو، فلباني.

— لم يبق سوى ثمانية أيام لنفترق.

— من أجل هذا دعوتك. لي عندك خمسة عشر ألف بيزو، أود تسليمها لصديقي

قبل الرحيل ليرسلها بدوره إلى أسرتي، وأرجو أن تقبل مني ثلاثة آلاف بيزو هدية من صميم القلب لأنك كنت دوماً تحميني من سوء معاملة الجنود، وإنك لتخدمني خدمة كبيرة لو أعطيتني إياها ملفوفة بورق لاصق حتى أضرم أجزاءها وأرتبها منذ اليوم وحتى يوم الخميس فتكون جاهزة فأعطيها لصديقي.
— سمعاً.

عاد وسلمني اثني عشر ألفاً وكل ورقة مقطوعة نصفين واحتفظ لنفسه بثلاثة آلاف. وحين رجعت إلى نقالتي ناديت الكولومبي الذي رافقني آخر مرة إلى ركن معزول وأطلعت على خططي وسألته إذا كان قادراً على حملي على ظهره إلى مسافة عشرين أو ثلاثين متراً إلى سيارة عامة. فتعهد بذلك تعهداً قاطعاً. ورتبت أموري على أساس نجاح جوزيف. وصباح الاثنين وفي ساعة مبكرة اتخذت مكاني عند المغاسل. وكان يقود نقالتي المتحركة ماتوريت و كلوزيو. وقد ذهب ماتوريت لإحضار الرقيب الذي منحته ثلاثة آلاف بيزو، والذي ضربني بوحشية أثناء محاولة الهروب الأخيرة.

— أريد أن أكلمك أيها الرقيب.

— ما تبتغي؟

— مقابل ألفي بيزو أريد مثقباً قوياً جداً وست فتائل اثنتان منها بضخامة نصف ستمتر، واثنتان بسلك ستمتر واحد، واثنتان بشخانة ستمتر ونصف.

— ليس لدي مال لأشترها.

— إليك خمس مئة بيزو.

— ستألفها غداً الثلاثاء عند تبديل الحرس في الساعة الواحدة. هيء ألفي بيزو. وفي الساعة الواحدة حصلت على ما أريد من سلة مهملات فارغة في الباحة، كانت قد أفرغت عند تبديل الحرس. جمع بابلو، الرجل الشديد المراس، كل شيء وخبأه.

الخميس في السادس والعشرين، لم يزرنني جوزيف. وفي نهاية الزيارة نوديت. كان الزائر عجوزاً فرنسياً، متغضن البشرة كان موفداً من قبل جوزيف. قال:

— في قرص الخبز هذا، ما طلبته.

— إليك ألفي بيزو من أجل السيارة العامة، لكل يوم خمس مئة.

— سائق السيارة من بيروفا، متنفخ للغاية، لا تعر ذلك انتباهاً. شياو.

— شياو.

ولإبعاد الشبهة عن قرص الخبز وضعوا معه في الكيس لفائف تبغ، وأعواد نقاب، ونقانق مدخنة، وزبدة، وزجاجة زيت أسود.

وعند التفتيش أعطيت الحارس الواقف على الباب علبة سجائر، وكبريتاً واثني من النقانق، فقال أعطني قطعة من الخبز. لا ينقصنا سوى هذا!! قلت: لا اشتر خبزاً هالك خمسة بيزو، لأن خبزنا لا يكاد يكفيننا نحن الستة.

أف. لقد خرجت من هذا المأزق سالماً. وبها من فكرة تقديم النقانق لهذا الشخص. وابتعدت نقالتي مسرعة عن هذا الشرطي المزعج. فقد فاجأني بطلب الخبز حتى تصيب العرق مني.

— غداً موعد الأسهم النارية، وكل شيء معد. يجب نقب الجدار تحت بروز البرج تماماً. فالمراقب في الأعلى لن يراك.

— ولكنه سيسمع

— حسبت لذلك حساباً. ففي الساعة العاشرة صباحاً تكون هذه النافذة من الباحة ظليمة. وعلى أحد عمال النحاس أن يشرع في تصفيح ورقة نحاسية، وذلك بطرقها جهاراً على الجدار على بعد بضعة أمتار منا، وإذا كانا اثنين فهذا أفضل، وسوف أدفع لكل منهما خمس مئة بيزو.

أوجد هذين الرجلين.. فوجدتهما.

— صديقان لي سوف يطرقان النحاس دون انقطاع، فلن يلاحظ الحارس صوت الفتيل. أما أنت في محفتك، فيجب أن تتواجد خارج الظل قليلاً تناقش زملاءك الفرنسيين، وهذا يحجبني قليلاً عن الحارس من الجهة الأخرى. وتم نقب الجدار في ساعة بفضل ضربات المطرقة على النحاس، وللزيت الذي يصبه مساعد على الفتيل. أبعد عن الحارس الظنون. أدخل إصبع الديناميت في الثقب، والمفجر مثبت على بعد عشرين سنتيمتراً من الفتيل. وقد ثبت وضع الديناميت بالغضار وانسحبنا، وإذا جرت الرياح بما تشتهي السفينة، فسوف تحدث فجوة نتيجة الانفجار، وسوف يسقط الحارس مع خيمته، وأنا سوف أصل على صهوة (حصاني) بابلو، والآخرين يتدبرون أمرهم، وطبيعي أن يصل ماتوريت وكلوزيو إلى السيارة العامة قبلي.

قال بابلو قبل إشعال الفتيل، منذراً الكولومبيين: إذا أردتم النجاة بعد لحظات فإن ثغرة ستحدث في الجدار.

— وهذا شيء جميل، لأن رجال الشرطة سيطلقون النار على من كان قريباً منهم.

أشعل الفتيل ودوى انفجار شيطاني هز الأركان، وانهار البرج مع الشرطي وتصعد الجدار من كل جانب بصدوع متباعدة حتى رأينا الشارع من الجهة المقابلة، ولكن لم تكن الشقوق على درجة كافية من الاتساع تسمح بمرور أحد وهنا حكمت على نفسي بالضيق، ويأبى القدر إلا أن أعود إلى كايين. والبليلة التي تبعت الانفجار تفوق حد الوصف، فقد تواجد في الباحة ما ينوف على خمسين شرطياً. وأدرك دون غريغوريو من الفاعل؟

— حسناً أيها الفرنسي. اعتقد أنها الأخيرة.

جن جنون رئيس الحامية من الغضب، وهو لا يستطيع أن يأمر بضرب إنسان جريح، وتجنباً لكل المتاعب للآخرين، أعلنت بصوت عال بأنني وحدي المسؤول عن كل ما حدث. وقف ستة حراس أمام الجدار المتشقق وستة في الباحة، وستة آخرون خارج السجن في الشارع يتولون الحراسة باستمرار إلى أن ينتهي البناءون من ترميم العطب. والشرطي الذي سقط من أعلى الجدار لم يصب بأذى، لحسن الحظ.

العودة إلى سجن الميناء

وبعد ثلاثة أيام، أي في الثلاثين من أكتوبر (تشرين الأول) وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصل الاثنا عشر مراقباً، مرتدين الملابس البيض لاسترجاعنا. ولا بد قبل الرحيل من اجراء بعض المراسم. ولا بد أن يكون كل منا واضح الهوية والشخصية. فأحضرت ملفاتنا وفيها أوصافنا وصورنا وبصماتنا، وبعد أن تحققوا من هوياتنا تقدم قنصل فرنسا، ليوقع وثيقة للقاضي المكلف تسليمنا رسمياً إلى فرنسا. ودهش الحاضرون من الطريقة الودية التي عاملنا بها المراقبون، لا حقد، ولا قسوة في القول. والثلاثة الآخرون الذين كانوا هناك قبلنا بزمناً يعرفون عدداً من المراقبين، فتكلموا معهم وتسلموا وكأنهم أصدقاء قدامى. نظر رئيسهم المقدم بورال إلى قدمي وقلق لحالتي وقال: سنحنى بك على ظهر السفينة حيث يوجد ممرض جاء في جملة من جاؤوا لإحضاركم.

إن السفر في قعر سفينة كهذه مرهق بالحرارة الخانقة وأشد ما كان يضايقنا هو ربطنا مثنى مثنى بقيود حديدية، تنزلق حول قضيب معدني بدءاً من سجن تولون. وتحسن الإشارة إلى حادثة وقعت: اضطرت السفينة إلى التزود بالوقود من ترينيداد. وما أن وصلنا إلى المرفأ حتى طلب ضابط بحري انجليزي أن يرفعوا عنا الأغلال، ويبدو أن ذلك محظور، فاستغللت الفرصة ووجهت لضابط انجليزي مفتش صفقة، وقصدت من وراء هذا أن أوقف وأنزل إلى اليابسة ولكن الضابط قال لي: لن أوقفك ولن أنزلك أرضاً لما اقتربت من إثم. إنما سيكون عقابك أكبر عندما نعود إلى هناك. وأنا كنت الخاسر.

لا. أنا حقاً محكوم علي بالعودة إلى سجن الميناء. ما أتعسني وما أشقاني. غير أن هذه الشهور الأحد عشر من الهروب المصحوب بالصراع والعنف، انتهت نهاية مأساوية. وعلى الرغم من كل شيء وعلى الرغم من هذا الصخب الداوي الذي أحدثته مختلف المغامرات. فإن الأوبة إلى سجن الميناء بكل ما فيه من عواقب مرة، فإنه لن يستطيع أن يحو لحظات عشتها لا تنسى.

بالقرب من مرفأ ترينيداد الذي غادرناه على مسافة بضعة كيلو مترات، أسرة بوين التي لا ترقى إلى مستواها أسرة، ولم نمر بعيدين عن كوراساو أرض الرجل العظيم أسقف هذا البلد إيرنيه دويرين ويدون أدنى شك قد نكون لامسنا. أرض هنود كاجيرا، حيث عرفت الحب الملتهب من نبعه الصافي في صورته الطبيعية العفوية وبكل الوضوح الذي لا يقدر عليه إلا الأطفال، والأسلوب النقي في رؤية الأشياء، الذي يسم هذه السن المتميزة. كل ذلك وجدته عند هؤلاء الهنديات الممتلئات بالعزم والإرادة، الغنيات بروح التفاهم والحب الساذج والطهر.

وأولئك البرص، في جزيرة الحمام، هؤلاء المحكومون المصابون بهذا المرض الشنيع، ومع ذلك أوتوا مقدرة على أن يحملوا في قلوبهم النبل اللازم لمساعدتنا. إلى ذلك القنصل البلجيكي الطيب، إلى جوزيف ديفا الذي عرض نفسه للأخطار دون أن تربطني به معرفة سابقة.

كل هؤلاء الناس، كل هؤلاء المخلوقات الذين عرفتهم في هذا الهروب جديرون بهذه المعرفة. ورغم أنني تحطمت فإن في هروبي انتصاراً أغنى روعي هذه الشخصيات النادرة فما ندمت على الهروب. هذه هي ماروني، ومياها الموحلة، فنحن على متن مانا وشمس الاستواء جعلت الأرض سعيراً، والساعة التاسعة صباحاً، ورأيت من جديد مصب النهر، ودخلنا متلدين، من حيث خرجت فيها مضى مسرعاً. صحي واهمون وسر المراقبون بالوصول. وكان البحر صاخباً طيلة رحلتنا، والآن أحس كثير منهم بالارتياح.

السادس عشر من نوفمبر (كانون الأول) عام ١٩٣٤.

تجمع لدى نزولنا جمع غفير. أحسست بأنهم ينتظرون في كثير من الفضول، الرجال الذين لم يرهبوا السفر البعيد. ولما اتفق أن وصلنا الأحد كان هذا الوصول تسلية وامتعة لهذا المجتمع المحروم من التسلية إلا قليلاً. وسمعت بعضهم يقولون: هذا هو بابيون، وهذا كلوزيو، وذاك ماتوريت، وهكذا دواليك.

وفي معسكر الإصلاحية اصطف ست مئة رجل أمام برّاكتهم وبالقرب من كل مجموعة مراقبون، وأول من تعرفت عليه هو فرانسوا سيرا، فأجهش بالبكاء ثم لم يستطع أن يداري بكاءه أمام الآخرين متسلقاً إحدى نوافذ المستشفى، محدّقاً بي، وإنك لتحس بصدق مرارته. وقفنا وسط المعسكر، والمقدم رئيس الإصلاحية يحمل بوقاً وقال:

— أيها المبعدون! لعلكم لمستم عقم الهروب. فإن كل البلاد توقفكم لتعيدكم إلى فرنسا، إذ لا يتقبلكم ولا يرضى بكم أحد. وما الذي ينتظر هؤلاء الرجال الخمسة؟ ينتظرهم حكم صارم يتحتم قضاؤه في الانفرادي، في جزيرة سان جوزيف، وباقي العقوبة المؤبدة في جزر سالو. هذا ما كسبوه من الهروب، وأرجو أن تكونوا قد فهمتم. أيها المراقبون!، قودوا هؤلاء الرجال إلى معسكر التأديب. وبعد دقائق ألفينا أنفسنا في زنزانة خاصة في المعسكر تحت مراقبة شديدة. ولم أكد أصل حتى طلبت العناية بقدمي اللتين ما زالتا متورمتين متفختين. وقال كلوزيو: إن ساقه تؤله بسبب الجص. سنجرب إن كانوا لا يحيلوننا إلى المستشفى أبداً. وصل فرانسوا سيرا مع المراقب الذي قال: ها هو ذا المريض.

— كيف حالك يا بابي؟

— أنا مريض وأرغب في الذهاب إلى المستشفى.

— سأحاول نقلك إلى هناك، ولكن بعد الذي فعلته، أظن أن الأمر يكاد يكون مستحيلًا، وكذلك بالنسبة إلى كلوزيو.

ذلك قدميَّ ودهنها بالمرهم، وفحص الجص على ساق كلوزيو وانصرف ولم نستطع أن نقول شيئاً وعيون الحراس ترمقنا بنظرات ملؤها العدوية مما هز أعطافي ولما جاء سيرا في الغداة لإجراء التدليك قال:

— ليس في الإمكان الذهاب إلى المستشفى. وهل تريد أن أنقلك إلى قاعة مشتركة؟ هل يقيدونك من قدميك ليلاً؟

نعم.

— إذن يستحسن أن تذهب إلى قاعة عامة وسوف تبقى مغلولاً، ومع ذلك لن تكون وحيداً على حين أن وجودك معزولاً يسبب لك إزعاجاً.
— معقول.

أجل إن الانفراد في هذه الفترة أصعب احتمالاً من ذي قبل، وإنني في حالة نفسية لا أحتاج فيها إلى إغماض عيني لأهيم في الذكريات، بمقدار ما أنا في حاجة إلى التفكير في الحاضر. ونظراً لعجزني عن المشي فإن الزنزانة أسوأ مما كانت عليه في الماضي. أواه. هأنذا قد رجعت إلى طريق العفن، ومع هذا تخلصت منه في المرة السابقة في سرعة. وحلقت فوق البحر نحو الحرية، نحو الفرح حيث أكون إنساناً جديداً، ونحو الانتقام أيضاً. إن هذا الدين الذي لي على الثلاثي: بولان، والشرطة، والمدعي العام، ينبغي أن لا أنساه. وبالنسبة إلى الصندوق ليس ضرورياً أن أودعه لرجال الشرطة على باب المخفر القضائي، بل سأصل بلباس عامل في القطار، وعلى رأسي قبعة، وألصق على الصندوق بطاقة مكتوباً عليها: المفوض بينوا ٣٦ رصيف الصاغة باريس (اليسين). سأحمل بنفسني الصندوق إلى قاعة العلاقات، وبحسب تقديراتي فإن المنبه لا يعمل إلا بعد انسحابي، وإصابة الهدف لن تخيب. وبوصولي إلى هذا الحل أحسست بأن عبثاً ثقيلاً نزل عن كتفي. وأما المدعي العام، فسوف أجد الوقت الكافي لأقطع لسانه ولن تتغير الوسيلة، وكأنها شيء واقع. هذا اللسان الفاجر ساقطعه إرباً. وأكثر الأمور إلحاحاً هو أن أعنتي بقدمي، وينبغي أن أمشي في أسرع وقت ممكن، ولن أحاكم قبل ثلاثة أشهر. وخلال ثلاثة أشهر ستحدث أشياء جمة: أحتاج إلى شهر لشفاء قدمي، وشهر لوضع الأمور في نصابها. وبإسادة عموا مساء ولكن هذه المرة لن يستطيع أحد أن يقبض علي.

بالأمس وبعد ثلاثة أيام من وصولي نقلوني إلى قاعة عامة حيث أربعون رجلاً ينتظرون المجلس الحربي: البعض منهم متهم بالسرقه، وآخرون بالسلب أو بإشعال الحرائق أو القتل، أو محاول القتل أو الاغتيال السياسي أو محاولة الهروب أو الهرب نفسه حتى أكل لحم البشر. كنا جميعاً مقرنين بقضيب حديدي، على جانب حاجز خشبي طوله خمسة عشر متراً، وكل عشرين رجلاً من جهة.

وفي الساعة السادسة مساءً كانت تربط الرجل اليسرى لكل سجين، بالقضيب الحديدي بوساطة حلقة حديدية. وفي الساعة السادسة صباحاً، ترفع عنا هذه الحلقات، فنستطيع الجلوس والتجول واللعب بالداما، وليس ما يضجرني كثيراً في النهار، إذ يأتي الجميع لزيارتي في زمر قليلة، لأروي لهم حكاية هروبي، وكانت تند عنهم صيحات الاستغراب عندما أخبرهم بأنني هجرت بمحض إرادتي عشيرتي الكاجيرا ولاي وزورايما.

قال لي باريسى كان يصغي إلى حديثي: عم كنت تبحث يا صديقي؟ عن القطارات الكهربائية؟ عن المصاعد؟ عن دور السينما؟ عن الأضواء ذات التيار المتردد التوترو والذي يستعمل في المقعد الكهربائي؟ أم أنك كنت تواقاً إلى الاستحمام في حوض ساحة بيغال؟

ثم أردف قائلاً: كانت لك امرأتان كل واحدة منهم أعذب من الأخرى، وكنت تعيش عارياً في أحضان الطبيعة إلا من عصابة يضعها العراة تأكل وتشرب وتصيد. عندك البحر والشمس والرمل الحار، إلى لآلئ المحارات، كل هذا لك بالمجان، ولم تجد غير هذا تهجرو وترحل عنه؟ وإلى أين؟ قل لي. إلى شوارع تحتازها، وأنت خائف أن تدهسك سيارة؟ إلى منزل تدفع أجره؟ ولائحة الكهرباء والهاتف؟ إذا أردت سيارة خربة لتشتغل كساراً، أو تعمل كالأبله مستخدماً فإنك تكسب قوت يومك فقط فلا تموت جوعاً. إني لا أفهمك يا هذا كنت في النعيم، وهبطت إلى الجحيم طوعاً. حيث أنه فوق متاعب الحياة وهمومها، عليك أن تتحمل هم مطاردة الشرطة لك في كل مكان في العالم.

صحيح أنه تجري في عروقك الدماء الفرنسية الحارة، وأنت لم تستطع أن تلاحظ أن قواك الجسدية والفكرية قد أصابها الكلل. لا أستطيع أن أفهمك أنا نزيل السجن عشر سنوات، وعلى كل حال أهلاً بك بيننا، وما دمت لم تزل نزاعاً إلى البدء من جديد اتكل علينا جميعاً لمساعدتك. أليس كذلك أيها الرفاق؟ هل أنتم موافقون؟ وقد وافق الجميع، فشكرت لهم.

إنهم كما أرى رجال أشداء، ويسبب اختلاطنا كان من العسير أن يلاحظ هذا أو ذاك أنني أحمل الأنوبة. وفي الليل كان الجميع مقرونين إلى القضيب الحديدي المشترك، فمن الصعب جداً قتل أحدهم دون عقاب. أما في النهار، فيكفي مقابل شيء من المال أن يقبل العربي حامل المفاتيح بأن لا يقفل الحلقة إقفالاً تاماً. وهكذا فإن الرجل ينفك ليلاً ويفعل ما كان قد دبره في النهار ويعود إلى قيده ويغلقه إغلاقاً محكمًا. وبما أن الرجل العربي شريك في الذنب فإنه سيغلق فمه ويسكت. مرت ثلاثة أسابيع على عودتي وما كان أسرعها وبدأت أمشي قليلاً ممسكاً بقضيب المر الذي يفصل الحاجز الخشبي.

بدأت محاولتي الأولى. ففي الأسبوع الماضي رأيت أثناء التحقيق حراس المستشفى الثلاثة الذين ضربناهم وجردناهم من أسلحتهم، وقد سروا جداً بعودتنا، وأملوا أن نقع

موقعاً يستطيعون فيه أن يسدوا لنا خدمة!! إذ بعد هروبنا نالوا عقوبات جسيمة، منها حرمانهم من قضاء عطلتهم في أوروبا لمدة ستة أشهر، ومنها حرمانهم من تعويض الاغتراب في المستعمرات لمدة سنة. ويمكن القول إن لقاءنا لم يكن ودياً، ذكرنا هذه التهديدات خلال التحقيق ليكون على بينة. أما العربي فقد سلك سلوكاً أفضل، فلم يقل سوى الحق دون مبالغة، ومتناسياً الدور الذي لعبه ماتوريت. وألح قاضي التحقيق، وهو برتبة مقدم، على معرفة من أعطانا المركب فتظاهرنا بالغباء وقصصنا أموراً ملفقة من مثل أننا صنعنا بأنفسنا ألواحاً خشبية تعوم على سطح الماء. وقد قال لنا إنه بسبب هجومنا على الحراس الثلاثة سيبدل جهداً لكي يكون الحكم علينا أنا وكلوزيو بخمس سنوات وعلى ماتوريت بثلاث. وبما أنك أنت المدعو بابيون، ثقت تماماً أنني سأقصص جناحيك ولن تطير من بين أيدينا. وقد خشيت أن يكون على صواب. وانتظرنا شهرين لنمثل أمام المحكمة. وأتمنى أن لا أكون قد وضعت في رأس أنبوتي رأس السهم المسموم، فإن فعلت ذلك أكن قد غامرة بكل شيء في معسكر التأديب أنني الآن أشعر بتحسّن في كل يوم وأمشي بصورة أفضل. وفرانسوا سيرا لا يتأخر أبداً عن الحضور صباح مساء لتدليكي بالزيت والكافور. وزيارات التدليك كان لي فيها خير عظيم، لقدمي ولنفسي على حد سواء. ما أجل أن يكون للإنسان صديق في هذه الحياة. وقد لاحظت أن هذا الهروب الطويل قد منحنا امتيازاً في أعين السجناء، لا مرأه فيه. وأنا على يقين بأننا في أمان تام وسط هؤلاء الرجال ولسنا معرضين للقتل من أجل سرقتنا. فالغالبية العظمى تستنكر هذا، وبالتأكيد إن الفاعلين ان فعلوا فيسقتلون فالجميع بلا استثناء يحبوننا، بل يكون لنا بعض الإعجاب، ونظراً لإقدامنا على ضرب الحراس فإنهم يرون أننا على استعداد أن نفعل أي شيء. وهذا أمر بالغ الأهمية في إشعارنا بالطمأنينة. صرت أمشي كل يوم مسافة أطول. وبفضل الزجاجة التي يتركها لي سيرا، فإن رجالاً يعرضون علي أنفسهم للقيام بتدليك قدمي، وكذلك عضلات ساقي التي ضمرت قليلاً، بسبب الجمود وقلة الحركة.

عربي تأكله النمل

في القاعة رجلان كئيبان، لا يكلمان أحداً، وهما دوماً متلازمان، يتهامسان فلا يسمعها أحد.

قدمت في أحد الأيام لأحدهما سيجارة من علبة كان سيرا قد أحضرها لي، فشكر لي وقال:

— هل فرانسوا سيرا صديقك؟

— نعم إنه أفضل صديق.

— إذا ساءت الأمور يوماً، ربما تركنا لك إرثاً بوساطته.

- أي إرث؟
 - لقد قررنا أنا وصديقي، إذا نفذ فينا حكم الإعدام، أن نرسل لك أنبوتنا فقد تنفك في الهروب ثانية سنعطيهما يومئذ لسييرا، وهو يحملها لك.
 - هل تظنان أنهم سيحكمون عليكما بالإعدام؟
 - هذا شبه مؤكد، وفرصتنا في النجاة من الإعدام ضعيفة.
 - إذا كنتما بهذا الوثوق، فلم أنتما هنا في القاعة العامة؟
 - أظن أنهم يخشون علينا من الانتحار، لو أننا بقينا وحدنا في الزنزانة.
 - آه. نعم هذا ممكن. ولكن ماذا جئتما؟
 - أطعمنا عنزاً^(١) للنمل آكل اللحوم. أقول لك هذا، لأنه لسوء الحظ، لدينا الدليل القاطع، لقد وقعنا في الجرم المشهود.
 - أين حصل هذا؟
 - عند الكيلو متر الثاني والأربعين في معسكر الموت، بعد خليج سياروين.
 اقرب صاحبه منا وهو من تولوز فقدمت له سيجارة أمريكية. جلس بالقرب من صديقه في مواجهتي وقال القادم الجديد:
 - لم يسبق أن طلبنا رأي أحد، وسوف أكون فضولياً في معرفة رأيك فينا.
 - كيف تريد أن أقول لك ودون أن أعرف شيئاً، إن كنتما على حق أم على باطل في إطعام النمل اللحم إنساناً ولو كان عنزاً، ينبغي أن أطلع على كل شيء من الألف إلى الياء.
 - سأسرد عليك الحكاية: إن معسكر ٤٢ هو على بعد اثنين وأربعين كيلو متراً من سان لوران ويقع في غابة. المحكومون هناك مجبرون على قطع أخشاب صلبة بمعدل متر مكعب كل يوم، ويجب عليهم أن يتواجدوا مساء في أرض جرداء قرب أخشابهم التي قطعوها ورتبوها. ثم يأتي المراقبون وبصحبتهم حملة المفاتيح العرب ليتحققوا من إنجازنا المهمة المفروضة علينا، وعندما يتم تسليم كل متر مكعب يعلم بصيغ أحمر أو أخضر أو أصفر تبعاً للأيام. ولا يقبلون من الخشب إلا ما كان صلباً قاسياً ولبلوغ ذلك يؤلف فريق من شخصين. وغالباً ما كنا نعجز عن إنجاز العمل فنوضع في السرداب دون عشاء ونخرج منه صباحاً دون إفطار ونجبر على سداد نقص الأمس إضافة إلى عمل اليوم، وأوشكنا نموت كالكلاب، إذ كلما ازدادنا إرهاقاً ازداد عجزنا عن إتمام العمل، وفضلاً على ذلك أوكل أمرنا إلى عربي لا إلى مراقب كان يصحبنا إلى موضع تكديس الخشب. وبكل سهولة كان يجرب سوطه المصنوع من عصب الثور في سيقاننا، ولا يكف عن إهانتنا. وكان يمزج طعامه ويحدث صريراً بين فكيه ليثير شهوتنا إلى الطعام، وباختصار كان عذاباً مقيماً، وكان معنا أنبوتنا تحوى كل منها ثلاثة آلاف فرنك أعدناها للهروب وفي يوم من الأيام قررنا

(١) يقصد رجلاً عربياً أسمر: المترجم.

أن نرشي العربي فازدادت الحالة سوءاً. ولحسن الحظ أنه ظن أننا نحمل أنبيأً واحداً. والطريقة كانت يسيرة. كنا ندفع له مثلاً خمسين فرنكاً فيسمح لنا بسرقة أخشاب من أكداش اليوم السابق ونختار أخشاباً لم تصب بالأصباغ. وبهذا كنا نكمل المتر المكعب المفروض، وهكذا استطاع بين خمسين ومئة يوم أن يسحب منا ألفي فرنك. ولما سار عملنا سيراً طبيعياً سحبوا العربي. وظننا أنه لن ينذر بنا لأنه سلبنا مالاً وفيراً. تابعتنا خطتنا السابقة. وفي أحد الأيام اقتفى أثرنا خطوة خطوة في الخفاء ليرى إذا كنا نسرق الخشب ثم كشف عن نفسه:

— ها. ها. أنت تسرق الخشب ولا تدفع؟ إذا لم تعطني خمس مئة فرنك فسأخبر عنك. وما دام الأمر لا يتعدى التهديد فقد رفضنا. وعاد في اليوم التالي وقال: إما أن تدفع وإما أن تكون هذا المساء في السرداب، ورفضنا أيضاً. فرجع بعد الظهر مصحوباً ببعض الحراس وكانت ساعة رهبة يا بابيون. فقد عرونا، وقادونا إلى أكداش الخشب التي أخذنا منها ولاحقنا هؤلاء الوحوش، والعربي يجلدنا بسوطه، وأجبرونا، ونحن نجري، على هدم أكداش خشبنا، وأن نعوض ما سرقناه. ودام سباق الثيران هذا، يومين دون طعام ولا شراب، وغالباً ما كنا نهوى على الأرض، والعربي ينهضنا، وهو يركلنا بقدميه وتحت ضربات السوط، وأخيراً فقدنا كل قدرة على الاحتمال، وارتمينا على الأرض، ولينك تعلم ما فعل بنا لجبرنا على النهوض، فقد جاء بعش من أعشاش الزناير البرية إذ قطع الغصن الذي يتعلق به العش وحطمه علينا، فلم نهض وحسب بل ركضنا عدواً، كالمجانين، وغني عن البيان كم قاسينا من الآلام، وأنت تعلم شدة لسع الزنبور تصور خمسين أو ستين لسعة ملتهبة، من هذه الحشرات الشرسة.

تركوا لنا في السرداب خبزاً وماء طيلة ستة أيام دون العناية بنا، بل على العكس كان يحرون علينا البول، مما يزيد في حروقنا، ثلاثة أيام دون انقطاع، فعميت عيني اليسرى التي هاجتها عشرة من الزناير. ولدى عودتنا إلى المعسكر قرر السجناء الآخرون تقديم العون لنا، وذلك بأن يعطينا كل واحد منهم قطعة من الخشب الصلب بنفس المقياس، فما أمكننا من تشكيل الكومة المفروضة علينا، حتى لم يبق سوى كومة واحدة نقوم نحن بإنجازها، وما بلغنا ذلك إلا بشق الأنفس. استعدنا قوانا شيئاً فشيئاً أكلنا كثيراً. وقد وافتنا فكرة الانتقام بغتة من العنز بوساطة النمل. وبينما نحن نبحث عن الخشب، وجدنا مسكناً للنمل اللاحم كان منهمكاً في التهام أيل بحجم العنزة كان العربي يقوم بجولاته متفقداً سير العمل، وفي يوم جميل مشرق سدنا له ضربة بقبضة الفأس وجردناه قرب مساكن النمل، ثم عريناه وربطناه بشجرة مثنية إذ ربطنا قدميه بكفيه بوساطة حبل من الحبال المعدة لحزم الخشب. وبالفأس أحدثنا جروحاً في مختلف أنحاء جسمه. وسدنا فمه بالعشب لئلا يصرخ، ثم كمننا فاه وانتظرنا فلم يهاجمه النمل إلا حين أوجدنا عصاً في مساكنه وهزناه فوق جسم العنز، ولم يمض قليل من الوقت، حتى كانت تهاجمه بالآلاف.

— هل رأيت غملاً لاحقاً يا بابيون؟

— لا بل شاهدت غملاً كبيراً أسود.

— هذه النمل صغيرة وحراء مشابهة الدم. وهي تنهش قطعاً صغيرة جداً من اللحم وتحملها إلى مساكنها. وإذا كنا قد لاقينا المر من لسع الزنابير، فتصور كم يكون قد لاقى هو، والنمل يسلم جلدته وهو حي، ودام نزعه يومين كاملين وقسمًا من ضحى اليوم الثالث، وبعد أربع وعشرين ساعة فقد عينيه. واعترف أننا لم نكن رحماء في انتقامنا، ولكن كان يجب أن يرى ما فعل بنا هو نفسه، وإذا كنا لم نمت ففي ذلك أعجوبة. وطبيعي أنه جرى بحث عن العنز في كل مكان، وكان حملة المفاتيح الآخرون من العرب وكذلك الحراس يشكون بنا ويثقون بأننا لسنا بعيدين عن اختفائه. كنا نحفر كل يوم قليلاً في أجمة أخرى، لنصنع قبراً نضع فيه ما بقي منه، ولم يعثر عليه أحد، إلى أن رأنا أحد الحراس ونحن نعد الحفرة، فصار يتبع آثارنا كلما ذهبنا إلى العمل ليعرف موضعه وهذا الذي قضى علينا.

وفي صبيحة أحد الأيام أخذنا نفك العربي من الجبال منذ وصولنا إلى العمل، وكان النمل لا يزال يغطيه وأوشك أن يكون هيكلاً عظيماً، ولم نتج من عض النمل حتى سال منا الدم) وبينما كنا نجره نحو الحفرة داهمنا ثلاثة من العرب واثنان من المراقبين وقد كانوا محتجين عن أنظارنا منتظرين بفارغ الصبر هذه اللحظة، لحظة الدفن. وجهت إلينا تهمة القتل أولاً، ثم تقديمه طعاماً للنمل ثانياً.

واستند الاتهام إلى تقرير الطبيب الشرعي: إنه لا شيء فيه جرح قاتل، إنما جرى افتراسه حياً، وقال المراقب المدافع عنا (إذ أن المراقبين هناك بمثابة المحامين): إذا قبلت القضية نجوتهم من الإعدام.

وفي صراحة، إن رجاءنا ضعيف جداً. لذلك وقع اختيارنا عليك لتكون وريثاً لنا دون أن نخبرك بذلك.

— أملنا كبير أن لا أرثكما. أتمنى لكما ذلك من صميم فؤادي.

أشعلنا سيجارة، ورأيت أنها ينظران إلي نظرة مغزاهما: هل تتكلم؟

— اسمعاً. أرى أنكما تنتظران مني ما سألتمايه قبل سرد حكايتكم، أن أحكم على قضيتكم كرجل، ولكن لدي سؤال، لن يكون له أي تأثير على قراري، ما رأي الغالبية في هذه القاعة، ولم لا تكلمون أحداً؟

— رأى الغالبية انه يستحق القتل، ولكن لا أن نطعمه للنمل. وأما ما يتعلق بسكوتنا فمفرده إلى أنه سنحت لنا فرصة الهروب يوماً بالفتنة والعنف، ولكنهم لم يفعلوا.

— إليكما رأيي في الموضوع، لقد أحستما صنعاً بأنكم كلتم له الصاع صاعين. إن ضربة عش الزنابير لا تغتفر، وإذا تعرضتما للمقصلة في آخر لحظة فركزا فكركما في شيء واحد: «إذا قطعوا رأسي، فإن هذا يدوم ثلاثين ثانية، ما بين ربطتي وإدخال رأسي

وسقوط سكين المقصلة، أما هو فقد دام نزعهُ ستين ساعة، فإذا أنا الرابع. أما موضوع انزعالكُم عن رجال القاعة، فلا أدري إن كنتما على حق أم لا لأنكما تعتقدان بأن التمرد في ذلك اليوم قد يبيء هروباً جماعياً، وقد لا يكون للآخرين هذا الرأي، ومن جهة أخرى قد يضطر أحدنا إلى القتل دون إرادة مسبقة. إذن من بين جميع الحاضرين هنا، أعتقد أن الوحيدين الذين يمكن أن يجازفوا برؤوسهم هم: أنتما والأخوان غرافيل يا رجال لكل حالة لبوسها وردود فعلها الخاصة بها بصورة إلزامية.

وبعد أن اكتفى هذان المسكينان بهذا الحوار انصرفا وعادا إلى عزلتهما وصمتهما الذي خرجا منه من أجلي.

هروب أكلة لحوم البشر

يا ذا الساق الخشبية!... لقد التهموه.. يا ذا الساق الخشبية!... إنه طعام شهبي، ويصبح صوت يقلد صوت النساء: قطعة من شخص مشوية جيداً، بدون فلفل يا معلم، أرجوك.

قل أن لا نسمع في الليل البهيم، عبارة من هذه العبارات، إن لم تكن كلها.
أنا وكلوزيو، كنا نتساءل: لمن يقال هذا الكلام؟ ولماذا؟

بعد ظهر اليوم، وقعت على مفتاح السر من أحد مروجي تلك العبارات، ويدعى ماريوس دولاسيوتا اختصاصي بالصناديق الحديدية. فعندما علم أنني أعرف أباه تيتين، لم يخش التحدث معي. وبعد أن رويت له جانباً من قصة هروبي سألته، وهذا شيء طبيعي، وأنت؟

— أنا؟ قصتي قذرة. أنا أخاف من عقوبة سجن لمدة خمس سنوات من أجل هروب بسيط. أنا من مجموعة سميت بجماعة أكلة لحوم البشر. إن ما تسمعه ليلاً: لقد أكلوه، إنه طعام شهبي.. هذا من أجل الأخوين غرافيل.

هربنا ستة، من الكيلو متر الثاني والأربعين وكان معنا في المجموعة دوده وجان غرافيل وهما أخوان أحدهما في الثلاثين والآخر في الخامسة والثلاثين وهما من ليون، ومعنا أيضاً نابوليوني من مرسيليا، وأنا من لاسيوتا وشخص من أنجه له ساق خشبية وفتى في الثالثة والعشرين كان يعاشره معاشره الأزواج.

خرجنا من ماروني ولكننا في البحر لم نستطع حسن الاتجاه فلفظنا البحر إلى شاطئ غويان الهولندية. ولم ينج أحد من خيبة الأمل فلا أغذية ولا أي شيء آخر ثم وجدنا أنفسنا لحسن الحظ في أرض جرداء ويحسن أن أذكر بأنه لم يكن في هذا المكان شاطئ رملي، فالبحر يدخل إلى الغابة العذراء، وهي وعرة المسالك، دروبها مستغلقة مستعصية بسبب الأشجار المتهاوية المحطمة من جذوعها أو المجتثة من جذورها بفعل البحر، وقد تشابك بعضها ببعض. وبعد مسيرة يوم كامل وجدنا الأرض جافة، فتوزعنا أنا والأخوان غرافيل وغيزيبي وذو الساق الخشبية مع صديقه الصغير في زمر ثلاث، وانطلقنا في اتجاهات مختلفة. وبعد اثني عشر يوماً تلاقينا أنا والأخوان غرافيل وماريوس في نفس المكان الذي افترقنا فيه، وكان عاصفاً بحمأة متحركة، ولم نعث على أي ممر ولا جدوى من أن أصف لك وجوهنا، فقد عشنا ثلاثة عشر يوماً دون أن نأكل شيئاً سوى جذور الأشجار أو بعض النباتات الصغيرة. كنا كالأموات جوعاً وإعياء حتى الرمق الأخير. فعزمنا أنا وماريوس بما بقي من قوتنا أن نعود إلى شاطئ البحر، وأن نربط قميصاً فوق أعلى شجرة لتوافينا أول سفينة من سفن خف السواحل التي لا بد أن تمر من هناك. وكان على الأخوين غرافيل بعد أن يستجبا بضع ساعات أن يقتفيا أثر اثنين آخرين وهذا يبدو سهلاً إذ اتفقنا قبل الرحيل أن تترك كل زمرة علامات على الطريق من الأغصان. وبعد ساعات رأيا ذا الساق المكسورة قادماً وحده.

- أين الصغير؟
- تركته بعيداً لأنه لم يعد يقوى على السير
- لقد كنت لثيماً في تركه.
- هو الذي أراد أن أعود على عقبي.
- وحينئذ لاحظ دوده أنه يحتذي في قدمه الوحيدة حذاء الفتى فقال له:
- لقد زدت الطين بلة إذ تركته حافياً لتلبس أنت حذاءه. أهنتك إذ تبدو في هيئة حسنة كهيتنا، وواضح أنك أكلت.
- نعم وجدت قرداً جريحاً.
- هنيئاً لك.
- وهنا نهض دوده والسكين بيده وقد رأى أن فمه لا يزال ممتلئاً.
- افتح فاك.
- ففتح فمه، وكانت قطعة من اللحم لا تزال في فمه.
- ما هذا؟
- قطعة من لحم القرد.
- أيها القدر لقد قتلت الفتى لتأكله؟
- لا يا دوده. أقسم لك أنه مات من شدة التعب فأكلت منه قليلاً ساعني. ولم

يكد ينهي حتى غاصت السكين في بطنه، وخلال تفتيشه وجد كيساً من الجلد، وأعواد ثقاب ومحكاً. وما يثير الغيظ أن الرجل لم يوزع أعواد الثقاب قبل الافتراق وباختصار دفعهما الجوع إلى إيقاد النار وطقفا يأكلان الرجل.

وصل غيزبي إبان المأدبة فدعواه فأبى، لأنه كان قد أكل سراطين بحرية وسمكاً نيئاً. حضر الوليمة دون أن يشارك فيها وشاهد الأخوين غرافيل يضعان على الجمر أجزاء أخرى من لحم الرجل حتى أنها استخدمتا رجله الخشبية في تغذية النار إذن شهد غيزبي في ذلك اليوم وفي اليوم التالي، الأخوين وهما يأكلان الرجل بل إنه رأى الأجزاء التي أكلها: بطة الساق والفخذ والأليتين.

قال ماريوس: كنت لم أفارق الشاطئ عندما جاءني غيزبي باحثاً عني.

ملأنا قبة بسراطين البحر والسمك وشوينا على نار الأخوين غرافيل، ولم أر الجنة فقد جراها بعيداً، إنما رأيت قطعاً من اللحم لا تزال إلى جانب النار فوق الرماد وبعد ثلاثة أيام التقطنا أحد خفراء السواحل وأعادنا إلى معسكر التأديب في سان لوران - ماروني.

غيزبي لم يمسك لسانه، فقد علم بالأمر جميع رجال القاعة حتى الحراس. أروي لك هذا لأنه لم يعد خافياً على أحد. من هنا هذه الجلبة التي تسمعها ليلاً، لأن هذين الأخوين سيئا الطبع.

نحن رسمياً متهمون بالمهرب وما زاد الاتهام خطورة أكل لحوم البشر. والمصيبة هي أنني لكي أذفع عن نفسي يجب أن أتهم وهذا غير ممكن. وكلهم أنكروا أثناء التحقيق حتى غيزبي، وأفادوا بأن الرجلين قد اختفيا في الغابة. فهذا هو وضعي يا بابيون. - إنني أعذرك، لأنك في الواقع لا تستطيع أن تدافع عن نفسك إلا باتهام الآخرين.

بعد شهر قتل غيزبي ليلاً بطعنة في صميم قلبه. ولم يكن هناك ضرورة حتى للتساؤل عن الفاعل.

هذه هي القصة الثابتة، قصة آكلي اللحم البشري، الذين أكلوا الرجل بعد أن شوى لحمه على رجله الخشبية وهو نفسه أكل الفتى الذي كان في صحبته.

نمت هذه الليلة في موضع آخر من القضيب الحديدي بوساطة الحلقة. كانت المراقبة شديدة إلى درجة أن الدوريات لم يكن لها تنظيم معين، فهي تتوالى دون توقف وأخرى تأتي من اتجاه معاكس في أية لحظة. قدمائي في حالة جيدة جداً، ويجب أن تمطر السماء حتى أتأم. وعلي مع ذلك أن أقوم بعمل جديد. ولكن كيف؟

ليس في هذه القاعة نافذة، وليس فيها سوى شبك ذي حامل يشغل العرض كله ويصل إلى السقف، وهو موضوع بصورة تسمح بمرور الريح الشمالية الشرقية بحرية تامة. ورغم التمهيص والمراقبة مدة أسبوع لم أصل إلى ثغرة في مراقبة الحراس، ولأول مرة أصل إلى القاعة بأنهم سيحبسوني في سجن جزيرة سان جوزيف، وقد قيل لي إنه رهيب، ويدعونني أكل الرجال. وهناك معلومات تفيد بأنه منذ إنشائه أي منذ حوالي ثمانين عاماً وحتى اليوم، لم يستطع رجل واحد أن يفلت منه.

وبطبيعة الحال هذه القاعة الضعيفة بأنني خاسر تدفعني إلى النظر في المستقبل. عمري الآن ثمانية وعشرون عاماً. طلب المحقق عزلي خمس سنوات، ومن العسير أن أخرج من المحكمة بحكم أقل. وسوف يكون عمري ثلاثة وثلاثين عاماً حين أغادر الانفرادي. لا زلت أحمل مالا. إذن لن أهرب وهو الأرجح إذ يتحتم علي أن أعني بصحتي على الأقل.

إن خمس سنوات في الانفرادي أمر شاق يتعذر احتماله دون أن يصاب المرء بالجنون لذا أعتمد الغذاء الجيد والتنظيم الفكري منذ اليوم الأول من العقوبة وفق برنامج مدرّس دراسة جيدة ومتنوعة، وعلي أن أتمشى قدر المستطاع الأحلام المتعلقة بالانتقام. إنني أعد نفسي منذ الآن لاجتياز فترة العقوبة التي تنتظرنني.

أجل، إنهم الخاسرون. سأغادر السجن الانفرادي أشد بنية وأنا في كامل قواي الجسدية والفكرية. وفي هذا خير لي، لأرسم مخطط سلوكي، ولأستسلم في صفاء لما هو مقدر لي.

النسيم المنساب إلى القاعة يداعبني قبل غيري من الناس وينعشني حقاً.

كلوزيو يعرف الوقت الذي لا أريد الكلام فيه، لهذا فهو لا يصر علي استغراقي في الصمت، وكان يدخن كثيراً. وهذا كل ما كان يفعله. لمحت بعض النجوم فقلت:

— هل ترى النجوم من موضعك؟

فمال علي قليلاً وقال:

— أجل. إنما أؤثر أن لا أتأملها لأنها تذكرني بالنجوم التي كنا نراها في هروينا.

— لا تغتظ. سوف نراها بالآلاف في هروينا الثاني.

— متى؟ بعد خمس سنوات؟

— في السنة التي نولد فيها من جديد. كل هذه المغامرات التي قمنا بها، وجميع

الناس الذين تعرفنا عليهم، ألا يساوون خمس سنوات في السجن الانفرادي؟ هل تفضل لو لم تكن مساهماً في ذلك الهروب، وبقيت في الجزر منذ وصولك؟ وبسبب ما سوف نتوقعه، وبطبيعة الحال لن يكون سكراماً، هل أنت نادم على ذلك الهروب؟ جاوبني بصراحة، هل أنت نادم أم لا؟

— يا بابي. لقد نسيت شيئاً، وهو أنني لم أكن معك عند الهنود، ولا أمضيت هناك
سبعة أشهر، ولو أنني كنت معك لفكرت مثل تفكيرك. ولكنني كنت في السجن.
— عفواً لقد نسيت هذا. كنت أهذي.
— لا. إنك لا تهذي. ورغم كل شيء أنا مسرور من هروينا، وأنا أيضاً مرت به
ساعات لا تنسى وإنما يتتابي غم مما ينتظرن في السجن أكل الرجال. خمس سنوات، من
المستحسن قضاؤها.

وحينئذ شرحت له ما عزمت عليه وأحسست به إيجابياً. وقد سرني أن أرى صديقي
يستعيد افتخاره بي وأماناً خمس عشر يوماً لتمثل أمام المحكمة. وبحسب الإشاعات إن
المقدم الذي سيأتي ليرأس المجلس الحربي معروف بأنه رجل صارم، ولكنه مستقيم جداً
ولا يتقبل افتراءات الإدارة، وهذا الخبر طيب. أنا وكلوزيو رفضنا أن يكون أحد المراقبين
عمامياً عنا. أما ماتوريت فهو في الأفرادي منذ وصولنا وعزمت على أن أتولى بنفسني الدفاع
عن نفسي وعن صديقي.

الحكم

قصص هذا الصباح شعري، وحلقت لحيتي، وارتديت ملابس جديدة من الكتان
المخطط بالأحمر ولبست حذاء. ثم جلسنا نتظر في الباحة، المثل أمام المحكمة.

كلوزيو صار يمشي كالأسوياء، لم يبق أعرج. بدأ المجلس الحربي جلساته يوم الاثنين
ونحن اليوم في يوم السبت. فمئذ خمسة أيام والمجلس ينظر دعاوي مختلفة، منها دعوى
الرجلين اللذين أطعما ضحيتها للنمل، وقد استغرقت يوماً كاملاً، فحكم عليهما
بالإعدام، وكان آخر عهدي بهما. أما الأخوان غرافيل فقد حكم عليهما بأربع سنوات فقط
لعدم وجود الدليل على أنها من أكلة لحوم البشر، وقد استغرقت محاكمتها نصف يوم،
وتراوحت الأحكام في الجرائم الأخرى ما بين أربع وخمس سنوات. وبوجه عام، فإن
العقوبات كانت صارمة ولكنها مقبولة لا مبالغة فيها.

بدأت جلسة المحكمة في الساعة السابعة والنصف، وكنا في القاعة عندما دخل
المقدم في زي مهري^(١) مصحوباً بكهل برتبة رائد في المشاة، وعلازم، وهما بمثابة معاونين

(١) المهري كلمة مستعملة في شمال إفريقيا وتعني الذي يسوق ناقة في السباق mahariste.

له. على يمين هيئة المحكمة مراقب ذو شارات مذهبة على كفه! ورائد يمثل الإدارة والافتام. والآن قضية شارير وكلويزو وماتوريت. ونحن على بعد أربعة أمتار من هيئة المحكمة حيث تمكنت من رؤية تفاصيل رأس هذا المقدم المشغول دوماً بالصحراء، وهو في العقد الخامس، وقد شاب شعر صدغيه، أثيث الحاجبين، عيناه سوداوان رائعتان ترسلان النظرات كالسهم إلى أعيننا، إنه عسكري بحق، ولا تنطق عيناه بالشر. تفحصنا ودقق النظر ولم تغارق عيناى عينيه، ثم أغضيت طوعاً.

كان الرائد، ممثل الإدارة، يهاجمنا بعنف، وهذا ما أدى إلى خسارته. إنه يعتبر توحيد المراقبين بضربهم محاولة قتل: ويؤكد أن نجاة العربي من الموت كانت معجزة بعد تلك الضربات المتعددة!! وتورط في خطأ آخر إذ قال بأن هذا السجن منذ تأسيسه لم يشهد مجرمين مثلاً، حملنا إلى أقاصي البلاد عاراً على فرنسا، وصل حتى كولومبيا.

— يا سيدي الرئيس! إن هؤلاء الرجال قد طافوا ألفين وخمس مئة كيلو متر من ترينيداد إلى كوراساو إلى كولومبيا. فكل هذه الأمم قد سمعت حتماً، الحكايات الملفقة عن إدارة التأديب الفرنسية لذا فلاني أطالب بحق شارير وكلويزو بحكمين متميزين مجموعهما ثماني سنوات؛ خمس لكل منهما لمحاولة القتل وثلاث من أجل الهروب. أما بالنسبة إلى ماتوريت فانا أطلب له حكماً بثلاث سنوات فقط من أجل الهروب إذ لم يثبت أنه اشترك في محاولة القتل. الرئيس: «إن المحكمة ستتهم ما أمكن بالمختصر المقيد من هذه الملحمة المطولة».

رويت رحلتنا — ناسياً ذكر ماروني — في البحر، إلى ترينيداد وتعرضت لذكر أسرة بروان وطبيب عنصرها، وذكرت ما قاله رئيس الشرطة في ترينيداد «ليس من حقنا أن ندين العدالة الفرنسية، ولكن نقطة الخلاف بيننا هو أنهم يرسلون سجناءهم إلى غويان، ومن أجل هذا نحن نساعدكم». ثم انتقلت إلى الحديث عن كوراساو ولقائي بالأب دوبردين، وحادثة كيس النقود، ثم عن كولومبيا. لماذا وكيف ذهبنا إليها. وعرضت عرضاً سريعاً ومقتضباً، لمحة من حياتي عند الهنود. كان المقدم يصغي لأقوالي ولا يقطعني وإنما سألني عن بعض التفاصيل من حياتي عند الهنود، وهي الشيء الذي أثار اهتمامه بصورة بالغة. وحدثته عن السجون الكولومبية وخاصة السرداب تحت البحر في سانتا مرتا.

— شكراً. إن دفاعك ألقى الضوء أمام المحكمة وأثار اهتمامها وسوف ترفع الجلسة خمس عشرة دقيقة. إنني لا أرى محاميكم أين هم؟

— ليس لنا محامون، وأطلب أن تقبلوا دفاعي عن نفسي وعن أصدقائي.

— تستطيع ذلك فالأنظمة تحبزه.

— شكراً.

وبعد ربع ساعة استؤنفت الجلسة.

الرئيس: شارير!! إن هيئة المحكمة تسمح لك بالدفاع عن نفسك وعن

اصدقائك. ولكن نندرك بأنه إذا صدر عنك ما يسيء إلى ممثل الإدارة فإننا سنسحب منكم حق الكلام. فبوسعكم الدفاع عن أنفسكم، بمتهى الحرية، إنما بتعابير لائقة. فالكلام لكم الآن.

— أطلب من هيئة المحكمة استبعاد جرم محاولة القتل. فهي غير صحيحة، وسوف أبرهن على ذلك: كان لي من العمر سبع وعشرون سنة في السنة الماضية، وكان كلوزيو في الثلاثين. كنا في كامل قوانا وقد وصلنا من فرنسا حديثاً. طولي مئة وأربعة وسبعون سنتراً، وطوله مئة وخمسة وسبعون سنتراً ضربنا العربي والمراقبين برجل السرير الحديدية، ولم يجرح واحد منهم جرحاً ذا بال. إذن ضربوا في كثير من الحذر بغية طرحهم، وذلك بإلحاق أقل الضرر بهم، ونسي المراقب المدعي العام أن يقول أو أنه يجهل بأن قطعة الحديد كانت ملفوفة بخرق من القماش لثلا يتعرض أحدهم لخطر الموت.

إن هيئة المحكمة، وهي مؤلفة من رجال عسكريين، تعرف جيداً ما يمكن أن يفعله رجل قوي بنصل حربة. حيثئذ يمكن أن يتصوروا ماذا يفعل برجل سرير حديدية. ألقت نظر المحكمة إلى أن أحداً من الرجال الأربعة لم يدخل المستشفى.

والهزوب بالنسبة لرجل محكوم بالسجن المؤبد ليس خطراً كما هي الحال بالنسبة إلى من كانت عنده عقوبة خفيفة. إن من العسير جداً على من كان في عمرنا أن يرضى بعدم العودة إلى الحياة من جديد فأنا أطلب من هيئة المحكمة الرأفة بنا نحن الثلاثة.

تهامس المقدم مع مساعديه ثم ضرب على المنضدة بمطرقة وقال:
— أيها المتهمون! قفوا

فوقفنا نحن الثلاثة كالخشب المسندة نستمع.

الرئيس: إن هيئة المحكمة قد صرفت النظر عن محاولة القتل ولن تصدر فيها أي حكم وفيما يخص الهروب فقد تقرر اعتباركم مذنبين من الدرجة الثانية فحكمت عليكم المحكمة بالسجن الانفرادي لمدة سنتين.

فقلنا في صوت واحد: شكراً لك أيها المقدم. وأردفت وشكراً لهيئة المحكمة.

ولدى عودتنا إلى المبنى حيث رفاقنا. كان الجميع في غاية السرور من هذا الحكم ولم يكن فيهم حاسد، بل العكس هو الصحيح. حتى أولئك الذين كانوا سفهاء هنؤونا بإخلاص. وأقبل علي فرانسوا سييرا يعانقني مبتهجاً.

جزر سالو الوصول إلى الجزر

سنبهر غدا إلى جزر سالو. ورغم كفاحي، هأنذا هذه المرة على وشك الحبس بعد ساعات وإلى الأبد وقبل هذا يجب أن أمضي سنتين في الانفرادي في جزيرة سان جوزيف، وأمل أن أكذب تسميتهم له بآكل الرجال. لقد خسرت اللعبة، ولكني لا أحس بأني مغلوب، وعلى أن أكون مسروراً بأنه حكم علي بستين فقط في هذا السجن لا في غيره. وكما عاهدت نفسي، لن استسلم إلى الأوهام في سهولة، إلى الأوهام التي تبدها العزلة التامة. وتفادياً لهذا، عندي الدواء. ويجب قبل كل شيء أن أرى نفسي حراً، سلباً معافي كاني محكوم عادي في الجزر. وسأبلغ الثلاثين عند خروجي من الانفرادي.

إن الفرار من هذه الجزر نادر جداً. أعرف ذلك. ومع هذا فإن عدد الرجال الذين فروا لا يتجاوز عدد الأصابع. وأنا سأهرب بالتأكيد بعد سنتين من الجزر. كررت هذا القول على مسمع كلوزيو الجالس إلى جانبي.

— يا عزيزي بابيون! إنك لتشقى بهذا النضال، وأغبطك على ما تحمله من إيمان بالحصول على الحرية يوماً ما. فمئذ عام وأنت لا تكف عن الهروب، ولم تعدل عنه مرة واحدة، فما إن تنهزم في هروب حتى تبدأ بتحضير هروب آخر. وإنه ليدعشني أنك هنا لم تحاول.

— هنا يا صديقي، لا توجد سوى وسيلة واحدة وهي إشعال فتنة. وليس لدي الوقت لاستحوذ على هؤلاء الرجال الوعرين، وكدت أضرم نارها ولكن خفت أن تلتهمني. هؤلاء الرجال الأربعون سجناء قدماء امتصتهم طريق العفن، فتصرفاتهم تختلف عن تصرفاتنا، والدليل على ذلك، أكلة لحوم البشر، رجل النمل، والرجل الذي لم يتردد في وضع السم في الحساء في سبيل قتل رجل فقتل سبعة لا ذنب لهم.

— ولكن في الجزر الطراز نفسه من الرجال.
— نعم. وسوف أهرب دون مساندة من أحد. سأهرب وحدي أو مع صديق وحسب. أنت تبسم يا كلوزيو، لماذا؟
— أبسم لأنك لن تتخلي عن اللعبة، والنار التي تتقد في أحشائك للعودة إلى باريس، تشدك، وأنت تعرض على أصحابك بياناً بالحساب، بقوة إلى درجة أنك لا تقبل إلا ما تشتهي ما دام لم يتحقق.
— عم مساء يا كلوزيو إلى الغد. نعم سنرى هذه الجزر المقدسة وأول ما أسأل عنه لم سميت هذه الجزر بجزر سالو (السلام)؟

وعندما أدت ظهري لكلوزيو ملت بوجهي نحو نسيم الليل.
غداً وفي ساعة مبكرة سنركب البحر إلى الجزر، وعلى ظهر مركب صغير حولته أربعة وعشرون طناً وستة وعشرون رجلاً. وهذا المركب رائج وغاد بين كاين والجزر وسان لوران. قيدونا مثنى مثنى من أرجلنا بقيود حديدية، جعلونا فرقتين في الأمام مؤلفين من ثمانية رجال يراقب كل فرقة أربعة من الحراس والسلاح في أيديهم. زد على ذلك فرقة مؤلفة من عشرة في الخلف ومعهم حراسهم الستة ورئيسا المجموعتين.
والجميع على ظهر هذا المركب الصغير على وشك الإغماء في أية لحظة من سوء حالة الجو. وحزمت أمري على عدم التفكير، خلال الرحلة، بل أردت أن أتسل. وقد أردت فقط أن أغيط المراقب الجهم القريب مني فقلت له بصوت مرتفع:
بهذه السلاسل التي قيدتمونا بها تجاوزفون بفرصة النجاة، لو أن هذا المركب المهترىء أوشك على الغرق. وحصول هذا متوقع في بحر خضم هذه حالة.
فتنبه المراقب متزعجاً وتحرك كما لو أنني حذرته وقال:
— لا نبالي إن غرقتم. فالأوامر هي أن تبقىوا مكبلين. وهذا كل شيء. والتبعة تقع على عاتق من يصدر الأوامر. أما نحن مخلصون من التبعات على أية حال.
— ومع ذلك أنت على حق يا سيدي. المراقب، لأنه إن كنا بالأغلال أو بدونها إذا انفتح هذا النعش في الطريق، سننزل جميعاً إلى الغور، فأجاب الأحمق:
— أنت تعلم أن المركب منذ زمن طويل يقوم بهذه الرحلات ولم يحصل له شيء.
— وبما أنه يعمل منذ طويل فمن المؤكد أن يحصل له شيء في أية لحظة.
وهكذا توصلت إلى ما كنت أبتغي من تحطيم الصمت الذي كان يثير أعصابي.
وعلى الغور صار الموضوع متداولاً وموضع جدال بين المراقبين والسجناء.
— نعم. هذا المركب الصغير خطر ونحن مكبلون ولولا القيود لكانت لنا مع ذلك فرصة.

— نحن نظراؤكم. فنحن باليستنا، وأحذيتنا وسلاحنا، لسنا رشيقيين أيضاً.
قال آخر: السلاح ليس مشكلة، ففي حالة الغرق يمكن التخلص منه في الحال.

وبعد أن رأيت هذا الموضوع قد حاز اهتماماً، أثرت موضوعاً آخر فقلت أين قوارب النجاة؟ لا أرى سوى واحد لا يكاد يتسع لثمانية أشخاص. الرائد وطاقمه يملؤونه، والآخرين كرات ممتلئة في الهواء. أفلح المركب مطلقاً نغماً عالياً، وعليه رجال هم آباء لأطفال تتعرض حياتهم للخطر في مصاحبة هؤلاء السفلة لحراستهم دون إحساس بالمسؤولية على نحو لا يطاق.

كنت مع الزمرة التي تجلس في مؤخرة المركب، ويسافر معنا رئيسا القافلة. نظر إلي أحدهما وقال:

— أنت بابيون العائد من كولومبيا؟

— نعم.

— إنه لا يدهشني أن تكون قد ذهبت بعيداً جداً ويبدو أنك تفهم أمور البحر. فأجبت معتزلاً: نعم كثيراً.

فأشاع هذا طمأنينة زد على ذلك أن المقدم نزل عن جسر السفينة لأننا في هذه اللحظة خرجنا من المصب ماروني، وبما أن هذه اللحظة حرجة فقد أمسك بالمقود بنفسه، ثم سلمه إلى آخر. وهذا المقدم الأسود قصير القامة، ممتلئ الجسم وملامح الشباب في وجهه.

سأل عن الشبان الذين قطعوا البحر إلى كولومبيا فوق دفة خشبية.

قال رئيس القافلة: هذا وذاك والآخر إلى الجانب.

سأل القرم: ومن كان رئيسهم

— أنا يا سيدي.

— حسناً أيها الفتى، بصفتي بحاراً أهتلك فانت لست رجلاً عادياً.

ومد يده إلى جيب سترته وقال: تقبل مني علبة التبغ الأزرق هذه، مع أوراقها، ودخن نخب صحي.

— شكراً لك أيها المقدم، وأنا أيضاً يجب أن أهتلك على جراتك على الإبحار بهذا المركب مرة أو مرتين في الأسبوع على ما اعتقد. فأغرق في الضحك على حين كنت أقصد غيظه.

— آه. أنت على حق كان ينبغي أن يحال إلى المقبرة منذ زمن طويل، ولكن الشركة تنتظر حتى يفرق لتحصل على تعويض التأمين.

وختمت قولي بهذه الوخزة: لحسن الحظ أنه لديك أنت والنوتين زورق للنجاة.

فأجاب وهو في طريقه إلى السلم وبدون تفكير: نعم لحسن الحظ.

إن هذا الموضوع الذي طرحته عمداً أثار جدلاً، وأدلى كل واحد برأيه، حتى عمت المناقشة جميع من كانوا في المركب فطابت الرحلة أكثر من أربع ساعات.

اليوم وحوالي الساعة العاشرة كان البحر متوسط ارتفاع الموج، ولكن الريح لا توائم الرحلة. ووجهتنا نحو الشمال الشرقي أي باتجاه معاكس للموج والريح، لذا فإن المركب

أخذ يتقلقل ويضطرب قليلاً. وساءت صحة عدد من المراقبين والسجناء، أما المقرون معي فكانت له أقدام بحار لحسن الحظ، إذ لا شيء أدمى إلى الاشتمزاز من رؤية أحدهم يتقياً. وهذا الشاب من باريس، جيء به إلى السجن عام ١٩٢٧، فهو إذن في الجزر منذ سبع سنوات. إنه شاب - نسبياً - وعمره ثمان وثلاثون سنة. قال:

- أنا أدمى تيتي لابلوت. وأحب أن أقول لك يا صديقي أنني أقوى من لعب البيلوت، وهي مصدر كسي في الجزر، وكل لعبة بفرنكين، ويستمر اللعب طوال الليل. - إذن، في الجزر مال كثير؟

- أجل يا صديقي بابيون. ففي الجزر الكثير من الانبوبات المترعة بالمال. البعض يجعلها معه، وآخرون يحصلون عليها باقتسام ما فيها مناصفة مع المراقبين. ويبدو عليك أنك جديد، وكأنك لا تعرف شيئاً.

- لا. لا أعرف شيئاً عن الجزر، ولكنني أعرف أن الهروب من هناك دونه خرط القتاد^(١)

- الهروب؟ لا داعي لذكره. فانا هناك منذ سبع سنين وقد حصلت خلالها محاولتان للهروب وكانت العقوبة ثلاثة قتل وموقوفين. ليس هناك من يحاول ذلك. جرب حفظك.

- ولم كنت على الشاطئ؟ على الأرض الكبرى؟

- عرضت نفسي على الأشعة لأتحقق من عدم وجود دمّل.

- ألم تحاول الفرار من المستشفى؟

- ربما. إنك أوصدت في وجهنا كل شيء، وعلاوة على ذلك لقد نزلت في القاعة التي هربت أنت منها وليتك ترى المراقبة الشديدة. إذ كلما اقترب أحد من الشباك لينشق الهواء جروه إلى الوراء وإذا سألتهم لماذا؟ أجابوا: نخاف أن تواتيك فكرة ما كما واث بابيون.

- قل لي يا تيتي. من هذا الشخص الكبير الجالس بجانب رئيس القافلة؟ هل هو موزع الورق في اللعب؟

- أنت مجنون؟ إنه رجل ذو اعتبار في نظر الجميع. إنه تافه ولكنه يستطيع أن يظهر بمظهر رجل داعر: ليست له علاقات ودية مع الحراس، ولا منزلة خاصة، وهو لا يعدو صفة السجن عندهم. إنه ناصح أمين وصديق ولكنه يتعد عن الشرطة. فلا الطبيب ولا الخوري استطاعا استخدامه. هذا التافه الذي يسلك سلوك رئيس العصاية، ينحدر من سلالة لويس الخامس عشر. أجل يا صديقي إنه (كونت) حقاً، يدعى الكونت جان دو بيراك. ومع ذلك وقبل أن يكتسب احترام الرجال، وقد استغرق ذلك زمناً، كان قد قام بفعلة نكراء تبعث على الاشتمزاز، أدت به إلى الأشغال الشاقة.

- ماذا فعل؟

(١) القتاد: خشب صلب جداً وقطعه شاق وصعب. يضرب به المثل في صعوبته.

– ألقى بغلامه الخاص إلى النهر من فوق جسر، فوقع الصغير في مكان ضحل قليل الماء وبلغت القسوة بهذا الرجل أن ينزل إلى الماء ويحمّله ويزج به في لجة أكثر عمقاً.
– ماذا؟ فكأنه قتل غلامه مرتين.

– وحسب رواية صديق لي، كان يعمل محاسباً، وقد اطلع على ملفه، أنه كان يعيش في وسطه الاجتماعي النبيل في رعب، وأن أمه رمت بأم الطفل إلى قارعة الطريق رمي الكلاب، وكانت قبلاً تعمل خادمة في القصر. ومن أقوال صديقي بأن هذا الفتى كانت تسيطر عليه أم متعجرفة دعية، وقد أذلته إلى درجة أنها كانت تعد له، وهو الكونت، علاقات غرامية مع الخادمة، وأنه كان لا يعي شيئاً حين ألقى بالغلام في النهر بعد أن قال للأم بأنه يأخذ طفلها إلى ملجأ عام.
– كم حكموا عليه؟

– حكموا عليه بعشر سنوات فقط مع الأشغال الشاقة. فكر يا بابيون أن هذا المخلوق ليس مثلنا فالكونتيسة رئيسة الشرف في الأسرة، قد شرحت للقضاة بأن قتل ابن خادمة ليس جريمة خطيرة إذا ارتكبها كونت يريد إنقاذ سمعة الأسرة.
– والنتيجة؟

– والنتيجة في نظري، أنا تيتي الباريسي المتواضع هي كما يلي: هذا الكونت جان دوبيراك بما يتمتع من حرية وبما كان له من حكايات مستورة كان قد تربى تربية يرى من خلالها أنه لا شيء يستحق الذكر سوى الدم الأزرق، ومن عداهم لا قيمة لهم وغير جديرين بالاهتمام، فإن لم يكونوا عبيداً بالمعنى الصحيح فهم على الأقل مخلوقات من المهمل. وهذه الأثرة المتفاقمة وهذا الصلف اللذان تتصف بهما أمه سحقاه وأرهباه حتى صار كالأرقاء. وفي السجن فقط صار هذا السنيور نبيلًا حقاً. وقد يبدو هذا تناقضاً ولكنه الآن فقط الكونت دوبيراك.

أنا أجهل جزر السلام ولن أكون كذلك بعد ساعات. وأنا أعلم علم اليقين أن الهروب أمر عسر جداً ولكنه ليس مستحيلاً. وكنت أنشق في عذوبة هواء البحر وأنا أفكر بأن هذه الريح المعاكسة سوف تتحول أثناء الهروب إلى ريح مواتية.

لقد وصلنا. وهذه هي الجزر. إنها تشكل مثلثاً، فجزيرة رويال وجزيرة سان جوزيف تشكلان القاعدة، وجزيرة الشيطان تشكل قمة هذا المثلث. والشمس المائلة تضيئها باللهيب الذي لا يماثله في الشدة إلا لهيب المناطق الاستوائية. لهذا أمكن رؤية تفاصيل هذه الجزر على مهل. أولاً جزيرة رويال وطريقها الدائري المسموي حول أكمة يبلغ ارتفاعها مئتي متر وقمتها مستوية ويصور هذا المشهد هيئة بقعة مكسية بمتوضعة على البحر، والتي قطعت قممتها. وتنتشر أشجار النارجيل (جوز الهند) في كل مكان، والبيوت الصغيرة ذات سطوح قرميذية تمتح الجزيرة جاذبية غامضة، والذي يجهل ما فيها يتمنى لو قضى عمره فيها.

والنار يضيء ليلاً فيحتمي السفن من الارتطام بالصخور، وبخاصة في الأحوال الجوية السيئة. فلما اقتربنا أكثر ميزت خمسة أبنية ضخمة طويلة. وعلمت من تبيّ أنها تحوي قاعتين واسعتين حيث يعيش أربع مئة سجين، ثم معسكر القمع وزناناته وسراييه المحاطة بأسوار عالية بيض، والبناء الرابع هو المستشفى، والخامس مشفى مخصص للمراقبين. وتنتشر في كل مكان على المنحدرات مساكن المراقبين التي يعلوها القرميد الوردي وهي بعيدة عنا، ولكنها قريبة جداً من نقطة التقاء رويال بجزيرة سان جوزيف.

أشجار النارجيل أقل، وبالتالي أوراق الشجر والظلال أقل. وفي أعلى الهضبة أطلال ترى من البحر بوضوح تام، وفي الحال أدركت أنها معسكر الانفرادي، وأيدي تبيّ في ذلك. وأرأني في الأذن أبنية المعسكر حيث يعيش السجناء عقوبتهم العادية. وهذه الأبنية قريبة من البحر. أبراج المراقبين مع شرفاتها، متباعدة بعضها عن بعض. وهناك بيوت أنيقة مصبوغة الجدران باللون الأبيض وسقوفها حمراء.

ولما كان المركب متجهاً شمالاً نحو مدخل الجزيرة «رويال» لم نعد نرى جزيرة الشيطان الصغيرة.

إن الهولة الأولى أرتني صخرة ضخمة تغطيها بعض أشجار النارجيل بدون أبنية ذات شأن. بعض المساكن على الشاطئ صفراء اللون، سوداء السطوح. وقد عرفت في زمن متأخر أنها بيوت للمبعدين السياسيين.

بدأنا بدخول مرفأ رويال المحمي بركام من الحجارة عظيم. إنه عمل لا بد أنه كلف بناءه حياة كثير من السجناء.

وبعد ثلاث صفرات، ألقى «تانون» مرساته على بعد ميتين وخمسين متراً من الرصيف، وهو مبني من الإسمنت والحصى الكبير، طويل، ومرتفع إلى أكثر من ثلاثة أمتار والأبنية المصبوغة باللون الأبيض تمتد موازية له.

قرأت لوحات كتبت باللون الأسود على خلفية بيضاء: «مركز حرس مصلحة الزوارق»، «المخبر»، «إدارة المرفأ».

نرى سجناء ينظرون إلى المركب ولا يلبسون الملابس المخططة، يلبسون جميعاً البنطال ونوعاً من القمصان البيض..

قال لي تبيّ: في هذه الجزر، من كان يملك مالاً يخيّط ملابسه تفصيلاً عند الخياطين وذلك من أكياس الطحين، بعد أن ينزعوا الحروف المطبوعة عليها. قماشها لين ناعم وأحياناً تعطي مظهراً أنيقاً، ولا يكاد أحدهم يلبس ملابس السجن.

دنا زورق من «تانون» وكان عند الحاجز مراقب وعلى اليمين واليسار مراقبان مسلحان ببندقيتين قصيرتين. وخلفهم ستة من السجناء واقفون، عارية صدورهم،

يرتدون بنطالات بيض ويجدون مجاذيف واسعة. وقد اجتازوا المسافة في سرعة، ويقطرون خلفهم زورقاً كبيراً فارغاً من نوع زوارق النجاة، وتم الانتقال، فنزل رؤساء القافلة أولاً، فآخذوا مكان الصدارة، ثم تقدم نحو الأمام مراقبان مسلحان. كانت أقدامنا خفيفة الحركة ولا تزال مكبلة. نزلنا مثنى مثنى إلى الزورق: عشرة من زمري، وثمانية من زمرة الأمام.

رفع المجدفون مجاديفهم، وسوف يعودون ليأتوا بآخرين، نزلنا إلى الرصيف واصطففنا أمام مبنى إدارة المرفأ ننتظر. وأخذ المنقولون يحدثوننا، دون أن يقيموا وزناً للحرس، بصوت عالٍ ومن مسافة منظورة تقرب من ستة أمتار. عدد من المنقولين من زمري سلموا علي سلام محبة. قال لي سيزاري وإيساري وهما لصان كورسيكيان عرفتهما في سان مارتن بأنها يعملان في الزوارق في مصلحة المرفأ.

وفي هذه الأثناء وصل شابار من مصلحة الصيرفة في مرسيليا وقد تعرفت عليه في فرنسا قبل دخولنا السجن. قال لي دون حرج من الحراس: لانتهم ياباييون، اعتمد على الأصدقاء ولن ينقصك شيء في الانفرادي. كم حكم عليك؟

— بستين.

— حسناً ستمران في سرعة وتعود إلينا فنحن هنا في حالة غير سيئة.

— شكراً شابار. ما أخبار ديفأ؟

— إنه محاسب في الأعلى، ويدهشني أن لا يكون هنا. وسوف يؤسفه أنه لم يرك. وفي هذه اللحظة وصل كالكاني متجهاً نحوي، وأراد الحارس منعه من المرور ولكنه مر قائلاً إنك لن تمنعني من تقبيل أخي، فقبلي وقال: اعتمد علي ثم انسحب.

— ماذا تفعل؟

— إنني ساعي بريد.

— هل الأمور حسنة؟

— إنني مرتاح.

نزل الآخرون وانضموا إلينا وفكوا قيودنا جميعاً. انسحب الكثيرون من زمرتنا مثل تيتي ودوبيراك ومجهولون قال لهم أحد المراقبين: هيا اصعدوا إلى المعسكر. هم يحملون أكياس أمتعتهم، كل يضع كيسه على عاتقه. اتجهوا نحو طريق تؤدي إلى أعلى الجزيرة.

وصل المقدم في الجزر مصحوباً بستة مراقبين وجرى التفقد وتسلمهم بالكامل، وانسحبت مجموعتنا. سأل المقدم عن المحاسب فقيل له: إنه آت. فرأيت ديفأ قادماً بأحسن هندام أبيض وسترة ذات أزوار، ومعه مراقب وكل منهما، يتأبط كتاباً، وأخذاً كلاهما يخرجان الرجال من الصفوف الواحد تلو الآخر بحسب تصنيفهم الجديد فلان، انفرادي، فلان رقم تسجيله في المبعدين كذا، وفلان في سجل الانفرادي برقم كذا.

- كم؟
- كذا سنة.
- وعندما جاء دوري قبلني ديغا مراراً وتكراراً ودنا المقدم وقال:
- أهذا هو بابيون؟
- أجل يا سيادة المقدم
- اعتن بنفسك في الانفرادي فملة مستتين تمضي مسرعة.

الانفرادي

كان الزورق جاهزاً، من أصل تسعة عشر سجيناً، عشرة ينزلون إلى الزورق، نوديت للذهاب فقال ديغا بيروود: لا. هذا سيكون في الرحلة الأخيرة.

ولقد أذهلني ما رأيت منذ وصولي. بأية طريقة يتكلم السجناء. لا يكاد المرء يحس بالتأديب، بل يبدو أنهم يستخفون بالخبراء. تحدثت إلى ديغا وكان بجاني. وهو يعلم قصتي ويعرف تفاصيل هروبي. إن رجالاً كانوا معي في سان لوران أتوا إلى الجزر وأحاطوه علماً بكل شيء. ولم يلعبني فهو أرق من أن يفعل ذلك، بل وجه لي عبارة نابغة من صميم فؤاده وهي: لقد كنت تستحق النجاح يا بني، وأتمناه لك مستقبلاً. ولم يقل لي تشجع لأنه يعرف أنني لا أفتقر إلى الشجاعة.

أنا محاسب عام، وعلى علاقة طيبة مع المقدم. انتبه لنفسك في الانفرادي. سأرسل إليك التبغ وما يلزم من الطعام ولن ينقصك شيء.

نودي علي: هيا يا بابيون. جاء دوري فودعت الجميع وشكرت لهم عواطفهم. ركبنا الزورق وبعد عشرين دقيقة حاذينا ساحل سان جوزيف وكان معنا ثلاثة مراقبين مسلحين من أجل ستة من الحكوميين يقومون بعملية التجديف في الزورق، وعشرة من المحكوم عليهم بالانفرادي، إن ترتيب الاستيلاء على هذا المركب يبدو أمراً مضحكاً.

كانت في مرفأ سان جوزيف لجنة استقبال. تقدم منا مقدمان: مقدم مسؤول عن التأديب في الجزيرة ومقدم مسؤول عن السجن الانفرادية. صعدوا بنا طريق السجن الانفرادي مشياً على الأقدام، ونحن محاطون بالحراس. لم نلتق في طريقنا بأي سجين. دخلنا

من باب حديدي واسع كتب فوقه: الانفرادي التأديبي. وفهمنا على الفور جدية هذا الحصن هذا الباب والأسوار الأربعة العالية كانت تحفي أولاً بناء صغيراً قرأنا عليه «الإدارة» ثانياً: ثلاثة أبنية أ-ب-ث-أ. أدخلونا إلى بناء الإدارة. وفي قاعة باردة اصطفتنا، نحن التسعة عشر، صفين. قال لنا ضابط الانفرادي:

— أيها المحكومون بالسجن الانفرادي! هذا المكان كما تعلمون مخصص لمعاقبة الذين ارتكبوا الجرائم من المحكومين في سجن الميناء. ونحن هنا لا نحاول إصلاحكم إذ ليس في ذلك جدوى، إنما نحاول قهركم وإذلالكم. النظام الوحيد هنا هو الصمت، الصمت المطلق. المكاملة بالاشارة الصوتية تستوجب العقوبة الشديدة في حال تلبس أحدكم بها. وإذا لم يكن مريض أحدكم خطراً فلا يطلب زيارة الطبيب، لأن مثل هذه الزيارة إن كانت ادعاء، تجر إلى العقوبة هذا كل ما لدي من قول أقوله لكم. ويمنع التدخين بكل حزم. وعلى المراقبين أن يذهبوا الآن ليفتشوا بدقة كل واحد في زنزانته. ويتبغى أن لا يجتمع شاربير وكلويزو وماتوريت في بناء واحد. وعليك يا سيد سانتوري أن تتحقق من ذلك بنفسك.

وبعد عشر دقائق أغلق دوني باب الزنزانة ذات الرقم أربعة وثلاثين وميتين من البناء آ، وكلويزو في ب وماتوريت في ت. وقد ودع بعضنا بعضاً بالنظرات ولقد فهمنا فور وصولنا أنه إذا أردنا الخروج أحياء فما علينا إلا الطاعة العمياء لهذه الأنظمة اللاإنسانية. ورأيت أصحابي يفترون عني، أولئك الأصحاب الذين رافقوني في رحلة هروب طويلة، أصحابي الأبنية الشجعان الجديرون بالتقدير فلم يشكوا يوماً ولم يندموا على شيء فعلوه معي. وأحسست بقلبي ينقبض، إذ بعد أربعة عشر شهراً من الكفاح، من شاطئ إلى شاطئ لنفوز بحریننا، انعقدت بيننا صداقة لا تنفصم عراها، ولا حدود لها. بدأت أتفحص الزنزانة التي أدخلوني إليها. لم أستطع أن أتصور أن بلدأ مثل بلدي فرنسا أم الحرية في العالم أجمع، الأرض التي أنبتت حقوق الإنسان والمواطن، كيف أمكن مع ذلك أن تقيم في غويان، فوق جزيرة ضائعة في الأطلسي لا تزيد مساحتها على رقعة منديل، بربرية زجرية، مثل الانفرادي في سان جوزيف. تصوروا مئة وخمسين زنزانة مثلاً متلاصقة جنباً إلى جنب، وكل زنزانة متكئة على الأخرى ظهراً لظهراً، جدرانها سميكة جداً، مثقوبة فقط بباب صغير حديدي وكوة صغيرة. وفوق كل كوة كتب: يحظر فتح هذا الباب بدون أمر من جهة عليا. على يساري لوح خشبي ووسادة خشبية، من نفس الطراز الذي كان في بوليو. اللوح الخشبي يرفع ويعلق في الجدار. وفي صدر المكان في الزاوية لبنة من الاسمنت بدلاً من المنضدة، ومكنسة وغطاء، وقدح معدني للماء، ~~معلقة خشبية~~ وصفيحة معدنية تستر دناءاً، ~~دنياً~~ تتعلق بسلسلة (يمكن سحبها من الخارج لتفريغها ومن الداخل لاستخدامها) ارتفاع الزنزانة ثلاثة أمتار، وفي السقف قضبان حديدية ضخمة كالخطوط الحديدية، متصالة بشكل لا يدع مجالاً لمرور أي جسم وإن كان ضئيل الحجم ثم في الأعلى السقف الحقيقي للبناء الذي يرتفع سبعة أمتار عن الأرض.

ويشرف على الزنانات طريق دائري عرضه متر وله حاجز حديدي (درازين).
يبدأ خفيران بالتجول، كل واحد من طرف ويلتقيان في منتصف الطريق ثم يعودان
بعد أن يدورا نصف دورة على عقبيها. وكل هذا يترك انطباعاً رهيباً.

يصل ضوء النهار إلى المشي، ولكن الزنانة نفسها لا يكاد المرء يرى فيها شيئاً حتى في وضوح النهار.
بدأت بالمشي منتظراً، صوت صفارة أو نحوها، لست أدري، كيف يتم إنزال اللوح الخشبي المسند إلى
الجدار.

وتجنباً للضوضاء يلبس السجناء والخفراء أحذية مصنوعة من القماش. قلت في
نفسي: هنا في الزنانة، ذات الرقم ٢٣٤ حاول أن تعيش دون أن تصاب بالجنون يا شارير
الملقب بباييون، وتقضي عقوبة سنتين أو ثلاثين وسبع مئة يوم، وعلى هذا السجن أن يكذب
هذه التسمية التي نسبت إليه وهي أنه أكل الرجال.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.
مر الخفير على مقربة من السقف ولم أسمع خطوه بل رأيته، والمصباح المعلق بالسقف
الأعلى يرسل النور من عل وقد نيف ارتفاعه على ستة أمتار، وأضاء المشي والزنانات تبقى
في الظل. كنت أمشي، فقد عاد الرقاص إلى العمل.

انعموا بالنوم الهادئ أيها الجبناء الذين حكمتكم علي. انعموا بالنوم، وأظن أنكم لو
علمتم مآلي لرفضتم وترفعتم عن أن تكونوا من طالبوا بتطبيق مثل هذه العقوبة.
لقد بدا لي أنه من الصعب أن أفلت من شطحات الخيال، بل يكاد يكون مستحيلًا.
ومن الأفضل أن أوجهها على ما أعتقد إلى بواعث لا تدعو إلى الإسفاف، وذلك خير من
إلغائها كلياً.

أعلنت الصفارة فعلاً وقت إنزال اللوح الخشبي، وسمعت صوتاً أجش يقول:
— بالنسبة إلى الجدد، ابتداء من الآن يمكنكم إنزال اللوح الخشبي وأن تناموا إن شئتم
ذلك.

ولم أحفظ سوى هذه الكلمات «إن شئتم ذلك». إذن ساستمر في المشي إذ لم تحن
ساعة النوم ويجب أن أعتاد هذا القفص المفتوح من سقفه. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة،
خمس، وفي الحال اتخذت إيقاع رقاص الساعة، خافضاً رأسي، ويداي خلف ظهري.
والمسافة بين الخطوة والأخرى يجب أن تكون بالضبط كالرقاص الذي ينوس، وأنا في ذهاب
وإياب لا ينتهيان، كما يفعل السائر المتكلم في نومه. عندما كنت أصل إلى نهاية الخطوات
الخمس، لم أكن أرى الجدار بل كنت ألمسه حين أستدير، ثم أتابع بدون كلل، جولتي التي
لا أصل فيها إلى هدف وليس لها زمن للانتهاء.

حقاً يا بابي، ليس مزاحاً ما قيل عن أكل البشر هذا. وعندما يسقط ظل الخفير على
الجدار فإنه يترك أثراً غريباً، وإذا نظرت إليه رافعاً رأسي، أحسست بانحطاط أكبر وكأنني

فهد واقع في حفرة، والصيد الذي أسرفي ينظر إلي من أعلى، وهذا يترك انطباعاً فظيماً في نفسي، وأحتاج إلى شهور كي أعتاد هذا.

تتألف كل سنة من ٣٦٥ يوماً والسنتان من ٧٣٠ يوماً إذا لم يكن أحد العامين كيبساً. وابتسمت لهذه الفكرة ٧٣٠ أو ٧٣١ يوماً، لا فرق، لماذا؟ بل هناك فرق بيوم واحد أي بزيادة أربع وعشرين ساعة، والأربع والعشرون ساعة طويلة، ٧٣٠ يوماً مضافاً إليها أربع وعشرون ساعة، وكم تساوي هذه الأيام كلها بالساعات، وهل أستطيع حسابها ذهنياً؟ وكيف أفعل إن هذا مستحيل. لم لا؟ هذا ممكن. فمئة يوم تساوي ألفين وأربع مئة ساعة وإذا ضربناها بسبع فالتأنيث ستة عشر ألف وثمان مئة ساعة. والثلاثون يوماً الباقيات تساوي سبع مئة وعشرين ساعة، فالمجموع إذا لم أخطئ عشرون وخمس مئة وسبعة عشر ألف ساعة.

يا سيد بابيون عليك أن تقتل ١٧٥٢٠ ساعة في هذا القفص المصنوع خصيصاً، بجدرانه الملساء للوحوش الكاسرة. كم دقيقة سوف أمضي هنا؟ وليس وراء حسابها طائل حسبت الساعات لا بأس أما حساب الدقائق؟! لا ينبغي أن نبالغ. لماذا لا نحسب الثواني؟ إن كان لثل هذا الحساب أهمية أم لا، وليس هذا ما يهمني. إنما يجب أن أجعل هذه الأيام أو الدقائق جميلة بشيء ما، وأنا وحيد مع نفسي. ترى من يكون على يميني؟ من على يساري؟ أو خلفي؟ هؤلاء الثلاثة سوف يتساءلون من الذي شغل الزنزانة رقم ٢٣٤؟ هذا إن كانت تلك الزنزانات مشغولة.

حدثت ضجة كامدة لشيء وقع خلفي في الزنزانة. ما عساه يكون؟ هل جاري على هذه الدرجة من المهارة بأن يلقي لي شيئاً من خلال الشبك؟ حاولت أن أتبين هذا فالرؤية سيئة. ومع ذلك رأيت شيئاً طويلاً ودقيقاً، وفي الوقت الذي أردت تناوله في شبه الظلام، حيث لا أفرق بين التخمين والرؤية. أخذ هذا الشيء بالتحرك مسرعاً نحو الجدار، فتراجعت مسرعاً إلى الوراء، وبدأ هذا الشيء يتسلق الجدار الأملس الناعم فلم يتقدم، وتركت له فرصة محاولة التسلق ثلاث مرات، ولما سقط في المرة الرابعة، سحقته بقدمي فكان رخواً تحت جوربي فما هذا؟ فنظرت إليه عن كثب، وأنا راكم على ركبتي وتمكنت من معرفته. إنه إحدى كثرات الأرجل الضخمة طولها عشرون سنتيمتراً وعرضها بمقدار إصبعين. فانتابني اشمزاز كثير لم أستطع معه حمل الدوية إلى الدن فدفعته برجلي إلى ما تحت خشبة أسير. سأراها غداً في النهار ولسوف أرى العديد من كثرات الأرجل تسقط من السقف العالي وسوف أتعلم كيف أتركها تنزّه فوق جسدي العاري دون أن أمسك بها أو أزعجها إذا كنت نائماً. وسوف تتاح لي فرصة التعلم، كم يكلف الخطأ مع هذه الحشرة غالياً؟ يكلف آلاماً مبرحة، إن لسعتها تسبب حمى تستمر اثنتي عشرة ساعة، والإحساس بالالتهاب مدة ست

ساعات، على كل حال سيكون لي في ذلك تسلية، وتحويلاً لأفكاري. فعندما تقع كثيرة الأرجل، إن كنت يقظان، فسوف أعذبها بالمكنسة أطول وقت ممكن، وأتسل بها تاركاً إياها تحتىء وأنا أفتش عنها لاكتشف مكان اختبائها. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. الصمت مطلق، ولكن ليس هنا من إنسان يشخر؟ أو إنسان يسعل؟ صحيح إن الحر خائف، والليل مطبق ولكن ليس الإصباح بأفضل منه. أعددت نفسي للعيش مع كثيرات الأرجل فعندما كنت في سجن الميناء تحت البحر في سانتا مرتا كان منها الكثير أصغر منها، ولكنها من نفس الفصيلة. في سانتا مرتا كان الفيضان يومياً. هذا صحيح ولكننا كنا نتكلم أو نصرخ، كنا نسمع غناء البعض أو هذيان المجانين الذين فقدوا عقلهم مؤقتاً أو نهائياً، الحالة تختلف. ولو إنني خيرت لاخترت سانتا مرتا.

إن ما تقوله يا بابين غير منطقي. إن المتفق عليه هناك، على أن الحد الأقصى الذي يستطيع احتمالاه رجل هو ستة أشهر. أما هنا فالكثيرون محكوم عليهم بأربع أو خمس سنوات أو أكثر إن الحكم بهذه المدة شيء، ونفاذه شيء آخر.

ترى ما عدد الذين انتحروا؟ ولا أرى طريقة للانتحار. أجل هذا ممكن، ليس الأمر سهلاً ولكن يمكن للمرأة أن يشق نفسه. فمن البنطال يصنع حبلاً، ثم إذا صعد على خشبة السرير واستعان بالمكنسة يربطها بطرف الحبل، فإنه يدخله من خلال القضبان الحديدية، فإذا تمت هذه العملية عند تماس الجدار بالطريق الدائري، فمن الأرجح أن لا يرى الحفير الحبل، وبعد أن يمر يتأرجح المتحرر في الهواء. ولدى عودة الحفير يكون كل شيء انتهى. وعند ذلك لا يكون مستعجلاً في النزول وفتح باب الزنزانة ليفك حبل المشقة أيفتح الزنزانة؟ لا يستطيع. فقد كتب على الباب، لا يسمح فتح الباب إلا بأوامر عليا. إذن لا تخش شيئاً، فمن أراد الانتحار، سيكون عنده الوقت الكافي قبل أن يفكوا عنقه بأمر عال.

أسرد كل ذلك وقد لا يكون مشوقاً أو مهماً لبعض الناس الذين يحبون الحركة والجلبة. فعل هؤلاء أن يتخطوا الصفحات، إن كنت أضجرهم. ومع ذلك فإن الانطباعات الأولى والأفكار الأولى التي تحتاحني عند التماس الأول مع الزنزانة الجديدة، وردود الفعل في الساعات الأولى في وضعي في القبر، اعتقد بأنه من الواجب وصفها بأكبر قدر من الأمانة.

هأنذا أمشي منذ زمن، ميزت في الليل حركة إنها حركة تبديل الحرس. كان الأول طويلاً ونحيلاً، والثاني كان قصيراً وديناً، يمر جواربه، واحتكاكها يسمعه من كان في الزنزانين قبله، والزنزانين بعد، ولم يكن صامتاً مثل صديقه. تابعت المشي فالوقت متأخر. كم يمكن أن تكون الساعة؟ لن أكون غداً بغير مقياس للزمن. فبفضل افتتاح الكوة أربع مرات في اليوم يمكنني تقدير الزمن. أما في الليل فبمعرفة ساعة تبديل الحرس ومدتها أستطيع أن أعيش مع مقياس منظم. الحراسة الأولى، الحراسة الثانية، الثالثة. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، عدت آلياً إلى هذه الزهرة التي لا تنتهي، ويساعدني الإعياء على التحليق في يسر لنبش الماضي. وبالمقارنة والتناقض حتماً مع ظلمة الزنزانة كنت أحس بأشعة

الشمس تملأ نفسي على الشاطئ مع قبيلتي، والمركب الذي تصيد عليه لالي يتأرجح على بعد مئتي متر مني فوق صفحة هذا البحر الأخضر، بغلالة من الزبد الأبيض لا نظير له، أنكش الرمل بقدمي، وتأتي زورايما بسمكة مشوية على الجمر محفوظة في ورقة موز لتبقى ساخنة وكنت أكل أكل بيدي طبعاً، وتجلس أمامي متربعة تنظر إلي محبورة، كيف كنت أفكك أوصال السمكة في سهولة، وتقرأ على وجهي علامات الرضا، وأنا أتألف بطعام شهبي. أحلم وكأنني لست في الزنزانة ولا أعرف الانفراد، ولا سان جوزيف، ولا الجزر، أتدحرج على الرمل، أنظف يدي بدعكهما بالمرجان الناعم جداً كالطحين. أذهب إلى البحر فأغسل فمي بالماء الصافي الأجاج وأغرف بكفي من هذا الماء وأرش به على وجهي. وبينما أحك عنقي أحس بأن شعري قد طال. ولدى عودة لالي كنت أقص شعري، وأسمر مع عشيرتي.

كان نسيم البحر يداعبنا أنا وزورايما فأمدها على الرمل في وضح النهار، وتثن حباً كدأها كلما خامرها السرور. وتعود لالي إلى الشاطئ فتغادره باسمه، وفي أثناء عودتها تفك صفائرها وتحلل أصابعها الطويلة في شعرها المبلل الذي يبدأ بالجفاف بالهواء والشمس في ذلك النهار البديع فأتوجه نحوها فتلفني بذراعها الأيمن، وتدفعني نحو الكوخ مبتعدة عن الشاطئ، ولا تكف طول الطريق عن محاولة إفهامي: وأنا؟ وأنا؟ وزورايما ذكية فلا تدخل علينا إلا بعد أن تجري حساباً بأن هونا قد انتهى، فتأتي وتجلس معنا وتنتقر بأصبعها على خد أختها بلطف وهي تردد كلمة ربما كان معناها يا جشعة.

وهكذا كنت أقضي الليل مع الكاجيرا ولا أنام ولا أضطجع لأرى من خلال جفني المغمضين، هذه المشاهد التي عشتها. كنت أمشي كالثائم مغناطيسياً، وبدون تدخل من إرادتي انتقلت من جديد إلى ذلك اليوم الجميل اللذيذ الذي عشته منذ ستة أشهر.

أطفئت الأنوار وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر واجتاح غلس الزنزانة طارداً هذا النوع من الضباب العائم الذي يلف كل شيء من حولي، وانطلقت الصفارة وسمعت جلبة الأسرة الخشبية وهي ترتطم بالجدران، وسمعت من زنزانة جاري على اليمين صوت تعليق الدقة بالحلقة المثبتة بالجدار. سمعت سعال جاري، وصوت قليل من الماء. كيف يغتسلون هنا؟

— يا سيدي المراقب كيف يغتسلون هنا؟

— أيها الحبيس. أعذرك لجهلك، حيث لا يحق لأحد التكلم مع المراقب الحارس وإلا نال عقاباً شديداً. ولكي تغتسل، اجلس على الدن، واسكب من قدر الماء بيد، واغتسل باليد الأخرى. ألم تنشر لحافك؟

— لا.

— لا شك أن في الداخل منشفة.

ليس لنا الحق في التكلم مع الحارس؟ ومهما كانت الأسباب؟ وإذا اشتد الألم من أي

شيء؟ أو إذا كان الإنسان على وشك الموت؟ من أزمة قلبية، أو أزمة التهاب الزائدة، أو أزمة ربو حادة؟ هل يمنع هنا طلب النجدة، حتى في حالة خطر الموت؟ هذا هو الأنكى، بل إنه طبيعي فمن السهل جداً إثارة فضيحة عندما تفقد الصبر، وأعصابك تثور.

كل شيء أعدّ لكمّ الأفواه وإخراص الأصوات. كل شيء من أجل منع غيرك من التحدث معك. وإنك لتسمع قائلاً يقول لك: مت وأنت أخرس.

عشرون حالة تقع كل يوم لعشرين شخصاً من أصل مئتين وخمسين شخصاً يخترعون أي شيء ليتخلصوا من الضغط الكبير على دماغهم.

فليس صاحب فكرة بناء الأقفاص للأسود بعالم من علماء النفس، ولا يمكن لطبيب أن يسف إلى هذا الدرك من العار، وليس (لدكتور) أن يسن مثل هذا النظام. ولكنهما معاً ومساعدة المهندس كوّنوا مجموعة تضع أدق التفاصيل لتنفيذ هذه العقوبة. كلاهما مقيتان كبيران كلاهما نفسانيان حقيران خيثان، امتلات نفسهما بالحق السادي على المحكومين. إن السجون المظلمة المركزية في بوليو وكايين عميقة إلى مقدار طابقين (دورين) تحت الأرض ومع ذلك يمكن أن يتسرب يوماً ما إلى الجمهور صدى التعذيب أوسوء المعاملة التي يسأم بها هذا أو ذاك من المعاقين. والدليل على ذلك أنه عندما فكوا أغلال يدي رأيت الخوف يرسم على وجوه الحراس، الخوف من بعض المضايقات ولا ريب في هذا.

أما هنا في السجن الانفرادي حيث لا يستطيع الدخول سوى موظفي الإدارة، فهم مطمئنون، ولن يحصل لهم شيء.

كلاك، كلاك، كلاك. فتحت جميع الكوى، ودنوت من كوتي مجازفاً، بنظرة ثم أخرجت رأسي قليلاً، ثم رأسي كله إلى الممر. فرأيت على اليمين وعلى اليسار العديد من الرؤوس، وفهمت أنه ما تكاد الكوى تفتح حتى تشرّب الأعناق نحو الخارج. ونظر إلي السجين على يساري نظرة بلهاء لا معنى لها، وهو شاحب اللون، وجهه دهني لا رونق فيه.

والسجين الذي كان على يميني قال في سرعة: كم؟

— سنتان.

— أنا أربع، أمضيت منها سنة، ما الاسم؟

— بابيون.

— أنا جورج جوجو من الأوفرن، أين وقعت؟

— في باريس. وأنت؟

ولم يتسع الوقت ليرد علي إذ وصلت القهوة وكرة الخبز إلى الزنزانتين السابقتين، فأدخل رأسه وفعلت مثله. مددت طاسي فملأوه قهوة ثم أعطوني كرة من الخبز فتدحرجت على الأرض أثناء إغلاق الكوة لأنني لم أسرع في تناولها. وفي أقل من ربع ساعة ران الصمت من جديد.

كان هناك توزيعان: عند الظهر يوزع المرق مع قطعة من لحم مسلوق، وفي المساء يوزع طبق من العدس. قائمة الطعام هذه لم تتغير مدى عامين، إلا في المساء حيث كان يتم أحياناً توزيع فاصولياء حمراء أو فاصولياء بيضاء، أو قضاة، أو حمص مكسر أوزر بالدسم. أما وجبة الغداء فلا تتغير فيها.

كنا كل أسبوعين نخرج رؤوسنا من الكوى للحلاقة. ويمر أحد السجناء معه قصاصة حلاق يمج بها لحانا.

مضى على وجودي هنا ثلاثة أيام وهناك شيء يشغل بالي. قال لي أصدقائي في جزيرة رويال بأنهم سيرسلون لي طعاماً آكله، وسجائر، ولم أتلق شيئاً حتى الآن. وتساءلت كيف يمكنهم أن يفعلوا هذه المعجزة. لذا لم يدهشني أنني لم أتلق شيئاً. والتدخين شيء خطر جداً وعلى أية حال فهو ترف. أما الأكل فحيوي. فالحساء عند الظهر عبارة عن ماء حار مع قطعتين أو ثلاث من اللحم لا يزيد وزنها على مئة غرام. وفي المساء غرفة من الماء تسبح فيه بعض قطع من الفاصولياء والخضار الأخرى اليابسة. وبصراحة، إن ظنوني بالإدارة في هذا الشح في الغذاء، أقل من ظنوني بالسجناء الذين يوزعون الطعام ويحضرونه. راودتني هذه الفكرة عندما قام شاب مرسلي بتوزيع الخضار، فقد غاصت مغرته إلى أسفل الوعاء وعندما يكون دوره أنال من الخضار أكثر مما أنال من المرق. أما الآخرون فعلى العكس من ذلك فإن مغرثهم لا تفوص كثيراً ويتناولون المرق سطحياً بعد التحريك قليلاً. ومن هنا كانت الخضار قليلة والسائل كثيراً. سوء التغذية في غاية الخطورة. وحتى تكون للمرء إرادة يجب أن تكون له قوة جسدية.

عندما يكنسون المر، لاحظت إنهم ينظفون أمام زناتي مدة أطول، وقد أحدث قش المكنتة صريراً على بابي. نظرت بإمعان فرأيت قطعة من ورق أبيض. فادركت على الفور أنهم يزلقون لي شيئاً ما، ويتسظرون أن أسحبه قبل متابعة الكنس، فسحبت الورقة ونشرتها فكانت مكتوبة بحبر فوسفوري. تريت حتى مضى الحارس إلى سبيله وقرأت:

«بابي، اعتباراً من الغد، ستجد في الدن كل يوم، خمس سجائر وجوز هند. امضج الجوزة جيداً عند أكلها إذا أردت أن تنتفع منها جيداً وابتلع لبها. دخن صباحاً عند تفرغ الدنان واحذر أن تفعل ذلك بعد قهوة الصباح. ولك أن تدخن بعد حساء الظهر مباشرة، وفي المساء بعد تناول الخضار. وتجد طي هذه الورقة قلامة من فحم القلم، وكلما أردت شيئاً أو احتجت إلى شيء اطلبه على جزاة من الورق الموجود طي هذه الورقة. عندما يحك الكناس بابك بمكنسته حكه أنت أيضاً بأصابعك وادفع بورقتك وإياك أن تخرجها قبل أن يرد على حكتك بحكة من مكنتة. ضع قصاصة الورق في أذنك وقطعة فحم القلم في أي مكان من أسفل جدار الزناتة. تشجع. وإليك قبلاتنا التوقيع: اينياس ولويس.

هذان صديقا كالكانى وديغا اللذان أرسلا لي الرسالة . فأحسست بحرارة في حلقي . أن يكون للمرء أصدقاء أوفياء جداً ومتفانون جداً لأمر يبعث على الدفء ، والإيمان بالمستقبل والثوق بأنه سيخرج حياً من هذا القبر الذي أهاجمه بخطوة واثقة فرحة : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة نصف دورة الخ . وكنت خلال سيري أفكر : كم يحمل هذان الرجلان في نفسيهما من نبل وحب للخير . وربما خاطرا بمركزيهما . أحدهما محاسب والآخر ساعي . إنه لعمل جليل ما يفعله من أجل دون أن يحسب أن ذلك يكلفهما غالياً . كم رجلاً اشتريا ليصلا من جزيرة رويال إلي في هذا السجن آكل الرجال .

أيها القارئ يحسن أن تفهم أن جوزة الهند ملأى بالزيت ولإيضاح ذلك يكفي أن تغمس لب ست جوزات في الماء الحار حتى تحصل في اليوم التالي على لتر من الزيت ، وهو مادة دسمة غنية بالفيتامينات التي يسبب الحرمان منها ، في ظل هذا النظام في التغذية ، آلاماً . جوزة الهند كل يوم هي الصحة الأكيدة تقريباً . فعلى الأقل لا أصاب بجفاف الجلد والعروق ولا أموت بالبؤس الفيزيولوجي .

في هذا اليوم قد مر علي أكثر من شهرين وأنا أتلقى الطعام والسجائر بدون حوادث . واتخذت الاحتياطات اللازمة عند التدخين وكنت ابتلع الدخان بعمق ثم أرجعه شيئاً فشيئاً وأنا أضرب الهواء بيدي اليمنى المفتوحة كالمروحة لكي يتبدد الدخان .

بالأمس حدث شيء مريب ، ولا أدري إن أحسنت التصرف أو أسأت . اتكا أحد المراقبين على الدرابزين ناظراً في زنزاتي . فأشعل سيجارة وسحب بعض أنفاسها ثم تركها تسقط في زنزاتي ، ثم انصرف . انتظرت عودته لأدوس السيجارة بقدمي على مرأى منه . توقف قليلاً ثم استأنف سيره حاملاً انتبه لحركتي هذه . هل أشفق علي؟ أم كان خجلاً من الإدارة التي ينتمي إليها؟ أم كان ذلك شركاً؟ لست أدري . وهذا ما أغمني . فعندما يتألم الإنسان يغدو مفرط الإحساس . فإذا كان هذا الحارس قد أراد أن يكون معي طيباً في لحظة من اللحظات فإنني لم أشأ أن أسبب له انزعاجاً بتلك البادرة التي تدل على الازدراء .

مر شهران على وجودي هنا ، وفي رأيي أن هذا الإنفرادي هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يتعلم منه الإنسان شيئاً وأرى نفسي متقاداً إلى الانفصام . عندي (تكتيك) لا ينبغي لأسرح مع النجوم ، ولأرى ، بعد جهد - بروز مختلف مراحل مغامراتي أو طفولتي ، أو لكي أبني صروحاً من الأوهام بواقعية أخاذة ، يجب أولاً أن أتعب كثيراً ، يجب أن أمشي ولا أجلس مدى ساعات دون توقف ، وأن أفكر تفكيراً سوياً في أي شيء ، وعندما أبلغ درجة الإرهاق أتمدد على دفة السرير ، واضعاً رأسي على نصف اللحاف ، وأطوي نصفه الآخر فوق وجهي ، وحينئذ يصل هواء الزنزانة الممدد إلى فمي وأنفي بصعوبة بعد أن ينقيه اللحاف . وهذا ما يحدث في رثتي نوعاً من الاختناق ، ويبدأ رأسي بالتهاب . فانا أكاد أختنق من الحر وقلة الهواء وأنهض في الحال وأبشأ . آه ! هذه التهورات النفسية كم منحتني من الأحاسيس التي تفوق

الوصف. كانت لي ليالي حب أكثر مما كانت يوم أن كنت حراً، وأشد إثارة وأعنف استمتاعاً مما مر بي على أرض الواقع.

نعم إن هذه القدرة على التحليق في الفضاء أتاحت لي مجالسة والدتي التي توفيت منذ سبعة عشر عاماً أذاعب طرف ثوبها، وهي تلامس حلقات شعري الذي تركته يطول وكأنني بنت صغيرة في الخامسة من عمرها. وأنا ألامس أناملها الدقيقة وبشرتها الناعمة كالحرير، وكانت تضحك معي من رغبتني الجائعة في الغطس في النهر أسوة بالصبيان الكبار في يوم نزهة.

كنت أرى أدق التفاصيل من شعرها وعينيها الصافيتين المتوقدتين اللامعتين بالحنان، وفي كلامها العذب الذي يعجز اللسان عن وصفه: يا صغيري ريري كن عاقلاً وعاقلاً جداً لكي تحبك ماما كثيراً. وعندما تكبر ستصبح أنت أيضاً قادراً على الغطس في النهر من مكان عال عال جداً. أما الآن فأنت صغير يا كنزي الغالي، وسوف يأتي اليوم الذي تغدو فيه كبيراً، سريعاً وسريعاً جداً. وعدنا إلى البيت بمحاذاة النهر ويدي في يدها. فأنا حقاً في منزل طفولتي.. أضغ كفي على عيني ماما أحول بينها وبين العلامات الموسيقية، وتستمر في الوقت نفسه بالعزف لي على المعزف (البيانو). أنا في البيت حقيقة لا خيالاً. أنا هناك معها. صعدت على كرسي خلف كرسيها الدوار حيث كانت تجلس وشددت بكلتا يدي على عينيها النجلاوين، وأناملها الرشيقة تتابع لمس المعزف لمساً رقيقاً لاسمع «الأملة الطروب» إلى النهاية.

فلا أنت أيها النائب العام اللإنساني، ولا أنتم يا رجال الشرطة ذوي الشرف المريب، ولا بولان البائس الذي اشتري حريته بشهادة زور، ولا المحلفون الاثنا عشر الأغبياء الذين انساقوا وراء قضية الاتهام وطريقته في تفسير الأشياء، ولا حراس الانفرادي أكابر شركاء «أكل الرجال»، لا أحد على الإطلاق حتى الجدران السميكة، ولا المسافات الشاسعة التي تفصل هذه الجزيرة الضائعة على المحيط الأطلسي، لا شيء البتة، معنوياً كان أم مادياً، يمنعني من رحلاتي اللذيذة الملونة بلون ورد الهناءة عندما أهيمن بين النجوم.

إنني أخطيء حيناً أقوم بعملية حساب الزمن الذي أبقي فيه وحيداً مع نفسي لا أتكلم فيه إلا عن الساعات الزمنية. هذا خطأ، فهناك لحظات يجب قياسها بالدقائق الزمنية وعلى سبيل المثال بعد توزيع القهوة والحبز يأتي وقت تفريغ الدنان، أي بعد ساعة على وجه التقريب ولدى إرجاع الدنان فارغاً سأجد جولة الهند والسجائر الخمس، وأحياناً بطاقة فوسفورية حيث أعد الدقائق، غالباً لا دوماً. وهذا أمر سهل لأنني أقيس الخطوة الثانية وحينها أجعل من جسمي نواصاً، وفي كل خمس خطوات وأنا أدور نصف دورة أقول الآن: واحد، وبعد اثني عشرة تكون مضت دقيقة. لا تنهوا بأنني متلهف للحصول على جولة الهند لأكلها وهي حياتي، أو للحصول على خمس سجائر، وللتدخين في هذا القبر

لذة فائقة، وأنا أدخن عشر مرات في الأربع والعشرين ساعة لأنني أقسم السجارة قسمين. لا ليس هذا، وإنما في لحظة توزيع القهوة أقع في غماء وأحس بالخوف دوماً سبب معين من أن يحصل شيء لأولئك الرجال الذين يقامرون بأمنهم واستقرارهم في سبيل مساعدتي هذه المساعدة الكريمة السخية. لهذا فإنني أترقب ولا يهدأ لي بال حتى أرى جوزة الهند فكل شيء إذن على ما يرام بالنسبة إليهم.

عمر الساعات والأيام، والأسابيع بطيئة جداً، وأوشك عام أن ينصرم وبالتحديد منذ أحد عشر شهراً وعشرين يوماً، ولم ألتحدث مع أحد أكثر من أربعين ثانية بكلمات متقطعة هي أقرب إلى الهمس منها إلى الإفصاح.

ومع ذلك كان لي حوار مرة بصوت عال. أصابني برد، وكنت أسعل سعالاً متواصلًا. فكرت في أن هذا يحقق لي الخروج لزيارة الطبيب. كنت أبدو شاحباً. هذا هو الطبيب. وانفتحت الكوة، بينما كنت ساهماً. ومن خلال هذه الفوهة امتد رأس. وقال صاحبه:

— ما بك؟ مم تتألم؟ من التهاب القصبات؟ استدر ثم اسعل.

لا. قد يحصل. هل هو مزاح؟ ومع ذلك هذه هي الحقيقة المحضة. إنه طبيب من المستعمرة جاء ليكشف علي من خلال الكوة يديرني على بعد متر منها، ويصيح بسمعه ليفحصني ثم يقول أخرج ذراعك، وأوشكت أن أمدّها بصورة آلية ولكن في نوع من تكريم الذات قلت لهذا الطبيب العجيب: شكراً دكتور لا داعي لأن تزعج نفسك، فالأمر لا يستحق هذا الاهتمام. وهكذا تمكنت من إفهامه جيداً بأنني لا أحمل كشفه الطبي على محمل الجد. فرد رداً وقحاً قائلاً: كما تشاء، وانصرف لحسن الحظ لأنني كدت أنفجر غيظاً.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.

أمشي وأمشي دون كلال ولا توقف. واليوم أمشي غاضباً، وساقاي مجهودتان ولم تبقي كما كانتا من قبل طليقتين.

ويعد الذي حدث أحتاج إلى أن أدوس شيئاً، ماذا أستطيع أن أدوس بقدمي؟ الأرض تحتها اسمنتية لا. ساطاً كثيراً من الأشياء أثناء المشي، سوف أطأ بِلادة هذا الطبيب الذي ارتضى القيام بأخص الأشياء لينال حظوة عند الإدارة. سادوس عدم اكتراث فئة من الرجال، بآلام، وأوضاع فئة أخرى من الرجال. سادوس جهل الشعب الفرنسي وقلة اهتمامه أو فضوله في معرفة كيف تعامل هذه الشحنت البشرية فوق ظهور السفن التي تغادر سان مارتن دوره كل عامين. سادوس صحفيي الأخبار المحلية الحمراء الذين بعد أن يكونوا قد كتبوا مقالات فاضحة عن رجل بسبب جريمة محددة، لا يعودون يذكرون بعد أشهر إن كان على قيد الحياة. سادوس الأساقفة الكاثوليك الذين استمعوا إلى

الاعترافات وهم يعرفون ماذا يجري في السجن الفرنسي ثم يسكتون. سادوس هذا النظام في المحاكمة التي تتحول إلى مبارزة كلامية خطابية بين الذي يهاجم والذي يدافع. سادوس جمعية حقوق الإنسان والمواطن التي لا ترفع صوتاً ينادي أن أوقفوا هذه المجازر أو أزيلوا هذه السادية الجماعية الموجودة في موظفي الإدارة. سادوس غياب عضو أو جمعية لا تستجوب المسؤولين عن هذا النظام لتسألهم كيف ولماذا يخنفي ثمانون بالئة من الذاهيين على طريق العفن. سادوس شهادات الوفاة الصادرة عن الطبابة الرسمية: انتحار، تعب فيزيولوجي، سوء تغذية دائم، 'داء الحفر، سل، جنون حاد، مرض عدم ضبط التغوط والتبول. وما يدريني ماذا أدوس أيضاً؟ وعلى كل حال، لا أستطيع بعد ما تقدم أن أمشي شيئاً سويّاً، يجب أن أسحق في كل خطوة شيئاً ما.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. . والساعات يمرورها البطيء وبالتعب تهديء ثوري الخرساء. بعد عشرة أيام سأتم نصف مدة العقوبة في الانفرادي إنه حقاً عيد سنوي يستحق الاحتفال ولولا هذه النزلة الوافدة التي أصابني لكنت في صحة جيدة. فما أنا بمجنون ولا قريب من الجنون، بل أنا واثق مئة بالمئة، من الخروج حياً متزناً في العام القادم والذي سيبدأ عما قليل.

استيقظت على صوت مهموس وسمعت: إنه جاف تماماً يا سيد دوراد، فكيف لم تلاحظ ذلك من قبل؟

— لا أعلم يا سيدي، إنه شق نفسه في زاوية جانبية، وقد مررت مراراً دون أن أراه.

— لا أهمية لذلك. وأعترف أنه من المنطقي أن لا تراه.

جاري على اليسار انتحر. هذا ما فهمته. نقلوه وأغلق الباب. وقد طبق النظام بحذافيره. إذ فتح الباب وأغلق بحضور سلطة عليا: رئيس السجن الانفرادي الذي عرفته من صوته. وهذا المنتحر هو الرجل الخامس الذي يغيب من جواري في غضون عشرة أسابيع.

حان العيد السنوي لدخولي هذه الزنزانة، وجدت في الدن علبه حليب مكثف (نستلة). إنه جنون من أصدقائي. إنها غالية ومخاطرة في الحصول عليها وفي تمريرها إلي. إنه إذن يوم النصر عندي، على الخصومة. لذلك عاهدت نفسي أن لا أشتط، فانا في الانفرادي، وقد مر عام على وصولي وأشعر بقدرتي على الهروب غداً إذا سحت لي الفرصة. هذا بيان إيجابي، وأنا فخور به. تلقيت كلمة من أصدقائي بوساطة الكناس، بعد الظهر، وهذا شيء غير مألوف: تشجع بقي أمامك عام. نحن نعلم أنك في صحة جيدة. ونحن طبعاً بخير نقبلك، لويس — اينياس.

«أرسل إذا تمكنت بضع كلمات مع حامل ورقتنا، فكتبت على الورقة البيضاء

المرافقة بالرسالة: أشكركم على كل شيء. أنا قوي وآمل أن أظل ذلك بفضلكم خلال عام. هل من أخبار عن كلوزيو وماتوريت؟ وعاد الكناس ونقر على الباب فأسرعت إلى إعطائه الورقة وغاب عن الأنظار في الحال.

طول هذا النهار وفي قسم من الليل كنت بحالة جيدة على أرض الواقع، كما عاهدت نفسي تكراراً.

عام وأنتقل بعده إلى إحدى الجزيرتين رويال، أو سان جوزيف، وانتشي بالحديث وبالتدخين وبتنظيم خطة الهروب المقبل. سأستقبل الغد وهو اليوم الأول من ٣٦٥ يوماً بقيت لي، وأنا واثق من قدرتي. كنت على حق في الأشهر الثمانية التي تبعت ذلك ولكن في الشهر التاسع فسدت الأمور.

هذا الصباح، وفي وقت تفريغ الدن فوجيء حامل جوز الهند ويده في الكيس، في اللحظة التي كان يدفع بها الدن وكان قد وضع فيها جوزة الهند والسجائر الخمس. كانت الحادثة خطيرة حتى أنهم نسوا نظام الصمت برهة من الزمن. وكانت الضربات التي يتلقاها هذا البائس تسمع بوضوح، ثم حشرجة رجل مشرف على الموت.

فتحت كوة زنزاني فامتد رأس حارس محتقن وصاح بي: أنت لا تضيع شيئاً للانتظار؟

— أنا تحت تصرفك أيها الغني. قلت هذا وقد استفزتني طريقة معاملتهم للرجل المسكين. حدث هذا في الساعة السابعة. وفي الساعة الحادية عشرة جاء المقدم الثاني في السجن بتفويض، عهد فيه إليه، بإحضاري. وفتح الباب لأول مرة عشرين شهراً بعد أن أغلق دوني. كنت في آخر الزنزانة ووعاء الشرب بيدي في وضع استعداد للدفاع، وقد عازمت على تسديد أكبر عدد ممكن من اللكمات، وذلك لسبيين: أولاً لثلاث يضر بني الحراس بدون جريرة ارتكبتها، ثانياً لكي أضرب في سرعة. ولم يحدث شيء من هذا، وقيل لي أيها السجين اخرج.

— إذا كان هذا لضربي، فانتظروني حتى أدافع عن نفسي، وليس علي أن أخرج لكي أهاجم من كل الجهات. أنا أفضل البقاء هنا لأتناول أول من يلمسني بالضرب.

— يا شارير لن نضربك.

— ومن يضمن لي ذلك؟

— أنا المقدم الثاني في السجن.

— هل لديك ما تقوله؟

— لا، لا، لا مناص. أعدك بشرفي بأن أحداً لن يضربك، هيا اخرج.

احتفظت بالوعاء بيدي.

— تستطيع الاحتفاظ به ولن تحتاج إلى استخدامه.

— حسناً.

خرجت محاطا بستة من المراقبين والمقدم الآخر، وقطعنا الممر كله، ووصلنا إلى الباحة فشعرت بدوار في رأسي، وآلمتني عيني من وهج الضوء فلم أستطع فتحهما. وأخيراً رأيت البيت الذي استقبلنا فيه. وهناك اثنا عشر مراقباً أدخلوني إلى قاعة الإدارة دون دفع، وعلى الأرض رجل يثن وهو مضرج بدمه وكانت على الجدار ساعة معلقة تشير إلى الحادية عشرة. ففكرت بأن هذا المسكين تحت التعذيب منذ أربع ساعات. وقد جلس المقدم خلف مكتبه وجلس المقدم الثاني إلى جانبه.

— شارير منذ متى وأنت تحصل على جوز الهند والسجائر؟

— لا بد أنه قال لكم ذلك.

— أنا أسألك أنت؟

— أنا فاقد الذاكرة، فلا أعلم ما حصل البارحة.

— أتسخر مني

— لا. إن هذا يدهشني. أليس ذلك مسجلاً في ملفي؟ أنا مصاب بفقد الذاكرة

على أثر ضربة في رأسي.

فوجيء المقدم بهذا الجواب فقال:

— أسألوا من جزيرة رويال، إذا كان هناك ما ينص على هذا الموضوع.

وبينما كان يجري الاتصال الهاتفى، تابع يقول:

— هل تذكر أن اسمك شارير.

— هذا نعم.

وحق أزيده حيرة قلت متغايماً، (كتمثال متحرك)

— اسمي شارير مولود عام ١٩٠٦ في ولاية أرديش وحكم علي بالسجن المؤبد في

باريس.

فاستدارت حذقاته وأحسست أنني هزرت كيانه.

— هل حصلت على قهوتك وخبزك هذا الصباح؟

— نعم

— ما نوع الخضار التي قدمت لك مساء أمس؟

— لا أدري

— إذن هل نصدقك بأن ليست لك ذاكرة؟

— مما يجري لا شيء البتة. أما الوجوه فأذكرها. مثلاً أعلم أنك استقبلتني يوماً ما

ولكن متى؟ لست أدري.

— ألا تعلم كم بقي لك لكي تخرج من السجن؟

— مؤبداً إلى أن أموت. أظن هذا.

— لا. لا. أسألك عن عقوبتك في الانفرادي.

— هل أنا محكوم بالانفرادي؟ لماذا؟

— لقد بلغ السيل الزبى. يا اسم الله. لا تجعلني أخرج عن طوري. ولن تقول لي أنك لا تذكر أنك محكوم بستان بسبب هروبك.
وحينئذ كدت أزق روحه إذ قلت:
— من أجل الهروب؟ أنا يا سيدي المقدم؟ أنا رجل جاد، وقادر على تحمل التبعة.
تعال لتزورني في زنزاني لتتحقق إذا كنت قد هربت.
وفي هذه اللحظة قال الحارس: مخابرة من رويال يا سيدي المقدم. فأمسك بالهاتف
— ألا يوجد شيء؟ غريب! يدعي أنه فاقد الذاكرة. السبب؟ ضربة على الرأس؟
مفهوم. إنه يتظاهر. سيعلم. حسناً. أعذرني أيها المقدم. سأتحقق إلى اللقاء. نعم سوف أحيطك علماً.

— أيها المهرج. أرنى رأسك. نعم يوجد أثر جرح كبير. ولكن كيف تتذكر بأنك فاقد الذاكرة منذ تلك الضربة هيه. قل لي.
— لا تفسير عندي ولكن ألاحظ أنني أتذكر الضربة وأن اسمي شارير وأشياء أخرى.

— ماذا تريد أن تقول أو تفعل بعد هذا كله؟
— ما كنا بصدد مناقشته هنا. أنت تسألني منذ متى يبعثون إلي ما آكله وأدخنه. وهذا هو جوابي الحاسم. لا أعرف إن كانت المرة الأولى أو الألف بسبب فقدان ذاكرتي. لا أستطيع الجواب هذا كل شيء وافعل ما تشاء.
— ما أريده بسيط جداً. لقد أكلت كثيراً ولفترة طويلة ويجب أن تعود نحيلاً. حرمان من طعام المساء حتى نهاية العقوبة.

وفي اليوم نفسه تلقيت بطاقة في عملية الكنس الثانية، ولسوء الطالع لم أستطع قراءتها فليست مكتوبة بالخبر الفوسفوري. أشعلت في الليل سيجارة بقيت لي من أمس بعد التفتيش إذ لم يعثروا عليها فقد كانت مخبأة جيداً في سريري الخشبي وعلى ضوء نارها استطعت أن أفك رموزها. إن مفرغ أوعية القاذورات لم يجلس إلى المائدة. وقد قال إنها المرة الثانية التي يبعث فيها إليك طعاماً، تطوعاً منه، وأنه فعل ذلك لأنه يعرفك في فرنسا. وفي رويال لم يبال أحد بما جرى. تشجع. هأنذا محروم من جوزة الهند والسجائر وأخبار أصدقائي في رويال. وما زاد الطين بلة أنهم ألغوا لي العشاء. ولقد عاهدت نفسي أن لا أتذمر من الجوع، وعلاوة على ذلك تلك الجلسات العشر للتدخين، والتي كانت تزين نهاري وقساً من الليل. لا أفكر في نفسي فحسب وإنما أفكر في ذلك المسكين الذي أوسعوه ضرباً حتى أوشك أن يموت بسببي، وأرجو أن لا يكونوا قد عاقبوه عقاباً شديداً. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة.

قلت لنفسي: لن تستطيع احتمال هذا النظام في الطعام، بهذه السهولة، وبسبب

من قلة الطعام يجب تغيير(التكتيك). وعلى سبيل المثال: البقاء متمدداً أطول مدة ممكنة، حتى لا تصرف طاقة. فكلما قلت الحركة، قلت الحريات. إذن علي أن أبقى نائماً لساعات طويلة. إنه غلط من الحياة مغاير تماماً يجب أن أتعلمه. وأربعة أشهر تساوي مئة وعشرين يوماً.

وبحسب التنظيم الذي فرض، كم من الوقت يلزمني قبل أن أدخل في مرحلة الهزال وفقر الدم؟ فهذا يستغرق على الأقل شهرين. إذن أمامي شهران تحت التجربة. وعندما أجدو ضعيفاً واهناً فإن الأمراض ستجد مرتعاً ملائماً لمهاجمتي. فقررت أن أبقى متمدداً من الساعة السادسة مساء وحتى السادسة صباحاً وسوف أمشي بدءاً من تقديم القهوة إلى ما بعد جمع دنان القاذورات أي مدة ساعتين قد تزيد أو تنقص. وكذلك بعد الغداء سأمشي ساعتين تقريباً وفي المجموع سأمشي أربع ساعات تقريباً وفيما بقي من الوقت سأبقى جالساً أو مستلقياً، وسوف يتعذر علي الشرود الذهني. دون أن أكون مرهقاً. ومع ذلك سأحاول.

اليوم وبعد فترة طويلة من التفكير بأصدقائي وبذلك التعس الذي عومل أقي معاملة صرفت اهتمامي إلى نظامي الجديد. وقد نجحت إلى حد ما رغم الساعات التي تبدو لي طويلة. وسأقاي لا تعملان ساعات بأكملها وأحس فيها ديباً كدبيب النمل. وقد دام هذا النظام عشرة أيام، وأحس بالجوع باستمرار وبدأت أشعر بشيء من التعب الدائم، قد استحوذ علي موضعياً.

إنني أفتقد النارجيل بشكل غريب. أما اللصائف ففي درجة أقل. أنام مبكراً وسرعان ما أهرب هروباً وهمياً من زنزاني. بالأمس كنت في باريس في رامبور أشرب الشمبانيا مع أصحابي: أنطونيو من لندن، أصله من باليار ولكنه يتكلم الفرنسية مثل باريس. ويتكلم الانجليزية كما يتكلمها أي انجليزي، وفي اليوم التالي كنت في مارونيه شارع كليشي وقد قتل بخمس رصاصات من مسدس أحد أصدقائه وما أسرع ما تتحول الصداقة في هذا الوسط إلى حقد قاتل. أجل كنت بالأمس في باريس أرقص على أنغام الأكورديون في حفل راقص في بوتي جاردن، في شارع سانت أوين ورواده كلهم من كورسيكا ومرسيليا. وجميع هؤلاء الأصدقاء يتحركون في هذه الرحلة الخيالية بواقعية لا أشك فيها بوجودهم ووجودي. في هذه الأماكن أمضيت أعذب الليالي.

إذن بدون أن أمشي كثيراً وصلت بهذا النظام الغذائي المختصر جداً إلى نفس النتيجة التي كنت أصل إليها وأنا متعب. صور الماضي تتزعني من زنزاني بقدرة عشت بها ساعات من الحرية أكثر مما عشت في الانفرادي. لا يزال أمامي شهر. وقد مضت ثلاثة أشهر ما كنت أطعم فيها سوى كرة الخبز والحساء الحار، بدون نشويات ظهراً مع قطعة صغيرة من اللحم المسلوق. والجوع المستمر جعلني أصل إلى درجة أنني كنت

أفحص قطعة اللحم لأرى إذا لم تكن قطعة من الجلد كما كان يحصل غالباً. أصبح جسدي ناعماً، ورأيت كم كانت جوزة الهند أساسية، أسعفتني الحظ، إذ كانت تأتيني خلال عشرين شهراً فتقيم أودي، وتبقي علي عافيتي وتحفظ توازني بعد هذا الحائل الخطر بيننا وبين الحياة. إنني هذا الصباح متوتر الأعصاب بعد أن شربت قهوتي. فقد أكلت نصف ما يخصني من الخبز، وهذا ما لم أفعله قط وفي المعتاد كنت أقسمه أربعة أقسام متفاوتة في الحجم، قطعة للصباح وأخرى للظهر وثالثة للمساء ورابعة لليل. لم فعلت ذلك؟ ولت نفسي على هذا. أفعلت هذا لكي تخور قواك في النهاية؟ أنا جائع وأحس بانحطاط في قواي. لا تكن مدعياً، كيف يمكن أن تصبح قوياً؟ بما تلتهمه؟ المهم أنك من هذه النقطة متتصر. أنت ضعيف وهذا صحيح ولكنك لست مريضاً. إن هذا السجن أكل الرجال، إذا أسعفك الحظ قليلاً فإنه يخسر لعبته معك. جلست بعد ساعتين من المشي على لبنة من الاسمنت وقد اتخذتها بدلاً من الكرسي. ثلاثون يوماً أو لتكن سبع مئة وعشرين ساعة، ثم يفتح الباب ويقال لي: أيها السجن شارير اخرج. لقد أنيت ستين، وماذا أقول؟ سأقول: نعم لقد أنيت هاتين الستين من المحنة.

ولكن لا. بل يجب أن أتابع القول ببرود موجهاً إلى المقدم الذي سبب لي هذا الهزال:

— ماذا؟ هل أعفي عني؟ هل أذهب إلى فرنسا؟ هل انتهى الحكم المؤبد؟ لا شيء سوى أن أرى وجهه وأقنعه أن الصيام الذي فرضه علي كان جائراً.

ولكن ماذا حصل لي: ظلم أم عدل فإن المقدم لا يبالي بما أخطأ. ما أهمية ذلك لمن كانت له مثل هذه العقلية. ولن يتحرك له ضمير فيؤنبه على ما عاقبني به وإن كان ظالماً. احذر نظرة منك كاذبة أن تحسب السجن إنساناً سوياً. إن ينتسب إنسان إلى هذه المجموعة فليس جديراً بهذه التسمية. وقد يعتاد المرء على كل شيء في الحياة حتى الدناءة قد يجعل منها ديدنة. ولا يروعني إلا إذا دنا من القبر وخشي ربه إن كان ديناً فيمسي خاشعاً نادماً. لا لأن ضميره يؤنبه بل لأنه يخاف أن يحاسبه به على ما جنت يده وأن الله هو الحاكم الذي سيحاكمه.

لذلك، عندما تخرج إلى أية جزيرة تخصص لك، لا تركزن بعد الآن إلى هذا النوع من البشر، فأنت وإياهم على طرفي نقيض. فعلى طرف تجد تلبد الإحساس والسلطة الدعية المتفطرسة الخالية من الروح، وتجد كذلك السادية الصريحة وردود الفعل الذاتية، على حين أكون في الطرف الآخر، مع الرجال من زمري الذين ارتكبوا حقاً أخطاء فاحشة غير أن مراة الألم خلقت فيهم صفات لا يرقى إليها كل إنسان: كالرأفة وحسن الطوية والتضحية والنبيل والإقدام. وأقول بكل إخلاص: أنني أفضل أن أكون مجرمًا على أن أكون سجيناً.

لم يبق إلا عشرون يوماً وقد شعرت بالوهن والاحظ أن كرة الخبز لا يزداد حجمها. منذ الذي بلغ به الإسفاف والحطة أن يختار لي قطعة الخبز هذه، والحسام لا يتعدى أن يكون ماء حاراً، وقطعة اللحم هي دوماً عظمة عليها قليل جداً من اللحم أو الجلد. وأخشى ما أخشاه الوقوع في المرض، وقد لازمني الضيق فأنا مكدود لا أقوى على بذل أي جهد، لاحكم بأي شيء. وأنا يقظان. وهذا الإرهاق المصحوب بالكآبة يقلقني. حاولت الحركة. فكنت أمضي الأربع والعشرين ساعة في كل يوم في مشقة. سمعت صريراً على الباب وسرعان ما انزلت بطاقة وهي مكتوبة بالخير الفوسفوري أرسلها ديغا وكالكاني. فقرأت: أكتب لنا كلمة فنحن في غاية القلق عليك وعلى صحتك ولم يبق إلا تسعة عشر يوماً تشجع. لويس وإينياس. وكان هناك جزازة ورق وقطعة فحم قلم فكتبت: إنني أقاوم وأنا ضعيف جداً وشكراً. بابي.

وعادت المكينة إلى الاحتكاك بالباب فأرجعت الورقة. كانت البطاقة بغير جوز هند ولا سجائر. هذه الظاهرة، ظاهرة الصداقة السامية جداً والثابتة جداً كانت حافزاً منشطاً كنت في حاجة إليه. في الخارج يعرفون ما أنا فيه، وإذا مرضت فلا بد أن يزورني الطبيب، وسوف يولياني عناية صحيحة يدفع من صحتي. وكانوا على حق. تسعة عشر يوماً وأصل إلى نهاية السباق المضي مع الموت والجنون. لن أموت وعلي أن أقوم بأقل قدر ممكن من الحركة لئلا أصرف الحريات التي لا غنى لي عنها وسوف ألغي ساعتني المشي في الصباح وساعتني الظهيرة. وهذه أحسن وسيلة للمقاومة. ففي الاثنتي عشرة ساعة الليلية أنام، وفي الاثنتي عشرة ساعة النهارية أبقي جالساً بدون حركة ومن حين لآخر أنهض وأقوم ببعض الانحناءات والحركات ثم أعاود الجلوس.

بقي أكثر من عشرة أيام. كنت مستغرقاً في نزهة في ترينيداد، وربابة الجاوي ترسل أنغاماً شجية إذا بصراخ وحشي يعيدني إلى الواقع. هذا الصراخ كان صادراً من زنزانة خلفي أو من أخرى قريبة جداً. سمعت أحدهم يقول: - أيها الوجد انزل إلى هذه البؤرة. ألم تتعب من مراقبتي من أعلى؟ ألا ترى أنك تضع نصف المنظر بسبب ضالة النور في هذه الحفرة؟ فأجاب الحارس:

- اخرس وإلا عوقبت في قسوة.

- آه. دعني أضحك أيها الغبي كيف يمكنك أن تجد ما هو أفسى من هذا الصمت؟ عاقبني كما تشاء. اضربي، إذا كان هذا يرضيك أيها الجلاد الكريه ولكنك لن تجد ما يساوي هذا الصمت قوة، هذا الصمت الذي تجبرني على البقاء فيه. لا. لا. لا لم أعد أريد ولم أعد أطيع الاستمرار في هذا الصمت. منذ ثلاث سنوات كان يجب أن أقول لك: أنت قدر أحق. وكنت غيباً حين صبرت ستة وثلاثين شهراً خائفاً من القصاص، ولم أصرخ معبراً عن اشترازي منك ومن أمثالك من السجانين الفاسدين.

وبعد دقائق معدودات كنت أسمعهم يقولون :

— ليس هكذا، ضعه مقلوباً فذلك أنجح، والمسكين يزجر:

— ضعه كما تشاء أيها الفاسد، البسني قميص المجانين مقلوباً، إذا شئت واشدد بركبتك على جبالك حتى اختنق ولكن هذا لا يمنعني من أن أقول لك إن أمك خنزيرة. ولن تستطيع أن تكون أكثر من كومة قاذورات.

لا ريب أنهم كموا فمه إذ لم أعد أسمع شيئاً.

تأثر الحارس الشاب من هذا المشهد وتوقف أمام باب زنزاني وقال: ربما جن

— أنتعتقد ذلك؟ ومع هذا فإن ما قاله موزون.

صق الحارس من قولي وتابع سيره قائلاً: حسناً وأنت إذن تعيد علي أقواله.

هذه الحادثة اقتلعتني من الجزيرة حيث رجال الرابطة وأكواخ الهنديات في مرفأ بورت أوف سين إلى الواقع الحزين في الانفرادي.

لا يزال أمامي عشرة أيام أي مئتان وأربعون ساعة، علي أن أنحملها.

إن ترتيب عدم الحركة، الذي رتبته لنفسني، قد آتى أكله، فعلى الأقل ثمر الأيام هادئة وربما كان مرد ذلك إلى البطاقة التي وجهها أصحابي أو بالأحرى إن إحساسي بالقوة أعزوه إلى موازنة فرضت علي نفسها: فأنا على مسافة زمنية مقدارها مئتان وأربعون ساعة من الخلاص من الانفرادي، وعقلي سليم، وفعاليتي لن تحتاج إلى أكثر من قليل من القوة الجسدية لتستعيد نشاطها. على حين أن هناك خلقي رجلاً مسكيناً يفصله عني جدار على بعد مترين قد دخل المرحلة الأولى من الجنون، وربما من أسوأ أبوابه ألا وهو العنف، ولن يعيش طويلاً لأن ثورته تعطي الفرصة لإمكانية قتله مشبعاً بالمعاملة القاسية المدروسة علمياً. وقد لمت نفسي على هذا الشعور بالقوة أمام رجل مغلوب، وتساءلت: هل أنا كالأناني الذي يكون في الشتاء مرتدياً حذاء وقفازين، متنعماً بالدفء تحت معطف مبطن بالفراء، ويرى أمامه أفواجاً من الناس مسرعين إلى أعمالهم وقد جدهم البرد، لا يرتدون الملابس الملائمة، أو على الأقل، ازرققت أكفهم بسبب جليد الصباح، وهو يوازن بينه وبين هذا القطيع، المتسابق إلى أول مترو أو باص ويحس بالدفء أكثر من ذي قبل، ويتمتع بفرائه أكثر من أي وقت. وغالباً ما تكون الموازنة في هذه الحياة جيدة: صحيح أنا محكوم بعشر سنوات، ولكن بابيون محكوم مؤبداً. صحيح أنا محكوم مؤبداً ولكن عمري ثمانية عشر عاماً، على حين أنه محكوم بخمسة عشر عاماً وعمره خمسون.

هيا لقد وصلت إلى النهاية وآمل أن تكون صحيتي جيدة من كل الوجوه جسدياً ونفسياً، وحيويتي في وضع جيد من أجل الهروب بعد ستة أشهر.

لقد تكلمت عن الهروب الأول أما الهروب الثاني فسوف يكون منقوشاً على حجارة جدار السجن لا أرتاب في ذلك. سأهرب بالتأكيد قبل أن تمضي ستة أشهر.

هذه هي الليلة الأخيرة التي أمضيها في الانفرادي. فمنذ سبعة عشر ألف وخمس مئة ساعة دخلت الزنزانة رقم مئتين وأربع وثلاثين. وقد فتح الباب مرة وساقوني إلى المقدم لكي يعاقبني، وإذا استئثت المقاطع التي كنت أتبادلها مع جاري خلال ثوان في اليوم فقد كلموني أربع مرات: قيل لي في اليوم الأول إنه يجب إنزال السرير الخشبي عند سماع الصافرة، وفي المرة الثانية مع الطبيب الذي قال لي: استدر، اسعل... وجرى حوار أطول وأكثر حيوية مع المقدم، وفي المرة الرابعة، أربع عبارات مع المراقب المنفعل بسبب ذلك المجنون المسكين. هذه تسلية لا مبالغة فيها. استسلمت للنوم وأنا لا أفكر سوى في شيء واحد، وهو أنهم غداً بالتحديد، سيفتحون هذا الباب. غداً سأرى الشمس، وإذا أرسلت إلى رويال سأشم هواء البحر. غداً سأكون طليقاً، وضحكت من نفسي، كيف أكون طليقاً؟ غداً سأبدأ بتصفية عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة. أهذا يسمى حرية؟ أعلم هذا، ولكن الحياة هناك لا تقاس بالحياة التي عانيت بها هنا كيف الوصول إلى كلوزيو وماتوريت؟

قدمت لي القهوة في الساعة السادسة، وحدثني النفس بأن أقول: إنني أخرج اليوم. ولكنني أخطأت وتذكرت أنني فاقد الذاكرة. ومن يدري؟ لو أنني تذكرت هذه الدقة لتين المقدم بأنني كنت أسخر منه، فقد يكون قادراً على إعادتي فوراً إلى الانفرادي شهرًا آخر. وعلى أية حال يجب أن أخرج بحسب القانون، من السجن الانفرادي، اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيه) ١٩٣٦ وبعد أربعة أشهر سأبلغ الثلاثين من عمري.

في الساعة الثامنة أكلت كل ما عندي من الخبز على الفور ولسوف أجد ما أكله حال خروجي.

فتح الباب المقدم الثاني ومراقبان كانا هناك.

— شاريري! لقد انتهت مدة عقوبتك نحن في السادس والعشرين من حزيران ١٩٣٦. اتبعنا.

خرجت. ولدى وصولي إلى الساحة كانت الشمس تشرق بقوة كادت تخطف بصري. كنت منهار القوى، وساقاي رخوتان. وتراقصت أمام عيني بقع سوداء، ومع ذلك لم أمش سوى خمسين متراً، ثلاثون منها في الشمس. وعندما وصلت إلى مكتب الإدارة، رأيت ماتوريت وكلوزيو وكان ماتوريت هيكلاً عظيماً حقاً، وجتاه بارزتان، وعيناه غائرتان. وكان كلوزيو ممدداً على عفة، لونه ضارب إلى الزرقة وتبدو عليه علامات الموت. فكرت في قبح صديقي فقلت: هل أنا على هذه الصورة؟ أتوق لرؤية نفسي في المرآة. قلت لهما: كيف الحال؟ فلم يردا، فكررت: هل أنتما بخير؟ قال ماتوريت في هدوء: نعم.

كنت أشتكي أن أقول لهما بأن عقوبة الانفرادي قد انتهت ولنا الحق في الكلام. قبلت كلوزيو في خده، فنظر إليّ بعينين لامعتين وابتسم ثم قال: وداعاً بابيون.

— لا . ليس الأمر كذلك .

— لقد انتهيت .

وبالفعل مات بعد بضعة أيام في مستشفى رويال وله من العمر اثنان وثلاثون عاماً . وكان قد صدر بحقه حكم بعشرين سنة من أجل سرقة دراجة لم يرتكبها .
وصل المقدم فقال : أدخلهم .
ماتوريت ، وأنت يا كلوزيو سلكتما سلوكاً حسناً لذلك سوف أسجل في ملفكما :
سلوك حسن وأنت يا شارير بما أنك ارتكبت خطأ فاحشاً سأضع لك ما تستحق «سيء السلوك» .

— معذرة أيها المقدم ، أية خطيئة ارتكبت ؟

— هل صحيح أنك لا تذكر اكتشاف السجائر وجوزة الهند ؟

— لا . صدقاً .

— لئلا أي نظام كان لك منذ أربعة أشهر .

— من أية ناحية ؟ ناحية الأكل ؟ إنه لا يتغير منذ وصولي .

— آه هذه ثلاثة الأثافي . ماذا أكلت أمس مساء ؟

— كالمالوف . وما يدريني ؟ لا أذكر شيئاً ، ربما قدموا لنا فاصولياء أو أرزاً أو نوعاً آخر من الخضار .

— إذن كنت تأكل مساء ؟

— أو تحسبي أرمي بصحتي ؟

— لا . ليس هذا . لقد رجعت عن كلامي ، لقد سحبت «سيء السلوك» . اكتب يا

سيد (س) بطاقة خروج وضع عبارة «حسن السلوك» فهل أنت راض ؟

— هذا عدل . لم أفعل شيئاً يحول دون هذا الاستحقاق .

وبهذه العبارة خرجنا من المكتب .

انفتحت بوابة السجن الانفرادي ليسمحوا لنا بالمرور مخفوفين بمراقب واحد ، وانحدرنا على الطريق المؤدية إلى المعسكر ، فأشرفنا على البحر اللامع بالانعكاسات الفضية والزيد . تواجهنا جزيرة رويال التي تغطيها الخضرة والسقوف الحمر . أما جزيرة الشيطان فقاحلة ومتوحشة طلبت من المراقب أن يأذن لي بالقعود قليلاً ففعل . فجلسنا أحداً عن يمين كلوزيو والآخر عن يساره ، وبصورة لا شعورية احتضنت أكفنا كفيه . وقد ولد فينا هذا التماس انفعالاً غريباً وأخذنا نقبله دون أن ننطق بكلمة .

قال المراقب : هيا يا شباب ، يجب أن ننحدر .

وبكل هدوء نزلنا إلى المعسكر ودخلنا نحن الاثنين في المقدمة وقد تشابكت يدانا ، وغلطنا اثنان يحملان على المحفة صديقنا المحتضر .

الحياة في رويال

وما أن وطئت أقدامنا ساحة المعسكر حتى أحاط بنا السجناء مرحبين بنا. والتفتت من جديد ببيرو المجنون وجان سارتر و كولونديني وشيسيليا. قال لنا المراقب إنه ينبغي أن نذهب نحن الثلاثة إلى المستشفى. اجتزنا الساحة يحيط بنا عشرون رجلاً، فدخلنا بعدها المستوصف: وبعد بضع دقائق كان أمامنا أنا وماتوريت اثنتا عشرة علبة سجائر، وتبغ، وقهوة بالحليب الحار، وشوكولا مصنوعة من الكاكاو النقي. الجميع كانوا يرغبون في تقديم شيء ما. أما كلوزيو فقد حقنه المرض حقنة من الزيت المزوج بالكافور وبعض الادره نالين من أجل القلب. وقال زنجي نحيل جداً: أيها المرض أعطه ما لدي من فيتامين، فهو أكثر احتياجاً مني إليها. حقاً إنها لبادرة طيبة وشعور بالتضامن نحونا ترك في نفوسنا أثراً كبيراً. قال لي بيير البوردولي:

— هل تريد مالاً؟ فقبل أن تذهب إلى رويال سيكون لدي الوقت الكافي لجمع التبرعات.

— لا. شكراً جزيلاً. معي مال. ولكن هل علمت بأنني ذاهب إلى رويال؟
— أجل. إن المحاسب قال لنا ذلك، بل أعتقد بأنكم ستذهبون إلى المستشفى.
كان المرض لصاً جبلياً من كورسيكا يدعى إيساري، ولقد تعرفت عليه جيداً في وقت لاحق، وسوف أروي قصته كاملة لأنها حقاً مثيرة للاهتمام. مضت الساعتان في المستوصف في سرعة. لقد أكلنا جيداً وشربنا جيداً وذهبنا إلى رويال متخومين مسرورين. ظل كلوزيو طوال الوقت مغمض العينين إلا عندما اقتربت منه ووضعت يدي على جبينه، وحينئذ فتح عينيه وقال:

— صديقي بابي، نحن صديقان حقاً.

— بل أكثر من ذلك، فنحن أخوان.

نزلنا بصحبة مراقب واحد. في الوسط كلوزيو على المحفة وأنا وماتوريت من جانبيها. وعلى باب المعسكر ودعنا السجناء، وتمنوا لنا حظاً سعيداً. فشكرنا لهم رغم احتجاجهم. ببيرو المجنون علق في عنقي كيساً مملوءاً بالتبغ والسجائر والشوكولا، وعلب حليب نستله. وكذلك ماتوريت له مثل نصيبي ولا يعرف من أعطاه. وقد رافقنا إلى رصيف الميناء المرض فرناندز ومراقب واحد. وقد قدما لكل واحد منا بطاقة دخول إلى المستشفى في رويال. وقد علمت أن السجناء الذين يعملون في التمريض منهم إيساري وفرناندز، قد حولونا إلى المستشفى دون استشارة الطبيب.

ها هو ذا المركب؛ فيه ستة نوتيين ومراقبان في الخلف مسلحان ببندقيتين وآخر يمسك

بالسكان . وأحد النوتيين هو شابار : صاحب عملية المصارف في مرسيليا . ونحن الآن في عرض البحر ،
والمجاديف تغوص في الماء ، والجميع يجدفون . قال شابار : هل أنت بخير يا بابي ؟ وهل كان يصلك جوز
الهند ؟

- لا . منذ أربعة أشهر لم يصلني شيء .
- أعلم أنه حدث حدث . كان هذا الرجل طيباً وكان يعلم أنني كنت أفعل ذلك ولم يلمح لي .
- ما أخباره ؟
- مات .
- مستحيل . من أي شيء ؟
- حسب أقوال أحد المرضين أن كبده قد انفجرت نتيجة وكزة من قدم .

نزلنا على رصيف رويال ، وهي أعظم الجزر الثلاث . كانت ساعة المخبز تشير إلى
الثالثة . وكانت شمس بعد الظهر شديدة حفاً تكاد تفقدني الوعي بحرارتها .

طلب أحد المراقبين اللذين يحملان المحفة ، وهما سجينان شديدا المراس ، يرتديان
الملابس البيض ، وحول معصميهما رباط من جلد أسود وقد حملا كلوزيو وكأنه ريشة ،
ومشينا خلفه أنا وماتوريت وخلفنا مراقب يحمل بيده بضعة أوراق . كان عرض الطريق
أكثر من أربعة أمتار وهو حصوي يستعصي على السالكين . ولكن لحسن الحظ كان حاملا
المحفة يتوقفان من حين لآخر بانتظارنا . حينئذ جلست على ذراع المحفة من جهة رأس
كلوزيو ، وكنت أمر بيدي على جبينه ورأسه برفق وحنان فيبسم لي كل مرة ويفتح عينيه
ويقول لماتوريت المسك بيده :

هذا أنت يا صغيري ماتوريت ؟ وتبدو عليه السعادة لإحساسه بالقرب منه . وعندما
أوشكنا على الوصول لاقينا فرقة ذاهبة إلى الأشغال ، ومعظم السجناء من الذين كانوا في
فرقتي ، وكنا نسمع أثناء مرورهم كلمات عذبة . ولما وصلنا إلى فناء أمام مبنى مربع أبيض
اللون ، رأينا أعلى سلطة في الجزر وقد جلس أفرادها في الظل . دنونا من المقدم بارو
الملقب بجوزة الهند اليابسة ، ومعه عدد من رؤساء الحراس . قال لنا المقدم دون أن يقف
وبدون مراسم :

- إذن لم يكن الانفرادي قاسياً !! وهذا الممدد على المحفة من هو ؟
- إنه كلوزيو
- نظر إليه وقال : خذوهم إلى المستشفى ، وعندما يخرجون منه عليهم أن يقابلوني قبل
ذهابهم إلى المعسكر .

وأودعونا في المستشفى في قاعة حسنة الإضاءة ، والأسرة نظيفة جداً ، وعليها ملاءات

ووسائد. وأول ممرض شاهدته هو شاتال، الممرض في قاعة المراقبة المشددة في سان لوران - ماروني. وللتو أولي كلوزيو عناية خاصة، وطلب من المراقب إحضار الطبيب، وقد وصل حوالي الساعة الخامسة، وبعد فحص طويل ودقيق رأيته يهز رأسه غير مرتاح، فكتب الوصفة وتوجه نحوي وقال لشاتال:

— أنا وبابيون لسنا أصدقاء.

— هذا ما يدهشني. إنه شاب طيب يا دكتور.

— ربما، ولكنه صعب القياد

— لأي سبب؟

— بسبب زيارة قمت بها وهو في الانفرادي.

فقلت له: يا دكتور، أسمى تلك الزيارة زيارة. تفحصني من خلال الكوة؟

— الإدارة تحظر فتح السجن.

— جيد جداً يا دكتور. ولكن كان الأمل أن لا تكون إلا معارفاً إلى الإدارة لا أن

تكون جزءاً منها.

— ستتكلم في هذا في مناسبة أخرى. سوف أحاول الصعود إليك، أنت وصديقك.

أما الآخر فأخشى أن يكون قد فات الأوان.

ثم روى لي شاتال بأنهم اشتبهوا به في تدبير هروب فاحتجزوه في الجزر، وأعلمني أيضاً بأن جيزو الذي خدعني في هروبي قد قتل على يد أبرص لا يعرف اسمه. وتساءلت ألا يكون أحد هؤلاء الذين ساعدوني بسخاء. إن حياة السجناء في جزر سالو تختلف كل الاختلاف عما يمكن تصوره. أكثر الرجال هنا في غاية الخطورة لأسباب عدة: أولاً، الجميع يأكلون إذ يشمل البيع كل شيء: المشروبات الكحولية، والسجائر، والقهوة، والشوكولا، والسكر، واللحم والخضار الغضة، والسماك البحري، وجوز الهند، فكلهم إذن في أتم الصحة في مناخ سليم جداً.

المحكومون لمدد معلومة، لديهم الأمل وحدهم بالإفراج عنهم. أما المحكومون مؤبداً فما داموا ضائعين فهم جميعاً أكثر خطراً؛ الجميع غارقون في المتاجرة اليومية. السجناء والمراقبون على حد سواء. وهذا الخليط يستعصي على التفاهم. وبعض نساء المراقبين يبحثن عن سجناء شبان للقيام على خدمتهن. وغالباً ما يتخذن منهم عشاقاً، ويسمينهم غلمان الأسيرة بعضهم بستانيون، وبعضهم طباخون، هذه هي الزمرة من المبعدين تصلح لأن تكون صلة الوصل بين المعسكر ومنازل الحراس.

وغلمان الأسيرة لا ينظر إليهم نظرة سوء من قبل السجناء الآخرين، إذ بفضلهم يؤمنون تجارتهم ولكن لا يعتبرون أصفياء. إن رجلاً من وسط معتبر لا يمكن أن يقبل فيقوم بمثل هذه الحاجات، ولا أن يكون حاملاً للمفاتيح، ولا أن يشتغل في مطعم المراقبين، وبالمقابل يدفعون غالباً في سبيل أداء الخدمات التي لا تماس لهم فيها مع

الحراس، من مثل تفريغ القاذورات، وجمع الأوراق الميتة، وسوق الجواميس، والتمريض، والبستنة، ومزاولة حرفة القصاب، والخيازة، والنوتق، والمراسل، وحارس المنار. وهذه الخدمات كلها في يد السجناء الحقيقيين. والسجين الجيد لا يعمل إطلاقاً في أعمال تعهدات دعم الجدران أو في الطرقات أو السلام أو زراعة جوز الهند، وهذا يعني أنهم لا يشتغلون تحت وطأة الشمس ولا تحت مراقبة الحراس.

يبدأ العمل في الساعة السابعة صباحاً وحتى الظهر ومن الساعة الثانية حتى الساعة السادسة. وهذا يعطي صورة عن بيئة هذا الخليط من الناس المتفاوتين الذين يعيشون حياة مشتركة سجناء وحرّاساً، إنها قرية صغيرة حقيقية، حيث كل شيء يشرح نفسه بنفسه، أو يحكم نفسه بنفسه، والجميع تحت بصر الجميع.

حضر ديغا وكالكاني لتمضية يوم الأحد معنا في المستشفى، أكلنا السمك وحساء السمك والبطاطا والجبن، وشربنا القهوة والنبيذ الأبيض. هيأنا هذه الوجبة في غرفة شاتال حيث اجتمعنا أنا وشاتال وديغا وكالكاني وماتوريت وجرانده. وطلبوا مني أن أروي لهم حكاية هروبي بكل تفاصيلها.

وقد اتخذ ديغا قراراً بعدم محاولة الهروب، وهو ينتظر من فرنسا عفواً عن خمس سنوات، وإذا أضفنا إليها ثلاث سنوات قضائها في فرنسا وثلاثاً آخر هنا، فلن يبقى سوى أربع سنوات عليه أن يقضيها. أما كالكاني فيزعم بأن سيناتور من كورسيكا سيتم بقضيته. ثم جاء دوري فطلبت منهم أن يرشدوني إلى المواضع الأكثر ملاءمة للهروب.

قال ديغا: إنها مسألة لم تخطر له ببال، وكذلك كالكاني. ويفترض شاتال أن إحدى الحداث قد تتيح تحضير طوف. وبالنسبة إلى جرانده فقد أعلمني أنه يعمل حداداً في الأشغال، حيث يوجد، كما قال، كثير من الحرفيين، فهناك دهانون ونجارون وبنّاؤون، ويقرب عددهم من مئة وعشرين رجلاً يعملون في تعهدات أبنية الإدارة، وقد عرض علي ديغا وهو محاسب عام، أي عمل أريده، وما علي إلا أن أختار كما قدم لي جرانده نصف مكانه كمدير للعب الميسر. وما أكسبه من اللاعبين يغطي نفقاتي دون أن أمس ما أملكه في الأنبوبة. سأنظر في هذا الأمر لأنه هام جداً، ولكنه بالغ الخطورة.

انقضى يوم الأحد مسرعاً. قال ديغا وهو ينظر إلى ساعته الجميلة: بلغت الساعة الخامسة ويجب أن نعود إلى المسكر، وأعطاني ديغا وهو ذاهب خمس مئة فرنك للعب بها في لعبة البوكر إذ تقام أحياناً في قاعتنا حفلات جميلة، كما أعطاني جرانده مدية فاخرة كان أسقى فولاذها بنفسه، إنها قطعة سلاح رهيبة. قال:

— كن دوماً متسلحاً بها ليلاً ونهاراً.

— والتفتيش؟

— إن معظم المراقبين الذين يقومون بهذا العمل هم من حملة المفاتيح العرب، فإذا كان الرجل معدوداً في الخطرين، فلن يجدوا معه سلاحاً ولو لمسوه، ثم أردف: سنلتقي في المعسكر.

وخبرني كالكاكي بأنه احتجز لي مكاناً في زاويته، وبأننا سنؤلف معاً مجموعة. وأعضاء هذه المجموعة يرتفقون^(١) في طعامهم وما يملك أحدهم من مال فهو للجميع.

ومن جهة ديفاً فإنه لا ينام في المعسكر، بل في إحدى غرف مبنى الإدارة. ثلاثة أيام مرت على وجودنا هنا. ونظراً للملازمي كلوزيو في الليل لم أعر انتباهاً للحياة في قاعة المستشفى حيث كان عددنا يقرب من ستين رجلاً. ولما كان كلوزيو في حالة سيئة فقد عزلوه في غرفة كان فيها مريض مدنف. حقنه شاتال بالمورفين إذ كان خائفاً أن لا يطلع عليه الصبح.

كان في القاعة ثلاثون سريراً على كل طرف من طرفي ممشى عرضه ثلاثة أمتار، وهذه الأسرة كلها مشغولة تقريباً. ولا يضيء القاعة سوى مصباحين نفطيين. قال لي ماتوريت:

— هناك يلعبون البوكر وأنا ذاهب إليهم وعددهم أربعة.

— هل أستطيع أن أكون الخامس؟

— أجل.

وهنا اكتشفت صنفاً من السجناء وهم المقامرون الذين يعتاشون من الميسر. لعبنا طوال الليل وتوقفنا عند تقديم القهوة. وربحت ألفاً وثلاث مئة فرنك فتوجهت نحو سريري عندما لاقاني باولو والتمس مني أن أقرضه مئتي فرنك ليتابع لعبه، ويلزمه مئتان ولم يكن معه سوى مئة. قلت له خذ ثلاث مئة والربح مناصفة.

— شكراً لك يا بابيون، أنت خير من كلمني. سنكون صديقين.

مد يده وصافحته، وانصرف محبوراً.

مات كلوزيو هذا الصباح. وكان في الليلة السابقة قد طلب من شاتال أن لا يعطيه

المورفين:

— أريد أن أموت على سريري وأصدقائي من حولي. كان الدخول إلى غرفة الحجر محظوراً جداً ولكن شاتال أخذ الأمر على عاتقه ومات صديقنا بين أذرعنا، فأغمضت عينيه. كان ماتوريت يتمزق من الألم. فقد رحل رفيق مغامرتنا وألقي به إلى سمك القرش.

إن موت صديقي جعل المستشفى ثقيل الوطأة على صدري. فأبلغت ديفاً بأنني أريد المغادرة بعد غد. فبعث لي يقول: أطلب من شاتال أن يمنحك فرصة استراحة لأسبوعين

(١) الارتفاق: الانتفاع المشترك

في المعسكر ريثما تتاح لي فرصة اختيار الوظيفة التي تعجبني. على حين سيبقى ماتوريت أياً ما، فربما اتخذه شاتال مساعداً له في التمريض. قادوني حال خروجي من المستشفى إلى مبنى الإدارة للمثول أمام المقدم الملقب بجوزة الهند اليابسة؛ فقال لي:

— بابيون: قبل أن أضعك في المعسكر أنا ملزم بالتحدث معك قليلاً. لك هنا صديق عزيز وثمين، وهو يعمل محاسباً عاماً عندي: لويس ديغا. يزعم أنك مظلوم بكل هذه المعلومات التي وصلت عنك من فرنسا، وهو يعدك محكوماً بريثاً، فمن الطبيعي أن تكون في ثورة دائمة وإنني أقول لك بأنني لست معه في هذا الموضوع. والأمر الذي أحب أن أعرفه: الحالة النفسية التي أنت فيها في الوقت الراهن.

— أولاً يا سيادة المقدم وقبل أن أجيبك. هل لك في أن تقول لي ما المعلومات المكتوبة عني في الملف؟
— انظرها بنفسك.

وقدم لي بطاقة صفراء قرأت فيها ما يلي:

— هنري شارير المدعو بابيون والمولود في السادس عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٠٦ المحكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة من قبل محكمة السين. رجل خطر من كل وجهات النظر. تجب مراقبته مراقبة دقيقة.

من مركز كاين: محكوم لا يمكن إصلاحه ولن يستفيد من الأعمال التي يستفيد منها المقربون يجب مراقبته باستمرار.

من سان مارتين دوره: نظامي ولكنه بالتأكيد قادر على التأثير في أصحابه، يحاول الهروب من أي مكان.

من سان لوران ماروني: قام بالهجوم الوحشي على ثلاثة من المراقبين وأحد حملة المفاتيح، لكي يهرب من المستشفى عاد من كولومبيا. سلوكه حسن أثناء التوقيف، حكم عليه بعقوبة خفيفة في السجن الانفرادي مدة سنتين.

السجن الانفرادي في سان جوزيف: سلوك حسن حتى إطلاق سراحه.

ولما أرجعت إليه الملف قال لي:

— وبهذا يا عزيزي بابيون، لسنا مطمئنين إلى استضافتك. فهل ترغب في عقد اتفاق

معي؟

— لم لا؟ حسب نص الاتفاق.

— أنت رجل، تسعى ولا شك، إلى الهروب من الجزر رغم كل العقبات الصعبة، كما هو واضح وربما نجحت، وأنا لا يزال أمامي خمسة أشهر، لتثبيت الأمن في الجزر. هل تعلم كم يكلف المقدم هروبك في الجزر؟ يكلف عقوبة سنة. وبمعنى آخر حرمان كامل من تعويض الاغتراب في المستعمرة، ثم تأخير إجازة ستة أشهر وإنزالها إلى ثلاثة. وحسب نتائج التحقيق، فإن كان إهمال من طرف المقدم فمن الجائز تخفيض رتبته. ألا ترى أن

ليس في الأمر مزاح. فإن أنا قمت بعملي بأمانة وشرف وأودعتك في الزنزانة أو السرداب، فذلك من حقي، وليس بدافع من أنك قادر على الهروب، وأقله إنني اخترع أخطاء وهمية، وهذا ما لا أريد أن أفعله. إذن أحب أن توثقني على عدم محاولة الهروب حتى ارتحالي عن الجزر خمسة أشهر.

— يا سيادة المقدم أعطيك كلمة شرف بأنني لن أغادر ما دمت هنا، إذا كان هذا لا يتعدى ستة أشهر.

— بل سأذهب قبل مرور خمسة أشهر. هذا تأكيد مطلق.

— حسن جداً. امسال ديغا فسوف يخبرك بأنني أصدق العهد.

— إنني أصدقك.

— ولكنني من جانب آخر التمس منك شيئاً آخر.

— ما هو؟

— خلال خمسة الأشهر التي ينبغي أن أقضيها هنا، أرجو أن تتوفر لي إمكانية الحصول على وظائف أستفيد منها مستقبلاً، أو أنقل إلى جزيرة أخرى إذا لزم الأمر.

— أنا موافق على أن يبقى ذلك سرّاً بيننا.

— أجل أيها المقدم.

ثم استقدم ديغا الذي أقنعه أن مكاني ليس مع ذوي السلوك الحسن بل في مبنى الخطرين. حيث يتواجد أصدقائي جميعاً. أعيد إلي كيس أمتعتي وقد أضاف إليها المقدم بعض البنطالات، والأردية البيض النقية ذات الأكمام الطويلة، المفصلة عند الخياطين. سلكت طريقي ومعني بنطالان أبيضان جديدان وثلاث درّاعات، وقبعة مصنوعة من قش الرز يرافقني حارس من مبنى الإدارة إلى المعسكر المركزي. ولكي نذهب من مبنى الإدارة الصغير إلى المعسكر كان علينا أن نجتاز الفناء كله، فمررنا أمام المستشفى. وكان المراقبون يقضون على امتداد سور يعلو أربعة أمتار ويحيط بالسجن من كل جوانبه. وبعد أن طفنا حول هذا المستطيل الواسع كله تقريباً وصلنا إلى البوابة الرئيسية «سجن الجزر الإصلاحية» — شعبة رويال، كان هذا الرتاج الكبير مصنوعاً من خشب ومنفتحاً انفتاحاً كاملاً وقد يبلغ ارتفاعه ستة أمتار. وهناك فرقان للحراسة تتألف كل منهما من أربعة رجال. وكان أحدهم، وهو ذو شارة، جالساً على كرسي، جميعهم مسلحون بالسدسات لا البنادق. ورأيت أيضاً خمسة أو ستة من حملة المفاتيح العرب. وعندما وصلت إلى المدخل المسقوف خرج جميع الحراس ورئيسهم الكورسيكي الذي بادر بالقول:

هو ذا سجين جديد من الصنف الرفيع. ونهياً حملة المفاتيح لعملية التفتيش فحال بينهم وبين ذلك قائلاً: لا تدنسوه بإخراج جميع أمتعته. هيا ادخل يا بابيون.

لا شك أن لك في المبنى الخاص أصدقاء كثيرين. اسمي سوفراني أتمنى لك حظاً سعيداً في الجزر.

— شكرأ، رقيب.

دخلت فناء رجباً حيث تقوم أبنية كبيرة ثلاثة. تبعت المراقب الذي قادني إلى أحدها وقد كتب فوق بابه: البناء (آ)، الزمرة الخاصة. وأمام الباب المفتوح على مصراعيه نادى الرقيب يا حارس البيت! فأطل محكوم قديم، فقال له: هاك محكوماً جديداً. ثم انصرف. ولجت قاعة فسيحة مستطيلة الشكل يعيش فيها مئة وعشرون رجلاً، وكما في البركة الأولى في سان لوران، على محيطها حاجز حديدي من أقصى أطرافها، ولكنه مفصول عند موضع الباب بشبك حديدي لا يوصل إلا ليلاً. وقد شددت بين جدران القاعة والحاجز الحديدي أقمشة متينة من الكتان تقوم مقام الأسرة والتي يدعونها الأسرة الأرجوحية وهي مريحة جداً وصحية. وقد ثبت في الجدار فوق كل سرير رفان خشبيان أحدهما للملابس والآخر للأغذية والصحون. . . ألخ، وبين صفي الأسرة يمر عرضه ثلاثة أمتار، والرجال هنا أيضاً يعيشون في اشتراكيات صغيرة وبعضها يتألف من رجلين اثنين فقط، وبعضها من عشرة. وما كدت أطأ أرض القاعة حتى تقاطر علي السجنا من كل صوب. هذا يقول تعال من هنا وذاك يقول: تعال معنا. تناول غرانده كيس امتعتي وقال سنؤلف معاً جمعية واحدة، فتبعته. نصبوا لي سريري وشدوه جيداً. قال غرانده:

— هاك وسادة من ريش الدجاج.

لاقيت كثيراً من الأصدقاء، من كورسيكا ومن مرسيليا أو من باريس، وكلهم أصدقاء من فرنسا، وبعضهم عرفتهم في سجن التوقيف أو في القافلة. وأدهشني تواجدهم هنا فسألتهم ألستم في الشغل في هذه الساعة؟ فتضاحك الجميع وقالوا: سوف تفعل ذلك مثلاً. إن الذي يشتغل من رجال هذا المبنى لا يشتغل أكثر من ساعة في اليوم ثم يعود إلى مجموعته.

ولقد كان هذا الاستقبال حاراً حقاً والأمل أن يدوم ذلك. ولكن سرعان ما تنبهت لشيء ولم أكن قد نظرت إليه بعمق واهتمام رغم الأيام التي أمضيتها في المستشفى وهو أن اعتاد التعايش مع الآخرين. رأيت مشهداً لم أكن أتوقعه. دخل شخص بلباس أبيض يحمل صينية مغطاة بقطعة قماش ناصعة البياض وينادي بفتيك. بفتيك من يريد بفتيك؟ ثم دنا منا شيئاً فشيئاً حتى وصل إلينا ورفع الغطاء الأبيض فتبدت لنا مصفوفة كما يفعل الجزائريون في فرنسا. ولاحظت أن الرجل لم يسأل غرانده هل تريد؟ بل كم تريد؟ فهو زبون يومي.

— هات خمساً.

— هل تريدها من لحم الكتف

— أريد «فيله». بكم أنا مدين لك؟ أعطني الحساب. والآن بعد أن زاد عددنا واحداً لم يبق الأمر كما كان.

أخرج بائع اللحم دفترأ صغيراً وشرع يحسب.

— المجموع مئة وخمسة وثلاثون فرنكاً بما في ذلك حساب اليوم .
— خذ حسابك ولنبدأ من الصفر .
وبعد انصراف الرجل قال لي غراند :
— هنا ، من ليس لديه مال يمت . ولكن هناك سيلاً للحصول عليه في كل وقت :
الحلق وحسن التدبير والتصرف الحسن ، كلها طرق متبعة للحصول على المال .

طباخ المسكر يبيع اللحم النظيف المخصص للسجناء بصورة بفتيك . فعندما يأتي اللحم إلى المطبخ يقطع منه النصف ، حسب نوع اللحم ، للسلق أو للطبخ مع مواد أخرى . يباع جزء منه للمراقبين بالمرور على زوجاتهم ، ويباع قسم للسجناء ممن يتيسر لهم الشراء ، وبطبيعة الحال يعطي الطباخ قسماً من الأرباح لمراقب المطبخ . وأول مبنى يمر عليه ببضاعته هو مبنى الفئة الخاصة ، المبنى (أ) أي حيث نحن . إذن الحلق هو الأساس . فهذا الطاهي الذي يبيع اللحم والشحم ، وهذا الخباز الذي يبيع الخبز المترف والخبز الأبيض الطويل المخصص للمراقبين ، والجزار الذي يبيع اللحم ، والمرض الذي يبيع الحقن ، والمحاسب الذي يتقاضى مائلاً لقاء تعيين في هذا العمل أو ذاك ، أو ليعمدك عن أعمال السخرة ، والبستاني الذي يبيع الخضار والفاكهة والعامل في المختبر الذي لا يسلم نتائج التحاليل الطبية إلا بمقابل ، بل قد يصل به الأمر إلى حد تلفيق الأمراض الكاذبة للمحكومين ، فهذا مصاب بالسل وذاك بالبرص ، وآخر بالتهاب الأمعاء . وهناك مختصون بالاختلاس من بيوت المراقبين ، يبيعون البيض والدجاج وصابون مرسيليا . وإلى جانب هؤلاء غلمان البيوت الذين يتاجرون مع ربات بيوت المراقبين حيث يعملون خدماً ، فيحضرون ما يطلب إليهم من زبدة وحليب مكثف أو مسحوق الحليب وعلب الطون والسردين والجبن ، والتخمور بطبيعة الحال (وهكذا لا تخلو جمعيتنا من زجاجة ريكارد أو السجائر الانجليزية والأمريكية) . .

وكذلك هناك من لهم حق الصيد ، يبيعون السمك والسرطين البحرية .
غير أن أحسن المهارات وأشدّها خطراً أيضاً إدارة اللعب بالميسر . والقاعدة المتبعة هي أنه لا ينبغي أن يكون في المبنى الواحد أكثر من ثلاثة أو أربعة مدراء للقمار من أصل مئة وعشرين رجلاً . والذي يحزم أمره على تولي إدارة اللعب يتقدم في إحدى الليالي في بداية اللعب ويقول :

— أريد مكان مدير الميسر . فيردون عليه : لا .

— كلكم تقولون لا ؟

— كلنا .

— إذن أختار فلاناً لأخذ مكانه .

والرجل المعني بذلك يفهم وينهض متجهاً نحو وسط القاعة ؛ وتجرى بين الاثنين مباراة بالسكاكين ، والرابح هو الذي يتولى مكان مدير القمار . ومدراء القمار يتألون خمسة

بالمئة عن كل جولة رابحة. ويتفرع عن الميسر نفسه أعمال ينتفع منها بعض السجناء انتفاعاً يسيراً فمنهم من يبيع الأغذية مشدودة على الأرض شداً ومنهم من يؤجر مقاعد خشبية صغيرة للالعاب الذين لا يستطيعون الجلوس مرتبعين ومنهم من يبيع السجائر والذي يعرض بضاعته فوق غطاء في علب ملأى بالسجائر الفرنسية والانجليزية والأمريكية. وكذلك السجائر التي تلف باليد. ولكل نوع سعر، ويقوم اللاعب بنفسه ويتناول حاجته ويضع في اللعبة قيمتها المسجلة بكل دقة. ومنهم السراج الذي يعد مصابيح النفط ويسهر على نظافتها كي لا تنفث كثيراً من دخانها وتصنع المصابيح من علب الحليب الفارغة وقد ثقب غطاؤها العلوي لمرور الفتيل المنغمس في النفط، ويحتاج دوماً إلى إصلاح بالمقراض، وللذين لا يدخنون، أصناف من السكر المصنع والحلوى (الكاتو) المصنوعة بتدبير خاص، ولكل مبنى صانع للقهوة أو اثنان تبقى القهوة مكانها مغطاة بكيسين من قشر قنب هندي ومعدة على الطريقة العربية، فتحافظ على حرارتها طوال الليل. ومن حين لآخر يطوف الرجل بقهوته أو بالكاكاو الحار في نوع من القدور النروجية. وهناك أخيراً نوع من الاسترزاق عن طريق الصناعات اليدوية، فبعضهم يتخذ ما يأتي به الصيادون من بذل^(١) السلحفاة صناعة. فكل بذل سلحفاة يتألف من ثلاث عشرة صفحة قد يبلغ وزنها كيلو غرامين. يصنع منها الفنان عقوداً وأساور وأقراطاً وأمشاطاً وظهور فراش^(٢)، حتى أنني رأيت صندوقاً صغيراً صنع من صفائح البذل وكان في غاية الروعة. وآخرون ينحتون أشكالاً للأفاعي من النارجيل وقرون الثيران والجواميس وخشب الأبنوس وخشب الجزيرة وآخرون يصنعون من خشب الأبنوس أعمالاً فنية نفيسة حفرأ دون استخدام أي مسمار. وأما هؤلاء هم الذين يعملون في صناعة البرونز ولا تنسى الفنانين الرسامين. وقد يتفق أن تجتمع عدة مواهب لإنجاز موضوع واحد ومثال ذلك صياد يحمل سمكة من أسماك القرش ويترك فكه مفتوحاً بحيث تظهر أسنانه البيض المستقيمة، ويصنع أحد نقاشي الأبنوس نموذجاً مصغراً لمرساة من الخشب عريضة في الوسط لتيسير الرسم عليها، ويثبت الفك المفتوح على هذه المرساة ثم يأتي رسام فيرسم جزر سالو يحيط بها البحر. والموضوع المتبع غالباً هو كالتالي: من رأس جزيرة رويال يرى المضيّق وجزيرة سان جوزيف، والشمس عند الغروب ترسل أشعتها اللاهبة على البحر الأزرق وعلى صفحة الماء سفينة يقف على متنها ستة من السجناء عراة الجذوع، والمجازيف مرفوعة عمودياً، وخلفهم ثلاثة من المراقبين يحملون الرشيشات بأيديهم. وفي الأمام رجلان يحملان نعشاً ينزلق منه جثمان سجين مكفن بكيس طحين، وترى على سطح الماء أسماك القرش فاعرة أفواهها بانتظار الجثمان. وقد كتب في الأسفل وعلى يمين اللوحة «الدفن في رويال» كما كتب عليها التاريخ. تباع مختلف هذه الأشغال في بيوت المراقبين وأجلها يباع

(١) بذل السلحفاة: جلد السلحفاة أو غطاؤها

(٢) جمع فرشاة

مقدماً أو أنها تصنع بناء على طلب مسبق. وما تبقى يباع على متن السفن المارة بالجزر، وفي هذا مجال للبحارة وبعض الماجنين يأتون بأصوغة^(١) معدنية قديمة سطوحها كثيرة الالتواء، وينقشون عليها: هذا الصواع يخص دريغوس. جزيرة الشيطان. التاريخ... وكذلك يفعلون بالملاعق والصحون.

وبالنسبة إلى البحارة البريتونيين فإن الأشغال التي لا تبور هي التي تحمل اسم سيزينيك. هذه التجارة الرائجة باطراد، تدّر على الجزر مالاً، وللمراقبين في ذلك منفعة، ويمجري كل شيء كما يشتهون، والرجال بعد أن اعتادوا حياتهم الجديدة أسلس قياداً.

واللواط يتخذ صبغة رسمية. الجميع يعلمون، حتى المقدم، أن فلاناً لفلان، وعندما ينقل إلى جزيرة أخرى تبذل المساعي للقائهما في بعض الأحيان، هذا إن لم يتم نقلهما معاً.

من بين جميع هؤلاء الرجال لن تجد ثلاثة في المئة يفكرون بالمهرب حتى المحكومون مؤبداً.

والطريقة الوحيدة هي السعي بكل الوسائل لرفع الحجر عنهم والذهاب إلى الأرض الكبرى في سان لوران أو إلى كورو أو إلى كاين، الأمر الذي لا يستفيد منه إلا المحكومون مؤقتاً. أما المحكومون مدى الحياة فيستحيل عليهم ذلك ما لم يرتكب أحدهم جريمة قتل، فإن فعل فإنه يوفد إلى سان لوران ليمثل أمام المحكمة هناك وقبل ذهابه يدلي باعترافاته وبذلك يجازف بخمس سنوات في السجن الانفرادي، ودون أن يتأكد من استغلال فرصة إقامته القصيرة في المعسكر التأديبي في سان لوران — وهي لا تزيد على ثلاثة أشهر — للهروب. ويمكن أيضاً محاولة الانطلاق من الحجر لأسباب صحية، فإذا عرفوا أن السجين مسلول بعثوا به إلى معسكر المسلولين^٢ المسمى بالمعسكر الجديد وهو يبعد ثمانين كيلو متراً عن سان لوران. وهناك أيضاً الجذام أو التهاب الإمعاء الزحاري المزمن، إنه نسبياً يسهل الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن ينطوي على خطر كبير، وهو مساكنة مرضى من نمط خاص مدة سنتين في جناح معزول. ومن هنا فإن ادعاء البرص يؤدي إلى البرص، وبإدعاء السل يخرج السجين مسلولاً، لا يفصله عن هذا سوى خطوة واحدة.

أما الزحار فهو أيضاً مرض تصعب النجاة من العدوى به.

هأنذا أقيم إذن في البني (آ) مع مئة وعشرين صديقاً. وقلت لنفسي: عليك أن تعود العيش مع هذه المجموعة حيث جرى تصنيفك سريعاً. أولاً ينبغي أن يعلم الجميع أنه لا تمكن مهاجرتك دون أن يتعرضوا للخطر. حالما تفرض الرهبة تستوجب الهيبة وذلك بأسلوب التعامل مع الحراس فلا تقبل بالمهمات، وارفض أعمال السخرة ولا ترضى

(١) جمع صواع وهو وعاء للشرب.

بسلطان حملة المفاتيح، ولا تخضع ولا تستجيب لنداء الاستنفار. حارس البيت (يطلقون على المبنى اسم البيت) يصبح «مريض نائم» المراقبون في البناءين الآخرين يذهبون أحياناً لإحضار المريض المعلن عنه ويجبرونه على تلبية الاستنفار. وهذا لا يحصل على الإطلاق في مبنى ذوي الرؤوس العنيدة. والخلاصة إنهم من أكبرهم إلى أصغرهم ينشدون. قبل كل شيء السكنية والهدوء في السجن.

صديقي غرانده الذي شكلت معه الجمعية، شاب من مرسيليا، لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره طويل جداً ونحيل كالسمار، ولكنه قوي جداً. نحن صديقان منذ كنا في فرنسا وكلنا نلتقي في تولون أو مرسيليا أو باريس. وهو مشهور بثقب الصناديق الحديدية وهو طيب القلب ولكن ربما كان خطراً.

أنا اليوم وحدي تقريباً في هذه القاعة الفسيحة الأرجاء وكان رئيسها يكنس الأرض الاسمنتية ويمر عليها بالمسحة. ورأيت رجلاً مشغولاً بتصليح ساعة وقد وضع شيئاً ما على عينه اليسرى وفوق سريره رف خشبي علق عليه ما يقرب من ثلاثين ساعة وهذا الفتى الأشيب قد لا يبلغ الثلاثين من عمره. دنوت منه أنظر إلى عمله، ثم حاولت أن أحاوره فلم يرفع رأساً وظل صامتاً فانسحبت مقتناً وخرجت إلى فناء المبنى وجلست قرب المغسل، والتقيت بتيقي مستغرقاً بلعب الورق، وكان الورق جديداً كل الجدة، وكانت أصابعه الماهرة تخفق الاثنتين والثلاثين ورقة بسرعة لا تسمع معها ركزاً. قال لي ودون أن يتوقف عن اللعب بيديه وكأنه مشغول:

— إيه يا صديقي كيف الحال؟ هل أنت مسرور في رويال؟

— أجل. ولكنني أحسست اليوم بالكدر. سأخرج من المعسكر لأشتغل اليوم قليلاً. لقد أردت التحدث قليلاً مع هذا الشخص الذي يعمل في تصليح الساعات فلم يرد علي.

— ماذا تقول يا باي؟ إن هذا الشخص لا يابه بكل ما حوله ليس له إلا ساعاته وكل ما عدا ذلك فهو هراء. والحق يقال، إنه بعد الذي جرى له، من حقه أن ينطوي على نفسه. وهذه نتيجة حتمية. تصور أن هذا الفتى — ونستطيع أن نقول عنه فتى لأنه لما يبلغ الثلاثين بعد — قد حكم عليه بالإعدام في العام الفائت لأنه كما زعموا اغتصب امرأة أحد الحراس القذرين وكان منذ زمن يتبادل معها القبلات، وهي زوجة مراقب بريتوني برتبة رقيب. وبما أنه كان يعمل عندها خادماً، فكلما ذهب المراقب إلى وظيفته في النهار كان الساعاتي يلتقي بالصبية. غير أنها ارتكبا خطأ؛ وهو أن المستهتر لم تعد تتركه يقوم بعملية غسل الملابس وكبها بل تقوم بذلك بنفسها وزوجها المخدوع الذي يعرفها كسولة وجد ذلك غريباً، فساورته الظنون ولكنه لم يجد الدليل على سوء طالعها، وحينئذ رتب خطة لمباغتتهما في الجرم المشهود، ولقتلها معاً. وقد عزم على ذلك دون أن يشعر السفينة بشيء، وغادر ذات يوم مقر حراسته بعد ساعتين من استلامه لها ودعا أحد الخفراء إلى

مصاحبه إلى المنزل مدعياً أنه يريد إهداءه قطعة من لحم (الجانبون) الذي وصله من بلدته؛ عبر الباب مختلس الخطأ، وما كاد يدخل حتى علا صوت ببغاء يصيح: ها هوذا المعلم، كما تعود أن يفعل كلما رجع الخفير إلى البيت وفي الحال أخذت المرأة تصيح: النجدة، النجدة. ودخل المراقبان الغرفة في اللحظة التي كانت فيها الزوجة تتملص من بين ذراعي السجين الذي بوغت، فقفز من النافذة، فأطلق عليه الزوج النار فأصابه برصاصة في كتفه، وفي تلك الآونة كانت الفاجرة تخدش موضع عنقها ووجنتها، وتقد مثرها.

وقع الساعاتي وهم الخفير بالإجهاز عليه فبادر الآخر إلى انتزاع السلاح منه، وتجدد الإشارة إلى أن الخفير الآخر كورسيكي وأدرك أن رئيسه قد لفق له حكاية كاذبة ولم يكن هناك أي اغتصاب، ولكن الكورسيكي لم يمرؤ أن يحدث البريتوني في ذلك فتظاهر بأنه مقتنع بالاغتصاب. حكم على الساعاتي بالإعدام.

إلى هنا يا صديقي وكل شيء عادي، ولكن ما تبع ذلك هو المهم. في معسكر المعاقين في رويال مقصلة، كل قطعة منها في مكان خاص، وفي الفناء، صفت البلاطات التي تنصب عليها المقصلة صفاً راسخاً ومستوياً.

وفي كل أسبوع كان الجلاد ومساعداه (وهما من السجناء)، يركبون المقصلة وسكيتتها وبكل ما فيها من هول ورعب ويقطعون جذعاً أو جذعين من جذوع الموز، وبهذه الطريقة يطمئنون إلى أنها في حالة جيدة وصالحة للاستعمال.

وكان الساعاتي — وهو من مقاطعة ساقوا — في زنزانة المحكوم عليهم بالموت، مع أربعة آخرين، ثلاثة من العرب وواحد صقلي، وكلهم ينتظرون جواب طلب العضو الذي قدمه المراقب الذي قام بمهمة الدفاع عنهم.

في صبيحة أحد الأيام ركبوا المقصلة، وفتحوا باب زنزانة الساعاتي فجأة، وهجم عليه الجلادون وأثقوا قدميه بحبل، وربطوا معصميه بالحبل نفسه ثم أعادوا الحبل إلى قدميه، ثم أخذوا يقصون طوق قميصه بالمقص على شكل هلال، وساروا به عند انبلاج الصبح مسافة عشرين متراً والجولا يزال أغبش. تخيل نفسك يا بابيون أمام المقصلة وجهاً لوجه موثقاً على لوح خشبي قائم بسيور جلدية. لقد ربطوه وذهبوا به ليؤرجحوا اللوح وقد تجاوز رأس المسكين حرف اللوح. وفي تلك اللحظة وصل المقدم الحالي والمسمى بالنارجيلة اليابسة، وهو ملزم بحضور التنفيذ، وكان يمسك بيده مصباحاً كبيراً وفي لحظة إضاءة المشهد تنبه إلى أن الحراس الأغبياء قد وقعوا في خطأ، إذ لم يكن الساعاتي هو المقصود إعدامه في ذلك اليوم. فصاح بارو: توقفوا، توقفوا. وكان منفعلاً إلى درجة لم يستطع معها الكلام فوقع المصباح من يده وويخ الحراس والجلادين، وفك وثاق الساعاتي بنفسه وأخيراً أصدر أمره إلى الممرض بإعادته إلى زنزنته، وطالب بالعناية به وبالبقاء إلى

جانبه وبإعطائه شيئاً من الروم وقال: وأنتم أيها الأندال! اذهبوا وأتوا برانكاسو فهو الذي جاء دوره في التنفيذ اليوم، ليس غيره. وفي اليوم التالي اشتعل رأس الساعاتي شيئاً كما رأيته اليوم.

قدم محاميه إلى وزير العدل طلباً للعفو عنه، وقد روى له ما حدث، فقال هذا العفو وحكم عليه بالسجن المؤبد، ومنذ ذلك الحين وهو يمضي وقته في تصليح ساعات الحراس. فهذه هي هوايته، إنه يراقبها طويلاً، وهكذا تجمعت هذه الساعات المعلقة على لوحة المراقبة. والآن قد فهمت بالتأكيد بأن له الحق بأن يكون متأثراً ليس كذلك؟

— بالتأكيد يا تيتي، بعد صدمة كهذه يحق له أن لا يكون اجتماعياً. إنني أرثي له من كل قلبي.

كل يوم أتعلم شيئاً جديداً في هذه الحياة الجديدة. إن المبني (آ) ملتقى الرجال المربين في ماضيهم وفي تصرفاتهم في حياتهم اليومية.

إنني لا أعمل دائماً. إنني أتوقع أن يسند إلي عمل تفريغ القمامة وهو لا يستغرق أكثر من خمس وأربعين دقيقة وانطلق بعدها في الجزيرة ويحرق لي الذهاب إلى الصيد.

هذا الصباح عند النداء للسخرة في غرس أشجار النارجيل نودي على جان كاستيلي، فخرج من الصف وقال:

— ماذا؟ أترسلونني إلى العمل؟ أنا؟

— أجل ويقول لك خفير السخرة خذ هذا المعول.

نظر إليه كارالي وقال له:

— هيا يا رجل. ألا ترى أنك تأتي من بلدك الأوفرن لتتعلم كيف تستعمل هذه

الألة الغريبة؟

— أنا كورسيكي مرسيلي. ففي كورسيكا يرمون بأدوات الشغل بعيداً وفي مرسيليا لا

يعلمون بوجودها. احتفظ بهذا المعول ودعني وشأني.

وحسباً أفادوني فيما بعد، أن هذا الخفير الشاب لم يكن على بينة من مجريات الأمور

هنا، فرفع المعول في الهواء، فصرخ مئة وعشرون رجلاً بصوت واحد.

— أيها الجيفة إياك أن تمسه وإلا قتلناك.

وصاح غراند: تفرقوا.

وعاد الجميع فدخلوا البيت دون أن يأبهوا لاستعدادات الحراس للهجوم. على حين

سار رجال البيت (ب) إلى العمل وكذلك رجال البيت (ث). وارتد اثنا عشر حارساً

ليغلقوا الباب الشبكي. وهذا أمر نادر الحدوث، وبعد ساعة كان على الباب أربعون

حارساً مسلحين بالرشيشات وعلى رأسهم المقدم المساعد ورئيس الحرس ورئيس المراقبين،

والمراقبون، إنهم جميعاً هنا باستثناء المقدم الذي كان في جزيرة الشيطان في جولة تفتيشية في

الساعة السادسة، أي قبل الحادث. قال المقدم المساعد:

— داسيلي. تفضل بمناذاة الرجال واحداً بعد واحد.

— غرانده!

— حاضر.

— اخرج.

خرج بين أربعين حارساً فقال له داسيلي: اذهب إلى العمل.

— لا أستطيع.

— هل ترفض؟

— لا. أنا لا أرفض ولكنني مريض.

— منذ متى؟ لم تكن مريضاً عند النداء الأول.

— في الصباح لم أكن مريضاً، أما الآن فإنني مريض.

نودي على ستين سجيناً فأجابوا كلهم الجواب نفسه. أما الأخير وهو الواحد والستون فقد ذهب إلى حد العصيان ولا بد أنه كان يرغب في أن يرسلوه إلى سان لوران ليمثل أمام المجلس الحربي وعندما سئل هل ترفض؟ قال: نعم. أرفض ثلاثاً.

— لماذا؟

— لأنكم دنستموني: بالتأكيد أرفض العمل لأشخاص في مثل غباوتكم.

بلغ التوتر أقصاه، فالحراس، والشبان منهم خاصة، لا يطيقون إهانة من السجناء كهذه. ولا يتظفرون سوى شيء واحد هو بادرة تهديد تتيح لهم استخدام السلاح الذي لا يزال مسدداً نحو الأرض. وكان جميع الذين نودوا عراة، وفي طريقهم إلى الزنانات كلما سقطت الأمتعة سمعت قعقعة السكاكين التي ترن على الأرض المحصبة. وفي هذه الأثناء وصل الطبيب.

— هل تفضل يا دكتور بإجراء الفحص على هؤلاء الرجال؟ فمن تبين منهم أنه غير

مريض فمآله إلى السرداب والآخرين يبقون في البيت.

— أ يوجد ستون مريضاً؟

— أجل. دكتور. ماعداً واحداً فقد رفض أن يشتغل

قال الطبيب إلي بالاول. غرانده! ما بك؟

— عندي عسر هضم، لا أقوى على هضم السجناء يا دكتور. فنحن جميعاً محكومون

بعقوبات طويلة الأمد، والغالبية العظمى مؤبداً. ولا أمل للهروب من الجزر. لذا فقد ضيقنا ذرعاً بهذه الحياة ولا نطبق احتمالها، إلا إذا كان في النظام مرونة وتفهم. ففي هذا الصباح سمح أحد المراقبين لنفسه أن يرفع مقبض المعول ليهوي به أمام الجميع على رأس واحد منا يجله الجميع، ولم يكن المراقب في حالة دفاع عن النفس، لأن السجين لم يدهده

ولم يفعل شيئاً سوى أنه رفض استخدام المعول وهذا هو السبب الحقيقي لهذا الوفاء الجماعي. ولك أن تحكم في هذا.

خفف الطيب رأسه هنيهة وفكر ثم قال:

— اكتب أيها المريض: «نظراً لوجود تسمم في الطعام الجماعي فإن المرض المراقب ملزم باتخاذ التدابير الضرورية لإعطاء جميع المبعدين الذين اعتبروا مرضى هذا اليوم عشرين غراماً من سلفات الصود. أما المبعد فلان فيرجى وضعه تحت المراقبة في المستشفى لتأكد مما إذا كان في تمرد هذا مالكا لقواه العقلية.» ثم أدار ظهره وانصرف.

صاح المقدم المساعد:

— الجميع إلى الداخل. اجمعوا حوائجكم ولا تنسوا سكاكينكم. والزمو البيت جميعكم. ولن يخرج أحد اليوم حتى حامل الخبز.

وعند الظهر أحضروا لنا بدلاً من الحساء دلواً خشبياً مملوءاً بالمسهل، سلفات الصود، وكان يحمله اثنان من السجناء المرضى، ومعهما المراقب المريض. ثلاثة فقط أجبروا على شرب الدواء. أما الرابع فقد وقع على الدلو متظاهراً بأزمة صرع مثلها أصدق تمثيل. فوقع الدلو واندلق المسهل منه وسقطت المغرفة في كل اتجاه وهكذا انتهى الحادث بتكليف رئيس المهجع بتجفيف هذا السائل المسفوح على الأرض.

أمضيت ظهيرة ذلك اليوم بالتحدث مع جان كاستيلي إذ جاء يأكل معنا، وهو يؤلف ثنائياً مع رجل من تولون يدعى لويس غرافون الذي حكم عليه بسبب سرقة فراء. وعندما حدثته عن الهروب لمعت عيناه، وقال: أوشكت في العام المنصرم أن أهرب غير أن الخطة أجهضت. وما كنت أشك في أنك رجل لا يمكن أن يكون وادعاً هنا. إنما الكلام عن الهروب هنا في الجزر كأنه من اللغة العبرية. ولحظت من جهة أخرى أنك لم تختبر بعد سجناء الجزر وكما ترى عينك، من كل مئة سجين، ثمانون يعيشون سعداء نسبياً بالإقامة هنا، وما من أحد يشي بك مهما تفعل. يقتل أحدهم فلا يجدون شاهداً، وكذلك بالنسبة للسرقة، مهما يفعل الفرد، يلتف حوله الآخرون كتلة واحدة للدفاع عنه، وسجناء الجزر لا يخشون سوى شيء واحد هو أن ينجح أحدهم بالهروب، فحينئذ تنقلب حياتهم الوادعة نسبياً حيث يعود التفتيش المستمر، ويتوقف لعب الميسر ولعب الشطرنج والداما، وتنقطع أنغام الموسيقى، وتطمح كل الأدوات التي يعثر عليها أثناء التفتيش. فلا كتب ولا أي شيء آخر، حتى ولا أشغال فنية، يلغى كل شيء على الإطلاق، يجري التفتيش بلا انقطاع. يختفي السكر والزيت والبفتيك والزبدة. وفي كل مرة يكون فيها الهروب ناجحاً في مغادرة الجزر يوقف في الأرض الكبرى في ضواحي كورو. أما بالنسبة إلى الجزر فإن الهروب إذا نجح، استطاع الهاربون الخروج من الجزر، وحينئذ تطبق العقوبات بحق الحراس الذين ينتقمون من الجميع.

كنت أصغي بكل إحساسي. لم أر الأمور على هذه الصورة قط. ثم تابع كاستيلي قائلاً:

— والخلاصة. حينما تضع في ذهنك خطة للهروب احذر موطني قدميك واتشد. وفكر عشر مرات قبل أن تتعامل مع شخص لاتثق بإخلاصه لك كل الإخلاص.

جان كارالي لص بيوت محترف، وهو يتمتع بإراحة وذكاء نادرين، غير أنه يكره العنف ويلقب بالتحفة. إنه لا يستعمل إلا صابون مرسيليا. فإذا استعملت أنا صابون بالموليف قال لي: لعمري إن فيه رائحة الصنة أنت تغتسل بصابون فاجرة. ولكنه مع الأسف يبلغ من العمر الثانية والخمسين ولكن فعاليته كالحديد تسر الناظرين. قال لي:

أنت يا بابيون تشبهني حتى لكأنك ابني. إن الحياة في الجزر لانهك. تنغذى جيداً لأن الغذاء ضروري لكي تبقى قوياً، ولم تخلق لتعيش حياتك كلها في الجزر. أهنتك على هذا، وليس بين جميع السجناء أربعة يفكرون تفكيرنا وخاصة في الهروب. صحيح أن هناك رجالاً يدفعون أموالاً طائلة للخلاص من الحجر عليهم وليذهبوا إلى الأرض الكبرى، ليهربوا من هناك. إنما من هنا لا يؤمن أحد بالهروب.

وأسدَى إليّ كاستيلي العجوز النصائح التالية: تعلم الانجليزية كلها استطعت إلى ذلك سبيلاً، تكلم الإسبانية مع إسباني. ثم أعارني كتاباً لتعلم الإسبانية في أربعة وعشرين درساً، ومعجماً فرنسياً إنجليزياً. وهو صديق حميم لرجل مرسيلي اسمه غاردس الذي عرف منه لمحة عن الهروب، لأنه هرب مرتين مرة من السجن البرتغالي، والمرة الثانية من الأرض الكبرى، وله وجهة نظر في الهروب من الجزيرة. وكذلك جان كاستيلي، وغرافون التولوني له أيضاً طريقته في النظر إلى الأمور. ولكن هذه الآراء كلها تتفق. ومنذ ذلك اليوم جمعت أمري على أن أخطط لنفسِي، ولن أتكلم عن الهروب أبداً. إنه لأمر عسير إنما ليس من ذلك بد.

إن النقطة الوحيدة المتفق عليها هي أن اللعب بالميسر مهم في سبيل الحصول على المال وخسب وينطوي على خطر كبير. وفي أية لحظة قد يجد المرء نفسه مكرهاً على العراك بالسكين مع أول قادم صلف مغتر. ثلاثة رجال هم رجال أفعال، وهم حقاً ذوو بأس شديد بالنسبة إلى أعمارهم، وهم: لويس غرافون وعمره أربعون سنة، وغرادس ويقارب الخمسين، إضافة إلى كاستيلي.

سنحت لي بالأمس مساء فرصة لتعريف كل من في المهجع بطريقي في النظر إلى الأمور وفي التصرف: رجل من (نيم) تحدى شاباً تولوزياً ودعاه إلى المباراة بالسكين. وكان التولوزي يلعب بالسردين، والنيمي القوي المراس يلعب بالكبش. وقف الكبش وسط الممر عاري الصدر وهو يقول: إما أن تدفع خمسة وعشرين فرنكاً عن كل لعبة بوكر أو أن لا تلعب أبداً.

— لم يسبق لأحد أن دفع لآخر شيئاً. لم تأخذ مني، ولا تهاجم رواد اللعب على الطريقة المرسلية؟

— ليس لك أن تعرف السبب. فلما أن تدفع وإما أن تنسحب وإما أن تقا تل.

— لا. لن أقاتلك.

— هل تواضعت؟

— نعم. لا أجازف بحياتي بطعنة سكين من يد متغطرس مثلك لم يذهب قط في هروب أما أنا فرجل هروب ولست هنا لأقتل أحداً أو يقتلني أحد.

كنا جميعاً نترقب ما سوف يحصل. قال لي غرانده:

— حقاً إنه شجاع، هذا الصغير رجل هروب. وإنه لمن المحزن أن لانستطيع قولاً.

فتحت موساي ووضعته تحت فخذي وجلست على سرير غرانده. وتابع الكباش قوله.

— إذن علام عولت أيها المتواضع أتدفع أم تنسحب من اللعب؟ جواب.

وتقدم خطوة نحو سردين، فصحت به:

— اخرس أيها الكباش. دع هذا الشخص وشأنه.

قال لي غرانده: أأنت مجنون يا بابيون؟

ودون أن تحرك من مكاني والسكين تحت ساقي الأيسر ومقبضها بيدي، قلت:

— لا لست مجنوناً، واسمعوا جميعاً ما أقوله لكم. وأنت يا كباش قبل أن أقاتلك، ولسوف أفعّل إذا اقتضى الأمر حتى قبل أن أتكلم، دعني أقول للجميع أنه منذ وصولي إلى هذا البيت، وعددنا يربو على المئة، لاحظت وأنا أحس بالعار أن أحداً منكم لا يقدر شأن الهروب وهو أجل الأشياء وأجدرها بالنظر وهي الحقيقة الوحيدة، فكل رجل أنس في نفسه بأنه رجل هروب، وفي وجدانه ما يكفي للمخاطرة بحياته في سبيل ذلك فهو رجل ويستحق التبجيل، بغض النظر عن كل شيء. فمن منكم يرى خلاف ذلك؟ (صمت). ففي شريعتكم ينقص مبدأ أولي وأساسي، وهو ليس ضرورة احترام رجال الهروب وحسب بل ضرورة تقديم المساعدة لهم ودعمهم. لا إكراه في الهروب، ولا اعتراض على فراركم باستمرار حياتكم هنا وإذا لم تكن لديكم الجرأة الكافية على محاولة حياة جديدة، فكرموا على الأقل رجال الهروب التكريم اللائق بهم. ومن ينس هذا القانون فليتوقع أوحم العواقب. والآن يا كباش إذا كنت مصراً على النزال فانا قادم.

ثم وثبت إلى وسط القاعة، والسكين بيدي، فالتقى الكباش سكينه وقال:

— أنت على حق يا بابيون. أنا أيضاً لا أود منازلتك بالسكين وإنما بالأيدي حتى

لاطاطي رأسي.

تركت مديني مع غرانده وتلاكنا مثل كلبين ما يقرب من عشرين دقيقة، وفي نهاية الأمر غلبته بكلمة موفقة في رأسه. ثم ذهبنا معاً إلى المغاسل، فغسلنا وجوهنا مما سال

عليها من دماء. قال لي الكباش:

— في الحق إن المرء في هذه الجزر ليصاب بالخبل. أنا هنا منذ خمسة عشر عاماً، ولم أنفق ألف فرنك للخلاص من الجحر. ياللعار.

عندما رجعت إلى مجموعتي لأمفي غرانده وكالكاني: «ألم تكن مخطئاً في إثارة الجميع وإهانتهم على النحو الذي فعلت؟ ولا ندري بأية أعجوبة لم يقفز إلى الحلبة ليقاتلك بسكينه؟

— لا يا صاحبي، ليس في الأمر ماهو عجيب. عندما يتكلم أحدنا وهو على صواب فكل رجل من وسطنا يؤيده فيما قال.

قال كالكاني: حسناً، ولكن اعلم أنه ما كان ينبغي أن تبالح بالعبث بهذا البركان.

جاءني في تلك الأمسية رجال كثر يتحدثون معي، يتزلفون إلي، يخوضون في أي موضوع ويقولون قبل أن يفارقوني نحن على وفاق معك فيما قلته يا بابي.

فهذه الحادثة قربتني من الرجال، وبدءاً من هذه الساعة عدني الرجال واحداً من وسطهم ولكن لا انحنى للأمور ولا أقبلها دون تحليل ومناقشة. ولاحظت أنني عندما أتولى اللعب تقل الخصومات، وأمرهم فيصعدون.

رائد اللعبة كما قلت يختص بخمسة بالمئة في كل جولة رابحة. يجلس على كرسي وظهره نحو الجدار ليحمي نفسه من أي قاتل، والقتل ممكن في كل لحظة، وعلى ركبتيه غطاء يستر سكينه الكبيرة المفتوحة دوماً، ويتحلق حوله ثلاثون أو أربعون أو خمسون لاعباً، من جميع المناطق الفرنسية وفيهم الكثير من الأجانب العرب.

اللعبة سهلة، فهناك أمين الصندوق، وقاطع الورق، وفي كل مرة يخسر فيها أمين الصندوق يتحول الورق إلى جاره، وعدد الأوراق اثنان وخمسون، وقاطع الأوراق يوزعها ويحتفظ بورقة مستورة، ويخرج أمين الصندوق ورقة ويرمي بها على الغطاء المفروش على الأرض وحينئذ يبدأ اللعب. وهكذا يكون اللعب على القطع أو على أمانة الصندوق. عندما يكون عدد المتبارين قليلاً يبدأ بسحب الأوراق واحدة بعد واحدة. والورقة التي لها نفس قيمة إحدى الورقتين المطروحتين تخسر. مثال ذلك: لنفرض أن قاطع الورق قد ستر ورقة عليها صورة البنت، وكان أمين الصندوق قد كشف ورقة ذات خمس نقاط. فإذا سحب صورة البنت قبل صورة الخمس فإن القطع يخسر، وإذا كان العكس فإن الصندوق هو الذي يخسر فعلى رائد اللعب أن يعرف حصيلة كل مقامر، ويتذكر من القاطع، ومن أمين الصندوق، ليعرف لمن تعود الأرباح، وليس ذلك بهين، وتجب حماية الضعفاء من الأقوياء، الذين يحاولون دوماً الغش والخداع، وعندما يتخذ رائد اللعب قراراً في حالة مريبة يجب أن يتقبل الجميع قراره بدون لغو.

قتل هذه الليلة إيطالي يدعى كارلينو. كان يعيش مع فتى اتخذته عشيقاً. وكانا يعملان معاً في حديقة وكان يحس، على ما يبدو، أن حياته معرضة للخطر، فعندما ينام

كان الفتى يسهر عليه والعكس بالعكس. وقد وضعا تحت سريرهما علماً فارغة لئلا يستطيع أحد التسلل إليهما دون أن يحدث ضجة. ومع ذلك قتل من تحت السرير. وتبع صرخته مباشرة صخب شديد أحدثته اللعب الفارغة التي دحرجها القاتل.

كان غراند يقيود لعبة مرسيلية. وحوله أكثر من ثلاثين لاعباً. وأنا كنت على مقربة من مكان اللعب اتحدث. وتوقف اللعب بعد سماع الصرخة وضوضاء اللعب الفارغة، ونهض كل واحد يتساءل عما حدث. صديق كارلينو لم ير شيئاً، وكارلينو لفظ أنفاسه. سأل رئيس البيت عما إذا كان يجب استدعاء المراقبين.

— لا. غداً عند التفقد سيكون الوقت مناسباً لإعلان ذلك ما دام الرجل قد مات، فلا حيلة لنا من أجله.

وتكلم غراند فقال:

لم يسمع أحد شيئاً، وكذلك أنت أيها الصغير (موجهاً الخطاب إلى صديق كارلينو) غداً عندما تصحو من النوم ستلاحظ أنه ميت.

بدأ اللعب وعاد اللاعبون إلى صياحهم: قاطع، لا، صندوق الخ.. وكان شيئاً لم يحدث كنت أنتظر بفارغ الصبر أن أرى ماذا يحصل عندما يكتشف الحراس جريمة قتل.

يقرع الجرس عادة في الساعة الخامسة والنصف ويقرع ثانية في السادسة عند تقديم القهوة، في المرة الثالثة يخرج الجميع للتفقد كما هي الحال في كل يوم. أما اليوم فقد اختلف الأمر. فعند الجرس الثاني قال رئيس البيت للحارس المرافق لحامل القهوة:

— أيها الرقيب لقد قتل رجل.

— من هو؟

— كارلينو.

— حسناً.

— وبعد ست دقائق وصل ستة من الحراس.

— أين الميت؟

— هناك.

ورأوا الخنجر مغروزاً في ظهره بعد أن اخترق قماش السرير الأرجوحى، فسألوه.

— احملوه.

فحمله رجلان على محفة. طلع النهار. فقرع الجرس الثالث، ولا يزال الخنجر بيد رئيس المراقبين ملطخاً بالدم. فصاح أمراً:

— ليخرج الجميع على أهبة الاستعداد للتفقد. ولا نرضى اليوم بعذر مريض نائم.

فخرج الجميع، ويتواجد عادة عند التفقد المقدمان ورؤساء المراقبين. فأجري التفقد وعندما وصلوا إلى اسم كارلينو أجاب رئيس المهجع: مات هذه الليلة ونقل إلى معرض الجثث. قال الحارس الذي يجري التفقد: حسناً.

وبعد أن أجابه الجميع بكلمة (حاضر) رفع رئيس المعسكر السكين في الهواء وسأل.
— هل يعرف أحدكم هذه السكين؟

فلم يجب أحد.

— هل فيكم من رأى القاتل؟

صمت مطبق.

— إذن ما من أحد يعرف شيئاً كما هي العادة. مروا أمامي مردفين وأيديكم مبسوطة
ثم ليذهب كل منكم إلى عمله.

— ياسيدي المقدم! الشيء نفسه دوماً، لاشيء يكشف عن فاعل الطعنة.

قال المقدم: خطة مدبرة. احفظ السكين واربط بها ورقة تشير إلى أنها استخدمت في
قتل كارلينو.

هذا كل شيء وعدت إلى المهجع واستلقيت لأنام إذ لم يغمض لي جفن طول
الليل. وبينما أوشك النوم يعقد أجفاني قلت لنفسي: إن السجين ليس شيئاً مهماً حتى
ولو أنه قتل في جين أنهم يأبون أن يزعموا أنفسهم في البحث عن الحقيقة. السجين في
نظر الإدارة لاشيء على الإطلاق فهو أدنى من كلب.

قررت أن أبدأ العمل يوم الاثنين وهو تفريغ القاذورات. كنت أخرج في الساعة
الرابعة والنصف مع رجل آخر لتفريغ الأوعية، أوعية المني (آ)، والقاعدة المتبعة في إفراغها
أن ننزل إلى البحر، ولكننا كنا ندفع مالاً لراعي الجواميس فينتظرننا في مكان ما من الفناء
حيث توجد قناة مصنوعة من الإسمنت تنحدر نحو البحر وهكذا كنا نفرغ القاذورات في
أقل من عشرين دقيقة في هذه القناة ونلقي وراءها بثلاثة آلاف لتر من ماء البحر مجلوبة
في برميل ضخمة وذلك لدفع الأوساخ بعيداً.

رحلة المياه هذه كنا ندفع ثمنها عشرين فرنكاً في اليوم للجواميسي الزنجي اللطيف.
وكان يساعدنا في انزال كل شيء مستعيناً بمقشة قاسية جداً. ولما كان هذا هو يومي الأول
في نقل الأوعية على قضيين خشبيين فقد شعرت بالتعب في معصمي. ولكن لم البث أن
تعودت هذا العمل.

صديقي الجديد خدوم جداً. ومع ذلك فقد أُنذرتي كالكانّي بأنه رجل في غاية
الخطورة. فقد ارتكب في الجزر سبع جرائم قتل. أما طريقته في تدبير المال فهي في بيع
الغائط.

والواقع أن كل بستاني يصنع سماده، فيحضر لهذا الغرض حفرة يضع فيها أوراقاً
يابسة وأعشاباً، وهذا الزنجي يحمل بصورة غير مشروعة وعاء أو وعاءين من الفضلات
البشرية إلى الحديقة. وبطبيعة الحال إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وحده. وأنا مكروه على
مساعدته لأنني أعلم أنها غلطة جسيمة، إذ قد تنتشر عدوى الزحار بتدنيس الخضار
فتصيب المراقبين والسجناء على حد سواء. فعزمت على أن أمنعه من فعل ذلك يوماً، حين
توطد بيننا الصداقة أكثر، وذلك بأن أعرضه ما يخسره من هذه التجارة. وهو من ناحية

أخرى ينقش قرون الجواميس، أما فيما يتعلق بالصيد فقد قال بأنه لا يستطيع أن يعلمني. ولكنني سأجد على الرصيف شابار أو أي أحد غيره يساعدني على تعلم الصيد. أنا إذن نَزَّاح^(١) فبعد أن أنتهي من عملي، استحم وأرتدي بطلاً قصيراً (شورت) وأذهب كل يوم إلى الصيد في حرية تامة، وحيث يطيب لي، وليس علي من التزام سوى التواجد ظهراً في المعسكر. وبفضل شابار لم يكن يعوزني شص ولا قسبة. وعندما أصعد كنت أحمل سلكاً معلقاً عليه أسماك من ثقب أذانها وكثيراً ما تناديني نساء المراقبين من بيوتهن وكلهن يعرفن اسمي فيقلن:

— بابيون! بعنا كيلو غرامين من هذا السمك.

— هل أنتن مريضات؟

— لا.

— هل عندكن ولد مريض؟

— لا

— إذن لا أبيعكن من سمكاتي.

لقد اصطدت عدداً كبيراً قدمته لرفاقي في المعسكر، ولكن أقايفه بالخبز الطويل أو الخضار أو الفاكهة وفي جميعتي كنا نأكل سمكاً كل يوم مرة على الأقل. وذات يوم كنت عائداً ومعني اثنا عشر سرطاناً بحرياً، وثمانية كيلو غرامات من السمك، ومررت أمام دار المقدم بارو، فقالت لي امرأة بدينة: إنك موفق في صيدك رغم أن البحر هائج، ولم يستطع أحد أن يقع على صيد، ولم أذق طعم السمك، منذ خمسة عشر يوماً، خسارة أنك لا تبيع منه شيئاً وقد علمت من زوجي أنك ترفض بيع نساء المراقبين.

— هذا صحيح يا سيدتي. أما أنت فشيء آخر.

— لماذا؟

— لأنك سمينة وربما كان اللحم مضراً بصحتك.

— حقاً. قيل لي لا تأكلي سوى الخضار والسمك المسلوق قليلاً. أما هنا فغير ممكن.

— تفضلي يا سيدتي خذي هذه السرطانات البحرية وهذه السمكات.

واعطيتهما ما يقارب الكيلو غرامين من السمك.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أعطيها في كل صيد سمين سمكاً يعينها على اتباع راتب غذائي منظم (ريجيم) ولا تنطق سوى كلمة شكر وهي تعلم أن كل شيء في الجزيرة يباع، وهي على حق، لأنها أحست بأنها لو أعطتني مالاً لقابلت عطاءها بالاستياء. وغالباً ما كانت تدعوني إلى الدخول إلى دارها وتقدم لي بنفسها كأساً من النبيذ الأبيض، وإذا جاءها من كورسيكا مشروب فيغاتي أهدتني منه. لم تسألني يوماً شيئاً عن حياتي الماضية، إلا في عبارة

(١) هو الذي يفرغ أوعية البراز.

كانت منها زلة لسان إذ قالت يوماً بمناسبة الحديث عن السجن: صحيح أنه لا يمكن الهروب من الجزر، ولكن البقاء في جوها السليم الصحي خير من أن يموت المرء في العفن كالدابة في الأرض الكبرى.

وهي التي شرحت لي أصل تسمية الجزر، قالت: حصلت جائحة وباء الحمى الصفراء في كاين فالتجأ الآباء البيض والأخوات من أحد الأديرة إلى جزر سالو ونجوا كلهم فسميت بجزر سالو (أي السلام).

وبفضل الصيد كنت أذهب إلى كل مكان. مضى على اشتغالي بالنزح ثلاثة أشهر وعرفت الجزيرة أكثر من أي شخص آخر. ذهبت أترصد الحداثق بحجة تقديم السمك مقابل الخضار والفواكه. بستاني الحديقة القائمة على طرف مقبرة المراقبين هو ماتيو كاربونيري وهو من جمبعتي. إنه يعمل في البستان وقلت لنفسني: يمكن في المستقبل أن ندفن في بستانه طَوْفاً أو نصنعه. فبعد شهرين سيرحل المقدم وأكون في حل مما عاهدته عليه، وأنصرف كما أشاء.

لقد نظمت نفسي: فأنا نزاح بالاسم. أخرج كما لو أنني ذاهب للتفرغ وفي الواقع كان المارتينيكي هو الذي يفعل هذا بدلاً عني، مقابل مبلغ من المال طبعاً. توددت إلى رجلين عديلين محكومين بالسجن المؤبد، هما ناريك وكتينه وبطلق عليهما «العديلان» ويقال بأنهما اتبها بتحويل خازن إلى لبنة من الإسمنت بعد قتله. رأهما بعض الشهود يحملان في عربة تدفع بالأيدي لبنة إسمنت ثم يلقيان بها في نهر المارن أو في نهر السين. وحدد التحقيق بأن الخازن كان قد ذهب إليهما لقبض سند ولم يره أحد بعد ذلك. فأنكرا بإصرار، وفي السجن كانا أيضاً يدعيان البراءة. ومع ذلك فإن هم لم يعثروا على الجسم فقد عثروا على الرأس مغلفاً بمنديل كبير، وقد وجد في حوزتها مناديل من نفس اللحمة والسدى كما أفاد الخبراء ولكنها والمحامين أثبتوا أن آلاف الأمتار من هذا القماش قد صنعت مناديل، ولدى الكثيرين مثلها وأخيراً حكم على العديلين بالسجن المؤبد، وعلى زوجة أحدهما، وهي أخت زوجة الثاني، بعشرين عاماً في السجن الانفرادي. ولقد استطعت الاتصال بهما. وبما أنهما بناءً ان فلها حق الدخول إلى المعمل والخروج منه وربما تمكنا من إخراج قطعة من الخشب بعد قطعها وهذا ما ينفعني في صنع الطوف. بقي علي اقناعهما

قابلت بالأمس الطبيب، وكنت أحمل سمكة لا يقل وزنها عن عشرين كيلو، وهي دقيقة من النوع المسمى ميرو. صعدنا نحو الفناء، ثم جلسنا متقاربين فقال لي: — يمكن أن يصنع من رأس هذه السمكة حساء لذيذاً. فقدمت له مع قطعة من لحم السمك كبيرة فادهشته هذه البادرة فقال: ألا زلت حاقداً علي يا بابيون؟ — ما فعلت هذا من أجل نفسي يا دكتور بل لأنني مدين لك إذ فعلت المستحيل من أجل صديقي كلوزيو. ثم تحدثنا قليلاً وبعد ذلك قال: — أنت ترغب في الهروب اليس كذلك؟ لست مجرماً وإنما تبدو شيئاً آخر.

— أنت على صواب، فانا لا أنتمي لهذا السجن بل أنا ضيف عليه وحسب، فضحك، وحينئذ قلت:

— دكتور! ألا تعتقد أن الإنسان يمكن أن يولد من جديد؟

— بلى.

— هل بإمكانك الافتراض أنني أستطيع خدمة هذا المجتمع دون أن أكون خطراً عليه، وأغدو مواطناً شريفاً؟

— أو من بذلك كل الايمان.

— إذن لم لاتساعدني على بلوغ ذلك؟

— كيف؟

— بأن أخرج من الحجر بحجة أنني مصاب بمرض السل. وحينذاك أكد لي شيئاً كنت سمعت عنه.

— إن ذلك مستحيل وأنصحك بأن لاتقدم على هذا الفعل، فإنه في غاية الخطورة. إن الإدارة لاتخرج أحداً لمرض إلا بعد أن يمضي على الأقل عاماً في الجناح المخصص لمرضه.

— لماذا؟

— من الخزي والعار، التصريح بذلك، أعتمد أن الهدف من ذلك أن يعلم الشخص المعني، إذا كان متمرضاً، أن فرص العدوى متاحة له بمساكنته هؤلاء المرضى ولكي يصبح في النهاية مريضاً مثلهم. إذن لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

ومنذ ذلك الحين أوشكت عرى الصداقة تتوثق بيننا حتى جاء يوم كاد يقتل فيه صديقي كاربونييري. وفي الحقيقة كان ماتيو كاربونييري على علاقة عادية معي، وكان قد ارتضى أن يكون طباًخاً عند رؤساء المراقبين. كنت أدرس امكانية سرقة ثلاثة براميل، خل أو خر أو زيت، وإيجاد وسيلة لربطها ثم الهروب عليها بحراً. وبدهي أن ذلك سيكون بعد سفر بارد. ولكن ذلك صعب جداً، إذ يجب سرقة البراميل ونقلها إلى البحر وربطها، كل ذلك في ليلة واحدة، دون أن يرانا أو يسمعا أحد، ولايتأت هذا إلا في ليلة عاصفة ممطرة. ولكن من الصعب في مثل هذا الجو إنزال طوف في البحر الذي لا بد أن يكون ليلتشد هائجاً.

كاربونييري إذن طباًخ. أعطاه رئيس الأواني ثلاث أرانب لتحضيرها للغد، وهو يوم أحد، أرسل كاربونييري أرنباً لأخيه، على الرصيف البحري، واثنين لنا، وكانت مسلوخة لحسن الحظ، ثم قتل ثلاث قطط سمينة وطبخها، ومن سوء طالعنا أن الطبيب كان مدعواً لتناول الطعام، فبعد أن تذوق الأرنب قال:

— أهنتك يامسيو فيلودوري على هذا الطعام. حقاً إن هذا القظ لذيق.

— لاتسخر مني يا دكتور، نحن نأكل ثلاث أرانب جميلة.

قال الطبيب وهو عنيد كالبعغل: هذا قط. انظروا إلى الأضلاع التي أكل منها، إنها مبسطة، على حين أن أضلاع الأرنب مستديرة: إذن ليس هناك أي التباس نحن نأكل هرة.

قال الكورسيكي: اسم الله. كريستافو. أفني بطني قط؟ وخرج ركضاً نحو المطبخ ووضع مسدسه تحت أنف ماثيو وقال:

— عيثاً تحاول أن تكون نابوليونياً، سأقتلك لأنك أطعمتني قطاً.

وكان الشرر يتطاير من عينيه وكأنه مجنون.

فأجابه كاربونييري دون أن يفهم كيف عرف ذلك.

— إذا كنت تسمي ما أعطيتني قططاً فليس الذنب ذنبي.

— أنا أعطيتك أرانب.

— حسناً، وهي التي هياتها لك. انظر إلى جلودها ورؤوسها فهي لاتزال هنا.

نظر المراقب إلى جلود الأرانب ورؤوسها مذهولاً.

— أنظن أن الدكتور لايعي ما يقول؟

قال كاربونييري وهو يتنفس: هل الدكتور قال ذلك؟ إنه يسخر منكم، قل له ليس

هذا مزاحاً يتعاطاه.

عاد فيليدوربي إلى قاعة الطعام هادئاً مقتنعاً وقال للطبيب: تكلم قل ما تشاء، فقد

لعبت الخمرة برأسك، سواء أكانت الأضلاع التي بين يديك منبسطة أم مستديرة، فانا

أعلم أن ما أكلته إنما هي أرانب. لقد رأيت فراءها ورؤوسها الثلاثة.

تخلص ماثيو من هذه الورطة ولكنه آثر أن يقدم استقالته بعد بضعة أيام.

اقترب اليوم الذي أستطيع فيه التحرك. عدة أسابيع ويمضي بارو. ذهبت بالأمس

لأرى زوجته البدينة، ولنقل إنها خفت وزناً بفضل الراتب الغذائي المقتن الذي اتبعته

بأكل السمك والخضار. هذه المرأة الشهمة أدخلتني دارها لتقدم لي زجاجة كانكينا. وكان

عندها في الصالة صناديق أوشتكت على الامتلاء. فهم يعدون أنفسهم للرحيل. قالت لي

المقدمة (كما يسميها الناس): لا أدري كيف أشكرك على ما أبديت من التفات نحوني في

الاشهر الأخيرة. أذكر لك أياماً كانت بخيلة بالصيد، فقدمت لي كل ما استطعت

اصطياده. أشكر لك كثيراً. بفضلك تحسنت صحتي ونحلت أربعة عشر كيلو غراماً.

فماذا أفعل لاعبر لك عن اعترافي بصنيعك؟

— أريد شيئاً صعباً عليك يا سيدتي: أن تفوزي لي ببوصلة جيدة دقيقة وصغيرة

الحجم.

— ليس هذا شيئاً ذا شأن، وليس كثيراً ما تطلبه يا بابيون ولكن فترة ثلاثة أسابيع

فقط، سيكون ذلك علي عسيراً.

وقبل سفرهم بشمانية أيام غاظ هذه السيدة النبيلة أن لاتوفق إلى الحصول على

البوصلة الجيدة. فتلطفت، واستقلت سفينة وذهبت إلى كاين وعادت بعد أربعة أيام وفي

حوزتها بوصلة فاخرة ضد المغناطيس.

المقدم والمقدمة بارو ذهباً هذا الصباح. وكان بالأمس قد سلم القيادة إلى مراقب من نفس رتبته وهو من أصل تونسي ويدعى برويه. والخبر الطيب هو أن المقدم الجديد عهد إلى ديبغا أن يبقى في منصب المحاسب العام، وهذا أمر مستحسن بالنسبة للجميع، وبخاصة لي. وفي خطابه للسجناء المصطفين على شكل مربع في الفناء الواسع، ترك في النفوس انطباعاً عاماً بأنه حيوي جداً وذكي جداً. وقال فيما قال: "وبدءاً من هذا اليوم أتسلم قيادة الجزر ولما كنت قد لاحظت أن أساليب سلفي قد آتت أكلها، فلا أرى مسوغاً لتغيير ما هو موجود. وإذا كنتم في سلوككم لم تجبروني على ذلك، فلا أرى ضرورة لتعديل حياتكم.

رأيت ارتحال المقدمة وزوجها بفرح معبر بعد انتظار مرهق، رغم أن هذه الشهور الخمسة قد مضت عاجلة لم أكد أشعر بها. هذه الحرية المزيقة التي يتمتع فيها السجناء في الجزر باللعب والصيد والمحادثة والمعارف الجديدة، والخصومات، والمعارك، كلها مصارف للشجر ذات أثر ولا تترك مجالاً للسام.

ومع ذلك لم أترك نفسي تنخدع بهذه البيئة، وكلما اتخذت صديقاً أطرح على نفسي هذا السؤال: هل يكون مؤهلاً للهروب، أو هل هو على مستوى تقديم العون لآخر في تحضير هروبه؟

لم أر إلا هذا: الهروب وحدي أو مصحوباً والمهم الفرار. هذه هي الفكرة الثابتة التي لا أحدث عنها أحداً كما أوصاني جان كوستيلي، ولكنها تضيق علي الحصار. ولسوف أحقق هدفي الأسمى وهو الهروب.

جزر سالو طوف في قبر

في خمسة أشهر، تعرفت عل أصغر زوايا الجزر، وقناعتي الآن هي أن الحديقة المجاورة للمقبرة حيث كان يشتغل صديقي كاربونييري - وهو الآن ليس فيها - هي أنسب وأمن مكان لصنع الطوف. لذا طلبت من كاربونييري أن يعود إلى الحديقة ولكن بدون معاون. وبمساعدة من ديفا أعيد إلى الحديقة.

لدى مروري هذا الصباح أمام منزل المقدم الجديد، كان سفود^(١) السمك معلقاً بخيط معدني. وسمعت السجين الشاب خادم الأسرة يقول للمرأة الشابة هو ذا أيتها المقدمة، هو الذي كان يأتي بالسمك كل يوم لمدام بارو. وسمعت الشابة السمراء الجميلة، وهي من النوع الجزائري، البرونزية البشرة، تقول له: إذن هذا بابيون؟ وتوجهت نحوي وقالت: لقد أكلت ما قدمته مدام بارو من سراطين البحر اللذيذة، والتي كانت من صيدك. ادخل الدار واشرب قدحاً من النبيذ وكل قطعة من جبن الماعز الذي وصلني من فرنسا.

- لا. شكراً لك يا مدام.

- لماذا؟ كنت تدخل على مدام بارو، ولا تدخل علي؟

- ذلك أن زوجها سمح لي بذلك.

- يا بابي زوجي يأمر في المعسكر، وأنا صاحبة الأمر في البيت. أدخل ولا تخف.

فشعرت بأن هذه الجميلة السمراء ذات عزم وحزم وربما كانت نافعة أو خطيرة. فدخلت. قدمت لي على المائدة في غرفة الطعام، طبقاً من اللحم المدخن، وجبناً.

(١) قضيبي معدني يشك فيه اللحم (سيخ).

وجلست تجاهي بدون كلفة، وصبت لي الخمر ثم القهوة، والروم اللذيذ من جامايكا، ثم قالت لي:

— بابيون! أتيح للسيدة بارو الوقت لكي تحدثني عنك، رغم انشغالها بتحضير أمتعة السفر والتحضير لقدومنا. وعلمت أنها المرأة الوحيدة التي تحصل منك على سمك، وأرجو أن تكرميني كما كرمتها.

— فعلت هذا لأنها كانت مريضة، وأنت كما أرى في عافية تامة.

— أنا لا أكذبك. أجل صحي جيدة ولكنني من مرفأ بحري وأحب السمك حباً جماً، والذي يضايقني أيضاً أنني علمت أنك لا تبيع السمك، وهذا ما يحصر الصدر والخلاصة، اتفقنا على أن أحضر لها سمكاً.

كنت منصرفاً إلى التدخين بعد أن أهديتها ثلاثة كيلو غرامات من السمك وستة من السراطين البحرية، حين حضر المقدم، فلما رأي قال: — لقد أفهمتك يا جوليت أنه فيها عدا الخادم لا ينبغي لأحد من السجناء أن يدخل هذا البيت.

فنهضت، فقالت: ابق جالساً — إن هذا السجين هو الذي أوصتني به مدام بارو قبل ذهابها إذن ليس لك أن تقول شيئاً ولن يدخلن البيت رجل سواه، ومن ناحية أخرى فإنه يحضر لي السمك كلما احتجت إليه.

— لا بأس. ما اسمك؟

نهضت لأجيب، فوضعت جوليت يدها على كتفي، وأجبرتني على القعود ثانية وقالت:

— هنا بيتي، والمقدم لم يبق المقدم، بل زوجي برويه.

— شكراً لك يا مدام. اسمي بابيون.

— ها. قد سمعت عنك وعن هروبك منذ ثلاث سنوات من مستشفى سان لوران.

— ماروني. هذا وإن أحد المراقبين الذي ضربته على رأسه ليس سوى ابن أخي وابن أخت هذه التي تحميك. وهنا ضحكت جوليت ضحكة كتغريد الطير وقالت:

— إذن أنت الذي دمغت غاستون؟ إن هذا لن يبدل شيئاً من علاقتنا.

فقال لي وهو لا يزال واقفاً: إن عدد جرائم القتل والاعتقال التي ترتكب في الجزيرة كل سنة، لا يصدق. فهي أكثر مما يحصل على الأرض الكبرى. كيف تفسر ذلك يا بابيون؟

— أيها المقدم! بما أن الرجال هنا لا يستطيعون الهروب فقد غدوا شرسين يعيش بعضهم مع بعض سنوات طوالاً، ومن الطبيعي أن تتولد أحقاد أو تنعقد صداقات لا تنفصم عراها، ومن جانب آخر فإن نسبة ضئيلة من القتلة، تقل عن خمسة بالمائة، ينكشف أمرها، مما يجعل القاتل واثقاً من الإفلات من العقوبة.

— تعليلك منطقي. منذ متى وأنت تمارس الصيد؟ وما العمل الذي تقوم حتى تحصل على حق الصيد؟

— إنني نزّاح. أنني عملي في السادسة صباحاً فيتسع لدي الوقت للصيد.
قالت جوليت: وبقيّة النهار؟

— أنا ملزم بالرجوع إلى المعسكر في الثانية عشرة ظهراً، وأستطيع الخروج ثانية في الساعة الثالثة وإلى السادسة. ومن المزعج أن لا أستطيع الصيد أحياناً في ساعات المد والجزر.

قالت جوليت: سوف تعطيه إذنًا خاصاً، أليس كذلك يا محبوبي؟ من الساعة السادسة صباحاً وحتى السادسة مساءً وهكذا يستطيع الصيد متى شاء.
— موافق.

غادرت المنزل مغتبطاً بهذا التصرف، لأن هذه الساعات الثلاث ثمينة، فهي وقت القيلولة، ومعظم المراقبين ينامون في تلك الفترة، ومن هنا تكون المراقبة متراخية.

احتكرتني جوليت. أنا والصيد احتكاراً فعلياً إلى حد أنها كانت ترسل لي خادمها يبحث عني في الصيد ليحمل لي صيدي وغالباً ما كان يقول لي: المقدمة أرسلتني لأحضر كل ما وقع لك من الصيد إذ عندها ضيوف وتود أن تصنع لهم كذا وكذا. وبأختصار إنها تنصرف بكل ما اصطاد، بل كانت تطلب أنواعاً معينة من السمك أو تطلب مني الغطس لالتقاط السراطين البحرية. وهذا يزعجني جداً لأن ذلك يؤثر في طعام جميعتي، ولكنه من جهة أخرى يضمن لي حماية، وأجد عندها أحياناً بعض الالتفات.

— هل المد والجزر في الساعة الواحدة؟

— نعم يا سيدتي.

— تعال لتتغدى عندنا، وهكذا لن تكون مضطراً إلى العودة إلى المعسكر.

واتغدى عندها لا في المطبخ بل على المائدة دوماً في غرفة الطعام، وتجلس تحامي، وتخدمني بنفسها وتصب لي الشراب. وهي ليست كتومة رصينة مثل مدام بارو فغالباً ما تساءلني في شيء من المداراة عن ماضي حياتي وأتحاشى دوماً الموضوع الذي يثير اهتمامها أكثر وهو حياتي في مونتمارتر، لأروي لها عن شبابي وطفولتي، وفي هذه الأثناء يكون المقدم نائماً في غرفته.

في صباح أحد الأيام، وبعد صيد سمين في ساعة مبكرة، إذ قبضت على ستين سرطاناً، مررت بها في الساعة العاشرة، فألفيتها جالسة بقميص نومها الأبيض وخلفها امرأة شابة تصفف لها شعرها، فسلمت وقدمت لها اثني عشر سرطاناً.

— لا أعطينها كلها، كم واحداً معك؟

— ستون

— بالتمام. دعها أرجوك. كم يلزمك وأصدقاؤك من السمك؟

— ثمان

— خذها وأعط الخادم الباقي ليبرده.

فوقعت في حيرة من أمري ولم يسبق لها أن خاطبتني بصيغة المفرد. وخاصة أمام امرأة لن تتردد بالتأكيد في إشاعة ذلك. وكنت متضايقاً إلى أبعد الحدود عندما قالت: اهدأ واجلس وتناول شرباً فربما كنت حراً.

إن هذه المتسلطة حيرتني طيلة فترة قعودي. تذوقت الحمرة ببطء وأنا أدخن. وكنت أنظر إلى المرأة الشابة التي تمشط شعر المقدمة، والتي كانت تنظر إلي من وقت إلى آخر من طرف خفي، وقد لاحظتها عيون المقدمة وهي تحمل بيدها المرأة، فقالت لها: إن عشيقتي جميل، هيه سيمون. إنكن جميعاً غيورات أليس كذلك يا سيمون؟ ثم أخذتا في الضحك، فلم أدر كيف استقر في مكاني من شدة الخجل. فقلت في غباوة: إن عشيقك كما تقولين ليس خطراً لحسن الحظ، وهو في وضعه الراهن لا يمكن أن يكون عشيقاً لأحد.

قالت الجزائرية: لن تقول لي إنك لست عشيقتي. لم يستطع أحد أن يستانس أسداً مثلك. وأنا أفعل بك ما أشاء. لا بد أن هناك سبباً ألت معي يا سيمون؟

قالت سيمون: لا أعلم السبب ولكن الثابت أنك يا بابيون متوحش مع الجميع إلا مع المقدمة. ففي نهاية الأسبوع الماضي كنت تحمل خمسة عشرة كيلو غراماً من السمك كما حكّت لي زوجة رئيس المراقبين ولم تقبل أن تبيعها سمكتين تعستين كانت تشتهيها. ولم يكن في اللحمية قطعة من لحم.

— هل هذه هي الأخيرة التي أخبرتني عنها يا سيمون؟

— ألا تعلمين ماذا قال للسيدة (كاركية) ذات يوم؟ لقد رآته ماراً ومعه السراطين البحرية وسمكة ضخمة قالت: يعني هذه السمكة أو نصفها بابيون. أنت تعلم أننا نحن البروتونيين نعرف كيف نعدّها جيداً فقال: أليس غير البروتونيين يقدرونها يا مدام؟ هناك أناس كثيرون منذ عهد الرومان بما فيهم الأرديشيون يقدرونها ويعدونّها طعاماً فاخراً، وتابع سيره دون أن يبيعه شيئاً.

وأغرقنا في الضحك. فرجعت إلى المعسكر مهتاجاً ورويت لرفاقي في الجمعية القصة كاملة. قال كاربونيري: الأمر جدي، إن هذه المستهترّة تعرضك للخطر. أقلل من الذهاب إلى هناك قدر المستطاع وعندما يكون المقدم في بيته. فاجمع الرفاق على هذا الرأي، وأزمت على الأخذ به. اكتشفت نجاراً من فالانسيا وهي تقريباً بلدي. قتل حارساً للمياه والغابات. إنه مقامر عنيد لذا فهو دوماً مدين. ففي النهار يضني نفسه في صناعة أشغال فنية وفي الليل ينسر كل ما جناه. وغالباً ما يصنع هذه القطعة أو تلك ليسدد للدائن دينه. وبهذا يستغلونه، فيعطونه مئة وخمسين أو مئتي فرنك في صندوق خشبي وردي يساوي ثلاث مئة فرنك. فقررت أن أحاوره ناقداً.

قلت له في أحد الأيام عند المغسل: أريد أن أحدثك هذه الليلة وسانتظرك أمام

المراحض وأشير إليك. وفي الليل التقينا وحدنا لتحدث في روية فقلت:

- بورسيه! نحن من بلد واحد هل تعلم؟

- لا. وكيف.

- ألسنت من فالانس؟

- بلى.

- وأنا من أرديش فكأننا من بلد واحد.

- وماذا بعلم؟ وماذا يقدم أو يؤخر؟

- هذا يعني أنني لا أريد لك أن تستغل عندما تكون مديناً ولا أريد أن يدفعوا لك

نصف ثمن الأشياء التي تصنعها. احضرها لي، وأنا أدفع لك ما تستحق من ثمن. هذا كل شيء.

- شكراً لك.

ولم أدر وسعاً في مساعدته وهو لا يكف عن مجادلة دائنيه. سارت الأمور حسنة حتى جاء يوم كان فيه مديناً لفيسيولي، لص كورسيكي، وهو أحد أصدقائي المخلصين. علمت من بورسيه أن فيسيولي يهدده إذا لم يدفع وقدره سبع مئة فرنك، وأنه يصنع مكتباً صغيراً على وشك الانتهاء، ولا يستطيع أن يحدد وقت انتهائه، لأنه يصنعه في الخفاء. وفي الحقيقة لا يسمح بعمل قطعة أثاث نظراً لمقدار الخشب اللازم لذلك. فأجبت بآني سأنظر فيما يمكنني عمله من أجله وبالاتفاق مع فيسيولي ألفت فصلاً هزلياً. فهو يمارس ضغطاً على بورسيه ويهدده وأتدخل أنا بصفة منقذ. وهذا ما حصل منذ بداية الإجراء ولنزعم أنني رتبته، وبورسيه لا يرى إلا ما أراه، ويمنحني ثقة مطلقة. ولأول مرة في حياته في السجن استطاع أن يتنفس مستريحاً. وقررت الآن البدء بالمغامرة. قلت له في إحدى الأمسيات:

- لك عندي ألفا فرنك إذا فعلت ما أطلبه منك: وهو أن تصنع لي طوقاً يتسع لشخصين، مصنوعاً من قطع منفصلة.

- اسمع يا بابيون. لا أفعل هذا لغيرك أما أنت، فأنا مستعد للمخاطرة بستين في السجن الانفرادي إذا وقعت في الفخ. ولكن هناك أمراً وهو أنني لا أستطيع إخراج قطع الخشب الكبيرة من المصنع.

- عندي من يقوم بهذا

- من هو؟

- رجلا العربية: ناريك وكنية. كيف يكون العمل؟

- يجب أولاً وضع التصميم مع المقاييس، ثم تصنع القطعة بعد الأخرى، وهي ذات قروض لكي يتداخل بعضها في بعض بشكل محكم. والمشكلة الأخرى هي إيجاد الخشب الذي يعوم جيداً، لأن الخشب الموجود في الجزر من النوع الصلب ولا يعوم. متى يأتي رديك؟

- خلال ثلاثة أيام.
- هل ترغب في الهروب معي؟
- لا.
- لماذا؟
- أخاف سمك القرش وأخشى الغرق.
- هل تعديني بمساعدتي بإخلاص؟
- أقسم على ذلك بأولادي. إنما الأمر يحتاج إلى وقت طويل.
- اسمعني جيداً. منذ الآن أعد لك حماية في حال وقوع حادث. سوف انسخ مخطط الطوف بنفسي على ورقة وسوف أكتب لك تحته: «يا بورسيه إذا كنت تريد أن لا تقتل اصنع لي الطوف المرسوم أعلاه وبعد ذلك سوف أصدر لك أوامر مكتوبة من أجل تنفيذ كل قطعة. وكلما انتهيت من قطعة وضعتها في مكان أدلك عليه. وسوف ترفع فلا تبحث عمن رفعها ولا متى رفعها. (فارتاح لهذه الفكرة).
- وبهذه الطريقة أجنبك التعذيب في حال افتضاح الأمر. ولن تكلفك المغامرة أكثر من ستة أشهر.
- وإذا أنت وقعت في الشرك؟
- حينئذ سيكون العكس، فأنا أعترف بكتابة ما أرسلته إليك. وطبيعي أنك ستبقى محتفظاً بهذه الأوامر. هل تعديني؟
- أجل
- ألسنت خائفاً؟
- لا أشعر بأي جزع. وهذا ما يجعلني أقبل على مساعدتك مسروراً.
- لم أفاتح أحداً في الموضوع حتى الآن.
- أنا بانتظار جواب بورسيه وبعد أسبوع طويل، طال حتى حسبته لن ينقضي، استطعت أن أحدثه منفرداً في المكتبة ولم يكن فيها أحد سوانا، وكان ذلك صباح يوم الأحد. وكان اللعب في الباحة على أشده. وقد تحلق ثمانون لاعباً ومثلهم من المتفرجين. وفجأة أثار فكري إذ قال: أصعب شيء هو الفوز بخشب خفيف وجاف وبكمية كافية. وقد عاجلت هذا وأنا أتخيل نوعاً من الحصان الخشبي المحشو بجوز الهند الجاف بقشرته اللينة طبعاً. وليس أخف من هذه الألياف التي لا تمتص الماء وعندما يكون الطوف جاهزاً عليك أنت إعداد ما يكفي من جوز الهند لنضعه في داخله. وغداً سأصنع القطعة الأولى، ويستغرق هذا ثلاثة أيام تقريباً وابتداء من يوم الخميس بوسع أحد العدليين أن يحملها لدى أول عاصفة قصيرة. ولا أبداً بصنع واحدة أخرى قبل أن تكون الأولى قد أخرجت من المصنع. إليك المخطط، انسخه واكتب تحته الرسالة التي وعدت بها. هل كلمت أحداً من العدليين؟
- لا. كنت بانتظار جوابك.

— ها قد أجبتك بنعم.

— شكراً بورسيه. لا أدري كيف أشكر لك. إليك خمس مئة فرنك.

وحينئذ نظر إلي في وجهي وقال:

— كلا. احتفظ بمالك فإذا وصلت إلى الأرض الكبرى فسوف تحتاج إليها في هرويك الثاني. وبدءاً من هذا اليوم لن أتعاطى الميسر إلى أن ترحل، وسوف أكسب ببعض الأشغال ما يكفيني لشراء السجائر والبفتيك.

— لم ترفض؟

— لأنني لا أفعل هذا، ولو بعشرة آلاف فرنك، وأنا أغامر رغم الاحتياطات المتخذة. ولكنني أفعل هذا بغير مقابل. لقد ساعدتني، وأنت الوحيد الذي مد لي يده. وإنني لسعيد بمساعدتك على نيل حريتك، رغم خوفي.

شعرت وأنا أنقل المخطط على ورقة، بالخلج أمام هذا النيل العفوي. لأنه لم يخطر ببالي أن سلوكي نحوه كان محسباً ومدروساً. وكنت مضطراً أن أقول لنفسى لأرفع من شأنها في نظري: علي أن أهرب بأي ثمن إذا اقتضى الأمر، ولو في المواقف الصعبة التي لا تكون دوماً مستحبة.

تحدثت ليلاً مع ناريك الملقب ببون بوي. وهو بدوره سيحيط عديله علماً. فقال لي بدون تردد اتكل علي في اخراج القطع من المشغل، ولا تستعجل الأمور إذ لا يمكن إخراجها إلا مع مواد كبيرة مهمة في عملية البناء في الجزيرة، وأعدك بأن لا أدرج فرصة نفوت.

حسناً. بقي أن أتحدث مع ماتيو كاربو نييري لأنه رفيق الدرب في الهروب وكنا على وفاق تام.

— ماتيو لقد وجدت من يصنع لي الطوف، وعثرت على الذي ينقل لي الألواح الخشبية من المشغل وعليك أن تجد في بستانك مكاناً نطمر فيه الطوف.

— لا. إن في هذا خطراً. فالخراس يأتون ليلاً ليسرقوا الخصار، فإذا ما مشوا فوقه ووجدوا تحتهم محفوراً ذهبنا في داهية. أريد أن أنقب نخباً في جدار، فأقتلع حجرة كبيرة محدثاً نوعاً من المغائر وهكذا عندما يأتيني لوح خشبي فلا أفعل أكثر من رفع الحجر.

— هل نحضر الخشب مباشرة إلى بستانك؟

— لا. وفي هذا أيضاً خطر. فليس للعدلين أن يقربا بستانني. والأفضل أن نتفق على أن يضعنا الخشب في كل مرة في مكان غير المكان الأول وغير بعيد عن الحديقة.

— اتفقنا.

يبدو أن الأمور تسير في مجراها الطبيعي. وبقي جوز الهند. سأرى كيف أحضر كمية كافية دون لفت الأنظار. حينئذ شعرت بالانتعاش، وكأنني عشت من جديد.

وبقي كذلك أن أفتح كالكانى وجرانده. ولا يحق لي أن أسكت إذ يمكن أن توجه إليهما تهمة الاشتراك، ومن المنطقي أن أنفصل عنها بصورة رسمية لأعيش وحدي. فعندما صرحت لها بأنني أعد العدة للهروب، وأن من الواجب أن أنفصل عنها، فرفضاً الانفصال عني بتأكيد مطلق وقالاً: اذهب بأسرع وقت ممكن. نحن سنرتب الأمور ابق معنا حتى ذلك الحين.

مضى شهر وخطة الهروب على دربها المرسوم لها. تسلمت حتى الآن سبعة ألواح خشبية اثنان منها كبيران. ذهبت لأرى جدار الدعم حيث نقب ماتيو المخبأ، ولا يظهر على الحجر أنه تزحزح من مكانه لأنه ألصق حول الأشنة بحذر، فرأيت المخبأ في غاية الاتقان ولكن الفجوة تبدو أصغر من أن تضم كل الخشب. وفي اللحظة الراهنة لا يزال فيها متسع. إن حدث تخضير الهروب أعطاني دفعاً معنوياً قوياً. فصرت أكل ما لم أكله من قبل. والصيد يتمتعني بوضع جسدي جيد. وفضلاً عن ذلك إنني أقوم بالتمارين الرياضية مدة ساعتين يومياً، وأمرن ساقى بوجه خاص لأن الصيد يمرن ذراعى، وقد وجدت طريقة من أجل ساقى: كنت أتقدم في الماء والأمواج تلطمها، ولكي أحفظ توازنى كنت أشد عضلاتى، وكانت النتيجة رائعة.

جوليت زوجة المقدم، لا تزال تتوحد. ولكنها لاحظت أنني لا أدخل دارها إلا بحضور زوجها، ولكي ترخي من عناني، قالت إنها كانت تمزح يوم أن كانت عندها الماشطة وهذه الأخيرة كانت تترصدني على طريق عودتي من الصيد، لتسمعي كلمات رقيقة مستفسرة عن حالى وعن صحتي. إذن كل شيء يسير نحو الأفضل. وما كان بورسيه يضيع فرصة في صنع قطعة والآن مضى على بداية الإعداد شهران ونصف، والمخبأ قد امتلأ كما توقعت. ولا ينقصنا سوى لوحين خشبيين، أحدهما بطول مترين والآخر بطول متر ونصف ولا يمكن إدخالهما في المخبأ. وبينما كنت أسرح بصري في المقبرة وقعت عيني على قبر حديث لامرأة مراقب ماتت في الأسبوع المنصرم، وعليه طاقة من الورد بائسة، ذوت أزهارها. كان حارس المقبرة، وهو سجين عجوز نصف أعمى يطلق عليه اسم بابا، يمضي نهاره في ظل شجرة جوز في الزاوية المقابلة للمقبرة ومن موضعه هذا لا يستطيع أن يشاهد القبر ولا أي إنسان يدنو منه. تصورت أن أستخدم هذا القبر في تركيب الطوف ووضع أكبر عدد ممكن من جوز الهند في ذاك التجويف الذي صنعه التجار لهذا الغرض. وهو يتسع لثلاثين واحدة أو تزيد.

وأكبر مجموعة منها موجودة في حديقة جوليت وعددها اثنتا عشرة جوزه، وخدامها بحسب أنني أجمعها هناك بانتظار يوم أعتمر منها زيتاً.

وعندما بلغني أن زوج المتوفاة قد ذهب إلى الأرض الكبرى اتخذت قراراً بتفريغ التراب من القبر حتى النعش. فقد ماتيو كاربو نيري على الجدار يقوم بعملية الرصد وقد

وضع فوق رأسه منديلاً أبيض معقوداً من أطرافه الأربعة. وبجانبه منديل آخر أحمر اللون. ويحفظ بالأبيض على رأسه ما دمنا آمنين. فإذا ما بدا له شخص أياً كان وضع على رأسه المنديل الأحمر ولم يستغرق هذا العمل الخطر سوى ما بعد الظهر والليل. ولم يقتصر عملي على رفع التراب بل كنت مضطراً إلى تعريض الحفرة بعرض الطوف أي مئة وعشرين سنتمراً وزدتها قليلاً للمرونة.

كانت الساعات تمضي بطيئة. وظهر لي المنديل الأحمر مراراً، وأخيراً فرغت من العمل هذا الصباح. سترت هذه الحفرة بورق جوز الهند المجدول. فتشكل غطاء فيه بعض المثانة، وفوق التراب حاشية صغيرة ولا يكاد يظهر أثر لشيء وعند ذاك بلغت من النصب أشده.

منذ ثلاثة أشهر وأنا أعد العدة للهروب. أخرجنا الأخشاب من مخبئها محزومة ومرقمة ووضعناها فوق نعش المرأة الطيبة وأهيل التراب الذي غطى الحصائر، ووضعنا في فجوة الجدار ثلاثة أكياس طحين وحبلاً بطول مترين من أجل صنع شراع وقارورة ملأى بأعواد الثقاب، ومحكاً واثنتي عشرة علبه حليب. هذا كل شيء.

بورسيه يزداد احتياجاً حتى لكأنه هو المهرب مكاني. وندم ناريك على عدم موافقته في البداية. ولولا رفضه لصنعنا طوقاً يتسع لثلاثة أشخاص بدلاً من اثنين.

هذا فصل الأمطار. فالمطر يهطل كل يوم وهذا ما يهيء لي التردد على كهفي الصغير حيث أوشكت أن أنتهي من تركيب الطوف، ولا ينقصني سوى حاشيتين وحامل الهيكل (شاسي)، وقربت جوز الهند من بستان صديقي، وتناولتها بسهولة ودون خوف من حظيرة الجواميس المفتوحة. ولم يسألني رفاقي إلى أين وصلت. وإنما يكتفون من حين لآخر بالقول: هل تسير الأمور على ما يرام؟ فأجيب: نعم كل شيء بخير.

— ألا ترى أن الوقت قد طال؟

— لا يمكن أن تمضي في سرعة دون تعرض للخطر.

وبما أنني أودعت قسماً من جوز الهند عند جوليت فقد رأيته وأرهبتني حين قالت:

— قل لي يا بابيون! هل صنعت زيتاً من جوز الهند؟ لم لا تصنعه هنا في فناء الدار،

فلديك كمية يطول فتحها وعندني قدر كبيرة لتضع فيها اللب.

أفضل صنعه في المعسكر.

— غريب. إن هذا العمل في المعسكر ليس هيناً.

وبعد لحظة من التفكير قالت:

— هل أقول لك؟ أعتقد أنك لن تصنع أنت الزيت من جوز الهند.

فتجمدت مكاني، وتابعت تقول:

— لماذا تصنع زيتاً، وزيت الزيتون مبدول لك متى رغبت؟ هذا الجوز لأمر آخر

أليس كذلك؟

فتفصدت عرقاً (وخاصة أن لسانها قد زل بكلمة هروب فيها مضي) فبهرت أنفاسي فقلت:

— مدام هذا سر. ولكني أراك متلهفة لمعرفة، حتى ضيعت حلالة المفاجأة التي كنت أعدّها لك، ولا يسعني إلا أن أقول لك: هذه الجوزات الكبيرة التي تخيرتها لأصنع منها شيئاً جميلاً بعد تفريغها، كنت أود أن أقدمه لك. هذه هي الحقيقة..

لقد انتصرت إذ أجابت:

— بابيون لا تزعج نفسك من أجلي ولا أريد بصورة خاصة أن تنفق شيئاً من المال لتفعل شيئاً استثنائياً. أشكر لك من صميم قلبي. لا تفعل شيئاً. هذا ما أطلبه منك.

— حسناً سنرى.

أف. وعلى الفور طلبت منها أن تقدم لي كأساً من الشراب وهذا ما لم أفعله قط، ولم تلاحظ ارتباكها لحسن الحظ. إن الله معي.

الجو ماطر كل يوم، وبخاصة بعد الظهر وفي الليل. وكنت أخشى أن يترشح الماء من طبقة التراب الرقيقة فيكشف حصائر جوز الهند، لذا فإن ماتيو يبيل عليها التراب باستمرار. الطبقة العليا كادت تغرق، وبالتعاون معه سحبت الحصىرة والماء يكاد يغمر النعش. ووصلنا إلى مرحلة الحرج. وعلى مسافة غير بعيدة حفرة لطفلين ماتا من زمن بعيد. وفي أحد الأيام اقتلنا البلاطة ودخلت ومعني قضيب معدني قصير فكسرت الاسمنت من أسفل وما كان القضيب يخترق الأرض حتى انهمر سيل من الماء من القبر المجاور إلى الحفرة، فخرجت منها لما غاصت ركبتي في الماء. فأرجعنا البلاطة إلى مكانها والصقناها بملاط خاص كان ناريك قد أعطاني إياه. وبهذه العملية نقص الماء في القبر المخبأ إلى النصف. وفي المساء قال لي كاربو نييري:

— ألن تنتهي أبداً من مضايقات هذا الهروب؟

— لقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى يا ماتيو.

— تقريباً نرجو ذلك.

نحن حقاً أحر من الجمر، نزلت في الصباح إلى الرصيف، وطلبت من شابار أن يشتري لي كيلو غرامين من السمك وقلت: سأتيك ظهراً لأخذها واتفقنا. ثم صعدت إلى بستان كاربو نييري، وعندما دنوت رأيت ثلاث قبعات بيض. ما معنى وجود ثلاثة مراقبين في البستان؟ هل هم في جولة تفتيشية؟ وهذا شيء غير مألوف، ولم أرقط ثلاثة مراقبين معاً في حديقة كاربو نييري. انتظرت ما ينوف عن ساعة حتى عيل صبري فتقدمت لأرى ما يجري. فسرت على الدرب المؤدي إلى البستان بحزم. ورأني المراقبون مقبلاً، وكنت قلق البال، ولم يعد يفصلني عنهم سوى عشرين متراً، وعندئذ وضع ماتيو المنديل الأبيض على رأسه وتنفست أخيراً. وكانت المسافة كافية لعودتي إلى طبيعتي قبل الوصول إليهم.

— صباح الخير أيها السادة المراقبون. صباح الخير ماتيو. جئت أسأل عن دواء

الهند^(١) التي وعدتني بها.

— أسف يا بانيون. لقد سرقت هذا الصباح بينما ذهبت لإحضار عصي للفاصولياء المتسلقة ، ولكن ستجد بعد بضعة أيام بعضها ناضجاً فهي في بداية اخضرارها.
— أيها المراقبون. ألا تريدون شيئاً من الخس والبندورة (الطماطم) والفجل لزوجاتكم؟

قال أحدهم: إن بستانك تبدو عليه العناية أهتثك.

وتقبلوا البندورة والخس والفجل وانصرفوا. ذهبت علانية قبلهم بقليل ومعي خستان. مررت بالمقبرة. وكان القبر نصف مكشوف بفعل المطر الذي جرف التراب. وميزت الحصائر على بعد عشر خطوات. إن الله معنا. لم ينكشف أمرنا. تهب الريح كل ليلة كالشيطان، تكنس منبسط الجزيرة مزججة مصحوبة عالياً بالمطار، والأمل أن يدوم ذلك. إنه طقس ملائم جداً للفرار، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى القبر.

أطول قطعة خشبية والتي يبلغ طولها متران قد وصلت إلى الماوى لتنضم إلى القطع الأخرى. وقد ركبتهما من غير جهد في الفرضة المحفورة.

وصل بورسيه إلى المعسكر جرياً ليعلم إذا كنت تسلمت الخشبة باهتمام بالغ وارتباك مضحك. وكما كان سعيداً عندما عرف أن كل شيء انتهى، وكأنه يشك في وصولها فسألته:

— هل تساورك الظنون؟ هل تعتقد أن أحداً على علم؟ هل أسررت إلى أحد؟
أجب؟

— لا . لا . لا .

— ومع ذلك يبدو لي أنك قلق، تكلم.

— مجرد إحساس بعدم الارتياح لنظرة فضولية مرتابة ألقتها المدعويبير سيليه. وكأني به قد رأى ناريك يتناول الخشبة من تحت المنضدة ويضعها في برميل الكلس، ثم ينقلها وعينه تلاحقان ناريك حتى الباب. ذهب العديلان لطلاع أحد الأبنية بالكلس. هذا هو مصدر الغم الذي ترى آثاره في وجهي.

سألت غراند: بيير سيليه هذا في مهجعنا. وهو إذن ليس ممن يوزعون الأوراق في الميسر؟ فأجاب:

— هذا الرجل سرح من وظيفته في الأشغال العامة، وكان في الفرقة الإفريقية. فهو أحد الجنود العنيدين. ذاق جميع أنواع السجون العسكرية في المغرب والجزائر. محارب خطر في استخدام السكين. يمارس الشذوذ الجنسي مع الفتيان في شبق، وهو أيضاً مقامر. ولم يكن البتة مدنياً، والنتيجة أنه لا ينفع في شيء وفي غاية الخطورة. السجن حياته. وإذا كنت في ريب من أمره فاسبقه واقتله هذه الليلة، وهكذا لن يتسع له الوقت للوشاية بك

(١) نوع من النبات.

إذا كان في نيته ذلك .

— لا شيء يثبت أنه واش .

كالكانى : — صحيح ولكن لا شيء يثبت أيضاً أنه رجل شهم . وأنت تعلم أن هذا النوع من السجناء لا يجب الهروب لأن حياته الضيقة الهادئة والمنظمة، ستصاب بالاضطراب . ومن كانوا على شاكلته ليسوا وشاة ولكن بالنسبة إلى الهروب من يدري ؟

استشرت ماتيو كاربو نييري فكان من رأيه قتله هذه الليلة وأنه يقوم بذلك بنفسه . ولقد أخطأت في منعه من ذلك . إذ يحز في نفسي قتل إنسان أو السماح بقتله استناداً إلى الأوهام . وإذا كان بورسيه يتخيل ما يرويه؟ فربما جعله الخوف يرى الأمور على غير وجهها الصحيح .

سألت ناريك : هل لاحظت شيئاً من ناحية بيير سيليه ؟

— لا . خرجت والبرميل على كتفي لثلا يرى حامل المفاتيح على الباب، ما بداخله ووقفت أمامه .— وفق تدبير مسبق— أنتظر عديلي ودون أن أنزل البرميل، وذلك تهيئةً للعربي بأنني خرجت على غير عجل، لكي أعطيه مزيداً من الثقة، لثلا يفتش ما بداخل البرميل . وقد قال لي عديلي بعد ذلك بأنه يظن بأن بيير يراقبنا بانتباه .

— ما رأيك أنت ؟

— بالنسبة لأهمية هذه القطعة فإنها تنبئ لأول وهلة بأنها صنعت للطوف، وكان عديلي مستفزاً وخائفاً، ولكن تصوره أقرب إلى الظن .
— وهذا رأيي أيضاً . ولنسكت عن الموضوع . وبشأن القطعة الأخيرة، انظروا أولاً أين موضع بيير سيليه، وخلوا حذرکم منه كما لو كان حارساً .

أمضيت الليلة في اللعب لعبة جهنمية على الطريقة المرسيلية، فربحت سبعة آلاف فرنك وكلما لعبت مغتاضاً زادت أرباحي .

وفي الساعة الرابعة والنصف خرجت كما يقال لإنجاز سحري، وتركت الزنجي يقوم بهذا العمل . توقف المطر، فاتجهت نحو المقبرة، ولا يزال الدجى حالكاً، فسويت الأرض بقدمي، إذ لم أجد مجرفة . وفي الساعة السابعة عندما نزلت للصيد سطعت شمس براقه، فسلكت طريقي نحو رأس رويال الجنوبي، حيث أنوي إنزال الطوف في الماء . البحر هنا عالٍ وشديد . ويخيل إلي—ولست أدري— أن الانفصال عن الجزيرة، ليس حيناً، فقد أتعرض لأن تطرحني الموجة على الصخر وشرعت في الصيد، وفي الحال وقعت على كثير من السمك المسمى روجه، وفي فترة وجيزة كان في حوزتي أكثر من خمسة كيلو غرامات . توقفت بعد أن نظفتها بماء البحر . كنت قلقاً جداً ومرهقاً بسبب السهر في الليلة الماضية في اللعبة الحامية . جلست في الظل أستعيد الذكرى قائلاً في سري : إن هذا التوتر الذي عشته منذ ثلاثة أشهر كاد يبلغ نهايته، وحين أفكر في قضية سيليه أصل إلى نتيجة وهي أنني لا أريد قتله .

أنا ذاهب لأرى ماتيو، من جدار بستانه يرى القبر في وضوح. وفي الممر يوجد تراب وسوف يذهب كاربو نيري ظهراً لإزالته.

مررت على جوليت وأعطيتها نصف ما معي من السمك فقالت لي:

— بابيون حلمت أحلاماً سيئة بالنسبة لك: رأيتك مضرراً بالدم ومكبلاً بالأصفاد. لا تقم بحماقات فإنني سأشعر بالأسى لو أصابك شيء. وأنا مضطربة من هذا الحلم إلى درجة لم أستطع معها أن أغسل وجهي وأن أمشط شعري. بحثت عنك على مد البصر لأعرف أين تصطاد فما أبصرتك. فمن أين اصطدت هذا السمك؟

— من الطرف الآخر من الجزيرة، لهذا لم تريني.

— لماذا ذهبت، للصيد بعيداً حيث لا يراك أحد. لو أن موجة جرفت لك لن يراك أحد فينقذك من سمك القرش.

— لا تبالي.

— هل تظن ذلك؟ إنني أمتنع من الصيد خلف الجزيرة، وإذا عصيت أمري فسوف أعمل على سحب رخصة الصيد منك.

— كوني عاقلة يا مدام ولكي تكوني راضية، سأخبر خادمك بموضع صيدي.

— حسناً. ولكن يبدو عليك الإرهاق.

— أجل يا سيدتي فأنا صاعد إلى المعسكر لأنام.

— حسناً. وأنا بانتظارك في الساعة الرابعة لنشرب فنجاناً من القهوة، هل تأتي؟

— أجل يا مدام، إلى اللقاء القريب.

لم يكن ينقصني سوى حلم جوليت لأهبط لنفسي الطمانينة وكان ليست لدي معضلات واقعية حتى أضيف إليها الأحلام.

قال بورسيه بأنه شعر حقاً بالمراقبة. انقضى أسبوعان ونحن بانتظار القطعة الأخيرة. ناريك وكيهيه قالا بأنهما لم يريا شيئاً غير طبيعي. غير أن بورسيه يصبر على عدم صنع القطعة الخشبية، فإذا لم تفتح فيها الفروض وهي تحتاج إلى دقة بالمليمتر، فإن ماتيو مستعد لعمل ذلك في البستان. وفي الواقع إن الضلوع الخمس الأخرى ينبغي أن تولج في هذه الخشبة.

وبما أن ناريك وكيهيه يقومان ببعض الإصلاحات في الكنيسة فإن في وسعهما إخراج الأدوات من المصنع ثم إدخالها، في كل يسر. والأحسن من هذا أنها يستخدمان أحياناً عربة صغيرة يجرها جاموس صغير. ويجب أن نستغل هذا. وأخيراً صنع بورسيه الخشبة مكرهاً بإلحاح منا. وادعى يوماً بأن هناك من يتلمس الخشبة ويعيدها إلى موضعها. بقي حفر فريضة واحدة في طرف الخشبة وتم الاتفاق على أن ينجزها، ويمدها تحت المنضدة وأن يضع فوقها شعرة، للتحقق من دعواه بأن أحداً لم يتلمسها ويتفحصها.

وصنع الفريضة وخرج في الساعة السادسة آخر العاملين في المشغل، وتأكد من خلوه

المكان إلا من الحارس. الخشبة في موضعها والشعرة فوقها.

كنت في المعسكر ظهراً منتظراً قدوم العمال من المصنع وعددهم ثمانون. ناريك وكيهيه كانا معهم. أما بورسيه فلا. تقدم نحوي رجل ألماني وسلمني بطاقة مغلقة وملصقة ورأيت أنها لم تفتح. وقرأت فيها: إن الشعرة لم تبق في مكانها. إذن فالخشبة قد مست. فالتست من الحارس أن يدعني اشتغل وقت القيلولة لأنتهي من صندوق صغير، فأذن لي بذلك. سارفع الخشبة وأضعها في مكان أدوات ناريك: أنذرهما ينبغي أن يخرجوا في الساعة الثالثة مباشرة، ومعهما الخشبة ويمكننا أن نقبض على الشخص الذي يراقبنا في سرعة.

وافق ناريك وكيهيه على الخطة، وسوف يتخذان مكانهما في الصف الأول من العمال، وقبل أن يدخل الجميع يكون هناك رجلان يقتلان أمام الباب، وقد يطلب إلى رجلين من بلد كاربو نييري أن يفتعلا ذلك، وهما كورسيكيان من مونتمارتر: ماسيني وسانتيني ولم يسألا عن السبب. وسوف يستغل نارك وكيهيه هذه البلبلة ويخرجان مسرعين مع بعض الأدوات كما لو أنهما يستعجلان الذهاب إلى عملهما وأن ما يجري لا يعنيهما في شيء. وأجعنا كلنا على أنه بقيت أماننا فرصة واحدة، إذا نجحت كان علي أن لا أحرك ساكناً مدة شهرين. لأن من الثابت أن واحداً أو أكثر على علم بتجهيز طوف، وعليهم أن يعرفوا لمن؟ وأين المخبأ؟

الساعة الآن الثانية والنصف والرجال يستعدون. بين التفقد والاصطفاف للذهاب إلى العمل مقدار نصف ساعة، وبدأ السير. سيليه في وسط الطابور تقريباً وهو يتألف من عشرين صفاً رباعياً ناريك وكيهيه في الصف الأول. ماساني وسانتيني في الصف الثاني عشر وسيليه في العاشر. أتصور أن الوضع على هذا النحو جيد. إذ في اللحظة التي أمسك بها ناريك الأخشاب والقضبان والخشبة، كان الآخرون لم يستكملوا خروجهم بعد. كان يبيير تقريباً أمام الباب أو قبله بقليل. وعندما ثارت الضجة، ضجوا كبنات آوى، بطريقة عفوية، وببيير بينهم، فعاد للاستطلاع وفي الساعة الرابعة كان كل شيء قد تم. وغدت الخشبة تحت كومة من المواد في الكنيسة، ولم يستطيعوا إخراجها ولكنها مستترة هناك.

ذهبت لأرى جوليت، فلم تكن في الدار وفي طريق عودتي مررت بالفناء حيث مبنى الإدارة. كنت واقفاً في الظل عندما رأيت ماسيني وسانتيني ينتظران الدخول إلى السرداب، وهذا معروف مسبقاً. فمررت قريباً منها وقلت: كم؟ - ثمانية أيام. فقال حارس كورسيكي: إنه لمن المؤسف أن يتخاصم رجلان من بلد واحد. رجعت إلى المعسكر في الساعة السادسة وكان بورسيه عائداً وهو منشراح الصدر فقال:

- قيل لي قبلاً إنني مصاب بمرض السرطان والآن أعلمني الطبيب بأنه أخطأ إذ لست مصاباً بهذا المرض. احتفل كاربو نييري وصحبي وهنؤوني على تدبير العملية. وكذلك كان العديلان مسرورين. كل شيء يسير وفق هوانا. تمت طوال الليل، وحين جاء اللاعبون في السهرة يدعونني إلى اللعب، اعتذرت مدعياً الشعور بألم في الرأس. وفي

الواقع كنت ميتاً من شدة النعاس. ولكنني مسرور وسعيد لأنني على حافة النجاح. فقد تجاوزت أكبر عقبة في طريقي.

وضع ماتيو صباح هذا اليوم الخشبة في فجوة الجدار بصورة مؤقتة. كان حارس المقبرة ينظف الممرات من جهة القبر المخبأ. فليس من الحكمة الاقتراب منه في مثل هذا الوقت. كنت أذهب في الأسفار كل يوم، ومعى معول من الخشب لنسوية تراب القبر وأكنس المشى بمكنسة وأعود مسرعاً لعملية التفريغ تاركاً أوعية القاذورات والمكنسة والمعول في ركن.

مضى على تهيئة الهروب أربعة أشهر بالضبط، وعلى حصولنا على الخشبة الأخيرة للطواف تسعة أيام. انقطعت الأمطار في النهار وأحياناً في الليل. قدراتي كلها مستوفزة من أجل نقطتين: أولاً استخراج الخشبة الشهيرة من بستان ماتيو وتركيبها في موضعها من الطوف حيث تدمج الضلوع فيها دعماً محكماً، ولا يمكن القيام بهذا العمل إلا نهاراً. وثانيتهما الفرار، ولا يمكن أن يكون فوراً لأنه ينبغي أن نضع في الطوف جوز الهند والمواد الغذائية.

رويت بالأمس على مسمع جان كاستيللي كل شيء إلى حيث وصلت في تنفيذ المخطط. لقد أسعده أنني كدت ألامس هدفي وقال لي: إن القمر في ربه الأول.

— أعلم هذا، ولن يضايقني عند منتصف الليل، ويكون المد في الساعة العاشرة. وخير توقيت للنزول في الماء سيكون في الساعة الثانية صباحاً.

قررنا أنا وكاربو نيري استعجال الأحداث. غداً صباحاً في الساعة التاسعة، موعد وضع الخشبة في موضعها والهروب ليلاً. وفي الغداة نسقنا أعمالنا، ومررت من حديقة المقبرة وقفزت عن الجدار بمعول، وبينما كنت أرفع التراب عن الحصائر كان ماتيو يرفع الحجر ليأتي بالخشبة. رفعنا الحصائر معاً ووضعناها جانباً وظهر الطوف في مكانه في حالة جيدة سوى بعض الوحل اللازب، فاستخرجناه لأننا بحاجة إلى مسافة أوسع بجانبه لوضع الخشبة الجديدة، وللقيام بعملية الدمج اضطررنا إلى الطرق بحجر. وفي اللحظة التي انتهينا فيها منه وكنا في صدد إنزاله إلى مكانه، فاجأنا مراقب ويده بندقية قصيرة وقال: لا تتحركا وإلا قتلنا. ألقينا بالطوف ورفعنا أيدينا إلى الأعلى. هذا الحارس كنت أعرفه. إنه رئيس المراقبين في المصنع.

— لقد وقعتما، فلا ترتكبا حماقة بمحاولة المقاومة. ارضخا وانجوا بحياتكما التي تتعلق بخيط رغبتى في رشكما بهذه البندقية. هيا امشيا في الطريق وأيديكما مرفوعة في الهواء. امشيا إلى مكتب المقدم. وأثناء مرورنا بباب المقبرة التقينا بحامل المفاتيح العربي، قال له المراقب:

— شكراً لك يا محمد على هذه الخدمة التي أدتها لي. مر علي غداً صباحاً لأعطيك ما وعدتك به.

قال العنز: شكراً لك، سأتى ولا ريب. ولكن يا سيدي يجب على بيير سيليه أن يدفع لي ليس كذلك؟
— سو أمرك معه.

حينئذ قلت: أهو بيير سيليه الذي أوقع بنا يا رقيب.

— لست أنا الذي قلت هذا.

— سيان. المهم أن أعرف.

كنا كلانا في رهبة من البندقية. قال المراقب: عمداً! فتشهما.

فأخرج العربي مديتي ومدية ماتيوي، فقلت له:

— أنت خيبت يا محمد. كيف كشفت أمرنا؟

— كنت أتسلق إلى أعلى شجرة جوز هند كل يوم لأرى أين أخفيتم الطوف.

— من طلب منك أن تفعل هذا؟

— بيير سيليه أولاً، ثم المراقب برويه

وفي الطريق قال الحارس:

لقد تكلمتما ما فيه الكفاية. اخفضا يديكما وامشيا بخطوة أوسع.

إن المسافة التي تفصلنا عن المقدم، وهي لا تزيد على أربع مئة متر، وجدتها أطول طريق في حياتي وكنت مشرفاً على التلف. أبعد هذا الكفاح الطويل نقع لقمة سائغة كالأغبياء. رباه ما أفساك. وصولنا إلى مقر القيادة كان فضيحة جميلة إذ كلما تقدمنا انضم إلى خفيرونا الذي يسد إلينا بندقية خفراء آخرون، ولدى وصولنا بلغ عددهم خلفنا ثمانية. وجرى العربي قبلنا ليعلم المقدم، وكذلك ديغا، وخمسة رؤساء مراقبين، كانوا على عتبة مقر الإدارة.

قال المقدم: ماذا جرى يا سيد برويه؟

— لقد أمسكت بهذين الرجلين وهما يخفيان طوقاً وأظنه جاهزاً

— ماذا تقول يا بابيون؟

— سأتكلم أثناء التحقيق.

— ضعهما في السرداب.

وضعت في سرداب تطل نافذته المسدودة على مدخل مقر القيادة. وكان السرداب مظلماً، ولكنني أسمع ما يقوله الناس في الطريق.

تمضي الأحداث حيثاً. أخرجونا في الساعة الثالثة وكنولنا بالحديد.

أقيم في القاعة ما يشبه المحكمة. المقدم ومعاونوه ورئيس الخفراء، وخفيرونا أخذ مكان كاتب المحكمة، وجلس ديغا منفرداً أمام منضدة صغيرة ليأخذ أقوالنا بالتأكيد بصدد السرقة.

— شاريير! كاربونيري! استمعاً إلى التقرير الذي قدمه ضدكيا السيد برويه:
أنا برويه أوغست، الرقيب المراقب مدير المصنع في جزر سالو اتهم بالسرقة واختلاس
مواد عائدة للدولة كلاً من السجينين شاريير، وكاربونيري، وأتهم النجار بورسيه
بالتواطؤ. واعتقد أنني أستطيع أن أحمل ناريك وكيينه مسؤولية الاشتراك بالذنب.
وأضيف أنني قبضت على شاريير وكاربو نيري متلبسين بالجرم المشهود بانتهاك حرمة قبر
السيدة بريغات وقد اتخذنا هذا القبر غياً لإخفاء الطوف.

قال المقدم: ماذا تقول؟

أولاً: كاربو نيري ليست له علاقة بالقضية لأن الطوف كان معداً لشخص واحد،
إنما أجبرته فقط على مساعدتي في رفع الحصائر عن القبر وهي عملية لا أستطيع القيام بها
وحدتي. إذن كاربو نيري ليس مذنباً في اختلاس أو سرقة مواد عائدة للدولة، ولا في
التواطؤ للهروب ما دام الهروب لم يتم. أما بورسيه فهو شيطان مسكين لأنه تصرف تحت
تهديد بالموت، وبالنسبة إلى ناريك وكيينه فهما رجلان لا أكاد أعرفهما وأصر على أنها لم
يكونا في العير ولا النفير.

قال الخفير: ليس هذا ما أخبر به المخبر.

— إن بيير سيليه هذا، والذي أخبرك يستطيع أن يستغل جيداً هذه القضية لينتقم
من أحدهم، معرضاً إياه للخطر ظلماً. من يستطيع الوثوق بجاسوس واش؟
— باختصار. أنت متهم رسمياً بالسرقة واختلاس مواد عائدة للدولة، وانتهاك حرمة
قبر، ومحاولة الفرار. تفضل بتوقيع الصك.
— لا أوقع ما لم تسجل أقوالي بحق كاربو نيري وبورسيه والعديلين ناريك وكيينه.
— أقبل. اكتب الوثيقة.

ثم وقعت. لا أستطيع تفسير ما يعتل في نفسي بوضوح، منذ هذا الإخفاق في
اللحظة الأخيرة كنت في السرداب كالمجنون، لا أكل إلا قليلاً، ولا أمشي، بل أذخن
بإفراط. اللفافة تلو الأخرى، ولحسن الحظ عندي مؤونة من التبغ والفضل في ذلك يعود إلى
ديغا. كنا نقوم كل يوم بنزهة مدة ساعة في الشمس في فناء الزنانات التأديبية.

جاء المقدم هذا الصباح، ليتحدث معي. إنه لأمر عجيب. فهو الذي يمكن أن
يصاب بأفدح الأذى لو أن عملية الهروب قد نجحت.. ومع ذلك فهو أقل الناس غضباً
علي.

قال وقد افتر ثغره عن ابتسامة بأن زوجته قالت: إذا لم يكن الرجل فاسداً فمن
الطبيعي أن يحاول الفرار.

وجرب بكل حنق أن أعترف بدور كاربو نيري، وتخيل إلي بأنني أقنعتة وقد
شرحت له، بأن هذا الرجل لا يستطيع في الواقع أن يرفض مساعدتي بضع لحظات في
سحب الحصائر.

أبرز بورسيه أوراق التهديد والمخطط الذي رسمته. فمن ناحية بورسيه، كان المقدم قانعاً كل القناعة بأن الأمر قد حدث على هذه الصورة. سألته كم سيكون الحكم في تقديره مقابل الاتهام بالسرقة والاختلاس. فأجاب ليس أكثر من ثمانية عشر شهراً. وباختصار بدأت الآن الصعود شيئاً فشيئاً من الهوة التي تورطت فيها. تلقيت كلمة من شاتال أعلمني فيها أن يبير سيليه في قاعة منفردة في المستشفى رغبة في تحليله من الحجر، بتشخيص مرضي نادر الوجود: دمل في الكبد، وربما كان هذا تدبيراً من الإدارة والطبيب لحمايته من الانتقام.

لم يفتشوني ولم يفتشوا زتراتي وانتفعت من ذلك بأن أدخلت سكيناً. قلت لناريك وكنيه أن يطلبوا مواجهة بيني وبين مراقب المصنع وبيير سيليه والتجار متوسلين إلى المقدم أن يتخذ بعد هذه المقابلة، القرار الذي يراه عادلاً في حقهم. إما التوقيف الاحتياطي، وإما العقوبة الزجرية، أو إطلاق سراحهم على الفور. وفي ساعة الخروج للتنفس في الباحة قال لي ناريك بأن المقدم قبل بذلك. وسوف تتم المواجهة غداً في الساعة العاشرة وسيحضر هذه الجلسة رئيس مراقبين بصفة محقق. وطوال الليل وأنا أحاول أن أضغ نفسي على جادة الصواب، لأنني أنوي قتل بيير سيليه. فلم أوفق لذلك. سوف يكون من الظلم أن يفلت هذا الرجل من الحجر لقاء هذه الخدمة التي قدمها، وهو فيها بعد سيهرب من الأرض الكبرى مكافأة له، لأنه حال بيني وبين الهروب. نعم ولكن من المحتمل أن يحكموا علي بالإعدام بسبب العمد المسبق. لا أبالي هذا قراري النهائي فقد يشت. أربعة أشهر من الأمل والفرح والمهارة والجزع من الوقوع، ولما حان القطاف تأتي هذه النهاية المفجعة بكلمة من غام. ليحصل ما يحصل، سأحاول غداً قتل سيليه. والوسيلة الوحيدة للنجاة من حكم الإعدام هي أن يشهر سكينه. لهذا يجب أن أريه علانية مديتي مفتوحة. وبالتأكيد سوف يستل مديته على أن يتم هذا فور انتهاء المواجهة أو قبلها بقليل. وليس باستطاعتي قتله أثناء المواجهة فقد يطلق علي أحد الحراس النار. سأستفيد من إهمال الحراس المزمع. كنت طوال الليل أصارع هذه الفكرة ولا أستطيع التغلب عليها. حقاً إن في الحياة أشياء لا تغتفر. صحيح أنه لا يجوز للإنسان أن ينصب نفسه ميزاناً للعدل، ولكن هذا لطبقة اجتماعية أخرى. كيف يمكن لإنسان أن لا يفكر في معاقبة رجل قميء كهذا بلا رحمة ولا شفقة. لم أسيء إلى هذا المطرود من القلعة، بل إنه لا يكاد يعرفني. إنه إذن حكم علي بكذا سنة في السجن الانفرادي دون أن يكون له أي مأخذ علي. لقد سعى إلى دفني ليعيش هو من جديد. لا. لا ثم لا. مستحيل أن أدعه يستغل فضله الشنيع مستحيل لقد أحسست بالضياح. وما دمت ضائعاً، فليكن مثلي في الضياح. ولكن إذا حكموا علي بالموت فمن الحماقة أن أموت من أجل شخص وضع. وعاهدت نفسي أن لا أقتله إذا لم يستل سكينه. مضى الليل ولم أنم. وقد دخن علبه من التبغ بأكملها. وبقيت لي سيجارتان عندما وصلت قهوة الصباح في الساعة السادسة. كنت على درجة من الإجهاد حتى أنني قلت لموزع القهوة - وهذا شيء ممنوع - هل في

وسعك أن تعطيني بعض السجائر أو قليلاً من التبغ؟ بعد الاستئذان من الرقيب. إني في غاية الإعياء يا سيد أنتارتاكليا.

— نعم. أعطه إذا كان لديك. أما أنا فلا أدخن. إني أرثي لحالك من كل قلبي يا بابيون. وأنا بصفتي كورسيكياً أحب الرجال وأكره الدناءة.

الساعة الرابعة إلا ربعاً، وأنا في الفناء بانتظار الدخول إلى القاعة. وكان هناك ناريك وكينييه وبورسيه وكاربو نييري. والخفير الذي يراقبنا هو أنتار تاكليا مراقب القهوة. كان يتحدث مع كاربو نييري باللغة الكورسيكية. وفهمت منه أنه يقول: من المؤسف ما حدث له، سيعاقب ثلاث سنوات في السجن الانفرادي. وفي هذه اللحظة انفتح الباب ودخل إلى الباحة العربي الذي كان يعتلي شجرة جوز الهند، والعربي حارس المصنع وبيير سيليه. وعندما لمحني تراجع قليلاً فقال له الحارس الذي يرافقهم:

— تقدم وانفرد هنا على اليمين، وأنتار تاكليا لم يدع مجالاً لأن يختلط بعضهم ببعض وقال:

— يمنع التخاطب بين الفريقين. لا يزال كاربو نييري يتكلم باللغة الكورسيكية مع مواطنه الذي يراقب الفريقين. انحنى الحارس ليصلح أنشودة حدائه، فأومأت إلى ماتيوي أن يتقدم قليلاً إلى الأمام، ففهم على الفور ونظر نحو سيليه وبصق في اتجاهه. ولما استقام المراقب استمر كاربو نييري في محاورته دون انقطاع مسترعياً انتباهه إلى أن اختلست خطوة في غفلة منه، تركت مديتي تنساب إلى يدي بحيث يستطيع سيليه أن يراها وحده، وفي سرعة مذهلة استل سكيناً مفتوحة، وسدد لي طعنة قطعت عضلتي في الذراع الأيمن وأنا أعسر، فأوجرت^(١) مديتي في صدره حتى آخر نصلها، فندت عنه صرخة كصرخة الوحش. آ — آ — آه. وارغمي على الأرض كتلة هامة. شهر أنتر تاكليا مسدسه وقال لي: تراجع يا صغير تراجع. لا تضربه وهو على الأرض وإلا اضطرت إلى إطلاق النار عليك وهذا ما لا أريده.

دنا كاربو نييري من سيليه وحرك رأسه بقدمه وقال باللغة الكورسيكية كلمتين ففهمت أنه يقول: قضى نحبه. وكرر الحارس أعطني سكينك يا صخير فسلمته إليها. وأعاد مسدسه إلى قراه، وذهب إلى الباب الحديدي وقرعه، وفتح أحد الحراس الباب فقال له: أرسل حملة المحفة لينقلوا ميتاً.

— من الذي مات؟

— بيير سيليه.

— آه لقد حسبته بابيون.

علق الاجتماع. قال لي كاربو نييري قبل الدخول إلى المشى:

— مسكين يا بابيون. هذه المرة وقعت.

(١) طعته

– نعم ولكنني حي. أما هو فقد نفق^(١).
عاد الحارس وحده وفتح الباب بهدوء. قال لي وهو لا يزال مضطرباً:
– اقرع الباب وقل إنك جريح. إنه هو البادئ بالهجوم لقد رأيته. وأعاد إغلاق الباب.

هؤلاء الحراس الكورسيكيون رهييون: فهم إما طيبون جداً وإما سيئون جداً.
خبطت على الباب وصرخت: أنا جريح خذوني إلى المستشفى لإجراء الضماد.
عاد الحارس مع الرقيب المراقب في المعسكر التأديبي.
– ما بك؟ لم هذا الضجيج؟
– أنا جريح يا رقيب.
– أنت جريح؟ كنت أظن أنه لم يمسك عندما هاجمك.
– عضلة ذراعي الأيمن مقطوعة.
– وقال للحارس: افتح.
وفتح الباب وخرجت. وبالفعل كانت العضلة مقطوعة.
– أشدد يديه بالقيد، واذهب به إلى المستشفى. ولا تدعه هناك مهما كانت الأسباب. أعدّه إلى هنا بعد العثاية به. ولدى خروجي كان هناك أكثر من عشرة حراس مع المقدم. قال مراقب المصنع: قاتل.
وقبل أن أجب قال له المقدم: اخرس أيها المراقب برويه. إن بابيون قد هوجم.
– ليس هذا صحيحاً.

قال انتز تاكليا: لقد رأيته، فأنا شاهد، واعلم يا سيد برويه أن الكورسيكي لا يكذب.

وفي المستشفى نادى شاتال الطبيب الذي ضمد الجرح دون تخدير ولا إبرة موضعية، ووضع لي ست قطب، دون أن يخاطبني بكلمة. وأنا تركته يفعل ما يشاء دون تذمر وأخيراً قال لي:

– لم أستطع تخديرك موضعياً إذ ليس عندنا حقناً لهذا الغرض.
ثم أردف قائلاً:
– لقد أسأت صنعاً.
– أنت تعلم أنه على كل حال، لن يعيش طويلاً بسبب الدمل الذي في كبده.
جوابي غير المتوقع تركه مشدوهاً.

استؤنف التحقيق، فاستبعدت مسؤولية بورسيه بشكل قاطع، لأنه كان مهدداً وهو الأمر الذي ساهمت في تثبيت القناعة به. وكذلك بالنسبة إلى ناريك وكيينه لعدم وجود الدليل. بقيت أنا وكاربو نييري الذي لم تثبت عليه تهمة السرقة والاختلاس. وأدين

(١) مات كالدواب.

بمحاولة الاشتراك في الهروب، فقال عليها عقوبة ستة أشهر.

أما بالنسبة إلي فإن الأمور تتعقد وتشابك، وفي الحقيقة فإنه بالرغم من شهود النفي الذين كانوا إلى جانبي لم يقبل المكلف بالتحقيق بشرعية الدفاع. وديفا الذي أطلع على الملف قال لي على الرغم من قسوة المحقق فإن الحكم بالإعدام مستحيل بسبب الجرح الذي أصابك. والشيء الذي أستند إليه الاتهام في تشديد العقوبة هو شهادة العربيين اللذين شهدا بأنني أنا من أخرجت السكين أولاً.

انتهى التحقيق. والآن انتظر النزول إلى سان لوران للمثول أمام المجلس الحربي. فلم أكن أفعل شيئاً سوى التدخين، فلا أمشي إلا قليلاً. سمح لي بنزهة ثانية بعد الظهر مدة ساعة. لم يكن المقدم ولا المراقبون يضمنون لي عداوة ولا بغضاء باستثناء مراقب المصنع والمحقق. وكلهم يكلمونني غير حاقدين ويسمحون لي بإدخال التبغ الذي أريده.

اليوم هو الثلاثاء. والذهاب يوم الخميس. وفي صباح الأربعاء كنت في الفناء عندما ناداني المقدم وقال: تعال معي. فخرجت معه بغير حراسة. فتساءلت إلى أين نذهب. نزل في الطريق المؤدي إلى منزله وفي الطريق قال لي:

— تريد زوجتي أن تراك قبل رحيلك، ولم أشأ أن أغمها برؤيتك مخفوراً بحارس مسلح وأرجو أن تحسن التصرف.
— أجل أيها المقدم.

وصلنا إلى داره فتأدى، جوليت! جئتكم بمن تحمينه، كما وعدتك، ويجب أن أعود به قبل الظهر. ولديك ما يقرب من الساعة للتحديث معه، ثم انسحب خفية. اقتربت جوليت ووضعت يدها على كتفي، وحدثتني في عيني، وعيناها السوداوان تزدادان لمعاناً بقدر ما تغرقان في الدموع، ولكنها تماسكت.

— أنت مجنون يا صديقي؟ لو أنك قلت لي إنك تريد الهروب لكان في وسعي، على ما أعتقد، تيسير الأمور لقد طلبت من زوجي أن يمد لك يد العون قدر المستطاع، فقال لي إنه يأسف أن المسألة ليست منوطة به. استدعيتك أولاً لأعرف أحوالك. أهنتك على شجاعتك، وقد وجدتكم في حال أفضل مما كنت أتصور. وأود أو أقول لك بأنني أريد أن أدفع لك ثمن السمك الذي قدمته لي بسخاء في أشهر عدة. إليك ألف فرنك هذا كل ما أقدر عليه ويؤسفني أن لا أستطيع أن أفعل خيراً من هذا.

— اسمعي مدام، أنا لست في حاجة إلى المال بل ينبغي أن لا أقبل ما يكدر صفاء صداقتنا.

ودفعت بيدي الورقتين من فئة خمس مئة فرنك، المدفوعتين بسخاء. لا تلحي أرجوك.

— كما تشاء. هل لك في كأس من الشراب الخفيف

وخلال أكثر من ساعة ما كنت أسمع من هذه المرأة الفاتنة إلا كلاماً عذباً. إنها تفترض بالتأكيد أنه سيصدر حكم علي بسبب قتل هذا القذر بشمانية عشر شهراً وبستين من أجل الباقي.

وفي لحظة الوداع شذت على يدي بكلتا يديها وقالت: إلى اللقاء وأتمنى لك حظاً سعيداً، ثم انفجرت باكية.

اقتادني المقدم إلى معسكر الزنزانات، وفي الطريق قلت له:

— سيدي المقدم عندك زوجة من أنبل نساء العالم.

— أعلم ذلك يا بابيون. وهي لم تخلق لتعيش هنا، فالحياة هنا قاسية عليها. ولكن ما العمل. وعلى كل حال سأحال على التقاعد بعد أربع سنوات.

— أحب أن أستغل فرصة وجودنا منفردين لأشكر لك هذه المعاملة الطيبة رغم المضايقات الكبيرة التي كانت ستحق بك لو أنني نجحت في الفرار.

— فعلاً. كنت ستسبب لي متاعب جمة. هل تحب أن أقول لك شيئاً؟ إنك تستحق النجاح. ولدي باب المعسكر أضاف:

— وداعاً بابيون وكان الله في عونك فأنت في حاجة إلى عونه.

— وداعاً أيها المقدم.

نعم إنني في حاجة إلى عون الله، لأن المجلس الحربي يرأسه مقدم في الدرك ذو أربع شارات عرف عنه القسوة والتجرد من الرافة.

ثلاث سنوات بسبب السرقة واختلاس مواد عائدة للدولة، ثم انتهاك حرمة قبر، فمحاولة هروب. هذا عدا خمس سنوات عقوبة قتل سيليه. فالمجموع ثماني سنوات، ولو لم أكن جريحاً لحكم علي بالموت ولا ريب.

هذه المحكمة التي قست علي أشد القسوة. كانت أقل قسوة على بولوني يدعى داندوسكي قتل رجلين وعن سابق قصد وتصميم لا جدال في ذلك وحكمت عليه بخمس سنوات فقط.

داندوسكي هذا، كان خبازاً لا يقوم إلا بعملية العجن. فهو يشتغل ثلاث ساعات فقط في الصباح. ولما كان المخبز على الرصيف تجاه البحر فإنه كان يقضي ساعات فراغه في الصيد. كان هادئاً ولا يحسن التكلم باللغة الفرنسية ولا يآلف أحداً. وقد ولد السجن المؤبد فيه حناناً نحو قط رائع أسود اللون أخضر العينين. كان يعيش معه وينام معه ويتبعه إلى العمل كالكلب وباختصار كان البولوني يحب قطه حباً جماً، ويصطحبه في ذهابه إلى الصيد، وإذا كان الطقس حاراً، ولم يجد القط ركناً يستظل به، فإنه يعود إلى المخبز وحده وينام في سرير صاحبه. وعندما يقرع الجرس ظهراً فإنه ينطلق نحو البولوني، ويتوالت نحو السمكة التي يرقصها صاحبه أمام أنفه إلى أن يتعلق بها.

كان الخبازون يتعايشون معاً في قاعة تابعة للمخبز. وفي أحد الأيام دعا السجينان المدعوان كورازي وأنجيلو داندوسكي إلى طعام يأكلون فيه أرنباً مطبوخة مع الخضار والمرق. وهذا ما يحصل مرة في كل أسبوع على الأقل. أكل داندوسكي معهم وقدم زجاجة من الخمر فشربوا وهم يأكلون. لم يرجع القط مساء، وبحث عنه البولوني في كل مكان دون جدوى. مر أسبوع والقط غائب، ولم تعد نفس داندوسكي الحزين تشتهي شيئاً بعد فقده القط. لقد كان يعاني الأسى، لاختفاء الكائن الوحيد الذي يحبه اختفاء غامضاً. ولما علمت زوجة أحد المراقبين بمرارة كآبته أهدته قطاً صغيراً فرده قائلاً للمرأة: كيف تفترضين أنني أستطيع أن أحب قطاً سوى قطي. إنها إهانة كبيرة لذكرى العزيز المختفي عن الأنظار.

وذاث يوم ضرب كورازي مستخدماً يوزع الخبز وهو لا يبيت مع الخبازين، ولكنه تابع للمعسكر فراح يبحث عن داندوسكي وقد امتلأ قلبه غيظاً وحقدًا حتى لقيه فقال له:

— هل تعلم بأن الأرنب التي أكلتها مع كورازي وأنجيلو لم تكن سوى قطك؟
فأمسك البولوني بخناق الرجل وقال له:
— ما البرهان؟

— ستجده تحت شجرة المانغو، القائمة خلف الزوارق قليلاً. رأيت كورازي يدفنه هناك. وعدا البولوني كالمجنون، وعثر فعلاً على الجلد فجمعه وقد بدأ يتفسخ والرأس متفكك. فذهب إلى البحر يغسله، ثم جففه بتعريضه للشمس ثم لفه بقماش نظيف ودفنه في مكان جاف عميق لئلا يأكله النمل.
هذا ما حكاه لي البولوني.

وفي الليل كان كورازي وأنجيلو جالسين جنباً إلى جنب على مقعد يلعبان تحت ضوء مصباح بترولي. داندوسكي يبلغ من العمر أربعين عاماً، متوسط الطول، عريض المنكبين وقوي جداً.

هياً عصا غليظة متينة كالحديد، وهي في وزن الحديد، وجاء من خلفها ووجه ضربة عنيفة على رأس كل منهما فانفتحت جبهتهما كرماتين وتناثر النخاع على الأرض.

وبلغت به حدة الغضب وثورة الجنون أنه لم يكتف بقتلها بل أخذ الدماغ والصقه على جدار القاعة وقد تضرع بالدم والدماغ.

إذا كان المقدم رئيس المجلس الحربي لم يفهمني، فإن داندوسكي الذي قتل رجلين عن سبق إصرار وتصميم لم يعاقب بأكثر من خمس سنوات، من حسن طالع.

السجن الانفرادي الثاني

صعدت إلى الجزر مقروناً بالبولوني، ولم يجرؤوا إلى سراديب سان لوران، وصلنا يوم الاثنين، ومثلنا أمام المجلس يوم الخميس، ويوم الجمعة أبحرنا نحو الجزر، فصعدنا إليها ستة عشر رجلاً منهم اثنا عشر سجيناً، وكان البحر أثناء الرحلة هائجاً، وغالباً ما كان سطح الزورق يغتسل بكل موجة أكبر من سابقتها. وبلغت من اليأس أن تمنيت أن يفرق هذا الزورق. لم أكلم أحداً. تجمعت على نفسي بسبب الريح المخضلة بالماء التي تلامس وجهي. لم أكن أحمي نفسي بل العكس هو الصحيح. تركت قبعتي تطير راضياً، ولن أحتاج إليها خلال ثماني السنوات القادمة، أواجه الريح وأنفوس وهي تلسعني حتى الاختناق واستدركت:

إن سمك القرش قد أكل بيير سيليه. وأنا لي من العمر ثلاثون عاماً. وعلي أن أمضي ثمانية أخرى؟ ولكن هل من الممكن إتمامها بين جدران الزنزانة آكلة البشر. وبحسب تجربتي أظن ذلك مستحيلاً أو أربع أو خمس سنوات هي الحد الأقصى للمقاومة الممكنة. ولو لم أقتل سيليه لما حكموا علي أكثر من ثلاث سنوات، ربما ستين، لأن القتل جعل كل شيء فادحاً في نظرهم حتى الهروب. ما كان ينبغي أن أقتل هذه الجيفة. وواجبي كرجل أن لا أثار لنفسه. الحياة، من أجل الهروب فوق كل شيء. كيف انزلقت هذا المنزلق. وقد كاد هذا القدر أن يقتلني. الحياة، الحياة، الحياة، هذا ما يجب أن يكون مذهبي الأوحد.

من بين المراقبين المرافقين، مراقب عرفته في السجن الانفرادي ولا أعرف اسمه، ولكنني شعرت برغبة ملحة في طرح سؤال عليه
— يا رقيب! أرغب في أن أسألك سؤالاً.
دنا مني مستغرباً وقال: ماذا؟
— هل تعرف رجلاً استطاعوا إتمام ثمانية أعوام في الانفرادي؟
فكر قليلاً وقال:

لا. إنما أعرف عدداً من الذين أمضوا خمس سنوات. واذكر واحداً منهم خرج بصحة جيدة ومتوازناً، بعد قضاء ست سنوات وكنت موجوداً عندما أطلقوا سراحه.
— شكراً.
— لا شيء يستحق الشكر. أظنك محكوماً بثمانية سنوات.
— أجل يا رقيب.
— لن تستطيع الخروج إلا إذا لم يسبق لك أن عوقبت قبلاً. ثم، انسحب.

هذه العبارة هامة جداً. أجل لن أستطيع الخروج حياً إذا سبق لي أن عوقبت. وفي الحقيقة إن العقوبات تستند إلى أساس اقتطاع جزء من الغذاء، أو كله لفترة من الزمن. وبالتالي، حتى لو عاد السجين إلى نظامه الغذائي المعتاد فإنه لن يستطيع الانتعاش والنهوض. وبعض العقوبات القاسية تمنعه من الاستمرار حتى النهاية، فإنه يموت قبل ذلك. والحصيلة هي كالتالي: يجب أن لا أقبل بجوز الهند أو السجائر، ولا الكتابة، ولا تلقي الأوراق المكتوبة.

وفي الطريق كنت اجتر هذا القرار دون انقطاع: لا شيء على الإطلاق لا من الداخل ولا من الخارج. لمعت في ذهني فكرة: الوسيلة الوحيدة، لكي أساعد نفسي دون مخاطرة هي في أن يقوم أحدهم من الخارج برشوة موزعي الحساء لانتقاء أكبر اللحم وأفضله ظهراً. وهذا أمر هين، وذلك لأن أحدهم، يسكب المرق وآخر بعده يحمل الصينية، ويضع قطع اللحم في الصحون. يجب أن يغترف لي من قاع القدر غرفة أنال بها أكبر كمية ممكنة من الخضار. لقد تنشطت بهذه الفكرة. وفي الواقع أستطيع أن أكل جيداً إلى حد تهدئة الجوع وربما إلى حد الشبع إذا أحسنت ترتيب ذلك. وعلي أن أحلم وأن أخلق في جو الخيال قدر المستطاع مختاراً الأفكار السعيدة حتى أبعد عن نفسي شبح الجنون.

وصلنا إلى الجزر وما كدنا نصل حتى رأيت جوليت في ثوبها الأصفر إلى جانب زوجها الذي سرعان ما اقترب مني، قبل أن يلاصق المركب الرصيف وقال:
— كم؟
— ثماني سنوات.

عاد إلى زوجته وكلمها وبدا عليها الانفعال فجلست فوق حجر خائفة القوى. أخذ زوجها بذراعها فنهضت ويعد أن ألقت من عينيها النجلاوين نظرة مثقلة. انصرفا دون أن يلتفتا.

قال ديفاً: كم؟ قلت ثماني سنوات في السجن الانفرادي.
لم يقل شيئاً ولم يجرؤ على النظر إلي. اقترب كالكاني، وقبل أن يسألني قلت له:
— لا ترسل لي شيئاً ولا تكتب لي شيئاً، فالعقوبة طويلة ولا تحتل المجازفة بأي قصاص.
— أفهم

وبصوت منخفض أضفت مسرعاً: تدبر أمر إطعامي طعاماً جيداً قدر المستطاع ظهراً وعشاء. فإذا توصلت إلى ذلك ربما التقينا يوماً ما. وداعاً.
ثم توجهت طوعاً نحو الزورق الأول الذي يقلنا إلى سان جوزيف، والجميع ينظرون إلي كما ينظرون إلى نعش ينزل في حفرة، وقد أمسكوا عن الكلام. وخلال الرحلة القصيرة كررت على مسمع شابار ما قلته لكالكاني فأجاب:

— هذا ما يجب أن يحصل. تشجع بابيون. وماذا بشأن ماتيو كاربو نيري؟
— اعذرني على نسياني إياه. لقد طلب رئيس المجلس الحربي مزيداً من المعلومات قبل أن يتخذ قراراً. أهذا سيء أم حسن؟

— هذا أمر حسن في ظني.
أنا في الصف الأول من الطابور المؤلف من اثني عشر رجلاً، الذي يتسلق الساحل للذهاب إلى الانفرادي وكنت عجولاً فصعدت مسرعاً وحشت الخطأ حتى قال لي الحارس: تمهل بابيون، لكأنك تستعجل العودة إلى البيت الذي غادرته منذ وقت قريب. وصلنا.
— أقدم لكم مقدم الانفرادي.

— يؤسفني أنك عدت يا بابيون. أيها السجناء.. إلى آخر محاضرتي المألوفة.
المبنى (أ) والزنازة المئة والسابعة والعشرون هي الأفضل لك يا بابيون إذ ستكون مواجهاً لباب الممر، وهكذا سيأتيك بعض النور، وبعض الهواء. وآمل أن تسلك سواء السبيل ثماني سنوات زمن طويل، ومن يدري؟ لعلك تنال عفواً عن سنة أو سنتين، إذا كان سلوكك رائعاً وأتمنى لك هذا لأنك رجل شجاع.

هأنذا في الزنازة المئة والسابعة والعشرين. وبالفعل تقع تجاه باب كبير ذي شبك يطل على الممر. ولو بلغت الساعة السادسة يمكن رؤية الأشياء في وضوح. وليس للزنازة رائحة العفن التي كانت لزنزاتي السابقة، وهذا ما أعطاني شحنة من الشجاعة، قلت لنفسي:

— يا بابيون المسكين هذه الجدران الأربعة ستراك تعيش ثماني سنوات، إياك أن تعد الشهور والساعات، وإذا أردت قياساً مقبولاً فيجب أن تعتمد ستة الشهور وحدة قياس ست عشرة مضروبة في ستة أشهر، تصبح بعدها حراً. وعلى أية حال إنك واجد منفعة. فإذا مت هنا فعل الأقل ترتاح للموت في الضياء، هذا إذا حدث الموت في النهار. وهذا أمر له قيمته. إن الموت في الظلام لا يبعث على السرور، وإذا مرضت فإن الطبيب سيبري وجهك. وليس عليك أن تلوم نفسك على رغبتك في الهروب، ولعمري لا ندامة على قتل سليله. تصور كم يحيق بك من العذاب، لو أنه هرب وأنت قابع هنا، والزمن سيكشف ذلك. ولربما صدر عفو عام، أو اشتعلت حرب، أو حدثت هزة أرضية، أو إعصار يهدم هذا الحصن. لم لا؟

وقد يرجع رجل شريف إلى فرنسا فيشر الفرنسيين، وهؤلاء سوف يجبرون إدارة السجون الإصلاحية على إلغاء هذا النمط من الذبح بغير مقصلة. ربما روى طبيب رحيم القلب، كل هذا بصحفي أو راهب وما يدريني؟ وعلى أي وجه فإن سليله قد هضمته أسماك القرش وأنا هنا، وإذا كنت جديراً باسمي يجب أن أخرج حياً من هذا اللحد.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، نصف دورة. بدأت السير مسترجعاً على الفور وضع الرأس والذراعين وطول الخطوة اللازم، واشتغل رقاص الساعة على أنم وجه،

وعزمت على المشي ساعتين في الصباح وساعتين بعد الظهر، إلى أن أعرف إذا كان بالإمكان الاعتماد على تغذية متميزة بكميتها. وعلى أن لا أبدأ بهذه العصبية منذ الأيام الأولى في تبديد الفعالية هدرًا.

إن هذا الإخفاق أخيراً ليعت على الحسرة. صحيح أنها لم تكن إلا المرحلة الأولى من الهرب، غير أنه كان أمامنا رحلة بحرية سعيدة، مسافة مئة وخمسين كيلو متراً فوق هذا الطوف الواهن. وحيثما وصلنا من الأرض الكبرى يجب أن نقوم بهروب آخر. ولو أن النزول كان ميسراً فإن الشراع المصنوع من ثلاثة أكياس طحين كان سيدفع الطوف بسرعة عشرة كيلو مترات في الساعة وفي أقل من خمس عشرة ساعة نصل إلى اليابسة. هذا إذا نزل المطر نهائياً إذ لا نجسر على رفع الشراع إلا في جو ممطر. وأظن أن المطر قد هطل بعد نزولي إلى السرداب. ولست واثقاً من هذا.

أحاول الكشف عن الأخطاء، لم أجد إلا اثنين. أراد النجار أن يصنع طوفاً محكماً موثقاً فوجب أن يصنع صندوقاً يكس في جوز الهند، ففد الأمر وكأننا وضعنا طوفاً داخل طوف واستلزم هذا خشباً كثيراً، واستغرق وقتاً طويلاً لإنجازه بحذر، والخطأ الثاني، وهو الأفدح، الشك لأول وهلة في سليله إذ كان ينبغي أن أقتله منذ الليلة الأولى ولو أنني فعلت هذا، ترى أين كنت الآن؟

حتى لو وصلت إلى الأرض الكبرى أو قبض علي في لحظة الإنزال إلى الماء ما كنت عوقبت بأكثر من ثلاث سنوات لا ثماني، ولكنت راضياً بما حصل.. ولو أن الأمور سلكت سبيل التوفيق في الجزر وفي الأرض الكبرى.. قدر ولا حرج، ربما كنت أتحدث الآن مع بوين في تري니다د، أو كنت في كوراساو، أو في حماية الأسقف إيرنيه ومن هناك ما كنا رجعنا إلا بعد الوثوق من أن هذا البلد أو ذاك يقبلنا. وفي حال العكس كان سهلاً علي أن أرجع وحدي على زورق صغير مباشرة إلى الكاجيرا عشيرتي.

نمت متأخراً، وكان نومي طبيعياً، والليلة الأولى لم تفت في عضدي. الحياة، الحياة، علي أن أردد كلمة الأمل هذه ثلاثاً، كلما شعرت بالاستسلام إلى اليأس، لا ياس مع الحياة.

مر أسبوع، ومنذ أمس شعرت بأن تغيراً قد طرأ على طعامي. قطعة رائعة من اللحم المسلوق ظهر، وعند المساء، قصعة مملوءة بالعدس الصافي بدون مرق تقريباً، وقلت لنفسي كالطفل: هذا العدس يحوي مادة الحديد، وهذا مفيد جداً، للصحة، فإذا استمر هذا أمكنني المشي من عشر إلى اثني عشرة ساعة كل يوم، وعندما أتعب أسرح مع النجوم. لا. لا أهيم، فأنا على الأرض أفكر في أحوال جميع السجناء الذين عرفتهم في الجزر، ولكل واحد منهم قصعة من قبل ومن بعد. وفكرت في الأساطير التي رويت في الجزر، ووعدت نفسي بتنفيذ إحداها عندما أرجع إلى الجزيرة وهي قصة الناقوس.

كما قلت سابقاً إن السجناء لا يدفنون، إنما يلقون في البحر، في مكان يخلص بأسماء القرش. يلفّ الميت بأكياس الطحين بعد أن يربطوا قدميه بحبل تعلق به صخرة. والصندوق المستطيل لا يتغير، في وضع أفقي في مقدمة المركب، وعندما يصل المجدفون، وهم من السجناء، إلى المكان المحدد يرفعون المجاديف أفقياً إلى مستوى متن المركب؛ يميل أحدهم الصندوق، ويفتح الآخر سقفاً متحركاً فتتزلق الجثة. ومن الثابت أن أسماك القرش تقطع الحبل ولا تدع مجالاً للجثة للغوص بعيداً فتطفو على السطح وتتنازع هذه الأسماك على اختيار هذه القطعة من اللحم أو تلك. والذين رأوا هذا المشهد المثير يضيفون إلى ذلك أن الأسماك عندما يكون عددها كبيراً ترفع الكفن وما احتوى فوق سطح الماء وهي تنهش أكياس الطحين مع قطع كبيرة من الجثة.

هذا ما يحصل بالفعل كما وصفته. ولكن شيئاً واحداً لم أتأكد منه. لقد روى جميع المحكومين دون استثناء أن الذي يجذب القروش إلى هذا المكان هو صوت ناقوس الكنيسة الذي يقرع عندما يكون هناك ميت ويبدو أنك إذا كنت على طرف المرمى في ريوال في الساعة السادسة مساءً من بعض الأيام لا ترى قرشاً واحداً، فإذا ما قرع الجرس في الكنيسة الصغيرة احتشدت القروش في أقل من لحظة تنتظر، إذ لا شيء يثبت أنها تتحرك إلى هذا المكان في تلك الساعة المعلومه. وأتمنى أن لا أكون يوماً وجبة طعام لأسماك القرش في ريوال في مثل هذه الظروف. لتفترسني حياً أثناء الهروب سعياً وراء الحرية، هذا لا يهمني. أما أن أموت بعد مرض في الزنزانة وأكون طعاماً لها، فهذا لن يكون.

بفضل ما نظمه أصدقائي من الراتب الغذائي كنت آكل إلى حد الشبع، وأجد نفسي في صحة جيدة. وأمشي منذ الساعة السابعة صباحاً وحتى السادسة مساءً دون توقف، كذلك في المساء تكون الصفحة ملأى بالخضار الجافة من الفاصوليا والعدس والبازلاء والأرز مع الدسم كنت آكلها كلها دون أن أجبر نفسي على ذلك. والمشي يساعدني كثيراً ففي هذا التعب الذي يسببه لي، السلامة والعافية. ولقد توصلت إلى الشرود وأنا أمشي. بالأمس مثلاً أمضيت نهاري في مروج بلد صغير في الأريديش يدعى فافراس، كنت أقصده غالباً - بعد أن ماتت أمي - لأقضي بضعة أسابيع عند خالتي المدرسة في هذه الضيعة.

بالأمس كنت على أجنحة الخيال في غابات الكستناء، أجمع الفطور ثم أسمع صاحبي الصغير راعي الغنم يصدر أوامره إلى كلبه الذي ينفذها بإحكام، فيسترجع شاة شاردة أو يعاقب عترة تجري مسرعة، وأكثر من ذلك كنت أحس برودة النبع المترج بطعم الحديد في فمي وأتذوق دغدغة حبابه الصغيرة التي تتصاعد إلى أنفي. هذا الإحساس الواقعي باللحظات الغابرة والتي مر عليها خمس عشرة سنة، والقدرة على بعثها من جديد بمثل هذا العنف، لا تتأني إلا في الزنزانة بعيداً عن كل ضجة وفي صمت مطبق.

إنني أرى لون ثوب تاتا أوتين الأصفر، وأسمع صرير احتكاك الريح بشجر الكستناء وأسمع صوت ارتطام الكستناء بالأرض الجافة الرخوة عند تساقطها على بساط من أوراق الشجر. وأرى الخنزير البري الضخم الذي برز من بين أشجار الوزال فروّعي حتى أطلقت ساقى للريح كالمجنون، فتساقط مني أكثر ما جمعت من الفطور.

نعم. أمضيت النهار في فافراس مع تاتا وصديقي الراعي الصغير جوليان. هذه الذكريات التي انبعثت من الماضي حية وهي مفعمة بالصفاء والحنين والوضوح، لا يستطيع أحد أن يحول بيني وبين الاستغراق في طياتها، وأن استمد منها الهدوء الذي لا غنى عنه لنفسي المثخنة. إنني في إحدى الزنانات أكلة الرجال. وفي الواقع إنني اختلست منهم نهائراً كاملاً حين سرحت فيه في فافراس بين المروج وأشجار الكستناء بل شربت ماء معدنياً من النبع المسمى (بيشه)... مضت ستة أشهر، ولقد عاهدت نفسي على أن أعتد أنصاف السنين حساباً وقد أنجزت وعدي. في هذا الصباح خفضت العدد إلى خمس عشرة بدلاً من ست عشرة وصار العدد الآن: ستة أشهر مضروبة بخمس عشرة.

لنجر الحساب: لم يحدث أي حادث شخصي خلال الأشهر الستة. الغذاء ثابت ولكنه ملائم فلا شكوى من ناحية الصحة. كثرت حولي الانتحارات، وزاد عدد المجانين الصاخين والذين ينقلون على عجل. إنه لمن موجعات القلب أن يسمع المرء صرخاً أو تشكياً أو أتيناً ساعات طويلة بل أياماً بأكملها. عثرت على شيء جيد ولكنه سيء بالنسبة إلى الأذن. اقتطعت قطعتين من الصابون وأقحمتها في أذني لثلا أسمع هذه الصيحات التي ترتعش لها القلوب، ولكن من المؤسف أن الصابون يؤذيني ولا تلبث القطعتان أن تنسابا بعد يوم أو يومين.

ولأول مرة منذ دخولي إلى الزنانة أذل نفسي في طلب شيء من أحد الحراس. إنه المراقب الذي يوزع الحساء وهو من مونتليمار البلدة القريبة من بلدي، وكنت عرفته في رويال. التمسيت منه أن يحضر لي كرة من الشمع الذي يساعدني على احتمال صيحات المجانين المجلجلة قبل ترحيلهم. وفي الغداة أحضر لي كرة شمعية بحجم الجوزة وما كان أحسنه من علاج في صم الأذان عن سماع هؤلاء التعساء.

لقد تعودت على كثيرات الأرجل. ففي خلال ستة أشهر لم تعضني سوى مرة واحدة. وأثبت جيداً حين أستيظ وأرى إحداها تنتزه على جسدي العاري. أعتاد كل شيء، وهذه مسألة تتعلق بمراقبة الذات، لأن هذه الدغدغة التي تحدثها الحشرة بأرجلها وقرنها تبعث على النفور. وإذا لم نحسن التقاطها فإنها تلسع، والأجدى أن ندعها تنحدر

وحدها وبعد ذلك نبحت عنها ونحرقها. على مقعدي الإسمنتي توجد دوماً قطعتان من الخبز أو ثلاث مما يفضل من طعام اليوم، والرائحة تجذبها بصورة إجبارية فتسعى إليها وحينئذ أقتلها.

ينبغي أن أطرده من ذهني فكرة ثابتة لجوج: لماذا لم أقتل بيبير سيليه في اليوم الذي ساورتنا فيه الظنون بدوره المشؤوم؟ وأجري مناقشة بيني وبين نفسي: متى يحق لنا أن نقتل؟ ثم استخلص: الغاية تبرر الوسائل. فغاييتي هي النجاة في الهروب، وأسعفني الحظ في إنهاء طوف محكم الصنع وإخفائه في حرز مكين. أما الهروب فمترك للزمن وقد عرفت الخطر الذي يمثلته سيليه عند إنجاز القطعة قبل الأخيرة والتي وصلت إلى موضعها بأعجوبة. وكان ينبغي أن أنفذ دون تردد، وسلمت بأنني كنت مخدوعاً بالمظاهر الزائفة ألا أكون قد قتلت رجلاً بريئاً. يا للقباحة! ولكن هذا منافع للمنطق أن تطرح مشكلة ضمير. أنت مسجون مؤبداً. والأسوأ من ذلك أنت محكوم بشماني سنوات بالسجن الانفرادي داخل عقوبة مؤبدة. ماذا تظن أيها النفاية الضائعة وأنت تعامل معاملة رجس من أرجاس المجتمع؟ أود أن أعرف إذا كانت قطع الجبن الإثنتا عشرة (المحلفون) الذين حكموا عليك، قد سألوا أنفسهم مرة واحدة بوحى من ضمائرهم، ليعرفوا حقاً هل أحسنوا صنفاً في حكمهم الجائر أم لا؟ وهذا المدعي العام الذي لم نقرر بعد بأية آلة ستنتزع لسانه، هل سأل نفسه إن كان قاسياً في تحقيقاته أم لا؟ حتى المحامون أنفسهم لا يذكرونك بكل تأكيد. ولا بد أنهم يتكلمون بعبارات عامة حول قضية بيبون النعسة في محاكم عام ١٩٣٢: «تعلمون أيها الزملاء حتى ذلك اليوم لم أكن على ما يرام. زد على ذلك أن المدعي العام كان في أوج أيامه. لقد أمات هذه القضية، إكراما للاتهام، بصورة متقنة. إنه حقاً خصم من الصنف الرفيع». كنت أسمع هذا كما لو كنت بجانب الأستاذ ريمون هوير في محاورة مع المحامين أو في اجتماع عالمي أو بالأحرى في عمر من عمرات القصر العدلي. واحد فقط له بالتأكيد وضع لائق، نزيه وشريف هو الرئيس بيجان. يستطيع هذا الرجل النصف أن يناقش زملاءه أو أن يتكلم في اجتماع عالمي عن أخطار الأحكام الصادرة عن المحلفين. لا بد أنه سيقول بكلمات متقاة بأن الاثني عشر محلفاً ليسوا مؤهلين لحمل مثل هذه الأمانة، لأن بلاغة الاتهام أو الدفاع تسحرهم تبعاً لهيمنة أحد الطرفين في هذه المبارزة الخطابية، وإنهم يبرثون ساحة هذا أو يحكمون على ذلك، دون أن يعلموا كيف، حسب الجو الذي يخلقه أقوى الفريقين سلباً أو إيجاباً.

الرئيس وأسرّي أيضاً. نعم أسرّي كانت تحقد علي قليلاً بلا ريب بسبب ما خلقت لها من متاعب وأبي وحده هذا الأب المسكين لم يتذمر من الصليب الذي ألقى به ابنه على كاهله. أنا واثق من ذلك، فهو يجبر هذا الصليب الثقيل دون أن يتهم ولده، ولم يوجه إليه لوماً — وهو المدرس الذي يحترم القوانين — بل كان يعمل على تفهيمها وتقبلها. وأنا متأكد من أنه في أعماق نفسه يصرخ أيها القذرون: لقد قتلتم ولدي، والأسوأ من هذا أنكم حكتم عليه بالموت البطيء وهو ابن الخامسة والعشرين؛ ولو كان يعلم أين ابنه وماذا فعلوا به لغدا فوضواً.

إن آكلة الرجال هذه الليلة استحقت هذا الاسم أكثر من أي وقت مضى. فهمت

أن اثنين قد شنقا وآخر اختنق بإدخال خرق في فمه وفي منخريره .

الزنزانة المثة والسابعة والعشرين هي بالقرب من المكان الذي يتناوب فيه الحراس الحراسة، وأسمع أحياناً جانباً من أحاديثهم . في هذا الصباح مثلاً لم يخفصوا أصواتهم كما ينبغي حتى لا أسمع ما يقولون عن أحداث الليل .

مرت ستة أشهر أخرى . فأجريت الحساب وحفرت على الخشب الرقم ١٤ بمسماز كان معي استعمله كل ستة أشهر مرة واحدة . نعم أجريت الحساب ، فالصحة جيدة ، والروح المعنوية عالية ، ويفضل رحلاتي إلى النجوم ، نادراً ما تتناوب أزمات اليأس ، وإذا حدثت تخفيتها في سرعة . وأصنع من أي شيء رحلة حقيقة أو خيالية تطرد الأفكار السوداء . وموت سليله يساعدي كثيراً في الانتصار على لحظات الأزمات الحادة ، فأقول : أنا على قيد الحياة ، أنا حي ويجب أن أبقى حياً ، حياً ، لأحيا من جديد حراً في يوم من الأيام . أما هو فقد حال بيني وبين الهروب فمات ولن يكون حراً كما سوف أكون . هذا مؤكد ، وهذا أمر موثوق به . وعلى كل حال سيكون عمري ، إذا خرجت ، ثمانية وثلاثين عاماً ، لن أكون كهلاً . والهروب الآتي سيكون الأمل . أنا على يقين .

واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، نصف دورة .

منذ أيام اسودت ساقاي ونزفت لثتي . هل أبدي مرضي ؟ ضغطت بالإبهام على أسفل ساقاي فظل الأثر مطبوعاً ، ولكأنني بها امتلأت ماء . منذ أسبوع وأنا لا أستطيع أن أمشي عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم . أنا متعب وأمشي ست ساعات فقط على فترتين . وعندما أغسل أسناني لا أستطيع أن أدعكها بالمنشفة المغسمة بالصابون دون أن أنالم أو يقطر الدم . وقد سقطت بالأمس إحدى أسناني من تلقاء ذاتها ، وهي إحدى القواطع من الفك العلوي .

إن ستة الأشهر الجديدة انتهت بثورة حقيقية . وفي الحقيقة ، طلبوا منا أن نخرج رؤوسنا ومر الطبيب وكان يرفع شفاه كل واحد منا . وهذا الصباح وبعد مكث في الزنزانة دام ثمانية عشر شهراً فتح الباب وقيل لي أخرج ثم قف تجاه الجدار وانتظر . كنت الأول بجانب الباب ، وخرج ما يقرب من سبعين رجلاً . قيل لنا : نصف دورة يساراً . فوجدت نفسي الأخير في صف سوف يتجه نحو الطرف الآخر من البناء خارجاً إلى الفناء .

الساعة التاسعة . طبيب شاب يرتدي قميصاً من الكاكي ذا أكمام قصيرة ، يجلس في الهواء الطلق خلف منضدة خشبية صغيرة ، وإلى جانبه ممرضان من السجناء ومراقب ممرض ، والجميع بما فيهم الطبيب لا أعرفهم . عشرة حراس والبنادق في أيديهم يغطون (المهرجان) . المقدم والرقباء المراقبون واقفون ينظرون دون أن يتفوهوا بكلمة . صاح المراقب : على الجميع أن ينزعوا ملابسهم ويتأبطوها . الأول ما اسمك ؟

— فلان

— افتح فمك . فرشخ . اقلعوا له ثلاث أسنان . كحول مع صبغة اليود أولاً ثم

أزرق ميتيلين وأخيراً شراب كوشلياريا مرتين في اليوم قبل الطعام.

كنت الأخير.

— ما اسمك؟

— شارير

— أنت الوحيد من له جسم لائق. هل وصلت الآن؟

— لا

— منذ كم أنت هنا؟

— اليوم أكملت ثمانية عشر شهراً.

— لم تكن هزياً كالآخرين؟

— لا أعلم.

— أنا أقول لك. لأنك تأكل أكثر منهم، وتستمني أقل. افتح فمك، باعد ساقيك.

ليمونتان في اليوم واحدة في الصباح والأخرى في المساء. مص الليمون مع شيء من عصارتها، ادلك اللثة فأنت مصاب بداء الحفر.

نظفوا لي لثتي بالكحول الإيودي، ثم دهنها بأزرق ميتيلين وأعطوني ليمونة.

نصف دورة فأنا في آخر الصف وعدت أدراجي إلى الزنزانة. إن ما حصل هو ثورة

حقيقية. إخراج المرضى إلى الفناء ليروا الشمس، وعرضهم على الطبيب عن كتب. لم يحصل مثل هذا من قبل. ما الذي يجري هنا؟ هل من قبيل المصادفة أن طبيباً يرفض أن يكون شريكاً أخرس لهذا النظام المشهور؟ هذا الطبيب الذي أصبح صديقاً لي فيما بعد يدعى جيرمان غيبير. مات في الهند الصينية. كتبت لي زوجته تعلمني بذلك من مكاريو في فنزويلا بعد سنوات عديدة من هذا اليوم.

أصبحنا نقوم بزيارة شمسية كل عشرة أيام. والوصفة ذاتها دوماً: كحول مع الإيود، أزرق ميتيلين وليمونتان. حالتي لا تتردى وكذلك لا تتحسن. طلبت شراب الكوشلياريا مرتين وفي المرتين امتنع الطبيب عن إعطائي إياه الأمر الذي بدأ يثيرني، لأنني لا أستطيع المشي أكثر من ست ساعات في اليوم، ولا يزال أسفل ساقي متورماً ومسوداً.

وفي يوم من الأيام كنت أنتظر دوري لاحظت أن الشجرة الصغيرة التي احتفى بظلها من الشمس هي شجرة ليمون بغير ليمون. انتزعت منها ورقة ومضغتها، ثم قطعت غصناً صغيراً من أغصانها يحمل بعض الوريقات بدون فكرة مسبقة. فعندما ناداني الطبيب وضعت الغصين خلف ظهري وقلت له:

— دكتور. لا أدري إذا كان هذا بسبب ليموناتك. انظر ماذا نبت لي خلف

ظهري، وأدركت له ظهري، وأريته الغصين. أغرق الحراس في الضحك باديء ذي بدء. ولكن الرقيب قال:

— بابيون ستعاقب على سوء أدبك مع الدكتور.

قال الطبيب: لا. أبداً لا ينبغي أن تعاقبه فأننا لا أشكو منه. ألم تعد تريد ليموناً؟
أهذا ما تقصده؟

— أجل دكتور! لقد اكتفيت من هذا الليمون، فأننا لم أجد فيه شفاء أود أن أجرب شراب الكوشلياريا

ليس عندنا إلا كمية ضئيلة من هذا الشراب احتفظ بها لمن كان مرضهم جسيماً ومع ذلك سأعطيك كل يوم ملعقة على أن تستمر في استعمال الليمون دوماً.
— دكتور رأيت هندو يأكلون طحالب بحرية وقد رأيت مثلها في رويال ولا بد أنها متوفرة هنا في سان جوزيف.

— إنها لفكرة غنية. سأوصي بأن يوزعوا عليكم منها كل يوم، فقد رأيته بالتأكد على شاطئ البحر أياكلها الهندو مطبوخة أم نيئة؟
— نيئة.

— حسناً وشكراً لك. وأرجو من المقدم أن لا يعاقبه فأننا اعتمد عليه.

— أجل يا نقيب.

حدثت معجزة. أصبح الخروج إلى الشمس لمدة ساعتين في كل ثمانية أيام، إما للعبادة أو للمرور أو رؤية بعض الوجوه والتهامس معها ببعض العبارات. من كان يحلم أن شيئاً عجيباً كهذا يمكن أن يحدث؟ إنه تغيير خيالي في نظر الجميع. الأموات ينهضون ويمشون في الشمس، وهؤلاء المدفونون أحياء أخيراً يستطيعون أن يتفوهوا ببعض الكلمات. إنها زجاجة أوكسجين تنفخ الروح في كل واحد منا.

كلاك. كلاك. لانهاية لهذا الصوت كلاك. فتحت أبواب الزنانات جميعاً في الساعة التاسعة من يوم الخميس وعلى كل واحد منا أن ينتصب واقفاً على عتبة الباب وصاح صائح: أيها السجناء؛ الحاكم يقوم بجولة تفتيشية.

كان في صحة الحاكم خمسة من الضباط في المستعمرة، وبالتأكيد جميعهم من الأطباء. الحاكم رجل طويل أنيق أشيب يمر بتؤدة على طول المعبر، أمام كل زنزانة وسمعتهم يشيرون إلى العقوبات الكبيرة ودوافعها، وقبل أن يصلوا إلي، رفعوا رجلاً لم يقو على الانتظار طويلاً وهو واقف. إنه واحد من آكلي لحوم البشر المدعو غرافيل قال أحد العسكريين: هذه جثة متحركة. فأجاب الحاكم: كلهم في حالة يرثى لها. وصلت البعثة إلي، فقال المقدم:

— عقوبة هذا أكبر عقوبة في الانفرادي.

قال الحاكم: ما اسمك؟

— شارير.

— ما عقوبتك؟

— ثمانين سنوات لسرقه مواد حكومية.. الخ قتل، ثلاث وخمس سنوات.

- كم أمضيت منها؟
- ثمانية عشر شهراً.
- كيف سلوكه؟
- قال المقدم: حسن.
- صحته؟
- قال الطبيب: وسط.
- ماذا عندك من قول؟
- إن هذا النظام لا إنساني وغير لائق بشعب كالشعب الفرنسي.
- ما الأسباب؟
- صمت مطلق، لا خروج للتنفس، إلا في هذه الأيام الأخيرة، والعناية مفقودة.
- تجلد جيداً. وسوف ينالك عفو إذا بقيت في الحكم.
- شكراً.

ومنذ ذلك اليوم ويأمر من الحاكم ورئيس الأطباء القادمين من مارتينيك وكاين أصبحنا نخرج للترهة ساعة من كل يوم مع حمام بحري في شبه مسيح. والسباحون في مامن من أسماك القرش بوجود جدار مرصوف من الأحجار.

في الساعة التاسعة من صباح كل يوم كنا ننزل من الزنانات الانفرادية إلى المسبح في زمر وكلنا عراة. وأجبرت نساء المراقبين وأولادهن على البقاء في المنازل حتى نستطيع النزول عراة. ودام ذلك شهراً فتغيرت سحن الرجال أيما تغير. هذه الساعة في الشمس، وهذا الحمام في الماء الملح، والتخاطب ساعة كل يوم قد غيرت هذا القطيع من السجناء المرضى نفسياً وجسدياً.

وذاث يوم وبينما كنت عائداً من المسبح إلى الزنانة، وكنت من الأواخر، سمعت صرخات امرأة يائسة، وطلقات مسدس، والصوت يقول:

- إلى النجدة، ابنتي تفرق.

كان الصراخ آتياً من الرصيف الذي لم يكن سوى منحدر اسمتي ينتهي إلى البحر حيث تتجاور المراكب. صرخات أخرى: أسماك القرش!

ثم طلقتان أخريان من مسدس. التفت الجميع نحو أصوات الاستغاثة، وطلقات النار وبدون تفكير دفعت أحد الحراس وعدوت نحو الرصيف، ولما وصلت رأيت امرأتين تصرخان وكأنهما فقدتا رشدهما، وثلاثة مراقبين، وعرباً.

صاحت المرأة: ارم بنفسك في الماء، فليست بعيدة، أنا لا أجيد السباحة، ولولا ذلك لذهبت يا عصابة الجبناء.

قال أحد الحراس: أسماك القرش! وأطلقوا عليها النار من جديد.

بنت صغيرة في ثوبها الأزرق، والأبيض تعوم فوق البحر يحرفها بهدوء تيار خفيف. وهي تتجه رأساً نحو ملتقى التيارات والذي يصلح أن يكون مقبرة للسجناء، ولكنها لا تزال بعيدة عنه، والحراس لا يكفون عن إطلاق النار. وبالتأكيد أصابوا بعضها إذ تلاحظ تحركات قرب الطفلة. صحت بهم لا تطلقوا النار.

ودون أي تفكير ألقيت بنفسي في الماء، ساعدني التيار على الاتجاه في سرعة نحو الصغيرة التي تعوم بفضل ثوبها وتضرب برجليها بأقصى شدة لتبعد القروش. أنا الآن على بعد ثلاثين أو أربعين متراً منها عندما وصل قارب خارج من رويال، فرأى المشهد من بعيد ووصل إلى الصغيرة قبل فتناولها وحماها. فبكيت من الحنق، ولم أفكر بالقروش، ورفعوني إلى سطح القارب أيضاً، لقد خاطرت بحياتي في سبيل لا شيء. أو هكذا ظننت؛ إذ بعد شهر وعلى سبيل المكافأة، استحصل الدكتور جيرمان غيير على أمر توقيف عقوبتي في الانفرادي لسبب صحي.

العودة إلى رويال الجواميس

إذن رجعت بأعجوبة حقيقية إلى العقوبة العادية في رويال، غادرتها بعقوبة ثمانية أعوام نتيجة لتلك المحاولة في النجاة، وعدت بعد تسعة عشر شهراً. التقيت بأصدقائي، بديغا الذي لا يزال محاسباً، وكالكاني مراسلاً، وكاربونيري الذي برثت ساحته في قضية هروبي، وغرانده، وبورسيه النجار، ورجلي العربية: ناريك وكيينه، وشاتال الممرض، وشريكي في هروبي الأول، ماتوريت الذي لم يغادر وهو مساعد ممرض، وعصابة لصوص دغل كورسيكا، كلهم هنا: إيساري وفيسيولي، وسيرازي، ورازوري، وفوسكو، وموكوير وشابار الذي أعدم لاغريف صاحب عملية البورصة في مرسيليا وكل أبطال الصحافة الشيوعية من سنة ١٩٢٧ إلى ١٩٣٥، مازينو قاتل دوفرين قضى نحبه الأسبوع الفائت. في ذلك اليوم كان لسلك القرش طبقاً مختاراً وقد كان من أكابر خبراء باريس في الحجارة الكريمة.

بارات الملقب بالكوميدي بطل التنس المليونير في ليموج، الذي قتل سائقاً وصديقه الصغير الحميم. بارات هو الآن رئيس المخبر والصيدلي في مستشفى رويال؛ وباختصار كان لقدومي الى رويال دوي كدوي المدفع. كان دخولي إلى مبني الرؤوس العنيدة يوم السبت صباحاً، وكانوا جميعاً حاضرين، فاستقبلوني استقبلاً حافلاً يشهد لي بصداقتهم، بما فيهم ذلك الرجل الساعاتي الذي لم ينطق منذ ذلك الصباح الشهير الذي كادوا فيه أن يعدموه بالمقصلة خطأ، أزعج نفسه وجاء يجيني.

— إيه، أصحابي! هل أنتم جميعاً بخير؟

— نعم ومرحباً بك.

قال غرانده: لا زلنا نحفظ بمكانك فهو شاغر منذ أن فارقتنا.

— شكراً للجميع. ماذا من جديد؟

- خبر طيب.

- ماهو؟

- في هذه الليلة وجد العنز مقتولاً وهو الذي وشى بك، وكان يترصد بك من أعلى الشجرة، ولابد أن يكون قاتله واحد من أصحابك أراد لك أن لا تراه حياً ووفر عليك مهمة قتله.

- بالتأكيد، ولكن أود معرفته لأقدم له شكري.

- سيكشف لك عن نفسه يوماً ما، لقد وجدوه هذا الصباح عند التفقد، والسكينة مغروسة في قلبه، ليس فينا من سمع ولا من رأى.

- نعماً فعلتم. وماذا عن اللعب؟

- على أحسن حال. ومكانك محفوظ.

- حسناً سنعود إلى الحياة مع الأشغال الشاقة المؤبدة. نريد أن نعلم كيف ومتى تنتهي هذه الحكاية؟

- بابي! لقد تأثرنا جميعاً حين علمنا أنك محكوم بشماني سنوات، ولا أعتقد أن رجلاً واحداً في هذه الجزر، يستطيع، وأنت هنا، أن يمتنع عن مد يد المساعدة لك. في سبيل أي شيء وبأي ثمن.

قال حارس عربي: إن المقدم يطلبك. فخرجت معه وعند مركز الحراسة خاطبني بعض الحراس بكلمات طيبة، فتبعت العنز، ووجدت المقدم برويه فقال:

- كيف حالك يا بابيون.

- بخير يا سيادة المقدم.

- أنا سعيد بالعفو عنك، وأهنتك على عملك البطولي مع الطفلة الصغيرة ابنة زميلي.

- شكراً.

- سأخصك برعاية البقر ريثما تعود نزاحاً مع حق الصيد.

- إذا لم يكن في هذا إحراج لك فأنا موافق.

- هذا الأمر يخصني. إن مراقب المصنع قد رحل. وأنا سأذهب إلى فرنسا بعد ثلاثة أسابيع. حسناً. تسلم عملك غداً.

- لست أدري بأي لسان أشكرك.

فقال ضاحكاً: انتظر شهراً قبل أن تحاول الفرار مرة أخرى.

رأيت في القاعة الرجال أنفسهم وطريقتهم في الحياة نفسها كما كانت قبل ذهابي. واللاعبون صنف مستقل لا يعيشون إلا للعب، ولا يفكرون إلا به. ومن كان عندهم فتیان فإنهم يعيشون ويأكلون وينامون معهم، يأتون الرجال شهوة وكانهم أسر حقيقية، يحبونهم ويأسرون تفكيرهم ليل نهار، تبدو عليهم مظاهر الغيرة دون تحفظ، وكما يحدث بين رجل وامرأة، كل منهما يترصد الآخر، وقد يترتب على ذلك جرائم قتل، إذا شتم أحدهما الآخر

وطار إلى عشاق آخرين. ومن أجل شارلي الحسنة (بارات)، قتل الزنجي المدعو سمبلون، في الاسبوع المنصرم شخصاً يدعى سيديرو. وهذا هو الشخص الثالث الذي يقتله سمبلون إكراماً لشارلي.

لم يمض على وجودي في المعسكر بضع ساعات حين وافاني رجلان لمقابلتي:

— قل لي يا بابيون! أريد أن أعرف إذا كان ماتوريت غلامك؟

— لماذا؟

— لأسباب تخصني.

— اسمع جيداً. كان ماتوريت مصاحباً لي في رحلة مسافتها ألفان وخمس مئة كيلومتر حيث سلك مسلك الرجال. هذا كل ما عندي لأقوله لك.

— أريد أن أعلم إذا كان معك؟

— لا. لم أعرف ماتوريت معرفة جنسية. أقدره بصفة صديق، وما عدا ذلك لايهمني إلا إذا أصابه أذى.

— وإذا اتخذته زوجة لي في يوم من الأيام؟

— في هذه الحالة، إذا كان هو راضياً فلن أتدخل في شيء، أما إذا كنت تمارس عليه ضغطاً بالتهديد ليكون لك صيباً، فلي معك شأن آخر.

لا فرق عند الشاذين أن يكون أحدهما سلبياً أو إيجابياً، مادام مستغرقين في لذاتهما دون أن يفكرا في شيء آخر.

التقيت بالرجل الايطالي الذي كان يحمل أنبوبة ذهبية فأقبل علي مسلماً فقلت له:

أما زلت هنا؟

— فعلت المستحيل، فقد أرسلت لي أمي اثني عشر ألفاً، فنهبت مني الخفيضة ستة آلاف عمولة. انفقت أربعة آلاف لأتخلص من الحجر. وفقت في الذهاب إلى التصوير الشعاعي في كاين ولم أستطع شيئاً، ثم أسندت إلى نفسي تهمة جرح صديق تعرفه، إنه رازوري اللص الكورسيكي.

— وبعد هذا؟

— اتفقت معه على أن يحدث جرحاً في بطنه، ونزلنا معاً إلى المجلس الحربي. هو بصفة مدع وأنا بصفة مدعى عليه، وما استطعنا أن نطأ الأرض هناك بأقدامنا. وبعد خمسة عشر يوماً انتهت المحاكمة، ونلت عقوبة في السجن الانفرادي مدة ستة أشهر قضيتها في السنة الماضية وأنت لم تكن تعلم أنني كنت هناك. بابي لم أعد أطيع الحياة وأرغب في الانتحار.

— الأفضل لك أن تموت في البحر أثناء الهروب. فعلى الأقل تموت حراً.

— أنا مستعد لعمل أي شيء. وأنت على صواب. فإذا هيات شيئاً ما، فأحطني

عليماً.

— اتفقنا.

وبدأت الحياة في رويال من جديد. وهأنذا راعي جواميس. عندي جاموس أعطوه اسم بروتوس. وزن ألفي كيلو غرام. إنه قاتل الجواميس الأخرى، قتل جاموسين من الذكور. قال لي المراقب انكوستي الذي يقوم على رعايته: هذه آخر فرصة له، فإذا قتل جاموساً آخر فسوف يذبح. تعرفت هذا الصباح على بروتوس وعلى الزنجي الذي يقوده وطلبت منه أن يبقى معي مدة أسبوع ليعلمني. وسرعان ما غدوت صديقاً لبروتوس إذ سلحت^(١) على أنفه فلحق بلسانه الكبير بعض السائل الذي يحبه حباً كثيراً. ثم قدمت له ما جمعته من المانغو من بستان المستشفى نزلت مع بروتوس مقروراً كالثور بنير عربية تليق بعصور الملوك الخاملين، لأنها مصنوعة بطريقة بدائية ريفية. وعليها برميل يتسع لثلاثة آلاف لتر ماء. عملي هو مثل عمل صديقي بروتوس نذهب إلى البحر ونملأ البرميل ماء ثم نصعد الشاطئ الوعر حتى الساحة. وهناك أدير مفتاح البرميل والماء يسيل في المجاري جارفاً كل ما بقي من قاذورات الصباح. أبداً في الساعة السادسة وأنتهي في الساعة التاسعة. وبعد أربعة أيام قال لي المارتينيكي بأنني أصبحت قادراً على العمل وحدي. هناك شيء واحد يزعجني وهو أنني في الساعة الخامسة صباحاً كان علي أن أسبح في المستنقع بحثاً عن بروتوس الذي يختبئ هرباً من الشغل.

ونظراً لحساسية منخريه فإن حلقة تخترقها ويتدل منها سلسال طوله خمسون سنتراً، وعندما اكتشفه يتراجع ويغطس في الماء ليظهر في مكان أبعد. والقبض عليه يستغرق أحياناً ساعة في هذا الماء الراكد الأسن ماء المستنقع المليء بالحيوانات والنيلوفر. وكانت تتباني فورات من الغضب. وكنت أناديه: أيها القدر، يا أحق أنت عنيد مثل بروتوني هل تخرج أم لا؟

ولا يكون حساساً إلا إذا أمسكت السلسال، أما الشئام فلا يابه لها، وأخيراً إذا خرج من المستنقع عاد لي صديقاً. كان عندي وعاءان للشحم فارغان وكنت أملؤهما بالماء العذب وأغسل فأنظف نفسي من ماء المستنقع اللزج. وبعد غسل جسمي بالصابون أصب الماء العذب، ويبقى منه عندي مقدار أغسل به بروتوس بالياف قشر الجوز، وأدلك المناطق الحساسة وأنا أرشه بالماء وأنظفه فيحك حينئذ رأسه بيدي ويذهب من تلقاء نفسه إلى خشبة العربة. ولم أعامله قط بالشوكة كما كان يفعل الزنجي المارتينيكي فيقدر لي ذلك فيمشي معي بأسرع مما يمشي معه.

كانت هناك جاموسة صغيرة تعشق بروتوس، فتصاحبنا سائرة إلى جانبنا، وما كنت أزرعها كما كان يفعل الآخر، بل على العكس أتركها تقبل بروتوس وترافقنا في حلنا وترحالنا فلا أضايقه عندما يتبادلان القبل، وهو يعترف لي بهذا الجميل، فيصعد بثلاثة آلاف لتر في سرعة فائقة. وكأنه يريد أن يستدرك الوقت الذي ضيعه في منادته مرغريت - وهذا اسم الجاموسة.

(١) سلح الحيوان أو الطير : راث

حدثت بالأمس، عند التفقد في الساعة السادسة، فضيحة صغيرة بسبب مرغريت. فالزنجي المارتينيكي كان يتسلق جداراً صغيراً ويقبل الجاموسة ففاجأه الحارس فنال عقوبة بالسجن المظلم مدة ثلاثين يوماً. فأحضرت مرغريت إلى المعسكر واستعرضت أكثر من ستين رجلاً وحين وصلت إلى محاذاة الزنجي التفتت وأدارت له أستها. وأغرق الجميع في الضحك وصار وجه الزنجي رمادياً من شدة الارتباك.

كان مفروضاً علي أن أقوم بثلاث نقلات مياه في اليوم. كبراهما هي ملء البرميل بمساعدة اثنين فينتهي العمل في سرعة، وأنتهي في الساعة التاسعة، وأذهب إلى الصيد. أنا مرتبط مع مرغريت لاختراع بروتوس من المستنقع فأحك أذننا فتصدر صوتاً شبيهاً بحممة الفرس، وحينئذ يخرج بروتوس وحده. وما دمت لا أحتاج إلى الماء لأغتسل به فإنه سيستمع استمتاعاً أوفر فيبدو أكثر نظافة وبدون رائحة الماء الكريهة التي تسبب الغثيان، وقد أمضى في ذلك الماء ليله، فيروق لمرغريت وهو محتدم الشوق لها. وبعد الصعود من البحر وفي منتصف الشاطئ مكان منبسط لي فيه حجرة كبيرة. وكان من عادة بروتوس أن يزفر خمس دقائق فأوقف العربية فيستريح.

وفي هذا الصباح كان بانتظارنا جاموس آخر يدعى دانتون، وهو لا يقل ضخامة عنه، وكان محتباً خلف أشجار نارجيل صغيرة لا تحمل سوى الأوراق. انطلق دانتون وهاجم بروتوس، فقفز منحرفاً فحادث الضربة، واصطدم قرنه في الضربة الأخرى بالعربة فانغرز في البرميل وبذل جهوداً من أجل الخلاص. فعمدت أنا إلى تخليص بروتوس من النير وتوابعه وعند ذاك احتل بروتوس الساحة، وعن بعد ثلاثين متراً جرى بروتوس عدواً نحو دانتون وبدافع من الخوف أو اليأس تخلص دانتون من البرميل تاركاً فيه قسماً من قرنه الذي انكسر. تم هذا قبل أن يصل إليه بروتوس الذي لم يستطع أن يكبح جماحه في الوقت المناسب فدخل في العربية فقلبها وهنا رأيت مشهداً عجباً. لقد كانا يتحاكان بالقرون دون تدافع وكأنهما يتخاطبان وبدون صخب، فهما يتألمان فقط. ثم صعدت الجاموسة بمحاذاة الشاطئ ببطء يتبعها الفحلان، وهما يتوقفان من حين لآخر ويعاودان الاحتكاك بالقرون فتتداخل بعضها ببعض، وعندما يطول ذلك فإن مرغريت تن في حسرة وتعود نحو المنبسط الجاموسان الضخمان يتابعان خط سيرهما، وبعد ثلاث وقفات من ذلك المشهد وصلنا إلى المنبسط، وهذا المكان الذي نتخلص فيه من جهاز العربية يقابل النار وهو مكان قفر قد يبلغ طوله ثلاث مئة متر، وفي طرفه الأبعد معسكر المساجين. وعلى اليمين واليسار أبنية مستشفى السجناء، والمستشفى العسكري.

استمر بروتوس ودانتون في المشي عشرين خطوة. وتوجهت مرغريت ببرود إلى وسط الساحة ثم توقفت، ووصل الخصمان إلى مقربة منها، وهي بين الفينة والفينة ترفع خوارها الحزين المعبر عن الرغبة الجنسية. وتتلاقى القرون من جديد وفي هذه المرة ينجل لي أنها يتخاطبان لأن زفيرهما يمتزج بأصوات ذات معنى. وبعد هذه المحاورة ذهب أحدهما يميناً والآخر يساراً على طرفي الساحة، فالمسافة

بينهما إذن ثلاث مائة متر ولاتزال مرغريت في الوسط. لقد فهمت: إنها مبارزة وحسب القوانين المرعية برضى الطرفين والجاموسة الفتية هي الطافرة، وبموافقتها لأنها فخورة إذ يتصارع عاشقان من أجلها، وبصيحة من مرغريت انطلق كل منهما نحو الآخر، في خط مسارهما وهو ما يقارب من مئة وخمسين متراً.

من نافلة القول، الإشارة إلى أن الألفي كيلو غرام يتضاعفان مع السرعة التي بلغاها. إن صدمة رأسيهما كانت رهيبة إلى درجة أنهما ظلّا يتصارعان مدة خمس دقائق، وتراخت قواصمهما. وكان بروتوس إلى استعادة نشاطه أسبق فعدا عدواً واحتل مكانه ودامت المعركة ساعتين. أراد بعض الخفراء قتل بروتوس فعارضت وفي لحظة محددة انكسر قرن دانتون الذي فقد قسماً منه في البرميل فلاذ بالفرار، وتبعه بروتوس واستمرت المعركة إلى اليوم التالي وحيثما مرا أفسداً كل شيء، في البساتين، وفي المقبرة، وفي مغسل الثياب. وبعد أن تعاركا طيلة الليل وحوالي الساعة السابعة استطاع بروتوس أن يحصر دانتون أمام جدار الملحمة القائمة على شاطئ البحر، وشك قرنه في بطنه، ولكي يجهز عليه تماماً أخذ يدور حوله مرتين حتى يدور القرن في الأحشاء، فسقط دانتون صريعاً في بركة من الدماء والأمعاء.

هذه المعركة بين العظيمين أوهنت بروتوس حتى أنني خلصت قرنه من جسم القتيل لكي يستطيع النهوض فابتعد مترشحاً على الطريق الموازية للبحر، وهناك رافقته مرغريت رافعة رأسها الخالي من القرون. لم أشهد ليلة زفافهما، لأن الخفير المسؤول عن الجواميس اتهمني بأنني خلصت بروتوس وبالتالي فقدت عملي كراعي جواميس.

فطلبت مقابلة المقدم لأكلمه في موضوع بروتوس
— ماذا جرى يا بابيون. بروتوس يجب أن يقتل، فهو في غاية الخطورة فقد قتل ثلاثة مثاليين.

— أنا جئت أطلب منك إنقاذ بروتوس. هذا الحارس المكلف بالزراعة والمسؤول عن الجواميس لا يفهم شيئاً. اسمح لي بأن أروي لك لماذا تصرف بروتوس هذا التصرف في الدفاع المشروع عن نفسه.
فابتسم المقدم وقال: أنا مصغ إليك.

— ... إذن فهمتم يا سيادة المقدم بأن جاموسي قد هوجم. هذا ما استنتجته بعد أن رويت جميع التفاصيل، ولولا أنني فككت بروتوس عن العربة لكان دانتون قتله وهو مقرون، ولكان غير قادر على الدفاع عن نفسه إذا كان مربوطاً بنير العربة.
— هذا صحيح.

وفي تلك البرهة قدم خفير الزراعة
— أسعدت صباحاً يا سيادة المقدم، إني أبحث عنك يا بابيون، لأنك خرجت هذا الصباح إلى الجزيرة كما لو كنت ذاهباً إلى العمل، ومع ذلك ليس عندك ما تفعله.
— خرجت ياسيد انكوستي لأرى إذا كنت أستطيع إيقاف المعركة ولكن مع الأسف

كانا مهتاجين.

– نعم هذا ممكن. أما الآن فليس من حقك أن ترعى الجاموس، لقد انذرتك.

هذا ومن جهة أخرى فإن بروتوس سيصبح صباح الأحد ويوزع لحمه في السجن.

– لن تفعل ذلك.

– لست من يمنعني.

– ولكن المقدم سيفعل ذلك. وإذا كان هذا لا يكفي فإنني سأطلب من الدكتور جيرمان تغيير أن يتدخل لإتقاذ بروتوس.

– بم تحشر نفسك؟

– بما يخصني. الجاموس أنا الذي أقوده، وهو رفيقي.

– رفيقك؟ جاموس؟ أتسخر مني؟

– اسمع ياسيد انكوستي! هل تدعني أتكلم برهة؟

قال المقدم: دعه يدافع عن جاموسه.

– حسناً تكلم.

– أتؤمن ياسيد انكوستي بأن الحيوانات تتحدث فيما بينها؟

– لم لا. إذا تسارت.

وشرحت من جديد كل شيء من البداية إلى النهاية.

قال الكورسيكي: كريستاشو (يا إلهي) إنك لرجل غريب يا بابيون. تدبر أمرك مع بروتوس ولكن لدى أول قتل لن ينجيه أحد حتى المقدم. أعيدك راعياً للجواميس. اجعل بروتوس يشتغل. وبعد يومين أصلح بعض عمال المصنع العربية. وعاد بروتوس إلى نقل الماء يومياً من البحر تصحبه مرغريت الشرعية. وكنت عندما نصل إلى الساحة حيث يستريح بروتوس، أثبت العربية بالحجر الكبير، وأقول: أين دانتون يا بروتوس؟

فأقلع هذا الجاموس الضخم بالعربة فجأة، وتابع طريقه مسرعاً.

فتنة في سان جوزيف

الجزر خطيرة جداً بسبب هذه الحرية الزائفة التي يتمتعون بها. أتاأم عندما أرى الجميع ثاوين في يسر ليعيشوا في غير مشاكل.

البعض منهم ينتظرون نهاية عقوبتهم. وآخرون لاشيء، يخوضون في رذائلهم.

كنت هذه الليلة مستلقياً على سريري الأرجوحي في آخر القاعة وكان اللعب حامياً كالجحيم، حتى اضطر صديقاى كاربونيري وغرانده إلى أن يتعاونوا في إدارة اللعب، فالواحد لم يكن كافياً. وأنا أحاول أن أثير ذكرياتي لتطفو، فاستعصت، حتى لكان المحكمة لم تكن، وعبثاً حاولت إلقاء الضوء على الصور الضبابية لذلك اليوم المشؤوم فلم أتوصل إلى رؤية شخصية ما في وضوح والمدعي العام وحده برز لي بكل ما فيه من صلف وعنف. رباه كنت أعتقد أنني اكتسبت رضاك نهائياً عندما وجدت نفسي بين أسرة بوين في ترينيداد. أية رقية ضارة حدثني بها حتى أخفقت ست محاولات للهروب لأحصل بها على حريتي.

ففي المرة الأولى عندما هربت من الأشغال الشاقة، كيف استطاعت عينك أن تغفل عني عندما علمت بالخبر؟ أريد أن أعرف إذا كنت تخاف أو كنت غاضباً عندما عرفت أن فريستك أتيح لها الفرار من طريق العفن، حيث ألقيت بها ثلاثة وأربعين يوماً قبل ذلك؟ كنت قد حطمت القفص، فأني قدر لاحقني حتى أرجعني إلى السجن حيث مكثت أحد عشر شهراً؟

ربما كان هذا قصاصاً من الله لأنني ازدرت الحياة البدائية، وكانت جميلة بحيث كنت أستطيع الاستمرار مدة أطول، قدر ما أشاء.

لالي وزوراما، حبيبتاي، وهذه القبيلة التي ليس فيها شرطة، والقانون الذي ينظم الحياة هو التفاهم بين أفرادها. نعم أنا هنا بسبب غلطتي، ولكن يجب ألا أفكر إلا في شيء واحد هو الهروب، الهروب أو الموت. ولما علمت بأنني وقعت ثانية وأعدت إلى السجن، لئن عادت إليك ابتسامة انتصار المحكمة، وأنت تظن أن كل شيء على ما يرام هكذا فأنت تخطيء. لن يكون فكري ولا روحي ملكاً لهذا الطريق المهين. لك جسمي فقط فحرسك وجهازك التأديبي يراقبون مرتين كل يوم، إذا كنت حاضراً وهذا يكفيك. ففي الساعة السادسة صباحاً ينادون باسمي (بابيون) فأجيب بكلمة (حاضر) وفي السادسة مساء بابيون (حاضر) وهكذا فالأمور تجري في اعتنتها، ولسان حالهم يقول: نحن نمسك به منذ ست سنوات ويجب أن يبدأ بالتعفن وسوف يأتي يوم يقرع فيه الناقوس الذي يدعوا أسماك القرش لتستقبله بكل شرف، في وليمة يومية يقدمها لهم بالمجان جهاز الإعدام عندك في ابتذال. أنت تخطيء، وحساباتك ليست صحيحة، فوجودي الجسدي لا يقاس بوجودي المعنوي. هل تريد أن أقول لك شيئاً؟ أنا لا أنتمي إلى السجن، ولا أشبه في شيء أحداً في عاداته، حتى ولا عادات أوفى أصدقائي. أنا من رواد الهروب الدائمين.

وبينما كنت أعد نفسي للحوار مع من اهتمني في المحكمة دنا من سريري رجلان

— هل أنت نائم يا بابيون؟

— لا.

— لنا معلق حديث.

— تكلم هنا، لا يوجد أحد، وإذا كان الكلام خافتاً فمن يسمعك؟

— نحن في صدد إعداد فتنة.

— ما مخططك؟

— نقتل كل عربي، وكل الحراس ونساءهم وأولادهم فهم أصل البلاء. فانا آرنو وصديقي هوتان، نود مهاجمة مستودع الأسلحة في الأمرية، وبمساعدة أربعة رجال. فانا اشتغل هناك لصيانة الأسلحة. عندهم ثلاثة وعشرون رشيشاً، وأكثر من ثمانين بندقية، والعمل سيكون...

— قف لاتذهب بعيداً. أرفض مسيرتك، وأشكر لك ثقتك بي، ولكنني أخالفك.

— ظننا أنك ستقبل بأن تكون رئيس الثورة. دعني أشرح لك التفاصيل المدروسة وسوف ترى أن هذا لن يخفق. فنحن نعد الحدث منذ خمسة شهور ويوافقنا عليه أكثر من خمسين رجلاً.

— لاتعطي أي اسم فانا أرفض هذه الزعامة بل أرفض الاشتراك في هذه الضربة.

— لماذا؟ فمن حقنا عليك أن تعطينا تفسيراً بعد أن أوليناك ثقتنا بحيث رويننا لك كل شيء.

— لم أطلب منك أن تحكي لي خطتك، ثم إنني لا أفعل في حياتي إلا ما أشاء أنا، لا ما يشاء الآخرون. زد على ذلك أنني لست ممن يقتلون الناس بالجملة. أستطيع أن أقتل رجلاً يعرضني للخطر. أما النساء والأطفال، وهم لا ذنب لهم، فلا. والأمر الخطير لم ترويه لي، وأنا الذي أقوله لك: حتى لو نجحت الثورة فالإخفاق حليفكم.

— لماذا؟

— لأن الشيء الرئيسي هو الهروب وهذا مستحيل. لنسلم بأن مئة رجل اشتركوا في الثورة فكيف يهربون؟ في الجزيرة زورقان فقط وكلاهما لا يتسعان لأكثر من أربعين سجيناً، فما أنتم فاعلون بالستين الآخرين؟

— نحن سنكون في جملة الأربعين الذين يهربون أولاً.

— هذا ما تفترضه، فالآخرون ليسوا أغبياء، فهم مسلحون مثلكم. وإذا كان كل واحد منهم فيه ذرة من العقل، فسوف يطلق النار على الفريق الآخر ليحصل على الزورق، والأدهى من ذلك أن هذين الزورقين لن يستقبلهما أي بلد. لأن البرقيات ستصل قبلكم إلى البلاد التي يمكن أن تذهبوا إليها وخصوصاً مع فرقة الموت الكبيرة خلفكم، ستوقفون وتعادون إلى فرنسا. تعلمون أنني عدت من كولومبيا وأعي ما أقول، وأعاهدكم على أنكم بعد مثل هذا الانقلاب، ستعادون أينما كنتم.

— حسناً. إذن أنت ترفض؟

— نعم.

— أهذه كلمتك الأخيرة؟

— هذا قراري الحاسم.

— ما علينا إلا أن ننسحب.

- لحظة . اطلب منكم أن لا تفتحوا أحداً من رفاقي بهذا الموضوع.
- لماذا ؟
- لأنني أعلم مقدماً أنهم يرفضون فلا داعي لذلك .
- حسناً جداً .
- هل تظنون أنكم لا تستطيعون التخلي عن هذه الخطوة؟
- بصراحة يا بابيون، لا .
- أنا لا أفهم هدفكم بالضبط، وقد شرحت لكم بصورة جدية أن الثورة في حال نجاحها لن تجعلكم أحراراً .
- نريد بوجه خاص أن نتقم . والآن بعد أن أوضحت لنا أن قبولنا في البلاد الأخرى أمر مستحيل، سنشكل عصابة وندخل الغابة العذراء .
- لكن علي عهد أن لا أحدث أعز أصدقائي بما دار بيننا .
- نحن واثقون من ذلك .
- أخيراً . أندروني مقدماً قبل بدء العملية بثمانية أيام لكي أرحل إلى سان جوزيف ولا أبقى في رويال .
- سنحيطك علماً في الوقت المناسب لكي تتمكن من تغيير الجزيرة .
- ألا أستطيع شيئاً من أجل تغيير رأيكم؟ هل ترغبون في ترتيب أمر ما معي؟
- نسرق مثلاً أربعة بنادق . ونهاجم في إحدى الليالي مركز حراسة الزوارق دون أن نقتل أحداً، فنأخذ زورقاً ونرحل معاً؟
- لا . لقد تألنا كثيراً . المبدأ هو الانتقام، ولو دفعنا أرواحنا ثمناً .
- والنساء ؟ والأطفال ؟
- كل هذا من أصل واحد، من دم واحد . يجب أن يموتوا جميعاً .
- إذن لم يبق هناك كلام .
- ألا تدعونا بالتوفيق؟
- لا . بل أقول لكم ارجعوا عن غيكم، فهناك ما هو أفضل من هذه الحماقة .
- ألا تؤمن بأن من حقنا أن نتقم؟
- بلى . ولكن ليس من الأبرياء . مساء الخير .
- مساء الخير . نحن لم نقل شيئاً بابي اتفقنا؟
- اتفقنا .
- وانسحب هوتان وآرنو . إنها لقصة غريبة قصة هذين المختلين . وما يزيد الطين بلة أن الخمسين أو الستين رجلاً المشتركين سيربو عددهم ساعة الصفر على المئة . يالها من قصة مجانين . لم يفه أحد من أصدقائي بكلمة .
- إذن هذان السجينان لم يفتاحا في هذا الموضوع إلا المجرمين العريقين إذ من غير الممكن أن يشترك رجال من الوسط الآخر بمثل هذه العملية، والاشد خطراً أن القتلة

العريقين هم المجرمون الحقيقيون أما الآخرون فهم جانحون، فالأمر يختلف. حصلت هذا الأسبوع على معلومات عن آرنو وهوتان. آرنو كما يبدو كان الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة حكماً تعسفياً لأمر لا يستحق أكثر من عشر سنوات بالسجن فأنزل المحلفون به هذه العقوبة القاسية لأن أخاه في العام الأسبق قد حكم عليه بالإعدام لقتله شرطياً والمدعي العام أخذ يتكلم عن أخيه أكثر مما تكلم عنه ليخلق جواً مشحوناً بالعداوة والبغضاء، فأنزلوا به هذه العقوبة الرهيبة، ولابد أنه لقي الكثير من التعذيب في سجن التوقيف وكذلك بسبب ما فعله أخوه.

أما هوتان فلم يعرف الحرية، فهو في السجن منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره؛ وكان قبلاً في إحدى الإصلاحيات، فتطوع في البحرية ليتخلص من الإصلاحية، وفي الليلة التي كان مقرراً فيها أن يغادرها ليلتحق بالبحرية، قتل رجلاً. ربما كانت فيه لونة من الجنون لأن غايته على ما يبدو الفرار إلى فنزويلا ليستغل في منجم للذهب هناك ثم لينسف ساقه ليقبض تعريضاً ضخماً. هذه الساق متخشبة بسبب حقنة لا أدري تركيبها، أعطيت له طوعاً في سان مارتن دوره. إنها لعبة مسرحية. عند التفقد هذا الصباح نودي على آرنو وهوتان وأخو ماتيو كاربونييري صديقي. أخوه جان يعمل خبازاً على الرصيف قرب المراكب. أرسلوا جميعاً إلى سان جوزيف بدون تفسير وبدون سبب ظاهر. حاولت الكشف فلم أجد شيئاً يشف عما وراء ذلك. آرنو كان يتعهد السلاح منذ أربعة سنوات، وجان كاربونييري خباز منذ خمس سنوات، فنفياً إلى سان جوزيف ليس مجرد مصادفة. لابد أن هناك محاولة فرار. ولكن أي نوع من الهروب وإلى أين؟ قررت بسط الموضوع أمام أصدقائي المخلصين: ماتيو كاربونييري، وغرانده، وكالكاني وليس لأحدهم علم بشيء. إذن هوتان وآرنو لم يتصلا إلا بالمجرمين لا الجانحين.

— لم حدثوني دون غيري إذن؟

— لأنك معروف بين الجميع أنك تريد الهروب بأي ثمن.

— ومع ذلك ليس بهذا الثمن.

— إنهم لم يميزوا.

— وأخوك جان؟

— لا أحد يعلم كيف ارتكب هذه الحماقة بإقحام نفسه في هذه القضية.

— ربما كان الثائر فيهم قد أقحمه في هذه الورطة دون أن يكون له فيها يد.

الأحداث تترى. قتل في هذه الليلة جيرازولو لحظة دخوله إلى المرحاض. وشاهد على قميص راعي الجواميس المارتينيكي شيء من الدم. جرى تحقيق سريع وبشهادة زنجي آخر كان معزولاً حكم على الجواميسي القديم بالموت حكماً صادراً عن هيئة محكمة استثنائية.

جاءني وأنا عند باب المغسل في الفناء رجل من مقاطعة سافوا يدعى كارفل يريد مخاطبتي.

— باي! لقد أوقعت نفسي في قاذورة، إذ أنا الذي قتلت جيرازولو، وأريد إنقاذ الأسود ولكنني أخشى المقصلة. لم أتكلم بسبب هذا الثمن. ولكن إذا وجدت تبريراً يجعل الحكم بثلاث أو خمس سنوات صرحت بالحقيقة.

— ما عقوبتك في الأشغال الشاقة؟

— عشرون سنة.

— كم أمضيت منها؟

— اثنتي عشرة سنة.

— أوجد وسيلة ليحكموا عليك بالمؤبد دون أن تذهب إلى السجن الانفرادي.

— ما العمل؟

— دعني أفكر وسوف أعطيك الجواب هذه الليلة.

وفي المساء قلت له:

— لا تستطيع أن تكلف أحداً بالإبلاغ عنك.

— لماذا؟

— إنك تجازف بحياتك. هناك وسيلة واحدة تنجيك من السجن الانفرادي، وتنال حكماً بالمؤبد. أبلغ عن نفسك بنفسك. والسبب أنه بوازع ضميرك لم تشأ أن تدع بريئاً يقتل. واختار مراقباً كورسيكياً يدافع عنك وسوف أسميه لك بعد أن أستشيريه ويجب الإسراع. والأمل أن لا يمزقه على وجه السرعة. انتظر يومين أو ثلاثة.

فأتمت المراقب كولونا فأعطاني فكرة خيالية قال:

— أنا أقوده إلى المقدم وأقول له: إن كارفيل طلب مني الدفاع عنه وأن أصحابه ليدلي باعترافاته، وأنا ضمنت له بأن لا يحكم عليه بالموت إزاء هذا الموقف النبيل، ورغم أن قضيته خطيرة فإنه يتوقع حكماً بالسجن المؤبد. وسارت الأمور على هذا المنوال. كرافيل أنقذ الأسود الذي أطلق سراحه على الفور. وأما شاهد الزور الذي اتهمه فقد حكم عليه بالسجن مدة سنة، وروبير كارفيل بالمؤبد.

مضى على ذلك شهران. أوضح لي كارفيل تنمة التفاصيل بعد أن انتهى كل شيء. جيرازولو كان الرجل الذي أبلغ عن أرنو وهوتان وجان كاربونيري بعد أن علم بتفاصيل المؤامرة، وكان قد رضي بالاشتراك فيها، ولم يكن يعرف لحسن الحظ أسماء أخرى. وحيال هذا التصريح الخطر الفظيع، فإن المراقبين لم يصدقوه. ومع ذلك ومن قبيل الحيلة والحذر، أرسلوا السجناء الثلاثة إلى سان جوزيف دون أن يقولوا لهم شيئاً، أو يسألوهم عن شيء.

— وما الذي دفعك أنت على قتله.

— الصحيح أنه سرق مني أنبوتي التي أخفي فيها مالي. وأنا أنام تجاهه. في الليل أنزع أنبوتي وأخفيها تحت غطائي الذي اتخذته وسادة. وفي إحدى الليالي ذهبت إلى المرحاض، ولدى عودتي وجدت الأنبوبة قد اختفت. ومن كانوا حولي، رجل واحد كان

يقظان وهو جرازولو. وصدق الخفراء هذا التفسير ولم يذكروا لي أنه أندر بفتنة محتملة.
نودي باسمي عند التفقد في الباحة: بابيون ، بابيون!

— حاضر.

— اجمع حوائجك لتسلك الطريق إلى سان جوزيف.

— يا للقذارة..

أعلنت الحرب في فرنسا، وفرضت أنظمة جديدة، فرؤساء الخدمة العسكرية المسؤولون عن الهروب يعزلون من مناصبهم، وبالنسبة إلى المبعدين فمن قبض عليه متلبساً بالهروب فسوف يحكم عليه بالإعدام، إذ يعتبر الهروب في هذه الحالة رغبة في الالتحاق بقوات فرنسا الحرة، وفي هذا خيانة للوطن. وكل شيء يمكن التسامح فيه إلا الهروب.

إن المقدم برويه قد رحل منذ أكثر من شهرين، والجديد لا أعرفه. إذن لامناص. ودعت أصدقائي وركبت البحر في الساعة الثامنة إلى سان جوزيف. والد ليزيت لم يبق في معسكر سان جوزيف بل ذهب إلى كاين في الأسبوع المنصرم. والمقدم في سان جوزيف يدعى روتان وهو من الهافر وهو الذي استقبلني. وكنت قد وصلت وحدي وقد سلمني المراقب في المركب إلى مراقب الخدمة على الرصيف مع أوراقتي.

— أنت بابيون؟

— نعم أيها المقدم.

قال وهو يقلب أوراقتي:

— أنت شخص عجيب.

— لماذا أكون عجباً إلى هذا الحد؟

— أنت معدود من الخطيرين في كل ناحية، وبخاصة أن هناك ملاحظة بالخبر الأحمر تقول: «دائم الأهمية للهروب» ثم ملحق يقول «حاول إنقاذ ابنة المقدم في سان جوزيف من أفواه أسماك القرش».

بابيون! أنا عندي طفلتان هل تحب أن تراهما؟ فاستدعاهما. إحداها في الثالثة والأخرى في الخامسة من عمرها، شقراوان، دخلتا إلى المكتب يصحبها فتى عربي يرتدي لباساً أبيض وامرأة سمراء في أتم الحسن.

— عزيزتي! أترين؟ هذا هو الرجل الذي أنقذ الطفلة التي هي ابتك بالمعمودية.

قالت المرأة الشابة: دعني أشد على يديك.

إن مصافحة السجين شرف عظيم يهدي إليه، أبداً لا تمتد يد إلى محكوم، وتأثرت من عفويتها وصدق تعبيرها.

— أجل أنا عرابة^(١) ليزيت. نحن وثيقو الصلة بتلك الأسرة. ماذا تريد إن تفعل به

(١) عراب أو اشين عند النصارى: الذي يكفل الطفل في المعمودية في حال فقدته أباه أو أمه: المترجم.

عزيزي!

- أولاً سنذهب إلى المعسكر ثم نخبرني بالعمل الذي تريد أن أعطيك إياه.
- شكراً لك أيها المقدم، وشكراً لك يا مدام. هل يمكن أن أعرف السبب في استدعائي إلى سان جوزيف؟ لأن هذا يعتبر نوعاً من العقوبة.
- في رأيي ليس هناك من داع. كل ما في الأمر أن المقدم الجديد يخشى أن تهرب.
- ليس مخطئاً.
- لقد زادوا عقوبة المسؤول عن الهروب، فقبل الحرب كان ممكناً أن يخسر رتبة.
- أما الآن فهو حتمي عدا سائر العقوبات. لهذا السبب بعث بك إلينا مؤثراً أن تهرب من سان جوزيف حيث أنه ليس مسؤولاً في سان جوزيف كما لو كنت في رويال.
- كم ستبقى هنا أيها المقدم.
- ثمانية عشر شهراً.
- لا أستطيع مثل هذا الانتظار الطويل. ولكن سأجد وسيلة للرجوع إلى رويال، لئلا ألحق بك أذية.
- قالت المرأة: شكراً لك وأنا سعيدة بأن أتعرف على نبلك. وإذا كنت في حاجة إليّ فتعال في وثوق تام. وأنت ستصدر الأمر إلى مركز الحراسة في المعسكر أن يأتوا به إلي ليراني عندما يطلب ذلك.
- أجل يا عزيزتي. يا محمداً رافق بابيون إلى المعسكر. وأنت اختر البيت الذي تشاء.
- بالنسبة إلي الأمر السهل في مبنى الخطرين.
- فضحك وقال: ليس الأمر صعباً.
- وكتب ورقة أعطاها لمحمد.
- غادرت البيت الذي هو سكن للمقدم وفيه مكتبه، ويقع على الرصيف البحري، وهو بيت ليزيت يصحفي العربي، فوصلت المعسكر.
- رئيس مركز الحراسة عجوز كورسيكي عنيف وقاتل مشهور يدعى فيليسايري
- هذا أنت يا بابيون قد وصلت؟ أنت تعلم أنني طيب جداً وشرير جداً. لا نحاول معي الهروب لأنك إذا لم تنجح فسوف أقتلك كما أقتل أرنياً. وبعد سنتين سأحال إلى المعاش، إذن ليس الوقت مناسباً لأنال عقوبة قاسية.
- وأنت تعلم أنني صديق لكل كورسيكي، ولن أقول لك إنني لن أهرب، فإذا هربت ففي وقت لا تكون فيه على رأس عملك.
- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس. إذن يا بابيون لن نكون خصمين. أنت تفهمني جيداً. إن الشبان أقوى احتمالاً مني للمتاعب. أما أنا ففي سن شارفت فيها على التقاعد حسناً. مفهوم؟ اذهب إلى المبنى الذي أرسلت إليه.
- هأنذا في المعسكر، في قاعة شبيهة جداً بقاعة رويال فيها ما بين مئة ومئة وعشرين

رجلاً وفيهم بيرو المجنون، وهوتان، وآرنو، وجان كاربونيري. ومن المنطقي أن أكون في جمعية تضمني مع جان لأنه أخو ماتيو، ولكنه ليس من صف أخيه. وبسبب صداقته مع هوتان وآرنو فإنه لا يناسبني. فتنحيت عنه، وأقمت إلى جانب كارييه البوردولي الملقب ببيرو المجنون.

جزيرة سان جوزيف أوحش من جزيرة رويال وأصغر منها رغم أنها تبدو أكبر بسبب طولها. والمعسكر يقع في وسط الجزيرة، وهي مكونة من منبسطين متراكبين، ويقع المعسكر في المنبسط الأول، وفي المنبسط الأعلى الزنانات الانفرادية الرهيبة، وبهذه المناسبة، لا يزال السجناء المعزولون يذهبون إلى الاستحمام في البحر ساعة في كل يوم. ونأمل أن يدوم هذا.

كان العربي الذي يشتغل عند المقدم يأتي في كل يوم ظهراً بصحون بعضها فوق بعض تضمها حديدية ميسطة ولها مقبض خشبي يتركها لي ويأخذ ما أت به بالأمس. عرابة ليزيت كانت ترسل لي كل يوم ما أعدته لأسرتها في ذات اليوم.

ذهبت يوم الأحد إليها لأراها ولاشكر لها، فأمضيت الظهيرة في التحدث معها وباللعب مع ابنتيها، وبينما كنت أداعب شعرهما الأشقر قلت في نفسي: من الصعب أحياناً أن يعرف المرء أين واجبه. إن الخطر الجاثم فوق رأس هذه الأسرة في حال بقاء هذين المعتوهين مصريين على فكرتهما، سيكون خطراً. وبعد انذار جيرازولو الذي لم يصدقه المراقبون إلى درجة أنهم لم يفصلوا بينهما، بل أرسلوهما إلى سان جوزيف، لو أنني قلت كلمة للتفريق بينهما لكان ذلك تأييداً لحقيقة الوشاية الأولى وخطورتها. وعند ذاك ماذا يكون رد الفعل عند المراقبين؟ فالصمت أجدى.

آرنو وهوتان لا يكادان يتكلمان معي في المبنى، وهذا أفضل، نتعامل بأدب ولكن بغير الفقه. وجان كاربونيري لا يكلمني فهو غاضب لأننا لم نلتق معاً في مجموعة واحدة. مجموعتنا مؤلفة من أربعة، منهم بيرو المجنون، وماركيي الحائز على الجائزة الثانية في المعزف على الكمان في روما، وهو يعزف كثيراً، ساعات بأكملها، ومارسوري، وهو كورسيكي.

لم أكلم أحداً، وبحيل إلي بأن أحداً لا يدري بإجهاض مخطط الفتنة في رويال. هل لا يزالون على رأيهم؟ ثلاثتهم يعملون في السخرة الشاقة عليهم أن يحجروا حجارة ضخماً بسيور جلدية. تحضر هذه الحجارة لبناء مسبح في البحر. فالحجارة الضخمة تلف بالسلال ويعلق بها سلسال يتراوح طوله بين خمسة عشر متراً وعشرين. وعلى اليمين وعلى اليسار سجناء تلفت على جذوعهم وأكتافهم سيور من الجلد، وكل واحد منهم يدخل عجناً في حلقة من حلقات السلسال، ويمجرون الحجر دفعة واحدة كالدواب، إلى موضعه، في أشد أوقات الحر إنه لعمل شاق ومرهق ومهين.

طلقات بندقيات ومسدسات صادرة من جهة الرصيف البحري. وفهمت، لقد تحرك المجانين ماذا يجري؟ من الظافر؟ بقيت في القاعة لا أتحرك. والمحكومون يقولون، إنها

ثورة •

— ثورة؟ أية ثورة؟

تظاهرت علناً بانني لا أعلم شيئاً. دنا مني جان كاربونييري الذي لم يذهب إلى الشغل اليوم، وهو شاحب كالأموات رغم لفحة الشمس التي لوحت وجهه وقال لي بصوت خفيض:

— إنها الثورة يا بابي.

وبكل برود قلت له: أية ثورة هذه؟ لا علم لي بها.

طلقات البندقيات تتوالى. أقبل يبيرو المجنون إلى القاعة راكضاً كـ «المجنون»

— هذه ثورة واعتقد أنها لم تنجح. يا لعصبة اللثام. بابيون افتح مطواك فعل الأقل

نقتل منهم أكبر عدد ممكن قبل أن نموت. فأعاد كاربونييري القول:

— أجل لنقتل منهم ما أمكن.

أخرج شيسيليا موسى حلاقة، وكل واحد حمل بيده سكيناً مفتوحة. فقلت لهم:

— لا تكونوا حقى. ما عدنا؟

— تسعة

— ليلق سبعة منكم مداهم، وأول واحد يهد حارساً سأقتله. أنا لا أرغب في

رصاصة تقتلني في هذه القاعة، كما يقتل الأرنب. هل أنت معهم؟

— لا

— وأنت؟

— ولا أنا

— وأنت؟

— لا أعلم عن هذا الموضوع شيئاً

— نحن جميعاً من طبقة الجانحين، ولا أحد يعرف شيئاً عن ثورة الرعاع هذه.

مفهوم؟

— نعم

— ومن كان على علم بالموضوع فيجب عليه أن يفهم أنهم سيقتلونه فور اكتشاف

معرفة بذلك. إذن لا جدوى للأحق من الكلام. ألقوا بأسلحتكم في وعاء القاذورات.

فلن يتأخروا في الوصول إلينا.

— وإذا كان السجناء هم الغالين؟

— فليرتبوا أمورهم من أجل الهروب في أعقاب انتصارهم. أما أنا فلا أريد الهروب

بهذا الأسلوب. وأنتم؟

قال الرجال الثمانية بما فيهم جان كاربونييري، بصوت واحد: ولا نحن أيضاً.

— أنا لم أنفوه بكلمة مما أعلم، وبما أن طلقات النار قد توقفت، فهذا يعني أن

المتمردين قد ضاعوا.

وفي الحق أن المجزرة المتوقعة لا يمكن أن تتوقف.

وصل الحراس كالمجانين، وهم يدفعون بأشخاص البندقيات وبالعصي والأقدام، السجناء المشتغلين بالحجارة، فأدخلوهم إلى المبنى المجاور حيث تغوروا جميعاً فيه. القيثارات والمندولينات وألعاب الشطرنج، والدما، والمصابيح، وزجاج الزيت، والسكر، والقهوة، والامتعة البيضاء، كل هذا داسوه بالأقدام أو ألقوه، أو ألقوا به خارجاً، بعد أن فقدوا صوابهم، وهم ينتقمون من كل ما هو غير قانوني. سمعنا صوت طلقين نارين. إنها بالتأكيد من مسدس.

في المعسكر ثمانى أبنية والحراس يقومون فيها بالعملية نفسها. ومن حين إلى آخر يستخدمون أشخاص البنادق في الضرب المبرح. فهذا رجل خرج مهزولاً - وهو عار - نحو زنانات التأديب وقد أوسعه ضرباً وجيحاً، وهم يسوقونه إلى السرداب. إنهم يذهبون كل مذهب: إلى الأمام، إلى اليمين وإلى الجانب... وهم الآن في المبنى السابع، ولم يبق سوى المبنى الذي نحن فيه، وكان كل واحد منا، نحن التسعة قد تسمر في مكانه، والجميع واجون، وأنا أشعر بجفاف حلقي إذ كنت أفكر: عسى أن لا يستغل غيبي منهم هذه الحادثة ليقتلني ويفلت من العقاب.

قال كاربونيري وقد انخل قلبه من الفزع: إنهم آتون.

قد تجمعوا، أكثر من عشرين وبأيديهم البنادق أو المسدسات على أهبة إطلاق النار. صاح فيليساري:

- كيف؟ ألم تتعروا بعد؟ ماذا تنتظرون يا مجموعة الجيف. سنمركم بالنار جميعاً اخلعوا ملابسكم. فنحن لانشتهي أن نمركم بعد أن تصبحوا جثثاً..
- ياسيد فيليساري..

- اخرس يا بابيون. ليس هنا مجال طلب الصفح. إن مؤامرتكم وخيمة العواقب. وأنتم في هذه القاعة، قاعة الخطرين، ضليعون فيها ولا ريب.
وكانت عيناه جاحظتين تسبحان في بركة من الدم، تلتمعان بشهوة للقتل لا لبس فيها. فآزمت على المجازفة فقلت:

- يدهشني أن نابوليونياً مثلك سيقتل أبرياء. هل تريد إطلاق النار؟ حسناً. لاجدال. أطلق، أطلق في سرعة. اسم الله. يافيليساري الشيخ. حسبك رجلاً. حسبك نابوليونياً حقاً. انني مخدوع، بالخسارة. لا أريد أن أراك حتى وأنت تطلق النار، أدير لك ظهري. وأنتم أديرُوا جميعاً ظهوركم لهؤلاء الحراس لكيلا يقولوا: إننا هاجمناهم. وأدار الرجال ظهورهم معاً. وذهل الحراس من موقعي بقدر ذهولهم من قتل فيليساري رجلين تعسين في مبنى آخر - كما علمنا فيما بعد -
- ماذا عندك من قول أيضاً بابيون؟

أجبت وأنا لازال مدبراً: قصة الثورة هذه لا أصدقها. لماذا الثورة؟ لقتل الحراس ثم الفرار؟ أين المفر؟ أنا رجل هروب، رجعت من أقاصي البلاد، من كولومبيا، وأتساءل

أي بلد سيمنح حق اللجوء إليه لقتلة آبقين. لا تكونوا حمقى فليس هناك رجل جدير بهذه التسمية يقبل بمثل هذا العمل.

— أنت ربما! ولكن ما بال كاربونييري؟ إنه متأمر وأنا واثق. لأن آرنو وهوتان فوجتا بتظاهره بالمرض كيلا يذهب إلى الشغل.

— هذا مجرد وهم وأؤكد لك.

واستدرت نحوه بوجهي وقلت:

— ستعرف ذلك في الحال. كاربونييري صديقي يعرف كل تفاصيل هروبي، فلا يمكنه أن يعمل نفسه بأوهام وهو على بينة من عواقب الهروب بعد التمرد.

وفي هذه الاثناء وصل المقدم وظل في الخارج. فخرج فيليسايري، وصاح المقدم:

— كاربونييري

— حاضر

— سوقوه إلى السرداب بدون قسوة، أيها المراقب فلان اصحبه. اخرجوا جميعاً. وليبق هنا رؤساء المراقبين فقط. اذهبوا واجمعوا المبعدين المبعثرين في الجزيرة واحشروهم جميعاً. لا تقتلوا أحداً. احضروهم كلهم إلى المعسكر بغير استثناء.

دخل المقدم إلى القاعة ومعه مساعده وفيليساري وأربعة من الحراس. قال المقدم:

— بابيون! لقد حدث شيء رهيب. ويصفتي قائد معسكر التأديب، فإن تبعة كبرى تقع على عاتقي، وقبل أن اتخذ بعض المواقف أريد الحصول وفي سرعة، على بعض المعلومات. أنا أعلم أنك في مثل هذه اللحظة ترفض أن تتحدث معي بصفتي الرسمية، لهذا جئت إليك هنا. لقد قتلوا المراقب دوكلو، وأرادوا سلب الاسلحة المودوعة عندي. وكان هذا إذن تمرداً، وليس أمامي سوى دقائق معدودات، وأنا أثق بك فما رأيك.

— لو كان هناك تمرد فكيف يخفى علينا؟ ولماذا لانحاط علياً به؟ وما عدد الرجال المتواطئين. فهذه هي الأسئلة الثلاثة التي أطرحها يا سيادة المقدم، وسوف أجيب عنها إذا علمت عدد الرجال الذين تحركوا بعد أن قتلوا واستولوا على سلاحه.

— ثلاثة.

— من هم؟

— آرنو، هوتان، مارسو.

— لقد فهمت. شئت أم أبيت ليس هناك تمرد.

قال فيليسايري:

— أنت تكذب بابيون، كان مقدراً لهذه الفتنة أن تحدث في رويال. فقد أُنذر بها جيراؤولو. ونحن لم نصدها. واليوم نرى أن ما قاله كان صواباً. أنت تتجاوز علينا بابيون.

— إذا كنت على صواب فأنا ضامن، وكذلك بييرو المجنون وكاربونييري، وكالكانبي وكل المساجين الكورسيكيين في رويال ورجال الجنوح، ورغم ما حدث، فأنا لا أصدق، ولو

كانت هناك فتنة، لكننا نحن رؤساءها لاغيرنا.

— ماذا تخرف؟ ألم يتواطأ أحد؟ مستحيل.

— أين ما فعله الآخرون؟ هل تحرك أحد غير هؤلاء الثلاثة المجانين؟ هل هناك ما يشير ياسيد فيليبساري إلى احتلال مركز الحرس حيث يتواجد أربعة مراقبين مسلحين ببنادقهم بالإضافة إلى رئيسهم؟ كم مركباً في سان جوزيف؟ زورق واحد. وهذا الزورق هل يتسع لست مئة رجل؟ ألسنا أغبياء إذن؟ ثم أنقذ لكى نهرب؟ وإذا سلمنا بأن عشرين رجلاً قد هربوا، فلا مناص من القبض عليهم وإعادتهم أينما كانوا. يا سيادة المقدم! أنا لأدري وربما أنت لاتدري كم قتل رجالك من السجناء وأنا أكاد أجزم بأنهم من الأبرياء. والآن ماذا يعني تحطيم هذا الشيء القليل الذي نملكه؛ ويبدو أن هذا قد أحمده غضبكم. ولكن لاتنسوا أنه في اليوم الذي لاتتركون فيه الحد الأدنى للحياة في السجن عند ذلك ستكون ثورة اليائسين ثورة في الانتحار الجماعي، الموت من أجل الموت. سنموت معاً سجنائين وسجناء. يا سيد دوثنان! أخاطبك بقلب مفتوح، وأعتقد أنك تستحق ذلك لكونك جئتنا إلى هنا للاستعلام قبل أن تتخذ قراراً. دعونا وشأننا.

قال فيليبساري: والمتأمرون؟

— هذا، عليكم أنتم أن تكشفوا عنه النقاب. أما نحن فلا نعلم شيئاً ولانفدكم في شيء من هذا الموضوع. وأعيد: إن هذه القصة جنون من الرعاع، وليس لنا بما فعلوا أية صلة.

— ياسيد فيليبساري، بعد أن يدخل الرجال في مبنى الخطرين، أغلقوا الأبواب إلى إشعار آخر وليقف أمام الباب مراقبان. لا أريد أعمال عنف، ولاتتلفوا ما يملكون. هيا إلى الطريق. وانصرف مع الحراس الآخرين.

قال فيليبساري وهو يوصد الباب: من حسن طالعك أنني نابوليوني.

في أقل من ساعة كان جميع الرجال في بيتنا قد رجعوا، وكان قد تغيب منهم ثمانية عشر رجلاً ولاحظ الحراس أنهم بسبب استعجالهم قد أدخلوهم في مبنى آخر. وعندما انضموا إلينا عرفنا كل ما جرى لأن هؤلاء كانوا في أشغال السخرة.

حكى لي أحد اللصوص ما جرى بصوت خافت فقال:

تصور يا بابي أننا سحبنا حجراً يقارب وزنه الطن مسافة أربع مئة متر تقريباً. والطريق الذي نجر عليه ليس فيه قسم واضح المعالم، ويؤدي إلى بئر تبعد خمسين متراً عن منزل المقدم. وكنا نتخذ من البئر محطة استراحة، وهي تقع تحت ظل شجرة نارجيل في منتصف الطريق. فتوقفنا كدأبنا وسحبنا من البئر دلواً من الماء البارد فشربنا وبعضنا كان يبيل مندبيله ليضعه على رأسه. ولما كان زمن التوقف يقدر بعشر دقائق فقد جلس الحارس هو أيضاً على طرف البئر، فرفع عمرته وانهمك في تجفيف عرقه وعند ذاك اقترب آرنو من خلفه ويده مجرفة، ولم يرفعها ليفوت علينا فرصة تحذير الحارس بصرخة منا. فرفع المجرفة وأهوى بحددها على رأسه فنزلت الضربة في مفرقه ولم تستغرق ثانية فانفلق

رأسه شطرين وارغى دون أن تصدر عنه صيحة. وكان هوتان أمامه فتناول البندقية، وانتزع مارسو النطاق بما فيه من أعيرة نارية، والتفت نحو الجميع وقال: الثورة.. فمن كان معنا فليتبنا. ولم يتحرك أحد من حملة المفاتيح ولم يصرخ. وليس في الشغيلة من أبدى استعداداً لمؤازرتهم. فظفر إلينا آرنو جميعاً وتابع هوتان ومارسو: أيها الجبناء! سوف نريك كيف يكون الرجال. تناول آرنو البندقية من بين يدي هوتان وجرى الاثنان نحو منزل المقدم. ظل مارسو في مكانه بعد أن انسحب جانباً، وأخذ يصدر الأوامر: لاتتحركوا، لاتتكلموا، وأنتم ياتبوس انبطحوا ووجوهكم نحو الأرض.

من هناك حيث كنت، شاهدت كل شيء: بينما كان آرنو يصعد السلم للدخول إلى دار المقدم، فتح العربي الذي يشتغل عنده الباب، وظهر مع البتين، إحداهما ممسكة بيده والأخرى يحضنها بذراعه، وكانت مفاجأة لهما كليهما فركل العربي آرنو بقدمه، والطفلة لاتزال بين ذراعيه، وأراد آرنو أن يجهز عليه، ولكن العنز اتخذ من الطفلة مجناً^(١). لم يرفع أحد صوتاً لا العنز ولا الآخرون. وكانت البندقية تسدد نحو العربي مراراً من مختلف الجهات، وفي كل مرة كانت الطفلة هي التي تواجه فوهة البندقية. فأمسك هوتان وهو واقف على جانب السلم ودون أن يصعد أمسك بطرف بنطال العربي فأوشك أن يقع، وحينئذ رمى البنت على بندقية آرنو ففقد التوازن، ووقع بعضهم فوق بعض حين دفع هوتان العربي من ساقه. وفي هذه اللحظة بدأت الصيحات تملو من البتين أولاً، ثم من العربي، وتبع ذلك شتائم آرنو وهوتان. كان العربي أسرع منهما إلى التقاط السلاح عن الأرض، ولكنه أمسك به بيده اليسرى من ناحية السبطانة فأحاط هوتان ساقه بذراعيه بينما لوى آرنو ذراعه الأيمن، فرمى العربي البندقية إلى مسافة عشرة أمتار. وفي الوقت الذي كان يتسابق فيه الثلاثة للوصول إلى البندقية، صدرت الطلقة الأولى من بندقية حارس، فظهر المقدم من نافذته، وطلق يطلق نار مسدسه، طلقة بعد طلقة على مكان البندقية، خشية أن يصيب العربي. فلاذ هوتان وآرنو بالفرار نحو المعسكر عن طريق الشاطئ، والطلقات تلاحقهم. كان هوتان يجري في سرعة أقل بسبب ساقه المتصلبة فجندلوه قبل أن يصل إلى البحر. أما آرنو فقد دخل في البحر من موضع يتوسط المسبح الذي هو قيد البناء، ومسبح الحراس، وهذه المنطقة مأهولة بأسماك القرش، وأحاطت به طلقات البندقية من كل جانب إذ جاء حارس آخر لنجدة المقدم، فأختبأ خلف صخرة كبيرة فقال له الحراس: ارجع وانج بحياتك.

— أبدأ. أوتر أن تلتهمني القروش، وهكذا لن أرى وجوهكم القذرة، وتوغل في الماء نحو القروش. ويبدو أن رصاصة أصابته، إذ توقف في لحظة من اللحظات واستمر الحراس يطلقون الرصاص، فعاد مشياً لا سباحة، وكان الماء يغمره إلى صدره فسقط عندما هاجمته القروش وشوهد بوضوح تام وهو يسدد لكمة لقرش خرج من الماء إلى

(١) المجن = الترس.

نصفه وارتمى فوقه ثم تجزأ أربعة أجزاء متساوية دون اقتطاع الأطراف لأن كلاب البحر تنهشه من كل صوب، وفي أقل من خمس دقائق كان قد تلاشى.

كان الحراس قد أطلقوا ما يزيد على مئة طلقة على الكتلة التي شكلتها القروش وآرنو وقتل قرش واحد شوهد متجهاً نحو الشاطئ ويطنه نحو القضاء. وحين وصل الحراس من كل ناحية ظن مارسو أنه نجا بجلده إذ ألقي بالسدس في البحر ولكن العرب نهضوا واستاقوه بالركل واللكم والضرب بالعصا، ودفعوا به إلى الحراس قائلين: إنه أحد عناصر الفتنة. وبالرغم من الدم الذي يسيل منه وبالرغم من أنه كان رافعاً يديه إلى أعلى فقد قتله الحراس برصاص المسدسات والبندقيات، وللإجهاز عليه سحق أحدهم رأسه بأخض البندقية وصار يبرز رأسه بالسبطانة.

أما هوتان فقد أخذ كل حارس يفرغ فيه عياراته النارية، وكان لكل واحد منهم ستة وثلاثون طلقة. والأشخاص الذين قتلهم فيليساري هم رجال حلدهم العرب بأنهم تحركوا أولاً لتأييد آرنو ثم تراجعوا، وهذا محض إفتراء إذ لو كان هناك متواطئون لما تحرك أحد.

مر يومان على حبسنا جميعاً في القاعات المخصصة لكل زمرة، ولا يخرج أحد إلى العمل. يتغير الحراس على الباب كل ساعتين، وبين المبني والمبني حراس آخرون، ويتم تبادل الكلام بين مبنيين، والوقوف أمام النوافذ، وليست رؤية الباحة ممكنة إلا من الممر بين الأسرّة ومن مكان خلفي من خلال الباب الشبكي. لقد جاء حراس من رويال للدعم وليس في الخارج أحد حتى ولا عربي من حملة المفاتيح. وبين الفينة والفينة يرى رجل عريان يتجه نحو الزنانات التأديبية، يتبعه خفير، ولكن بدون ضرب ولا صراخ. وغالباً ما ينظر الخفراء إلى داخل القاعة من خلال نوافذ جانبية. على الباب حارس على اليمين وحارس على الشمال. مدة المراقبة قصيرة، ساعتان فقط، ولكن الحراس لا يجلسون أبداً ولا يضعون سلاحهم كذلك، فالبندقية ممدودة على الذراع الأيسر والأصبع على الزناد.

قررنا اللعب بالبوكر في فرقة صغيرة تتألف من خمسة أشخاص. لا لعبة مرسيلية ولا لعبة على نطاق واسع، فذلك يحدث ضجيجاً. أجبر ماركيثي على التوقف وقد كان يعزف سوناتا بيتهوفن، إذ قيل له: أوقف هذه الموسيقى، فنحن الحراس في مأثم.

يسود توتر مشترك، ليس في البيت وحده. بل في المعسكر كله. لا قهوة ولا حساء. وما يقدم هو كرة من الخبز صباحاً، ولحم بقري محفوظ ظهراً والعلبة الواحدة لأربعة أشخاص وما أنهم لم يتلفوا لنا شيئاً فلا زال عندنا قهوة وبعض الأغذية كالزبدة والزيت، والطحين.. في البيوت الأخرى، لاشيء البتة.

عندما خرج الدخان من النار التي أعدناها للقهوة من نافذة المرحاض قال أحد الحراس: أطفئوا النار. فتجرأ رجل مرسيلي من المحكومين القدامى يدعى نستون، وهو الذي كان يصنع القهوة لبيعها، وقال للحارس: إن كنت تريد إطفاء النار ادخل واطفئها بنفسك. وحينئذ أطلق الحارس النار من النافذة، فتبددت القهوة والنار كل مبدد. وأصيب نستون برصاصة في ساقه وهاج الجميع أنهم ملاقو حتفهم برصاص الحراس فانكبوا على

وجوهمهم . وفي تلك اللحظة هرع رئيس فرقة الحراسة فيليساى كالمجنون وبصحته أربعة حراس . وشرح الحارس الأوفرى الذى صوب بندقيته تفاصيل الحادث . فشتمه فيليساى بالكورسيكية ، والآخر لم يفهم شيئاً فقال : لم أفهمك .

ثم عدنا إلى أسرتنا الأرجوحية ، وساق نستون تنزف دماً ، قال :

— لا تقولوا إننى جريح ، فإنهم سوف يجهزون على إذا خرجت .

اقترب فيليساى من الشبك وخاطب ماركيتى بالكورسيكية :

— إصنعوا قهوتكم . إن ما حدث لن يتكرر .

ثم انصرف . ومن حسن طالع نستون أن الرصاصة لم تستقر فى ساقه بل دخلت من أسفل العضلة وخرجت من وسط الساق ، فشدت حتى انقطع الدم ثم ضمدت مع الخلل الساعة الثامنة مساء . إذن قد غشنا الليل ، فإذا بحارس بروتونى لا أعرفه ينادىنى باسمى

— لماذا أخرج فى مثل هذه الساعة وليس لى عمل فى الخارج ؟

— المقدم يريد أن يراك .

— قل له يأتينى إلى هنا . أما أنا فلن أخرج .

— أنت ترفض ؟

— نعم أرفض .

فأخاطبى أصحابى إحاطة السوار بالمعصم . وكان الحارس يتكلم من الباب المغلق فقال له ماركيتى :

— لن ندع بابيون يخرج إلا بحضور المقدم .

— ولكنه هو الذى أرسل فى طلبه .

— قل له أن يحضر بنفسه .

وبعد ساعة حضر شابان ومعهما العربى الذى يشغل عند المقدم ، والذى أنقذه وأحبط التمرد .

— بابيون أنا محمد ، جئت لأصحبك . المقدم يريد مواجعتك ولا يستطيع الحضور إلى هنا .

قال لى ماركيتى : الرجل مسلح .

فخرجت حينذاك من الطوق المضروب حولى ، وتقدمت من الباب . وبالفعل كان محمد يحمل بندقية على ذراعه . لقد شاهده الجميع . سجين يحمل بندقية بصورة رسمية .

قال لى :

— أنا هنا لحمايتك والدفاع عنك إذا اقتضى الأمر .

— ولكننى لا أصدق .

— هيا تعال معنا .

فخرجت وسار محمد إلى جانبنى والأخران خلفى وقصدنا مقر القيادة ، وعندما

مررت بمركز الحراسة قال لي فيليساري: بابيون أرجو أن لا تشكوني في شيء.
— أنا لا أفعل ذلك. ولا أحد ممن معي من الخطرين في البيت، أما في الأمكنة الأخرى فلا أدري.

نزلنا إلى القيادة، كان المنزل والرصيف مضامين بمصاييح يستخدم فيها (الفحم الهيدروجيني). وفي الطريق قدم لي محمد علبة سجائر.
وحين دخولي القاعة المضاعة إضاءة شديدة بالكاريور، وجدت المقدم في رويال والمقدم الثاني، ومقدم سان جوزيف ومقدم الزنانات.
كان في الخارج أربعة من العرب يحرسهم عدد من الحفراء، عرفت منهم اثنين من شهود القضية. قال أحدهما: هوذا بابيون
قال المقدم في سان جوزيف: مساء الخير يا بابيون.
— عموا مساء

— اجلس هنا على هذا الكرسي.
وكننت وجهاً لوجه مع جميع الحاضرين. وكان باب باب القاعة المؤدي إلى المطبخ مفتوحاً، فأومأت لي عرابة ليزيت إيماء ودية. قال المقدم في رويال:
بابيون. أنت في نظر المقدم دوتان جدير بالثقة. شريت نفسك بمحاولة إنقاذ ابنة زوجته بالعمودية. وأنا لا أعرفك إلا من خلال التقارير الرسمية التي تصورك رجلاً خطراً من كل ناحية. أريد أن أنسى هذه التقارير وأصدق زميلي روتان. سوف تأتي لجنة للتحقيق. فالمبعدون جميعاً من كل الفرق سوف يدعون إلى التصريح بما لديهم من معلومات. ومن المؤكد أنك وبعض صحبك لكم تأثير كبير في الحكوميين جميعهم وهم يتبعون تعليماتكم بكل حرفية. أردنا أن نعرف رأيك في الثورة وتصوراتك عما يمكن أن يصرح به بالتقريب من كانوا في بيتك أو غيره.

— ليس عندي ما أقوله، وليس لي تأثير فيما يفعله الآخرون. وإذا جاءت اللجنة لتقوم فعلاً بالتحقيق في هذا الجو فإنكم ستعزلون من مناصبكم.
— ماذا تقول بابيون؟ أنا وزملائي في سان جوزيف قمعنا الفتنة.
— ربما أمكنتك أن تخلص نفسك ولكنك لن تخلص رؤساء رويال.
نهض المقدمان القادمان من رويال ثم جلسا. وقالا: وضع ذلك.
إذا تحدثتم بصورة رسمية عن التمرد فإنكم جميعاً ضائعون، وإذا قبلتم جميعاً بشروطي نجوتهم جميعاً ما عدا فيليساري.
— ما الشروط؟

— أولاً أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي على الفور أي منذ صباح الغد. وإذا أمكننا التحدث فيما بيننا استطعنا التأثير في الجميع حول ما يجب التصريح به للجنة. ليس هذا صحيحاً؟
— بلى ولكن مم يجب إنقاذنا؟

— أنتم رجال رويال، لستم رؤساء رويال وحسب بل رؤساء الجزر كلها.

— نعم.

— وقد تلقيت إشعاراً من جيرازولو بأن الفتنة قيد الإعداد سوف تقع ويترأسها هوتان وآرنو.

أضاف الحارس: وكاربونييري أيضاً

— لا. هذا غير صحيح. إذ كان كاربونييري عدواً شخصياً لجيرازولو منذ أن كانا في مرسيليا لذلك أضافه إلى المؤامرة مجاناً. إذن أنتم لم تصدقوا هذا الكلام عن الفتنة. لماذا؟ لأنه قيل لكم ان الثورة تستهدف النساء والأطفال والعرب والحراس، وهو الشيء الذي يبدو بعيداً عن التصديق. هذا من جهة. ومن جهة أخرى الزورقان في رويال لا يتسعان لثمان مئة رجل، والزورق في سان جوزيف لا يكفي لست مئة رجل، إذن يستبعد أن يقبل الاشتراك في هذه الضربة أي رجل متزن.

— أنى لك هذه المعلومات؟

— هذا أمر محضني. ولكن إذا تماديت في الكلام عن الثورة، حتى لو أوعزتم بإزالي من الوجود، أو أكثر من ذلك، لو فعلتم ذلك بأنفسكم فلا بد أن يقال هذا الكلام ويؤق بالدليل عليه. إذن تقع التبعة على رويال. أبعدتم هذين الرجلين دون أن تفرقوا بينهما، والقرار المنطقي إذا انكشف هذا للتحقيق، هو أنكم لن تكونوا بمنجاة من أضرار فادحة، إذ كان ينبغي إبعاد أحدهما إلى جزيرة الشيطان والآخر إلى سان جوزيف، مع الاعتراف بأنه من الصعب تصديق حكاية المجانين هذه. وأصر على أنكم إذا تحدثتم عن الثورة أغرقتم أنفسكم.

إذن إن قبلتم فهذه هي شروطي:

أولاً — كما ذكرت لكم آنفاً: إعادة الحياة الطبيعية.

ثانياً — كل رجال الزنزانات يجب إخراجهم على الفور ليكونوا موضع الشبهة في التآمر وبالتالي أن لا يكونوا خاضعين للاستجواب عن الثورة، لأنها غير موجودة.

ثالثاً — يجب إرسال فيليساري إلى رويال للحفاظ على حياته أولاً ولأنه إذا لم تكن هناك ثورة فكيف نبرر قتل ثلاثة رجال؟ ولأن المراقب قاتل حقير، فعندما تحرك إبان الحدث كان مذعوراً ويرغب في قتل الجميع بما فيهم نحن إذ كنا في البيت. إذا قبلتم بهذه الشروط فسوف أرتب الأمور مع جميع الرجال بأن يصرحوا بأن آرنو وهوتان ومارسو قد أرادوا إلحاق الأذى بأكبر قدر ممكن قبل أن يموتوا، وما فعلوه لم يكن متوقفاً. ولم يكن هناك متواطئون ولا كاثون للمعلومات. وفي رأي الجميع أن هؤلاء الأشخاص قد عزموا على الانتحار بهذه الطريقة قبل أن يقتلوا، وهذا ما ييغونه.

سوف انسحب — إذا شئتم — إلى المطبخ لتشاؤروا قبل إعطاء الجواب.

دخلت إلى المطبخ وأغلقت الباب، صافحتني مدام دوتان وقدمت لي القهوة وقدحاً من الكونياك.

قال لي العربي محمد: ألم تقل شيئاً من أجلي
— هذا أمر يخص المقدم. ولكن حينما سلمك سلاحاً دلت على أنه ينوي أن يبيء
لك عفواً.

وقالت عرابة ليزيت بلسان عذب: لقد نالت جماعة رويال حسابها.
— إنه كان من السهل عليهم أن يصدقوا بالثورة في سان جوزيف حيث علم بها
جميع الناس ما عدا زوجك.

— بابيون! أنا سمعت كل شيء وفهمت في الحال أنك تريد لنا الخير.

— هذا هو الصحيح مدام دوتان.

فتح الحارس الباب وقال: أقبل بابيون.

وقال قائد رويال:

اجلس بابيون. بعد المناقشة، وصلنا بالإجماع إلى القناعة بأنك على حق، وبأنه لم
تكن هناك فتنة. هؤلاء البعدون الثلاثة كانوا قد قرروا الانتحار على أن يقتلوا قبل ذلك
أكبر عدد ممكن من الناس إذن فالحياة ستعود إلى ما كانت عليه من قبل. وفيليساري
سيقتل الليلة إلى رويال. ووضعه يخلصنا نحن ولا نطلب منك أية مساعدة بشأنه. ونحن
نستند إلى أنك تحفظ العهد.

— اتكلوا علي. إلى اللقاء.

— يا محمد رافق بابيون مع الحارسين إلى القاعة. وادع لنا فيليساري إنه ذاهب معنا

إلى رويال .

وفي الطريق قلت لمحمد: اتنى لك إطلاق سراحك. فشكر لي.

— ماذا أراد منك المراقبون؟

وفي جو من الصمت المطبق، قصصت عليهم بصوت عال ما حدث، كلمة كلمة
بالضبط.

— إذا كان فيكم من يخالف أو من يعتقد أنه قادر على نقد هذا الاجراء الذي اتخذته
باسمكم جميعاً فليقله.

وبصوت واحد وافق الجميع.

— هل تظن أنهم صدقوا أن أحداً لم يتآمر معهم؟

— لا. إذا شأوا أن لايعزلوا فيجب أن يصدقوا، ونحن إذا لم نرغب في المتاعب

فعلينا أن نصدق .

في الساعة السابعة صباحاً أفرغت الزنانات كلها في المعسكر التأديبي وقد أربى
عددهم على الثمانين والمئة. لم يخرج أحد إلى العمل رغم ان القاعات فتحت ابوابها كافة.
وغص الفناء بالسجناء يتكلمون في حرية، ويدخنون، ويتعرضون للشمس أو يستظلون
بالشجر على هواهم. ولقد ذهب نستون إلى المستشفى.

قال لي كاربونيري أن ثمانين باباً من أبواب الزنانات علق عليها ورق مقوى كتب عليه «ظنين بالاشتراك بمؤامرة الفتنة»

والآن بعد أن اجتمع الرجال كلهم انكشفت لهم حقيقة وهي أن فيليساوي لم يقتل سوى رجل واحد. أما الآخرون فقد قتلها حارسان شابان كانا مهددين من بعض الرجال الذين حوصروا وظنوا أنهم مقتولون لاعماله، فحملوا سكاكينهم في محاولة قتل واحد على الأقل قبل أن يموتوا.

هاهي ذي فتنة حقيقة قد أخذت في مهدها وتحولت إلى انتحار مبتكر، لثلاثة رجال، وهي قضية مقبولة رسمياً من الطرفين: الإدارة والمحكومين على السواء. وبقي منها اسم الاسطورة أو القصة، أو ما بين هاتين التسميتين، وأنا لست على اطلاع واسع في هذا الصدد.

يبدو أن دفن ثلاثة قتلى في المعسكر بالإضافة إلى هوتان ومارسو قد تم على الوجه الآتي: نظراً لعدم وجود نعش ذي درج لإلقاء الجثث الخمس في البحر، فإن الحراس قد وضموها في قعر زورق وأرجحوها في الهواء، وألقوا بها دفعة واحدة في الماء إلى القروش، وقد رنا أن الأواخر منهم سينزلون إلى قاع البحر بثقل الحجارة في أرجلهم بينما تكون القروش قد التهمتهم وقد روي لي أن واحدة من الجثث لم تغب في الأعماق، وأن الجثث الخمس قد رقصت عند حلول المساء رقصة باليه الكفن الأبيض وكأنها لعب العرائس تحركها أحطام القروش أو أذيالها، في هذه الوليمة الجديرة باللائقة بنبوخذنصر. وولى الحراس، والنوتيون مسرعين، من شناعة هذا المنظر. وصلت اللجنة وبقيت قرابة خمسة أيام في سان جوزيف ويومين في رويال. وتم استجوابي كالأخرين دون تمييز. وقد علمت من المقدم دوتان أن كل شيء يجري طبيعياً. منح فيليساوي إجازة طويلة تتصل بإحالاته إلى المعاش أي أنه لن يرجع أبداً، وأعفي محمد من باقي عقوبته، ونال المقدم دوتان درجة استثنائية.

دوماً هناك ناقدون. سألتني بوردولي بالأمس فقال:

— ماذا انتفعنا نحن الآخرين بهذا التدبير؟

نظرت إلى هذا المخلوق وقلت:

— لم نكسب كثيراً. فقط خمسون أو ستون سجيناً نجوا من الانفرادي لمدة خمس

سنوات لإخفائهم المعلومات ثم لا نجد هذا شيئاً يذكر. ؟

وهذأت العاصفة لحسن الطالع، وكان هناك نوع من التعاون الضمني بين المراقبين والمحكومين، الذي وفر على اللجنة الكثير من عناء التحقيق، والتي ربما كانت تريد غير هذا: أن تنتهي الأمور إلى الأفضل. وأنا شخصياً لم أربح ولم أخسر شيئاً، سوى اعتراف رفاقي بالجميل لأنني لم أعرضهم إلى احتمال تأديب أكثر ضراوة. وفوق ذلك ألغى العمل في سحب الحجارة، وغدا هذا من عمل الجواميس، وعلى السجناء أن يحلوا الحجارة في مكانها فقط. عاد كاربونيري إلى المخبز. وأنا أسعى للرجوع إلى رويال، وفي الواقع

لا يوجد هنا مصنع، إذن سيكون من المستحيل صنع طوف جديد.
وصول بيتان إلى سدة الحكم وسع الشقة في علاقات السجناء مع المراقبين. فجميع
هيئة الإدارة يصرخون بصوت عال بأنهم مع بيتان، حتى أن حارساً نورماندياً قال لي:
— هل تريد أن أقول لك شيئاً يا بابيون؟ لم أكن يوماً جمهورياً.

ليس في الجزر من يملك (راديو). لانسمع الأنباء، وفوق هذا يقال بأننا نمد
الفواصات الألمانية في المارتينيك والكوادلوب بما تحتاج من التموين، ولانفهم شيئاً عما يجري.
وهناك دوماً جدال:

— هل تحب أن أقول لك؟ الآن أو أن الثورة لكي نعطي الجزر للديغولين.
— وهل تظن بأن شارلو العظيم بحاجة إلى هذه السجن؟ وماذا يفعل بها؟
— إنه يجمع منها ألفين أو ثلاثة آلاف رجل.
— رجال مصابون باليرص أو السل أو الزحار أو الجنون. إنك أحياناً تحب المزاح.
ليس هذا الرجل أحق ليربك نفسه بالسجناء.
— والاصحاء الذين يبلغ عددهم الألفين؟
— هذا شيء آخر. فالرجل الصحيح ليس بالضرورة رجل سلاح. هل تظن أن
الحرب هجوم بأيد مسلحة؟ إن مبارزة بالسيف تدوم عشر دقائق، أما الحرب فتدوم سنين.
ولكي تكون جندياً يجب أن تكون مؤمناً بالوطن. أرضيت بهذا أم لا. ولا أرى هنا رجلاً
مستعداً لأن يقدم حياته في سبيل فرنسا.
— وكيف نقدم حياتنا لها بعد أن فعلت بنا ما فعلت.
— إذن أنت ترى أنني على حق. ولحسن الحظ أن لهذا الطويل شارلو رجلاً آخرين
غيرنا ليحاربوا. ولاننسى أن نقول بأن الألمان القدرين يحتلون أرضنا وأن هناك فرنسيين
إلى جانبهم.

الخبراء هنا جميعاً بغير استثناء هم مع المارشال بيتان، ويقول الكونت دوبراك «إن
سياسة بيتان هي نوع من التفادي» وحينئذ حدث ما يلي:
فيما مضى لم يكن أحد يتحدث عن الفداء، وما قد أصبح الجميع من الخاصة
والرعا، جميع هؤلاء المساكين يرون بريقاً من الأمل.
— أنقوم بالثورة من أجل الالتحاق بقوات ديغول بابيون؟
— آسف جداً. لا أريد أن أضحي بنفسي إكراماً لليون أحد. فالعدالة الفرنسية
والفصل المسمى «رد الاعتبار» لا يساويان عندي شيئاً. سأدشن رد الاعتبار بنفسي. ومن
واجبي أن أهرب وأن أكون رجلاً سوياً حالماً أحرر، لأعيش في مجتمع لا أكون فيه خطراً
عليه. ولا أعتقد أن أنساناً يستطيع أن يبرهن على ذلك بطريقة أخرى. إنني على استعداد
للقيام بأي عمل من أجل الهروب. أما تسليم الجزر لشارلو العظيم فأمر لا يعني، وأنا
واثق أن ذلك لا يهيم أيضاً.

— وإذا قمتم بمثل هذا الإجراء، فهل تعلم ما يقوله الأعلون؟ سيقولون بأنكم

احتلتم الجزر لتحرروا، لا لكي تقدموا برهان السواء لفرنسا الحرة. ثم هل تعرفون أنتم أي الفريقين على حق؟ ديقول أم بيتان؟ أما أنا فلا أعلم شيئاً على الإطلاق. وأنا الرجل الغبي المسكين، يؤلمني أن أرى بلادي يجتاحها العدو. فأنا أفكر في والدي وشقيقتي وأولادهن.

— هل يجب أن نكون بليدين حتى نشغل بالنا بمجتمع لم يرحمنا؟

— ومع ذلك فالأمر بدهي، لأن القضاة ورجال الدرك والخبراء ليسوا فرنسا، إنهم صنف على حدة، مكوّن من أناس ذوي تفكير معوج. كم من رجال من هذا الصنف هم اليوم مستعدون ليضعوا أنفسهم في خدمة الألمان. أراهنك على أن الشرطة الفرنسية توقف المواطنين، لتسلمهم إلى السلطات الألمانية. حسناً إنني أقول وأكرر القول إنني لن أساهم في تمرد أو ثورة، مهما كانت الدوافع، إلا لهدف الهروب ولكن أي هروب هذا؟

تدور مناقشات خطيرة، بين الفرقاء، بعضهم يميل إلى ديقول وبعضهم مع بيتان. والحقيقة لايعرفها أحد. إذ كما قلت آنفاً لا يوجد راديو عند المراقبين ولا عند السجناء. والاختبار تصلنا عن طريق السفن التي تأتينا حاملة الطحين والخضار الجافة والرز. ونحن نرى الحرب من أقصى البلاد ومن العسير أن نفهم ظروفها. سيأتي، على ما يبدو، إلى سان لوران دو ماروني ضابط تجنيد تابع للقوات الحرة. وبالنسبة إلى سجن الأشغال فإننا لانعلم شيئاً بعد سوى أن الألمان قد احتلوا فرنسا كلها.

حدث حادث مسل: جاء إلى رويال خوري، فوعظ بعد القداس فقال:

«إذا هوجمت الجزر فسوف نعطيكم سلاحاً لتساعدوا المراقبين في الدفاع عن أرض فرنسا»

هذا أكيد! ما كان أحلاه هذا الخوري! إنه فعلاً يستحق منا رأياً متواضعاً. فطلب من السجناء الدفاع عن زنزاناتهم. وهكذا نكون قد رأينا كل شيء في السجن. إن الحرب يمكن أن نترجمها نحن بما يلي: مضاعفة عدد الرجال من الحارس العادي إلى المقدم، ورئيس المراقبين وأن يكثر عدد المفتشين، ويكون لبعضهم لكنة ألمانية أو أزراسية، فيقل مقدار الخبز فيصينا أربع مئة غرام فقط، وكذلك تقل كمية اللحم.

الشيء الوحيد الذي زاد هو ثمن الهروب الفاشل، سيكون الحكم بالإعدام مع التنفيذ لأنهم سيضيفون إلى تهمة الهروب هذه العبارة: «حاول الالتحاق بأعداء فرنسا»

أنا في رويال منذ أربعة أشهر، واتخذت من الدكتور جيرمان صديقاً حميماً. وكانت زوجته امرأة فريدة وقد طلبت إلي أن أنشيء لها حديقة تساعد على اتباع حمية لإنقاص الوزن. ونفذت الفكرة وزرعت لها الخس والفجل والفاصولياء الخضراء والبندورة، والباذنجان وكانت في غاية الإعجاب، وصارت تعاملني معاملة الصديق الطيب. كان الدكتور لا يصافح أحداً من المراقبين مهما كانت درجته. أما أنا فقد كان يصافحني، وكذلك بعض السجناء الذين تعرف عليهم ويكن لهم كل تقدير.

ولما رجعت حراً وثقت علاقتي به من جديد بوساطة الدكتور روزنبرغ، فأرسل لي

صورته مع زوجته من مرسيليا، وكان قد عاد من مراكش، وهنأني إذ علم بعودتي إلى الحرية والسعادة. ومات فيما بعد في الهند الصينية في محاولة إنقاذ جريح متأخر. كان رجلاً فذاً، وأمراته جديرة به. وعندما سافرت إلى فرنسا عام ١٩٦٧ كنت أميل إلى الذهاب إليها ولكنني عدلت عن ذلك، لأنها كانت قد انقطعت عن مراسلتي منذ أن طلبت منها شهادة تزكية، وقد فعلت ذلك. لا أعرف سبباً لهذا الصمت ولكنني أحفظ لها في قلبي أعلى درجات العرفان بالجميل للطريقة التي عاملاني بها في مسكنها في رويال. بعد عدة أشهر تمكنت من الرجوع إلى رويال.

سان جوزيف موت كاربونييري

بالأمس تلقى صديقي ماتيو كاربونييري طعنة سكين في صميم قلبه. وهذه الجريمة ستبعتها جرائم أخرى لقد كان عند المغسل عارياً يقتسل ووجهه مغطى بالصابون عندما تلقى هذه الطعنة.

كانت العادة إذا أراد أحدنا الاستحمام تحت المرشة، وضع سكينه تحت أمتعته ليتسع له الوقت في تناولها إذا دامه - أفتراضاً - عدو. وهو لم يفعل ذلك فكلفه ذلك حياته. والذي قتل صديقي رجل أرمي ملتح منذ أن نبت له الحية. ويأذن من المقدم وبمساعدة أحد الرجال أنزلت صديقي إلى الرصيف البحري، وكان ثقيلاً، وفي النزول اضطرت إلى الاستراحة ثلاث مرات. ووضعت في قدميه حجراً كبيراً، وبدلاً من الحبل وضعت له سلكاً معدنياً. وهكذا فإن القروش تعجز عن قطعه، وتغوص الجنة في الماء دون أن تفرسها أسماك القرش.

دق الناقوس ووصلنا إلى الرصيف، وكانت الساعة السادسة مساءً، والشمس تغيب تحت جناح الدجى عند الأفق. صعدنا في زورق، وكان صديقي ينام نومته الأبدية في هذا الصندوق الشهير وقد أنزل غطاؤه ويستخدم هذا الصندوق للجميع. قال لي الحارس: اسحب إلى أعلى. وفي أقل من عشر دقائق وصلنا إلى التيار الناجم عن المضيق بين جزيرة رويال وسان جوزيف. وفجأة أحسست بغصة. وبدت على سطح الماء عشرات زعائف القروش تدور في سرعة، وفي مساحة ضيقة تقل عن أربع مئة متر هذه هي قاضمات السجناء. إنها على موعد، في الساعة المحددة بالضبط. وأرجو الله أن لا ييء لها فرصة التقاط صديقي. رفعت المجاديف مع تحية الوداع ورفعنا الصندوق وانزلت جثمان ماتيو المكفن بأكياس الطحين يجره ثقل الحجر الضخم، فلامس البحر في سرعته. باللفظاعة، فما كاد يغوص، وظلنته توارى، حتى عاد إلى الصعود في الهواء يرفعه سبعة قروش، أو

عشرة، أو عشرون، فمن يستطيع لها عدداً؟ وقبل أن ينسحب الزورق كانت أكياس الطحين التي تلفه قد انتزعت. وحينئذ حدث شيء لم نجد له تفسيراً: لقد ظهر ماتيو لمدة ثلاث ثوان واقفاً في الماء، مبتور الساعد الأيمن، نصف جسمه خارج الماء يتقدم نحونا، وأثناء حركته اختفى إلى الأبد. وقد مرت القروش تحت زورقنا، وصدمت أسفله وأوشك رجل منا أن يفقد توازنه ويقع في الماء فتجمدنا جميعاً حتى الحراس. ولأول مرة أشتبه الموت. ولم يبق إلا القليل لكي أرمي بنفسي إلى القروش، وأختفي من هذا الجحيم إلى الأبد.

صعدت من الرصيف إلى المعسكر بتؤدة ولم يكن في صحتي أحد. وضعت المحفة على كتفي ووصلت إلى المنسبط، حيث هاجم جاموسي بروتوس الجاموس ذاتون، توقفت فجلست. سجا الليل ولما تزل الساعة السابعة مساءً، ومن ناحية الغرب كانت الشمس ترسل آخر خيوطها بعد أن توارت وراء الأفق وكانت السماء مسودة الأرجاء إلا من ثقب ضوئي تحدته منارة الجزيرة بين لحظة وأخرى قلت لنفسني وقد ضاق صدري: أيها القذرا لقد أردت أن ترى حادثة دفن، والأسوأ من هذا دفن صديقك. حسناً لقد رأيته، رأيته جيداً. الناقوس وما استتبع دقاته. فهل أنت راضٍ؟ وهل أشبعت نهم فضولك المراض؟ بقي أن أفك عظام قاتل صديقي. متى؟ هذه الليلة؟ لم هذه الليلة لا يزال الوقت مبكراً. إنه الآن في أوج احتراسه وحذره، هو وصحبه عشرة. يجب أن لا أكون اللقمة السائغة في هذه الضربة السريعة، ولز على كم رجل يمكنني الاعتماد. أربعة وأنا نصبح خمسة، هذا يكفي - لنندع هذا القاتل يسترخي، وإذا أمكن ذهبنا إلى جزيرة الشيطان. لاطوف هناك ولا تخضير للهروب. كيسان من جوز الهند، ولا آبه للبحر، والمسافة إلى الشاطئ ليست طويلة، نسيباً، فهي أربعون كيلو متراً. والمسألة لاتعدو الثبات. أنا قوي يومان في البحر على ظهر جوادي. وأعني به كيس جوز الهند، ويجب أن أستطيع فعله. حملت المحفة من جديد وصعدت إلى المعسكر، ولدى وصولي فتشوني. وهذا خارق للعادة إذ لم يحصل مثل هذا من قبل، وأمسك الحارس بسكتي.

هل تريد أن تقتلني؟ لم جردتني من سلاحي؟ هل تعلم أنك تدفعني إلى الموت إذ تفعل ذلك؟ فإن قتلوني يكن ذلك بسببك. فهي الحارس جواباً، وكذلك حملة المفاتيح العرب. ففتحوا لي الباب ودخلت القاعة. الرؤية ضئيلة. ولماذا مصباح واحد بدلاً من ثلاثة. جرتي غرائده من ردي وقال: تعال من هنا.

ليست القاعة صاخبة، فكان شيئاً خطيراً سيحدث أو قد حدث.

— لم تبق مديتي معي. لقد انتزعت مني أثناء التفيتش.

— لست في حاجة إليها هذه الليلة.

— لماذا؟

— الأرمني وصاحبه في المراحيض.

— ماذا يفعلان هناك؟

- لقد ماتا.
- من الذي بردهما؟
- أنا.
- ما أسرع ما حصل. والآخرين؟
- بقي من الجمعية أربعة. بولو أعطاني عهد الرجال بأنهم لن يتحركوا، وإنهم ينتظرونك ليسألك إذا كنت ترضى بالوقوف عند هذا الحد.
- أعطني مدية.
- إليك مديتي. أنا باق هنا في هذا الركن. اذهب وتكلم معهم.
- تقدمت نحو مجموعتهم. تعودت عيناى الآن هذا النور الضئيل، وتوصلت إلى تمييز هذه الجمعية. وكان الأربعة واقفين أمام أسرتهم، يلتصق أحدهم بالآخر.
- بولو! هل تريد غطاطي؟
- نعم.
- وحدك أم أمام رفاقك؟ ماذا تريد مني؟
- تركت ببني وبينهم مسافة متر ونصف المتر على سبيل الاحتراس، والسكين مفتوحة في كمي الأيسر ومقبضها في مكان من يدي.
- أعتقد أن صديقك قد انتقم انتقاماً كافياً. أنت خسرت أعز صديق ونحن خسرنا اثنين وأرى أن نقف عند هذا الحد. فما رأيك أنت؟
- بولو! أنا أسجل لك هذا العرض، والذي يمكن عمله، إذا كنتم توافقون، هو أن تتواثق الفرقتان على أن لا تقدما على عمل شيء مدة ثمانية أيام. فمئذ الآن وحتى ذلك الحين سنرى ما يجب عمله. اتفقنا؟
- اتفقنا.
- وانسحبت.
- ماذا قالوا لك؟
- قالوا أنهم يعتقدون بأن مصرع الأرمني ورفيقه كان كافياً للثأر لماتيو.
- فرفض كالكانى، وسكت غراند. جان كاستيلي ولويس غرافون موافقان على عقد صلح.
- وأنت يابابى.
- أولاً من الذي قتل ماتيو؟
- الأرمني.
- حسناً. لقد عرضت اتفاقاً وأعطيت كلمة الشرف، وهم فعلوا كذلك، بأن لا يتحرك أحد خلال ثمانية أيام.
- قال كالكانى: ألا تريد الثأر لماتيو؟
- يارجل. لقد ثارنا له، وقتل اثنان من أجله. فلماذا نقتل الآخرين؟

— هل كانوا على علم بذلك؟ هذا ما يجب أن نعرفه.
 — عموا مساء. اعذروني إنني أرغب في النوم قليلاً.
 وكنت أبقي البقاء وحيداً بعض الوقت، فتمددت على سريري. شعرت أن يداً
 تنساب نحوي وتسحب السكين في هدوء. ثم سمعت صوتاً يهيمس في الظلام:
 — نم إذا استطعت يا بابي. نم وادعاً، ونحن نتناوب الحراسة.
 كانت ميتة صديقي شرسة بشعة، لأنها كانت بغير سبب جاد. قتله الأرمني، لأنه
 فرض عليه اثناء اللعب مبلغ مئة وسبعين فرنكاً. فشرع الأحمق بأن قدره قد انحط، لأنه
 أجبر على الدفع أمام ثلاثين أو أربعين رجلاً من اللاعبين. ولما وجد نفسه محصوراً بين
 ماتيو وغرانده فلم يجد إلا الرضوخ والإذعان. فقتل في نذالة رجلاً مغامراً نظيفاً ونقياً في
 بيته. ولقد أوجعتني هذه الضربة، ولم أجد ما يعزيني سوى أن القتاتلين لم يعيشا بعد
 جرمتها إلا ساعات معدودات، وهذا لا يكفي.
 غرانده، هذا النمر، قد قطع عنق كل منها قبل أن يأخذا حذرهما. وتم ذلك في
 سرعة تليق ببطل سيف مثلوم. وأنصتور المكان الذي سقطا فيه، عائثاً بالدم، وفكرت في
 غباوة «أحب أن أسأل عمن جرهما إلى المراحيض» ولكنني لا أريد أن أسأل. رأيت، وأنا
 مغمض الجفنين، غروب الشمس الأحمر المشوب باللون البنفسجي، بشكل مأساوي تضيء
 بلهبها الأخير هذا المشهد الموحى بشعر دانتة، وأسماء القرش تتنازع صديقي، وهذا
 الجذع المنتصب المتور الساعد وهو يمشي نحونا. إذن كان حقيقة ما يقال من أن الناقوس
 يستدعي القروش، وهذه الحيوانات القذرة كانت تعلم بأن طعاماً قد أعد لها لتلتهمه،
 عندما يقرع الناقوس. كنت أرى أيضاً عشرات الزعانف، وانعكاسات سوداً حزينة تجري
 كأنها غواصات، وتدور دوراناً، لقد كانت حقاً تفوق المئة. وبالنسبة إلى صديقي انتهى
 طريق العفن، فقد سار به إلى نهايته. مات بطعنة سكين من أجل ترهة، وهو في الأربعين
 من عمره. يا صديقي المسكين إنني لا احتمل. لا. لا. لا أريد أن تهضمني القروش.
 وقد أقبل ذلك حياً وأنا في مغامرة في سبيل حريتي، وبدون أكياس طحين ولا جمل
 ولا حجر، وبغير متفرجين ولا مساجين ولا حراس، وبدون ناقوس. إذ كان لابد من أن
 تأكلني فلتضربني بأخطامها وتهضمني في أحشائها وأنا حي أكافح ضد عناصر الطبيعة
 للوصول إلى الأرض الكبرى. انتهينا. انتهينا تماماً. لاهروب إلا بعد الإعداد المحكم.
 إلى جزيرة الشيطان، ثم كيسان من جوز الهند ثم إطلاق العنان، ويسير كل شيء
 بقدرة المولى. وبعد هذا لن تكون المسألة أكثر من مقاومة جسدية خلال ثمان وأربعين
 ساعة أو ستين. وهذا وقت طويل لحوض البحر؟ يضاف إليه مجهود عضلات الفخذين
 المنقلصة حول أكياس جوز الهند. ألا تشل ساقاي في لحظة ما؟ وإذا أسعفني الحظ
 ووصلت إلى مر جزيرة الشيطان فسوف أحاول. يجب أولاً الخروج من رويال والذهاب إلى
 جزيرة الشيطان، وبعد ذلك سنرى.

— هل تنام بابي؟

- لا .

- هل لك في قليل من القهوة؟

- إذا سمحت .

ثم استويت قاعداً على سريري راضياً بالقهوة التي قدمها لي غرانده مع سيجارة مشتعلة .

- كم الساعة؟

- الواحدة صباحاً

- تسلمت الحراسة منذ ساعة . رأيتك تتقلب فأدركت أنك لاتنام .

- أنت على حق . إن موت ماتيو قلب كياني ، ولكن إطعامه للقروش أثارني أكثر .

هل تعلم؟ لقد كان ذلك رهيباً .

- لاتقل لي شيئاً يا بابيون ، افترض أن ذلك كان فعلاً شيئاً رهيباً . وما كان عليك أن تذهب إلى هناك .

- كنت أعتقد أن قصة الناقوس حديث خرافة . وما كنت لأصدق بأن السلك المعدني الذي يحمل الحجر الكبير تطيح بها أسماك القرش في لمح البصر . ماتيو المسكين . لن أنسى ما حييت هذا المشهد الرهيب . وأنت ماذا فعلت حتى مسحت الأرميني وصاحبه من الوجود؟

- أنا كنت عند طرف الجزيرة أركب باباً حديدياً للملحمة عندما بلغني نبأ مقتل صاحبتنا ، وكان الوقت ظهراً وبدلاً من أن أصعد إلى المعسكر ذهبت إلى الأشغال بدعوى تصليح القفل . استطعت أن أضع خنجراً مشحوداً من طرفه في أنبوب طوله متر . كان مقبض الخنجر أجوف وكذلك كان الأنبوب . دخلت إلى المعسكر في الساعة الخامسة والأنبوب في يدي ، فسألني الحارس عنه فأجبته بأن القضيبي الخشبي في سريري الأرجوحى قد انكسر ، وأني سوف استعمل هذا الأنبوب بدلاً من هذه الليلة فقط . وكانت فلول النهار بدأت تنهزم عندما دخلت القاعة ولكنني تركت الأنبوب عند المغسل وقبل التفقد استرجعته . وبدأ الليل بمد جناحه الأسود . فدمجت الخنجر بالأنبوب والأصحاب يحيطون بي . وكان الأرميني وصاحبه (سان سوسي) واقفين في مكانها أمام سريرهما ، وبولو خلفهما قليلاً . وكما تعلم ، إن جان كاستيلي ولويس غرافون شجاعان غير أنها تقدما في السن وتنقصهما سرعة الحركة لكي يقاتلا في حشد منظم كهذا . أردت أن أتصرف قبل وصولك ، حتى أبعاد الشبهة عنك مع ما عندك من سوابق . فلو كنا نحن المغلوبين لتعرضت للخطر إلى أقصى حد . كان جان في آخر القاعة فاطفاً أحد المصاييح . وفعل غرافون مثله في الطرف الآخر . وكانت القاعة في شبه ظلمة . بوجود المصباح البترولي في الوسط . وكان معي مصباح جيب كان ديفاً قد أعطانيه تقدمني جان وسرت خلفه ، وعندما وصل إليهم رفع مصباحه ووجهه نحوهم ، فبهز الضوء الأرميني فرفع ذراعه الأيسر إلى عينيه وسرعان ما خرقت عنقه برعجي . وسان سوسي (الرجل الآخر) شهر سكينه أمامه في الفراغ . وهو لا يعلم

أين يضعها فطعته بالرمح بقوة فاخترقت الطعنة عنقه من الوريد إلى الوريد . أما بولو فقد ألقي بنفسه منبطحاً على الأرض، ثم تقلب تحت الأسرة . وعندما أطفأ جان مصباح الجيب عدلت عن ملاحظته، وهكذا نجا بجلده .

— ومن جرهما إلى المراحيض؟

— لا أدري وأعتقد أن رجال مجموعته فعلوا ذلك ليخرجوا الأنوية من بطنهما .

— لا بد أن هناك كثرة من الدم المهرق . .

— ماذا تقول . لقد ذبحا من الوريد إلى الوريد، وربما أفرغا آخر نقطة من دمهما .

جاءتني فكرة الضوء بينما كنت أعد الرمح، إذ كان في المصنع حارس يغير بطاريات مصباحه واتصلت بديغا وطلبت منه أن يعبرني واحداً . ونظراً لاحتمال إجراء تفتيش نظامي فقد أعدت المصباح إلى ديغا بوساطة حامل مفاتيح عربي، وكذلك الخنجر . إذن ليس هناك أية فضيحة من هذه الجهة . ولم أفعل شيئاً ألام عليه . لقد قتلوا صديقنا وعيناه مملتان بالصايون وأنا نحرتهما وعيناهما غارقتان في النور . إذن تعادلنا . ما رأيك يا باي؟

— نعم ما فعلت . ولا أدري كيف أشكر لك هذا التصرف السريع للثأر لصديقنا، علاوة على فكرة إيعادي عن هذه الحادثة .

— لاداعي للكلام . فهذا واجبي، لقد قاسيت كثيراً وأنت تطمح إلى الحرية باندفاع قوي وهذا ما يجب أن أفعله .

— شكراً يا غرانده . أجل إني أطمح إلى الذهاب، أكثر من أي وقت مضى؟ لذلك ساعدني على أن تقف القضية عند هذا الحد . وبكل صراحة ستكون مفاجأة لي، لو أن الأرمني كان قد أحاط صحبه علماً بنيتي . وبولو لا يقبل بجرمة جبانة كهذه، فهو يعرف العواقب .

— وأنا من رأيك ولكن غالفاني يقول بأنهم جميعاً آثمون .

— سوف نرى ما قد يحصل في الساعة السادسة، فلن أخرج لتفريغ القاذورات، وسوف أتمارض لمشاهدة ما يحدث .

في الخامسة صباحاً اقترب منا خفير المهجع وقال:

— يا جماعة . هل تعتقدون أن من واجبي استدعاء الحراس المناوئين؟ لقد اكتشفت قتيلين في المراحيض .

هذا الرجل سجين عجوز في السبعين من عمره، يريد أن يوهنا نحن بأنه لا يعرف شيئاً رغم أنها تبردا منذ الساعة السادسة والنص من مساء أمس . ولا بد أن القاعة ملطخة بالدماء، وحين مشى الرجال انغمست أقدامهم في البركة المتشكلة وسط الممر .

فأجابه غرانده بخبث مماثل:

— كيف ذلك؟ أيوجد قتيلان في المراحيض؟ منذ متى؟

— الله أعلم . كنت أنام منذ الساعة السادسة، والآن وبينما كنت ذاهباً لقضاء حاجة تزلزلت في بركة لزجة وكاد وجهي يتحطم فأضأت قداحتي فرايت أن هذا دم . وفي

المراحيض وجدت الشخصين.

— ناد. سوف نرى.

— يامراقبون! يامراقبون!

— لماذا تصرخ بهذه الشدة أيها الحارس الهرم؟ هل اشتعلت النار في بيتك؟

— لا ياسيدي الرقيب. إنما هناك قتيلان في المراحيض.

— ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أبعثهما حين؟ الساعة الآن الخامسة والربع، فحتى

الساعة السادسة سوف نرى. حاول أن لا يقترب أحد من دورة المياه.

— إن ما تقوله مستحيل. ففي ساعة اليقظة الجميع يذهبون إلى هناك لقضاء حاجاتهم.

— صحيح. انتظر، سوف أخطر رئيس الحرس.

وعاد ثلاثة منهم. مراقب رئيسي وحارسان. وظننا أنهم داخلون.. لا. ظلوا أمام

الباب الشبكي.

— تقول هناك قتيلان في المراحيض؟

— نعم يا سيدي

— منذ أية ساعة؟

— لا أدري. ولكن منذ قليل اكتشفتها حينما كنت ذاهباً للتبول.

— من هما؟

— لا أعلم.

— حسناً أيها العجوز الملتوي. أنا أقول لك: أحدهما الأرمني. اذهب وانظر.

— حقاً إنه الأرمني ورفيقه سلك سوسي.

— حسناً. ننتظر التفقد.

ثم انصرفوا.

الساعة السادسة، قرع الجرس الأول وفتح الباب وطاف موزعا القهوة من مكان إلى آخر، وخلفهما موزعو الخبز. في الساعة السادسة والنصف قرع الجرس الثاني وكانت الشمس قد ذرت قرنها، والممر عليه آثار أقدام من مشى في الليل. وصل المقدمان، وقد صار الوقت ضحى، وبصحبتها ثمانية مراقبين والطبيب.

— على الجميع أن يتعروا وأن يقفوا وقفة استعداد أمام سريرهم، إنها ملحمة حقيقية فالدم في كل مكان. كان المقدم الثاني أول داخل إلى المراحيض، ولما خرج كان ممتقع اللون فقال «لقد ذبحا ذبحاً. طبيعي إن أحداً لم ير ولم يسمع». صمت مطبق.

— أنت أيها العجوز حارس المهجع قد ييس هذان الرجلان. منذ متى كانت الوفاة بالتقريب يا دكتور؟

— منذ ثماني إلى عشر ساعات.

— ومع ذلك لم تكشف ذلك إلا في الصباح. ألم تر شيئاً؟ ألم تسمع شيئاً؟

— لا أنا ثقيل السمع، ولا أكاد أرى أمامي، وبلغت من العمر سبعين عاماً؛ قضيت أربعين منها في السجن، أظنك تفهمني. فأنا رجل نؤوم، نمت في الساعة السادسة، ولولا إحساسي بالنبول لما استيقظت في الخامسة والنصف. ومن عادتي أن لا استيقظ إلا على صوت الجرس.

قال المقدم ساخراً: أنت على حق. إنه لحظ كبير. وهكذا نام الجميع وادعين، مراقبين وسجناء. أيها المرضى! احملوا هاتين الجثتين وخذوهما إلى مدرج المسرح. يادكتور أريد أن تجري تشريحاً. وأنتم اخرجوا واحداً واحداً عراة الأجسام.

مررنا أمام المقدم والطبيب مترادفين. وكانا يفحصان الرجال فحصاً دقيقاً من كل النواحي، وليس في جسم أحدهم جرح، وعلى بعضهم رش من الدم، وقد فسروا ذلك بأنهم ترحلقوا حين ذهابهم إلى المراحيض. أنا وكالكاني وغراند كان فحصنا دقيقاً أكثر من غيرنا.

— بابيون أين مكانك؟

فذهب إليه وفتش أمتعتي كلها

— أين مديتك؟

— أخذها مني الحارس عند الباب في الساعة السابعة من مساء أمس.

فقال الحارس: هذا صحيح. وقد أحدث جلبة وهو يقول بأنهم يريدون قتله.

— غراند! هل هذه المدية لك؟

— أجل إنها في مكاني، فهي إذن لي.

وتفحص السكين فوجدها نظيفة جداً لا شيء فيها كالقرش الجديد. وعاد الطبيب من المراحيض وقال: إن الآلة المستعملة في ذبح الرجلين خنجر ذو حدين، وقد قتلا واقفين. وهذا أمر غريب. إن سجيناً لا يسلم عنقه للذبح كالأرنب دون أن يدافع عن نفسه ولا يد من وجود جريح.

— أنت ترى بنفسك يا دكتور، ليس هناك واحد فيه خدش.

— هل كان هذان الرجلان خطرين؟

— جداً يا دكتور. الأرمني هو حتماً قاتل كاربونييري الذي قتل بالأمس، في المغسل الساعة التاسعة صباحاً.

— قضية مدروسة.

ومع ذلك احتفظوا بمدية غراند.

— هيا إلى العمل ما عدا المرضى. أأنت مريض بابيون؟

— أجل أيها المقدم.

— لم تضع وقتاً للانتقام لصديقك. أنا لست غيباً. أنت تعرف ذلك ولسوء الحظ لا أملك البراهين، وأنا واثق بأنني لن أضع يدي عليها. وللمرة الأخيرة أليس عند أحدكم ما يصرح به؟ إذا كان في وسع أحدكم أن يلقي الضوء على هذه الجريمة المزدوجة، له

عندي كلمة شرف بأن أحرره من الحجر وأرسله إلى الأرض الكبرى.
صمت مطلقاً. جميع رفاق الأرمني تمارضوا، وفي آخر لحظة تظاهر غرانده وكالكاني وكاستيللي ولويس غرافون، بالألم، بعد أن رأوا تمارض أولئك.
خلت القاعة من المئة والعشرين رجلاً، وبقينا فيها نحن الخمسة، وأربعة من فرقة الأرمني والساعاتي والحارس الذي كان يتذمر باستمرار بسبب ما عليه من التنظيف. وكان أيضاً ثلاثة أو أربعة آخرون من المسجونين أحدهم الزاسي وهو سيلفان العظيم.
يميش هذا الرجل وحده، ليس له مجموعة بل أصدقاء، وكان قد ارتكب حادثاً فريداً فنال عقوبة بالسجن عشرين سنة. إنه رجل أعمال مبدع. هاجم عربة بريديّة في قطار باريس-بروكسل السريع. وهاجم الجنديين الحارسين، وألقى بأكياس البريد على حجارة السكة الحديدية، فتلقاها شركاء له كانوا على الطريق، وقد غنموا مبلغاً كبيراً.
ولما رأى سيلفان الفريقين يتهامسان كل في ركنه، وهو يجهل ما بينهما من الميثاق، سمح لنفسه بالكلام:

— أرجو أن لا تقوم بينكم معركة صاخبة على نحو ما كان يفعله الفرسان الثلاثة.
قال كالكاني: اليوم لا. أما في المستقبل فقد يحصل.
قال بولو: لماذا في المستقبل؟ لا توجل إلى الغد ما تستطيع أن تفعله اليوم. أما أنا فلا أرى موجباً للقتال. ما رأيك بابيون؟
— لدي سؤال واحد: هل كنتم على بينة مما كان ينوي أن يفعله الأرمني.
— أقسم بشرفي بابي ما كنا نعرف شيئاً. وهل تحب أن أقول لك شيئاً؟ ما كنت أعلم بموت الأرمني فكيف كنت أقبل بما أقدم عليه؟
— قال غرانده: ما دام الأمر كذلك لماذا لانطوي القضية نهائياً؟
— نحن من جهتنا موافقون. لتصافح ولانعد إلى هذا الموضوع المؤسف جداً.
— اتفقنا.
قال سيلفان وأنا شاهد على ذلك. ويسرني أن ينتهي الأمر.
— ولن نعود إلى الخوض فيه.

في الساعة السادسة مساء قرع الناقوس ولم أستطع أن أمنع نفسي عن تصور المشهد، الليلة البارحة، وصديقي منتصب الجذع آتياً نحو المركب. فالصورة بالغة التأثير، حتى بعد أن انقضت أربع وعشرون ساعة إني لا أتمنى للأرمني وصديقه أن تتناوشها جماعة القروش.

كالكاني لم ينبس ببنت شفة، فهو يعرف ماذا جرى لكاربونييري، كان ينظر شارد الذهن، وساقاه المتدليتان عن سريره تتأرجحان، ذات اليمين وذات الشمال — غرانده لم يدخل بعد. كان رنين الناقوس الجنازتي قد توقف حين قال كالكاني دون أن ينظر إلي وهو لا يزال يميز رجله: أرجو أن لا تكون القروش التي أكلت الأرمني القدر هي نفسها التي ضربت ماتيو بخطمها. ولقد كانا مفترقين في الحياة، فمن الحماقة أن يلتقيا في بطن قرش

واحد.

إن غياب هذا الصديق المخلص سيتترك فراغاً في حياتي. الأفضل أن أنتقل إلى رويال وأتحرك في سرعة أكبر، كنت أكرر الكلام نفسه كل يوم.

هروب المجانين

نظراً لظروف الحروب، فإن العقوبات صارمة على من كان متلبساً بحالة هروب فاشلة.

ليس الآن أو أن تحضير خطة للهروب ليس كذلك يا سالفيدا؟
كنت والايطالي ذو الانبوية الذهبية الذي لقيته أثناء القافلة نتناقش عند المغسل، بعد أن قرأنا البلاغ المتعلق بالأوضاع الجديدة بشأن الهروب قلت له:
— ومع ذلك ليس الحكم بالإعدام هو السبب الذي يحول بيني وبين الهروب. وأنت؟

— أنا يا بابيون، لا أطيق صبراً وأريد الهروب وليحصل ما يحصل. ولقد طلبت أن اشتغل في مأوى المجانين بصفة ممرض، فأنا أعلم أنه في مستودع التمرين في الماوى برميلان؛ سعة كل منهما خمسة وعشرون ومئتي لتر، وهما كافيان لصنع طوف. في أحدهما زيت زيتون وفي الآخر خل. فإن ربط أحدهما بالآخر بشكل لا ينقسم أحدهما عن الآخر، يعطي فرصة للوصول إلى الأرض الكبرى. تحت الأسوار التي تحيط بمبنى المجانين، من الناحية الخارجية لا توجد حراسة، ومن الداخل حراسة دائمة يقوم بها حارس ممرض. يساعده في هذا سجناء يراقبون دون انقطاع ما يفعله المجانين. لم لاتأتي معي إلى هناك؟
— بصفة ممرض؟

— مستحيل بابيون. أنت لا يعطونك عملاً في الماوى. فبعده عن المعسكر وضعف المراقبة وكل ما فيه لا يسمح بإرسالك إلى هناك، وإنما يمكن الذهاب بصفة مجنون.
— من الصعب جداً يا سالفيدا. عندما يصنفك الطبيب مع المجانين، لا يعطيك إلا الحق في أن تفعل أي شيء مجاناً، لا أكثر ولا أقل. وفي الحقيقة أنت معروف بعدم مسؤوليتك عن أعمالك فهل قدرت مسؤولية الطبيب عندما يقبل بذلك ويوقع على التشخيص المرضي؟ حينئذ تستطيع أن تقتل سجيناً أو حارساً أو زوجة حارس أو غلاماً. تستطيع الهروب. وأن تقترب أية جريمة. فالعدالة لاتملك شيئاً ضدك. وأقصى ما يمكن

عمله ضدك هو أن توضع في زنزانة عارياً إلا من قميص القهر الأبيض. وهذا النظام لا يمكن أن يستمر طويلاً، وفي يوم من الأيام لابد أن تلين معاملتهم. والنتيجة ففي أي عمل خطر تقوم به بما في ذلك الهروب إنك لاتدفع الثمن غالباً.

— بابيون! أنا واثق منك وبودي أن أهرب معك. افعل المستحيل لتأتي إلي بصفة مجنون، وأنا أستطيع مساعدتك بصفتي ممرضاً إلى أبعد الحدود. وأستطيع أن أواسيك في أخرج الساعات وأقساها ولا أخفي عليك بأن المرء المعافي يجد العيش بين هذه الكائنات الخطرة شيئاً رهيباً.

— اذهب ياروميو إلى الماوى وسوف أدرس القضية بعمق، وبخاصة الأعراض الأولى للمجنون، لاتوصل إلى إقناع الطبيب لتصنيفي في زمرة غير المسؤولين. فكرة ليست بالسيئة. وبدأت بدراسة القضية دراسة جادة، ولم أجد في مكتبة السجن أي كتاب حول هذا الموضوع وكلما سنحت لي الفرصة كنت أناقش رجالاً عانوا من المرض قليلاً أو كثيراً وتوصلت بالتدريج إلى تكوين فكرة واضحة:

١ — يحس المجانين بالآلام حادة في المخيخ.

٢ — يحسون دويماً في الأذنين، غالباً.

٣ — وهم شديدو التوتر، فلا يستطيعون الرقود طويلاً في وضع واحد دون أن تضطرب أعصابهم، فيستيقظون وتختلج أبدانهم بعنف وألم شديدين.

يجب إذن أن أترك للطبيب أن يكتشف ذلك دون الإشارة إليه مباشرة، ويجب أن يكون جنوني من النوع الخطر، حتى يتخذ الطبيب قراره بضرورة عزلي في ماوى المجانين، ولكن لن أكون عنيفاً حتى لا أتعرض لسوء معاملة المراقبين: قميص القهر، اللكم، الحرمان من الغذاء، الحقن بالبرومور، الحمامات الباردة أو الحارة، الخ.

إذاً أجدت تمثيل هذه المهزلة، استطعت تخادعة الطبيب فأقول له:

— عندي سؤال أجيبني عنه إكراماً لي: لماذا ولأي سبب سأكون متمارضاً؟ وعندما لا يجد الطبيب تفسيراً منطقياً لهذا السؤال فمن المحتمل أن أربح جولة. وليس هناك حل آخر بالنسبة إلي. لقد رفضوا إبعادي إلى جزيرة الشيطان، ولم أعد أطيق المعسكر، منذ أن قتل صديقي ماتيو. لن أتردد لقد حزمت أمري. سأذهب يوم الاثنين إلى العيادة. لا لست أنا الذي أدعي المرض، بل لابد من أحد يبلغ عني، وهذا أفضل، ويجب أن يكون موثقاً. وعلي أن آتي بأشياء مريبة غير سوية في القاعة، وحينئذ فإن حارس القاعة سيروى للمراقب، وهذا بدوره هو الذي يسجلني في عداد المرضى.

ثلاثة أيام انسلخت، ولم تكتحل عياني بنوم، ولم اغتسل ولم أحلق لحيتي، وكنت أستمني أكثر من مرة كل ليلة. ولا أكل إلا قليلاً. بالأمس سألت جاري عن صورة انتزعها من مكاني وهي لم تكن موجودة أصلاً، فأقسم جهد إيمانه على أنه لم يمس أمتعتي، فساوره قلق فغير مكانه.

يترك الحساء عادة في وعاء خشبي بضع دقائق قبل توزيعه، فاقتربت من الوعاء

وتبوت فيه أمام جميع الحاضرين فسادهم الذهول، ويظهر أن وجهي قد أثر فيهم فلم يمس أحد بكلمة إلا صديقي غراند فقد قال:

— بابيون لم فعلت هذا؟

— لأنهم نسوا أن يضعوا فيه ملحاً.

ويدون أن يتبه لي أحد أحضرت صحنى ومددت يدي نحو مراقب البيت وطلبت منه أن يسكب لي منه وفي صمت شامل نظر إلي الجميع وأنا احتسي الحساء.

هاتان الحادثتان كانتا كافيتين لعرضي على الطبيب هذا الصباح. فوجدت نفسي أمامه دون طلب مني.

— إيه أيها الطبيب، أشراً ما رأيت أم هو خير؟

وكررت السؤال فنظر الطبيب إلى مدهوشاً وثبت النظر إليه بعينين طبيعيتين وبمحض

إرادتي

— إنه خير. هل أنت مريض؟

— لا.

— إذن لم جئت للعيادة؟

— لا شيء قيل لي إني مريض وقد سرني أن أرى ما ليس صحيحاً. إلى اللقاء.

— انتظر قليلاً بابيون. اجلس تجاهي. انظر إلي.

وأخذ الطبيب يفحص عيني بمصباح يلقي منه حزمة ضوئية.

— ألم تر شيئاً دكتور عما تظن أنك اكتشفته؟ أشعتك ليست قوية، ومع ذلك أظنك

فهمت شيئاً أليس كذلك؟ قل لي هل رأيتها؟

— رأيت ماذا؟

— لا تتباله، أنت طبيب أم ييطري؟ لأخالك تقول لي أنه لم يكن لديك الوقت

الكافي لتراها قبل اختفائها، إما أنك تخفي عني شيئاً أو أنك تتخذني هزواً.

كانت عينايتي تبرقان من اللغوب^(١)، وهيتي على هذا الشكل بدون حلقة ولا

نظافة، لعبت دوراً لصالحى. وكان الحراس يصغون وقد أخذهم العجب، ولكنني لم أقدم

على العنف الذي يستدعي تدخلهم.

قام الطبيب يداريني ويدخل في لعبتي، وأربت على كتفي وأنا جالس كل ذلك كيلا

يستثيرني.

— نعم أردت أن أخفي عنك بابيون، وقد أتيت لي فرصة رؤيتها.

قلت ببرود: أنت أفاك^(٢) أيها الطبيب، لأنك لم تر شيئاً قط، إن ما أفكر فيه هو

أنك كنت تبحث عن شيء. إنها ثلاث نقط سود في عيني اليسرى أراها فقط عندما أنظر

في الفضاء وحين أمسك بالمرآة أرى عيني بوضوح ولا أرى أثراً لتلك النقاط. إنها تختفي

(١) شدة النعب.

(٢) كثير الكذب.

حالما أمسك بالمرآة لأراها.

— خذوه إلى المستشفى في الحال، دون أن يعود إلى المعسكر. قلت لي بابلون إنك معاق ويمكنك أن يكون هذا صحيحاً وإنما أراك مرهقاً. لهذا السبب سأبعث بك إلى المستشفى لبضعة أيام استجماماً. هل ترغب في ذلك؟
— إن هذا لا يضايقني في المعسكر أو في المستشفى فأنا دوماً في الجزر.

لقد خططت الخطوة الأولى. وألقيت نفسي بعد نصف ساعة في المستشفى في زنزانة مضاءة، فيها سرير جيد نظيف، ملاءاته ناصعات البياض. وقد علقوا على الباب ورقة كتب عليها «قيد الملاحظة» وشيئاً فشيئاً وبإيجاء داخلي أتحوّل إلى مجنون، وإنما للعبة خطيرة. إن تقليص عضلات الفم، والمضغض على الشفة السفلى بين الأسنان عملية مدروسة، أمام قطعة مرآة مكسورة كنت قد أخفيت عنها. وقد أتقنت هذه الحركات إلى درجة القيام بها دون رغبة مني. قلت لنفسي: لا ينبغي التسلي بهذه اللعبة الصغيرة يا بابي. اضطررت أن أفعل هذا لكي أشعر الآخر ضمناً بأنني غير متزن، وفي هذا يكمن الخطر. إذ قد يترك في نفسي بعض العيوب أو العقد. ومع ذلك يجب إكمال اللعبة للوصول إلى الهدف. أدخل إلى الملجأ ثم أعفى من المسؤولية ثم أهرب مع صديقي. الهروب الكلمة السحرية التي تمز عظمي وتطربني أيما طرب. أتخيل نفسي جالساً على اليرميلين مندفعاً نحو الأرض الكبرى بصحبة صديقي المريض الأيطالي.

كان الطبيب يمر لزيارتي كل يوم، ويتفحصني طويلاً. وكنا نتحدث بأدب ولطف. ولكنه مشوش البال، ولا يزال غير مقتنع. وسوف أنبئه بأنني أتناهى في القذال كأول الأعراض.

— كيف الأحوال بابلون؟ هل نمت جيداً؟

— أجل دكتور. أنا بخير تقريباً. وشكراً على مجلة (مانش) التي أعزتني إياها. النوم شيء آخر وفي الواقع خلف زنزاني مضخة لري أي شيء؟ لست أدري. وصوت ذراع المضخة بان بان لم ينقطع طول الليل يصل إلى مؤخرة عنقي حتى كأنه يحدث في الداخل صدى. بان-بان لاهو ينقطع، ولا أنا أحتمل. لهذا لن أنسى لك الجميل إذا أنت أمرت بتغيير الزنزانة.

التفت الطبيب إلى الحارس المريض في سرعة وهمس:

— هل توجد مضخة؟

فأوما الحارس برأسه إيماءة تعني لا.

— أيها المراقب. بدلوا زنزانه. أين تريد الذهاب؟

— إلى أقصى مكان. بعيداً عن هذه المضخة المقدسة، إلى آخر الممشى. شكراً

دكتور.

أغلق الباب وألقيت نفسي وحيداً في الزنزانة ثم أحسست بما يشبه الإخطار، وهو ضجة تكاد لا تدرى، إذ كانوا يراقبونني متجسسين من خلال جهاز التجسس في الباب. إنه

الطبيب حتّى، لأنني لم أسمع خطواته تبعد طويلاً، بعد أن انصرفوا. وفي سرعة مددت يدي نحو الجدار الذي يحجبني عن المضخة الموهومة وصحت في شدة: قفي قفي أيتها القذرة. ألا تنتهين من سقيا بستان الجوز؟ واستلقت على السرير وأخفيت رأسي تحت الوسادة ولم أسمع صوت الصفيحة النحاسية التي تغلق جهاز التجسس، ولكنني سمعت وقع الخطوات تبعد. والنتيجة أن الطبيب هو الذي يتجسس.

بدلت زنزانتي بعد الظهر، والأثر الذي تركته هذا الصباح لاريب أنه جيد. إذ أنه رافقي إلى آخر المرح حارسان وسجينان ممرضان. فلم يتكلموا وأنا لم أكلمهم بل اكتفيت بالسير خلفهم دون أن أتلفظ بكلمة. وبعد يومين يأتي دور الظاهرة المرضية الثانية وهي الطنين في الأذنين.

— كيف الحال بابيون؟ هل انتهيت من المجلة التي أرسلتها إليك؟

— لا لم أقرأها. لقد أمضيت النهار وجزءاً من الليل في محاولة خنق البعوضة أو الذبابة الصغيرة التي عشت في أذني. عبثاً حاولت إدخال قطعة من القطن ولم أجد حيلة، وأجنحتها لا تنظن زن زن زن. زد على ذلك أنها تدغدغي دغدغة غير مستحبة. والدوي مستمر. وفي النهاية أبلغ حد الاستفزاز يا دكتور. ما ظنك في هذا؟ إذا لم أنجح في خنقها يمكن إغراقها ما رأيك؟

تشنج عضلات وجهي لا يتوقف، وأرى الطبيب وهو يسجل ملاحظة حول ذلك. أمسك بيدي ونظر إلى عيني فأحسست باضطرابه وتعبه.

— أجل يا صديقي بابيون سنفرقها. شاتال! اغسلوا له أذنيه. كل يوم يتكرر المشهد مع بعض التغيير والدكتور لم يقرر بعد أن يبعث بي إلى الملجأ.

أنبأي شاتال أثناء حقنة البرومور بأن الأمور حتى لاتدعو إلى القلق، والطبيب منزع ولا يزال الوقت مبكراً لكي يرسلك إلى الملجأ. أظهر للطبيب بأنه يمكن أن تكون خطراً، إذا أردت أن يتخذ قراراً سريعاً.

جاء الدكتور مصحوباً بالحراس والمرضين، ومنهم شاتال، ودخل وحياني وهو يفتح الباب: قال:

— كيف حالك بابيون؟

اتخذت موقفاً عدائياً، قلت: أوقف سيارتك دكتور. أنت تعلم أن الحالة جيدة. وأنا أريد أن أعلم من منكم الشريك مع الشخص الذي يعذبني.

— من الذي يعذبك؟ ومتى؟ وكيف؟

— أولاً هل تعرف يا دكتور أعمال الدكتور أرسونفال؟

— نعم وأرجو.

— وهل تعلم أنه اخترع نواصاً ذا تموجات متعددة لكهربة الهواء حول مريض مصاب بقرحة في الفم وبهذا النواص يرسلون تيارات كهربائية. تصور أن عدواً لي قد

سرق جهازاً من المستشفى في كاين وكلما نمت هادئاً ضغط على الزر، وتصدمني الشحنة المفرغة في بطني وفي فخذي فانتفض بغتة ثم أقفز قفزة فوق سريري على ارتفاع عشرة سنتيمترات. ولم يكف الجهاز عن هذا الإرسال هذه الليلة. ولا أغمض عيني حتى يصل التيار، وينتفض جسمي كالنابض المنطلق: فانا لا أقوى على الاحتمال دكتور، أبلغ الجميع بأن أول من اكتشف اشتراكه بالتآمر مع ذلك الرجل فسوف أفك عظامه. أنا لست مسلحاً ولكن لي من القوة ما يكفي لخنقه أياً كان. نحيتي إلى مستمعي الكريم. وأبعد عني تحياتك المراثية وعبارتك المعسولة: «كيف الحال بابيون؟» وأعيد عليك القول أبعد عني عربتك.

لقد آتت الحادثة أكلها وقال لي شاتال بأن الطبيب قد نبه الحراس بأن يكونوا حذرين وإلى أن يخاطبوني بلطف. وأضاف قائلاً إنه مصاب بعقدة الاضطهاد ويجب إرساله بسرعة إلى الملجأ. قال شاتال، حتى يجنبي قميص المجانين:

- هل أكلت جيداً يا بابي؟
- نعم شاتال وكان طعاماً طيباً.
- هل تريد الذهاب معي ومع جينوس؟
- إلى أين؟
- نحن ذاهبون إلى الملجأ لإحضار بعض الأدوية، ويكون لك في ذلك نزهة.
- هيا بنا.

وخرجنا نحن الثلاثة في طريقنا إلى الملجأ، وكنا نتحدث طول الطريق وفي لحظة محددة، عندما اقتربنا قال:

- ألا تشعر بالتعب بوجودك في المعسكر بابيون؟
- بل، واللاقي فيه الأمرين، وبخاصة بعد غياب صديقي كاربونييري.
- لماذا لا تبقى أياماً أخرى في الملجأ؟ وهكذا فإن رجل الجهاز لن يجدهك هناك ليرسل عليك تياره.

- إنها فكرة حسنة، ولكن أعتقد أنهم يقبلون بي هنا ما دام دماغي سليماً؟
قال الحارس مسروراً، وهو يتوهم أنني وقعت في فخ شاتال: دعني أنصرف. سوف أكلمهم في شأنك.

باختصار هاأنذا في الملجأ مع مئة من المجانين وليست الحياة مع المعتوهين سكرراً. يستنشقون الهواء في الباحة مجتمعين في زمر. تتألف الزمرة من ثلاثين رجلاً تقريباً، في الوقت الذي كان المرضى ينظفون فيه الزنانات، وكلهم عراة ليل-نهار. وكان الطقس لحسن الحظ حاراً. تركوا لي حذاء من النسيج. وقدم لي المرض سيجارة بعد أن أشعلها. جلست تحت أشعة الشمس أفكر بالسفيدا الذي لم أستطع مقابله رغم مرور خمسة أيام على وجودي هنا.

دنا مني مجنون أعرف قصته، ويدعى فوشه؛ باعت والدته دارها لترسل له مبلغ خمسة عشر ألف فرنك بوساطة أحد المراقبين لكي يهرب، فأعطاه عشرة آلاف واحتفظ لنفسه بخمسة. ومازال هذا المراقب يبتزّه حتى تركه مفلساً وذهب إلى كايين. ولما علم فوشه عن طريق آخر أن أمه هي التي أرسلت له المال، وأنها غدت وبساطها تراب، دون جدوى، جن جنونه؛ وهاجم في اليوم نفسه المراقبين، فسيطروا عليه، ولم يستطع أن يلحق بهم أي أذى، ومنذ ذلك اليوم أي منذ أربع سنوات وهو يعيش بين المجانين. قال لي:

— من أنت؟

نظرت إلى هذا المسكين، وهو شاب في الثلاثين من عمره، وقد انتصب أمامي ويسألني من أكون.

— أنا رجل مثلك لا أقل ولا أكثر.

— إجابتك غبية. أرى جيداً أنك رجل، وأرى ما أمامك، وخاصة أنك عار، ولو كنت امرأة لرأيت شيئاً آخر. إنما أسألك من تكون؟ أعني ما اسمك؟

— بابيون.

— بابيون؟ أنت فراشة؟ مسكين! الفراشة تطير ولها جناحان، أين جناحك؟

— لقد أضعتها.

— يجب أن تعثر عليها وبهذه الصورة تستطيع الهروب إذ ليس للحارس أجنحة. بوسعك إذن أن تسخر منهم. أعطني سيجارتك.

وقبل أن أقدمها له كان قد انتزعها بأصابعه وجلس ودخنها بلذّة. قلت له:

— وأنت من تكون؟

— أنا المسحوق. كلما أعطيت شيئاً يخصني لعبوا بي.

— لماذا؟

— هكذا! ولهذا سأقتل العديد منهم. وهذه الليلة شنقت اثنين. لا تخبر بذلك أحداً.

— لم شنقتها؟

— لأنها سرقا منزل أُمّي. تصور أن أُمّي أرسلت لي دارها، وهم لما رأوه جيلاً أخذوه واحتفظوا به، وسكنوه. ألم أحسن صنعاً إذ شنقتها؟

— أنت على حق. وهكذا لن ينتفعوا من السكنى في دار أمك.

— هذا الحارس الكبير الذي تراه خلف الشبك هل تراه؟ هو أيضاً يسكن المنزل لهذا فإنني سأحطمه، صدقني.

ثم نهض وانصرف.

أف. أليس من سخرية القدر أن يعيش المرء بين المجانين والمخاطرة؟ الصراخ يملا جنبات الليل وبخاصة إذا كان القمر بدرًا كاملاً فإنه يبهجهم. كيف يؤثر القمر في المجانين؟ هذا ما لم أجد له تفسيراً ولكنني لاحظته مراراً.

يقدم الحراس التقارير عن المجانين بملاحظتهم. وبالنسبة إلي، فإنهم يفتعلون أحداثاً ليلاحظوا رد الفعل عندي، من ذلك أنهم يتعمدون نسيان اخراجي إلى الفناء وينتظرون إذا كنت أطالب بالخروج، أو يتناسون طعامي. وكان عندي قصبة ذات خيط دقيق فأقوم بحركات الصياد، فيقول لي المراقب: هل هذا بعض يا بابيون؟
— لا يمكن أن بعض. تصور أنني عندما أصطاد تلاحقني سمكة صغيرة في كل مكان فإذا وجدت سمكة تريد أن تعض على الشخص فإن الصغيرة تنذرها وتقول لها: احترصي ولا تعضي فإن بابيون هو الذي يصطاد. ولهذا السبب لم أتوصل إلى صيد. ومع ذلك فانا ماض في الصيد لعل واحدة لاتصدقها.

عندما أدعى إلى المائدة المشتركة في قاعة الطعام لآستطيع أن أستمتع بصحني من العدس. كنت ضحية لعملاق لا يقل طوله عن متر وتسعين سنتمراً. يكسو الشعر جذعه وذراعيه وساقيه كالقرد. فهو يجلس أبدأ إلى جانبي.
إن العدس يقدم ساخناً جداً، ولكي نستطيع أكله يجب الانتظار قليلاً ليبرد وكنت أتناول بالملعقة الخشبية قليلاً وانفخ عليها، ولايتسنى لي أن أكل سوى بضعة ملاعق حتى يأخذ إيفان هوه (كان يتوهم نفسه إيفان هوه)، صحنه ويحيط به بكفيه إحاطة السوار بالمعصم، ويزدرد كل ما فيه في خمس لحظات، ثم يستولي على صحني ويفعل به ما فعل بصحنه، ثم يعيده إلي مسحاً في صخب وجلبة، وينظر إلي بعينيه الواسعتين الحمراوين كالجمر وكأنه يقول: أرايت كيف أتناول العدس ويدأت أضيق به ذرعاً. وبما أنني لم أصنف بعد في زمرة المجانين أزمعت أن أكيل له ضربة يسمع لها صدى بعيد.
وكان يوماً آخر من أيام العدس. وإيفان هوه لم يكف عني فجلس بجانبي ووجهه المجنون مستبشر. فتذوق سلفاً لذة التهام عدسه وعدسي، فسحبت جرة كبيرة ملأى بالماء كانت أمامي، وما إن رفع العملاق صحني وصب حسائي في حلقه، حتى نهضت ورفعت الجرة بكل ما أوتيت من قوة وحطمتها فوق رأسه، فطاح على الأرض وقد ندت عنه صيحة وحشية. وفي الحال انقض المجانين بعضهم على بعض مسلحين بالصحون وهبت ضوضاء. صاحبة تتناغم مع صيحاتهم.

وجدت نفسي من جديد في الزنزانة حيث حملني أربعة من الممرضين الأقوياء بدون احتراس. وكنت أصرخ كمن فقد رشده مدعياً بأن إيفان هوه سرق مني محفظتي وفيها بطاقتي الشخصية، وهذه المرة أيضاً كنت موقفاً. فعزموا على تصنيفي مع المعفين من تبعة أعمالهم. وأجمع المراقبون على أنني مجنون وادع، غير أنني أصبح خطراً في بعض الأحيان. ما أجل العصابة والضماد على رأس إيفان هوه. ولحسن الحظ لانخرج إلى الزهرة في وقت واحد.

استطعت التحدث مع سالفيدا وقد حصل على مفتاح إضافي لمخزن التموين حيث البرميلان. وهو يسعى للحصول على ما يكفي من الأسلاك المعدنية للربط. قلت له: إنني

أخشى أن تنقطع الأسلاك بتأثير الشد والارخاء على البرميلين في البحر، ويفضل استعمال الجبال فهي أشد مرونة. فذهب يسعى للحصول على الجبال، فتوفرت له مع الأسلاك، وبقي عليه أن يصنع ثلاثة مفاتيح أحدها لزنزاني، وواحد لباب الممر المؤدي إليها. والثالث للباب الرئيسي في الملجأ. جولات المراقبين قليلة حارس واحد لكل أربع ساعات حراسة. من الساعة التاسعة إلى الواحدة صباحاً. ومن الساعة الواحدة إلى الخامسة، اثنان من الحراس ينمان اثناء الحراسة، ولايقومان بأية جولة، ويتكلمان في هذا على سجين معرض مكلف بالحراسة معها. إذن تجري الأمور على أحسن وجه، والمسألة لا تتعدى الصبر، وسيكون التحرك بعد شهر على الأكثر، أعطاني المراقب الأول سيجاراً رديشاً مشتعلاً، عندما وصلت إلى الباحة، وقد بدا لي لذيقاً على رداءته، ونظرا إلى هذا القطيع من الرجال العراة الذين يغنون ويدبكون، ويقومون بحركات مضطربة، أو يكلمون أنفسهم وكانت أجسامهم مبللة بسبب رشاش الماء (الدوش) الذي يأخذونه قبل الخروج إلى الفناء. هذه الأجسام الذائبة الضامرة التي ظهرت عليها آثار فتائل القمصان المشدودة بقوة، وكذلك آثار السياط والضرب الذي مارسه الحراس عليهم أو مارسوه على أنفسهم. هذا هو المشهد الأخير لنهاية طريق العفن. كم واحداً من هؤلاء المشرفين على الهلاك كانوا معروفين بقدرتهم على تحمل تبعه أعمالهم بشهادة الأطباء النفسانيين في فرنسا.

تيتان (هكذا يدعى) كان معي في قافلة العام ١٩٣٣ قتل رجلاً في مرسيليا ثم وضع ضحيته في عربة يجرها جوادان، وقادها بنفسه إلى المستشفى، وقال لدى وصوله: خذوه واعتنوا به. أظنه مريضاً، وأوقف على الفور، ولم يعترف له المحلفون بأقل درجة من المسؤولية، ومع ذلك فهو مجنون لقيامه بمثل هذا العمل. وأغى الأشخاص بطبيعة الحال من كان يعرف أنه سوف يتعرض للسخرية. إنه هنا، تيتان يجلس إلى جانبي، ويعاني من زحار مزمن، إنه جثة متقلبة ينظر إلي بعينين رماديتين بلون الحديد نظرة غبية. قال لي: في بطني قروود صغيرة، بعضها خبيث يعضني لذلك أنزف دماً عندما تكون غاضبة، وقروود أخرى يستر أجسادها الشعر، ولكن أيديها الناعمة كالريش تلمس أحشائي برفق وتمنع القروود الشقية من العض. وعندما تدافع عني هذا القروود الصغيرة لا أرى دماً.

— هل تتذكر مرسيليا يا تيتان؟

— أجل أتذكر مرسيليا، وأتذكر جيداً ساحة البورصة مع الأصحاب. وزمر

الطائشين.

— هل تذكر أسماء بعضهم؟ لانج لولوكرك؟ لوغرافات وكليمانت؟

— لا. لا أذكر أسماء، إنما أذكر واحداً صاحب عربة ساقني إلى المستشفى مع

صديقي المريض، وقال لي بأنني سبب مرضه. وهذا كل شيء.

— والأصدقاء؟

— لا أعلم.

مسكين تيتان.. أعطيته سيجاري ونهضت وفي قلبي رافة عارمة بهذا الكائن المسكين

الذي سيموت ميتة الكلب.

أجل. إن مساكنة المجانين تنطوي على خطر. ولكن ما العمل؟ إنها على كل حال الطريقة الوحيدة لركوب هروب دون المجازفة بالعنق.

سالفيديا على أهبة الانتهاء، وقد حصل على مفتاحين ولم يبق سوى الحصول على مفتاح زنزاني، واستحصل أيضاً على حبل جيد. وقد صنع علاوة على الحبال سيوراً من قماش السرير الأرجوحى، كانت مجدولة من خمس فتائل كما ذكر لي. كل شيء مضمون من هذه الناحية، وكنت استعجل بداية العمل إذ أن تمثيل هذه الملهاة أمر صعب حقاً. ولكي أبقى في هذا المكان من الملجأ، حيث توجد زنزاني، يجب أن أثير أزمة من وقت إلى آخر. وقد فعلت ذلك مرة بإحكام، فوضعتي المرضى في مغطس حار جداً وحقنت بإبرتين من البرومور. كان المغطس مغطى بقماش متين جداً حتى أنني عجزت عن الخروج منه، ورأسي وحده يبرز من ثقب في القماش. وأمضيت ساعتين في هذا النوع من قمصان القهر، وإذا بإيفان هوه يدخل، فبلغ قلبي حنجرتي من نظراته إلي وارتعدت فرائصي خوفاً من أن يخنقني وأنا لا أستطيع الدفاع عن نفسي وذراعي تحت القماش. فدنا مني، وعيناه الواسعتان تنظران إلي بانتباه كما لو أنه يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الرأس الذي برز من الغل، واجتاحت وجهي أنفاسه ورائحته الفاسدة، وكدت أصرخ مستغيثاً، ولكنني خشيت أن أزيد في هياجه بصيحاتي، فأغمضت عيني أنتظر أن يخنقني بيديه العملاقين. هذه اللحظات من الرعب لن أنساها. وأخيراً ابتعد عني وجال في القاعة ثم توجه نحو الحنفيات فأغلق حنفية الماء البارد وزاد في فتح الماء الحار فصرخت كمن فقد صوابه، وشعرت بأن جلدي قد نضج تماماً. وأخيراً انصرف إيفان هوه، وانتشر البخار في كافة أرجاء القاعة. وكدت اختنق وأنا أتففس، وبذلت جهوداً فوق طاقة البشر لأتغلب على قماش النحاس هذا، ولكن دون طائل. وأخيراً جاء الحراس لنجدتي إذ رأوا البخار يخرج من النافذة. وعندما أخرجوني من هذا المرحل، رأيت حروقاً رهيبة وكانت الآلام تلذعني، وبخاصة في الفخذين، وفي بعض الأماكن التي انسلخ فيها الجلد، فدهنوه بحامض البيكريك، وأرقدوني في غرفة تمرىض الملجأ. وكانت الحروق بليغة فاستدعوا الطبيب وحقنت بإبر المورفين التي ساعدتني على تخضية الأربع والعشرين ساعة. ولما سألني الطبيب عما جرى، قلت له إن بركاناً انفجر في المغطس، ولم يفهم أحد ما الذي حدث. والمراقب المريض اتهم الذي أعد المغطس بأنه لم يحسن تنظيم ورود المياه. خرج الآن سالفيديا بعد أن مد على الحروق طبقة من مرهم البيكريك، وأخبرني بأنه مستعد، وإنها لفرصة حسنة أن أكون في غرفة التمرىض، وفي حال إخفاق الهروب يمكن الرجوع إليها دون أن يرانا أحد. وبقي عليه تأمين مفتاح هذه الغرفة وذلك بأن يطبع المفتاح على قطعة من الصابون. وسيكون المفتاح معنا غداً. وعلي أنا أن أحدد اليوم الذي أتمائل فيه للشفاء لنستغل حراسة أحد العسس الذين لا يقومون بالجولات.

هذه الليلة أثناء العس بين الساعة الواحدة والخامسة صباحاً، سالفيديا في إجازة.

وطلباً لكسب الوقت سيفرغ برميل الخل في الساعة الحادية عشرة، وأما برميل الزيت فسندرجه ملآن، لأن حالة البحر سيئة، والزيت يساعدنا على تهدئة الأمواج عند الإنزال إلى الماء. عندي نصف بنطال مخيط من أكياس الطحين ودَّرَاعَة، وسكين في حزامي، وعندي كيس كتيم ساحله في عنقي وفيه سجائر وقداحة على الفتيل. وهياً سالفيديا مخللة غير قابلة لنفوذ الماء وجعل فيها طحيناً مبللاً بالزيت والسكر ويقدر وزنها بثلاثة كيلو غرامات.

لقد تأخر الوقت وأنا أنتظر صديقي جالساً على سريري، وأخذ قلبي يخفق في عنف. فبعد دقائق سيبدأ الهروب، وأتمنى أن يكرمني الله والحظ فأخرج أخيراً وإلى الأبد من طريق العفن ظافراً.

والأمر الغريب أنه لم يبق في ذاكرتي وأنا أهم بالهروب سوى أبي وأسرّي. ولا المح صورة المحكمة ولا المحلفين ولا المدعي العام. وفي اللحظة التي انفتح فيها الباب، تمثل لي على الرغم مني ماتيوي وضوح وهو منتصب ترفعه القروش. قال لي سالفيديا: هيا بنا، فنبعت خطواته وأغلق الباب وأخفى المفتاح في ركن من الممر. أسرع. هيا. وصلنا إلى مخزن التموين وكان الباب مفتوحاً. وكان إخراج البرميل لعبة وتسلية، لففت الأسلاك على جسدي ولف هو الحبال على جسده. وحملت مخللة الطحين، وبدأت في الليل الحالك أدرج برميلي نحو البحر، وأنى هو على أثري ومعه برميل الزيت، وهو لحسن الحظ صلب العود، واستطاع كبحه في سهولة. في هذا المنحدر الشديد الانحدار. انتظرت حتى يرخي برميله الذي سيلتقي ببرميلي كنت أنزل القهقري والبرميل خلفي ووصلنا إلى أسفل الطريق دون مشقة. البحر هائج بعض الشيء وبالتالي يصعب عبور الصخور.

— أفرغ البرميل فلن نستطيع اجتياز الصخور إذا كان مترعاً، والرياح عاتية والأمواج ترتطم بالصخور مزبدة.
— ها قد أفرغته.

— ضع السدادة بإحكام. انتظر. ضع فوقها هذه الصفيحة من القصدير.
سدت الثقوب سداً محكماً.

— ادفع بالمقدمة. مع عويل الريح وصخب الأمواج فإن الطرق لا يسمع.
ربط أحدهما بالآخر، وتعسر رفعهما فوق الصخور، فكل واحد منهما يتسع لمتنين وخمسة وعشرين لتراً أي أن حجمهما كبير وليس تحريكهما سهلاً. ان المكان الذي اختاره صديقي للانزال في البحر لم يكن مناسباً.

— ادفع نحو الأعلى، يا إلهي، ارفع قليلاً. انتبه لهذه الموجة.
رفعنا الموجة نحن الاثنين مع البرميلين ثم دفعنا نحو الصخور بقسوة.
— انتبه أوشك البرميلان يتحطمان دون أن نلتفت إلى احتمال كسر يد احدهما أو رجله.

— أهدأ سالفديا إما أن تتقدم نحو الأمام في البحر أو ترجع القهقري إلى هنا. مكانك هنا جيد. اسحب نحوك حالما تسمع صيحتي، وأنما في الوقت نفسه سأدفع، وسوف نتخلص من الصخور حتّى، ولكن يجب أن تثبت وتقاوم ولو غمرتنا الموجة. كنت أوجه إليه هذه الأوامر صارخاً ولا بد أنه سمعها، حسب ظني، وسط هدير الموج وصفير الرياح. هذه موجة عارمة تغمر هذه الكتلة المتماسكة المؤلفة مني ومنه والبرميل. دفعت بالبرميل في ثورة واحتياج بكل ما أوتيت من قوة وهو بدوره كان يشد حتّى إذ تخلصنا فجأة وحملتنا الموجة واعتلى هو البرميل قبلي. وفي اللحظة التي تسنمت^(١) فيها البرميل أخذتنا موجة من فوقنا كالجلبل، وألقت بنا على صخرة مدببة بارزة عن بقية الصخور، وكانت الضربة قاصمة وقوية فانفلق البرميلان، وتناثرت شظاياهما. وقد حملتني الموجة أثناء إنحسارها مسافة عشرين متراً. فسبحت ثم استسلمت لموجة أخرى رفعتني إلى الشاطئ مباشرة وقد حطنتي بين صخرتين بالضبط وتمكنت من التعلق قبل أن تسترجعني الموجة وهكذا توصلت إلى الخروج مرضوض الجسم. وحين وطئت اليابسة، قدرت أنني ابتعدت عن النقطة التي كنا فيها من البحر مسافة مئة متر. صرخت بغير تحفظ: سالفديا! روميوا! أين أنت؟ ولم أسمع جواباً. استلقيت متهاكاً على الطريق وتركت بنطالي ودراعتي الصوفية وعدت عارياً إلا من الخف المصنوع من النسيج. اسم الله. صديقي أين أنت؟ وصرخت بأعلى صوتي من جديد: أين أنت؟ ويأتيني الرد من الريح والبحر والموج وحسب. بقيت هناك منهوكة زمناً لا أعرف مقداره، وقد تحطمت جسدياً وروحياً. ثم طفقت أبكي مخنقاً، وألقيت الكيس الذي كان في عنقي بما فيه من التبغ والقداحة. — ووضع السجائر كانت لفظة أخوية من صديقي لأنه لا يدخن. — وقفت مواجهاً الريح والأمواج الهائلة. رفعت يدي وأخذت أكيل للطبيعة الشتائم...

سكنت الريح، وهذا الهدوء الظاهري أحسن إلي وردني إلى الواقع. سأسعد إلى الملجأ، وإذا استطعت دخلت إلى المستوصف وهذا ممكن بقليل من السعد. مشيت والبحر وفي ذهني شيء واحد: العودة والنوم، وكأني ما رأيت وما علمت. وصلت إلى الممر دون ضجر ووثبت من فوق جدار الملجأ إذ لا أعلم أين وضع سالفديا مفتاح الباب الرئيسي. ومن غير بحث طويل عثرت على مفتاح غرفة التمريض فدخلت وأغلقت الباب دوني إغلاقتين. وذهبت إلى النافذة وألقيت بالمفتاح بعيداً فوقع في الجانب الآخر من الجدار ونمت. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفضحني هو الخف المبتل، فنهضت وعلقته بالمرحاض. جررت الغطاء على جسدي وبدأت استدفئ شيئاً فشيئاً. وقد كانت الريح والبحر سبباً فيها أعانيه من البرد.

ترى هل غرق صديقي حقاً؟ ربما حمله الماء بعيداً عني، وربما استطاع التعلق بطرف الجزيرة ألم أتعجل الذهاب؟ كان يجب أن أنتظر قليلاً. ولت نفسي على هذا التسرع

(١) اعتليت.

بالقنعة بفقد زميلي. في درج الطاولة جتان منومتان، ابتلعتهما من غير ماء وكان لعابي كافياً لانزلاقهما، وثمت. ولم ألبث أن شعرت بالحارس الممرض يهزني وشعاع الشمس يملأ جنبات الغرفة، والنافذة مفتوحة ثلاثة مرضى ينظرون من الخارج.

— حتام تنام بابيون كمن فقد وعيه؟ الساعة الآن العاشرة. ألم تشرب قهوتك؟ لقد بردت انظر إليها وأشربها.

صحوت في صعوبة، ومع ذلك تحققت أن ليس هناك ما يبدو غير طبيعي بالنسبة إلي...

— لم أيقظتني؟

— بما أن حروقك قد شفيت فنحن في حاجة إلى السرير وسوف تعود إلى زنزانتك.

— حسناً يا رقيب.

ولحقت به وتركتني اثناء مروري في الباحة. واستغللت ذلك لأجفف الخلف تحت الشمس مضت ثلاثة أيام على الهروب المحطم، ولم يأتي نيا أو إشاعة. كنت أذهب من الزنزانة إلى الفناء ومن الفناء إلى الزنزانة وسالفيديا لا يظهر. فهو إذن قد مات. مسكين لا بد أن صخرة قد هشمته، على حين نجوت بنفسه إذ كنت في الخلف لا في الأمام وأنى لي أن أعلم. وعلى أن أخرج من الملجأ ولكن الصعوبة تكمن في إقناعهم بأنني تعافيت. ويجب على الأقل أن أكون مؤهلاً للتواجد في المعسكر أكثر من دخول الملجأ. وعلى الآن إقناع الطبيب بما أحس من التحسن.

— مسيو روفيو (وهو الممرض الأول) لقد بردت في الليل، وأعدك بأن لا أوسخ ثيابي. لم لا تعطوني بنظلاً وقميصاً إذا سمحت وتكرمت.

أصيب الحارس بالذهول ونظر إلي في دهشة وقال:

— أجلس معي هنا وقل لي ماذا جرى؟

— لقد فوجئت بوجودي هنا. أهذا هو الملجأ؟ إذن أنا بين المجانين. هل كان ذلك مصادفة أنني أضعت الشمال؟ لم أنا هنا؟ خبرني يا رقيب، وهذا لطف منك.

— صديقي بابيون، لقد كنت مريضاً، وأرى أنك تحسنت. هل تريد أن تعمل؟

— أجل.

— ماذا تريد أن تعمل؟

— أي شيء.

هأنذا مرتدياً ملابس أساعد في تنظيف الزنزانات. ويظل بابي مفتوحاً حتى الساعة التاسعة والحارس الليلي هو الذي يقفله عندما يتسلم الحراسة.

أمس مساء كلمني سجين ممرض من أوفرن لأول مرة. كنا وحدنا في مركز الحراسة ولم يكن الحارس قد وصل بعد. أنا لا أعرف هذا الشخص ولكنه يعرفني على حد قوله.

— لاداعي لأن تستمر الآن.

— ماذا تعني؟

— قلت لي إذن؟ أوتظني غافلاً عن هزيمتك؟ أنا ممرض هنا منذ سبع سنوات مع المجانين ومنذ الأسبوع الأول أدركت أنك تمثل.

— إذن وما بعد هذا؟

— إنني أرثي لك من كل قلبي أنك أخفقت في هروبك مع سالفيديا. وهذا ما كلفه حياته، وألمني هذا المصاب بفقد صديق عزيز علي، رغم أنه لم يشعرني بهذا من قبل وما كنت أريد له هذه النهاية. وأنت إذا كنت في حاجة إلى شيء، مهما كان، فأخبرني به. فأنا يسعدني أن أقدم لك أية خدمة. كانت نظراته تفصح عن صراحة وصدق، ولم يداخلني شك في أنه مستقيم. وإذا كنت لم أسمع عنه ما هو خير، فإنني كذلك لم أسمع عنه ما هو سيء. إذن لاشك أنه رجل شهم. مسكين سالفيديا إن غيابه سيحدث ضجة. لقد وجدوا أجزاء من البرميل لفظها البحر، وظنوا أن أسماك القرش قد التهمته. وأثار الطبيب ضجة الشيطان من أجل الزيت المهدور وقال: في هذه الظروف الراهنة، والحرب مشتعلة، من الصعب الحصول على زيت الزيتون.

— بماذا تنصحني؟

— سأسجل اسمك في عداد من يخرجون للعمل خارج الملجأ لإحضار أغذية للمستشفى. وسيكون لك في هذا نزهة. ومن أصل عشر محادثات كن عاقلاً في ثمانية منها فقط، لأن الشفاء لا يكون فجائياً.

— شكراً. ما اسمك؟

— دويون.

— أشكر لك يا هذا ولن أنسى لك فضل هذه النصائح.

مضى على خطة الهروب التي لم نوفق فيها، قرابة الشهر، وقد عثر على جثة صديقي بعد ستة أيام عائمة لم تأكلها القروش. ولكن الأسماك الأخرى على ما يبدو نهشت أحشائه وقسماً من ساقه، حسب رواية دويون. وكانت حجمته مكسورة. ونظراً لدرجة تفسخه لم تجر عليه عملية تشريح. طلبت من دويون أن يخرج لي رسالة إلى البريد ويعطيها لكالكاني لكي يدسها في كيس البريد عند ختمه.

كتبت إلى أم روميو سالفيديا في إيطاليا:

«سيدتي. لقد مات صغيرك بدون قيود في رجله، مات في البحر شجاعاً بعيداً عن عسس السجن مات حراً وهو يكافح في شهامة ليظفر بحريته. لقد تواتقنا أن يكتب الواحد منا إلى أسرة الآخر إذا نزلت بساحة أحدنا مصيبة، ولقد قمت بهذه المهمة الموجهة. أقبل يديك في خضوع بنوي. صديق ولدك بابيون. وبعد أن أنجزت هذا الواجب قررت أن لا أعود إلى التفكير بهذا الكابوس. هذه هي الحياة.

بقي علي أن أخرج من الملجأ وأن أذهب إلى جزيرة الشيطان مهما كلف الأمر، لأحاول من جديد هروباً آخر. عيني الحارس بستانياً في حديقته وعملت عنده شهرين وأنا في أحسن حال وسلكت سلوكاً كنت فيه موضع التقدير، وإذا بهذا الحارس الأحق لا يريد التخلي عني. قال لي دويون بأن الطبيب في زيارتي الأخيرة له أراد تخريجي، ليعيدني إلى المعسكر تحت الاختبار. فاعترض الحارس وقال بأن حديقته لم تكن في يوم من الأيام تحظى بمثل هذا العمل المتقن.

لذلك اقتلعت هذا الصباح أشجار (الفريز) كلها فألقيت بها في القمامة وغرست مكان كل شجرة صلياً صغيراً وأصبح في الحديقة من الصلبان بعدد ما كان فيها من الشجر. كاد حارس السجن الثقيل هذا، يتميز من الغيظ بقدر ما كان سخطه عظيماً. فجلس على نقالة وما لبث أن انفجر باكياً بدمع مدرار. لقد كنت قاسياً ولكن ما حيلتي؟ والطبيب لم يحمل هذا التصرف محمل الفجعة، بل ألح فقال: «هذا المريض يجب أن يوضع تحت الاختبار في المعسكر من جديد مع الحياة السوية، وما راودته هذه الفكرة الغريبة إلا لأنه كان وحيداً في الحديقة.»

— قل لي يا بايون! لم استأصلت أشجار الفريز وغرست مكانها الصلبان؟
— لا أجد لذلك تفسيراً دكتور. وأنا اعتذر للمراقب، لقد كان يجب هذه الأشجار حباً جماً. وأنا شديد الأسف لما حصل وأدعو الله أن يعوضه خيراً منها.

هأنذا في المعسكر وقد التقيت بصحبي، ومكان كاربونيري خال، فوضعت بجانب هذا المكان المقفر كما لو أن ماتيو لا يزال هنا. وقد أمر الطبيب أن يكتب على سترتي «معاملة خاصة» ولا لأحد سلطة علي إلا الطبيب. وقد أصدر أمره إلي بأن أجمع أوراق الشجر من الساعة الثامنة إلى العاشرة صباحاً أمام المستشفى.

شربت القهوة مع الطبيب ودخنت السجارة على مقعد وثير أمام بيته وكانت زوجته تجالسنا وكان يستدرجني إلى الحديث عن ماضي زوجته تعاونه في ذلك.

— وما بعد ذلك بايون؟ ماذا حصل لك بعد أن تركت الهنود صيادي اللؤلؤ؟

وهكذا كنت أمضي أصائل الأيام مع هؤلاء الناس المدهشين. وكانت زوجة الدكتور تقول لي: تعال كل يوم لتراني بايون. أولاً أريد أن أراك، ثم أريد أن أسمع ما وقع لك من أحداث.

وكل يوم كنت أقضي عدة ساعات مع الطبيب وزوجته وأحياناً مع الزوجة وحدها. وهما إذ يلحان علي أن أسرد حياتي الماضية مقتنعان بأنها يساهمان في إعادتي إلى الاتزان بصورة نهائية.

قررت أن أطلب من الطبيب إرسالني إلى جزيرة الشيطان. لقد تم لي ذلك وسأرحل

غداً إن هذا الطبيب وزوجته يعرفان لماذا أذهب إلى جزيرة الشيطان. فقد كانا طيبين معي حتى أنني لم أشأ أن أهدعهما.

— دكتور لا أستطيع احتمال هذا السجن. أرسلني إلى جزيرة الشيطان لأهرب أو أموت، والمهم أن أنتهي مما أنا فيه.

— أفهمك يا بابيون، وأنا أشمئز من هذا الأسلوب في الزجر والكبح، ومن هذه الإدارة الفاسدة لذلك أقول لك وداعاً وأتمنى لك حظاً سعيداً.

الشیطان

مقعد دریفوس

هذه الجزيرة هي أصغر الجزر الثلاث المسماة سالو، وهي أكثرها وقوعاً في الشمال، وأكثرها تعرضاً لضربات الرياح والأمواج. بعد منبسط ضيق يمتد على شاطئ البحر يبدأ الارتفاع السريع نحو منبسط آخر، حيث يقوم مركز الحراسة والمراقبين، وقاعة واحدة للسجناء يقرب عددهم من العشرة. في جزيرة الشيطان لا يجوز رسمياً أن يكون السجن من حكموا بسبب حق عام، إنما السجناء هم محكومون عاديون، ومبعدون سياسيون. يعيش كل منهم في بيت صغير، سقفه من الحديد المصفح تقدم لهم الأغذية الفجة يوم الاثنين عن كل الأسبوع، ويوزع الخبز يومياً، وعددهم ثلاثون. الممرض هنا هو الدكتور ليجه الذي سمم أسرته كلها في ليون أو في ضواحيها؛ والسياسيون لا يتعاملون مع السجناء، ويسطرون أحياناً احتجاجات إلى كابين ضد فلان أو فلان من سجناء الجزيرة، وحينذاك يعاد إلى جزيرة رويال.

تتصل رويال بجزيرة الشيطان بحبل (كابل) إذ غالباً ما يكون البحر رديئاً فيحول دون وصول الزورق الآتي من رويال أو يصعب إرساؤه أمام ما يشبه الرصيف والمصنوع من الإسمنت.

الحارس الرقيب في المعسكر (وهم ثلاثة) يدعى سانتوري وهو رجل طويل في غير رشاقة، وقدر وغالباً ما يترك لحيته تطول ثمانية أيام. قال لي:

— بابيون أرجو أن تسلك سلوكاً حسناً في جزيرة الشيطان ولا تنزعجني فأدعك وشأنك اصعد إلى المعسكر وسأراك هناك.

وجدت في القاعة ستة محكومين عاديين: اثنان منهم من الصين وآخران زنجيان، وشخص من بورو والآخر من مدينة ليل.

أحد الصينيين يعرفني معرفة جيدة. كان معي في سان لوران، إذ كان موقوفاً رهن

التحقيق في جريمة قتل إنه من الهند الصينية. وقد عاصر ثورة سجن بولوكوندور في الهند الصينية. مهنته القرصنة وكان يهاجم مراكب النقل ويقتل أحياناً طاقم السفينة مع أسرهم. إنه بالغ الخطورة ومع ذلك له طريقته في الحياة مع الناس تستأثر بالثقة والمودة.

— أنت بخير بابيون؟

— وأنت ياشانغ؟

— نحن بخير هنا ستؤلف معاً مجموعة واحدة نأكل معي وتنام إلى جانبي. وأنا أقوم بطهو الطعام مرتين في اليوم وأنت تصطاد السمك، عندنا منه الكثير. وصل سانتوري فقال:

— هل استقر بك المقام؟ ستذهب غداً صباحاً مع شانغ لإطعام الخنازير. وهو يأتي بجوز الهند، وأنت تشقها نصفين بالفأس. ويجب فرز جوز الهند الدسم لنقدمها للخنازير الصغيرة والتي ليس لها أسنان. وبعد الظهيرة في الساعة الرابعة تقومان بالعمل نفسه، وفيما عدا هاتين الساعتين؛ إحداهما في الصباح والأخرى بعد الظهر، فأنتا حران في أن تفعل ما تشاءان على أرض هذه الجزيرة. وعلى كل صياد أن يخرج كل يوم كيلو غراماً من السمك أو من السرطان البحري ويقدمه لطباخي. وهكذا يكون الجميع في حبور. هل هذا يلائمك؟

— أجل ياسيد سانتوري.

— أنا أعلم أنك رجل هروب. والهروب من هنا مستحيل. لذا لن أكون مشوش البال أنتم في الليل محجور عليكم. ومع ذلك أعلم أن بعضاً منكم يخرج. احترس من المبعدين السياسيين كلهم يملكون سيوفاً خشبية. فإذا اقتربت من دورهم ظنوا أنك تريد سرقة الدجاج أو البيض وهكذا يمكن أن تقتل أو تخرج. لأنهم يرونك من حيث لا تراهم.

بعد أن علفت مئتي خنزير تحولت في الجزيرة طول النهار في صحبة شانغ الذي يعرفها معرفة دقيقة. التقينا على الطريق البحري المحيط بالجزيرة، برجل مسن ذي لحية بيضاء، وهو صحفي من كاليدوني الجديدة، الذي كان في الحرب العالمية الأولى يكتب ضد فرنسا لحساب ألمانيا. ورأيت كذلك الحفير الذي أطلق النار على ادث كافيل الممرضة الانجليزية أو البلجيكية التي كانت تنقذ الطيارين الانجليز عام ١٩١٧. وصاحب هذه الشخصية التي تشمئز منها النفس، سمين ضخم ويده عصا غليظة يضرب بها سمكة يزيد طولها على مئة وخمسين سنتمراً وهي بضخامة فخذي. والممرض يسكن أيضاً في أحد هذه البيوت الصغيرة التي لا يجوز لغير السياسيين أن يسكنوها.

الدكتور ليجه رجل طويل قدر ولكنه شديد المراس. وجهه فقط هو النظيف يعلوه شعر أشيب، طويل في العنق وفي الصدغين، وعلى يديه خدوش وردية لم تلتئم جيداً، يبدو أنها حدثت من خشونة الصخور في محاولة للتثبيت بها. قال لي:

— إذا كنت في حاجة إلى شيء فتعال إلى فاعطيكه. ولاتأوي إلا إذا كنت مريضاً، ولا أحب أن يزورني أحد، ولا أحب التحدث مع أحد. أنا أبيع بيضاً وأحياناً أبيع

دجاجة. وإذا قتلت خنزيراً في الخفاء فأحضر لي فخذاً خلفياً فأعطيك دجاجة وست
بيضات، وما دمت هنا فهناك هذه الزجاجة، ففيها مئة وعشرون حبة كينين، وبما أنك
جئت إلى هنا للهروب، فإذا حدثت المعجزة وهربت فإنها ستنتفعك في الأجمة المستنقعية.

كنت اصطاد صباح- مساء وأحصل على كميات وفيرة من السمك فأرسل منها ثلاثة
أو أربعة كيلو غرامات إلى مائدة الحراس. كان ستوري فرحاً إذ لم يسبق له أن حظي بمثل
هذا التنوع من السمك وسرطانات البحر. وكنت أحياناً أغوص أثناء الجزر فاغنم ثلاث
مئة سرطان.

حضر الدكتور جيرمان غير بالأمس إلى جزيرة الشيطان ولما كان البحر هادئاً فقد
صاحبه المقدم في رويال ومدام غير. وهذه المرأة الرائعة أول امرأة تطأ قدماها أرض
الشيطان. وحسب رواية المقدم لم يأت زائر مدني قط إلى الجزيرة. تحدثت مع السيدة أكثر
من ساعة ورافقتني إلى المقعد حيث كان يجلس دريفوس متأملاً في الفضاء باتجاه فرنسا التي
لفظته.

قالت وهي تلمس الحجر: ليت هذا الحجر المصقول يروي لنا أفكار دريفوس.
بايرون! ربما كان هذا هو اللقاء الأخير بيننا، فقد قلت لي بأنك تعد نفسك للهروب.
وأدعو الله أن يؤيدك بنصر من عنده. وأطلب منك قبل ارتحالك أن تأتي إلى هذا المقعد
لدقيقة واحدة وتلمس الحجر كما لمسته أنا لتقول لي وداعاً.

أباح لي المقدم إرسال السمك والسرطان البحري كلما شئت بوساطة الجبل إلى
الدكتور ووافق سانتوري.
— وداعاً دكتور. وداعاً مدام.

حييتهم قبل أن يفصل الزورق عن الرصيف، وعينا مدام غير النجلاوان تحدقان
بي وكأنها تقول لي: تذكرنا دوماً، لأننا نحن كذلك لن ننساك.

مقعد دريفوس يقع في نهاية طرف الجزيرة الشمالي ويهيمن على البحر من علو
أربعين متراً. ما اصطدت شيئاً هذا اليوم. عندي في حوض طبيعي أكثر من مئة كيلو غرام
من السمك. وعندي كذلك في برميل معدني مربوط بسلسلة، ما ينوف على خمس مئة
سرطان. بوسعي إذن أن لا أهتم بالصيد. فعندي ما يكفي لأرسل إلى الطبيب وإلى
سانتوري والصيني وما يكفي.

نحن الآن في العام ١٩٤١، وقد مضى على سجنني أحد عشر عاماً، وبلغت من
العمر الخامسة والثلاثين انقضت إما في الزنزانة أو في السرداب، وتمتعت بالحرية التامة مدة
سبعة أشهر فقط، مع عشيرتي الهندية، والولدان اللذان كان من المفروض أنها ولداي من
زوجتي قد بلغا الثامنة.

يا للشناعة! ما أسرع ما يمر الوقت، ولكنني إذا التفت إلى الوراء تأملت هذه
الساعات والدقائق التي ترسخت في طريق الألام هذا.

خسة وثلاثون عاماً. أين مني مونتمارتر، والساحة البيضاء، وبيغال، والحفلة الراقصة في بوتي جاردن، وشارع كليشي.؟

أين زوجتي نينيت بوجهها المجدي، تلك الجوهرة الحقيقية التي افترستني ياساً عينها النجلاوان السوداوان، حينما صاحت في المحكمة: لانتهم يازوجي، إني ذاهبة لألقاك هناك؟ أين المحامي ريمون هوبير وعبارته: «سوف تبرأ ساحتنا» أين هم قطع الجبن المحلفون، ورجال الشرطة الديوك؟ والمدعي العام؟ وأبي ماذا يفعل؟ والأسر التي كونتها شقيقتي تحت النير الألماني؟ محاولات الهروب عديدة. لننظر إلى عددها:

المحاولة الأولى عندما فررت من المستشفى بعد أن دفعت الحراس. والثانية كانت في كولومبيا في ريوهاشا وهي أجهلها فهناك نجحت تماماً. لم غادرت عشيرتي؟ رعشة حب سرت في أوصالي يميل إلي أنني أحس بمواقف الغرام مع الشقيقتين الهنديتين.

ثم الثالثة فالرابعة والخامسة والسادسة في برانكيا. يا للخيبة، لقد أخفقت الضربة خلال القداس في الكنيسة، والديناميت الذي لم ينفجر، والمحاولة الأخرى التي علق فيها بنطال كلوزيو والمثوم حين تأخر مفعوله، والمحاولة السابعة التي أجهضها القدر ببيير سيلييه، ولولاه لنجحت المحاولة بالتأكيد. ولو أنه أقفل فمه لكنت الآن حراً أنا وصديقي المسكين كاربونيري والثامنة وهي الأخيرة التي كانت في الملجأ، وقد كان خطأ جسيماً مني أن تركت الايطالي يختار نقطة الإنزال في الماء. ولو أننا ابتعدنا متري متر نحو الملحمة لكان إلقاء البرميل أيسر. وهذا المعقد حيث وجد دريفوس، وهو المحكوم البريء، الشجاعة لكي يعيش رغم كل شيء، هذا المعقد يجب أن استفيد منه في شيء. ويجب أن لا أعترف بالهزيمة بل أحاول من جديد. نعم هذه الحجرة للمساء الناعمة المطلة على هذه الهواية الصخرية حيث ترتطم الأمواج مزبدة دون توقف، يجب أن تكون لي سنداً ومثلاً يحتذى. دريفوس لم يتخاذل ولم يترك نفسه تنهار بل ناضل حتى النهاية ليسترجع ما كان له من اعتبار. صحيح أن أميل زولا قد دافع عنه في قصته الشهيرة «إني أتهم» غير أن دريفوس لو لم يكن رجلاً صلب العود تجاه التحديات الظلمة، لالقى بنفسه بالتأكيد في هذه الوهدة من هذا المقعد ذاته. فقد ثبت. ويجب أن لا أكون أقل منه، بل ينبغي أن أتخل عن فكرة الهروب مقرونة بمثل هذا الشعار: النصر أو الموت. كلمة الموت هذه هي التي يجب أن استبعدا ولا أفكر في سوى النصر مع الحرية.

في الساعات الطويلة التي كنت أقضيها جالساً على مقعد دريفوس هذا، كان خيالي يسرح بعيداً، ويعلم بالماضي، وبيني صرحاً من المستقبل الوردي، وعيناي تبرقان في معظم الأحيان بالضياء، وبانعكاسات تيجان الأمواج الفضية، كنت أنظر إلى البحر دون الرغبة في رؤيته حقاً، لأعلم أهواء الأمواج الممكنة والخيالية وأثر الرياح فيها.

يهاجم البحر صخور الجزيرة المتقدمة دون انقطاع وبلا هوادة، فهو يشل بين هذه الصخور ويفتها وكأنه يقول للجزيرة: اذهبي ويجب أن تحتفي من الوجود فأنت تضايقي وتعرضين طريقي عندما أريد الارتقاء في أحضان الأرض الكبرى، لذلك فإنني انتزع منك

بعض أقسامك شيئاً فشيئاً كل يوم، وإذا هبت عاصفة اهتز البحر طرباً لا لأنه يتغلغل ويجرف معه آثار الحت وحسب بل يفتش ويبحث في كل ركن وفي كل زاوية في أعالي هذه الجلاميد الصخرية ففت في عضدها ويضنيها وكأنها تقول له: ليس لك هنا من سبيل. وحينئذ اكتشفت شيئاً بالغ الأهمية: في أسفل مقعد دريفوس تأتي الأمواج باتجاه الصخور عملاقة على شكل ظهر حمار، فتهاجمها فتتكسر ثم تنحسر بعنف. وهذه الأطنان من المياه لا تنبذ لأنها تنحصر بين صخرتين على هيئة حدود الحصان، والمسافة بينهما خمسة أو ستة أمتار، ثم تأتي عملية الجرف، إذ ليس لماء الموجة من منفذ سوى أن تتراجع إلى البحر. وهذا مهم جداً. إذ لو ألقيت بنفسي من الصخرة مع كيس من جوز الهند العوام، في اللحظة التي تنكسر فيها الموجة في الهواء فسوف أغوص فيها على الفور، وسوف تحملني الموجة أثناء انسحابها بدون أدنى شك.

أعرف من أين أحصل على عدة أكياس من قشر القنب. ففي حظيرة الخنازير يجد المرء منها ما يشاء لجمع جوز الهند. يجب إجراء تجربة قبل كل شيء. حينما يكون القمر بديراً يكون المد عالياً، وبالتالي تكون الأمواج أشد، سوف انتظر اكتمال البدر. فكيس مخيط جيداً ومليء بالنارجيل اليابس بما عليه من ألياف، يخفي النارجيل في مكان يشبه الغار، ولا يمكن لأحد أن يتوصل إليها إلا بعد أن يغوص تحت الماء. وقد اكتشفت هذه المغارة عندما كنت اغطس بحثاً عن سراطين البحر، وقد وجدت السراطين ملتصقة في سقف المغارة تستنشق الهواء فقط عندما يكون الماء منخفضاً في حالة الجزر. وفي كيس آخر مربوط بكيس جوز الهند وضعت حجراً يزن قرابة الأربعين كيلو غراماً. وبما أنني مرتحل بكيسين واحد ولما كان وزني يبلغ سبعين كيلو غراماً، فإن نسبة التوازن ستكون متحققة.

لقد حاجتني هذه التجربة. فهذه الجهة من الجزيرة محرمة، لا يستطيع أحد أن يفكر أو يتخيل أن شخصاً ما سيختار أشد الأماكن تعرضاً لضربات الموج، وأخطرها ليسلك سبيل الفرار. ومع ذلك فإن هذا المكان الوحيد الذي إن نجحت في الانفصال عن شاطئه فسوف يحملني الموج إلى عرض البحر، ولا يمكن أن أتخطم على جزيرة رويال. يجب أن انطلق من هنا لا من مكان آخر.

كيس الجوز والحجارة ثقلان وليس حملها سهلاً. ولم أستطع رفعها على الصخرة، فالصخرة لزجة وتبللها الأمواج دوماً. فجاء شانغ يساعدي وقد أخبرته بما أنوي فعله، وقد أحضر معه عدة الصيد كاملة حتى إذا فوجئنا، ادعينا أننا في صدد نصب شرك للقرش.

— هيا يا شانغ وبعد قليل سيتم كل شيء.

أشرق البدر وبدد ظلمات الليل فهو نهار وصخب الأمواج يبهري. قال لي شانغ:

— أنت مستعد يا بابيون؟ ألق إلى هذه الموجة.

أسرعت الموجة كالمنجونة نحو الصخرة على ارتفاع خمسة أمتار فتكسرت أسفل منا ولكن الصدمة عفيفة إلى درجة أن رأس الموجة مر فوق الصخرة وتبللنا من رأسنا إلى

قدمنا، ولكن هذا لم يحل دون إلقاء كيس الجوز في اللحظة التي تحركت فيها قبل أن
تتحسر. أخذ الكيس طريقه في البحر كالقشة.

— نجحنا يا شانغ، هذا جيد جداً.

— انتظر قليلاً لتتأكد إذا كان الكيس لا يعود.

وبعد دقائق خمس رأيت بقلب منقطر كيسي وهو يصل معلقاً في ذروة موجة مرتفعة
تزيد على سبعة أمتار سموماً، وتحمل كيس الجوز هذا مع الحجر كريشة في مهب الريح.
وقد امتطى تاجها قبل الزبد بقليل، وبقوة خفية ردته من حيث أتى ولكن نحو اليسار قليلاً
وارتطم بالصخر الذي واجهه وانفتح الكيس وتناثر الجوز وغار الحجر إلى الأعماق.
ونحن، غمرنا الماء حتى العظام وانجرفتنا لحسن الحظ إلى جهة البر مسلوخين منهوكين،
ودون أن نلقي نظرة إلى هذا البحر ابتعدنا مهبطعين عن هذا المكان اللعين.

— إن المروب من هنا بابلون ليس مستحسنًا. فكرة المروب من جزيرة الشيطان
فكرة خائبة والأفضل أن يكون من رويال، من الجهة الجنوبية.

— أجل. ولكن المروب من رويال سينكشف أمره في ساعتين على الأكثر. وبما أن
كيس الجوز ليس له قوة دفع سوى الموج، فأنا معرض للوقوع بين فكي كماشة تشكلها
زوارق الجزيرة الثلاثة. أما هنا فلا توجد مراكب. ثانياً أمامي الليل بطوله قبل أن يكتشفوا
أمرى، وأخيراً قد يظنون أنني غرقت وأنا أصطاد، وليس في جزيرة الشيطان هاتف، فإذا
رحلت وخلفت ورائي مسافة زمنية كبيرة فلن يجدوا مركباً يستطيع الوصول إلى هذه
الجزيرة. إذن يجب أن يكون الفرار من هنا. ولكن كيف؟

شمس رصاصية ظهرًا. شمس استوائية تجعل الدماغ يغلي في الجمجمة، شمس
تحرق كل زرع نبت ولكنه لم ينم نوماً يستطيع معه مواجهتها. شمس تبخر كل تجمع لمياه
البحر في بضع ساعات وتتركها طبقة من الملح الأبيض، شمس ترقص الهواء، أجل أرى
الهواء يتحرك في وضوح أمام عيني، وانعكاسها على سطح البحر يحرق حدقتي، ومع ذلك
عدت من جديد إلى مقعد دريفوس، وكل الذي نزل بي لم يمنع تفكيري من دراسة البحر.
وحينئذ أدركت أنني أحرق فعلاً.

إن الموجة البعيدة التي يزيد ارتفاعها على ضعف ارتفاع الأمواج الأخرى، هي التي
قذفت بالكيس على الصخور وجعلت ما فيه مبرداً. وهذه الموجة تتكرر بعد كل سبع
موجات.

من الظهر وحتى أفول الشمس كنت أراقب إذا كان هذا يحدث ألياً متواتراً، أو إذا لم
نكن هناك فقرة عشوائية، أو أن هناك تنظيمًا في زمن وحجم هذه الموجة العملاقة. فهي لم
تستقدم مرة ولم تستأخر. ست موجات على ارتفاع ستة أمتار وتتبعها الموجة الكبيرة على
بعد ثلاث مئة متر عن الشاطئ. إنها تتقدم منتصبة كالآلف، وكلما تقدمت ازدادت حجماً
وارتفاعاً، وهي غير متوجة بالزبد، بخلاف الست الأخريات — وهذا نادر — ولها دوي

خاص كالرعد الصاعق الذي ينطفئ من بعيد، وحينما تتكسر على الصخرتين وتغذ السير في المضيق بينها وتضطدم بالجرف فإنها تحتنق وتدور عدة دورات في هذه الفجوة بسبب كتلة مائها العظيمة، ويستغرق خروج هذه الحركات واللجج المتلاطمة خمسة عشرة ثانية، ثم تذهب وتقلع في طريقها صخوراً تلف وتدور وتحثت قصفاً يشبه صوت مئاث الشاحنات التي تفرغ حجارها في خشونة.

وضعت عشرة من جوز الهند في الكيس ذاته ومعه حجرة تزن عشرين كيلو غراماً تقريباً. وما أن تكسرت الموجة الكبيرة حتى ألقيت بالكيس داخلها ولم أستطع ملاحظته بالنظر لكثرة الزبد الأبيض المتكون في هذه الوهدة، ولكن أتيح لي أن أراه لحظة والبحر يرتشفه في سرعة ولم يعد والموجات الست الأخر لم تقو على إرجاعه إلى الشاطئ، وعندما تشكلت الموجة السابعة على بعد ثلاث مئة متر كان الكيس قد تجاوز نقطة تشكلها، إذ ما عادت تبصره العين.

امتلات جبوراً وأملاً ومشيت نحو المعسكر، وأنا أقول في نفسي: لقد نجحت، لقد وجدت كيف يكون الإنزال في الماء على الوجه الأكمل. وليست المحاولة مغامرة ومع ذلك سأقوم بتجربة أكثر جدية في نفس المعطيات التي تكون لي وأنا في الماء: كيسان من جوز الهند أحكم ربطهما، وفوقهما سبعون كيلو غراماً موزعة في حجرين أو ثلاثة. سردت فكرتي لشانغ وصديقي شينتون دويولو كوندور كان يصغي إلى التفاصيل بأذن واعية.

— هذا جيد يا بابيون، وأعتقد أنك وجدت الحل «وأنا أساعد أنت» في التجربة الحقيقية.

— لنتنظر المد الذي يعلو ثمانية أمتار، وعما قريب يتساوى الليل بالنهار.

وبالفعل استغللت المد المرتفع أكثر من ثمانية أمتار، وساعدني شانغ في إلقاء كيسين من جوز الهند محملين بحجارة تزن حوالي ثمانين كيلو غراماً. قال الصيبي: كيف أنت اسمها البنت الصغيرة المسحوبة من قبلك في سان جوزيف؟

أي: ما اسم البنت التي أنقذتها في سان جوزيف؟
— ليزيت.

— سوف نسمي هذه الموجة التي تحملك «ليزيت». اتفقنا؟
— اتفقنا.

وصلت الموجة ليزيت محدثة إرزاماً^(١) يشبه صوت قطار سريع يدخل في المحطة. إنها تولدت على بعد يربو على ميتين وخمسين متراً، قائمة كالجرف تتقدم وهي تتعاضم في كل ثانية. إنه لمنظر مؤثر. لقد تكسرت في قوة كنستنا عن الصخرة والأكياس المحملة سقطت

(١) صوت يشبه صوت الرعد.

من. تلقاء نفسها في اللجة. ونحن لم نثبت على الصخرة بل ارتعينا نحو الخلف، ولئن لم ننج من انصباب الماء علينا فقد نجونا من السقوط في اللجة.

قمنا بهذه التجربة في الساعة العاشرة صباحاً ولم نخطر لأن الحراس الثلاثة كانوا مشغولين في الطرف الآخر، بالبيان التفصيلي للسلع. ذهب الكيس واستطعت أن أراه في وضوح مبتعداً عن الشاطئ فهل انسحب بعيداً عن مكان منشأ الموجة؟ لا توجد علاقة تحدد المكان الأبعد أو الأقرب. الموجات الست التي تتبع ليزيت، لم تستطع اللحاق بأثرها أثناء إندفاعها. ومرة أخرى تشكل ليزيت وعادت ولم تحمل معها الكيسين، فهما قد خرجا إذن من نطاق تأثيرها.

صعدت إلى مقعد دريفوس محاولاً رؤيتهما مرة أخرى وفرحتنا من جديد عندما رأيناها من بعيد جداً يعلوان ذروة الموجات التي لا تنتج نحو الجزيرة بل يذهبان نحو الغرب وبما لاجدال فيه أن التجربة كانت إيجابية وسوف أرحل في مغامرة كبرى ممتطياً ظهر الموجة ليزيت.

— إنها هناك. انظر. واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة ها هي ذي ليزيت قد وصلت.

البحر عند رأس مقعد دريفوس قاس. ولكنه اليوم معكر المزاج. تتقدم ليزيت بالضجة التي تتميز بها. وتبدو لي وهي تتحرك أنها اليوم أضخم مما تعودنا وبخاصة عند قاعدتها. هذه الكتلة الجبارة آتية لتهاجم الصخرتين بأسرع وأشد استقامة مما سبق. وعندما تنحسر وتسرع متدافعة في الفراغ بين جلاميد الصخر، فاللظمة تحدث ارتجاجاً يصم الآذان خلافاً لما كان يحدث في معظم الأحيان.

— «أقول هنا بحسن الارتقاء؟ حسناً يا صديقي لقد اخترت المكان العاري. صحيح أنني أريد الهروب ولكن بغير انتحاره»

كان سيلفان منفعلاً جداً بما أوضحت له بشأن ليزيت. لقد وصل إلى جزيرة الشيطان منذ ثلاثة أيام. وقد عرضت عليه طبعاً الهروب معي، كل واحد منا على طوف. وهكذا، إذا قبل العرض، سيكون لي رفيق على الأرض الكبرى لاستئناف هروب جديد من هناك، فالوحدة في الأجمة ليس لها.

— لا تنزع مقدماً. إنني أعترف بأن كل رجل يتراجع عند الخطوة الأولى. إنها الموجة الوحيدة القادرة على حملك بعيداً لكيلا تقوى الموجات اللاحقة، على رذك إلى الصخور. قال شانغ: اطمئن. لقد جربنا ذلك والتوفيق مؤكد، فإذا تجاوزت الموجات فلن تعود بك إلى جزيرة الشيطان ولن تدفعك نحو رويال.

إن اقناع سيلفان احتاج إلى أسبوع. إنه رجل مديد القامة يزيد طوله على مئة وثمانين سنتمراً وهو شديد القوى متناسق الجسم كالمصارعين الأقدمين.

— حسناً لقد قبلت أن أعمل بعيداً من هنا، ولكن كم يلزمنا من الوقت في ظنك لكي نبلغ الأرض الكبرى والجزر يدفعنا؟

— بصراحة يا سيلفان لا أدري. إن الجنوح قد يطول أو يقصر، قد تعاكسنا الريح فتأخر وقد يكون الجو مكفهرًا، فتشدد الأمواج وتدفعنا في سرعة أكبر إلى اليابسة. فإذا حصل الجزر سبع مرات أو ثمانية أو عشرًا، كان الوقت كافياً لبلوغ الشاطئ، وبتقدير زمني قد يتم ذلك خلال فترة تتراوح بين ثمان وأربعين وستين ساعة.

— كيف تحسب؟

— إن المسافة بين الجزر والساحل على خط مستقيم تقدر بأربعين كيلو متر. والجنوح بشكل خطأ هو كالوتر في مثلث قائم الزاوية. انظر إلى اتجاه الموج. فيجب أن نقطع مسافة تتراوح بين مئة ومئة وخمسين كيلو متراً على أبعد تقدير. وكلما اقتربنا من الشاطئ دفعتنا ووجهتنا مباشرة نحوه. لأول وهلة إنك لاتصدق أن حطام سفينة لايقطع هذه المسافة عن الشاطئ في سرعة لاتتجاوز خمسة كيلومترات؟

نظر إلي في اصغاء تام لسمع التفاصيل. هذا الشاب ذكي جداً. قال:

— لاتنفوه بحماقات. أنا أعرف ذلك. لو لم يكن هناك جزور^(١) منخفضة تضيق مع وقتنا لأنها هي التي تجرنا نحو عرض البحر لبلغنا الشاطئ في أقل من ثلاثين ساعة.

— إذن أنت مقتنع فهل تذهب معي؟

— ربما. ولنفرض أننا وطننا الأرض الكبرى، في الأجمة، فماذا نفعل؟

— يجب أن نقرب من ضواحي كورو، فهناك قرية صيادين مهمة. ففيها الباحثون عن الصمغ البرازيلي أو الذهب. ويجب أن نقرب بتبصر وحذر، بسبب وجود معسكر حرجي للسجناء في الغابة هناك عوائق تحول دون الدخول إلى الأجمة للذهاب نحو كاين أو نحو المعسكر الصيني المسمى إيني. وسوف نهدد أحد المحكومين أو أحد الزنج ونجبره على أن يذهب بنا إلى إيني، فإن كان شخصاً مطواعاً أعطيناه خمس مئة فرنك ولينفلق وإن كان من المحكومين بالأشغال فسوف نجبره على الفرار معنا.

— وماذا نفعل في إيني. هذا المعسكر الخاص بالهنود-الصينيين؟

— هناك أخو شانغ.

— نعم أخي هناك وهو يذهب معكم في رحلة الهروب، وهو يهيئ سفينة مأمونة ومواد غذائية، وإذا لاقيتما كويك-كويك فسوف تجدون كل شيء معداً. ولن نهذا صينياً واشياً. لذلك فإن أي أنامي تلقيناه في الغابة سوف ينشئ كويك كويك بوجودكما.

قال سيلفان: لماذا يسمونه كويك كويك.

— لا أدري، فقد عمده فرنسيون باسم كويك كويك.

ثم أضاف: ولكن حذار. فعندما توشكان بلوغ الأرض الكبرى فإنكما ستجدان

(١) جمع جزر وهو عكس المد.

حاة^(١) فلا تمسها عليها، فإنها تمتصكم. انتظروا مدّاً آخر يدفع بكم إلى الأجمة، وأمسكوا بأغصان الأشجار ولا غصتها. فيجب الانتظار حتى تتمكنوا من الإمساك بالأغصان والعرائش.

— حسناً بآبيون لقد حزمت أمري.

— إذا صنعنا طوفين سيكونان متشابهين، لأن وزني يقارب وزنك. لذلك فإن أحدنا لن يبتعد عن الآخر حين نركب متن الموج. ولكن ماذا نفعل لو أن أحدنا أضاع صاحبه؟ نحن من هنا لانرى كورو. ولا بد أنك لاحظت وأنت في رويال أنه على يمين كورو تقريباً وعلى بعد عشرين كيلو متراً منها، توجد حجارة بيض يمكن تمييزها عندما تسطع عليها الشمس.

— نعم.

— إنها الصخور الفريدة على ذلك الساحل. على اليمين وعلى الشمال حملاً لا نهاية له، وقد أبيضت تلك الصخور من ذرق^(٢) الطيور وهي تعد بالآلاف. وحيث أن المكان هناك قفر موحش، فإنه سيكون لنا ملاذاً لإصلاح حالنا وسناكل بيضاً وجوزاً مما نحمله معنا، ولن نشعل النار ومن سبق منا إلى هذا المكان انتظر الآخر.

— كم يوماً؟

— خمسة أيام. إذ لا يمكن التلاقي قبل خمسة أيام.

لقد تم صنع طوفين وقد ضاعفنا الأكياس لتكون أكثر مقاومة. وطلبت من سيلفان مهلة عشرة أيام للتمرين أكبر قدر ممكن على ركوب الكيس فرشخة. وقد فعل هو مثلي. وفي كل مرة كنا نلاحظ أن الأكياس عندما تكون على وشك الدوران فإنها تتطلب جهوداً إضافية للثبات فوقها، ويجب الانبطاح فوقها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ولكن حذار من النوم، إذ لو وقعنا في الماء لأفقت منا الكيس ولمعجزنا عن استنقاذه. وقد صنع لي شانغ كيساً كتيباً أعلقه في عنقي وفيه سجائري والقداحة الفئيل. بشر كل واحد منا عشر جولات لحملها معنا. فليها يتيح لنا احتمال الجوع والعطش. وعند سانتوري ما يشبه الزرق مصنوع من الجلد، وهو لا يستخدمه. وشانغ الذي يتردد على الحارس سانتوري سيحاول سلبه.

يوم الأحد مساء الساعة العاشرة سيكون المد، بسبب البدر، على ارتفاع ثمانية أمتار، وستكون ليزيت في أشد قوتها. وشانغ سوف يقدم الطعام للخنازير وحده صباحاً.

سأنام طيلة نهار السبت والرحيل الساعة العاشرة مساء، ويكون الجزر قد بدأ منذ ساعتين. ومن المستحيل أن ينفصل الكيسان أحدهما عن الآخر، فهما مربوطان بحبال من قشر القنب مبرمة بخيط نحاسي. وهما مغطيان أحدهما بالآخر بخيط ثخين، وقد وجدنا

(١) طين البحر ووحله.

(٢) ما يرمي به الطائر من بطنه.

أكياساً أكبر من غيرها وفتحة كل واحد مندمجة بالآخر. وكذلك فإن جوز الهند لن يفلت من الكيس.

سيلفان لا يكف عن ممارسة الرياضة البدنية، وأنا أمسد فخذيّ بتعريضهما للأمواج الصغيرة تلطمهما ساعات طويلة. وهذه الضربات المتكررة على فخذي والتقلصات التي اضطر على فعلها عند كل موجة لمقاومتها جعلت ساقي وفخذي قوين كالخديد.

في بئر مهجورة في الجزيرة سلسلة طولها ثلاثة أمتار، شبكها بالحبال التي تربط الكيسين. عندي (برغي وعزقة) تدخلان بين حلقات السلسلة. ففي حالة عدم احتمالي، سأتمكن من النوم دون المجازفة بالوقوع في الماء، وضياح العامة، وإذا دار الكيسان فإن الماء يوقظني وأعود إلى وضعي الذي كنت عليه.

— إذن بابيون لم يبق سوى ثلاثة أيام.

كنا جالسين على مقعد دريفوس نتأمل ليزيت.

— نعم لم يبق إلا ثلاثة أيام يا سيلفان. وأنا مؤمن بأننا سننجح. وأنت؟

— هذا مؤكد. الثلاثاء ليلاً أو الأربعاء صباحاً سنكون في الأجمة، وحينئذ لنا الحساء

الطيب، شانغ سيشر عشر جوزات لكل واحد منا، وبالإضافة إلى السكاكين سنحمل سيوفاً خشبية مسروقة من احتياط الأدوات. ومعسكر ايتيني شرق كورو وإذا سرنا صباحاً في مواجهة الشمس، سنكون واقفين من أننا على الطريق الصحيح.

قال شانغ: صباح الاثنين سيجن سانتوري. أنا لن أذكر شيئاً عنكما، سوى أنكما اختفيتما قبل يوم الاثنين الساعة الثالثة بعد الظهر، بعد أن يكون الحارس قد نهض من قيلولته.

— لم لا تقول بأن موجة جرتنا أثناء الصيد.

— لا أنا لا أحب التعقيد. بل سأقول: بابيون وسيلفان لم يحضرا للعمل اليوم، وأنا

وحدي أطعمت الخنازير، لا أكثر ولا أقل.

الهروب من جزيرة الشيطان

الأحد الساعة السابعة مساء. الآن استيقظت. نمت طوعاً، والبدر لا يطلع إلا في الساعة التاسعة. إذن الليل حالك السواد في الخارج، والسما مزدانة بقليل من النجوم. والسحب تجري مسرعة فوق رؤوسنا. لقد خرجنا من البراقة. وبما أننا نخرج للصيد ليلاً، أو للتنزه في الجزيرة بصورة مشروعة، فالآخرون جميعاً لا يرون في ذلك شيئاً غير طبيعي.

دخل فتى مع عاشقه العربي الكث الشعر، ولاشك أنها عائدان من جلسة غرامية في زاوية ما. وفيما كنت أنظر إليهما وهما يرفعان اللوح الخشبي للدخول إلى القاعة، فكرت في الماعز كيف يستطيع أن يقبل صديقه مرتين أو ثلاثاً في اليوم، فيبلغ ذروة الهناء. وفي اقتداره على أن يشبع نهمه الشهواني، وبذلك يتحول السجن عنه إلى جنة. والشيء نفسه بالنسبة إلى الآخر الذي أقدر له من العمر ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً. وجسمه يدل على أنه مراهق، يحاول أن يبقى في الظل ليحافظ على بشرته البيضاء الصافية بلون الحليب، ولكنه لم يبق مشبهاً أدونيس في جماله. وله في السجن عشاق، لا يحلم بمثلهم لو كان حراً، وبالإضافة إلى حبيب قلبه الماعز فقد كان له زين يتقاضى منهم خمسة وعشرين فرنكاً عن الضجعة الواحدة. تماماً كما تفعل مومس في شارع روش شوار في مونتمارتر. وفضلاً عما يتحقق له من لذة مع الزين فإنه يكسب مالاً كافياً لعيشه مع رجله في رغد. إنها والزين ينغمسون في الرذيلة طوعاً، ومنذ اليوم الذي وطئوا فيه السجن لايشغل بالهم إلا الجنس مثلاً أعلى. المدعي العام الذي طلب الحكم عليهم سعى في بحثه أن يعاقبهم بإرسالهم إلى طريق العفن ولكنهم في هذا العفن وجدوا سعادتهم.

وما أن أحكم إغلاق الباب حتى وجدنا أنفسنا أنا وسيلفان وحيدين.

— هلم بنا.

وفي سرعة بلغنا شمال الجزيرة فأخرجنا الطوفين من المغارة. وفي الحال غطسنا نحن الثلاثة، والريح تزجر زجرجة خاصة في عرض البحر.

ساعدني سيلفان وشانغ في دفع طوفي من أعلى الصخرة. وفي اللحظة الأخيرة قررت أن أوثق معصمي الأسر بحبل الكيس إذ خشيت أن يضيع مني بغتة فأرحل بدونه. صعد سيلفان فوق الصخرة المقابلة يعاونه شانغ وكان البدر قد ارتفع جيداً والرؤية جيدة، وعصبت رأسي بمنشفة. وعلينا أن ننتظر ستة موجات أكثر من ثلاثين دقيقة.

عاد شانغ إلى مقربة مني فعانقني ثم قبلني. استلقى على صخرة متشبهاً عند منعطف حجرة وأمسك بساقي. ليساعدني على تلقي صدمة انكسار ليزيت. صاح سيلفان: لم يبق سوى موجة واحدة وتتبعها الرادفة^(١) الكبرى، وهو أمام طوفه ليغطيه بجسمه وليحميه من الماء الذي سوف يمر فوقه. وكنت في مثل وضعه. زد على ذلك أن يدي شانغ بأعصابها المتوترة، تنغرس أطرافها في ربلتي^(٢) ساقي لكي يستوثق مما يفعل. وصلت ليزيت التي جاءت لتأخذنا جاءت منتصبة مثل سهم الكنيسة، بصخبها المدوي المعتاد وتحطمت على صخريتنا وغارت نحو الجرف فارغمت بمقدار جزء الثانية قبل صديقي الذي وصل هو أيضاً في سرعة. والطوفان المتلاصقان رشفتها ليزيت نحو عرض البحر في سرعة مذهلة وفي أقل من خمس دقائق إبتعدنا عن الشاطئ أكثر من ثلاث مئة متر. سيلفان لم يتسمن بعد

(١) التي تأتي بعدها.

(٢) الربلة بطة الساق.

ظهر طوفه على حين كنت فوق طوفي منذ الدقيقة الثانية. وكان شانغ يلوح لنا بخرقه بيضاء إلى جانب مقعد دريفوس محبباً تحية الوداع الأخيرة، ويبدو أنه صعد إلى هناك مسرعاً. خرجنا منذ خمس دقائق من المنطقة الخطرة حيث تتحرك الأمواج نحو جزيرة الشيطان، والأمواج التي كانت تحملنا كانت طويلة ومنتظمة وغير مزبدة تقريباً، وكنا نواكبها، وكأننا قطعة منها، بدون اهتزاز، الطوف غير مهدد بالانقلاب أو الارتداد. كنا نهبط ونعلو في عذوبة فوق هذه الموجات العميقة والعالية نرافق الجزر، وبينما كنت أعطي هامة إحدى هذه الأمواج التفت نحو الشاطئ، التفاتة كاملة فرأيت خرقة شانغ البيضاء. لم يكن سيلفان بعيداً عني أكثر من خمسين متراً. وكان بين الفينة والفينة يرفع ذراعه ويهزه علامة الفرح والنصر.

لم يكن الليل قاسياً. وشعرنا في وضوح بتغير جذب البحر، وقد جزنا الجزر الذي رافقناه نحو عرض البحر، وبدأ يدفعنا نحو الأرض الكبرى.

بزغت الشمس عند الأفق. إذن الساعة الآن السادسة ولازلنا بعيدين عن رؤية الساحل ولاحظت أننا بعيدون جداً عن الجزر إذ لانكاد نميزها. إن عددها ثلاث، فلا أرى سوى كتلة واحدة وهذا كل شيء وعجزنا عن تمييزها جعلني أقدر أن المسافة التي تفصلنا عنها تقارب الثلاثين كيلو متراً وابتسمت ابتسامة الظفر والنجاح. وكنت إذا جلست على طوفي دفعتني الريح وهي تخففتني في ظهري. حللت السلسلة وقمت بدورة داخل نطاقي. والبرغي والعزقة المشحمتان تسهلان شد ثقب اللولب. رفعت يدي في الهواء لتجفيفهما. دخنت سيجارة وتنشقت طويلاً وبعمق، ثم زفرت الدخان ببطء وزال عني الفزع، وغير مجد أن أصف ما عانيت من ألم في أحشائي في اللحظات الأولى وخلال هذه العملية. لم أبق خائفاً. وبعد أن انتهيت من التدخين قررت أن أزدرد لقيعات من لب جوز الهند، ثم التهمت منه حفنة، ثم دخنت سيجارة أخرى.

سيلفان بعيد عني، ومن وقت إلى آخر عندما نلتقي فوق قمة موجة، يشاهد أهدنا الآخر لمحا. الشمس تضرب بأشعتها دماغني الذي بدأ يغلي. بللت منشفتي ولففتها حول رأسي خلعت دراعتي ورغم الريح فقد كنت اختنق داخلها.

اسم الله. كاد طوفي أن يدور وأوشكت على الغرق، وابتلعت جرعتين من ماء البحر ورغم الجهود التي بذلتها لم أتوصل إلى إعادة الطوف إلى وضعه، ولا إلى الصعود فوقه، وكان ذلك بسبب السلسلة، وأخيراً استطعت السباحة واقفاً إلى جانب الكيسين، وتنفست بعمق. وكنت قد أزلتته من طرف واحد، وبدأت أخلص من السلسلة وأصابعي تحاول حل البرغي بدون جدوى، فثرت غاضباً مفتظاً ووهنت أصابعي حتى عجزت عن فك حصارها.

أف. أخيراً انحلت المشكلة. لقد أمضيت ساعة عصيبة وكدت أجن من استحالة خلاصي من السلسلة. لم أجد مشقة في تدوير الطوف وكنت منهوكة وأجسست بأن قواي تخونني. فاعتليت عليه، وكان عاليه سافله. ماذا يهم؟ لن أربط نفسي أبداً بسلسلة ولا

بغيرها، بعد أن رأيت الحماقة التي أرتكبتها عند ارتحالي بربط معصمي . إنها تجربة كانت مؤلمة .

الشمس تلسعني في ذراعي وفي فخذي، ووجهي ملتهب بنارها، وساءت حاله في الماء وسرعان ما تبخر وهذا مازاد في حرقه .

سكنت الريح وتيسرت الرحلة وغدت الأمواج أقل ارتفاعاً، فتقدمت في سرعة أبطأ إذن شدة الريح أفضل، وهيجان البحر خير من صفائه . تشنجت ساقي اليمنى تشنجاً حاداً، ويأصبعي رسمت صليلاً على مكان التشنج إذ تذكرت أن جدتي قالت لي: افعل هذا . ودواء المرأة الطيبة لم يكن ناجعاً .

مالت الشمس نحو الغرب . والساعة تقارب الرابعة من بعد الظهر . وهذا هو المد الرابع منذ بداية الرحلة، والمد يدفعني بقوة عن الشاطئ . والآن أرى سيلفان دون انقطاع وهو كذلك يراني، وقل أن يغيب عن نظري إلا إذا كانت الموجة عميقة، وقد خلع قميصه وترك جذعه عارياً وكان يشير إلي بيده وهو يتقدمني أكثر من ثلاث مئة متر، ويبدو أنه كان يجدف بكفيه لقلة الزبد حوله وكأنه الآن يحاول كبج طوفه لأدنى منه، فانبطحت على الكيسين وغطست ذراعي في الماء وجذفت فإذا هو كبج وأنا جذفت فإن المسافة بيننا تنقاصر .

لقد أحسنت اختيار شريك في هذا الهروب، إنه على مستوى ذلك مئة بالمئة . توقفت عن التجديف لأنني أشعر بالتعب إذ علي أن أحفظ ببعض قواي، سأكل وأحاول قلب الطوف فصرة الطعام في الأسفل، وكذلك قرب الماء العذب، فأنا ظمآن جوعان، تشنقت شفتاي وأحس باحتراق فيهما، وخير وسيلة لقلب الكيسين هي أن أتعلق بهما في مواجهة الموجة ثم أدفع بقدمي التي يرتفع فيها الكيسان إلى أعلى الموجة . وبعد خمس محاولات نجحت في قلب الطوف بضربة واحدة . وقد أنهكتني الجهود التي بذلتها ثم صعدت إلى أعلى الكيسين في مشقة وعناء .

الشمس عند الأفق، وعماً قليل تغيب . إذن الساعة الآن تقارب السادسة . والأمل أن يكون الليل ساكناً لأنني على يقين بأن المؤثرات النفسية شتد من عزمي .

شربت من قربة الماء، التي أعطانيها سانتوري، جرعتين كبيرتين، بعد أن أكلت حفتين من لباب جوز الهند، وبعد أن شبت وارتويت وجففت يدي في الهواء، أخرجت سيجارة ودخنت في لذة وقبل حلول الظلام حرك سيلفان منشفته بدلاً من تحية المساء، ورددت التحية بمثلها . ولا يزال بعيداً عني . جلست ممدداً ساقي عصرت سترتي الصوفية وليستها، وهذه السترات تحفظ الحرارة ولو كانت مبتلة، فقد غربت الشمس وشعرت بالبرد .

ابتعد الهواء، والغيوم في الأفق الغربي تغرق في ضياء وردي وكل شيء عدا ذلك يدخل الفسق دقيقة فدقيقة . فمن ناحية الشرق حيث تأتي الريح لاتوجد غيوم إذن ليس هناك خطر هطول الأمطار في الوقت الحاضر .

لا أفكر في شيء على الإطلاق إلا في التثبيت وعدم الابتلال بالماء بدون جدوى، لا أفكر في سوى التساؤل إذا كان من الحكمة أن أربط نفسي بالطوف في حال التعب، أو أن في ذلك خطراً بعد تلك التجربة التي جربتها. ثم إنني ألفت نفسي متضيقاً، محدود الحركة لأن السلسلة قصيرة بسبب أن قسماً منها معدوم الفائدة لمداخلته في الحبال والاسلاك المعدنية وهذا القسم يمكن استعادته في يسر، عند ذلك أكون أكثر طلاقة في الحركة. سأرتب السلسلة وأربطها من جديد في نطاقتي. ثقب اللولب مليء بالشحم، لذا فهو يعمل في غير صعوبة تذكر. ولا ينبغي المبالغة في شدة، كما كان في المرة الأولى. وهكذا أشعر بالطمأنينة بعد أن كنت خائفاً من النوم ومن أن يفلت مني الكيس.

بدأت الريح تتعاضم، وكذلك الأمواج والطوف يجري على ما يرام على مستويات متفاوتة في شدتها. غمرت الظلمة كل شيء، والسماء مزدانة بالنجوم، ونجم القطب الجنوبي أكثر تألقاً من أي نجم، ولا أرى صديقي. هذه الليلة هامة جداً، فإذا شاء الحظ أن تتحرك الريح طول الليل بالشدة ذاتها فإن الطريق تنتهي في صباح الغد. كلما تقدم الليل اشتدت الريح، طلع القمر من البحر متهادياً وهو بلون أسمر محمر وحينئذ بدا كاملاً كبيراً ميزت ما عليه من بقع سوداء تعطيه صورة الوجه. إذن الساعة الآن تتجاوز العاشرة مساءً، وبدأت جنبات الليل تستتير، ويقدر ما يتكبد السماء، يغدو النهار القمري مهيمناً. وغدت الأمواج بلون البلاتين وانعكاساتها تحرق عيني. وليس من الممكن عدم النظر إلى هذه الانعكاسات الفضية، ولكنها في الحقيقة تجرح عيني التي سبق للشمس والماء الملح أن هيجها وعبثاً حاولت إقناع نفسي بأنني أبالغ، ولم أقو على المقاومة. فدخلت ثلاث سيجارات على التوالي. لاشيء غير طبيعي بالنسبة إلى الطوف، فهو يهبط ويصعد فوق بحر سحيق الغور بدون عائق، لا أستطيع أن أدع ساقي ممدتين طويلاً على الكيس لأن هذا الوضع يسبب لي تشنجاً مبرحاً. وأنا بطبيعة الحال مبلى إلى منطقة الحوض، ولكن صدري جاف والريح جففت سترتي، وبما أن موجة ما لم تبللني، فإن جسمي جاف إلى منطقة الحزام. عينايتي، بها حرقة تزداد باستمرار. كنت أغمضها، وأغفو من وقت إلى آخر، وقلت لنفسي: يجب أن لاتنام. وهذا كلام سهل على اللسان، ولكنه فوق طاقتي فكنت أقاوم الخدر والخمود. وفي كل مرة أستعيد فيها المعنى الحقيقي لهذه العبارة، كنت أشعر بألم حاد في دماغي. أخرجت قداحتي لأحرق بها جلدي من حين إلى آخر بفنتيلها المشتعل في عضدي الأيمن أو في عنقي، وعرايتي غم عظيم، حاولت طرده بكل ما أوتيت من إرادة، ترى هل استسلم للنوم؟ هل أسقط في الماء؟ هل يوقظني البرد؟ لا أستطيع احتمال ضياع هذين الكيسين فهما حياتي. وسوف يكون من نكد الشيطان أن لا أستيقظ أبداً إذا تدرجت في اللجة. منذ دقائق تبللت من جديد بسبب موجة متعمدة لم تتبع الطريق النظامي للموجات الأخرى فجاءت تصدمني من الجهة اليمنى ولم تكتف بأنها بللتني بل وضعتني في طريق موجتين عاديتين غمرتاني من مفرقي إلى أخمص قدمي.

الليلة الثانية تقدمت كثيراً. كم تكون الساعة يا ترى؟ فبحسب وضع القمر الذي

بدأ يميل نحو الغرب يجب أن تكون قريبة من الثانية أو الثالثة.

هذه هي المرة الخامسة التي يحدث فيها المد والجزر خلال الثلاثين ساعة منذ أن نزلنا إلى الماء. انغماسي في الماء حتى العظام أفادني من بعض الوجوه، فقد أذهب البرد عني النعاس. لقد كنت ارتجف غير أن عيني مفتحتان متوسعتان بدون بذل مجهود ما. يبست ساقي وعزمت على طيهما تحتي فامسكت كل ساق بيدي ووضعتها وضعاً مناسباً فاستطعت الجلوس عليهما. أما الإبهامان المتجلدان من البرد، فربما وجدا الدفء تحتي؛ وهكذا جلست على الطريقة العربية طويلاً، وتغير الوضع حسن الأوضاع. حاولت رؤية سيلفان إذ أن القمر كان يضيء البحر إضاءة وافية، ولكنه بدأ يميل وصار في مواجهةي ويضايقي في تدقيق النظر فلم أر شيئاً. أما هو فلم يكن معه ما يربط به نفسه بالكيسين. ليت شعري هل لا يزال فوقهما؟ كنت أبحث عنه يائساً وبدون جدوى اشتدت الرياح ولكنها كانت منتظمة وهذا شيء مهم جداً، لقد ألفت جرسها^(١) وجسمي يشكل مع الكيسين كتلة واحدة؛ واشتد بحثي حولي، حتى أنه لم يبق في ذهني سوى فكرة واحدة ثابتة هي رؤية صديقي. جففت أصابعي في الهواء وأرسلت صفيراً حاداً وأصابعي في فمي، وأصغيت، فما سمعت جواباً. هل كان سيلفان يعرف التصفير بأصابعه؟ لست أدري. وكان علي أن أسأله عن ذلك من قبل وكان في استطاعتنا أن نصنع صفارتين، ولت نفسي على أنني لم أفكر بهذا، ثم جمعت يدي حول فمي وصرخت هو، هو، فلم يجيني سوى صوت الريح ووشوشة الموج. ولما عيل صبري نهضت واقفاً على الكيسين رافعاً السلسلة بيدي اليسرى للتوازن في الوقت الذي تحملني فيه الموجات الخمس على قمعتها، وحين وصلت إلى أعلى واقفاً تماماً، وحين الجلوس والصعود كنت أجلس القرفصاء، لاشيء على اليمين، لاشيء على اليسار، ولا شيء أمامي. هل هو خلفي؟ والشيء الوحيد الذي خطر ببالي دون أدنى شك، هو ما كان على يساري: خط أسود قاتم في هذا الليل المقمر كالنهار وهي لاشك أرض الأجمة. فعندما يطلع النهار سوف أرى الشجر وهذا شيء يربحني. قلت لنفسي: غداً ستري الأجمة يا بابي. رباه انظر إلي كما ينظر الصديق إلى صديقه.

مددت ساقي بعد أن دلكت إبهامي ثم عزمت على تجفيف يدي وتدخين سيجارة أو اثنتين. كم تكون الساعة يا ترى؟ القمر منخفض جداً. لا أذكر متى تلاشى الليل وبكم من الوقت سبق شروق الشمس حاولت أن أتذكر وأغمضت عيني، مستدعيّاً صور الليل الأخيرة ولكن بدون جدوى. آه. بلى. بغتة رأيت في وضوح شروق الشمس مع جزء من القمر لا يزال مرئياً على خط الأفق في الغرب. إذن تكون الساعة قد قاربت الخامسة صباحاً. والقمر يتباطأ في الغروب. وتوارت نجوم الدب الأكبر والدب الأصغر وبقي نجم القطب لامعاً متلألئاً، فهو وحده الآن أمير السماء. ازداد حجم الريح فهي على الأقل أكثر

(١) نغمتها الموزونة، لإيقاعها

كثافة، إن صح القول، مما كانت عليه أثناء الليل. وبذلك تقوى الأمواج وتزداد عمقاً وعلى ظهورها زاد عدد الخراف البيض عما كانت عليه أول الليل.

لقد انصرفت ثلاثون ساعة على إبحاري ويجب الاعتراف بأنه حتى الآن تجري الأمور نحو الأفضل لا الأسوأ والنهار القاسي هو الذي نواجهه اليوم. بالأمس كان تعرضي للشمس منذ الساعة السادسة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساءً، قد لفحني ولوحني. واليوم عندما تبدأ الشمس تلفحني من جديد لن يكون الأمر سهلاً مثل أكل الحلوى - تشققت شفتاي، ولما أزل في برودة الليل، وهما تحرقاني. وكذلك عيني، وشبه بذلك عضداي ويدي. لو استطعت لما كشفت عن ذراعي. أريد معرفة إمكانية احتمال الدارعة التي تشويني. وليست الشمس هي التي تزعجني ما بين الفخذين والمعجز، ولكن الماء المالح واحتكاك الكيسين.

على كل حال يا صديقي احترقت أم لم تحترق فأنت في حالة هروب، والوصول إلى هناك وحيثما كنت، يساوي احتمال الكثير من المشاق وأكثر. إن مؤشرات وصولي حياً إلى الأرض الكبرى إيجابية ثمانين في المئة. هذا هو المأمول وإلا فيا للتعاسة. أما إذا وصلت مسلوخ جلدة الرأس، وجسدي نصف حي فلن أكون قد دفعت الثمن غالباً للوصول إلى نتيجة كهذه. تصور أنني لم أتعرض لقرش واحد وكان القروش جميعاً في إجازة. لا يمكن أن أنكر أنني محظوظ ومحظوظ غريب وسترى الآن إذا كان هذا الهروب هو الهروب الموفق، وهو من أكثر محاولات الفرار دقة وتحضيراً، وفي آخر الحساب هو الفرار الأكثر نجاحاً، وقد يكون أكثرها حماقة: زورقي كيسان من جوز الهند، ثم الانطلاق حسب مشيئة الريح والبحر.

وفي الأرض الكبرى اعترف بأنه لا ينبغي الخروج من سان سير لتعلم أن كل حطام قد ألقي به على الشاطئ. فإذا كانت الريح والموج قد حافظا طيلة النهار على الشدة التي كانت عليه في الليل فمن الثابت أنني أطأ الثرى بعد الظهر. هذا الجرم السماوي الاستوائي العظيم الذي يتدفق خلفي لهباً، يبدو أنه عزم على أن يشوي كل شيء هذا اليوم إذ يرسل كل ما عنده من شواظ بعد أن طرد ليلة مقمرة في لحظات ولم ينتظر ذروته ذروراً كاملاً حتى يفرض سلطانه كملك على خط الاستواء لايمارى. وقد أصبح الهواء فاتراً في وقت وجيز جداً وبعد ساعة سيغدو جاراً. لقد تلاشي ما كان في جسمي من احساس بالارتياح. وهذه الأشعة الأولى التي مستني مساً رقيقاً عذباً اجتاحت كياني من منطقة الحزام إلى رأسي، لم تلبث أن اضمحل أثرها رفعت منشفتي على صورة (برنس) معرضاً وجنتي إلى الأشعة كما أفعّل إذا كنت حيال نار وقودها الخطب. هذا الجرم السماوي، أراد أن يشعرنني، قبل أن يحففني، كيف هي الحياة قبل أن يكون الموت.

يجري الدم في عروقي مائعاً. وحتى فخذاي المبتلنان تشعران بدوران هذا الدم الناشط رأيت الأجمة بوضوح، رأيت ذرى الأشجار. وقدرت أنها ليست بعيدة، وأنا انتظر أن تمتع الشمس قليلاً لأقف على الكيس لعلي أرى سيلفان، وارتفعت الشمس في أقل من

ساعة، وسيكون الطقس حاراً. يا إلهي! عيني اليسرى نصف مغمضة وملتصقة. تناولت ماء في فراغ كفي ودلكتها فأحسست بوخزة. خلعت دراعتي لأترك جذعي عارياً لبعض لحظات قبل أن تصبح الشمس لاذعة محرقة. موجة أقوى من مثيلاتها رفعتني عالياً وقبل أن تنحدر لمحت صديقي نصف ثانية، وكان جالساً على طوفه عاري الجذع، ولم يرني فهو يبعد عني بمقدار مئتي متر، أمامي ونحو اليسار لاتزال الريح شديدة لذلك قررت الاقتراب منه، وأن أمسك أسفل السترة بين أسناني وأرفع ذراعي داخل الكمين، فيتكون شراع يدفعني بالتأكيد في سرعة تفوق سرعته، وخاصة أنه أمامي على نفس الخط. كنت الشراع لمدة نصف ساعة ولكن شعرت بالأم في أسناني. والجهد الذي ينبغي بذله في مقاومة الريح سوف يستنفذ قواي في سرعة. ولما تخلّيت عن هذا الإجراء كان لدي إحساس بأنني تقدمت بأسرع مما لو تركت نفسي محمولاً على الأمواج. عجباً رأيت الرجل الطويل، فهو على بعد يقل عن مئة متر ولكن ماذا يفعل؟ ألا يبدو مهتماً بمعرفة مكاني؟ وعندما رفعتني الموجة بقوة كافية رأيته من جديد مرتين أو ثلاثاً، وقد لاحظت بدقة بأن يده اليمنى فوق عينيه. إذن هو يتفحص سطح البحر. انظر إلى الخلف يا أحق. لابد أنه نظر هذا مؤكداً، لكنه لم يرني. وقفت وصفرت. وعندما صعدت من أعماق الموجة رأيت سيلفان في مواجهتي، فرفع سترته في الهواء فحيته وحياني ما لا يقل عن عشرين مرة قبل أن نعاود الجلوس، ولدى كل موجة كنا نتبادل التحية في الهواء، ومن جميل المصادفة أننا كنا نرتفع معاً. وفي اللقائين الآخرين كان يشير بيده إلى الأجمة التي أمكننا رؤية تفاصيلها فنحن لانبعد عنها أكثر من عشرة كيلو مترات. فقدت التوازن ووقعت قاعداً على الطوف لقد شعت الفرحة العارمة في قلبي عندما رأيت صديقي والأجمة القريبة. وهذا الانفعال جعلني أبكي كالأطفال، بهذه الدموع التي طهرت عيني المتقيحتين رأيت مشات البلورات الكريستالية الصغيرة من جميع الألوان، وكأنني أرى زجاج كنيسة.

إن الله معي هذه المرة. ففي وسط عناصر الطبيعة العظيمة: الريح واتساع البحر وعمق الأمواج والسقف الأخضر الذي يهيمن على الأجمة، يحس المرء بصغره اللامتناهي أمام كل ما يحيط به، وربما أحس بصورة لاشعورية بوجود الله ويكاد يلمسه بيده. وكما أحسست به ليلاً خلال آلاف الساعات التي قضيتها في غياهب السجون حيث كنت مدفوناً وأنا حي، من غير شعاع من النور، فلأنني أحس به اليوم في نور هذه الشمس التي تشرق لتفترش كل ما هو ضعيف عن مقاومتها. إنني أحس حقاً بوجود الله حولي وفي نفسي، وكأنني به يهمس في أذني: لقد قاسيت وسوف تقاسي أكثر إنما هذه المرة سأكون معك، وسوف تتحرر وتنتصر. أعدك بهذا.

إذا لم تكن للإنسان ثقافة دينية وحتى إذا كان يجهل أبجدية الدين المسيحي، أو كان جاهلاً إلى درجة أنه لا يعلم من هو أبو المسيح، ولا إذا كانت أمه مريم العذراء، أو إذا كان أبوه نجاراً أو تاجراً، كل هذا الجهل الفاحش لا يمنعه من أن يجد ربه عندما يبحث

عنه حقاً، ويتوصل إلى معرفته في الريح والبحر والشمس، والغابة والنجوم، حتى في الأسماك التي أوجدتها لتأكل منها لحماً طرياً.

ارتفعت الشمس سريعاً، ولعل الساعة تقارب العاشرة، وقد جف جسمي ابتداء من كسحي^(١) إلى رأسي. غمست منشفتي وجعلت منها برنساً حول هامتي، ولبست سترتي إذ أن ظهري وكففي وذراعي تحرقني حرقاً شديداً، حتى ساقاي المغمورتان بالماء، غالباً ما كانتا مراءين كجراد البحر.

إذا سلمنا بأن الشاطئ قريب، فالجذب أقوى، والأمواج تتجه بصورة عمودية نحوه. أرى تفاصيل الأجمة التي جعلتني أفترض أنه لم يبق سوى هذا الصباح (في الساعة الرابعة أو الخامسة) وبفضل هروبي الأول أعرف كيف أقدر المسافات، فعندما تستطيع أن تميز الأشياء في وضوح فهذا يعني أنك على بعد خمسة كيلو مترات على الأقل، فقد رأيت الفرق بين ضخامة جذوع الأشجار. من علو عرف الموجة ميزت في جلاء تام حيواناً ضخماً يشبه الفيل ينام معترساً وهو يغسل جلده في البحر.

إليك... دلافين وطيور. وأمل أن لا تتسلل الدلافين بطوفي، ولقد سمعتمهم يقولون بأن من عاداتها أن تدفع نحو الشاطئ الحطام أو الرجال، ومن جهة أخرى فقد تعرفهم بضربات من خطمها وهي تنوي مساعدتهم. لا. إنها تدور وتعود وعددها ثلاثة أو أربعة جاءت تتنسم لترى ما هذا. ولكنها عادت دون أن تمس طوفي. أف. الوقت ظهرأ والشمس عمودية على رأسي، ولا غرو في أنها تريد سلقي في قدر بخارية وعيناي تتقيحان باستمرار، وانسلخ جلد شفتي وأنفي، وقصرت الأمواج وأسعرت الخطى نحو الشاطئ في صخب يصم الأذان. وأرى دوماً سيلفان فهو لا يغيب عني أبداً. وليست الأمواج عميقة، وهو يلتفت نحوي بين الفينة والفينة رافعاً يده وهو عاري الجذع، والمنشفة على رأسه.

لم تبق الموجة موجة بل غدت كاللغافة نجرنا نحو الشاطئ وتلتقي بنوع من الحواجز فتصطدم بها محدثة صوتاً رهيباً، ثم تحتاج الحاجز يعلوها زبد كثيف، ثم تتغلغل في هجومها على الأجمة.

نحن على بعد لا يقل عن كيلو متر من الساحل وأرى الطيور البيض والوردية بل أرى أعرافها الارستقراطية. وهي تنتزه وتسعى إلى رزقها في الحمأ^(٢) وكانت تعد بالآلاف وما كان واحد منها يخلق أعلى من مترين، وهذا الطيران المختصر كان تفادياً للبلل بالزبد. وللبحر وحل أصفر كرية المنظر، ولقد أصبحنا قريبين جداً بحيث استطعنا أن نرى على جذوع الأشجار الخطوط القذرة التي تركتها المياه في ارتفاعها الأقصى. وجلبه الأمواج لم تخرس الأصوات الحادة التي ترسلها آلاف طويلات الساق، وهي من كل لون.

(١) خصري.

(٢) الوحل. أو الرمل المتحرك.

بان. بان لا يزال أماننا متران أو ثلاثة هأنذا على اليابسة، على الحمأة. ولم يكن الماء كافياً لحمل.

أقدر الساعة الآن — حسب ميل الشمس — الثانية بعد الظهر، بعد رحلة دامت أربعين ساعة. وكانت بدايتها أول أمس في الساعة العاشرة مساءً، بعد ساعتين من الجزر. إذن هذا هو الجزر السابع، وطبيعي أن أكون الآن فوق اليابسة. إنه الجزر المنخفض، والمد سيكون في الساعة الثالثة، وسأكون في الليل في الأجمة، وعلي أن احتفظ بالسلسلة لثلاث انفصل عن الكيسين لأنه في لحظة الخطر هي اللحظة التي تبدأ فيها الأمواج بالمرور من فوقني دون أن تجرفني وذلك لقلعة العمق، ولن أعوم قبل ساعتين من المد أو ثلاث.

سيلفان على يميني نحو الأمام ويبعد عني متر، ينظر إلي ويشير بيده. أظن أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن حنجرتة لا تقوى على أن تصدر صوتاً وإلا لكنت سمعته. اختفت الموجات الخفيفة ونحن فوق الحمأ المسنون، ولا نزعجنا ضجة سوى أصوات طويولات الساق.

أنا على مسافة خمس متر من الأجمة، وقد تقل عن ذلك أو تزيد. ولكن ماذا يفعل هذا الأحمق، إنه واقف وقد ترك طوفه. إنه مجنون، ويجب أن لا يمشي وإلا بدأ يغوص عند كل خطوة، ولن يستطيع رجوعاً إلى الطوف، أريد أن أصفر فلا أستطيع. بقي لي قليل من الماء، فأفرغت القارورة ثم حاولت الصياح لأوقفه فلم أستطع إصدار أي صوت. وكانت تنطلق من الوحل فقاعات غازية، فليست هذه إذن سوى قشرة تحتها الوحل، والغبي يرمي بنفسه في التهلكة، لا أنه أصيب بالجنون. التفت نحوي ونظر إلي وقام بحركات لم أفهم معناها. وأنا أومأت له بحركات أردت فيها القول: لا، لا تتحرك من طوفك. إنك لن تصل إلى الأجمة أبداً. وبما أنه خلف طوفه، لم أنتبه إذا كان بعيداً أو قريباً منه. ظننت أولاً أنه قريب جداً منه، وفي حالة غوصه يستطيع التثبيت به، وفجأة فهمت أنه انسحب بعيداً عنه، وأنه غاص في الحمأة دون أن يتمكن من التخلص منها والعودة إلى الطوف. وصلت إلى مسمعي صيحة منه، فانبطحت حينئذ فوق طوفي، وغرزت يدي في الوحل، وأخذت أشد بكل قواي، فتحرك الكيسان من تحتي نحو الأمام قليلاً وتمكنت من التزلق أكثر من عشرين متراً، وعند ذلك انحرفت نحو اليسار، فوقفت فرأيت صديقي وأخي مدفوناً إلى بطنه، وهو يبعد عن طوفه عشرة أمتار، ومنحني الرعب قوة في صوتي فصرخت سيلفان! لا تتحرك بل انبطح في الوحل وإذا استطعت أطلق ساقيك. فحملت الريح صوتي فبلغ مسمعه فأومأ برأسه أن نعم. ثم عدت إلى الانبطاح، وأخذت أزلقي كيسني والغضب يعطيني قوة تفوق القدرة البشرية وبدأت أتقدم في سرعة نحو مسافة ثلاثين متراً استغرق ذلك مني قرابة الساعة، ولكنني اقتربت منه جداً حوالي خمسين أو ستين متراً وقد ميزته في مشقة، فكان وجهه. ويداه ملطخة بالوحل. مسحت عن عيني مانزل بها من الوحل الملح، فكانت تحرقني، وتمنع عني الرؤية لا بالعين اليسرى فقط بل بالعين

الأخرى أيضاً والتي أخذت تدمع إمعاناً في سوء الطالع . وأخيراً رأيته ، فلم يكن راقداً بل واقفاً ، وجذعه فقط هو الذي يتجاوز الوحل . مرت الموجة الأولى وقفزت من فوقني دون أن تفصلني عن الطوف وامتدت بعيداً وهي تغمر الحماة بزبدتها ، ومرت أيضاً فوق سيلفان ولا يزال جذعه خارجاً . فكرت في سرعة : وكلما زاد عدد الأمواج ازداد الوحل رخاوة ، يجب أن أصل إليه مهما كلف الأمر . فكنيت كالوحش الذي يتهدد مسكنه الضياع ، أو كالأم التي تريد أن تنتزع ولدها من خطر داهم . كنت أسحب وأسحب وأسحب فوق هذه الموحلة لأتقدم إليه ، وكان ينظر إلي دون أن ينبس بكلمة واحدة ولا يشير بأية إشارة بل كان يحرق بي بعينين جاحظتين تفرسان عيني ، وعيناي ثابتتان عليه لاترمان ولا تتحولان عن نظرتيه دون أن أهتم أن تغوص يداي . زحفت قليلاً . وبسبب موجتين مرتا فوقني تماماً وغمرتاني . أصبح الوحل أقل تماسكاً وتقدمت بصورة أسرع مما كنت عليه منذ ساعة . ومرت موجة أخرى وكدت اختنق بمائها وأوشكت تقتلني من مركبي ، جلست لأحسن الرؤية . ووصل سيلفان في الغوص إلى إبطيه وأنا على مسافة منه تقل عن أربعين متراً وهو ينظر إلي في حدة . أرى أنه أحس بدنو أجله فهو يغوص في رمل متحرك كشخص ذليل على بعد أقل من ثلاث مئة متر من الأرض الموعودة .

وعدت إلى الانبطاح أجرف الوحل أيضاً الذي أوشك أن يكون سائلاً . عيناي في عينيه . أشار إلي أن لا أقوم بأي مجهود ، فتابعت مع ذلك ، وتقاصرت المسافة بيننا إلى أقل من ثلاثين متراً وجاءت موجة غطتني بلجتها وانتزعني تقريباً عن كيسي اللذين انفصلا عني وتقدما مسافة خمسة أمتار ، ولما انحسرت الموجة رأيت سيلفان قد توارى . وكان الوحل المغطى بطبقة خفيفة من الماء المزبد ناعماً جداً حتى أن يده لم تظهر لتودعني ، الوداع الأخير .

كان رد الفعل عندي بهيمياً ومقيتاً . وقد ذهبت غريزة البقاء بكل احساس فقلت لنفسني :

أنت على قيد الحياة ، وأنت وحدك ، وعندما تكون في الأجمة بغير صديق لن تجري الأمور هيئة لتنجح في الهروب . تكسرت موجة على ظهري ، إذ كنت جالساً ، فنبهتني ، وقد طوتني نصفين . وكانت الضربة شديدة بحيث فقدت معها التنفس لبضع دقائق . وانزلق الطوف أيضاً بضعة أمتار . وحينئذ رأيت الموجة تموت قرب الأشجار فبكيت سيلفان . لقد كنا قريبين جداً . لولا أنك تحركت . وعلى مسافة تقل عن ثلاث مئة متر من الأشجار ، لماذا؟ قل لي لماذا قمت بهذه الحماقة؟ كيف افترضت أن هذه القشرة اليابسة كانت في قوة كافية تسمح لك بالوصول إلى الشاطئ مشياً على الأقدام؟ الشمس؟ الانعكاسات؟ ليت شعري ألم تستطع مقاومة الجحيم؟ قل لي كيف لم يستطع رجل مثلك أن يحتمل لفح الشمس ساعات أخر . توالى الأمواج باستمرار محدثة صوتاً كصوت الرعد ، وكانت متراسمة ، بعضها تلو الآخر ، وبدأت تتعاضم ، وكلما أغرقني انزلقت بضعة أمتار على تماس دائم بالحماة ، وحوالي الساعة الخامسة بدأت الأمواج تشتد وتقوى أنا منفصل عن

الطوف ولكنني عائم، وهذه الأمواج ذات عمق لذلك فإنها لا تحدث ضجيجاً، وقد توقف رعد الأمواج السابقة. كيس سيلفان وصل إلى الأجمة. وصلت إلى مسافة عشرين متراً من الغابة العذراء في وضع ليس قاسياً جداً، فعندما تنحسر الموجة من جديد فوق الطين، وفي نيتي أن لا أترشح عن كيسي إلى أن أمسك بأحد الأغصان بيدي. مسافة عشرين متراً استغرقت ساعة قبل أن أجد نفسي محمولاً إلى الأجمة، والموجة التي قذفت بي مزججة وجهتي تماماً نحو الأشجار ففككت اللولب وتخلصت من السلسلة ولم أرم بها فقد أحتاج إليها.

في الغابة

أسرعت في الدخول إلى الأجمة قبل غروب الشمس، أمشي تارة وأسبح تارة فهناك أيضاً رمال متحركة مصاصة. والماء يدخل بعيداً، وأسدل الليل أستاره ولما أصل إلى اليابسة بعد. وزحمت رائحة المياه الأسنة أنفي، ولا بد أن تكون مصحوبة بالغازات؛ عيناى تحرقاني. يغطي العشب والورق ساقي، ولازلت أدفع طوفي، وكلها خطوات خطوة تحسست الأرض تحت الماء بقدمي فإذا لم تفص مشيت. وقضيت ليلتي الأولى فوق شجرة ضخمة ساقطة، وقد مرت على جسدي حشرات كثيرة. فأشعر بحروق ووخز. فلبست سترتي بعد أن رفعت طوفي على جذع الشجرة وثبتت طرفيها. في هذين الكيسين حياتي، إذ حالما يفتحان فإن جوز الهند يتيح لي الغذاء والقوة، تمددت فوق الشجرة منهوكة في ظل الأغصان التي شكلت لي نوعاً من المسكن، وثمرت دون التفكير في أي شيء. بل لقد جمعت مرتين أو ثلاثاً: مسكين سيلفان، قبل أن أتهادى كالكتلة. استفتت على صيحات الطيور ودخلت أشعة الشمس في الغابة بعيداً، وكانت تأتي أفقية، فربما بلغت الساعة السابعة أو الثامنة صباحاً.

نهضت وحولي الماء. إذن فالبحر في حالة المد. وقد يكون نهاية المد العاشر؛ أي مضى على خروجي من جزيرة الشيطان ستون ساعة، ولا أستطيع أن أقدر إذا كنت بعيداً عن البحر وعلى أية حال سوف انتظر انحسار الماء لأذهب إلى شاطئ البحر، لأجفف جسمي وأعرضه للشمس، لم يبق عندي ماء عذب وعندي ثلاث حفنات من لب جوز الهند، كنت آكلها في لذة وأذر منها أيضاً على جروحي. وبفضل ما في لب الجوز من زيت فإنه يخفف الحروق. دخنت سيجارتين فكرت في سيلفان هذه المرة بدون أنانية. أما كان

الأفضل أن أهرب بغير صديق؟ ذلك أنني كنت أدعي أنني أستطيع التصرف منفرداً. إذن لم يتغير شيء سوى أن الأسى يعتصر قلبي، وأغمض عيني وكان هذا يمكن أن يحجب عني رؤية مشهد غوص صديقي في الرمال المتحركة. لقد انتهى.

علقت الكيس في العشة وبدأت استخرج منه جوز الهند وتمكنت من شق قشرة اثنتين بضربهما بالشجرة بكل ما أوتيت من قوة. وبمسن الضرب على رأسها المدب بحيث ينفتح الغلاف، وهذا أفضل من استعمال السكين. أكلت واحدة بكاملها وشربت ما احتوت من مائها الحلو.

سرعان ما تراجع البحر، ومشيت في الوحل في سهولة حتى وصلت إلى الشاطئ. الشمس مشعة والبحر اليوم جميل لانظير له. نظرت طويلاً إلى المكان الذي افترض أن سيلفان قد توارى فيه، وجفت أمتعتي في سرعة، وكذلك جسمي الذي غسلته بماء البحر المتجمع في حفرة. دخنت سيجارة وألقيت نظرة أخيرة على قبر صديقي. ثم توغلت في الغابة أمشي في غير صعوبة تذكر، وكيسي على كتفي، وتغلغلت تحت غطاء الأشجار ببطء وفي أقل من ساعتين، وجدت أخيراً أرضاً لم يصل إليها فيض البحر، وليس هناك من أثر على الأشجار يدل على أن مد البحر قد وصل إليها. استرحت هنا أربعاً وعشرين ساعة، وفتحت جوزات الهند شيئاً فشيئاً لاضعها في الكيس جاهزة للأكل عندما أريد. وبأستطاعتي أن أشعل النار، ولكن وجدت أن ليس من الحكمة أن أفعل هذا. مضت بقية النهار وطيلة الليلة بدون متاعب.

ايقظتني زقزقة العصافير عند شروق الشمس، أكملت تقشير جوز الهند فأصبح حجم الكيس صغيراً فوضعت على كتفي وسرت مشرقاً.

وحوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر وجدت أمامي طريقاً ومواطئ أقدام للباحثين عن الصمغ، أو النقيين عن المعادن أو الذين يقدمون الامدادات الغذائية، أو الذين يمولون الباحثين عن الذهب. وكان هذا الدرب ضيقاً، ويبدو أنه مطروق، وعليه آثار حوافر الحمير والبغال وليس لها حدوات كما رأيت في الوحل اليابس آثار أقدام رجال، وبصمة الإبهام محفورة في وضوح في الغضار، مشيت حتى ولج الليل. كنت أمضغ الجوز، فيغذي بي ويل عطشي، وكنت أمضغ جيداً، فاستخرج من فمي مستحلباً من الزيت واللعب فأوهد به أنفي وشفتي ووجنتي. وغالباً ما تلتصق أجفائي بسبب القيح. وسوف أغسلها بالماء العذب عندما أستطيع إلى ذلك سبيلاً.

وكان معي في كيسي علبة محكمة الإغلاق وقطعة من الصابون المرسيلي واثنتا عشرة شفرة للحلاقة وفرشاة، وقد احتفظت بها سليمة.

سرت وقائم سيفي الخشبي بيدي، ولا حاجة بي إلى استعماله، إذ أن الطريق سالكة، ليس فيها عوائق، وكذلك لفت نظري وجود اغصان مقطوعة حديثاً. فعلى هذا الدرب يمشي أناس، وعلي أن أكون حذراً. ليست الغابة هنا كالتي عرفتها في هروبي الأول في سان لوران مادوني فهذه تتألف من طبقتين وليست كثيفة كما هي الحال في مادوني.

النوع الأول من النبات يعلو إلى ارتفاع خمسة أو ستة أمتار، ثم الطبقة الثانية العليا وتشكل قبة الغابة، وارتفاعها عشرون متراً، ولا أرى الضياء إلا عن يمين الشعب^(١) أما عن اليسار فلا شيء سوى العتمة. تقدمت بخطا حثيثة، وأحياناً على ضوء حريق سببه إما الإنسان أو الصاعقة. وكنت ألح أشعة الشمس، ويشير ميلها إلى أنها قاربت المغيب، فأدبرت لها ظهراً، متجهاً نحو الشرق، إما إلى قرية زنوج كورو، وإما نحو المعسكر التأديبي الذي يحمل اسم كورو أيضاً. يهجم الظلام هنا دفعة واحدة وأود الدخول إلى الغابة وأن أجد لنفسي ركناً أوي إليه. وعلى بعد ثلاثين متراً من الشعب التجأت إلى كومة من الورق الناعم، وهو نوع من أوراق الموز، فركدت عليها وغطت، وكانت جافة، فقد كنت محظوظاً إذ لم يهطل المطر. دخنت سيجارتين. لست مرهقاً هذه الليلة ولب الحوز وهبني قوة وأسكت عني الجوع. أما العطش فقد جفف حلقي ولم أستطع أن ابتلع لعابي. بدأت المرحلة الثانية، وهذه هي الليلة الثالثة التي أقضيها بدون حوادث مؤسفة على الأرض الكبرى. آه ليت سلفان كان معي، ولكنه ليس هنا فما عساني أفعل؟ أنا لست في حاجة إلى من يسدي إلي نصيحاً أو يكون لي سنداً، أنا ضابط أم جندي؟ يجب أن لا أكون غيباً. إذا لم يكن موجباً أن أفقد صديقي وأن أبقى وحدي في الغابة فلا يعني هذا أنني أقل عزيمته عن ذي قبل.

ما أبعد صحي عني الذين هم في رويال وسان جوزيف وجزيرة الشيطان. وقد مرت ستة أيام على مغادرتي لهم. ولا بد أن معسكر كورو قد أنذر بهروبي، أولاً جنود المعسكر في الغابة ثم الزنوج في القرية، والمؤكد أنه تشكلت دورية من الدرك فهل من الحكمة أن أمشي نحو هذه القرية؟ ولا أعلم شيئاً عن ضواحيها. والمعسكر ملاصق للقرية والنهر، هذا كل ما أعرفه عن كورو.

في رويال كنت فكرت في مهاجمة أول آتٍ وإجباره على أن يقودني إلى ضواحي معسكر إينيني حيث يتواجد الصينيون، وحيث كويك كويك أخو شانغ، إذا كانوا في جزيرة الشيطان ظنوا أنني غرقت فلا ضجة ولا فضيحة، أما إذا أدركوا أنه الفرار فإن في كورو خطراً. وبما أنه معسكر حرجي فلا بد أن يكثر فيه عدد الوعول أي عدد كبير من القناصة.

حذار من الخطأ. لاتدع نفسك بابلون تقع لقمة سائغة في أفواههم، ويجب أن ترى الأشخاص أياً كانوا قبل أن يروك، ويستنتج من ذلك أنه يجب أن تمشي في الغابة موازياً للطريق لا على الطريق. لقد أخطأت اليوم خطأ فادحاً في سيرك على هذا الدرب بسلاح، ليس هذا من عدم التدبر بل من الجنون، إذن غداً سامشي في الغابة.

لقد صحت في ساعة مبكرة على أصوات الحيوانات والطيور التي تحيي طلوع الفجر فتحركت مع الغابة في وقت واحد. وبالنسبة إلي أيضاً يبدأ نهار جديد. تناولت حفنة من

(١) طريق ضيق، عمر.

جوز الهند ومضغتها جيداً، ومسحت ببعضه وجهي وتابعت طريقي. مشيت في شيء من المشقة إلى جانب الطريق، بسبب ما يتهدى من الأغصان والعرائش. وكنت مضطراً إلى إزاحة بعضها عن بعض، إذا كانت متشابكة، لكي أتمكن من المرور ولكني كنت مستتراً بها، وعلى كل حال لقد أحسنت صنعاً بالابتعاد عن الطريق، لأنني سمعت صفيراً. يمتد الشعب أمامي خمسين متراً ولم أر الصافر. آه ها هوذا آت، إنه زنجي يحمل على عاتقه حملاً، ويده اليمنى بندقية، يرتدي قميصاً كاكياً وبظلاً قصيراً، حافي القدمين، عاري الساقين، يحني رأسه ولا يرفع نظره عن الأرض مقوس الظهر بثقل الحمل الكبير، تواريت خلف شجرة كبيرة على حافة الطريق وانتظرت حتى يدنو مني وسكيتي بيدي مفتوحة. وفي اللحظة التي مر فيها أمام الشجرة ارغمت عليه، وأمسكت بيدي اليمنى ذراعه التي تحمل البندقية ولويت له ذراعه فتخلى عن البندقية، وقال: لا تقتلني! يا إلهي الرحمة.

ظل واقفاً ورأس سكيتي مركّز على قاعدة عنقه اليسرى. انحنيت وتناولت البندقية العتيقة وهي ذات فوهة واحدة ولكنها محشوة بالبارود والرصاص إلى أقصاها ابتعدت عنه مترين وأصدرت إليه أمري.

- انزل حلك، دعه يسقط لا تحاول الذهاب جرياً وإلا قتلتك.
- وامثل الأسود المسكين مذعوراً ثم نظر إلي وقال: أنت هارب؟
- نعم.
- ماذا تريد؟ خذ ما تشاء وأتوسل إليك لا تقتلني، عندي خمسة أطفال، ابق على حياتي.
- اسكت. ما اسمك؟
- جان.
- إلى أين تذهب؟
- أحمل أغذية وأدوية إلى أخوي اللذين يقطعان الأخشاب في الغابة.
- من أين أنت آت؟
- من كورو.
- هل أنت من هذه القرية؟
- ولدت فيها.
- هل تعرف اينيني؟
- نعم. وأتعامل مع الصينيين في معسكر السجناء.
- هل تريد هذا؟
- ما هذا؟
- ورقة نقدية بقيمة خمس مئة فرنك. ولك أن تختار: إما أن تفعل ما أقوله لك،

وأقدم لك هذا المبلغ هدية وأرد لك البندقية، وإما أن ترفض أو تتخذهني وحينئذ أقتلك.
اختر.

— وماذا علي أن أفعل؟ سأفعل كل ما تريد مقابل لا شيء.

— يجب أن تقودني بدون مخاطرة إلى معسكر إينيفي، وبعد أن أتصل بصيفي تستطيع الذهاب. مفهوم؟

— اتفقنا.

— لا تخبر عني وإلا كنت من المالكين.

— لا. أقسم لك بأنني سأساعدك باستقامة.

وكان معه علب حليب مكثف فأخرج ستاً منها وأعطانيها، ومعهما قطعة خبز تزن كيلو غراماً، وقطعة من شحم الخنزير المدخن. وقلت له:

— خبىء كيسك في الغابة، وسوف تعود لاسترداده فيما بعد وهذه علامة على الشجرة أحدثها بصيفي.

شربت علبة حليب. وأعطاني أيضاً بنظلاً طويلاً جديداً أزرق مما يلبسه الميكانيكيون فلبسته دون أن أتخل عن البندقية.

— هيا إلى الامام وخذ حذرك من أن يرانا أحد إذ لو وقعنا فسيكون ذلك من خطئك، وحينئذ فالويل عليك.

يعرف جان كيف يمشي في الغابة خيراً مني، وتعبت من اللحاق به، وكان يحسن تفادي الأغصان والعراش، هذا الرجل الطيب يمشي في الغابة في يسر.

— هل تعلم؟ لقد أندروا في كورو أن سجينين قد فرا من الجزر. لذلك أريد أن أكون شريفاً معك، وسنلاقي أخطاراً عندما نمر قرب معسكر السجناء في كورو.

— يبدو أنك طيب وصريح يا جان وأرجو أن لا أكون مخطئاً. بماذا تنصحني للذهاب إلى إينيفي. فكر بان سلامتي هي حياتك فإذا وقعت في أيدي الحراس أو القناصة فساكون مضطراً إلى قتلك.

— بماذا أناديك؟

— بابيون.

— حسناً يا مسيو بابيون. يجب الدخول كلياً في الغابة وغير بعيد عن كورو وأنا أضمن لك الوصول إلى إينيفي من خلال الغابة.

— إنني أثق بك خذ الطريق التي تراها أكثر أمناً.

في الداخل سرنا سيراً أبطأ، ولكن منذ غادرنا حافة العشب أحسست أن الأسود أكثر استرواحاً، ولم يتعرق بغزارة كما حصل له من قبل وأساير وجهه أقل انكماشاً فهو الآن مطمئن.

قلت: أراك الآن يا جان أقل خوفاً؟

- أجل يا مسيو بابيون! وجودنا على جانب الطريق خطر عليك وبالتالي خطر علي.
تقدمنا مسرعين، وهذا الأسود ذكي، فما كان يتعد عني أكثر من ثلاثة أمتار.
– قف أريد أن أدخن.
– إليك علبة كاملة.
– شكراً يا جان أنت شخص طيب.
– أنا حقاً طيب جداً. فأنا كاثوليكي، ويعز على نفسي أن أرى معاملة السجناء على أيدي المراقبين البيض.
– هل رأيت منهم الكثير وأين؟
– في معسكر كورو الحرجي، إنه لمن دواعي الإشفاق أن نراهم يموتون موتاً بطيئاً يأكلهم هذا العمل في قطع الأخشاب، ويفنيهم الزحار والحمى، أنتم في الجزر في حال أفضل، وهذه أول مرة أرى فيها سجيناً يتمتع بصحة جيدة مثلك.
– أجل. نحن في حال أفضل في الجزر.
جلسنا على غصن شجرة ضخمة، فقدمت له علبة من علب الحليب التي كانت معي، ولكنه أثر أن يمزج جوزة.
– هل زوجتك شابة؟
– نعم. عمرها اثنان وثلاثون سنة، وأنا عمري أربعون وعندها خمسة أولاد، ثلاث بنات وغللمان.
– هل تكسب جيداً؟
– أكسب من الخشب الوردي ماهو كفاقي، وزوجتي تغسل وتكوي الغسيل للمراقبين. وهذا يساعدنا قليلاً، فنحن فقراء جداً، ولكننا نأكل إلى درجة الشبع والأولاد يذهبون جميعاً إلى المدرسة، ويلبسون أحذية دوماً.
مسكين هذا الأسود الذي يجد السعادة حين يلبس أولاده أحذية. إنه يساويني في الطول ووجهه الأسود ليس فيه ما ينفرك منه بل على العكس فإن عينيه تنبئان بوضوح عن إنسان يحمل من المشاعر ما يؤهله لأن يكون شريفاً وعاملاً سليم الطوية، وأباً طيباً لأسرته وزوجاً طيباً لزوجته، ومسيحياً طيباً.
– وأنت يابابيون؟
– أنا أبحث عن الحياة من جديد لقد دفنت حياً منذ عشر سنوات، ولم أكف عن الهروب، لأكون يوماً ما مثلك حراً مع زوجة وأبناء دون أن أفكر في إلحاق الأذى بالناس. قلت بنفسك إن هذا السجن عفن. والرجل الذي يكرم نفسه يجب أن يهرب من هذا الوحل.
– سأساعدك بشرف على النجاح. هيا بنا إلى الطريق.
وبحس الاتجاه المرفه الذي يملكه، وبدون أي تردد على الطريق قادني مباشرة إلى

ضواحي معسكر الصينيين، حيث وصلنا بيئاتاً^(١) منذ ساعتين وسمعنا من بعيد صوت طلقات ولم نر نوراً. وقد شرح لي جان بأنه عند الاقتراب من المعسكر ينبغي تحاشي مركزين للحراس وقررنا التوقف لقضاء الليل. فقد أضناني اللغوب^(٢) وأخشى النوم. وإذا خدعت بالأسود؟ وإذا كان ممثلاً هزلياً وأخذ مني البندقية أثناء نومي وقتلني؟ فيكسب بقتلي مرتين. الأولى أنه يتخلص من الخطر الذي أفرضه عليه. والثانية يربح جائزة بقتل هارب.

نعم إنه ذكي. استلقى لينام دون كلام ودون طول انتظار. لاتزال السلسلة واللولب في حوزتي وكنت أشتهي ربطه، ثم فكرت بأنه قد يستطيع فك اللولب مثلي، وإذا اتخذ حذره خلال غفوتي ويدي قابضة على السلسلة فلن أشعر بشيء. أولاً سأحاول أن لا أنام، فعندي علة كاملة من السجائر سأبذل قصارى جهدي لأظل صاحياً، لا أستطيع الوثوق بهذا الرجل الشريف الذي صنفني مع المجرمين، الليل حالك السواد وهو ينام على بعد مترين مني ولا أميز سوى بياض أخمص قدميه العاريتين.

وللغابة ضجيجها المتميز، وأصوات القروود تنطلق من حناجرها مبحوحة وتصل إلى الأذان عن بعد عدة كيلو مترات. وهذا أمر له أهميته إذ من استتباب الأمور أن يأكل قطع القروود وينام في هدوء. أي أنه لا يحس خوفاً ولا يشعر بخطر إذ ليس في الجوار حيوانات ولا بشر.

كنت متوتراً ومتصلباً كالحجر أقاوم النعاس بدون جهد كبير وذلك بإحداث حروق في جسدي بالسجائر، وبوجود سحابة من البعوض تريد أن تمتص دمي كله، وكان في وسعي أن أحمي نفسي منها بدهن جسمي بلعابي ممزوجاً بالتبغ، والنيكوتين يمنعه من الوخز، فلم أفعل هذا خشية أن يغلبني النوم وكل ما أتمناه أن لا يكون هذا البعوض حاملاً لمرض الملاريا أو الحمى الصفراء.

ربما خرجت الآن من طريق العفن مؤقتاً. وعندما بدأت السير فيه كان لي من العمر خمس وعشرون سنة. كان ذلك عام ١٩٣١ ونحن الآن في العام ١٩٤١، أي عشر سنوات مضت وأنا في هذه الطريق العفن. وفي العام ١٩٣٢ استطاع براديل المدعي العام المجرد من الضمير أن يرمي بي شاباً قوياً، وبتحقيق خال من الرحمة والإنسانية رمى بي في بئر الإدارة التأديبية في حفرة مليئة بالسائل اللازب لأدوب فيه، وأخيراً هذا هو الجزء الأول من الهروب، لقد خرجت من البئر وهأنذا على حافتها، ويجب أن استخدم ذكائي وكل إمكاناتي لأربح الجولة الثانية. مضى الليل بطيئاً ولم أنم ولم أتخل عن البندقية ولقد ظلمت بقطاً بفضل الحروق ولسع البعوض فلم يسقط السلاح من يدي مرة واحدة. قد أكون راضياً عن نفسي، فلم أغامر بحريتي تحت وطأة التعب. الروح أقوى من

(١) ليلا

(٢) التعب.

المادة، وهنأت نفسي عندما سمعت زقزقات العصافير الأولى معلنة قرب شروق جديد. هذا الشروق المبكر قبل غيره يشبه التمهيد الموسيقي الذي لا يلبث أن ينتهي. صحا الأسود، ثم تغطى بكل جسمه وأخذ يدلك قدميه.

— عم صباحاً. ألم تنم؟

— لا.

— هذا غباء. لقد أكدت لك بأنه لاخوف مني. لقد عزمت على مساعدتك، لكي تنجح في مسعاك.

— شكراً لك يا جان. هل يتأخر النور في الدخول إلى الغابة؟

— بعد ساعة. فالحيوانات وحدها تحس مقدماً وقبل غيرها بقرب طلوع النهار. وسوف ترى الأشياء في وضوح بعد ساعة. أعزني مدينتك يا بابيون.

فقدمتها له بدون تردد. فخطا خطوتين أو ثلاثاً، وقطع غصناً من نبات غليظ، وأعطاني قطعة، واحتفظ بالباقي وقال:

— أشرب من مائها، وأذهن به، ففعلت ما أوصاني به. لقد طلع الصباح فرد لي جان مديتي فأشعلت سيجارة، وكذلك دخن سيجارة. هيا إلى الطريق. وعندما انتصف النهار بعد أن توحدنا مراراً في برك من الطين وعرة المسالك. وصلنا إلى ضواحي إينيني دون أي لقاء، أشرأ كان أم خيراً.

لقد اقتربنا من طريق حقيقية للدخول إلى المعسكر، ورأيت خطأ ضيقاً للسكة الحديدية يمتد على طول هذا المكان الفسيح المستصلح للزراعة. قال لي:

— هذا الطريق لا يمر به إلا عربات يدفعها صينيون.

وهذه العربات تحدث جلبة مزعجة تسمع من بعيد، وشهدنا مرور إحداها وعليها مقعد يجلس عليه خفيران، وخلفها صينيان ومعها قضبان حديدية لكبح العربة ويتطير الشرر من دواليبها، وشرح لي جان بأن في العصي قطعة من الفولاذ تنفع في الدفع أو في الكبح.

إن الطريق مطروقة جداً، يمر بها صينيون يحملون لفائف كبيرة من العرائش، وآخرون يحملون خنزيراً برياً وآخرون أيضاً يحملون حزماً من أوراق جوز الهند وهؤلاء جميعاً متجهون نحو المعسكر. قال لي جان:

— هناك أسباب عدة للخروج إلى الغابة: القنص، وجلب العرائش إذ يصنعون منها بعض أنواع الأثاث، وأوراق جوز الهند لصنع الحصائر التي تحمي الخضار في الحدائق من حدة الشمس، وهناك من يصطاد الفراش أو الذباب أو الأفاعي... الخ وبعض الصينيين يسمح لهم بعد الانتهاء من المهمات التي تفرض عليهم من قبل الإدارة، بالذهاب إلى الغابة لبضع ساعات وعليهم جميعاً أن يعودوا قبل الساعة الخامسة مساءً.

— إليك يا جان خمس المئة فرنك وبنديتلك (وكننت أفرغت شحنتها من قبل). معي سيفي ومديتي تستطيع الآن الذهاب، وشكراً. وجزاؤك عند ربك أكبر لأنك ساعدتني

وكنيت لي وفياً. وشكراً لك مرة أخرى. وآمل عندما تحدث أولادك بهذه القصة أن تقول لهم: هذا السجين تبدو عليه إمارات الطيبة ولست نادماً على مساعدتي له.

— يا مسيو بابيون لقد تأخر الوقت ولن أستطيع السير طويلاً قبل حلول الظلام. احتفظ بالبندقية وسوف أبقى معك حتى صباح الغد وأريد، إذا شئت، أن استوقف الصيني الذي تختاره لإعلام كويك-كويك، وسوف يكون أقل رعباً إذا رأى رجلاً أبيض فاراً. دعني أخرج إلى الطريق، إذ لا يوجد أي حارس، فإذا جاء أحدهم بغتة لم يجد في عبوري شيئاً غير مألوف، وسوف أقول له جئت لوضع علامات للأخشاب لتعهدات الخشب «سمفوريان» صدقي.

— إذن خذ بندقيتك قد يرون من الغرابة أن يخرج رجل من الغابة بغير سلاح.

— هذا صحيح.

انتصب جان في الطريق واتفقت معه على أن أصدر صغيراً خفيفاً عندما يظهر صيني ارتاح إليه.

قال رجل عجوز صيني: «بونجو مونشه» أي صباح الخير عزيزي. وكان يحمل على كتفه جذع شجرة جوز، وملفوفة لذينة المأكّل، فصفرت، لأن هذا العجوز المهذب الذي بدأ بتحية جان قد أعجبني.

— بونجو شين! قف أنا يكلم أنت.

فتوقف وقال: ما شأنك؟

وتحاطباً فترة خمس دقائق، ولم أسمع تحاورهما، ومر صينيان يحملان وعلاً كبيراً مربوطاً بقضيب، ومعلقاً من عراقيبه، ورأسه يصطدم بالأرض، مرا دون أن يسلماً على الأسود، بل قالاً شيئاً باللغة الصينية، فرد الصيني بكلمتين أو ثلاث.

أدخل جان العجوز إلى الغابة حتى وصلا إلي وعند اقترابه مني مد لي يده..

— هل أنت فروفرو (هارب)؟

— نعم.

— من أين؟

— من جزيرة الشيطان.

— حسن (ونظر إلي بعينيه المتجعدتين) حسن. وكيف أنت اسمك؟

— بابيون.

— أنا لا أعرفك.

— أنا صديق شانغ كانغ فوكيان شقيق كويك-كويك.

— آه! يا.. حسن.

ومد لي يده من جديد وقال «ماذا أنت تريد؟»

— أريد إشعار كويك كويك بأنني انتظره هنا.

— مستحيل.

— لماذا؟
 — لأن كويك كويك سرق أربعين بطة من رئيس المعسكر، وهو يروم قتله، وكويك الآن هارب.
 — منذ متى؟
 — منذ شهرين.
 — هل ذهب بحرأ؟
 — لا أدري. أنا ذاهب إلى المعسكر لأكلم أحد أصدقائه المخلصين، وهو يقرر. وأنت لا تتحرك من هنا فأنا عائد إليك هذه الليلة.
 — في أية ساعة؟
 — لا أعلم. وسوف أحضر لك معي طعاماً وسجائر، ولكن لاتشعل ناراً هنا، وأنا أصفر لك لحن المادلون^(١) وإذا سمعتني فأخرج إلى الطريق مفهوم؟
 — مفهوم.
 — وانصرف.
 — ما رأيك يا جان؟
 — لم نخسر شيئاً. فإذا شئت أن تعود على أعقابك نحو كورو فسوف أعطيك زورقاً وشراعاً وأغذية لتركب البحر.
 — يا جان أنني ذاهب بعيداً، ومن المستحيل أن أذهب وحدي. أشكر لك سخاءك، وربما قبلت لو ساءت الأحوال.
 — أكلنا قطعة النخل الكرمي، فهي غضة لذيدة ولها طعم الجوز المتميز. سيسهر جان فقد وثقت به ودهنت وجهي وبدي بعصارة التبغ لأن البعوض بدأ يهاجمي.
 — أيقظني جان وقال: بابيون أسمع صفير «المادلون».
 — كم الساعة الآن؟
 — ليس الوقت متأخراً، ربما كانت الساعة التاسعة.
 — خرجنا إلى الطريق والليل مدلم واقترب الصافر مني وأحسست به ولكنني لا أراه واستمر الصفير بالتبادل حتى التقينا. كانوا ثلاثة ولامس كل واحد منهم يدي. وسوف يبزغ القمر عما قريب. قال أحدهم بلغة فرنسية سليمة.
 — لنجلس على حافة الطريق. ففي الظل لا يمكن أن يرى أحدنا الآخر.
 — وأقبل جان للقاتنا، وقال فصيح العصبية: كل أولاً ثم تكلم. فأكلنا أنا وجان حساء بالخضار حاراً. وشعرنا بالدفاء وعزمنا على الاحتفاظ بالباقي لوقت متأخر، وشربنا شايًا حاراً على بالسكر، وفيه طعم النعناع وما كان أطيبه.
 — هل أنت صديق حميم لشانغ؟

(١) نشيد وطني.

— أجل، وقد طلب مني البحث عن كويك كويك للهروب معاً، وقد سبق لي أن هربت بعيداً جداً إلى كولومبيا، وأنا بحار جيد لذلك كان يريد شائع أن أصحب أخاه وهو يثق بي.

— جيد جداً. ولكن ما الوشم الذي كان لشائع؟

— كان على صدره وشم التنين، وثلاث نقط على يده اليسرى، وقد قال بأن هذه النقط علامة على أنه كان أحد زعماء ثورة بولوكوندور، وصديقه المفضل زعيم آخر للثورة يدعى فان هوه وهو مبتور الذراع. قال المفكر: «هو أنا. أنت حقاً صديق شائع. إذن أنت صديقنا. اسمعني جيداً، كويك كويك لم يستطع ركوب البحر بعد، لأنه لا يعرف قيادة سفينة، ثم إنه وحده وهو الآن في الغابة على بعد عشرة كيلو مترات من هنا، يصنع فحماً من الخشب واصدقاؤه يبيعون الفحم ويأتونه بالثمن، وعندما يكون له ما يكفي من المال سيشتري المركب ويبحث عن أحدهم ليهرب معه عبر البحر. ومن موضعه لا يجازف ولا يستطيع أحد الوصول في موقعه الذي يشبه الجزيرة وهو محاط بالرمل المتحرك. وكل من غامر في الذهاب إليه سوف يمتصه الوحل، إذا كان جاهلاً بالمنطقة. سأتيك عند طلوع النهار لأخذك إلى كويك—كويك. تعال معنا.

وسلكنا حافة الطريق إذ طلع البدر علينا وأضاء بنوره وصرنا نغيز الأشياء على بعد خمسين متراً، ولما وصلنا إلى أحد جسور الأجمة قال لي:

— انزل تحت الجسر لتنام هنا. وأنا سأحضر غداً صباحاً.

وتصافحنا وانصرفوا، ومشوا جهاراً، وإذا صادفهم أحد ادعوا أنهم وضعوا فخاخاً في الغابة نهاراً وجاؤوا الآن يتفقدونها. قال لي جان:

— بابيون لاتنم هنا. أنت تنام في الغابة وأنا أنا مكانك فإن جاء ناديتك.

— فليكن ذلك.

دخلت الأجمة ونمت سعيداً بعد أن دخننت عدداً من السجائر، وقد ملأت بطني حساء. وصل فان هوه في الموعد المحدد أي قبل طلوع النهار وذلك لكسب الوقت، ومشينا على الطريق إلى أن انشقت عصا الصبح وصرنا حثيثاً ما يزيد على أربعين دقيقة، وبغثة سمعنا من بعيد صوت عربة قادمة على السكة الحديدية. فولجنا تحت غطاء الغابة.

— وداعاً يا جان وشكراً لك. أرجو لك التوفيق وبارك الله فيك وفي أسرتك.

وقد ألححت عليه حتى يرضى بأن يأخذ خمس المئة فرنك. ثم أوضح لي، في حال إخفاقي كيفية الاقتراب من قريته، والخروج إلى الشعب الذي لاقيته فيه. فهو يمر من هناك مرتين في الأسبوع، وصافحت هذا الأسود النبيل — وأصله من غويانا — ثم قفز إلى الطريق.

قال فان هوه إلى الأمام. ودخلنا الغابة وأخذ اتجاهه بدون تردد وتقدمنا مهطعين،

لأن الغابة ليست مستعصية على الدخول، وكان يتحاشى قطع الأغصان والعرايش التي تعيقه بمنجله، بل كان يكتفي بإزاحة ما بينها.

كويك كويك

وفي أقل من ثلاث ساعات كنا أمام مستنقع للوحل، وفوقه أزهار النيلوفر وأوراقه. تبعنا حافة المستنقع فتعثرت، فقال لي فان هوه محذراً:

— انتبه من خطر الانزلاق وإلا تواريت ولن يكون لك أمل في الصعود.

أمامنا جزيرة صغيرة على بعد مئة وخمسين متراً والدخان يتصاعد من وسطها، وهو مكان تصنيع الفحم. اكتشفت تمساحاً صغيراً في الوحل لا تظهر منه سوى عينيه وتساءلت مم يتغذى هذا التمساح في الوحل؟

وبعد أن سرنا أكثر من كيلو متر على طرف هذا المستنقع توقف فان هوه وبدأ يغني بأعلى صوته غناءً صينياً، فتقدم شخص من حافة الجزيرة، قصير القامة لا يرتدي سوى بنطال قصير وتخطب الصينيان، وطال بينهما الكلام حتى فرغ صبري، وأخيراً توقفا. وقال فان هوه: تعال من هنا، فتبعته ورجعنا على أعقابنا كل شيء وفق هوانا. فهذا صديق كويك، وقد أخبر بأن كويك قد ذهب إلى الصيد ولن يتأخر في العودة. ويجب أن ننتظره هنا، فجلسنا. وبعد أقل من ساعة وصل كويك، وهو رجل قصير نحيل أصفر البشرة أنامي، ذو أسنان مصطبغة بلون أسود لامع وعينين تشعان ذكاء وصراحة.

— أنت صديق أخي شانغ؟

— نعم.

— تستطيع الذهاب يا فان هوه، فأجاب: شكراً.

— خذ معك هذا الحبل، لا. شكراً. فصافحني وانصرف.

كان كويك يقود أمامه خنزيراً وكنت أتبعه.

— احذر يا بابيون فأية زلة قدم أو خطأ وتختفي من الوجود. وإذا حصل حادث فلن يستطيع أحد أن يغث آخر. إذ يتوارى الاثنان معاً لا واحد، والطريق الذي نجتازه ليس ثابتاً لأن الوحل يتحرك. أما الخنزير فهو الذي يجد الممر الآمن وفي إحدى المرات اضطررت، لكي أمر، إلى الانتظار يومين.

وبالفعل كان الخنزير الأسود يشم ثم يخوض الوحل والصيني يكلمه بلغته، وكنت

مدهوشاً من رؤية هذا الحيوان الصغير يطبع كالكلب. كوك يراقب وأنا تتسع حدقتاي
ذهولاً إذ عبر الخنزير من الجهة الأخرى دون أن يغوص مقدار مستمر واحد. وفي سرعة
خاص صديقي الجديد بدوره وقال:

— ضع قدميك على آثار قدمي، ويجب الاسراع لأن الثقوب التي تركتها قوائم
الخنزير تنمحي على الفور. وعبرنا بغير مشقة ولم يصبني الوحل أكثر من ارتفاع الربلتين
وذلك عند نهاية المسافة فقط. كان الخنزير يطبع كلابتين طويلتين مما اضطرنا أن نمشي على
هذه القشرة الصلبة مسافة ممتي متر، وسال العرق من جميع أعضائي. ولا أستطيع القول
بأنني كنت خائفاً فقط بل كنت في الحقيقة في رعب، وفي القسم الأول من الطريق كنت
أتساءل: هل يكتب لي القدر مئة كميته سيلفان؟ كنت أتذكر المسكين في لحظاته الأخيرة.
وكنت في تمام اليقظة وأنا أنصوّر جسمه وربما لم تكن ملاحظته تختلف عن ملاحي. ما أشد
الانطباع الذي تركه هذا العبور في نفسي، ولا إخال أنني سأنساه.

— هات يدك. وهذا الرجل القصير لم يبقَ على جسمه سوى الجلد والعظم،
يساعدي على تسلق الجرف.

— حسناً يا صديقي. ليس هنا يبحث عنا القناصة.

— آه. من هذه الناحية كن مطمئناً.

دخلنا الجزيرة الصغيرة وكانت تفوح منها رائحة غاز الفحم، فتأخذ بخناتي،
فشرعت أفح من دخان مفحمتين تحترقان، لذا لا أخشى وجود البعوض ههنا. وهناك
كوخ صغير سقفه من ورق الشجر، وكذلك جدرانه من الورق المجدول حصائر وله
باب، وكان أمام الباب ذلك الرجل الهندي — الصيني، الذي رأيته من قبل، فقال لي:
«بونجو موشه» أي صباح الخير عزيزي.

— كلمه بالفرنسية لا باللهجة المحلية، إنه صديق أخي.

تفحصني الصيني — وهو نصف قطعة من رجل — من رأسي إلى أخمص قدمي،
وبعد أن اكتفى من التدقيق مد لي يده مبتسماً عن قم أردد^(١)
— أدخل واجلس.

وكان هذا المطبخ الفريد نظيفاً، وهناك شيء يطهى على النار في قدر كبيرة، وليس
في الكوخ سوى سرير واحد مصنوع من أغصان الأشجار يرتفع عن الأرض مقدار متر
على الأقل.

— ساعدي لنهيء له مكاناً للنوم هذه الليلة.

وانتهيا من صنع مضجعي في أقل من نصف ساعة. ووضعنا مائدة فأكلنا حساء
لذيذاً ثم أرزاً أبيض مع اللحم بالبصل.

(١) أسنانه متقلبة أو منكسرة.

هذا الشخص صديق كويك كويك هو الذي يبيع له فحم الخشب، ولاييت في الجزيرة، لذا ما إن هبط الليل حتى بقينا وحدنا أنا وكويك كويك.

— أجل لقد سرقت كل ما عند رئيس المعسكر من البط، وبسبب ذلك أنا هارب. ويستضيء وجهانا بين لحظة وأخرى بضوء نار صغيرة. وقد جلس أحدنا مقابل الآخر، وكنا نتجاذب أطراف الحديث، وكل منا يحاول معرفة الآخر وفهمه. وجه كويك لم يبق أصفر بل تحول بفعل الشمس إلى اللون البرونزي. أجفانه متجمدة وعيناه سوداوان لامعتان تحدقان جيداً عندما يتكلم، يدخن سيجاراً طويلاً يصنعه بنفسه من ورق التبغ الأسود. وتابعت تدخين سجائري التي كنت ألقها بورق الرز الذي جاء به ذلك الأبر. قال:

— أنا مضطر إذن إلى الفرار، لأن رئيس المعسكر صاحب البط يقصد قتل، وقد مضى على ذلك ثلاثة أشهر. والمصيبة أنني خسرت في الميسر لاثمن البط وحده، وإثما ثمن الفحم أيضاً.

— أين تلعب؟

— في الغابة. يجري اللعب كل ليلة بين الصينيين في معسكر اينيني والمطلق سراحهم الذين يأتون من الشلال.

— هل أنت عازم على ركوب البحر؟

— لا أبغي سوى ذلك، وعندما أبيع فحمي أفكر في شراء مركب. أوجد لي من يستطيع قياده ويرغب في الهروب معي، ولكن سيكون ذلك بعد ثلاثة أسابيع أي بعد أن أبيع الفحم تتمكن من شراء المركب ونبحر ما دمت تعرف القيادة.

— عندي المال يا كويك، وليس علينا أن ننتظر بيع الفحم وشراء المركب.

— إذن هذا أمر حسن، فهناك زورق جيد للبيع بألف وخمس مئة فرنك لرجل أسود يعمل حطاباً.

— حسن. هل رأيته؟

— نعم.

— وأنا أريد أن أراه.

— وسأذهب غداً لرؤية شوكولا، كما أسميه. حدثني عن هرويك بابيون. أتصور

أنه من المستحيل الهروب من جزيرة الشيطان. لم يأت أخي شانغ؟

فرويت له حكاية الهروب والموجة الكبيرة ليزيت وموت سيلفان.

— أفهم أن شانغ لم يشأ الذهاب معك لأنها حقاً مغامرة، إنك رجل ذو حظ

عظيم، لذا وصلت حياً إلى هنا، وأنا مسرور بذلك. تحاورنا ثلاث ساعات. ثم غمنا مبكرين لأنه ينوي الذهاب مع الفجر ليرى شوكولا، وقد وضع في النار حطبة كبيرة لتبقى النار متقدة في الليل. هيج الدخان سعالي، وأخذ بخناتي، ولكن المنفعة كانت في طرد البعوض. أغمضت عيني وأنا متمدد فوق مهجعي، وفوقي غطاء جيد وفر لي الحرارة، فلم

استطع يوماً، فأنا مهتاج جداً. فالهروب يجري بصورة حسنة، فإذا كان المركب في حالة حسنة فسأبحر قبل أن تنقضي ثمانية أيام.

كويك - كويك نحيل وقصير، وربما كان يتمتع بقوة خارقة وجلد على كل تجربة، ومن المؤكد أنه مخلص ومستقيم مع أصدقائه، ولكنه شديد جداً على أعدائه. ومن العسير قراءة وجه آسيوي فهو لا يعبر عن شيء، ومع ذلك فإن عينيه تنطقان بكرمه.

أغفيت، وحلمت بببحر تملؤه أشعة الشمس والمركب يختر عبابه نحو طريق الحرية وهو يهتز طرباً.

— أترغب في الشاي أم في القهوة؟

— ماذا تشرب أنت؟

— أشرب شاياً.

— إذن أعطني شاياً.

انبلج الصبح والنار لاتزال تستمر منذ أمس، والماء يغلي في وعائه، والديك يصيح بصوت مطرب وليس حولنا أصوات للطيور، وربما طردها دخان المفعمة، والخنزير الأسود نائم فوق سرير كويك كويك، ويظهر أنه خامل يجب النوم، والكعك المصنوع من الطحين والرز يشوى على الجمر وبعد أن سكبت لنفسي الشاي قطع صديقي كعكة نصفين، ودهنها بالسمن وقدم لي نصفاً وأفطرنّا حتى الامتلاء، فقد أكلت ثلاث كعكات ناضجة جداً.

— أنا ذاهب، فإن صاح أحد أو صفر فلا تحب، ولا تنغم في شيء إذ لا يستطيع أحد القدوم إلى هنا، ولكنك إذا ظهرت على شاطئء الحماة أمكن قتلك برصاصة بندقية.

نهض الخنزير على صراخ معلمه، فأكل وشرب، ثم خرج وتبعه، فاتجه رأساً نحو الوحل. ونزل من مكان بعيد عن المكان الذي وصلنا أمس منه، وبعد أن خطا عشرة أمتار، تراجع فلم يعجبه الممر. ولم يمر إلا بعد ثلاث محاولات. وعبر كويك كويك مباشرة إلى الأرض الصلبة بدون وجل. ولن يعود كويك كويك قبل المساء. فأكلت وحدي الحساء السذي وضعه على النار. جمعت من المدجنة ثمانى بيضات، فقليت ثلاثاً بالسمن النباتي.

غيرت الريح اتجاهها، والدخان المتصاعد من المفعمتين المقابلتين اتجه إلى الكوخ. ونزل المطر بعد الظهر فأريت إلى مضجعي الخشبي، ولم أكن مرتاحاً بسبب غاز الفحم.

في الصباح قمت بجولة في الجزيرة، وفي وسطها تقريباً بقعة جرداء واسعة ومفتوحة. أشجار ساقطة وخشب مقطوع تدلني على أن كويك يأخذ الحطب منها لصناعة الفحم. ورأيت أيضاً حفرة من الصلصال الأبيض الذي منه يستخرج حتماً التراب اللازم لتغطية الحطب ليحترق دون لهب، وانطلق الدجاج يرتاد هذه البقعة الجرداء.

رأيت جرذاً ضخماً فاراً من بين قدمي، وعلى بضعة أمتار وجدت أفعى ميتة طولها متران ولاريب أن الجرذ هو الذي قتلها.

كل هذا النهار الذي قضيته وحدي في الجزيرة كان سلسلة من الاكتشافات. مثال ذلك أنني وجدت أسرة من النمل: الأم وثلاثة من صغارها، وعشاً كبيراً للنمل كان ثائراً حولها. ورأيت عشرة من القروذ الصغيرة تقفز من شجرة إلى أخرى، ولدى وصولي أخذت هذه النسانيس تصرخ حتى كادت أكبادها تنشق.

عاد كويك كويك مساءً.

— لم ألتق بشوكولا، ولم أر مركبه. فربما ذهب لإحضار أغذية من قرية كاسكاد، حيث له منزل هناك. هل أكلت جيداً؟

— نعم.

— هل تريد مزيداً من الطعام؟

— لا.

— لقد أحضرت لك ربطتين من التبغ الرمادي لم أجد خيراً منها.

— شكراً. لافرق عندي. عندما يرحل شوكولا كم يطول غيابه في القرية؟

— يومين أو ثلاثة، ومع ذلك سأذهب غداً وكل يوم، لأنني أجهل وقت مغادرته.

وفي الغداة هطل المطر مدراراً. وهذا لم يمنع كويك من أن يرحل عارياً. فتأبط أمتعته مغلفة بقماش مشمع، فلم أرافقه. قال لي:

— ليس ضرورياً أن تبلل ثيابك.

أقلعت السماء، والشمس تشير إلى أن الساعة بين العاشرة والحادية عشرة. انهارت إحدى المفحمتين تحت سيل المطر الغزير. دنوت لأرى النكبة. لم يقو الطوفان على إطفاء الحطب كله فالدخان لا يزال يتصاعد من الكومة المشوّهة. وبغثة دعكت عيني قبل إعادة النظر إذ أن ما رأيته لا يتوقع: خمسة أحذية تبرز من المفحمة، ويلاحظ أنها وضعت عمودية على كعوبها، وفي كل حذاء قدم وساق. إذن هناك ثلاثة رجال قيد التضج في المفحمة. ولاداعي لتصوير رد الفعل الأول في نفسي: لقد شعرت بالبرودة تسري في ظهري. انحنيت ودفعت بقدمي بعض الفحم الذي لم يكتمل احتراقه فاكشفت القدم السادسة لقد أسرف كويك في الضربة. وأحال هؤلاء الأشخاص بالجملة إلى رماد. وكنت في غاية التأثر. فنأيت عن المفحمة، وذهب حتى وسط الغابة لأتعرض للشمس. فأننا في حاجة إلى الحرارة، وكنت في حرارة الشمس الخائفة أحس بالبرد، وبالحاجة إلى شمس استوائية، ولعل القاري يرى أن هذا غير معقول، إذ كان يجب أن أعرق في مثل هذا الموقف بدلاً من الشعور بالبرد. والواقع لا. لقد اجتاحت البرد المجدد كياني النفسي والجسدي وبعد ساعة تقريباً بدأت قطرات العرق تتساقط من جبيني. وكلما فكرت بعد أن أخبرته بما في حوزتي من مال، قلت في نفسي: بأية أعجوبة لازلت على قيد الحياة؟ ألا يكون قد احتفظ بي ليضعني في قاعدة مفحمة ثالثة؟

وتذكرت أن أخاه قد روى لي بأنه حكم عليه بالقرصنة والقتل على متن سفينة

شراعية، فهم عندما يهاجمون سفينة لسليها يقتلون كل من عليها بحجة أسباب سياسية. فهم إذن رجال قتل جماعي. ومن ناحية أخرى، إنني هنا مرتين وأجد نفسي في موضع حرج. لنجر الحساب: إذا قتلت كويك في الجزيرة، ووضعته بدوره في المفحمة، فلن يسمع أحد ولن يعلم أحد. ولكن هذا الخنزير المستأنس، لن يطيعني وهو لا يفهم الفرنسية. إذن لا سبيل إلى الخروج من الجزيرة، وإذا هددت الصيني فسوف يخضع ويخرجني من الجزيرة وهناك على الأرض الصلبة أقتله وأرمي به في الحماة ويختفي. ولكن ما الذي جعله يحرق هؤلاء الرجال ولم يلق بهم في الوحلة؟ وهذا أسهل. أنا لا أكثر بالحراس، ولكن أصدقائه الصينيين إذا اكتشفوا أنني قتلته فسوف يصبحون جميعاً من القناصة مضافاً إلى ذلك خبرتهم بالغابة، فإذا تعقبوا آثار إنسان فلن يكون الأمر سهلاً كاكل الحلوى. كويك لا يملك إلا بندقية ذات فوهة واحدة، تلك من أعلاها دكاً، وهي لا تفارقه، حتى حين يصنع الحساء، وينام وهو يعانقها ويحملها إذا ابتعد عن الكوخ لقضاء حاجة. لذا ينبغي أن تكون مدينتي مفتوحة دوماً، ولكن يجب أن أنام أيضاً. حسناً لقد اخترته ليكون لي شريكاً في رحلة الهروب.

ما ذقت الطعام طيلة اليوم، ولم أكن قد اتخذت قراراً حينها سمعت غناء، هذا كويك قد عاد. اختبأت خلف الأغصان فرأيت قادمًا يحمل فوق رأسه ربطة، في توازن تام، وعندما دنا كثيراً من الخافقة أظهرت نفسي، وقدم الطرد ملفوفاً بكيس طحين وهو يتسم، ثم تسلق من جهتي، وأسرع نحو الكوخ، فلاحقت به:

— بشرى سارة يا بابيون، لقد عاد شوكولا، ولما بيع المركب بعد، وقال أن حمولته أكثر من خمس مئة كيلو غرام دون أن يغطس. وما تحمله هي أكياس طحين لصنع الشراع والقلع المثلث. وهذه هي الربطة الأولى، وغداً سنحضر غيرها إذ ستذهب معي لترى المركب إذا كان يناسبك.

كان يقول هذا الكلام كله دون أن يلتفت، فمشينا مترادفين. أولاً الخنزير ثم هو وأخيراً أنا، ولا يبدو أنه يريد أن يرمي بي في المفحمة ما دام سيأخذني معه غداً لأرى المركب، وقد شرع في صرف بعض النفقات للهروب، فقد اشترى أكياس الطحين.

— اسمع. انهارت مفحمة بفعل وابل من الأمطار ولاشك، وهذا لم يدهشني. فلم يذهب إلى المفحمة بل دخل فوراً إلى الكوخ، فأرتج^(١) عليّ، ولم اتخذ قراراً في شيء. وإذا تجاهلت أنني رأيت شيئاً فهذا مقبول، وقد يبدو غريباً أنني لم أقترب من المفحمة طيلة النهار، وهي لا تبعد خمسة وعشرين متراً عن البيت. قال:

— أتركت النار تنطفئ؟

— أجل ودون انتباه مني.

— ولم تأكل؟

(١) استعصى علي القول.

- لا . لست جائعاً .
 - أنت مريض ؟
 - لا .
 - إذن لم تحتس الحساء ؟
 - كويك ! اجلس . لدي ما أقوله لك .
 - دعني أشعل النار .
 - لا . أرغب في الحديث معك قبل أن يحل الظلام .
 - ما وراءك ؟
 - ورائي أنه عندما انهارت المفحمة ظهر منها ثلاثة رجال نضجوا فيها . أعطني تفسيراً لهذا .

- آه . لهذا السبب أراك غريب الأطوار .
 ونظر إلي في وجهي بغير انفعال على الإطلاق . ثم أردف :
 وبعد هذا الاكتشاف لم تكن طبيعياً وأنا أيضاً محظوظ إذ لم تسدد لي طعنة في ظهري . اسمعني يا بابيون . هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا قناسة ، فمنذ أسبوع أو بالأحرى منذ عشرة أيام بعت كمية وافرة من الفحم لشوكولا . والصيني الذي رأيته يساعدني في إخراج الأكياس إلى الجزيرة . إنها حكاية معقدة . . . كنا نسحب بحبل طوله مئتا متر ، سلاسل من الأكياس التي تنزلق على الوحل . وباختصار ، ابتداء من هنا وإلى مسيل الماء حيث كان زورق شوكولا ينتظرنا ، تركنا خلفنا آثاراً ، إذ تسرب من بعض الأكياس غير المحكمة قطع من الفحم ، وحينئذ بدأ الرجل الأول بتمشيط المنطقة . ومن أصوات الحيوانات عرفت أن هناك أحداً في الغابة فرأيت دون أن يراني ، فعبرت من مكان مقابل لمكان وجوده ، ودرت نصف دورة ولم يكن صعباً علي أن أفاجئته من خلف فمات دون أن يرى الذي قتله . وكنت قد لاحظت أن الحمأة تلفظ الجثث التي غاصت فيها أولاً ثم تطفو على السطح بعد بضعة أيام ، لذا حملته ووضعت في المفحمة .
 - والآخرون ؟

١ - كان ذلك قبل وصولك بثلاثة أيام : في ليلة ليلاء ساكنة - وهذا قل أن يحدث في الغابة - كان هذان الرجلان حول المستنقع منذ غروب الشمس ، وكانت أحدهما تنتابه نوبات من السعال . وخلاصة القول إنني ذبحت القناص الأول فلم يند عنه صوت ، أما الآخر وهو مسلح ببندقية صيد ، فقد أخطأ في كشف نفسه ، وكان منهمكاً في تحري حرج الجزيرة ليرى ما يجري فيها فأردته بطلقة نار من بندقيتي . فلم يمت فأجهزت عليه بطعنة سكين في قلبه . هؤلاء هم الرجال الثلاثة بابايون الذين اكتشفتهم في المفحمة وهم عربيان وفرنسي ، وكان عبور الوحلة (وأحدهم فوق كتفي) أمراً عسراً . وعبرت كرتين ، لأنهما من الوزن الثقيل وأخيراً تمكنت من وضعهما في المفحمة .
 - هل هذا هو الذي حصل ؟

- نعم يا بابيون وأقسم لك.
- لم لم تلق بهم في الوحل؟
- إن الحمأة تلفظ الجثث، كما أسلفت القول، وتقع أحياناً وعول كبيرة فتطفو بعد أسبوع وتفوح رائحتها إلى أن تفرسها الطيور الجارحة فصراخها وطيرانها يسترعيان الانتباه. بابيون! من جانبي لانتحش شيئاً، أقسم لك ولكي تكون مطمئناً خذ البندقية إذا شئت.
- وكانت بي لهفة جامحة لأخذ السلاح، ولكنني سيطرت على نفسي وقلت وأنا على سجي قدر المستطاع:
- لا ياكورك! إن وجودي هنا يشعرني بأنني مع صديقي في أمان. وغداً يجب أن تعيد إحراق القناصة، إذ ما يدريك، ما قد يحصل عندما نغادر هذا المكان؟ لا أريد أن أتهم ولو غيباً بثلاث جرائم.
- نعم سأحرقها غداً، ولكن كن مطمئناً أن أحداً لن يظاً هذه الجزيرة، من المستحيل أن يمر دون أن يغوص.
- وإذا استعملوا عوامة مطاطية؟
- لم أفكر بهذا.
- وإذا جيء رجال الشرطة إلى هنا وأصبروا على المجيء إلى الجزيرة؟ صدقتي أنهم سيعبرون بعوامة. لهذا ينبغي التعجيل بالرحيل، قدر المستطاع.
- اتفقنا. غداً سأعيد إشعال النار في المفحمة، وهي أصلاً لم تنطفئ، وما علي إلا أن أقيم مدختين للتهوية.
- عم مساء يا كورك.
- طابت ليلتك بابيون. وأعيد عليك: نم جيداً وفي وسعك الوثوق بي.
- تغطيت بغطائي إلى ذقني، واستمتعت بالدفء الذي أحدثه، وأشعلت لفافة وفي أقل من عشر دقائق كان كورك يشخر، وخنزيره إلى جانبه يتنفس في قوة. وتوقف لهيب النار ولكن جذع الشجرة الذي تحول إلى جمر كان يحمر عندما يتسرب النسيم فيعطي انطباعاً من الدعة والصفاء، فاستعذبت هذه الرفاهية، فنمت وفي رأسي فكرة خلقية: إما أن استيقظ غداً وتجري الأمور على طبيعتها بيني وبين كورك، وإما أن الصبحي يمثل فنان أكثر من ساشاغيتري إذ روى هذه الحكايات ليخفي نواياه، وحينئذ لن أرى الشمس أبداً، لأنني عرفت الكثير عنه فرمما يضايقه ذلك.
- أيقظني المخلص بالقتل الجماعي، ويده قدح القهوة، وكان شيئاً لم يكن. حياني تحية الصباح بابتسامة نابعة من القلب. لقد أسفر الصبح.
- أشرب قهوتي وتناول كعكة بالسمن.
- وبعد أن أكلت وشربت، اغتسلت خارجاً، من ماء البرميل الذي لا يفرغ.
- هل لك في مساعدتي بابيون.

أجته بنعم دون أن أعرف السبب. سحبنا معاً أقدام الجثث التي لم يكتمل احتراقها. ولاحظت في صمت أن بطونها مبقورة. فالصيني الرقيق لابد أنه كان يبحث في المعنى عن الأنابيب التي تحجب فيها الأموال. هل هم حقاً من القناصة؟ لم لا يكونون من صيادي الفراش أو الطرائد؟ أقتلهم دفاعاً عن نفسه أم ليسرقهم؟ باختصار فكر بهذا. أعيد وضعهم في حفرة من المفحمة مغطاة جيداً بالخطب والصلصال. وفتحت مدخنتان للتهوية وعادت المفحمة إلى أداء عملها المزدوج: تحويل الخطب إلى فحم والجثث إلى رماد.

— هلم بنا إلى الطريق بابيون.

وجد الخنزير طريقه في قليل من الوقت، وعبرنا الحماة متتبعين ذيله. كنت أحس بغم شديد ساعة المخاطرة بالمرور فوق الوحل. إن غوص سيلفان ترك في نفسي أثراً عميقاً، بحيث لا أستطيع القيام بهذه المغامرة بدون كدر. وأخيراً خطوت خلف كويك كويك وأنا أترقب عرقاً بارداً، وكنت أضغ كل قدم مكان انطباع قدمه وبدون تفكير. يجب أن أمر حيثما يمر.

وبعد ساعتين من السير وصلنا إلى موضع شوكولا حيث كان يحتطب. لم نصادف أحداً في الغابة، لذا لم نكن مضطرين إلى التواري عن الأنظار.

— بونجو موشه

— بونجور كويك كويك

— كيف الحال؟

— على خير ما يرام.

— دع صديقي يرى المركب.

المركب قوي جداً، وهو من النوع المعد للنقل. وهو بالتالي ثقيل ولكنه قصير وعريض. غرست مديتي في كل مكان فلم تدخل في أي مكان أكثر من نصف سنتيمتر، فالخشب الذي صنع منه من النخب الأول.

— بكم تبعه؟

— بالفين وخمس مئة فرنك.

— أدفع لك ألفين.

— سعر مقبول.

— أليس لهذا المركب حيزوم^(١)؟ إنني أدفع لك خمس مئة فرنك إضافية إذا ركبت له حيزوماً وسكناً وصارياً طوله ثلاثة أمتار من الخشب الخفيف المرن، فمقنتتهي؟

— بعد ثمانية أيام.

(١) الحيزوم: الصدر، وحيزوم السفينة الخشبية التي تكون بمنزلة العمود الفقري لها.

— هاتان ورقتان من فئة الألف كل منهما، والثالثة من فئة خمس المئة سأقطعها جميعاً نصفين أعطيك النصف الآخر عند التسليم. احتفظ بثلاثة أنصاف عندك. اتفقنا؟
— اتفقنا.

— أريد كمية من «البيرمنغات» وبرميل ماء وسجائر وأعواد ثقاب وأغذية تكفي لأربعين رجلاً لمدة شهر كامل، من طحين وزيت وقهوة وسكر. وسأدفع لك ثمن هذه المؤونة على حدة، وتسلمني كل هذا على النهر في كورو.
— موشه! لا أستطيع مرافقتكم إلى مصب النهر.

— لم أسألك هذا. قلت لك أريد تسليم هذا المركب على النهر في ذاك الخليج الصغير. هذه هي أكياس الطحين والحبل والإبر وخيطان الشراع. وعدنا أنا وكويك إلى غيبتنا قبل حلول الظلام بدون مضايقات، وفي طريق عودتنا حمل الخنزير على كتفيه لأنه متعب.

أنا اليوم وحدي أيضاً مشغول بخياطة الشراع. سمعت صيحات فاختبأت في الغابة،! واقتربت من الحماة، ونظرت إلى الضفة الثانية. كان كويك يجادل المفكر ويقوم بحركات بيديه وأظنه يريد العبور إلى الجزيرة وكويك يعارضه. وفي يد كل منهما منجل، والأبتر أشدهما احتياجاً. وخفت أن يقتلني كويك، فقررت الظهور فصفرت، فاستدار نحوي.

— ماذا يجري يا كويك؟

قال الآخر: أريد التحدث معك يا بابيون. كويك كويك لا يدعني أمر. وبعد نقاش باللغة الصينية دام عشر دقائق تقدم الخنزير ووصل الاثنان إلى الجزيرة. جلسنا في الكوخ، وتناول كل منا قديحاً من الشاي، وأنا أنتظر أن يعزما على الكلام قال كويك: إنه يريد الذهاب معنا بأي ثمن. وأنا أفهمته أنني لأملك شيئاً في هذا الأمر، وأنت الذي تدفع وتتصرف في كل شيء، ولا يريد أن يصدقني.
— بابيون! إن كويك ملزم بأن يأخذني معه.

— لماذا؟

— هو الذي بتر لي ذراعي منذ ستين في معركة، في قضية لعب بالميسر، واستحلفني أن لا أقتله، فحلفت له بشرط واحد، وهو أن يؤمن لي قوتي ما دام حياً، وعلى الأقل بمقدار حاجتي. والآن إذا رحل فلن أراه أبداً، وهو إما أن يتركك ترحل وحدك وإما أن يصحبني معه.

— اسمع. أنا أقبل باصطحابك، فالركب متسع وجيد، ونستطيع أن نذهب أكثر من هذا العدد إذا شئنا، وإذا وافق كويك - كويك، فسوف أحملك معي.
— شكراً.

— ما رأيك يا كويك؟

— موافق إذا شئت أنت.

- هناك شيء هام . هل تستطيع الخروج من المعسكر دون أن يحس أحد باختفائك حتى لايفتشوا عنك على أنك هارب، وهل تقدر على أن تكون عند النهر ليلاً؟
- ليس في هذا أي عائق. أستطيع الخروج منذ الساعة الثالثة بعد الظهر وفي أقل من ساعتين سأكون على ضفاف النهر.
- كويك - كويك، هل تجد المكان ليلاً لنحمل صديقك في المركب بدون إضاعة الوقت؟

- أجل بدون شك.
- تعال بعد أسبوع لمعرفة يوم الرحيل.
ورجع الأبرر مجبوراً بعد أن صافحني. رأيتهما عندما افترقا عند الجرف الثاني وقد تلامسا بالأيدي.

تجري الرياح بما نشتهي . ولما أوى إلى البيت بادرت بالقول:
- إنك عقدت عقداً غريباً مع خصمك، فكيف ترضى أن تغذيه طول الحياة؟ إنه أمر غريب غير عادي . ولماذا قطعت له ذراعه؟
- خصومة بسبب اللعب.
- الأحسن لو قتلته.

- لا . إنه أعز صديق. في المجلس الحربي حيث مثلت من أجل هذا دافع عني بحرارة قائلاً بأنه هو الذي هاجمني، وإنني كنت في حالة دفاع شرعي . وأنا قبلت بالعقد دون إكراه، ويجب أن أحافظ على العهد بشرف. والشيء الوحيد الذي جعلني لا أجرؤ على مفاتحتك بموضوعه، هو أنك أنت الممول لهذا الهروب.
- لندع هذا الموضوع. وإذا وفقنا الله ونحمررت إن شاء الله، لك أن تفعل ما يطيب لك.

- سأظل صائناً لعهدي معه.
- ماذا تنوي أن تفعل إذا غدوت حراً؟
- سأفتح مطعماً، فأنا طباطخ ماهر، وهو مختص بأكلة (شوماين) وهو نوع من السباكيقي الصينية.

تركتني هذه الحادثة مستأنساً. وهذه الحكاية غريبة ومضحكة إلى درجة أنني لم أستطع منع نفسي من تنكيد كويك كويك.
وفي شوكونلا بوعده، فبعد خمسة أيام كان كل شيء جاهزاً، فذهبتا إلى رؤية المركب تحت وابل من المطر، فلا مجال للكلام، فالصاري والسكان والحيزوم كانت جميعاً قد ركبت أحسن تركيب بمواد من الدرجة الأولى، والمركب ينتظرنا عند منعطف نهري وعليه الغذاء والماء، وبقي إشعار الأبرر.

تكفل شوكونلا بالذهاب إلى المعسكر وإخباره، وتقاضياً من خطر الاقتراب من الضفة فإنه سيأتي بنفسه للقائه في المنتهى. مخرج نهر كورو معروف بمنازتيه العسكريتين. فإذا

أمطرت نستطيع الخروج دون أية مجازفة في وسط النهر بالضبط وبدون رفع الشراع طبعاً. لكلاً نكشف.

أعطانا شوكولا صباغاً أسود وريشة لرسم على الشراع (ك) كبيرة والرقم ٢١. هذه العلامة: ك-٢١ هي علامة مركب صيد يخرج أحياناً في الليل. وحينما ننشر الشراع عند الخروج إلى البحر، نلقي في روعهم أن مركبنا هو المركب الآخر. الموعد غداً في الساعة التاسعة عشرة، أي بعد الغروب بساعة واحدة أكد لي كويك كويك بأنه سيتعرف على الطريق وهو واثق من أنه سيقودني رأساً إلى المنتجأ. سنغادر الجزيرة غداً. في الساعة الخامسة، لنمشي في ضوء النهار ساعة، وعدنا إلى الكوخ مرحين. وكان كويك كويك يحمل الخنزير على كتفيه ولا يكف عن الكلام وهو لا يلتفت إلي، إذ كنت خلفه:

— أخيراً سأترك السجن وبفضلك وفضل أخي شانغ سأصبح حراً. وفي اليوم الذي يتم فيه جلاء فرنسا عن الهند الصينية^(١) أستطيع الرجوع إلى وطني. والخلاصة أنه يثق بي، وحين لاحظ أن المركب قد أعجبني فرح واستبشر.

نمت ليلتي الأخيرة في الجزيرة وأرجو أن تكون الأخيرة أيضاً في غويان. إذا خرجت من النهر وسلكت البحر أكون قد حلقت في جو الحرية بالتأكيد. والخطر الوحيد هو الفرق، إذ منذ نشوب الحرب، والبلدان الأخرى لاتسلم الفارين إلى حكوماتهم. فمن هذه الناحية على الأقل استفدنا من الحرب بعض الفائدة. وأذا سخر منا القدر فإننا سنواجه حكماً بالإعدام، هذا صحيح ولكن يجب أن يسبق ذلك توقيفنا.

فكرت في سيلفان، كان يجب أن يكون معي وبالقرب مني، لو لم يقترف هذه الرعونة. أغمضت عيني وأنا أنشيء هذه البرقية: «سيدني المدعي العام براديل، انتصرت وإلى الأبد على طريق العفن الذي رميته فيه، وقد استغرق ذلك تسع سنوات.» كانت الشمس لاتزال ماثمة عندما أيقظني كويك كويك داعياً إياي إلى الشاي والكمكة. العلب منثورة هنا وهناك، ورأيت قفصين من الخيزران.

— ماذا تريد أن تفعل بهذين القفصين؟

— أريد أن أضع فيهما الدجاج لنأكله في الطريق.

— هل أنت مجنون يا كويك؟ لن نأخذ معنا دجاجاً.

— بل سأخذها.

— هل غدوت مريضاً؟ لو اتفق خروجنا مع الصبح بسبب الجزر ماذا نفعل لو صاحت الديكة وقوقأت الدجاجات أو غنت، فوق النهر، فهل تقدر الخطر؟

— أنا لا أرمي بالدجاجات.

— اطبخها وضعها في الشحم والزيت لحفظها، وفي الايام الثلاثة الأولى سنأكلها.

(١) صار اسمها اليوم فيتنام. المترجم

اقتنع كويك، وراح يجمع الدجاجات، ولكن صراخ الأربع الأوليات أنذرت
الأخريات، فلم يستطع القبض على واحدة وأوت كلها إلى الغابة. سر من أسرار
الحيوانات التي تنبأ بالخطر ولا أدري كيف يتم ذلك؟
عبرنا الحمأة محملين كالبغال، خلف الخنزير، وكان قد رجاني أن نحمل الخنزير معنا
في السفينة.

— أنعاهدي على أن هذا الحيوان لن يصرخ؟

— أقسم على أنه لن يفعل. إنه يسكت عندما أمره. وقد حدث أن طاردنا النمر
مرتين أو ثلاثاً، وكان يدور ليفاجئنا، فزجرت الخنزير فلم يصدر عنه صوت، رغم أن وبر
جلده كان منتصباً من شدة الرعب.

اقتنعت بيقينه وقبلت باصطحاب الخنزير العزيز، وعندما وصلنا إلى الملتجأ كان
الظلام مخيماً، وكان شوكولا هناك ومعه الأبتري. والمصباحان الكهربائيان أتاحا لي التحقق
من كل شيء. فكل شيء تام. فحلقات الشراع داخلة في الصاري، والقلع في موضعه
ومهيأ للنشر. قام كويك كويك بالعمل الذي حددته له مرتين أو ثلاثاً، وقد تعلم، في
سرعة، ما أريده منه؛ ودفعت للأسود، وقد كان مستقيماً، وساذجاً حتى أنه أحضر معه
الورق اللاصق، وأنصاف الأوراق النقدية، وقد فاتته أنه في إمكاني استرداد المال. والناس
الذين لايسيئون الظن بالآخرين هم أنفسهم الطيبون والمستقيمون.

كان شوكولا رجلاً جريئاً وشريفاً، وبعد أن رأى معاملة السجناء لم يؤنبه ضميره
على مساعدته ثلاثة رجال على الهروب من هذا الجحيم.
— وداعاً شوكولا! أتمنى لك ولاسرتك حظاً سعيداً.
— شكراً جزيلاً.

وداع السجن هروب الصينيين

صعدت على ظهر مركب آخر. ودفعني شو كولا. تقدم المركب نحو النهر بدون مجاديف وقد كان معنا ما يشبه المجاديف، أمسكت أنا بواحد منها، وكويك كويك بأخر. وغرشنا النهر في أقل من ساعتين. المطر يطل منذ أكثر من ساعة، وكان معنا ثلاثة أكياس مدهونة فاستعصنا بها عن المسمع. جريان النهر سريع وفي مائه دَوَّارات، ورغم شدة التيار أصبحنا في وسط مجرى النهر وقد ساعدنا الجزر فمررنا بين المنارتين، فأدركت أن البحر بات قريباً، لأنهما كانتا في نهاية طرفي المصب. رفعنا الشراع والقلع في الهواء وخرجنا من نهر كورو دون مضايقات، وهاجمتنا الريح من جانبنا في شدة، اضطرتت معنا إلى توجيه الشراع بحيث تنزلق عليه الريح، فدخلنا البحر في عنف واجتزنا عنق الميناء كالسهم، ونأينا عن الشاطئ، وأمامنا على بعد أربعين كيلو متراً منارة رويال تدلنا على الطريق. فمئذ ثلاثة عشر يوماً كنت خلف المنارة في جزيرة الشيطان. هذا الخروج الليلي إلى البحر، وهذا الانفكاك السريع عن الأرض الكبرى لم يستقبلها رفاقاي الصينيان بالابتهاج أو بالتحية. أولاد السماء هؤلاء ليسوا مثلنا في التعبير عن مشاعرهم، ولما خرجنا إلى البحر اكتفى كويك كويك بالقول بصوت عادي:

«لقد أحسنا الخروج أيما إحسان» وأضاف الأبت: «نعم عبرنا إلى البحر في غير صعوبة تذكر».

— كويك! أنا ظمآن، قدم لي كأساً من الخمر.

ثم شربنا جرعة من الروم. لقد خرجت بغير بوصلة، ولكن رحلتي الأولى علمتني كيف اتجه حسب الشمس والقمر والنجوم والريح. وبدون تردد، والصاري موجه نحو النجم القطبي اندفعت نحو عرض البحر. كان المركب في حالة جيدة، يصعد الموجة في مرونة، وكانت الريح عاتية. وفي الصباح كنا بعيدين جداً عن الساحل وعن الجزر، ولولا

خشية المجازفة لدنوت من جزيرة الشيطان أتأملها جيداً من عرض البحر كما يحلو لي وأنا أتجاوزها.

قضينا ستة أيام في جو مكفهر وبدون مطر ولا عواصف، وقوة الريح دفعتنا في سرعة نحو الغرب. كويك كويك وفان هوه رفيقان رائعتان، لا يشكوان من سوء الطقس ولا من الشمس ولا البرد ولا الليل. غير أن هناك شيئاً واحداً يزعجني وهو أنها لا يرضيان بالقيادة ولو لساعات لاستطيع نوماً. يأكلان في النهار ثلاث أو أربع أكلات. الديوك والدجاجات لم يبق منها الاثر. وبالأمس قلت لكويك مازحاً «متى نأكل الخنزير؟» فأقام الدنيا وأقعدها، وقال:

— هذا الحيوان صديقي وقبل قتله لتأكله يجب قتلي أنا.

رفيقي ينشغلان بالقرب مني وهما لا يدخان، ليوفرا لي التدخين حين أشاء، وعندني شاي حار باستمرار، يفعلان كل شيء دون أن أطلب منهما شيئاً.

مضى على إقلاعنا سبعة أيام حتى عجزت عن الاحتمال، فالشمس تلفحني بلهبها، حتى الصينيان نهكتهما أشعتها، وأريد أن أنام. ربطت مقبض السكان وتركت جزءاً قليلاً من الشراع منشوراً، وجرى المركب رخياً.

ثمت وقبضتي مغلقة مدة أربع ساعات، استيقظت بعدها مذعوراً بهزة شديدة وحين أردت أن أغسل وجهي، فوجئت مفاجأة مقبولة، إذ لاحظت أن كويك قد حلق لحيتي وأنا نائم ولم أشعر، ووضع على وجهي تطرية بكل عناية.

منذ أمس أخذت اتجاه الغرب الجنوبي إذ حسبت أنني نزلت كثيراً نحو الجنوب. هذا المركب الثقيل بالإضافة إلى كونه يقاوم البحر، فإنه لا ينحرف بسهولة، إذ أنني قدرت وجود انحراف، وقد لا يكون هنا أي انحراف.

هذا منطاد مسير! ولأول مرة في حياتي أرى مثله. ولا يبدو أنه آت نحونا وهو بعيد جداً لا نستطيع تقدير حجمه.

إن الشمس التي تنعكس أشعتها على معدن الألومنيوم في المنطاد، بانعكاسات فضية لامعة، لا يستطيع البصر الثبات أمامها. لقد غير اتجاهه وكأنه يأتي نحونا، وهو في الواقع يزداد حجمه من سرعته وفي أقل من عشرين دقيقة كان أمامنا. ذهل كويك والأبتر من رؤية هذه الآلة، ولم يكفا عن الثرثرة باللغة الصينية.

قلت: تكلموا باللغة الفرنسية، اسم الله، لكي أفهم ما تقولان.

قال كويك: إنه منطاد إنكليزي.

— لا بل هو منطاد مسير.

أصبحنا نرى الآن هذه الآلة الضخمة بكل تفاصيلها على علو منخفض، وأخذت

تحوم فوقنا في دوائر صغيرة، وظهرت رايات، وأخذت تعطي إشارات، ولم نستطع الرد لأننا لا نفهم هذه اللغة. والمنطاد المسير يلح فيقترب منا أكثر حتى جاءت فحامت فوقنا مراراً، فهاج البحر حولنا، واشتدت الريح فجأة، والأفق مصح من كل صوب ولا خطر من نزول المطر.

قال الأبتر «انظرا».

— أين؟

— هناك. هذه النقطة التي قد تكون الأرض وقد تكون هذه النقطة مركباً.

— كيف عرفت ذلك؟

— إني أفترض هذا، وأقول من المحتمل أن تكون طرادة سريعة.

— لماذا؟

— لأنها لا تخرج دخاناً.

وبالفعل لمحا بعد ساعة سفينة حربية رمادية، تبدو متجهة نحونا ويزداد حجمها بالتدريج وهذا يدل على سرعتها الشديدة، مقدمتها في اتجاهنا حتى خفت أن تلامسنا عن كسب، وفي هذا خطر كبير، لأن البحر هائج، فإذا انحرفت معاكسة للموج أغرقتنا، إنها نسافة جيب. استطعنا قراءة كلمة (تاربون). عندما دارت نصف دورة ظهرت لنا بطولها كله تحمل العلم البريطاني، وهي عائمة الصدر، ثم أقبلت علينا متلدة من جهتها الخلفية وتوقفت في روية عند مستوانا وفي نفس سرعتنا ووقف معظم طاقمها على ظهرها، يرتدون الأزرق البحري الانكليزي وظهر ضابط بلباسه الأبيض ويده مضخم للصوت قريب من فمه وهو ينادي بالانكليزية: قفوا.. أنتم.. قفوا قلت لكوك: «أنزل الشراع» وفي أقل من دقيقتين طوي الشراع والقطع، وبدونها أوشك المركب على التوقف، والأمواج وحدها تنقلنا. ولا يمكن البقاء طويلاً على هذه الحال دون أن نتعرض للخطر، فالمركب الذي ليس فيه قوة دفع خاصة كالمحرك أو الريح لا يتجاوب مع السكان والأخطر من ذلك حين يكون الموج عالياً.

جمعت كفي مثل مكبر الصوت وصحت: كابتن! هل تتكلم الفرنسية؟

تناول ضابط آخر مجسم الصوت من الضابط الأول وقال: «نعم كابتن أتكلم

الفرنسية»

— ماذا تريدون؟

— ارفع مركبك إلى ظهر باخرتنا.

— لا. إن في هذا خطراً، ولا أريد أن يتحطم مركبي.

— باخرتنا حربية تراقب البحر وعليكم الطاعة.

— لا أكثر لأننا لا نحارب.

— الستم من الفرقى من سفينة نسافة؟

- لا. نحن هاربون من سجن ميناء فرنسي.
 - ماذا تعني كلمة سجن ميناء؟
 - حبس، تاديب، وفي الانجليزية هاردلابر.
 - نعم. نعم. لقد فهمت. آتون من كايين؟
 - نعم من كايين.
 - إلى أين تذهبون؟
 - إلى هندوراس البريطانية.
 - مستحيل. كان يجب أن تتجهوا جنوب - غرب، وتذهبوا إلى جورج تاون.
 - اطيعوا فهذا أمر.
 - حسناً (أو. كه).

طلبت من كويك رفع الشراع وسرنا بالاتجاه الذي دللتنا عليه النسافة. سمعنا صوت محرك خلفنا. إنه زورق بخاري انفصل عن الباخرة ولحق بنا مسرعاً. وكان أحد البحارة واقفاً عند صدر الزورق، وعلى كتفه بندقية بنجاحها^(١). أقبل الزورق من الجهة اليمنى ولا مسناً تقريباً، دون أن يتوقف أو يطلب إلينا التوقف، ويقفزة واحدة وثب البحار إلى مركبنا، وتابع الزورق سيره لاحقاً بالنسافة.

قال البحار بالانجليزية: نهاركم سعيد. ثم تقدم نحوي وجلس إلى جانبي ثم أمسك بالمقود ووجه المركب نحو الجنوب قليلاً، فتركت له مهمة القيادة، وأنا أراقب طريقة عمله إنه يجيد هذا العمل ولا ريب. وبقيت مكاني رغم كل شيء ونحن لا نعلم شيئاً.

- سجاثر؟ واخرج ثلاث علب سجاثر انجليزية وأعطى كلاً منا واحدة.
 قال كويك: لعمري لقد أعطوه علب السجاثر قبل أن ينزل إلينا، وإلا فليس ممكناً أن يتنزه وهو يحمل ثلاث علب.

ضحكت من تفكير كويك ثم انشغلت بالبحار الانجليزي الذي يحسن قيادة هذا المركب خيراً مني. وقد وجدت فراغاً للتفكير: لقد نجح الهروب هذه المرة إلى الأبد، فانا رجل حر، حر، وصعدت الحرارة إلى حلقي، وأظن أن الدموع تداعب عيني. حقاً إنني حر، وبصورة نهائية حيث أنه منذ بداية الحرب لم يسلم هارب إلى بلده، وقبل أن تضع الحرب أوزارها سأجد متسعاً من الوقت لأرد اعتباري وسوف أعرف في أي بلد سوف أستقر.

والعائق الوحيد، ربما كان في عدم القدرة على اختيار البلد الذي أرغب في البقاء فيه، في ظروف الحرب.

(١) نجاد السيف أو البندقية محالته.

لا ضير في ذلك، لا يهم أين أعيش، وفي زمن غير بعيد سأستعيد اعتباري وثقة الجمهور والسلطات بسلوكي في الحياة، السلوك الذي يجب أن يظل بعيداً عن العيب والنقصان أو بالأحرى يجب أن يكون مثالياً. إن الإحساس بالانتصار أخيراً على طريق العفن يستوجب أن لا أفكر في شيء آخر. وأخيراً لقد ظفرت يا بيبون بعد تسع سنوات. إنك ظافر حتماً. شكراً يا إلهي، وكنت قادراً على ذلك من قبل ولكن سبلك محوطة بالأسرار، فأنا راض عنك، ففضل عونك لا زلت شاباً معافاً وأصبحت حراً. بينما كنت أفكر في الطريق التي قطعتها خلال تسع سنوات في سجن الميتاء، يضاف إليها ستان قضيتها في فرنسا، وكان المجموع أحد عشر عاماً، أشار إلي البحار بيده وقال: «الأرض» وفي الساعة السادسة بعد أن تجاوزنا منارة مطفأة، دخلنا نهراً عظيماً هو نهر ديميرارا، وظهر لنا الزورق من جديد وسلمني البحار القيادة وذهب يحتل مركزاً في المقدمة، وتلقى في الهواء جبلاً ضخماً ربطه بالمقعد الأمامي. وأنزل بنفسه الأشرعة، وجرنا الزورق ببطء، وعاكسنا مجرى هذا النهر الأصفر مسافة عشرين كيلو متراً، وتبعنا النشاف على بعد مئتي متر. وبعد منعطف برزت لنا مدينة كبيرة فصاح البحار الانجليزي: جورج تاون.

ولقد دخلنا عاصمة غويان الانجليزية، يقطرن الزورق. ما أكثر سفن البضائع ومراكز المراقبة والسفن الحربية. وعلى ضفاف النهر انتصبت المدافع في الأبراج فكأننا في ترسانة للوحدات البحرية كما للوحدات البرية. إنها الحرب ستان والعالم في حالة حرب وأنا لا أحس بها.

جورج تاون عاصمة غويان الانجليزية، وهي مرفأ هام. وهي على أعتاب الحرب لا مناص وقد أثارت هذه المدينة المسلحة عجبني.

وما كدنا نحاذي مبنى تفريغ البضاعة حتى اقترب النشاف الذي تبعنا، وألقى مراسيه. صعدنا إلى الرصيف، وكويك يحمل خنزيره وفان هوه يحمل صرة يمينه وأنا لا أحمل شيئاً. لم يكن في هذا العنبر المخصص للبحارة أي رجل مدني. ليس فيه سوى البحارة والعسكريين. وصل ضابط سرعان ما عرفته، إنه الذي خاطبني باللغة الفرنسية من على النشافة. مد لي يده وقال هل أنت في صحة جيدة؟

— نعم يا كابتن.

— جيد جداً ومع ذلك لا بد من المرور على المركز الصحي لإجراء بعض الحقن لك ولصديقك.

جورج تاون الحياة في جورج تاون

بعد الظهر أجريت مختلف الطعوم، ثم نقلنا إلى مخفر شرطة المدينة وهو مركز مفوضية كبير وضخم حيث مئات من رجال الشرطة في غدو ورواح دون انقطاع.

استقبلنا المدير الأعلى لشرطة جورج تاون المسؤول الأول عن أمن هذا المرفأ. استقبلنا مباشرة في مكتبه وحوله ضباط انجليز يرتدون الكاكي والبنطال القصير والجوارب البيض وأشار إلينا المقدم أن اجلسوا أمامي، وقال بلغة فرنسية سليمة:

- من أين كان مقدمكم حين عثر عليكم في البحر.
- من سجن غويان الفرنسية.
- تفضل بذكر النقط التي فررت منها بالضبط.
- أنا من جزيرة الشيطان، والآخران من معسكر نصفه سياسي في إينيفي قرب كورو من غويان الفرنسية.

— ما الأحكام التي كنتم تقضونها؟

— مؤبداً.

— السبب: جريمة

— والصينيون؟

— جريمة قتل أيضاً

— الحكم؟

— مؤبداً

— المهنة؟

— كهربائي.

— والآخران؟

— طبّاخان .

— أنتم مع ديقول أم مع بيتان؟

— لا نعلم عن ذلك شيئاً، نحن كنا سجناء ونبحث الآن من جديد عن الحرية والعيش الشريف.

— سوف نخصص لكم زنازة تبقى مفتوحة طول النهار وطول الليل، وسوف نطلق سراحكم بعد تمحيص أقوالكم. فإن قلتم الحقيقة فلا تخشوا شيئاً. وأنتم تعلمون أننا في ظروف حرب، ونحن مضطرون إلى اتخاذ احتياطات لا نتخذها عادة أيام السلم.

وبعد ثمانية أيام أطلق سراحنا، واستفدنا من وجودنا في هذه الأيام الثمانية في مركز الشرطة للحصول على أمتعة جديدة. وفي الساعة التاسعة صباحاً كنا في الشارع في أحسن هندام ومعنا بطاقات شخصية وعليها صورنا.

تعداد سكان المدينة مئتان وخمسون ألفاً، وكلها تقريباً مبنية من الخشب على الطريقة الانجليزية. الطابق الأرضي من الإسمنت والبقية من الخشب. الطرقات والشوارع تعج بالناس من كل جنس: الأبيض والأسمر والأسود والهندي والخلاسي، والبحارة الأنجليز والأميريكيين الشماليين.

كنا مفتونين بهذه الجماهير المبرقشة، وقلوبنا طافحة بالفرحة التي تتم عنها وجوهنا حتى على وجهي الصينيين، وكان كثير من الناس ينظرون إلينا ويسمون بلبناس. قال كويك: أين تذهب؟

— معي عنوان تقريبي، فقد أعطاني شرطي أسود عنوان رجلين فرنسيين في نهر التوبة. والمعلومات تقول إنه في هذا الحي يعيش هندو فقط.

توجهت إلى شرطي يرتدي ملابس بيضاء نقية، فاطلعت على العنوان. وقبل أن يجيبنا، طلب منا البطاقة الشخصية فقدمتها له بافتخار.

— جيد جداً وشكراً.

وجشم نفسه مهمة إيصالنا إلى قطار كهربائي وحدث السائق بشأننا وهكذا خرجنا من مركز المدينة، وبعد عشرين دقيقة أنزلنا السائق، ويظهر أن هذا المكان هو المقصود. وفي الطريق سألنا «فرنش مان» أي فرنسي فأشار شاب أن اتبعوني، وساقني على خط مستقيم إلى بيت صغير متواضع، وما كدت اقترب حتى خرج ثلاثة رجال من البيت فاستقبلونا في حفاوة.

— كيف وصلت إلى هنا بابي؟

وقال أكبرهم سنأ وهو أشيب وغير ممكن. أدخل إلى بيتي، اهل الصينيان معك؟

— أجل.

— ادخلوا مرحباً بكم.

— يدعى هذا المحكوم العجوز أغيتو أوغست والمعروف باسم غيتو فقط. وهو

مرسيليا أصيل، وقد كان معي في نفس القافلة على الباخرة مارتينييز في العام ١٩٣٣. وها نحن نلتقي بعد تسع سنوات، وبعد هروب حافل بالشقاء. تحرر من عقوبته الرئيسية ثم هرب منذ ثلاث سنوات، حسبما روى لي. والآخران هما: بوتي لويس من آرلس، وجولو التولوني. وهما أيضاً غادرا بعد انتهاء عقوبتهما، ولكن فرضت عليهما الإقامة الجبرية في غويان الفرنسية مدة تساوي مدة العقوبة. أي عشر سنوات أو خمس عشرة (هذه العقوبة الثانية تسمى دوبلاج).

في المنزل أربع غرف: حجرتان وصالة، ومطبخ للطعام، ومشغل. إنهم يصنعون أحذية من المطاط الطبيعي المجموع من الغابة والذي يمكن صنعه وتكييفه بصورة جيدة جداً بعد تعريضه للماء الحار، غير أن عيبه أنه إذا تعرض لحرارة الشمس الشديدة يذوب إن لم يدخل الكبريت في تصنيعه، ويعالج هذا العيب، بإدخال قماش التوال بين طبقات المطاط.

استقبلنا غيتو استقبلاً بقلب نبيل هذبته المآسي. ورتب لنا نحن الثلاثة ودون تردد، غرفة نثوي فيها. وبقيت مشكلة التخزين، وادعى كويك بأنه لن يدنس البيت وأنه سيخرج لقضاء حاجته خارج البيت وهو واثق من ذلك.

قال غيتو: حسناً سوف نرى، احتفظ به الآن معك، وهيانا فراشاً على الأرض مؤقتاً من أغطية عسكرية قديمة. جلسنا نحن الستة أمام الباب ندخن ورحت أسرد على مسمع غيتو مغامراتي كلها منذ تسع سنوات. وكانوا جميعاً يسمعون بإصغاء شديد وكانهم يعيشون هذه المغامرات لأنهم يحسونها في تجاربهم الخاصة. اثنان منهم عرفا سليفان، وتحسرا بإخلاص على موته الرهيب.

كان الناس أمامنا من كل الأجناس يغدون ويروحون، ومن حين إلى آخر يدخل أحدهم ليشتري حذاء أو مكينة لأن غيتو وصاحبيه يصنعون أيضاً المكائن، ليكسبوا قوت يومهم. وعلمت منهم أن من بين من كانوا سجناء ثلاثين هارباً في جورج تاون يتلاقون ليلاً في مشرب في مركز المدينة، حيث يتعاطون شرب الروم أو الجمعة وكلهم يشتغلون في سبيل لقمة العيش. وبينما كنا نتنسم الهواء العليل أمام الباب في الظل مر صيني فناداه كويك وذهب معه دون أن يقول شيئاً، ثم تبعه الأتر فالتخزين. وعاد كويك بعد ساعتين ومعه حمار يجري عربة صغيرة. فأوقف الحمار متبهاً وصار يتحدث باللغة الصينية، ويبدو أن الحمار يفهم هذه اللغة. وفي العربة ثلاثة أسرة حديدية قابلة للتركيب وثلاثة فرش ووسائد وثلاث حقائب، والحقيبة التي قدمها لي كانت مترعة بالقمصان والسرراويل، وملابس جلدية وزوجان من الأحذية وربطات للعنق... الخ.

— أين وجدت هذا يا كويك؟

— أعطانا إياها بعض مواطنينا، وسوف نزورهم غداً. فهل لك في أن تصحبنا؟

— حاضر.

وانتظرونا أن يرجع كويك بالحمار والعربة ولكن شيئاً من هذا لم يحصل، إنما فك الحمار وربطه في الفناء وقال:

— وأعدوني كذلك الحمار والعربة، وقالوا لي إنني أستطيع أن أكسب عيشي بهذا. وغداً سيأتي أحد مواطني ليعلمني كيفية ذلك.

وسارع الصينيان إلى الانصراف. وقبل غيتو بوجود العربة والحمار في الفناء بصورة مؤقتة. وهكذا تجري الأمور على خير وجه.

في هذا اليوم الأول من الحرية وفي هذا المساء نخلقنا نحن الستة حول المائدة نأكل حساء بالخضار من صنع جولو وطبقاً من السباغيتي.

قال غيتو: كل واحد منا يقوم بدوره في غسل الصحون وتنظيف البيت. هذا الطعام المشترك رمز للتعاون المليء بالحماسة. وهذا الشعور بمعرفة التعاون في الخطوة الأولى من الحياة يشد من عزائمتنا. وكنت أنا وكويك والأبتر في منتهى السعادة. لقد وجدنا السقف والسرير والأصدقاء الكرماء الذين بلغوا في مساعدتنا غاية النبل على ما هم عليه من خصاصة فماذا نرجو أفضل من هذا؟

قال غيتو ماذا تنوي أن تفعل هذه الليلة بابيون! هل ترغب في النزول إلى مركز المدينة إلى ذلك المشرب (البار) حيث يلتقي الهاربون جميعاً.

— أؤثر البقاء هنا هذه الليلة. انزل إذا شئت ولا تزعج نفسك من أجلي.

— سأنزل للقاء أحدهم.

— سأبقى هنا مع كويك والأبتر.

ارتدى غيتو وبوتي لويس ثيابها ووضعاً ربطة العنق وانصرفا إلى المدينة. وبقي جولو وحده ينهي بعض الأحذية، قمت أنا وصديقاى بجولة في الطرقات المجاورة للتعرف على الحي. كل شيء هنا هندي وهناك قليل من الزنوج، وتكاد لا ترى رجلاً أبيض. وفي الحي بعض المطاعم الصينية.

اسم الحي «نهر التوبة» هو ركن من الهند أو جاوة. الشابات رائعات الجمال، والشيوخ يرتدون أثواباً بيضاً سابغات^(١) ومنهم من يمشي حافياً. إنه حي فقير ولكن ملابس الجميع نظيفة، والطرقات سيئة الإضاءة، والمشارب حيث يأكلون ويشربون، تغص بالرواد، والموسيقا الهندية يتردد صداها في كل مكان. استوقفتني رجل أسود في ثياب بيض ووضع ربطة عنق وقال:

— أنت فرنسي يا سيدي؟

— نعم.

(١) ضافية تصل إلى القدمين.

— يسرنى أن أصادف مواطناً لي. هل لك في كأس؟

— إذا شئت ولكن معي صديقاى.

— لا بأس، هل يتكلمان الفرنسية؟

— نعم.

— ها نحن أولاء جالسون على خوان يشرف على رصيف أحد المشارب. هذا المارتينيكي يتكلم الفرنسية أكثر انتقاء من لغتنا. قال: «يجب علينا أن نحذر الانجليز السود لأنهم جميعاً كاذبون وليسوا مثلنا نحن الفرنسيين. نحن كلمتنا كلمة شرف أما هم فلا.

وضحكت في سري من قول هذا الأسود «نحن الفرنسيين» ثم اضطربت فعلاً. لأن هذا السيد فرنسي تماماً بل هو أكثر أصالة منى لأنه يتحمس لجنسيته بحرارة وإيمان إنه قادر على التضحية بنفسه من أجل فرنسا أما أنا فلا. إذن هو فرنسي أكثر منى. لذا تابعت الحوار فقلت:

— إنه لما يسرنى أن أقابل مواطناً لي وأن أتحدث معه بلغتي لأننى لا أحسن التكلم بالانجليزية.

— أنا أستطيع التعبير بالانجليزية الدارجة وبحسب قواعد اللغة فإذا احتجت إلى شيء وجدتي رهن إشارتك. هل أنت هنا في جورج تاون منذ زمن طويل؟

— منذ ثمانية أيام لا أكثر.

— من أين أنت أنت؟

— من غويان الفرنسية

— مستحيل. هل أنت هارب؟ أم حارس سجن تريد الالتحاق بديغول؟

— لا. أنا هارب.

— وصديقاك؟

— هما أيضاً مثلي.

— يا سيد هنري لا أرغب في معرفة ماضيك، فنحن في هذا الظرف نريد مساعدة فرنسا والبذل من أجلها. أنا مع ديغول، وانتظر الإبحار إلى إنجلترا. تعال للقائي غداً في نادي مارتيز، وإليك العنوان ويسعدني أن تنضم إلينا.

— ما اسمك؟

— هومير.

— يا سيد هومير، لا أستطيع اتخاذ قرار حاسم. يجب أولاً أن أتقصى أخبار أهلي، وكذلك، قبل اتخاذ قرار خطير، يجب تحليله. وأنت ترى يا سيد هومير أن فرنسا عذبتني كثيراً، وعاملتني بصورة لا إنسانية.

حاول المارتينيكي إقناعي بحمية وحرارة نابعتين من قلبه. إنه لمن المؤثر حقاً أن يسمع المرء حجج هذا الرجل لمصلحة فرنسا الجريحة.

عدنا إلى البيت متأخرين جداً وغمث وأنا أفكر في كل كلمة قالها هذا الفرنسي العظيم. ويجب أن أفكر جدياً فيما عرضه. إن رجال الشرطة والقضاة والإدارة التأديبية ليسوا هم فرنسا، وأحسست في ضميري أنني لا زلت أحبها، وكفي القول بأن الألمان في فرنسا كلها. يا إلهي ما أكبر عذاب أقرباتي وأي عار لحق بالفرنسيين جميعاً. عندما استيقظت كان كويك قد ذهب بحماره وخنزيره وصاحبه الأبت. - سألني غيتو وصاحبه: هل غمث جيداً.

- نعم وشكراً.
- أيهما تفضل القهوة السوداء مع الحليب أم الشاي؟ أم أنك ترغب في القهوة وشرائح الخبز مع الزبدة؟
- شكراً.

أكلت وأنا أنظر إليهم يشغلون. جولو يحضر كتلة المطاط كلما احتاج إلى ذلك يضع قطعاً قاسية في الماء الحار فيمزجها بكتلة رخوة. بوتي لويس يحضر قطع القماش وغيتو يصنع الخذاء.
- أنتتجون كثيراً؟

- نحن نشغل فنكسب عشرين دولاراً، خمسة منها للمسكن والغذاء وتبقى خمسة لكل واحد منا لمصاريفه الخاصة واللباس والاستجمام.
- هل تبيعون كل شيء؟

- لا. يذهب أحدنا أحياناً لبيع الأحذية والملابس في شوارع جورج تاون. إن البيع مشياً على الأقدام، وفي القبط، لشيء عسر.
- إذا لزم الأمر قمت أنا بهذا العمل. لا أريد أن أكون عالة عليكم، يجب أيضاً أن أساهم في كسب لقمة العيش.
- حسناً يا بابي.

كنت أطوف سحابة نهاري في الحي الهندي في جورج تاون. رأيت إعلاناً كبيراً لإحدى دور السينما. انتابني رغبة جامحة في رؤية وسماع فيلم ناطق وبالألوان لأول مرة في حياتي، وسأطلب من غيتو أن يصحبني هذا المساء. وتجولت في طرقات نهر التوبة طول النهار. وقد راق لي تهذيب هؤلاء الناس للغاية. إنهم يتسمون بسمتين: النظافة والتهذيب. هذا النهار الذي أمضيته وحدي في طرقات هذا الحي في جورج تاون، هو أعظم في نظري من وصولي إلى ترينيداد منذ تسع سنوات. في ترينيداد وفي وسط هذه المشاعر الرائعة بسبب الاختلاط مع الناس، كان يتردد في ضميري سؤال ثابت: سيأتي يوم بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر وأغادر فيه عائداً إلى البحر، فأي بلد سيقبلني؟ وهل هناك دولة تعطيني حق اللجوء؟ وما عسى أن يكون المستقبل

أما هنا فالأمر مختلف جداً. فانا حر بصورة حاسمة، وأستطيع إن أردت، السفر إلى

بريطانيا، وأنضم إلى القوات الفرنسية الحرة. ماذا أفعل؟ لو أنني عزمت على الالتحاق
بديغول ألا يقولون إنني ذهبت إليه لأنني لم أجد لنفسي مستقراً؟ وفي وسط أناس سليمين
ألا يعاملونني معاملة سجين لم يجد ملتجداً. فهو بينهم لهذا السبب؟

قيل إن فرنسا انقسمت شطرين: مع بيتان أو مع ديغول. كيف لا يعرف مارشال
فرنسا أين شرف فرنسا وأين مصلحتها؟ ولو انتسبت يوماً ما إلى القوات الحرة، ألا أكون
مضطراً فيما بعد أن أطلق النار على فرنسيين؟ وعندئذ سيكون قاصياً وقاسياً جداً اتخذ
موقف مرض.

غيتو وجرّلو وبوتي لويس هم أبعد الناس عن الغباء، فهم يشتغلون مقابل خمسة
دولارات في اليوم. يجب أولاً أن اعتاد عيش الحرية، فمذ العام ١٩٣١ - ونحن الآن في
العام ١٩٤٢ - وأنا سجين، وليس في وسعي منذ اليوم الأول من إطلاق سواحي أن
أحل كل هذه المجاهيل، بل لا أعرف المشاكل الأولى التي تنطرح على رجل ليجد
مكاناً له في الحياة. لم أشتغل قط في عمل يدوي إلا ما ندر من أعمال الكهرباء وأي عامل
كهربائي يفهم في الكهرباء أكثر مني. يجب أن أعاهد نفسي على شيء واحد: أن أعيش
نظيفاً.

كانت الساعة السادسة عندما عدت إلى البيت.

- إيه بابي! اليس جيلاً أن يتذوق المرء طعام الحرية؟ ويستنشق نسيمها؟ هل تمحلت
جيداً؟

- أجل يا غيتو لقد طفت طرقات هذه المدينة كثيراً.

- هل رأيت صابحيك الصينيين؟

- لا.

- إنها في الغناء. فهما نشيطان ومدبران، لقد كسبا أربعين دولاراً. وبذلا ما في

وسمهما لإعطائي عشرين دولاراً، فرفضت طبعاً. اذهب إليهما.

كان كويك مشغولاً بتقطيع ملفوفة لختزيره والأبتر يغسل الحمام المستسلم وهو

سعيد.

- أأنت في خير بابيون؟

- نعم وأنتما؟

- نحن مسروران جداً. فقد كسبنا أربعين دولاراً.

- ماذا فعلتما؟

- لقد ذهبنا منذ الساعة الثالثة صباحاً إلى الريف، يصحبنا أحد مواطنينا ليطلعنا

على العمل وأحضر معه مئتي دولار. اشترينا بها بندورة وخساً وباذنجاناً، وباختصار من

كل أنواع الخضار الغضة. واشترينا بعض الدجاج وبيضاً وحليب ماعز، ثم ذهبنا إلى

السوق القريب من مرفأ المدينة، وبعنا أولاً أهالي البلد، ثم بعنا قليلاً للبحارة الأمريكيين وكانوا مسرورين جداً من أسعارنا. وغداً لن أدخل السوق، لأنهم طلبوا مني أن أنتظرهم عند باب المرفأ، وسوف يشترون مني كل شيء. خذ هذا هو المال. فأنت دوماً رئيسنا الذي ينبغي أن يحفظ المال.

— أنت تعلم يا كويك أنني أملك المال ولست في حاجة إلى هذا.

— احتفظ بهذا المال وإلا توقفنا عن العمل.

— اسمع. إن هؤلاء الفرنسيين يعيشون تقريباً بخمسة دولارات. ونحن سنأخذ كل منا خمسة دولارات، ونُدفع خمسة للمسكن والمأكل، وما تبقى ندخره لكي نرد مئتي الدولار التي اقترضتها.

— اتفقنا.

— وغداً أريد الحضور معكم.

— لا. أنت ابقِ نائمًا، وإذا شئت ستلقانا في الساعة السابعة أمام بوابة المرفأ.

— حسنًا.

كان الجميع سعداء. أولاً نحن، إذ عرفنا أننا سوف نتمكن من كسب عيشنا، ولن نكون عائلة على أصدقائنا، وبالتالي فإن غيتو والآخرين رغم سلامة طويتهم لسوف يتساءلون: متى نصبح قادرين على كسب رزقنا.

— لكي نحفل بعمل صديقك البطولي سأصنع لترين من شراب الباسي.

ذهب جولو ثم عاد ومعه كحول أبيض مصنوع السكر، ومواد أخرى، وبعد ساعتين شربنا الباسي على نحو ما يفعلون في مرسيليا. فارتفعت الأصوات، بتأثير الكحول، وتعلت ضحكات الفرح بالحياة، على غير المعتاد، وكان هناك جيران هنود، فسمعوا بأن الفرنسيين يحتفلون فأتوا من غير كلفة، وحضر ثلاثة من الرجال وفتاتان دون دعوة من أحد، وأحضروا معهم لحماً مشوياً، ودجاجاً ولحم خنزير كثير التوابل. وكانت الفتاتان تتمتعان بجمال أخاذ، وهما حافيتان، وتزينان بالخلاخيل الفضية في القدم اليسرى. قال لي غيتو: احترس إنهما فتاتان حقاً، احذر الاسترسال في الكلام الجريء وخاصة أن لباسهما يشف عن التهدين قليلاً، وهذا عندهم أمر عادي. أما أنا فقد جاوزت سن الشباب، ولكن جولو وبوتي لويس حاولا في بداية عهدنا بهذا السكن، فأثارتا ضجة وظلنا زمناً محجمتين عن الحضور.

كانت هاتان الهنديتان رائعتي الجمال، وفي وسط الجيين نقطة وشم تسميها بطابع غريب. تحدثتا معنا في دماثة، وبالقليل مما أعرفه من اللغة الانجليزية فهمت أنهما ترحبان بنا في جورج تاون.

ذهبت هذه الليلة أنا وغيتو إلى مركز المدينة وكأنه عالم آخر يختلف عن المكان الذي

نقيم فيه، هذه المدينة تغص بالناس البيض والسود والصين والهنود والجنود والبحارة من مدنيين وعسكريين.

وفي المدينة عدد كبير من المشارب والمطاعم والحانات والعلب الليلية التي تضيء الشوارع بأنوارها المبهرة فتحيل الليل نهاراً.

وبعد السهرة التي حضرتها لأول مرة في حياتي بمشاهدة فيلم ملون وناطق. وكنت مفتوناً بهذه التجربة الجديدة.

تبعث غيتو الذي ساقني إلى مشرب كبير حيث كان عشرون فرنسياً يحتلون ركناً من القاعة وشراهم الكحول مع الكوكا كولا. وكل هؤلاء هاربون من السجن وبعضهم هرب بعد إطلاق سراحهم وقد أنقذوا مدة عقوبتهم، وكان عليهم أن يقضوا مدة تساويها في الإقامة الجبرية (دوبلاج)، لأنهم كانوا يتضورون جوعاً هناك ولا عمل لهم وكانوا محتقرين في نظر المجتمع الرسمي والشعبي الغوياني. بسبب هذا كله آثروا الرحيل إلى بلد يظنون أنهم يعيشون فيه عيشة أفضل. ولكن في هذا منتهى القسوة كما قالوا لي:

— أنا اقتطع الحطب من الغابة مقابل دولارين ونصف في اليوم، عند جون فرناندس. وأنزل كل شهر إلى جورج تاون لأقضي أسبوعاً. وأنا يائس.
— وأنت؟

— أجمع مجموعات من الفراشات أصطادها من الغابة، وعندما تصبح عندي كمية من الفراش، أرتبها في علبة غطاؤها من الزجاج وأبيع المجموعة.

وآخرون يعملون في المرفأ في تنزيل البضائع. كلهم يشتغلون ولكنهم لا يكسبون أكثر من كفاف يومهم، وقالوا إن الحياة قاسية ولكنها تهون مع الحرية، فما أحل الحرية! جاء هذا المساء أحد المبعدين واسمه فوسار ودفع ثمن المشروب عن الجميع. كان على متن باخرة كندية محملة بالبوكسيت^(١) وكانت قد أصيبت لدى خروجها من نهر ديميرارا، وبقي حياً ونال تعويضاً لأنه تعرض للغرق على حين معظم طاقم السفينة قد غرق، أما هو فقد أسعفه الحظ إذ قارب النجاة؛ وروى أن غواصة ألمانية قد عامت على السطح وخاطبتهم وطلبت منهم معرفة عدد السفن المتواجدة في الميناء والتي تنتظر الخروج محملة بالبوكسيت. فأجابوا بأنهم لا يعلمون. والرجل السائل أغرق في الضحك وقال: بالأمس كنت في دار للسبينا واسمها كذا في جورج تاون، وما هوذا النصف الثاني من تذكرة الدخول. وفتح سترته وقال: هذا اللباس من جورج تاون، ولكن الجاحدين صاحوا: هذه خدعة. وأصر فوسار وهذه حقيقة بالتأكيد.

(١) أكسيد مهادج من الألومين والحديد: المترجم.

وأنذرتهم الغواصة بأن المركب الفلاني سيأتي لإنقاذهم، وبالفعل تم إنقاذهم بوساطة المركب المشار إليه.

وكان كل واحد يسرد حكاية وأنا جالس مع غيتو إلى جانب باريسي كهل من الهال. قال لنا بأن بوتو لويس من شارع لومبارد.

— يا عزيزي بابلون! أنا دبرت وسيلة للرزق دون أن أقوم بعمل، وخلاصة ذلك: عندما أطلع في الصحف خبراً يقول: مات أحد الفرنسيين «في سبيل الملك والمملكة» كنت أذهب إلى أحد نحائي رخام القبور وأرسم على رخامة اسم الباخرة وتاريخ غرقها واسم الفرنسي ثم أصور هذه اللوحة الرخامية وأطوف بها على دارات^(١) الأغنياء الانجليز وأطلب إليهم المساهمة في شراء نصب تذكاري للفرنسي الذي ضحى بنفسه في سبيل فرنسا وبريطانيا، حتى يبقى ذكرى له في المقبرة، واستمر هذا حتى الأسبوع الفائت إذ ظهر فرنسي بروتوني كلب كان اسمه قد ذكر في القتل ظهر على الملاح حياً بل يتمتع بصحة جيدة. وقام بزيارة لبعض النساء اللاتي أخذت من كل واحدة منهن خمسة دولارات من أجل هذا الميت، الذي أخذ يثرثر في كل مكان بأنه في صحة جيدة، وبأنني لم أشتري قط من النحات قبراً. لذا وجب أن أبحث عن عمل لأعيش. وأنا لا أقوى على شيء في سني هذا.

وقد ساعد الكوبيون الأحرار على إشاعة أخبار ملفقة، ظناً منهم أننا وحدنا نفهم اللغة الفرنسية.

وقال آخر: «أنا أصنع الدمى من المطاط، وقبضات الدراجات. ولسوء الحظ عندما ينسى الأطفال دماهم في الحديقة تحت أشعة الشمس فإنها تذوب أو تتشوه وتكون الفضيحة عندما أنسى أنني بعت بضاعتي في شارع ما، ومنذ شهر وأنا لا أستطيع المرور نهراً في نصف شوارع المدينة، وحال الدراجات ليست بأفضل فمن تركها في الشمس وعاد ليمسك بها التصقت مقابضها — التي بعتها — في راحتيه». وقال آخر: «أما أنا فقد كنت أصنع سياطاً تمثل مقابضها رؤوس زنجيات وكنت أقول للبحارة بأنني أحد الذين نجوا من المحيط الكبير، وعليهم أن يشتروا من هذه السياط، وليس من ذنهم أنني بقيت على قيد الحياة. وهكذا كان معظمهم يشترون مني».

هذه الساعة العصرية للأعاجيب كانت تسليتي، وكانت في الوقت نفسه تربي أن اللقمة ليست سهلة التناول.

(١) فيلات

فتح أحدهم الراديو فسمعنا نداء من ديفول، وكان الجميع يصغون إلى هذا الصوت الفرنسي من لندن وهو يستحث فرنسي المستعمرات وما وراء البحار. وكان النداء مؤثراً فلم ينطق أحد بكلمة. وفجأة نهض أحدهم وقد لعبت برأسه الخمرة فقال: «أيها القذرون، أيها الأصدقاء لا بأس في هذا لقد تعلمت الانجليزية دفعة واحدة وفهمت كل ما قاله تشرشل» فضج الحضور بالضحك ولم يكلف أحد نفسه إعادته إلى الصحو من سكرته.

أجل ينبغي أن أقوم بالمحاولات الأولى لكسب الرزق، وهو أمر، أراه من خلال الآخرين صعباً. ولست قلقاً البتة، فمن العام ١٩٣٩ وإلى العام ١٩٤٢ خسرت الشعور بالتبعة وفقدت حسن التصرف دون الاستعانة بالآخرين. إنسان عاش في السجن طويلاً دون أن يهتم بشيء من أكله أو مسكنه أو ملبسه. إنسان حركوه وأداروه وعودوه أن لا يفعل شيئاً بنفسه وعلى أن ينفذ بانقياد تام أوامره المتبانية دون أن يمللها. هذا الإنسان الذي ألقى نفسه فجأة في مدينة كبيرة وعليه أن يتعلم من جديد كيف يمشي على الرصيف دون أن يصدم أحداً، أو أن يجتاز الشارع دون أن يعرض نفسه للدهس، وأن يقدم له الطعام والشراب حسب أوامره ثم لا يجد في ذلك شيئاً غير عادي. هذا الإنسان يجب أن يتعلم من جديد كيف يعيش. فهناك مثلاً ردود أفعال غير متوقعة.

بين هؤلاء المحكومين المتحررين أو المبعدين الهاربين الذين يمزجون بلغتهم لكنة انجليزية أو إسبانية، كنت أصغي بكل جوارحي إلى قصصهم.

وفجأة في هذا الركن من المشرب (البار) الانجليزي أحس بحاجة إلى الذهاب إلى المراحيض. حسناً. ولكن حدث شيء لا يمكن تصوره، ففي مدة لا تتجاوز ربع الثانية بحثت عن المراقب لاستأذنه قبل الذهاب. وكانت فكرة خاطئة ولكنها لو تحققت لكنت مهزلة. وقلت لنفسني: بابيون! ليس عليك الآن أن تستأذن أحداً إن ذهبت إلى المراض أو أردت أن تفعل أي شيء آخر.

وكذلك في السينا حيث كانت المضيئة تبحث لنا عن أمكتنا للجلوس، فمر بخاطري مرور البرق هذا القول: أرجوك لا تزعجي نفسك من أجلي فما أنا سوى من ذوي السوابق لا استحق أي التفات.

وفي طريقي من السينا إلى المشرب كنت أتلفت مراراً فقال لي غيتو وهو يعرف هذا الميل عندي: لم تكثر من الالتفات إلى خلفك؟ هل تتوقع أن يتبعك حارس؟ لا حراس هنا يا عزيزي بابيون، لقد تركتهم في السجن.

في لغة السجن المعبرة يقولون: يجب التعري من ثياب السجناء. بل يجب الذهاب إلى

أبعد من ذلك لأن ملابس السجين ليست سوى رمز، إذن لا ينبغي أن ينزع المحكوم رداءه وحسب إنما يجب أن يستأصل من عقله وروحه نقطة العار الموسومة بالنار. دخلت إلى المشرب دورية من الشرطة الانجليز السود، وشرعوا ينتقلون من خوان إلى خوان ويتشبتون من هويات الموجودين. وعندما وصلوا إلى الركن الذي نحن فيه نظر رئيسهم إلى الوجوه بإمعان فرأى وجهاً لا يعرفه، هو وجهي، فقال:

— بطاقتك الشخصية، إذا سمحت، يا سيد.

فقدمتها إليه، فالتقى عليها نظرة وأضاف: معذرة، فانا لا أعرفك. أهلاً بك في جورج تاون، ثم انسحب، وبعد ذهابه قال بول السافواثي:

— هؤلاء الانجليز رائعون. إن الغرباء الوحيديين الذين يثقون بهم ثقة تامة هم السجناء الهاربون. وحين تثبت للسلطات الانجليزية أنك هارب تحصل على حريتك فوراً.

رغم أننا تأخرنا في العودة إلى المنزل، فقد كنت في اليوم التالي في الساعة السابعة صباحاً أمام بوابة المرفأ الرئيسية. وبعد أقل من نصف ساعة وصل كويك والأبتر ومعهما العربة محملة بالخضار الغضة المقطوفة في نفس ذلك الصباح، ومعهم كذلك دجاج وبيض، وكانا وحدهما فسألتهما عن مواطنهما الذي عليه مهمة تدريبها فأجاب كويك:

— لقد أرشدنا بالأمس وهذا يكفي ولسنا اليوم في حاجة إلى أحد.

— أجنث بكل هذا من بعيد؟

— أجل. من بعد مسيرة ساعتين ونصف الساعة. غادرنا الساعة الثالثة صباحاً فوصلنا

لتونا.

واستطاع كويك أن يجد بائع الشاي والكعك.

جلسنا على الرصيف قرب العربة نأكل ونشرب بانتظار الزين.

— هل تعتقد بأن أميريكسي الأمس سيأتون؟

— أمل ذلك، وإن لم يفعلوا سابع للآخرين.

— والأسعار ماذا تفعل من أجلها؟

— الأفضل أن لا أحدد سعراً بل أقول كم تدفع؟

— ولكنك لا تعرف اللغة الانجليزية

— هذا صحيح. ولكنني أستطيع تحريك أصابعي ويدي وهذا سهل.

— نعم ولكن أريد أن أراك كيف تفعل.

ولم يمض وقت طويل حتى أقبلت سيارة جيب كبيرة، سائقها معاون ضابط، ومعه بحاران أدنى مرتبة. صعد معاون الضابط فوق العربة وتفحص كل شيء: الخس والباذنجان الخ وفتش كل حزمة وجس الدجاج.

— بكم الجميع؟

وبدأت المساومة. كان البحار الأمريكي يتكلم من أنفه فلم أفهم منه شيئاً، وكويك بمعجم بلغته وبالفرنسية. ولما رأيت أنها لم يتوصلا إلى الفهم، ناديت كويك جانباً وقلت:

— كم دفعت ثمن البضاعة كلها؟

فتش جيوبه فوجد سبعة عشر دولاراً، فقال لي: دفعت مئة وثلاثة وثمانين دولاراً.

— وكم يدفع لك؟

— أظن مئتين وعشرة، وهذا قليل.

تقدمت نحو الضابط فسألني إن كنت أتكلم اللغة الانجليزية فقلت قليلاً، وطلبت منه أن يتكلم ببطء فقال:

— (أو — كه) اتفقنا.

— كم تدفع؟ لا. بمئتين وعشرة غير ممكن. نبيع بمئتين وأربعين.

فلم يرض، وتظاهر بأنه ذاهب، ثم عاد وصعد إلى سيارة الجيب، وأحسست أنه يقوم بتمثيلية وفي اللحظة التي نزل فيها من السيارة مجدداً، وصلت الجارتان الهنديتان وهما في نصف حجاب ولا شك أنها شاهدتا المشهد، فتجاهلتا معرفتنا، فصعدت إحداهما إلى العربة وتفحصت البضاعة وتوجهت إلينا بالخطاب.

— بكم الجميع؟

— بمئتين وأربعين دولاراً.

— حسناً.

ولكن الأمريكي أخرج المبلغ وقدمه لكويك قائلاً للهنديتين بأنه اشترى. ولم تنصرف الفتاتان بل كانتا تنظران إلى الأمريكيين وهم يفرغون العربة من البضاعة ليضعوها في السيارة الجيب. وفي اللحظة الأخيرة أخذ أحد البحارة الخنزير ظناً منه أنه مع الصفقة المتفق عليها. وطبعي أن كويك لا يريد أن يتركهم يحملون الخنزير، وبدأ نقاش لم نتوصل فيه إلى شرح ملائمة العملية، وحاولت إفهام الهنديتين، فتعذر ذلك، وهما أيضاً لم تفهما والبحارة الأمريكيون لا يريدون ترك الخنزير، وكويك لا يريد أن يرد المال. فنجم شجار وبلبله، وأمسك الأبر بخصبة من العربة حين مرت سيارة جيب تابع للشرطة العسكرية الأمريكية، فصفر الضابط المعاون، فاقربوا منا، وطلبت من كويك أن يرد المال فلم يقبل، والامريكيون، ومعهم الخنزير، لا يريدون كذلك أن يردوه، وتسمر كويك أمام الجيب لمنعهم من الذهاب وتجمعت جمهرة من الفضوليين حول هذا المشهد الصاخب رأت الشرطة الأمريكية أن الحق بجانب الأمريكيين ومن جهة أخرى هم أنفسهم لم يفهموا شيئاً من ضوضائنا، وظنوا مخلصين بأننا أردنا خداع البحارة.

وحرت في أمري، ثم تذكرت أن معي رقم هاتف النادي المارتينيكي واسم الرجل، فأعطيته لضابط الشرطة وقلت له ترجم. فأخذني إلى مكان فيه هاتف فاتصلت. ومن حسن الحظ وجدت صديقي الديغولي، فطلبت منه أن يترجم للشرطة بأن الخنزير ليس

داخلًا في الصفقة، وأنه أليف مره كالكلاب، وقد نسينا أن نقول هذا للبحارة. ثم سلمت السماعة للشرطي ففهم كل شيء في ثلاث دقائق، فذهب من تلقاء نفسه فأخذ الخنزير وأعاد له كويك الذي سر به غاية السرور، فضمه بين ذراعيه ووضع عاجلاً في العربة، وانتهت الحادثة وضحك الأميركيون كالأطفال. وتفرق القوم وانتهى كل شيء بسلام.

وفي المساء شكرنا للهنديتين، اللتين ضحكنا كثيراً مما حصل. انقضت ثلاثة أشهر على وجودنا في جورجيتاون، واليوم سكنا في بيت الهنود. أخذنا غرفتين واسعتين مضيئتين، وغرفة للطعام، وطباخ على الفحم والخطب، وفناء فسيح، مع ركن مسقوف بصفائح الحديد يغني عن الحظيرة. وهكذا كان للعربة وللحمار ملجأ. سأنام وحدي على سرير اشتريته مع فراشه في عرض مخفض للأسعار (أو كازيون) وفي الغرفة المجاورة كان لكل واحد من صديقي الصينيين سرير. وكان عندنا منضدة وستة كراسي، وفوق ذلك أربعة كراسي صغيرة مستديرة. وكان في المطبخ كل ما يلزم من أدوات للطبخ، وكنا شكرنا لغيتو ورفيقه حسن وفادتهم.

قال كويك: أصبح في حوزتنا بيت.

وكان أمام نافذة غرفة الطعام، وهي مشرفة على الشارع، أريكة من خشب هندي، هدية من الهنديتين، وعلى منضدة غرفة الطعام أصبص فيه أزهار قطفت حديثاً جاء بها كويك. هذا الانطباع عن مسكني الأول المتواضع التنظيف، وهذه الدار المشرقة النقية التي تحيط بي، وهي إحدى ثمار عمل ثلاثة أشهر مع الآخرين منحني الثقة بالنفس وبالمستقبل.

غداً الأحد، لا بيع ولا شراء. إذن نحن أحرار طيلة النهار، لذا قررنا نحن الثلاثة دعوة غيتو وصاحبه إلى طعام عندنا في البيت، وكذلك دعونا الهنديتين وأخوتيهما، وضيف الشرف سيكون ذاك الصيني الذي قدم لكويك والأبتر العربية والحمار وأقرضنا مئتي دولار لنبدأ أولى خطواتنا التجارية، وسوف يجد في صحنه مغلفاً يحتوي على مئتي دولار، وكلمة شكر باللغة الصينية.

بعد الخنزير الذي يحبه كويك حب عبادة، آتي أنا كأعز صديق، فهو لا يفتأ يعيرني التفاتاً. فأنا أحسن الثلاثة لباساً، وهو غالباً ما يأتي إلى البيت ومعه قميص وربطة عنق (كرافات) أو بنطال من أجلي. يشتري كل هذا مما اقتناه.

كويك لا يدخن ولا يشرب إلا نادراً، ولكن عيبه الوحيد هو الميسر، لا يلجم في سوى جمع المال ليذهب إلى نادي الصينيين ويقامر به.

ما كنا نجد في بيع ما اشتريناه صعوبة تذكر، فقد غدوت أتكلم من الانجليزية ما يكفي لعملية البيع والشراء، وكنا نربح كل يوم ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين

دولاراً نتقاسمها نحن الثلاثة، وهذا قليل ولكننا راضون، لأننا وجدنا سيلاً للرزق يمثل هذه السرعة، وما كنت أذهب دوماً معهم للشراء علماً بأنني قد أحصل على أسعار أفضل من أسعارهم، ولكنني أقوم الآن بعملية البيع.

كان الكثير من البحارة الأميركيين والانجليز الذين ينزلون إلى اليابسة ليشتروا لمراكبهم يعرفونني. وكنا نساوم بلطف فلا نبلغ بالمساومة حد الإغصاب.

هناك رجل شيطان كبير يعمل في مجمع لإطعام الضباط الأميركيين وهو إيطالي أميركي وهو يخاطبني دوماً باللغة الإيطالية، وهو سعيد جداً بأن أرد عليه بهذه اللغة، ولا يساوم إلا للتسلية، لأنه في النهاية يشتري بالسعر الذي طلبته أولاً.

نكون في منزلنا في الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة صباحاً، فينام كوك والابتر بعد الإفطار الخفيف. وأذهب أنا لزيارة غيتو أو تأتيني الجارتان وليس لدي عمل منزلي أقوم به، فالكس وغسل الملابس وترتيب الأسرة والمحافظة على نظافة البيت تقوم به الاختان مقابل دولارين في اليوم. إنني أقدر كل التقدير قيمة الحرية الحالية من هم التفكير في المستقبل.

أسرتي الهندية

إن أكثر وسائل المواصلات شيوعاً في هذه المدينة هي الدراجة. لذا اشتريت واحدة للذهاب إلى أي مكان دون مشقة. وبما أن المدينة تقوم على أرض مستوية وكذلك الضواحي، فيمكن قطع المسافات طويلة دون مجهود. وعلى الدراجة حاملتان للأغراض، قويتان جداً. إحدهما في الأمام والأخرى في الخلف. أستطيع إذن، كما يفعل الكثير من السذج، أن أحمل شخصين في سهولة. كنت أقوم ورفيقتاي الهنديتان، بنزهتين في الأسبوع على الأقل لمدة ساعة أو ساعتين، وهما في غاية الفرح وبدأت أفهم أن إحدهما، وهي الصغرى، واقعة في غرامي. وجاء أبوها بالأمس ولم أكن رأيت من قبل وهو يسكن غير بعيد عنا، ولكنه لم يأت قط لرؤيتنا ولا أعرف سوى إخوتهما. إنه شيخ كبير ذو لحية طويلة بيضاء كالثلج، وشعره أيضاً فضي ويكشف عن جبين ذكي ونبيل، ولا يتكلم غير الهندية، وابنته ترجم له. ووعده بزيارة قريبة. وبعد أن أكلنا الحلوى وشربنا الشاي انصرف دون أن لاحظ أنه كان يتفحص أدق التفاصيل في البيت، والأميرة الصغيرة كانت مبتهجة برؤية أبيها وهو راض عن زيارته وعنا.

عمري الآن ست وثلاثون سنة، وأنا في صحة جيدة، ولا أزال أشعر بأنني فتي وكل الناس يرونني كذلك، ولا أبدؤ أنني تجاوزت الثلاثين، كما يقول أصحابي جميعهم، وهذه الفتاة الصغرى عمرها تسعة عشر عاماً. جمال أصيل ووقار وتفكير قدري. إنها هبة من السماء أن أحب هذه الفتاة وتحبني.

عندما كنا نخرج نحن الثلاثة كانت تركب أمامي وهي على بينة من أنها حينئذ تكون متمكنة من جلستها وجذعها قائم، وأنني حين أشد على (الدواسات) لا بد أن أحني رأسي قليلاً فأكون قريباً من وجهها فإن أمالت رأسها نحو الوراء رأيت جمال صدرها العاري تحت الغلالة، وهو بهذه الغلالة أروع. وعيناها النجلاوان السوداءان تتقدان بهذه الملامسات الخفيفة. وفمها الأحمر اللؤلؤ^(١) على بشرة بلون الشاي، يفتر عن رغبة في التقيل وعن شنب^(٢) ساحر لامع يزين هذا الفم العجيب. ولها طريقة عجيبة في لفظ بعض الكلمات وذلك بأن يخرج طرف لسانها الوردية من ثغرها المفتوح قليلاً والذي يجعل أقدس القديسين الذين علموا الديانة الكاثوليكية، فاسقاً.

علينا أن نذهب إلى السينما هذا المساء وحدنا. لأن أختها مصابة على ما يبدو بمرض الشقيقة، وهو مرض أظنه مصطنعاً لتركتنا وحدنا.

وصلت لابساً ثوباً صافياً من الموصلين الأبيض، يصل إلى كعبيها، فإذا خطت ظهر كعباها عارين محاطين بثلاثة خلاخيل من الفضة، تحتذي نعلًا يلنف زمame الذهبي حول الإبهام وأسف على قدمها أناقة، وقد أدخلت في أنفها الأيمن صدفة ذهبية، وغلالة الموصلين التي علت رأسها قصيرة جداً حتى أنها تراخت إلى ما دون كتفيها، وجول الرأس شريط ذهبي، وفي وسط الجبين يتدل من هذا الشريط ثلاثة خيوط مزدانة بحجارة من كل الألوان، إذا تارجحت لاح الوشم الأزرق في جبينها.

كان كل من في البيت من الهنود أو أصحابي كويك والأيتر يروننا ذاهبين والبهجة تغمر وجهينا ويرون الفرحة تنبع من أعماقنا وكأنهم يعرفون أننا سنعود من السينما خطيبين. كانت جالسة على الدراجة أمامي فوق وسادة صغيرة وجرينا نحو المدينة وأطلقنا للعجلتين العنان. وفي طريق معتم تقريباً لامست هذه الفتاة الرائعة فمي بقبلة خفية خفيفة لم يسمع لها همس، وبهذه المبادرة منها وقعت من الدراجة بدون سبب.

جلسنا في صدر صالة السينما وقد تشابكت يداها، وكلمتها بلغة الأصابع وبنفس اللغة كانت تحيب. كان هذا الحب الأول المتبادل في السينما حباً أبكم لم نر شيئاً من مشاهد الفيلم المعروض. كانت أناملها، وأظافرها الطويلة الصبيغة والمعتنى بها جيداً،

(١) اللمر : سمة شديدة في الشفتين

(٢) شدة بياض الأسنان.

وشد راحتيها على راحتي، كل ذلك كان غناء يتسرب إلى نفسي حباً أبلغ من الكلام، ويعبر عن رغبتها في أن تكون لي، ومالت برأسها على كتفي مما أتاح لي أن أطبع قبلات على وجهها النقي.

وسوف يتحول هذا الحب الخجول والذي استغرق زمناً إلى هوى شامل. وقد أوضحت لها قبل أن تصبح حبيبي بأنني لا أستطيع الزواج منها، لأنني متزوج من فرنسية، وقد كاد يغيظها ذلك.

بقيت في إحدى الليالي عندي وقالت لي بأنها تفضل الذهاب إلى دار أبيها بسبب إخوتها وبعض الجيران. فقبلت وأقمت عند أبيها الذي يعيش وحيداً مع هندية صغيرة ذات مقربة بعيدة وكانت تقوم على خدمته وتصرف له شؤون البيت. لم أكن بعيداً عن كويك، فهو لا يبعد عني أكثر من خمس مئة متر تقريباً. لذا كان صديقي يأتيان كل يوم لرؤيتي مساءً وبمضيان معنا ساعة طيبة. وغالباً ما يأكلان في البيت. وتابعتا تجارتنا بالخضار عند المرفأ. كنت أغدو في الساعة السادسة والنصف وتصحبني الهندية ونحمل ترمس الشاي وشيئاً من المربى والخبز المحمص في كيس كبير من الجلد، وننتظر كويك والابتر لنشرب الشاي معاً، وهي تحضر هذا الإفطار بنفسها والتزمت هذه القاعدة وهي أن نتناول طعام الفطور نحن الأربعة. في هذا الكيس كل ما يلزم من غطاء منضدة مطرز تضعه على الرصيف بطريقة احتفائية، بعد أن تكون قد كنسته بفرشاة، وفيه أربعة أقذاح للشاي مع صحنوها. ونجلس على الرصيف نفطر جادين. من المضحك أن يقعد المربى على الرصيف ليشرب الشاي كما لو أنه كان في قاعة، ولكنها تجد ذلك طبيعياً، وكذلك الحال مع كويك، فهما لا يكثران من ناحية أخرى بالمارين، ويمجدان ما يفعلانه هكذا عادياً. وأنا لا أريد أن أغيظها وهي مسرورة جداً بأن تقوم على خدمتنا فتمد المربى على خبز (التوست)، وإذا أنا رفضت بدا عليها الكدر.

حصل في يوم السبت المنصرم حادث أعطاني مفتاح سر.

قد مر على صلتنا هذه شهران. ومن وقت إلى آخر كانت تعطيني كمية قليلة من الذهب وهي من حلي مكسرة: نصف قرط ذهبي، أو قرطاً ذهبياً واحداً، أو قطعة من سلسلة، أو ربع أو نصف وسام. وبما أنني لم أكن في حاجة إليها لبيعها من أجل العيش فقد حفظتها في علبة، وعندني الآن ما يقرب من أربع مئة غرام.

وعندما أسأها عن مصدرها كانت تجرني وتعانقي أو تضحك ولا تعطيني تفسيراً. طلبت مني الهندية يوم السبت أن أحمل أباهما على الدراجة ولا أعلم قصد السبيل. قالت: سوف يدلك بابا على الطريق وأنا أبقي هنا لأكوي الملابس. ظننت، وأنا مخدوع، بأنه يريد أن يقوم بزيارة بعيدة، وقبلت بنفس راضية أن أقوده إلى هناك.

جلس أمامي دون أن يتكلم لأنه لا يتكلم إلا لغته، وكنت أسير حسب الاتجاه

الذي يشير إليه بذراعه. المكان بعيد وهأنذا أقود منذ ساعة. وصلنا إلى حي غني على شاطئ البحر، ليس فيه إلا الدارات الجميلة، وتوقفت بإشارة من «عمي» ثم ترقبت. أخرج من قميصه حجراً أبيض مستديراً، وركع على درجة أحد البيوت، ودحرج الحجر على الدرجة وغنى. وبعد دقائق خرجت من الفيلا سيدة في لباس هندي واقتربت منه وأعطته شيئاً دون أن يتفوه بكلمة وكان يكرر هذا المشهد عند كل بيت. طالت الحكاية ولم أفهم شيئاً. وعند الدارة الأخيرة كان رجل يرتدي لباساً أبيض فأنفضه من ركعته ووضع ذراعه تحت ذراعه وقاده إلى البيت فمكث فيه ربع ساعة ثم خرج وهو لا يزال في صحبة ذلك الرجل الذي قبله في جيبه أو بالأحرى من شعره الأشيب، قبل أن يغادر.

عدنا إلى البيت وكنت أسوق مستعجلاً لأن الساعة قاربت الرابعة والنصف، فوصلنا لحسن الحظ إلى البيت قبل الغروب. رافقت الهندية أندارا أباهاً أولاً ثم وثبت تعانقي وأشبعني لثماً وتقبلاً، ثم أخذتني إلى الحمام، فاستحممت، وكانت الملابس البيضاء النظيفة بانتظاري، فغيرت ملابسني وحلقت لحيتي ثم جلست إلى المائدة، فخدمتني بنفسها كالمتعاد. رغبت في سؤالها ولكنها كانت تلف وتدور متشاعلة لتتحاشي أكبر قدر من الوقت، الإجابة عن أسئلتني. وكنت أتحرق للمعرفة. وكنت أعلم أنه لا ينبغي إكراه هندي أو صيني على القول. وهناك فترة للاعتبار قبل الاستجواب. وحينئذ يتكلمون من تلقاء أنفسهم، ويخمنون ويعلمون أنك تنتظر منهم مسارة، فإذا آتسوا أنك جدير بها ساروك.

وهذا ما حصل مع أندارا. فبعد أن اضطررنا ومارسنا الحب طويلاً، وارتوت عروقها وضعت وجنتها التي لا زالت ملتهبة في تحويف إبطي العاري، وكلمتني ولم تنظر إلي:

— أتعلم يا عزيزي؟ إن أبي يذهب لإحضار الذهب فإنه لا شيء إلى أحد، والعكس هو الصحيح، فهو يحضر الأرواح لحفظ البيوت التي يدحرج عليها حجره، وتعبيراً عن شكرهم له، يعطونه قطعاً ذهبية. وهذه عادة قديمة جداً في بلدنا جاوا.

هذا ما روته لي أميري. وفي أحد الأيام تحدثت معي في السوق إحدى رفيقاتها: في ذلك الصباح لم تكن هي قد وصلت ولا الصينيان، وقصت علي الفتاة الجاوية الجميلة حكاية أخرى.

— لماذا تشتغل وأنت تعيش مع ابنة الساحر؟ ألا تخجل من نفسها حين تدعك تستيقظ في ساعة مبكرة حتى أثناء نزول المطر؟ وأنت تستطيع بما يكسب أبوها من الذهب أن تعيش دون أن تشتغل، فهي لا تعرف كيف تحبك. لأنها لا ينبغي لها أن تدعك تصحو باكراً جداً.

— وماذا يشتغل أبوها؟ اشرح لي فأنا لا أعرف شيئاً.
— أبوها ساحر من جوارا. فإن شاء استدعى الميت عليك أو على أسرته. والوسيلة الوحيدة للإفلات من أضرار السحر الذي يسببها لك بحجره هي أن تعطيه من الذهب ما يكفي لجعله يتدحرج في الاتجاه المعاكس، فهو إذن يطل فعل الرقى^(١) وبالعكس فإنه يدعو بالصحة والحياة لك ولأقربائك الذين يعيشون معك في البيت.
ليس هذا مطابقاً كل المطابقة مع ما روت في أندارا. نويت أن أجري تحقيقاً لأعرف من منها على حق.

منذ أيام كنت مع عمي ذي اللحية البيضاء الطويلة على ضفة جدول يجتاز «نهر التوبة» ويصب في ديميرارا. وكشفت لي ملامح الصيادين ما كان فيه الكفاية، وكان كل واحد منهم يقدم له سمكة ويسرع في الابتعاد عن الجرف. ففهمت كل شيء ولم أبق في حاجة إلى أن أسأل أحداً.

وبالنسبة إلي، عمي الساحر لا يضايقني في شيء، لا يكلمني إلا باللغة الهندية، ويفترض أنني أفهم شيئاً ما. ولا أتوصل إلى فهم ما يريد ولهذا الأمر جانب إيجابي وهو أننا لن نختلف. لقد أوجد لي عملاً، كنت أصنع وشياً على جباه الفتيات الصغيرات اللاتي تتراوح أعمارهن بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. وأحياناً يكشفن عن نهودهن فأرسم عليها وشياً يمثل أوراقاً أو ترميزات أزهار بالألوان، باللون الأخضر أو الوردى، أو الأزرق تاركاً قمة الحلمة تبرز كالمدقة في الزهرة. إنهن شجاعات لأن هذا العمل مؤلم حقاً وقد تركزن لي وشم الدائرة السوداء المحيطة بالحلمة باللون الأصفر الكناري، والبعض منهن وهذا نادر جداً طلبن وشم الحلمة ذاتها بالأصفر.

وقد وضع أمام البيت لائحة كتب عليها باللغة الهندية، أعلن فيها — على ما اعتقد — وشم فنان — أسعار معتدلة — عمل مضمون.

هذا العمل در على المال وكنت بذلك راضياً من ناحيتين، أولاً أرنو صبابة إلى أئداء الجاويات الجميلة، ثانياً أكسب المال.

وجد كويك قرب المرفأ مطعماً للبيع. جاءني بهذا الخبر فخوراً، وعرض على أن نشتره والتمن بالتحديد هو ثمان مئة دولار. فإذا بعث الساحر بالإضافة إلى ما وفرناه نستطيع شراء المطعم. ذهبت لأراه. إنه في شارع صغير، ولكنه قريب جداً من المرفأ إنه يعج بالناس في كل ساعة. له صالة كبيرة مبلطة بالأسود والأبيض، وفيه ثمانين مناضد على اليمين، وثمان على اليسار، وفي الوسط منضدة مستديرة يمكن أن يعرض عليها الفاكهة والمقبلات. المطبخ كبير واسع ومضيء وفيه فرنان كبيران ومشاي واسعة.

(١) جمع رقية أي نجمة أو حجاب.

مطعم وفراشات

وتمت الصفقة. باعت أندارا بنفسها كل ما تملكه من ذهب. وكان الأب مدهوشاً لأنني لم أمس القطع الذهبية التي أعطاهم لابنته ولي. قال:
— أعطيتكم إياها لتستفيدا منها كلاكما، وليس عليكما أن تطلبا مني، إذا كنتما تحسانا التصرف. افعلما ما بدا لكما.

وليس أخبت منه «عمي الساحر هذا». أما هي فشئء آخر. عشيقة كانت أم زوجة أم صديقة، فلا خوف من حدوث شقاق بيني وبينها، لأنها تحبب دوماً بنعم عن كل ما أقول، ولكنها مفتاةة فقط من وشم الصغيرات من أهل بلدنا.

هأنذا صاحب مطعم فيكتور في ووترستريت في وسط ميناء مدينة جورج تاون. يقوم كويك بتحضير الطعام، وهذا ما يستهويه، فالطبخ مهتته. والأبتر سيقوم بالتسويق وصنع شاروماين وهو نوع من السباغيتي الصيني. ويصنع بالطريقة الآتية: تخرج زهرة الطحين مع صفار البيض، ويمكن لهذه الكتلة أن تتماسك ولو بدون ماء ولكن في صعوبة وتحتاج إلى وقت طويل، هذه العجينة قاسية جداً عند المزج حتى أنه يستعين بالقفز عليها أثناء الجبل وفخذه على طرف عصا مصقولة جيداً تتوسط نهايتها مركز المنضدة، ويتكىء بفخذه على العصا ممسكاً بها بيده الوحيدة ويدور حول المنضدة. وهكذا تصبح العجينة المصنوعة بهذه القوة خفيفة ولذيذة وبإضافة قليل من الزبدة تكتسب طعماً شهيأ.

هذا المطعم المفلس سرعان ما اكتسب شهرة عظيمة، وكانت أندارا تقدم الطعام للزبون، تساعدنا في ذلك هندية رائعة الجمال اسمها دايا، فكانوا يسارعون إلينا ليتذوقوا الطعام الصيني، وكان يتردد علينا جميع الهاريين من السجن فمن كان معه مال دفع ومن ليس عنده مال أكل مجاناً.

قال كويك: إن هذا المطعم يحمل السعادة إلى قلوب الجائعين.

ولكن هناك عائقاً واحداً، وهو جاذبية المضيفتين — إحداهما أندارا — فإنهما تظهران جسميهما العاريين تحت غلالة ثوبيهما المشقوقين من جانب، من الكعب إلى أعلى الساق وبالحركة يتكشف الساق وأعلى الفخذ، فالبحارة الأميركيون والانكليز، والسويديون، والكنديون، والنرويجيون يأكلون أحياناً مرتين في اليوم ليستمتعوا بهذا المشهد، ويسمي أصدقائي مطعمي مطعم المتفرجين.

أنا أمثل المعلم وفي نظر الجميع أنا الرئيس إذ لا يوجد صندوق مسجل. فالخدم يأتوني بالمال فأضعه في جيبي وأرد الباقي عند اللزوم.

يفتح المطعم أبوابه في الساعة الثامنة مساءً وحتى الخامسة أو السادسة صباحاً. وغني عن القول إن جميع فتيات الليل يأتين حوالي الساعة الثالثة صباحاً بعد أن يكن قد أمضين ساعات طيبة؛ فيأكلن في مطعمنا، مع عاشق أو زبون، دجاجة أو سلطة حبوب الفاصولياء ويشربون الجعة وخاصة الانجليزية، أو الويسكي، أو الروم المستخلص من قصب السكر، وهو لذيق جداً مع الصودا أو الكوكاكولا.

أما وقد أصبح المطعم ملتقى الفرنسيين الهاريين فقد غدوت ملاذاً لهم وناصحاً وقاضياً، والمؤمن عند كل هؤلاء الهاريين والمنفين، وكان هذا يسبب لي أحياناً بعض المتاعب. شرح لي أحد هواة جمع الفراشات طريقته في الصيد في الغابة. كان يقص الورق المقوى على شكل فراشة ثم يعلق فوقها جناح فراشة من النوع الذي يريد صيده. وهذه الورقة ملصقة على طرف عصا طولها متر واحد. وعندما يصطاد يسك بالعصا بيده اليمنى ويحركها بحيث تبدو الفراشة المزيفة وكأنها تطير، ويتخذ مواضعه في الغابة في أماكن تنفذ إليها الشمس ويعرف أوقات تفرخ كل نوع. فهناك أنواع لا تعيش أكثر من ثمان وأربعين ساعة إذن عندما تغمر الشمس مكاناً ما تسرع الفراشات التي أفرخت باحثة عن التلقيح في أقرب وقت ممكن، فعندما ترى الطعام تأتي من بعيد جداً بسرعة نحوه. فإذا كانت الفراشة المزيفة ذكراً يأتيه ذكر يقاتله، وتكون الشبكة باليد اليسرى فيلتقطها في سرعة. وجو الغابة المحصور يجعل الصيد يستمر في التقاط الفراشات دون خوف من هروب الأخريات. أما إذا كان الطعام مصنوعاً من جناح أنثى فإن الذكور تأتي لتتقبلها، والنتيجة واحدة. وأجل الفراشات فراشات الليل، وبما أن الفراشة تصطدم دوماً بالحواجز فمن العسير أن تعثر على واحدة سليمة الأجنحة، فأجنحتهن جميعاً تقريباً فيها خدوش، وللحصول على هذه الفراشات الليلية يتسلق الصياد شجرة كبيرة ويضع إطاراً من القماش الأبيض يضيئه من الخلف بمصباح فحمي ما بين طرفي جناحي الفراشة الليلية يتراوح طوله بين خمسة عشر وعشرين سنتيمتراً. تأتي هذه الفراشات لتلتصق بالقماش الأبيض ولا يبقى سوى خنقها بضغطة سريع وقوي على صدرها ولكن دون سحقها. ويجب أن لا تتخرب وإلا فسدت أجنحتها أو قلت قيمتها.

كان عندي في خزانة زجاجية مجموعات صغيرة من الفراشات، والذباب، والأفاعي الصغيرة والخفافيش الكبيرة ولكل نوع زين. لذلك فالأسعار مرتفعة.

دلني أحد الأميركيين على فراشة جناحها الخلفيان بلون أزرق رمادي، والعلويان بلون أزرق صاف. وقد عرض خمس مئة دولار ثمناً لفراشة من هذا النوع إن وجد، بشرط أن تكون خنثى. فأخبرت الصياد بالأمرفقال له: إنه وقعت بين يديه فراشة من هذا النوع ودفعوا له خمسين دولاراً، ثم علم فيها بعد من أحد المصنفين أنها تساوي ألفي دولار، ثم أردفت قائلاً:

— يريد أن يسخر منك هذا الأميركي ويرى فيك الرجل الأحق، حتى ولو كانت القطعة النادرة تساوي ألفاً وخمس مئة فإنه يستغل جهلك.

— أنت على حق، وإنه لقذر. وإذا نحن لعبنا به؟

— كيف ذلك؟

— يجب أن نثبت فراشة أنثى ونركب لها أجنحة ذكر أو العكس بالعكس، والصعب إيجاد الوسيلة لتثبيتها دون أن تنكشف لأحد.

وبعد محاولات عدة توصلنا إلى إلصاق جناحي ذكر على جسم بديع لأنثى، إلصاقاً تاماً لا يلفت النظر، وقد أدخلنا الخوافي في شق صغير، وألصقناها بالصمغ المطاطي، وهذا يمسكها جيداً في حال رفعها من الجناحين.

وضعنا الفراشة مع مجموعة ما تحت الزجاج بسعر عشرين دولاراً، كما لو أنني لم أرها، فأصبنا الهدف، وما أن رآها الأميركي حتى تجاسر وتقدم وييده ورقة من فئة عشرين دولاراً ليشتري المجموعة فقلت له: قد وعدت بها رجلاً سويدياً.

وفي غضون يومين أمسك الأميركي بالعلبة عشر مرات وأخيراً لم يطق صبراً فتناداني

— أنا اشتري الفراشة التي في الوسط وحدها بعشرين دولاراً وأترك لك الباقي.

— وما العجب بهذه الفراشة؟

وأخذت أتفحصها ثم صحت: إنها الخنثى!!

— ماذا تقول؟ نعم، حقاً هذا صحيح. ولم أكن متأكداً من قبل فإنها لا ترى من خلال الزجاج، هل تسمع؟ وتفحص الفراشة من جميع النواحي وقال:

— كم تريد ثمناً لها؟

— ألم تقل لي يوماً بأن نظرتها تساوي خمس مئة دولار؟ رددت هذا على مسمع عدد من الصيادين، وأنا لا أريد أن أمتغل جهل من اصطادها. إذن خمس مئة دولار أو لا شيء.*

— اشتريتها، احتفظ لي بها خذ ستين دولاراً عربوناً لها، وأعطني إيصالاً وأحضر لك الباقي غداً. وأخرجها من هذه العلبة.

— حسناً سأحتفظ بها في مكان آخر وإليك الإيصال.

وفي ساعة افتتاح المطعم كان هذا النازل من المركب هناك في الموعد المحدد وفحص الفراشة مرة أخرى ولكن من خلال العدسة. وشعرت بالخوف عندما قلبها على ظهرها، فكان راضياً ودفع لي ووضع الفراشة في علبة أحضرها معه وانصرف.

وبعد مضي شهرين ألفت نفسي محاطاً بالشرطة، فساقوني إلى المخفر، وكان هناك معاون مدير الشرطة الأعلى الذي شرح لي بالفرنسية بأنني موقوف ومتهم باختلاس أمريكي. قال المفوض:

— الموضوع يتعلق بفراشة ألصقت بها أجنحة، وبالفش والخذاع بعثها بخمس مئة دولار.

وبعد ساعتين كان كويك وأندارا في المخفر ومعهما المحامي، وهو يجيد الفرنسية فأفهمته بأنني لا أفقه شيئاً في الفراشات، فلا أنا أصطادها ولا أصنفها وأنا أبيع المجموعات خدمة لصيادها الذين هم زبني. وأن الأميركي هو الذي عرض خمس مئة دولار، لا أنا. ولو كان قانونياً كما يظن لكان هو المختلس لأن الفراشة التي يبحث عنها تساوي ألفي دولار.

مثلت بعد يومين أمام المحكمة وكان المحامي أيضاً ترجمائاً لي، فأعدت شرح قضيتي، وكان مع المحامي لائحة بأسعار الفراشات وقال إن فراشة من هذا النوع كما هو مبين في البيان تساوي ألفاً وخمس مئة دولار. فدفع الأميركي نفقات الدعوى، وأتعاب المحامي وفوق هذا دفع مثني دولار.

احتفل الهاربون والمهتدون بإطلاق سراحي بشراب بيتي. وكان جميع أفراد أسرة أندارا قد حضروا إلى المحكمة وهم فخورون بأن في أسرهم رجلاً عظيماً. لأنهم هم ليسوا مخاتلين، ويشكون في أنني ألصقت الأجنحة.

اضطررنا إلى بيع المطعم وكان لا بد أن يحصل هذا. وذلك أن أندارا ودايا كانتا رائعتي الجمال، وطريقة لباسهما تفضح مفاتن جسديهما ولكن دون مبالغة، ومع ذلك فقد كانتا تثيران هؤلاء البحارة الملتئمة عروقهم بالدماء أكثر مما لو كانتا عاريتين عرياً تاماً، وقد لاحظت، أنه كلما كان الجسد منها عارياً ومغطى بغلالة زادت أعطيات البحارة. وبعد هذا العرض الجسماني المحسوب بدقة كانت عينا البحار تجهظان من شدة التدقيق في النظر ثم كانتا تنتصبان وتقولان وأنا؟ أين نصيبي من «البقشيش»؟ وما كان أكرم هؤلاء الرجال وهؤلاء العشاق الملتئمين دون أن يبلغوا مأرباً. ويحارون أين ينطحون رؤوسهم؟ وفي أحد الأيام حصل ما كنت أتوقعه. كان رجل من هؤلاء، أحمر الشعر ممتلئ بالنمش، لم يكتف بالنظر إلى الفخذ المكشوف وبالنظرة الخاطفة إلى سروال المرأة، بل مد يده وأصابعه الوقعة، إلى أبعد من ذلك ثم أمسك بالجاوية وهصرها وكأنها بين فكي ملزمة وكانت تحمل بيدها إبريق ماء فكسرتة على رأسه في سرعة وتحت تأثير الضربة وقع وانتزع في سقوطه سروالها، وبادرت إلى رفعه عن الأرض، غير أن أصدقاءه ظنوا أنني ذاهب لضربه. وقبل أن أنبس بكلمة تلقيت في عيني لكلمة. ربما أراد هذا البحار الملاك أن يدافع عن صديقه وربما قصد أن يسدد ضربة شديدة لزوج الهندية الحسناء الذي سببه لم يستطع أحد الوصول إليها. على كل حال تلقيت ضربة مستقيمة في عيني. واستند على انتصاره ونهياً للملاكمة ووقف قبالي وصاح: هيا إلى الملاكمة فرفسته في (أعضائه) بقدمي وأتبع ذلك بضربة من رأسي، فطاح الملاك على طوله. وعمت الغوضى، فخرج الأبر من المطبخ لنجديتي، وصار يوزع الضربات من عصاه التي يحرك بها السباغي، ووصل

كويك ويده مذرة ذات سنين وصار يخز بها الناس.

وقام باريسي داعر متقاعد من مراقص شارع المواخير واتخذ الكرسي أداة للضرب. أما أندارا فقد أربكها ضياع سرواها فانسحبت من المخرج والمرج.

والخصيلة كانت خمسة جرحى من الأميركيين أصيبوا في رؤوسهم، وآخرون، كان في مواضع مختلفة من أجسامهم ثقبان من مذرة كويك، والدم لطح كل مكان. جاء، لحسن الحظ، شرطي أسود برازافيلي. ووقف عند الباب لثلا يخرج أحد. ثم قدمت سيارة جيب للشرطة العسكرية وفي كل قدم من أقدامهم ران^(١) أبيض، وفي أيديهم عصي مرفوعة يريدون الدخول بالقوة بعد أن رأوا رفاقهم مضرجين بدمائهم وفي نيتهم الانتقام. وكان الشرطي الأسود يدفعهم ثم وضع يده وعصاه معترضاً بهما الباب، وقال: شرطة جلالتها.

وعندما وصلت الشرطة الانجليزية أخرجونا وأركبونا في سيارة سجن وقادونا إلى المفوضية أنا وحدي كانت عيني متورمة، والآخرون ليس فيهم جروح، وهذا ما جعلهم لا يصدقون أننا كنا في حالة دفاع مشروع عن النفس.

وبعد ثمانية أيام قبل رئيس المحكمة قضيتنا ما عدا كويك الذي نال عقوبة سجن ثلاثة أشهر بسبب الضربات والجروح التي ألحقها بالأمريكيين. وقد حاروا في تفسير منشأ الثقبين اللذين تكرر انطباعهما في جسومهم بكثرة.

وبعد ذلك حدث في أقل من أسبوعين ست مشاجرات، فوجدنا أن الاستمرار غير ممكن. فالبحارة قرروا أن لا يعتبروا هذه الحادثة متتهية. وكانت تقد وجوه جديدة ولكن كيف تعرف الصديق من العدو؟ لذلك فقد بعنا المطعم ولم نحصل على المبلغ الذي دفعناه. صحيح أن المطعم نال شهرة غير أن الذين اشتروه لم يزيديا في الثمن.

— ماذا نفعل أيها الأبتز؟

— نستريح ريثما يخرج كويك من السجن، ولن نستطيع استرجاع العربة والحمار لأنها بيعا مع الزبن. الأفضل أن لا نفعل شيئاً سوى أن نستريح وسوف نرى فيما بعد.

خرج كويك من الحبس وقال إنه عومل معاملة حسنة والشيء الوحيد الذي ضايقه هو أنه كان قريباً من رجلين كانا محكومين بالإعدام. ولدى الإنجليز عادة سيئة وذلك أنهم يعلمون المحكوم بأنه سوف يشق في يوم كذا، قبل تنفيذ الحكم بخمسة وأربعين يوماً يوم رفضت الملكة العفو.

وفي كل صباح كان أحدهما ينادي الآخر ويقول له: مضى يوم يا جنوبي ولم يبق إلا

(١) الران كالحف أي أنه لا قدم له وهو أطول من الحف (غير).

القليل من أيا منا. والآخر لا يكف عن شتم شريكه في الجرم طيلة الضحى، وفيما عدا هذا كان كويك هادئاً ومبجلاً.

كوخ الخيزران

نزل باسكال فوسكو من مناجم البوكسيت، وهو أحد الرجال الذين حاولوا مهاجمة دورية في مرسيليا بالسلح، أعدم رفيقه بالمقصلة.

باسكال خيرنا جميعاً، ميكانيكي جيد، ولا يكسب أكثر من أربعة دولارات في اليوم، ومع ذلك فإنه لا يعدم وسيلة في تغذية محكومين أو ثلاثة من المعسرين.

هذا المنجم الأرضي للألمنيوم متقدم جداً في الغابة. وقدنشأت حول المعسكر قرية صغيرة يعيش فيها العمال والمهندسون. وفي الميناء يحمل محصول المنجم دون انقطاع في مراكب خاصة. تواردت إلى ذهني خاطرة. لماذا لا نفتح (كباريه) في هذه القرية الضائعة في الأجمة فلا بد أن يكون الناس فيها في سأم محقق، وخاصة في الليل.

قال فوسكو: هذا صحيح، لا توجد تسلية ولا أي شيء آخر، وبعد بضعة أيام كنا أنا وأندارا وكويك والأبتر في طريقنا إلى ما كنزوي وهو اسم المنجم فوصلنا بعد يومين من ركوبنا في مركب فوق مياه النهر.

معسكر المهندسين والرؤساء والعمال المختصين، نظيف، ومساكنه مريحة وكلها مجهزة بمناجل معدنية على النوافذ، وقاية من البعوض. أما القرية نفسها فتبعث على الاشمئزاز. ولا يوجد بيت واحد من القرميد أو الحجر أو الاسمنت، وليس هناك سوى أكواخ مصنوعة من تراب غضاري وقصب الخيزران، والسقوف من ورق النخيل البري، أو صفائح القصدير، وهناك أيضاً أربعة مشارب — مطاعم مقززة وتغص بالزبن، ويتضارب البحارة في سبيل الحصول على جعة غير مبردة إذ لا توجد ثلاجات. وكان باسكال مصيباً فهناك مجال لعمل شيء في هذه البلدة. وأنا بعد كل هذا معدود من الهارين، وإنها لمغامرة، ولا أستطيع أن أعيش عيشاً سوياً مثل رفاقي. والشغل لا يمني كثيراً في سبيل لقمة العيش. وبما أن الطرقات لزجة بالوحل وخاصة عند الأمطار، اخترت مكاناً متطرفاً عن مركز القرية في موضع مرتفع، حتى إذا أمطرت السماء لا تنحدر المياه إلى داخل البناء الذي أنوي إقامتهوبنينا، في عشرة أيام، قاعة مستطيلة طولها عشرون متراً وعرضها ثمانية.

وقد ساعدنا في هذا العمل نجارون زنوج يعملون في المنجم. وكذلك أعدنا ثلاثين خواناً، كل خوان لأربعة أشخاص، وتتسع جميعها لمئة وعشرين شخصاً يجلسون في راحة تامة. وأقمنا منصة يمر عليها الفنانون، ومشرباً على عرض القاعة وأمامه اثنا عشر مقعداً مستدير الترس.

وبجانب الملهى بناء آخر ذو ثمانى غرف، يستطيع العيش فيها ستة عشر شخصاً في ارتياح تام. عندما نزلت إلى جورج تاون لشراء الأدوات: كراسي، مناضد الخ استأجرت أربعاً من الفتيات السود الجميلات للقيام على خدمة الزين. ودايا التي لا تزال تعمل في المطعم، قررت المجيء معنا، كما استأجرت خلاسية لتعزف على البيانو. وبقي التعاقد مع شخصيات المسرح. وبعد نقاش توصلت إلى إقناع جابوتين، وبرتغالية، وصينية، وسمراوان، على ترك محل البغاء ليشتغلن بعرض جسماني. اشترينا ستاراً ينفعنا عند العرض. وسافرت نهرأ مع هذه المجموعة في رحلة خاصة قام بها صياد صيني في زورقه. وقدم لي محل لبيع الخمور كل أنواع المشروبات وبالدين، وله بى ثقة، وسأدفع له شهرياً ثمن كل ما بيعت في بيان تفصيلي. وشيئاً بعد شيء صار يعطيني المشروبات الضرورية.

والموسيقى سنؤمنها بوساطة الحاكي^(١) القديم وبعض الأسطوانات المستعملة عندما نتوقف العازفة عن تعذيب البيانو.

اشتريت من محل هندي كل أنواع الأثاث والتنانير والجوارب السود والملونة، وحاملات الصدر^(٢) وهي لا تزال في حالة جيدة، وقد اخترتها لألوانها الباهرة من مخلفات أحد المسارح المتنقلة، واشتريت أيضاً مستلزمات النوم، واشترى كويك المواد الخشبية، واشترت أندارا الأقداح وما يلزم للمشرب، واشتريت أنا المشروبات وانصرفت إلى موضوع الفئات. ولتغطية هذا الموضوع في أسبوع كامل وجب الإسراع وبذل المهمة.

وأخيراً تم كل شيء وصار الجميع فوق المركب ووصلنا إلى البلدة بعد يومين.

إنها لثورة حقيقية سوف تحدثها الفتيات العشر في هذه القرية الضائعة وسط الأجمة. وصعد كل واحد منا وعلى ظهره حقيبة إلى «الكوخ الخيزراني» وهو الاسم الذي أطلقناه على علبتنا الليلية. وبدأت التدريبات. ولم يكن سهلاً تعليم هؤلاء الفتيات طريقة التعري. أولاً لأنني لا أحسن التكلم باللغة الانجليزية وما أشرحه لم يكن مفهوماً. ثانياً لأنهن تعودن سرعة التعري لصرف الزبون في أسرع وقت. أما الآن فعل العكس، فكلما أبطان برعن في الإثارة، ولكل واحدة منهن طريقة مختلفة يجب أن تتسجم أيضاً مع نوع الملابس التي ترتديها: المركزية في المشد الوردي، وثوب السهرة، والبنطال المخرم الأبيض،

(١) الفونوغراف أو البيك آب.

(٢) السوتيان

تتعري متوارية خلف ستارة وأمام مرآة. وفي المرآة يتأمل الجمهور قطع اللحم التي تنكشف شيئاً فشيئاً.

ثم يأتي دور «راييد» الفتاة ذات البطن الأملس السمراء بلون القهوة مع الحليب، وهي ذات بشرة صافية، مثال لاختلاط الدم بين أبيض وسوداء، ولونها الذي يشبه حب القهوة الذهبية المعرضة للنار، يبرز مفاتها المتناسقة، وشعرها الأسود المتموج يتساقط بصورة طبيعية على كتفيها المستديرين. نهاها مملتان وعاليان ومتغطسان رغم ثقلها، وبرشقان حلمتين رائعتين أشد سواداً من البشرة. هذه هي راييد. كل قطع ملابسها تفتح بسحابات. تتقدم بينطال راعي البقر (كاوبوي) وعلى رأسها قبة واسعة، وترتدي قميصاً أبيض أكمامه تنتهي بأهداب جلدية. تظهر على المسرح على صوت نشيد عسكري وتخلع نعلًا وتذف به في الهواء ثم تتبعه بالنعل الآخر. يفتح البنطال من جانبي الساقين ويقع فجأة على قدميها. ويفتح لباس الصدر إلى قسمين بسحاب على كل ذراع.

وبالنسبة إلى الجمهور فإن المنظر مثير جداً. لأن شيئاً واحداً ظل مستتراً فترة من الزمن فبعد أن تعري الصدر والأفخاذ فانها تباعد ما بين ساقها ويدها على وركيها تنظر إلى الجمهور في مواجهتها، وترفع قبعتها وتلقي بها على إحدى المناضد في المقدمة والقرية من المسرح. وراييد هذه لا تقوم بحركات خجولة لتتزع ما بقي على جسدها بل تفك العرى من الجانبين وتظهر كيوماً خلقها والزؤبر^(١) يعلو عانتها. وتظهر فتاة أخرى فتقدم لها مروحة من الريش الأبيض مفتوحة فتستر بها.

الكوخ الخيزراني. كان يوم الافتتاح غاصاً جداً بالناس.

أركان المنجم كانوا حاضرين عن بكرة أبيهم. وانتهى الليل بالرقص ورحل آخر زبون مع طلوع الفجر، وكان النجاح باهرًا، ولا يمكن أن نحلم بما هو أفضل، ولئن كانت النفقات عالية، غير أن الأسعار كانت مرتفعة أيضاً وتعوضها.

سيكون لهذا الملهى في وسط الغابة ليال وسوف يكثر زينه بمقدار ما تتسع أرضه. والمضيفات الأربع السود تعذر عليهن تقديم الطلبات لشدة الزحام، وكن لابسات الملابس القصيرة جداً، كواشف عن نحورهن، وعلى رؤوسهن غطاء أحمر اللون، وهن أيضاً تركن أثراً حميداً في النفوس. وكانت كل من دايا وأندارا تراقب قسماً من القاعة. وكان كويك والابتر على البار يقدمان الطلبات، وأنا أطوف في كل مكان، أصحح ما كان مختلاً أو أساعد من كان في ارتباك.

وعندما تواجدت الساقيات والفنانات والمعلم في القاعة وحدهم قال كويك هذا هو النجاح الأكيد.

(١) الشعر الخفيف

أكلنا جميعاً كأسرة واحدة. المعلم والمستخدمون متعبون ولكنهم سعداء بهذه النتيجة.
ثم ذهب الجميع للنوم.

— حسناً بآيرون، ألا تريد أن تصبحوا؟

— كم الساعة الآن؟

— الساعة السادسة مساءً، وقد ساعدتنا أميرتك، فقد استفاقت منذ الساعة الثانية،
وصار كل شيء مرتباً ومهيأ لاستقبال ليلة جديدة.

وصلت أندارا ومعها ابريق حار فاغتسلت وحلقت لحيتي وبدوت نضير الوجه نشيطاً
فهضرت خصرها بذراعي ودخلنا الكوخ الخيزراني فاستقبلوني بالآلاف الأسئلة.

— هل هذا هو الرئيس؟

— هل أحسنت التعري؟ وأين المآخذ في نظرك؟

— هل غنيت غناء جيداً؟ حقاً إن الجمهور ليس صعباً.

إن هذا الجهاز الجديد لطيف ورقيق حقاً، وهؤلاء الموسسات اللاتي تحولن إلى فنانات يقمن
بأدوارهن خير قيام وعليهن علائم السعادة بترك مهتهن السابقة. وهناك عشرة واحدة وهي
كثرة الرجال كثرة عارمة وقلة النساء. وكل الزين يريدون مصاحبة إحدى الفتيات إن لم
يكن طول الليل، فلاطول وقت ممكن، وخاصة مع الفنانات. وهذا ما أثار الغيرة والحسد.
وإذا اتفق وجود امرأتين على مائدة واحدة احتج باقي الزين، والسوداوات الصغيرات أكثر
رواجاً لأنهن جميلات من جهة ولعدم وجود نساء في الغابة من جهة أخرى. ونخرج دايما
أحياناً من خلف المشرب لتقديم الطلبات وتؤنس الجميع، ويستمتع حوالي عشرين رجلاً
بوجود الهندية ذات الجمال النادر حقاً.

وتفادياً للحسد وطلبات الزين لمصاحبة فنانة على منضدتهم أقمت يانصيباً بعد كل
— وصلة — في التعري أو الغناء. جعلت دولاراً كبيراً يحمل اثنين وثلاثين رقماً: الرقمان ٣١
— ٣٢ من نصيب البار والأرقام الثلاثون من حق الجمهور. وهكذا يتقرر أين تذهب
الفتاة، ويجب شراء تذكرة يعادل ثمنها ثمن زجاجة وسكي أو شمينانيا، وأظن أن لهذه
الفكرة فائدتين: أولاً التخلص من كل طالب للفتاة والرابع هو الذي يستمتع بمسامرتها
ساعة على المائدة بسعر الزجاجة التي تقدم له على الطريقة الآتية: عندما تتعري الارتيست
وتحتجب بالمروحة العريضة يجري السحب ولدى ظهور الرقم تقف الارتيست على خشبة
كبيرة مدهونة بلون فضي، ويحملها أربعة من الأشداء إلى المنضدة الراحبة السعيدة. وهي
بنفسها تفتح زجاجة الشمينانيا وتملأ كوباً وهي لا تزال عارية ثم تعتذر وتعود بعد خمس
دقائق وقد ارتدت ملابسها.

وسار كل شيء سيراً حسناً مدة ستة أشهر. وإذ مضى موسم الأمطار جاء زين
جدد، إنهم من الباحثين عن الذهب والماس الذين ينقبون في حرية في الغابة، هذه الأرض

الغنية بالطمي، ليأتوا بالذهب والماس بوسائل مفرطة في القسوة. وغالباً ما يسرق أو يقتل رجال المناجم بعضهم بعضاً، ولهذا السبب كان أكثرهم مسلحاً. وعندما يمتلكون صرة صغيرة من الذهب أو حفنة من الماس، فإنهم لا يقاومون إغراء البذل الجنوني. والفتيات ينلن نسبة مئوية من ثمن كل زجاجة، وبينما يعانقن الزبون يسكن قسماً من زجاجة الويسكي أو الشمبانيا في دلو الثلج. وفريق من الزين يلاحظون ذلك رغم ما شربوا من الكحول، وتكون ردة الفعل شرسة. فاضطرت إلى تثبيت المناضد والكراسي. مع هذه المجموعة الجديدة من الزين، ما كان يجب أن يحصل قد حصل.

كانت تدعى زهرة القرفة وبالفعل، لون بشرتها يحاكي الدارصيني (القرفة). هذه الفتاة التي انتشلتها من الحضيض في جورج تاون تثير الجنون بطريقتها في التعري، وهذا دورها. أحضرت لها على المسرح أريكة من الساتان الأبيض، ولم تتعر كالدودة بأسلوب فاسق غريب فحسب، بل راحت مرة تتمدد على الأريكة وتداعب نفسها بنفسها، وكانت أصابعها الطويلة الدقيقة، تنزلق على كل جسمها العاري من مفرق شعرها إلى أخمص قدمها دون أن يفلت شيء من لمساتها. ولا جدوى من الحديث عن رد الفعل عند رجال الغابة الخشنين الشملين.

ودفعها الطمع أن ألحت على اللاعبين أن يدفعوا في الياصيب ثمن زجاجتين من الشمبانيا لا واحدة كالآخرات. حاول رجل منجم شديد المراس ذو لحية سوداء كثيفة أن يلعب على حظ زهرة القرفة، فلم يفلح في الحصول عليها، فعندما قامت زوجتي الهندية لبيع التذاكر فما كان منه إلا أن اشترى أرقام الصالة جميعاً ولم يبق سوى رقمي البار وكان واثقاً في الربح بعد أن دفع ثمن ستين زجاجة شامبانيا.

وكان هذا الملتحي ينتظر التعري الأخير من زهرة القرفة وسحب الياصيب، وكانت زهرة القرفة مهتاجة جداً لكثرة ما شربت تلك الليلة، وبلغت الساعة الرابعة عندما بدأت عرضها الأخير، وأصبحت أكثر إثارة وجنسية وقد ساعدت الخمرة على ذلك وغدت حركاتها أكثر جرأة من المعتاد.

وتحرك دولا ب الحظ (الروليت) الذي سيعطي الرقم الرابع، وكان لعاب الملتحي يسيل شهوة بعد أن رأى عرض الصبية، فهو يترقب واثقاً من أنها ستقدم له عارية على الصينية الفضية، وهي تغطي موضع العقدة بمروحة الريش الأبيض، وبين فخذيهما الرائعتين زجاجة الشمبانيا.

يا للكارثة. لقد خسر الرجل الذي اشترى ثلاثين رقماً، وكان الرقم الرابع هو الواحد والثلاثين أي رقم البار. فأخرج مسدسه وأطلق ثلاث عيارات نارية ولم يستغرق ذلك سوى ثلاث ثوان. لقد ماتت فلور دوكتايل (زهرة القرفة) بين ذراعي، احتضنتها بعد أن ضربت ذلك الوحش على أم رأسه. والذي آخر تدخل هو أنني تعثرت بخادمة تحمل

صينيتها وبالتالي تسنى لهذا الشرس أن يرتكب عمله الجنوني. والنتيجة أن الشرطة أغلقت الملهى. وعدنا إلى جورج تاون. وها نحن أولاء من جديد في البيت. أندارا كهندية حقيقية قدرية لم تغير شيئاً من سجيتها. وهذا الدمار بالنسبة إليها ليس مهماً. والصينيون لها مشأبهان. ولم يتغير شيء في جمعيتنا المنسجمة. ولم يلمني أحد منهم على فكرتي بإجراء سحب على الفتيات. تلك الفكرة التي كانت السبب في هذا الانهيار.

وبما وفرنا، بعد سداد الديون، أعطينا أم زهرة القرقة، مبلغاً من المال.

لم نقلق ولم نضطرب بل كنا نذهب كل مساء إلى المشرب الذي يجتمع فيه أصحاب السواقي، وكنا نغضي أمسيات حلوة. ولكن مدينة جورج تاون أخذت تتعبدني بمظاهر التضيق، والتقنين الحربي وبالإضافة إلى ذلك أن أميرتي لم تكن قط غيورة وكنت دوماً أتمتع بحريتي. أما الآن فهي لا تفارقني لحظة، وتبقى جالسة إلى جانبي ساعات في أي مكان كنت فيه. وفرص القيام بعمل تجاري في جورج تاون تتعقد.

لذا أحسست في يوم من الأيام برغبة جاحدة في الرحيل عن غويان الانجليزية إلى بلد آخر وليس في ذلك مغامرة، بسبب حالة الحرب، وما من بلد يرفضنا وهذا ما افترضه على الأقل.

الهروب من جورج تاون

وافقتي غيتو على الهروب. وهو أيضاً يعتقد بأن هناك بلداً أفضل والحياة فيها أيسر من غويان الانجليزية، وبدأنا في إعداد الهروب. والواقع أن الخروج من غويان الانجليزية جريمة كبرى، فنحن في زمن حرب وليس مع أحدنا جواز سفر. شابار الذي فر من كاين هو هنا منذ ثلاثة أشهر، يشتغل مقابل دولار ونصف الدولار في اليوم وذلك في صناعة الثلجات في مطعم حلويات صيني. وهو أيضاً يود الرحيل عن جورج تاون ومحكوم آخر من ديجون واسمه دبلانك، ورجل من بوردو، وهما الآخران راغبان في الهروب. كريك والأبتر يؤثران البقاء ويمجدان أنفسهما هنا في خير.

وبما أن المخرج من ديمارارا مراقب مراقبة شديدة تحت نيران الرشاشات وقذائف النسافات والمدافع، كان لزاماً علينا أن نقلد مركباً للصيد مسجلاً في جورج تاون، وسوف نخرج على متنه على أنه هو. وسوف ألوم نفسي على جحودي نحو أندارا وعلى عدم

استجابتي لحبها الحب الذي تستحق، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً وهي كثيرة الالتصاق بي وبدأ هذا يغيظني. والمخلوقات الساذجة النقية لا يتحفظون في رغباتهم ولا ينتظرون من يحبونهم حتى يلتمسوا منهم الحب. وهذه الهندية تتصرف تماماً كما كانت تفعل الأختان الهنديتان من قبيلة الكاجيرا، ففي اللحظة التي كانت تفتح فيها مشاعرهما تتقدمان، وإذا لم أحضنهما كان ذلك خطراً، ويستثيرني ما تعانينا من ألم دفن في نفسيهما. ولا أريد جرح شعور أندارا، ومن واجبي أن أمتعها بين ذراعي أكبر متعة.

شهدت بالأمس شيئاً من أجل ما يمكن أن يراه المرء من الفن الإيمائي للتعبير عن الأحاسيس:

في غويان الانجليزية نوع من أنواع العبودية العصرية. يأتي الجاويون للعمل في مزارع القطن وقصب السكر أو الكاكاو يعقود تتراوح مددها بين خمس وعشر سنوات. فالزوج والزوجة مكرهان على الخروج إلى العمل كل يوم إلا إذا كان أحدهما أو كلاهما مريضاً وإذا لم يعترف الطبيب بمرضها فعليهما أن يقضيا أجلاً إضافياً إلى مدة العقد مقداره شهر عقوبة لهما، وتتبعه شهور أخرى لهفوات صغيرة، وبما أنهم مقامرون فإنهم يستدينون بالمقابل من المزرعة، ولكي يدفعوا لدائنيهم يوقعون عقداً بتمديد العمل سنة أو سنوات أخرى في سبيل الحصول على مبلغ.

عملياً لا يتخلصون أبداً وهم قادرون على المقامرة بعمل نسائهم، وهم يحافظون على شرف الكلمة. والشئ المقدس عندهم هو الأولاد. يفعلون أي شيء لحمايةهم من العبودية ويحملون أقصى العقوبات، وأقصى أنواع الحرمان ولا يدعون واحداً من أبنائهم يوقع عقداً مع المزرعة.

واليوم هو موعد زواج هندية، والجميع في ملابس ضافية، فالنساء يرتدين أثواباً بيضاء والرجال أيضاً يلبسون قمصاناً بيضاء طويلة تصل إلى الكعفين، وهناك كثير من أزهار البرتقال.

وبعد القيام بعدة شعائر دينية، يبدأ المشهد في اللحظة التي يأخذ فيها العروس عروسه. فاللدعويون يصطفون على يمين باب الدار ويساره. والرجال من جهة والنساء من جهة أخرى. ويجلس الأبوان على عتبة الدار والباب مفتوح. العروسان يقبلان أفراد الأسرة ويمران من بين الصفين الطويلين الممتدين إلى بضعة أمتار، وتهرب العروس من ذراع عريسها بغتة، وتعدو إلى أمها والأم تحفي عينيها بيد وترد فتاتها إلى الزوج باليد الأخرى، والزوج يمد يديه منادياً، والعروس تقوم بحركات تدل على حيرتها، وأمها هي التي منحتها الحياة، حسناً، لذا فهي تظهر شيئاً تخرجه من بطنها والأم تعرض عليها ثديا. فهل تنسى كل هذا لتلحق بالرجل الذي أحببت؟ ربما. وتقول، بالإيماء لزوجها: لا تستعجل، وترث قليلاً بعد. دعني أتأمل هذين الأبوين الطيبين جداً اللذين هما سبب وجودي حتى

الساعة التي قابلتك فيها. وهو بدوره يقوم بحركات إيمائية يفهمها بأن الحياة تقضي بأن تكون زوجة وأماً.

يجري هذا كله على أنغام الأناشيد التي تغنيها البنات، ويرد عليهن الفتیان. وفي النهاية وبعد أن تقبل والديها تقوم بعدة خطوات جرياً، وترتمي بين ذراعي زوجها الذي يحملها مسرعاً إلى عربة تنتظرها، وهي مزدانة بالأزهار.

نحن نعد للهروب بدقة. لقد أعدنا مركباً طويلاً وعريضاً، وشراعاً جيداً وقلعاً وسكاناً ممتازاً وقد اتخذنا كل احتياطات لثلاث نلقت نظر رجال الشرطة. وقد خبأنا المركب في نهر التوبة، النهر الصغير الذي يصب في النهر الكبير المسمى ديميرارا، مقابل حينا. وهو مصبوغ ومرقم بدقة كأني مركب صيد صيني مسجل في جورج تاون. فإذا تسلط عليه ضوء المنارة فطاقم السفينة هو وحده المغاير، وينبغي للتمويه أن لا نكون واقفين لأن الصينيين في المركب الذي نسخنا عنه صورة مركبنا قصيرة قاماتهم، ناحلة أجسامهم، أما نحن فطوال أشداء.

كل شيء يجري في أمان. وخرجنا من ديميرارا، متلهفين، إلى عرض البحر؛ وعلى الرغم من نشوة الفرحة. بالخروج دون تعرض لخطر الاقتضاح، شيء واحد منعني من الاستمتاع بهذا النجاح، وهو أنني رحلت كاللص دون أن أشعر أميرتي الهندية. ولم أكن راضياً عن نفسي. هي وأبوها وقومها لم يفعلوا معي إلا الخير وبالمقابل فقد أسأت الجزاء. لا أحاول إيجاد مسوغات لسلوكي هذا ورأيت أن ما فعلته بعيد عن الذوق، وما أنا براص عن نفسي أبداً. لقد تركت على المنضدة جهازاً ست مئة دولار، ولكن المال لا يساوي ما لاقيت منهم.

عناصر الهروب خمسة رجال: غيتو، وشابار، وبارير، ورجل من بوردو، ودوبلاك، وهو من ديجون وأنا. بابين هو القبطان المسؤول عن الملاحه. بعد أن قطعنا ثلاثين ساعة في البحر وقعنا في عاصفة هوجاء وتبعها نوع من الإعصار. برق ورعد، مطر وأمواج ضخام مضطربة، ورياح عاصفة تدور فوق البحر نحملنا ولا نستطيع مقاومتها في شوط مجنون مأساوي فوق سطح البحر، لم أر ولم أتصور مثله.

لأول مرة وفيما مربي من تجارب أرى الرياح تدور وتغير اتجاهها في النقطة التي تمحي فيها رياح الأليزة تماماً، على حين أن الإعصار يرقصنا في اتجاه معاكس، وإذا دام هذا ثمانية أيام فإنه سيقودنا إلى السجن.

هذا الإعصار جدير بأن لا ينسى. عرفت فيما بعد في ترينيداد من أغوستيني القنصل الفرنسي أنه قطع له أكثر من ستة آلاف جولة هند في مزرعته. هذا الإعصار الحلزوني نشر أشجار النارجيل نشرأ على ارتفاع إنسان، وبيوت اجثت من أساسها وتطايرت في الهواء بعيداً وسقطت على الأرض أو في البحر.

لقد خسرنا كل شيء: المؤونة والأمتعة وبراميل الماء، وانكسر الصاري، والأخطر من هذا كله انكسار السكان، وأنقذ شابار بمعجزة مجدافاً صغيراً. وبه حاولت أن أقود المركب وفوق هذا كله. فقد تعرينا جميعاً لنصنع من ملابسنا نوعاً من الشراع واستخدمنا كل شيء: السترات والبنطالات والقمصان وبقينا نحن الخمسة عراة إلا من السروال.

هذا الشراع المصنوع من ملابسنا خيط بسلك معدني كان معنا في المركب أتاح لنا الإبحار بهذا الصاري المقطوع. وهبت رياح الأليزة من جديد، استغللتها في محاولة الاتجاه نحو الجنوب للوصول إلى أية أرض حتى ولو عدنا إلى غويان الانجليزية.

الحكم الذي ينتظرنا هناك هو الترحيب. لقد سلك رفاقي سلوكاً جديراً بالإعجاب أثناء العاصفة وبعدها، أو بالأحرى بعد الطوفان والإعصار. وبعد ستة أيام اثنان منها كانا هادئين. ها قد رأينا اليابسة.

وبقطعة الشراع هذه التي اقتلعتها الريح رغم ما فيها من ثقوب لم نستطع الإبحار كما نشتهي. والمجداف الصغير كذلك لم يكن كافياً للتوجيه الحازم الموثوق.

وسبب عرينا أصبنا بحروق شديدة في أجسامنا مما أضعف قوانا في مصارعنا للبحر وانسلخت بشرة أنافنا جميعاً، والشفاه والأقدام. وظهر الأفخاذ وبطنها كلها لحومها الحية الظاهرة والمعطش يعذبنا حتى أن دبلاك وشابار قد شربا من ماء البحر فازدادوا ألماً، ولكن رغم الظمأ والجوع فإن أحداً منا لم يتشك، ولم يقدم أحد منا لغيره نصيحة. فمن أراد أن يشرب من ماء البحر أن يرش منه على جسده قائلاً بأن هذا يرطبه فسوف يعرف من تلقاء نفسه بأن الماء المالح سيزيد قروح، ويحرقه وبخاصة عند التبخر.

وأنا وحدي عيني مفتوحة تماماً وسليمة على حين أن رفاقي قد تقيحت أجفانهم وتلاصقت، لأن العيون تتطلب الغسيل مهما كلفتنا من ألم، لأننا في حاجة إلى فتح العينين والنظر الجيد.

وأصابنا حروقنا شمس حادة إلى درجة يصعب احتمالها، وكاد دبلاك يخن، ويتحدث عن إلقاء نفسه في الماء.

منذ ساعة وأنا أتصور أنني أرى اليابسة في الأفق. وتوجهت نحوها طبعاً. لم أقل شيئاً لأنني غير مستوثق. وصلت إلينا طيور وبدأت تحوم حولنا إذ أن كُنْ مخطئاً، وأنذرت بأصواتها رفاقي الذين تمددوا في المركب من اللغوب من حرارة الشمس يحمون وجوههم منها بأذرعهم. مضمض غيتو فمه ليستطيع التكلم فقال:

— أترى الأرض يا بابي؟

— نعم.

— بعد كم من الوقت تعتقد أننا بالغوها؟

— بعد خمس أو سبع ساعات. اسمعوا يا أصدقائي. لم يبق لي صبر ولا جلد، وبى فوق ما بكم من حروق، زيدوا على ذلك أن جلد أليتي تسليخ من شدة الاحتكاك على خشب المقعد وبمياه البحر.

ليست الريح شديدة ولا نتقدم إلا ببطء، وذراعي تنقلصان باستمرار وكذلك يداي المتعبتان من شدة القبض منذ زمن على المجذاف الذي استخدمه بدلاً من السكان.

— هل تقبلون شيئاً؟ نزيل الشراع وننشره فوق المركب كالسقف يحمينا من نار الشمس حتى الليل، فللمركب يذهب وحده مع المد نحو الأرض، وعلى أحذكم بأن يقبل بأن يأخذ مكاني على السكان اتخذت هذا القرار حوالي الساعة الثالثة عشرة. وتحت أشعة الشمس تمددت بارتياح حيواني في قاع المركب وتحت الظل أخيراً. وخصص لي أصدقائي خير مكان حتى أستطيع استنشاق الهواء من الأمام، وحتى من كان مكلفاً الحراسة جلس تحت ظل الشراع ثم نمنا جميعاً من شدة الإنهاك مستمتعين بهذا الظل الذي أتاح لنا ملجأ من شمس لا ترحم. سمعنا صوت صفارة فأيقظتنا دفعة واحدة، أزجت الشراع، وكان الليل غميراً في الخارج. كم يمكن تقدير الساعة؟ وعندما جلست إلى السكان هب نسيم عليل أنعش جسمي المسكين المسلوخ، وعلى الفور أحسست بالبرد، كما أحسست براحة مما كنت أفاقيه من الحروق.

رفعت الشراع بعد أن نظفت عيني بماء البحر، ولم أشعر لحسن الحظ بحرارة في سوى واحدة منها، وهي المتقيحة، ورأينا الأرض بوضوح على يميني وعلى يساري أين نحن؟ وإلى أي الجهتين أنحاز؟ وسمعنا زجاجة الصفارة مرة أخرى وأدركت أن الإشارة من الجهة اليمنى. ماذا يقولون لنا؟

قال شابار: أين نحن في اعتقادك يا بابي؟

— بصراحة. لا أدري. إذا لم تكن هذه الأرض معزولة، وإذا كنا في خليج، فنحن عند رأس غويان الانجليزية. الجزر ينتهي في أورنه نوك وهو نهر كبير في فنزويلا، وهو يشكل حداً من الحدود. وأما إذا كانت أرض اليمين مشغولة بمساحة كبيرة من أرض اليسار فشبه الجزيرة حينئذ هي ترينيداد.

على اليسار فنزويلا، إذن فنحن في خليج باريا. وذكرياتي عن الخرائط البحرية التي سنحت لي الفرصة أن أدرسها، حددت لي ضرورة الاختيار. فإن كانت ترينيداد على اليمين وفنزويلا على اليسار فماذا نختار؟ وهذا الاختيار يضع مصيرنا في كف القدر. ولم يبق عسيراً، بهذه الريح اللينة أن نتجه نحو الساحل، ولكن في هذه اللحظة لن نتوجه إلى هذه أو تلك. فالانجليز في ترينيداد، السلطة نفسها في غويان الانجليزية. قال غيتو:

— من المؤكد أنهم سوف يحسنون معاملتنا.

— نعم ولكن أي قرار سيتخذون بسبب مغادرتنا في زمن الحرب أرضهم دون رخصة وبصورة غير مشروعة؟
— وفنزويلا؟

قال ديبلانك: لا ندري كيف تكون الأحوال، ففي عهد الرئيس غوفر كان السجناء مجبرين على العمل في الطرقات في شروط قاسية جداً ثم يردون إلى فرنسا.
— نعم. أما الآن فليس الأمر مشابهاً فنحن في أيام حرب.
— وهم حسبما سمعت في جورج تاون ليسوا في حالة حرب. إنهم حياديون.
— هل هذا أكيد؟
— نعم هذا مؤكد.
— إذن في هذا خطر علينا.

رأينا على اليابسة يميناً أضواء، وكذلك على يسارنا. مرة أخرى أطلقت الصافرة ثلاث صفرات متتاليات. وجاءتنا إشارات ضوئية من الساحل الأيمن، وبدأ القمر بالظهور. إنه بعيد عنا ولكنه على خط مسارنا. وألفت أماننا صخرتين عملاقتين مديبتين وسوداوين. تبرزان عالياً في البحر، وربما كان هذا هو السبب في صغير الصافرة، ولعلمهم يمحذروننا من الخطر. وهذه علامات طافيات على سطح الماء وهي تدل على الطريق أو تمنع سير السفن وقد انتظمت مثل خرزات السبحة. لم لا ننتظر طلوع الصبح متعلقين بواحدة منها؟ اخفض الشراع يا شابار! فنزع على الفور هذه القطع من البنطالات والقمصان التي أسميها تجاوزاً شراعاً. ألجمت المركب بالمجداف الذي يشبه الرفش ووجهت مقدمته نحو إحدى الطافيات، ولحسن الحظ إنه ما زالت لدينا رمة حبل معلقة في حلقة لم يستطع الإعصار اقتلاعها. لقد وقفنا وعلقنا الحبل بالعلامة الطافية، لا. ليس مباشرة بها إذ ليس فيها ما يمسكه الحبل، وإنما بالحبل الذي يربط طافية بأخرى. اضطجعنا كلنا في قاع المركب دون أن نهتم بالصغير المستمر الذي يأتينا من جهة اليمين، وقد تغطينا بالشراع وقاية من الرياح. أحسست بدفع عذب يحتاج جسمي الذي أرعدته الرياح والبرد في الليل. وربما كنت أول من شخر وعندما أفقت كان النهار مصحياً وصافياً، وكانت الشمس قد بزغت، والبحر هائج قليلاً. ولونه الأزرق المخضر يدل أن القاع مرجاني.

قال شابار: ماذا نفعل لتقدر الذهاب إلى اليابسة، يكاد يقتلني الجوع والعطش.
(وهذه أول مرة يتشكى فيها منذ بدء الصيام وبالضبط منذ سبعة أيام).

نحن قريبون جداً من البر وليس هناك خطأ كبير يمكن أن تقع فيه. وعندما اتخذت مكاني رأيت أمامي على المدى البعيد متعرج الأرض بعد الصخرتين الضخمتين اللتين تبرزان من البحر. إذن ترينيداد على اليمين وفنزويلا على اليسار ونحن بلا ريب في خليج باريا وإذا كان الماء أزرق غير مصفر بطمي نهر الأورنيون فذلك لأننا في التيار الذي يمر بين البلدين متوجهاً نحو عرض البحر.

— ما العمل؟ عليكم أن تقتنعوا إذ ليس سهلاً أن اتخذ منفرداً قراراً حاسماً فعلى اليمين جزيرة ترينيداد الانجليزية وعلى اليسار فنزويلا فأين تقصدون؟ ونظراً لحال المركب وأوضاعنا الجسدية يجب الإسراع فى الذهاب إلى البر. ففينا اثنان متحرران غيتو وبارير. أما نحن الثلاثة: شارباز وديبلانك وأنا، فحالتنا أخطر. ولنا نحن أن نقرر فما رأيكم؟ الذهاب إلى ترينيداد أكثر حكمة فنزويلا بلد مجهول.

قال ديبلانك: لا ضرورة لاتخاذ قرار. فهذا المركب الآتي هو الذى يتخذ قراركم. وبالفعل كان يتقدم نحونا مركب مراقبة سريع، وها هو يتوقف على بعد خمسين متراً ورجل يحمل مكبراً للصوت، ولحت علماً ليس هو العلم البريطانى، مليء بالنجوم وجميل، ولم أر هذا العلم فى حياتي، فلا بد أن يكون فنزويلاً، وهو العلم الذى سيصبح علمي فى وطني الجديد، وهو الرمز الأشد تأثيراً فى نفسي، وهو الذى جمع فى رقعة من القماش أنبل الصفات لأعظم شعب هو شعبي.

— كيين سون فوستروس (من أنتم؟)

— نحن فرنسيون.

— استان لوكوس (هل أنتم مجانين؟)

— لماذا؟

— بوركه سون أماراردوس آميناس (لأنكم ربطتم أنفسكم بالألغام)

— لهذا السبب لم تقتربوا؟

— نعم. انفصلوا عنها.

— حسناً.

وصل شابار الجبل فى ثلاث ثوان إذ لم تكن متعلقين إلا بسلسلة من الألغام العائمة لا أكثر ولا أقل، وأوضح لي قائد المركب الذى يقترنا بأن عدم نسفنا بلغم كان معجزة، ودون أن نصعد إلى ظهر مركبهم كانوا يناولوننا القهوة والحليب الساخن والسجائر. — هيا إلى فنزويلا وستلقون أحسن معاملة أؤكد لكم ذلك. ولا نستطيع أن نقطركم إلى البر لأننا فى عجلة من أمرنا لإحضار جريح حالته خطيرة، عند منارة باريماس ولا نحاولوا الصعود إلى ترينيداد لأن فرص اصطدامكم بالألغام ستكون بنسبة تسعين بالمئة وحيث...

وبعد عبارة آديوس بيونا سويرتا (إلى اللقاء وحظ سعيد) رحل مركب المراقبة وقد تركوا لنا لترين من الحليب. صلحنا الشراع، وفى الساعة العاشرة صباحاً كانت معدتي فى طريق الانفتاح من بعد طول التصاق، وذلك بفضل القهوة والحليب ووضعت بين شفطي السجارة، ولم ألبث أن رسوت دون اتخاذ احتياطات ما على شاطئ ناعم الرمل حيث تجمع خمسون إنساناً ينتظرون رؤية القادمين على هذا المركب الغريب: الصاري مكسور، والشراع مصنوع من البطالات والسترات.

فنزويلا صيادو إيرابا

اكتشفت عالماً وأناساً وحضارة غريبة عني كلياً . وهذه الدقائق الأولى على الأرض الفنزويلية كانت باللغة التأثير بحيث كانت تحتاج إلى قريحة سامية تستطيع أن تصور، بالقليل الذي أعرفه، أصدق تصوير هذا الجو الترحيبي الحار الذي استقبلنا به هذا الشعب الأريحي .

هؤلاء الرجال فيهم الأبيض وفيهم الأسود، ولكن غالبيتهم من ذوي اللون الصافي: ضرب من اللون الأبيض تعرض للشمس بضعة أيام . بنظاراتهم مشمورة إلى ركبهم .

قالوا: يا هؤلاء الرجال المساكين! في أية حال أنتم؟

قرية الصيادين التي وصلنا إليها تسمى إيرابا، وهي نوع من التعاونية لدولة تسمى (سكن) الشابات جيلات وهن أقرب إلى القصر، وما الطفهن . والطاعنات في السن ككل العجائز يتحولن بدون استثناء إلى ممرضات أو أخوات محسنات أو أمهات حامية . جمعونا في سقيفة بيت حيث علقوا خمسة أسرة أرجوحية من الصوف ووضعوا خوانا وكراسي، ودهنوا أجسامنا بزبدة الكاكاو من رؤوسنا إلى أقدامنا، ولم يدعوا موضعاً صغيراً متقشراً دون أن يدهنوه . كنا على وشك الموت من لغوب ومسغبة^(١)، وصياننا الطويل أحدث فينا نوعاً من التجفاف . ورجال الساحل يعرفون بأننا في حاجة إلى النوم، وإلى الأكل بكميات قليلة، وكان كل واحد منا مستلقياً في سريره يتلقى لقيمات من إحدى الممرضات .

لقد كنت منهوك القوى في اللحظة التي مددوني فيها على السرير، وجروحي التامت بسبب زبدة الكاكاو . كنت أنام وآكل وأشرب ولا أحس بما يجري حولي، إن الملاعن

(١) اللغوب: التعب، المسغبة: الجوع.

الأولى من شراب يشبه شراب البتيوكا عندنا لم تقبلها معدتي. وقد تقيأنا جميعاً بعض أو كل ما كانت تضعه هذه المرضات في أفواهنا.

إن ناس هذه القرية فقراء فقراً مدقعاً، ومع ذلك كان كل واحد منهم بغير استثناء يساهم في مساعدتنا. وبعد ثلاثة أيام وبفضل عناية هذه المجموعة وبفضل شبابنا أوشكنا على الوقوف على أقدامنا. كنا نهض ساعات طويلة وجلس تحت هذه السقيفة المصنوعة من ورق النارجيل التي تهبنا ظلاً ظليلاً. كنا نتحدث أنا وصحبي مع هؤلاء الناس. لم يكن عندهم ما يكفي لإلباسنا دفعة واحدة، وتألقت لجان، فهذه تهتم بغيتو، وأخرى بديلاتك الخ ويبلغ عدد الذين يهتمون بشأني حوالي اثني عشر شخصاً.

في الايام الأولى البسونا أمتعة مستعملة ولكنها نظيفة جداً. والآن فإنهم يشترون لنا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فتارة قميصاً جديداً أو بنطالاً وتارة حزاماً أو نعلاناً. من جملة النساء اللاتي يعتنن بي فتاتان شابتان واحدة منهن من طراز هندي هجينة بدم إسباني أو برتغالي. إحداهن تدعى تيزاي والأخرى نينيتا. اشتريا لي قميصاً وبنطالاً وخفاناً. إنه نعل من الجلد بدون كعب، ويغطي الرجل بقماش مضفور. رسغ القدم مغطى، والإبهامان عاريان ويصل القماش إلى الكعب.

— لا حاجة لأن نسألكم من أين أنتم قادمون. فالوشم ينبئنا بأنكم هاربون من السجن الفرنسي.

وقد أثارني هذا إثارة كبيرة. كيف تسنى لهم أن يعرفوا أننا محكومون بجرائم خطيرة وهاربون من سجن، يعرفون عن طريق الكتب أو المقالات، كل ما فيه من عنف وقسوة. وهؤلاء الناس المتواضعون يجدون في إنقاذنا ومساعدتنا أمراً طبيعياً.

إن إكساء الغني أحداً، أو إطعام ابن السبيل الجائع حين لا ينقص هذا شيئاً من البيت عن الأسرة، إن هذا ليحمل آيات الخير كله. وأما اقتطاع نصف رغيف من خبز الذرة، أو نصف فطيرة في وقت لا يكاد الزاد يكفي صاحبه، أو لا يكفي مع ذويه، واقتسام الوجبة المقتررة التي هي أدنى من الراتب الغذائي مع رجل غريب، زد على ذلك أنه رجل هارب من العدالة، فهذا أمر رائع.

كان الناس في هذا الصباح نساء ورجالاً واجمين ويبدو عليهم القلق، فماذا يجري؟ تيزاي وأنايتا على مقربة مني وكنت قد استطعت حلاقة لحيتي بعد خمسة عشر يوماً من إرسالها. وما نحن وسط هؤلاء القوم منذ ثمانية أيام وهم يحملون قلوبهم بأيديهم. حلقت لحيتي مجازفاً بعد أن تشكلت بشرة رقيقة على قروحي، وبسبب لحيتي لم يكن عند النساء إلا فكرة غامضة عن عمري وقلن لي في سذاجة بأنهن مدهوشات بأن يرينني شاباً، ومع ذلك عمري خمس وثلاثون سنة على حين لا يبدو علي أكثر من ثمان وعشرين أو ثلاثين.

نعم كل هؤلاء النساء والرجال المضيافين قلقون من أجلنا. هذا ما أشعر به.

— ماذا يمكن أن يحصل تكلمي يا تيزاي. ماذا يجري؟
 — نتوقع قدوم السلطات من غيرا القرية المجاورة لإيرابا. لا يوجد هنا رئيس مدني (مفوض) ولاندري كيف علمت الشرطة بوجودكم؟ وسوف يأتون.
 أقبلت نحوي فتاة سوداء طويلة وجيلة وفي صحبتها فتى عاري الجذع يرتدي بنطالاً أبيض مطوياً طيات إلى ركبتيه. جسمه حسن التناسق كأجسام مصارعي اليونان القدامى. نيجريتا (أي الزنجية) وهو اسم الدلال المستعمل في نداء الملونات في فتزويلا، حيث لا تميز عنصري عندهم، ولا تفرقة دينية، قالت لي:
 — سنيور أنريكو، (أي/ يا سيد هنري) إن الشرطة قادمة ولا أدري أشراً يريدون بكم أم خيراً. هل ترغب في الاختفاء لفترة من الزمن في الجبل؟ يستطيع أخي أن يقودك إلى بيت صغير حيث لا يستطيع أحد العثور عليك والأمر يبقى سرّاً بيني وبين تيزاي ونيتا، وسوف نوافيك كل يوم بالطعام ونزودك بالأخبار.
 كنت في غاية التأثر حتى أنني أردت تقبيل يد هذه الفتاة النبيلة ولكنها سحبت يدها، وبلفظ وصفاء سريرة تركتني أقبل وجنتيها.
 أقبل فرسان تعدو بهم الخيل وكلهم يحملون مناجل خاصة بقطع قصب السكر، تتدلى على أيسارهم كالسيوف ويتمنطقون بحزام صف فيه الرصاص صفّاً وتتعلق على أوراكهم مسدسات كبيرة في أعمادها. ترجلوا ثم تقدم نحونا رجل منغولي السحنة أخوص^(٢) نحاسي البشرة، طويل ونحيل يبلغ من العمر قرابة الأربعين عاماً ويغطي رأسه بقبعة من قش الرز واسعة. قال:
 — صباح الخير. أنا الرئيس المدني مدير الشرطة.
 — صباح الخير ياسيدي.
 — لم لم تنذر بأنكم خمسة من الهاريين من كايين، ولقد قيل لي إنكم هنا منذ ثمانية أيام. أجب.
 — كنا ننتظر أن يبرؤوا من حروقهم، وأن يصبحوا قادرين على السير.
 — جئنا نبحت عنهم لناخذهم إلى غيرا وستأتي عما قليل شاحنة لنقلهم.
 — هل لك في قهوة؟
 — أجل وشكراً.
 جلسنا جميعاً في حلقة نحتسي القهوة، وكنت أنظر إلى مدير الشرطة ورجاله، ولا يبدو عليهم الشر، وأوحوا لي أن أطيع أوامر عليا.
 — هل أنتم هاريون من جزيرة الشيطان؟
 — لا نحن آتون من جورج تاون/ من غويان الانجليزية.

(١) المهجين من كان من أبوين ليسا من جنس واحد.

(٢) الأخوص غائر العينين.

— لم غادرتوها؟

— كسب العيش هناك صعب. فقال مبتسماً:

— وهل تعتقدون أنكم ستكونون هنا أفضل مما كنتم عليه مع الانجليز؟

— نعم لأننا لاتبينون مثلكم.

تقدمت منا جماعة قوامها سبعة أو ثمانية رجال وعلى رأسهم رجل في الخمسين من عمره أشيب الشعر يزيد طوله على مئة وخمسة وسبعين سنتماً. لون جلده بلون الشوكولا. الصافي. وعينه الواسعتان السوداوان تمانان عن ذكاء للاح وشكيمة قوية نادرين. يده اليمنى على مقبض منجله المتدلي على طول فخذه.

— أيها المدير ماذا أنت فاعل بهؤلاء الرجال؟

— سأقودهم إلى سجن غويريا.

— لم لاتدعهم يعيشون معنا بين أسيرنا. كل واحد منا يأخذ واحداً.

— هذا غير ممكن إنه أمر من الحاكم.

— ولكنهم لم يرتكبوا إثماً على الأرض الفنزويلية.

— أعرف ذلك، ورغم هذا كله، فهم رجال خطرون، فكونهم محكومين بسجن الميناء الفرنسي فهذا يعني أنهم ارتكبوا جرائم خطيرة. زد على ذلك أنهم هاربون وليس معهم بطاقات شخصية. وسوف تطلبهم شرطة بلادهم بالتأكيد حينما يعلمون بوجودهم في فنزويلا.

— نريد الاحتفاظ بهم معنا.

— هذا مستحيل فالأمر صادر عن الحاكم.

— كل شيء ممكن وماذا يعرف الحاكم عن رجال بؤساء؟ فالرجل لا يضيع، فمهما ارتكب في فترة من حياته، فلا بد من فرصة تسنح لإرجاعه إلى المجتمع ويكون رجلاً صالحاً ونافعاً، ما رأي الآخرين؟

فرد الجميع بصوت واحد رجالاً ونساءً

— نعم دعوهم لنا وسوف نساعدهم على ابتداء حياة جديدة. ففي مدة ثمانية أيام عرفناهم على حقيقتهم. فهم بالتأكيد رجال طيبون.

قال المدير:

هناك أناس أكثر حضارة منا واضعوهم في غياهب السجن ليمنعوا أذاهم.

فسأله: ماذا تعني الحضارة أيها المدير؟ هل تعتقد لأننا نملك مساعد كهربائية وطائرات وقطاراً تحت الأرض، هل في هذا برهان على أن الفرنسيين هم أكثر حضارة من أناس استقبلونا وبذلوا لنا العناية؟ وفي رأيي المتواضع أن الحضارة الإنسانية هي بمقدار السمو الروحي وفهم كل مخلوق في هذا المجتمع الذي يعيش في سذاجة في هذه الطبيعة ولو لم يستكمل — وهذه حقيقة — أسباب الحضارة الصناعية وحسناتها. فإذا لم تتوفر لهم منجزات التقدم فلم يحرموا من عاطفة محبة الله المسيحية التي هي أسمى من كل ادعاءات

الحضارات في العالم فأننا أفضل أمة في هذه الضيعة على المجاز في الآداب من السوربون في باريس الذي تقيص يوماً ما روح المدعي العام وحكم علي. فالأول هو دوماً إنسان، والآخر نسي أنه إنسان.

— أنا أفهمك، ولكنني لست مع ذلك سوى أداة. هاهي الشاحنة آتية وأرجوكم مساعدوني على أن تجري الأمور بغير حوادث. وأخذت كل فئة من النساء تقبل الرجل الذي أولته عنايتها. بكت تيزاي ونينيتا ونيجريتا بدموع حارة وهن يقبلنني. وصافحنا كل رجل معبراً بذلك عن شديد ألمه لرؤيتنا ذاهبين إلى السجن.

إلى اللقاء يا أهل إرابا يا ذوي الأصل النبيل الذين تجرأتم على التصدي لسلطات بلدكم ولومهم من أجل الدفاع عن شياطين مساكين، كانوا بالنسبة إليكم حتى الأمس نكرات. إن الخبز الذي أكلته عندكم، هذا الخبز الذي قسرتم أنفسكم على انتزاعه من أفواهكم لتقدموه لنا، هذا الخبز الذي هو رمز للأخوة الانسانية، كان بالنسبة إلي المثل الأسنى من العصور الغابرة : لن تقتل أبداً، وسوف تفعل الخير مع من يتألمون حتى ولو كلفك هذا شيئاً من الحرمان. وساعد دوماً من هو أنتس منك.

وإذا كتبت لي الحرية يوماً فسوف أساعد الآخرين كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً كما علمني هؤلاء الرجال الأوائل الذين لاقيتهم في فنزويلا وسوف ألقى آخرين فيها بعد.

سجن الدورادو

وصلنا بعد ساعتين إلى قرية كبيرة على شاطئ البحر وهي تحاول أن تأخذ مظهر المدينة إنها غويريا.

الرئيس المدني (وهو نوع من المديرين عندنا) قدمنا بنفسه إلى المقدم في شرطة البلد. في هذه المفوضية عوملنا معاملة بين الحسنة والسيئة، وخضعنا لاستجواب واستعلام، وقليل العقل لا يريد أن يصدق بأننا آتون من غويان الانجليزية حيث كنا أحراراً. وفوق هذا كله طلب أن نفسر له سبب وصولنا إلى فنزويلا في هذه الحالة من الإملاق^(١) والإعياء بعد رحلة قصيرة جداً من جورج تاون إلى خليج باريا. يقول بأننا نسخر منه بسرد حكاية

(١) الفقر.

الإعصار هذه: نخلتان ضخمتان قد بادتا مع أحاملها في هذا الإعصار الشديد، ومركب يحمل باليوكسيت قد غرق مع طاقمه، وأنتم بهذا القارب الذي لا يتجاوز طوله خمسة أمتار وهو مكشوف في هذا الجو المتقلب ثم كتم من الناجين؟
من يصدق هذه الحكاية؟ حتى ولا الولد المتسول يمكن أن يصدقكم، إن أنتم إلا تكذبون ولا بد من وجود شيء مريب فيما تقصون.

— ما عليكم إلا الاستعلام من جورج تاون.

— لا أريد أن يلهو الانجليز بلحيتي.

إن هذا السكرتير المحقق، الأبله والعنيد، المتشكك والدعي، لا أدري أي تقرير رفع ولا الجهة التي رفعه إليها. وعلى كل حال أيقظونا في الساعة الخامسة صباحاً، ووجهونا مكبلين نحو مصير مجهول.

مرفا غويريا في خليج باريا، وهو كما ذكرت يواجه ترينيداد. ويستفيد من دخول نهر عظيم عظمة الأمازون وهو نهر أورينوك. كنا خمسة مكبلين ومعنا عشرة من الشرطة في شاحنة تهوي بنا نحو سيوداد بوليفار عاصمة دولة بوليفار. والسفرة على طريق ترابية أتعبتنا كثيراً. أشرطاً وسجناء كنا نرتج ونقلب مثل أكياس الجوز على أرض الشاحنة التي تهتز في كل لحظة أسوأ مما لو كنا نركب زلافة. ودامت الرحلة خمسة أيام ننام كل ليلة في الشاحنة وفي الصباح نستأنف السير في سباق جنوبي، نحو قدر غير معلوم.

على بعد أكثر من ألف كيلومتر من البحر، وفي غابة عذراء تثقيها طريق ترابية تبدأ من سيوداد بوليفار إلى إلدورادو، أخيراً انتهت هذه الرحلة المضنية.

كنا، جنوداً وسجناء، في حالة يرثى لها حينما وصلنا قرية إلدورادو، ولكن ما إلدورادو؟ كانت أولاً أمل الأفارقة الإسبان الذين رأوا الهنود الاثنين من هذه المنطقة يحملون الذهب فاعتقدوا جازمين بأنه يوجد جبل من ذهب، أو على الأقل نصفه ذهب ونصفه تراب.

وجملة القول إن إلدورادو قبل كل شيء قرية على شاطئ رملي يكثر فيه بعض أنواع الحيوانات. والأسماك المفترسة التي تفترس إنساناً أو دابة في بضع دقائق، وفيه أسماك كهربائية كالرعاد، والتي تدور حول فريستها إنساناً كان أم رعاداً وتكهربه في سرعة وبالتالي تمتص ضحيتها بتفتيتها.

وفي وسط النهر جزيرة، وعلى هذه الجزيرة معسكر حقيقي، هو السجن الفنزويلي. هذه المستعمرة للاشغال الشاقة أقسى ما رأيت في حياتي وأشد وحشية، وأكثرها بعداً عن الإنسانية، بسبب جلد السجناء. إنه مربع ضلعه مئة وخمسون متراً في الهواء الطلق عاط بأسلاك شائكة. ما يقرب من أربع مئة رجل ينامون خارجاً معرضين إلى طقس قلب إذ لا يوجد سوى بضع ألواح من التوتياء للاستظلال بها حول المعسكر.

دون انتظار كلمة تفسير منا ودون تحقق من هذا القرار أدخلونا في سجن إلدورادو في

الساعة الثالثة من بعد الظهر لدى وصولنا ونحن على وشك الهلاك من التعب الذي لاقيناه في هذه الرحلة المضنية، مصفدين في هذه الشاحنة.

وفي الساعة الثالثة والنصف ودون أن يسجلوا أساءنا نادونا وأعطوا اثنين منا مجرفة ولكل من الثلاثة الآخرين رفشاً. أحاط بنا خمسة جنود، بأيديهم البنادق والسياط، ورئيسهم يصدر الأوامر. أجبرونا تحت طائلة الجلد، على التوجه نحو مكان الشغل، وفهمنا على الفور بأن هذا نوع من استعراض العضلات، أرادته إدارة المعسكر التأديبي. ومن الخطر الفادح أن نعصي في الوقت الحاضر على الأقل. وسنرى فيما بعد. وصلنا إلى المكان الذي يشغل فيه السجناء. وقد خصصوا لنا جانباً من الطريق لنفتحها، وكانوا يشقونه في وسط الغابة العذراء فاطعنوا ولم نتفوه بكلمة، كل واحد حسب قدرته دون أن نرفع رأساً، ولم يمنعنا شيء من سماع الشتائم والضرب ينزل بالسجناء دون توقف. ولكن واحداً منا لم يثقل ضربة سوط. هذا المشهد من الشغل لدى وصولنا كان يقصد منه أن نرى كيف يعامل السجناء.

في يوم السبت وبعد شغل جاهد سال معه عرقنا وغطانا الغبار أدخلونا إلى معسكر السجناء دون اجراءات قانونية. قال رئيسهم:

الخمسة القادمون من كاين من هنا. إنه خلاسي يبلغ طوله مئة وتسعين سنتراً، وبيده سوط. هذا الدنس الشرس مسؤول عن النظام داخل المعسكر فقط. دلونا على المكان الذي نضع فيه أسرتنا الأرجوحية قرب باب مدخل المعسكر في الهواء الطلق. إنما هنا توجد ألواح من القصدير، فعلى الأقل سنكون في حمي من المطر والشمس. غالبية السجناء من كولومبيا، والباقيون من فنزويلا.

ليس هناك معسكر تأديبي يمكن مقارنته بقطاع هذه المستعمرة للاشغال. إن الحمار ليموت من سوء معاملة هؤلاء الرجال، ومع ذلك كلهم يتمتعون بصحة جيدة لأن الغذاء متوفر جداً وشهي. شكلنا مجلساً حربياً صغيراً وقررنا أنه إذا امتدت إلينا يد جندي بالضرب، فخير ما نفعله الإضراب عن العمل وأن نستلقي على الأرض، ومهما تكن المعاملة فلن نهض. وسوف يأتي رقيب يمكن أن نسأله: كيف ولماذا نحن في سجن الأشغال الشاقة دون أن نفتقر ذنباً؟

غيتو والآخر المتحرران سيطلبان إعادتهما إلى فرنسا، ثم قررنا استدعاء الكابو بريتو أي الرئيس وعلى أن أكلمه، ويلقب بـ"بيجرو-بلانكو" (الأسود-الأبيض). وعلى غيتو أن يذهب لإحضاره. وصل هذا الجلاد والسوط لايفارقه فاحطنا به نحن الخمسة قال: ماذا تريدون مني؟ فأخذت أنا الكلام فقلت: نريد أن نقول لك شيئاً واحداً: نحن لم نفتقر أية غلطة تخالف النظام لذلك ليس لديك سبب لضرب أحد منا. ولما لاحظنا أنك تضرب أي كان وبدون داع في بعض الأحيان ناديناك لنقول لك إذا ضربت في يوم من الايام واحداً منا فأنت هالك. هل فهمت؟

— نعم.

- وهناك شيء آخر. فقال بصوت أخرس.

- ما هو؟

- إذا أردت أن تكرر ما قلته لك فليكن على مسمع من أحد الضباط لا على مسمع من جندي.

قال: سمعاً. وانصرف. حدث هذا المشهد يوم الأحد حيث لا يذهب السجناء إلى الشغل. وصل عسكري ذو شارة فقال:

- ما اسمك؟

- بابيون.

- أنت رئيس القادمين من كاين؟

- نحن خمسة وكلهم رؤساء.

- ولم تصدرت الكلام أمام الرئيس؟

- لأنني أحسن اللغة الأسبانية أكثر منهم.

إن محدثي من رتبة نقيب في الحرس الوطني، وقد قال إنه ليس مقدماً فهناك ضابطان أرفع منه شأنًا ولكنها غائبان. ومنذ وصولنا هو الذي يصدر الأوامر. وسوف يحضر الضابطان يوم الثلاثاء.

- أنت هددت باسمك واسم زملائك الرئيس بالقتل إذا ضرب أحدكم فهل هذا صحيح؟

- نعم. والتهديد جدي جداً والآن أقول بأننا لم نعط أي داع لعقوبة جسدية. وأنت تعلم أيها النقيب بأن المحاكمة ما أدانتنا، ولم نرتكب جرماً في فنزويلا.

- لا أعلم لقد وصلتم إلى المعسكر بدون أوراق، إلا إشعاراً من المدير الموجود في القرية يقول: شغلوا هؤلاء الرجال حال وصولهم.

- حسناً أيها النقيب كن منصفاً وعادلاً بصفتك عسكرياً، أوعز إلى جنودك بأن يعاملونا معاملة تختلف عن السجناء الآخرين بانتظار عودة رؤسائكم. وأؤكد لك بأننا لسنا محكومين ولا يمكن أن نكون كذلك ما دمنا لم نرتكب ذنباً في فنزويلا.

- حسناً سأعطي الأوامر بهذا المعنى وأمل أن لا تكونوا قد خدعتموني.

تسنى لي أن أدرس السجناء ما بعد ظهر أول يوم أحد. وأول ما أدهشني أن الجميع يتمتعون جسدياً بصحة جيدة. ثانياً: إن الجلد مادة يومية تعودوا على احتمالها إلى درجة أنه في يوم الراحة - الأحد - حيث يمكن تفاديها في يسر إنهم يحتملونها وكأنهم يجدون متعة سادية في اللعب بالنار. ولا يكفون عن فعل شيء محظور كاللعب بقمع الخياطة^(١) أو تقبيل فتي، أو سرقة زميل أو التلطف بكلام بذيء أمام النساء اللاتي يأتين من القرية حاملات الحلوى والسجائر للسجناء، ويجبرين معهم المقايضة: سلة مضمفورة أو شيء منحوت مقابل

(١) الكشبان.

مال أو علب سجائر. وهناك سجناء يجدون الوسيلة لأخذ ما تقدمه النساء من خلال الأسلاك الشائكة والركض بها دون أن يعطوهم ما اتفقوا عليه ثم يضيعون في زحمة الآخرين - وينتج عن ذلك عقوبات جسدية تطبق بحقهم لأي سبب والوسط يدبج جلودهم. والرعب يسيطر على هذا المعسكر دون مردود يعود على المجتمع أو على النظام، ولا يصلح من حال هؤلاء التعساء شيئاً. ولكن السجن الانفرادي في صمته أشد رهبة من هذا. الرهبة هنا مؤقتة والكلام ممكن ليلاً وخارج ساعات العمل ويوم الأحد. وكذلك فإن الغذاء هنا غني ووفير يساعد الرجل على إنجاز عقوبته التي لا تتجاوز في أية حال خمس سنوات.

أمضينا يوم الأحد في التدخين وشرب القهوة والتحدث فيما بيننا. اقترب منا بعض الكولومبيين، فأبعدناهم بلطف ولكن بحزم إذ ينبغي أن نعد أنفسنا سجناء مزولين وإلا سخرؤا منا. وفي اليوم التالي، الاثنين، وفي الساعة السادسة أفطرنا فطوراً وفيراً ثم سلكتنا طريقنا نحو العمل مع الآخرين.

وطريقة الاندماج في العمل على النحو التالي: يقف صفان من الرجال وجهاً لوجه، خمسون سجيناً يقابلهم خمسون جندياً. وبين الصفين خمسون أداة من المعاول والمجارف والقؤوس. الصفان من الرجال يتلاحضان. وصف السجناء في غمأة^(١) والجنود متوترو الأعصاب وساديون. يصبح العريف: فلان إلى المعول، ويسرع التعس، وفي اللحظة التي يلتقط فيها المعول ليلقي به على كتفه ويذهب إلى الشغل، يصبح العريف: الرقم المقابل للجندي الأول، الثاني... الخ والجندي يدفع^(٢) السجن من خلفه دعاً ويجلده بالوسط. هذا المشهد الفظيع يتكرر كل يوم مرتين. وفي فناء المعسكر في مكان العمل يستطيع المرء أن يتصور أن هؤلاء الحراس حارون يقودون حميرهم ويقرعونهم وهم يجرون خلفهم. نحمدنا في أماكننا من خوف مبهم ونحن ننتظر دورنا. ولكن لحسن الحظ كان الأمر مغايراً.

- أيها الفرنسيون تعالوا من هنا، للشبان منكم هذه المعاول، وللكهليين المجارف. توجهنا نحو مكان الشغل بدون جري، ولكن بخطوات صياد، يجرسنا أربعة خفراء ومساعد. كان هذا النهار أكثر طولاً وأدعى إلى اليأس من سابقه. رجال منهوكون ومستهدفون يصيحون كالمجانين ويتضرعون راكعين أن يتوقفوا عن ضربهم. وكان عليهم أن ينجزوا كومة كبيرة من الحطب سيء الاحتراق، من أصل العديد من هذه الأكداس. وآخرون عليهم تنظيف المخلفات، وثمانون أو مئة حزمة حطب كانت على وشك التلف. وقد تبقى في وسط المعسكر فقط مقدار كبير من الجمر. وكان كل جندي يجلد سجينه ليجمع النفايات ويحملها وهو راكض إلى وسط المعسكر. وهذا السباق الشيطاني عند البعض يدل على أزمة جنونية، ويلتقطون أحياناً، وهم في عجلة من أمرهم، أغصاناً

(١) غم شديدة.

(٢) يدفع؛ يدفع من الخلف.

لا تزال محترقة فتحترق أيديهم المجلودة بوحشية، ويمشون حفاة على الجمر أو على غصن في حالة احتراق. ويدوم هذا المشهد الخيالي ثلاث ساعات.

لم يدع أحد منا لتنظيف المعسكر المستصلح حديثاً. وهذا من حسن الحظ. لأننا كنا قررنا ونحن نتكلم بعبارات مقتضبة، ودون أن نرفع رؤوسنا، وأيدينا تعمل، قررنا الوثوب على الجنود الخمسة وعلى رئيسهم معهم وأن نجردهم من سلاحهم وأن نطلق النار على هؤلاء الوحوش.

اليوم هو يوم الثلاثاء. ولم نخرج إلى العمل، واستدعينا إلى مكتب المقدمين في الحرس الوطني. وقد أثار دهشتها، وجودنا في الدورادو بدون وثائق تثبت بأن محكمة ما قد أرسلتنا إلى هنا. وعلى كل حال فقد وعدا بطلب تفسير من مدير العقوبات ولم يطل ذلك. فهذان المقدمان قائد حراسة المعسكر التأديبي قاسيان جداً ويمكن القول إنها يبالغان في الردع، ولكنهما مستقيمان، لأنها طلبا حضور مدير المستعمرة شخصياً لتقديم الإيضاحات. وها هوذا أمامنا ومعه صهره ورسيان، وضابطان من الحرس الوطني.

— أيها الفرنسيون! أنا مدير مستعمرة الدورادو، وترغبون في التحدث معي فماذا ترومون؟

— أولاً. أية محاكمة حكمت علينا بعقوبة الأشغال الشاقة في هذه المستعمرة دون سماع دفاعنا؟ ما مدة العقوبة؟ ولاي ذنب حكمت؟ لقد وصلنا بحراً إلى إيرابا ولم نقترف ذنباً، إذن فماذا نفعل هنا؟ وبماذا تبرر إجبارنا على الشغل هنا؟
— نحن في حالة حرب وعلينا إذن أن نعرف بالضبط من أنتم.
— حسن جداً. ولكن هذا لايسوغ إدخالنا إلى السجن.
— أنتم هاربون من العدالة الفرنسية. لهذا يجب أن نعرف إن كنتم مطلوبين من قبلها.

— أقبل بهذا ولا زلت ألح: لماذا نعامل كما لو كنا نخضع لعقوبة ما.
— في الوقت الحاضر أنتم هنا بموجب قانون الإيداع على ذمة التحقيق.
وكان لهذا النقاش أن يطول كثيراً لولا أن أحد الضابطين قطع كل شيء بإبداء رأيه:

— أيها المدير! بدافع من الشرف لانستطيع أن نعامل هؤلاء الرجال معاملة السجناء الآخرين فانا أقترح أن نجد لهم عملاً غير الشغل في تعبيد الطرق، ريثما يطلع كاراكاس على هذه الحالة الخاصة.
— إنهم رجال خطرون، فقد هددوا رئيس الحرس بالقتل لو ضربهم. ليس هذا صحيحاً؟

— لم نهده فحسب يا سيدي المدير، بل لو أن أي واحد تسلى بضربنا لقتلناه.
— وإذا كان جديداً؟
— الشيء نفسه. لم نفعل شيئاً لكي نتحمل نظاماً كهذا، وربما كانت شرائعنا

ونظمنا التأديبية أفظع من قوانينكم وأقل إنسانية. أما أن يضرب أحدنا كالدابة، فهذا ما لا نقبل به أبداً.

التفت المدير نحو الضابطین التفاتة الظافر وقال:

— ألا ترون أن هؤلاء الرجال خطرون جداً؟

تردد الضابط الأكبر سناً مقدار ثانيتين، ووسط دهشة الجميع انتهى إلى النتيجة التالية:

— هؤلاء الهاربون الفرنسيون على حق، فليس في فنزويلا ما يسوّغ إجبارهم على احتمال عقوبة ما أو الرضوخ لقوانين هذه المستعمرة، فأنا أعطيهم الحق. وكذلك هناك شيطان أيها المدير، إما أن تجد لهم عملاً منعزلاً عن الآخرين أو أن لا يخرجوا إلى العمل إطلاقاً. ولكن وجودهم مع أولئك الناس جميعاً سوف يعرضهم للضرب يوماً ما من قبل جندي.

— سوف ننظر في هذا ودعهم في الوقت الحاضر في المعسكر وسأخبرك غداً بما ينبغي عمله.

وانسحب المدير مصحوباً بصهره. فشكرت للضابطین فقدما لنا السجائر، وسمحا لنا بقراءة تقرير المساء الذي يوصي الضابط والجنود بعدم ضربنا مهما كانت الأسباب، مضى على وجودنا هنا ثمانية أيام ولا نشغل.

أمس الأحد حدث شيء رهيب. لقد أجرى الكولومبيون سحباً بالاقتراع على من يقتل الرئيس النيجرو-بلانكو (أي الأسود-الأبيض)، والخاسر كان رجلاً في الثلاثين من عمره، وجهزه بملعقة حديدية شحذ مقبضها على الإسمنت حتى غدت مدببة كحربة الرمح وحادة على الطرفين. وقبل الرجل بشجاعة تنفيذ الاتفاق الذي تم مع أصدقائه فطعن النيجرو-بلانكو ثلاث طعنات قرب قلبه فنقل إلى المستشفى في حالة إسعاف مستعجل. أما القاتل فقد ربط إلى عمود في وسط المعسكر، وانطلق الجنود كالمجانين يبحثون عن أسلحة أخرى، وانهالت الضربات من كل صوب، وفي احتدام غضبهم، جلدني أحدهم سوطاً في فخذي، فما كان من كوريبيير ريفي إلا أن أمسك بمقعد ورفعه ثم هوى به على رأس الجندي، قطعته جندي آخر بالحربة في ذراعه. وأنا ركلت الجندي ركلة في بطنه فطرحته على الأرض. وأمسكت البندقية التي وقعت على الأرض عندما ارتفع صوت قوي آمر وصل إلى مسمع الجميع:

— توقفوا جميعاً، ولا تمسوا الفرنسيين. وأنت يا فرنسي دع البندقية.

إنه النقيب فلورنس الذي استقبلنا في اليوم الأول، هو الذي زجر بهذه الأوامر.

جاء تدخله في اللحظة التي كنت أنوي فيها إطلاق النار في المجموعة، ولولاه لقتلت واحداً أو اثنين، ولكان من المؤكد أن نودع الحياة التي أوشتنا أن نضيعها بغبوة

على طرف فتزويلا على طرف العالم في هذا السجن حيث لا نستطيع أن نفعل شيئاً. فيفضل تدخله الفعّال تراجع الجنود عن فتتنا، وذهبوا إلى موضع آخر يشبعون نهمهم في التذبيح. وحينئذ شهدنا أخط وأندل ما يمكن تصوره: الرجل المشدود إلى العمود وسط المسكر يعذب بالجلد دون توقف ثلاثة رجال جنديان ورئيسهما. وقد دام هذا من الساعة الخامسة بعد الظهر وحتى السادسة صباحاً عند طلوع النهار. وهذا زمن طويل لقتل إنسان. الوقفات القصيرة جداً في هذا التعذيب كان لسؤاله عن شركائه الذين أعطوه الملعقة والذين شحذوها والرجل لا ييوح رغم أنهم وعدوه بوقف التعذيب إن هو تكلم، حتى أنه فقد صوابه مراراً تحت وطأة التعذيب وكانوا ينعثونه بإلقاء دلاء الماء عليه. وبلغ السيل الزبي عندما رأوا أن جلده لم يعد يتأثر بالضرب وحين لم تبقى أمشاطه تقلصات توقف الجلادون. قال الضابط: هل مات؟ قالوا لا ندري. قال: فكوه وضعوه على أطرافه الأربعة. فأنزله أربعة من الرجال وأثناء ذلك سدد له أحد الجلادين جلدة من سوطه في الخط الفاصل بين أليتيه، ورأس السوط قد ذهب حتماً إلى مكان أبعد. وضربة المعلم هذه انتزعت من المسكين صرخة ألم حادة. قال الضابط: تابعوا إنه لم يم، وظل الضرب ينال عليه إلى رابعة النهار. وهذه العملية الجديرة بالعمود الوسطى والتي يمكن أن تقتل جواداً لم تتوصل بعد إلى إزهاق روح هذا الرجل، وبعد أن تركوه ساعة من غير ضرب، وبعد أن رووا جسده بعدة دلاء من الماء استطاع النهوض بمساعدة الجنود؛ جاء الممرض ويده كأس. فقال الضابط للرجل بلهجة الأمر. تناول هذا المسهل فلعلك تتحسن. فتردد قليلاً ثم شرب الدواء جرعة واحدة، وبينما كان في حالة التزعزع خرجت من فمه عبارة واحدة يخاطب بها نفسه: «أيها الأحمق لقد دسوا لك سماً». ولا جدوى من القول إن أحداً من السجناء لم يتحرك، حتى نحن لم نتزعزع قيد أنملة. وكان الجميع دون استثناء في حالة رعب. وهذه هي المرة الثانية في حياتي أتمنى فيها الموت. وفي خلال دقائق كانت بندقية أحد الجنود تغرني بخطفها وهو غير بعيد عني. والذي جعلني أتمالك وأتماسك قليلاً هي فكرة إمكانية قتلي قبل أن يتسع لي الوقت للاستيلاء على البندقية والضرب بها ضرباً صائباً.

وبعد مضي شهر عاد النيجرو-بلانكو من جديد وعاد معه الإرهاب أكثر من ذي قبل. ومع ذلك كان قدره في الموت في الدورادو مكتوباً. ففي إحدى الليالي صوب أحد الحراس البندقية نحوه وقال له: اركع، فركع

— صل صلاتك فإنك ميت.

وتركه يصلي صلاة قصيرة ثم جندله بثلاث رصاصات من بندقيته. ويقول السجناء بأن الجندي قد قتله لأن قلبه قد امتلأ شفقة عندما رأى هذا الجلاد وهو يضرب كاللوحش هؤلاء السجناء المساكين، وآخرون يقولون بأن النيجرو-بلانكو، قد وشى بهذا الجندي إلى رؤسائه مدعياً بأنه يعرفه في كراكاس وأنه قبل الخدمة العسكرية كان لصاً.

كل هذه الحوادث حالت دون اتخاذ قرار بشأننا، ومن ناحية أخرى ظل السجناء الآخرون لا يخرجون إلى العمل مدة أسبوعين، وكان أحد أطباء القرية يعتني بذرار بارير الذي أصيب بطلعته خربة. نحن حالياً مبعولون. ذهب شابار بصفة طباطخ إلى القرية عند المدير. غيتو وبارير أطلق سراحهما، إذ جاءت التعليمات من فرنسا بشأننا جميعاً، وقد أخرجنا بعد أن تبين أنهما أمهيا مدة عقوبتهما. وأنا كنت أعطيت اسماً إيطالياً، فجاء اسمي الحقيقي مع البصمات، وقرار الحكم المؤبد، وورد أن ديبلانك محكوم بعشرين سنة وكذلك شابار. قدم لنا المدير الخبر الذي تلقاه من فرنسا فخوراً فقال:

ومع ذلك لم تفعلوا شيئاً يسيراً إلى فنزويلا وسوف نحفظ بكم بعض الوقت ثم نطلق سراحكم ومن أجل ذلك يجب أن تشتغلوا جيداً وتسلوكوا سلوكاً حسناً فأنتم في فترة اختبار وملاحظة.

وفي حديث كان لي مع الضابطين سمعت منها شكوى تتعلق بصعوبة الحصول على خضار غضة من القرية، وللمستعمرة حقل زراعي وليس فيه خضار، إنما إنتاجه من الرز والشعير والفاصولياء السوداء وحسب. فعرضت عليها إعداد حديقة إذا قدما لي بذوراً، فقبلاً. والفائدة الأولى أنني وديبلانك نخرج من المعسكر، ثم انضم إلينا سجينان موقوفان في سيوداد بوليفار أحدهما باريسي -توتو- والآخر كورسيكي وقد أنشؤوا لنا بيتين من الخشب وأوراق النخيل. أحدهما لي ولديبلانك والآخر لرفيقتنا. أنا وتوتو بنينا مناضد عالية قوائمها موضوعة في علب مليئة بالبترول حتى لأتأكل النمال الحبوب، وسرعان ما حصلنا على غرسات للبندورة والباذنجان والشمام والفاصولياء الخضراء.

وبدأنا بنقل الغرسات على ألواح خشبية لأن النباتات أصبحت قوية وقادرة على مقاومة النمل وقد حفرنا حولها حفرة من نوع خاص لتكون مملوءة بالماء وذلك لزراعة البندورة وتحفظها رطبة، وتمنع الطفيليات العديدة في هذه الأرض العذراء من الوصول إلى غراسنا.

قال توتو: ما هذا؟ انظر إلى هذه الحصة ما أشد لمعانها، اغسلها وناولني إياها إنها قطعة من الكريستال بحجم حبة الحمص المشوية - وبعد الغسل زاد لمعانها من الجهة التي انكسر فيها غلافها، لأنها محاطة بنوع من القشرة الرملية الصلبة.

- ألا تكون هذه ماسة؟

- صه يا توتو. فإن كانت ماسة فليس الآن أوان التبجح، أرى أنه قد يكون لنا حظ العشر على منجم ماس. خبيء هذه ولنتنظر حتى المساء.

كنت في المساء أعطي دروساً في الرياضيات لعريف (هو اليوم عميد) كان يحضر نفسه لسابقة يتنقل بتيجتها إلى صف الضباط، وهذا الرجل نبيل المحتد ومستقيم عند كل تجربة. (لقد برهن لي على ذلك خلال خمس وعشرين سنة من الصداقة). وهو اليوم العميد فرنسيسكو بولايرو أوتريرا. قلت له:

- فرنسيسكو! ما هذه؟ هل هي كريستال صخري؟

تفحصها بدقة وقال:

— لا إنها ماسة. لاترها لأحد. أين وجدتها؟

— تحت غرسات البندورة.

— هذا غريب ألا تكون قد جرفتها مع الماء من النهر؟ هل جرفت الدلو وأخذت

الماء مع شيء من الرمل؟

— نعم إن هذا قد حصل.

— إذن هذا هو.. قد أخرجت ماستك من ماء النهر، نهر ريو كاروني، ويمكنك أن

تبحث، وتخذ حذرك فقد تكون جلبت ماسات أخرى. وليس ممكناً إيجاد حجر كريم واحد. فحيثما وجد حجر واحد فثمة بالضرورة أحجار أخرى.

انصرف توتو إلى العمل ولم يشتغل في حياته إلى هذه الدرجة، حتى أن رفيقينا اللذين لم نخبرهما بشيء كانا يقولان:

— كفاك شغلاً يا توتو. لقد أضنيت نفسك بحمل دلاء الماء من النهر وعلاوة على

ذلك فإنك تحمل معه الرمل.

— ذلك لأجعل الأرض أكثر خفة يا صديقي، فبخلط التراب بالرمل، تصبح أكثر

ترشيحاً للباء.

ورغم مزاحنا جميعاً تابع توتو حمل الدلاء دون انقطاع.

وفي أحد الأيام، عند الظهيرة، جلس أمامنا في الظل، وبرزت من بين الرمل

المهدور ماسة كبيرة بحجم حبتين من الحمص المشوي (القضامة) وقد انكسر غلافها وإلا خفيت عن الأنظار، وأخطأ في التقاطها مستعجلاً. قال ديبلانك:

— أليست هذه ماسة؟ لقد قال لي بعض الجنود بأن في النهر ماساً وذهباً.

— لهذا أحمل كثيراً من الماء وترون أنني لست غيباً إلى هذه الدرجة.

هذا ما قاله توتو أخيراً راضياً عن تفسيره لشغله الكثير. وباختصار، في نهاية ستة

أشهر آلت الحكاية إلى أن توتو غدا مالكاً لسبع قراريط من الماس. وأنا أملك اثني عشر، بالإضافة إلى ثلاثين من الحجارة الصغيرة.

وفي أحد الأيام وجدت ماسة ذات ست قراريط، صقلت في كراكاس فأعطت أربعة

قراريط تقريباً. أحملها ليل نهار في أصبعي. ديبلانك وأنترتاغليا هما أيضاً جمعا بعض

الأحجار الكريمة. لازال عندي الأنبوب الذي كنت استعمله في السجن فوضعت ماساتي داخله. وهم صنعوا من أطراف قرون الثور نوعاً من الأنابيب تنفعهم في الاحتفاظ بهذه

الكنوز الصغيرة.

لا أحد يعرف شيئاً سوى هذا الذي سيكون عميداً في المستقبل، العريف فرنسيسكو

بولانجو. نبتت البندورة والخضار الأخرى. كان الضباط يدفعون لنا بدقة ثمن خضارنا

التي كنا نحملها كل يوم إلى قاعة الطعام.

كنا أحراراً، نسيباً، نشغل دون حراسة، وننام في منازلنا ولانذهب إلى المعسكر

أبداً، لقد صانوا كرامتنا وأحسنوا معاملتنا. وطبيعي أننا نلح على المدير كلما استطعنا، لكي يطلقوا سراحنا، وفي كل مرة كان يجيب: قريباً. حتى مضت ثمانية أشهر ولم يحصل شيء من هذا. وبدأت أتكلم وتوتو لا يريد أن يعرف شيئاً. وكذلك الآخرون. ولكي أدرس النهر استعرت خيطاً للصيد وشصاً. وهكذا بدأت ببيع الأسماك وخصوصاً الكاريبي الشهير وهو من النوع المفترس الذي يصل وزنه إلى كلف وأسنانه مصفوفة كأسنان سمك القرش، وهي رهبة مثلها.

حدثت اليوم بلبله. غاستون دورانتون، والمدعو تورودو (الملتوي) هرب حاملاً معه سبعين ألف بوليفار من صندوق المدير. هذا المحكوم بالأشغال له قصة طريفة:

كان في الإصلاحية وهو صغير، في جزيرة أولدرن، وكان يعمل حذاءً في العمل، وفي أحد الأيام انقطع السير الجلدي الذي كان يمر فوق الركبة فصار وركه مشوهاً ولم يجد العناية الكافية والتحم وركه التحاماً خاطئاً. وظل بقية طفولته وجزءاً من شبابه، ملتوياً في وركه، وكان منظره وهو عيشي يحز في النفس. هذا الفتى النحيل المعوج الذي كان لا يقوى على المشي إلا أن يجير ساقه التي كانت لا تطاوعه، أتى به إلى السجن في الخامسة والعشرين من عمره، وليس هناك ما يثير الاستغراب، فبعد تدريبات طويلة في الإصلاحية خرج منها لصاً. كل الناس كانوا يدعونه بالملتوي. ولا يكاد أحد يعرف اسمه الحقيقي غاستون دورانتون إنه ملتو وينادونه بالملتوي. وفي السجن رغم التواءه هرب حتى وصل إلى فنزويلا، كان هذا في عهد الدكتاتور غومز وقتل من السجناء من نجا من زجره وباستثناءات نادرة، وبخاصة الدكتور بوغرات لأنه أنقذ كل سكان جزيرة اللؤلؤ، مارغريتا حيث كان وباء الحمى الصفراء منتشرًا.

أوقف الملتوي من قبل شرطة غومز الخاصة المسماة ساغرادا (أي المقدسة) ثم بعث به إلى السجن للشغل في الطرقات. كان السجناء الفرنسيون والفنزوليون، مقيدون بسلاسل وكرات حديدية، حفر عليها رسم زهرة زنبق طولون. فحين يحتج الرجال يقال لهم: هذه السلاسل والأصفاد والكرات إنما هي من بلدكم انظروا إلى زهرة الزنبق. باختصار هرب الملتوي من المعسكر الذي يعمل فيه في أعمال الطرق، ثم قبض عليه بعد عدة أيام، وأعادوه إلى هذا النوع من المعسكر المتنقل، فبطحوه أرضاً على وجهه وهو عار وحكموا عليه بمئة جلدة.

ومن النادر جداً أن يقاوم رجل أكثر من ثمانين جلدة، ولكنه كان محظوظاً لأنه نحيل وقد أكبوه على وجهه، فالضربات لا تصيب كبده في هذه الحالة، لأن الكبد قد تنفجر من شدة الضرب. ومن المألوف أنهم بعد الضرب حيث تتمزق الأليتان يضعون ملحاً على الجرح ويتركون المجلود في الشمس ويغطون رأسه بورق نبات شحمي، والمعتول أن يموت من الضرب لا من ضربة الشمس. خرج الملتوي حياً من هذا التعذيب الذي ترجع أساليبه إلى العصور الوسطى وعندما نهض لأول مرة كانت المفاجأة. فلم يبق ملتوياً، فالضربات كسرت الالتحام الذي تم خطأ وأعادت الورك إلى مكانه الطبيعي

بالضبط. وأذهلت المعجزة السجناء والجنود على حد سواء، ولم يفهم أحد شيئاً. وفي هذا البلد يعتقدون بالأوهام. فقد ظنوا بأن الله هو الذي أراد أن يكافئه لأنه قاوم التعذيب.

ومنذ ذلك اليوم نزعوا عنه الحديد والكرة الحديدية. وصار محمياً. وأخذ يعمل موزعاً للماء على السجناء أثناء الشغل. ولقد تطور في سرعة وصار يأكل كثيراً، وطالت قامته، وأصبح جسمه متناسقاً كأجسام قدامى اليونان.

علمت فرنسا بأن السجناء يشتغلون في تعبيد الطرق في فنزويلا. ففكرت بأن هذه الطاقات يحسن استخدامها في غويان الفرنسية. فجاء المارشال فرانسه وسييري في بعثة إلى الدكتاتور ليطلب منه التكرم بتسليم هؤلاء الرجال، وهو سعيد بهذي الأيدي العاملة المجانية. وقبل غومز بذلك. ووصل إلى ميناء بويرتو كابيلو، مركب لأخذهم.

حدث موقف مضحك إذ أن رجالاً من مجموعات عمل في الطرقات من أماكن أخرى لا يعرفون حكاية الملتوي.

— مارسل كيف حالك؟

— من أنت؟

— الملتوي.

فأجاب الجميع من الحاضرين وهم يرون هذا الشهم الجميل المنتصب على ساقين مستقيمتين:

— أنت تمزح أم تسخر منا؟

والملتوي الذي كان فنياً ومزاحاً لم يكف عن مناداة من يعرفهم وهم لا يصدقون أن الملتوي قد استقام. ولدى عودتنا إلى السجن، سمعت هذه القصة من فمه ومن أفواه السجناء في رويال.

ولما هرب من جديد في العام ١٩٤٣ أخفق في الإدورادو. وبما أنه عاش في فنزويلا بدون أن يقول حقاً بأنه كان سجيناً فقد استخدموه طاهياً مكان شابار الذي تحول إلى البستنة.

كان في القرية عند المدير صندوق حديدي فيه أموال المستعمرة. وفي ذلك اليوم سرق ستين ألف بوليفار وهذا ما يساوي في ذلك الوقت عشرين ألف دولار. ومن هنا كانت تلك البلبلية في حديثنا. المدير يريد إرجاعنا إلى المعسكر، والضابطان يرفضان ويدافعان عنا، وعن مؤونتهم من الخضار!..

وتوصلنا أخيراً إلى إقناع المدير بأن ليس لدينا أية معلومات ندلي بها إليه، وبأننا لو كنا نعلم شيئاً لذهبنا مع الملتوي. وبأن هدفنا نحن أن نتحرر في فنزويلا لا في غويان الانجليزية وهي المنطقة الوحيدة التي يمكنه أن يتوجه إليها.

وجد الملتوي ميتاً على بعد سبعين كيلو متراً في غابة قريبة جداً من الحدود الانجليزية وذلك لأن الأدلاء القذرين قد قتلوه. وأولى الروايات وأسهلها هي أن الهنود هم الذين قتلوه. وبعد فترة من الزمن أوقف رجل في سيوداد بوليفار كان يصرف أوراقاً

من فئة خمس مئة بوليفار وكانت جديدة جداً، والمصرف الذي كان قد أرسلها إلى مدير مستعمرة الدورادو عنده الأرقام المتسلسلة وأفاد بأنها من الأوراق المسروقة فاعترف الرجل، ووشى بانهن آخريين لم يتم إلقاء القبض عليهما البتة. هذه هي حياة ونهاية صديقي الطيب غاستون دورانتون الملقب بالملتوي.

كلف بعض الضباط بعضاً من السجناء بالتنقيب عن الذهب والماس في ريو كاروني، وكان ذلك خفية وخلافاً للأنظمة. وكانت النتائج إيجابية، بغير اكتشافات خيالية إنما كانت كافية لإغراء الباحثين وشحذ عزائمهم.

في عمق بستاني يشتغل رجلان طول النهار بالرفش ويحملان قبة صينية مقلوبة، مقدمتها منحدره نحو الأسفل وأطرافها عالية، يملأها بالتراب ويفسلانه، وبما أن الماس أثقل من غيره فإنه يترسب في قاع القبة. مات أحدهما وقد كان يسرق معلمه. وهذه الفضيحة الصغيرة أدت إلى إيقاف هذا المنجم الخفي.

في المعسكر رجل موشوم الصدر، وقد وشم على رقبته أيضاً «الحلاق قدر». وهو مشلول الذراع الأيمن وفمه الملتوي ولسانه المتدلي غالباً ما يسيل منها اللعاب وهما يدلان في وضوح على أنه مصاب بفالج شقي. أين أصيب؟ لا أحد يعلم. لقد كان هنا قبلنا. من أين أتى؟ لا مرأ في أنه سجين أو متفي هارب، إن الوشم (بات-داف) على صدره، بالإضافة إلى وشم (الحلاق قدر) على قذاله، يشيران بالتأكيد إلى أنه محكوم. يدعوه الحراس والسجناء بيكولينو. يعامل معاملة حسنة، ويقدم له الطعام بانتظام ثلاث مرات في اليوم، ويعطى السجائر. عيناه الزرقاوان تعيشان في حدة، ونظراته ليست حزينة دائماً. عندما يرى إنساناً يجبه تلتصق حدقاته بالفرح. يفهم كل ما يقال له ولا يستطيع الكلام ولا الكتابة نظراً لشلل يده اليمنى، ويده اليسرى ينقصها الإبهام وأصبعان، هذا الحطام يبقى ساعات ملازماً للأسلاك الشائكة منتظراً مروري وأنا أحمل الخضار لأن هذا هو طريقي الذي أسلكه في الذهاب إلى مطعم الضباط. فكل صباح، عندما أحمل خضاري أتوقف لأتكلّم مع بيكولينو. ينظر إلي وهو متكئ على السلك الشائك بعينه الجميلتين الممتلئتين بالحياة في جسم شبه ميت. وكنت أسمع كلاماً لطيفاً وكان يفهمي بأنه فهم كل شيء بإيماءة من رأسه أو بحركة من جفنيه. ووجهه المشلول يضيء لحظة وعينه تبرقان مبتغياً التعبير عن أشياء كثيرة.

كنت أحضر له دوماً بعض الطيبات: سلطة بندورة وخساً أو خياراً، وكل شيء محضر من الصلصة المخللة، أو بطيخ الشّام، أو سمكة مشوية على الجمر. لم يجع أبداً لأن الغذاء متوفر في السجن الفنزويلي، ولكن هذا يختلف عن لائحة الطعام الرسمية، وبعض السجائر تكمل هداياي الصغيرة. وقد صار هذا مني دأباً حتى أن الحراس والسجناء أطلقوا عليه اسم (ابن بابيرون).

الحرية

شيء رائع. إن الفنزويليين يأخذون بمجامع القلوب ويأسرونها حتى أنني أزمعت الوثوق بهم ولن أهرب. لقد ارتضيت هذا الوضع الشاذ في السجن مؤملاً أن أصبح يوماً ما منهم. وقد يبدو أن في هذا تناقضاً. إن الطريقة الوحشية التي يعاملون بها السجناء لا تشجع على العيش فيهم. وأدركت أنهم يرون العقوبات الجسدية شيئاً عادياً لدى السجناء والجنود، فإذا أخطأ الجندي هو أيضاً ينال عقوبة الجلد وبعد أيام تراه يتحدث مع رئيسه أو العريف أو الضابط الذي جلده وكان شيئاً لم يحدث.

هذا الأسلوب البربري انتقل إليهم من الدكتاتور غوفر الذي قادهم على هذا النحو سنين طوالاً. إلى درجة أن رئيساً مدنياً قد عاقب السكان التابعين لسلطته بهذه الطريقة طريقة الضرب بالسوط. وبسبب ثورة حدثت وجدت نفسي في إحدى الليالي حراً إذ حصل انقلاب عسكري - مدني أطاح برئيس الجمهورية عن كرسي الرئاسة، وهو الجنرال انكاريتا مدينا. أحد كبار الأحرار الذين عرفتهم فنزويلا. كان طبيباً ديمقراطياً حتى أنه لم يعرف أو لم يشأ إراقة دماء الفنزويليين ليلقى هو محتفظاً بمنصبه. وبالتأكيد إن هذا العسكري الكبير الديمقراطي جداً لم يكن يعلم بما يجري في إلدورادو. وعلى كل حال بعد مضي شهر على الثورة تبدل جميع الضباط وفتح تحقيق بموت ذلك الشخص بالمسهل. واختفى المدير وصهره وحل محلها محام سياسي قديم.

- نعم بابيون سأطلق سراحك غداً ولكن سأعهد إليك باصطحاب بيكولينو الذي نرعه وليس معه بطاقة شخصية وسوف أعطيه واحدة. وبالنسبة إليك دونك هذه البطاقة الشخصية النظامية باسمك الحقيقي والشروط كما يلي:

يجب أن تعيش في مدينة صغيرة مدة عام قبل أن تستطيع الإقامة في مدينة كبيرة وفي هذا نوع من الحرية غير المراقبة ولكن هناك من يراك كيف تعيش ويتنبه لطريقتك في الدفاع عن نفسك في الحياة فإذا أعطاك الرئيس المدني شهادة بحسن السلوك - وهذا ما أعتقده - فهو نفسه سيضع حداً لإقامتك الجبرية. وأنصوّر أن كراكاس ستكون بالنسبة إليك المدينة المثالية. إن ماضيك لا شأن لنا به وعليك أن تبرهن على أنك جدير بالموافقة على أن تكون رجلاً ذا اعتبار. وأمل أن تصبح قبل مرور خمس سنوات مواطناً بجنسية تخول لك وطناً جديداً. في رعاية الله. وشكراً لك على اهتمامك بهذا الخطام بيكولينو ولا أستطيع أن أطلق سراحه إلا إذا وقع أحدهم على كفالاته ونرجو أن يجد البرء في أحد المستشفيات.

غداً صباحاً سأخرج إلى الحرية الحقيقية وفي صحبتي بيكولينو وتملاً قلبي فرصة عامرة، لقد انتصرت أخيراً على طريق العفن وإلى الأبد.

نحن في شهر آب (أغسطس) ١٩٤٤ وأنا أنتظر هذا اليوم منذ ثلاث عشرة سنة رجعت إلى بيتي الصغير في البستان، واعتذرت من أصدقائي مستأذناً في الانسحاب لأنني في حاجة إلى الوحدة. كان انفعالي أكبر وأجل من أن أظهره أمام شهود. جلست أقلب مراراً هويتي التي أعطانها المدير. صورتي في أعلى الزاوية اليسرى والرقم ١٧٢٨٦٢٩، أعطيت بتاريخ الثالث من تموز (يولي) العام ١٩٤٤. وفي وسطها الجميل اسمي، وتحتة لقيي. وفي الخلف تاريخ الولادة في السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) العام ١٩٠٦. بطاقة الهوية قانونية تماماً فهي موقعة ومهورة بتوقيع وخاتم مدير الأحوال المدنية. الوضع في فتزويلا: مقيم. ما أعظمها من كلمة «مقيم» فهذا يعني أنني ساكن في فتزويلا. وخفقت قلبي خفقاناً سريعاً. وددت لو ركعت مصلياً لله وشاكراً. ولكنني لا أعرف كيف أصلي ولست معمداً. إلى رب من أتوجه؟ ما دمت لا أنتسب إلى أي دين. إلى إله الكاثوليك؟ أم البروتستانت؟ أم اليهود؟ أم المسلمين؟ إله من أختار لأصلي له؟ حيث أنني مضطر إلى اختراع مقتطفات إذ أنا لا أعرف صلاة كاملة. إنني أبحث اليوم عن الإله الذي أولي وجهي نحوه، ألم أفكر به عندما كنت أدعوه في حياتي. الإله الابن يسوع في سلته ومن حوله الحمار والثور؟ هلا زلت احتفظ في ضميري بالحق على الأخوات في كولومبيا؟ ولماذا لا أفكر براهب كوراساو السامي العظيم إيرنيه دوبروين؟ وقبله الراهب الطيب في سجن التوقيف؟

سأكون غداً حراً حرية كاملة، وبعد خمس سنوات سأكون فتزويلا الجنسية، فأنا واثق من أنني لن أهفو هفوة على هذه الأرض التي آوتني ووثقت بي، فينبغي أن أكون أكثر العاملين شرفاً وفي الحقيقة إنني بريء من جريمة قتل، أودى بي من أجلها إلى الأشغال الشاقة مدع عام وشرطة ومحلفون.

وما كان لهذا أن يحدث لو لم أكن متشرداً عاطلاً عن العمل وذلك لأنني كنت مغامراً حقاً فاستطاعوا أن ينسجوا بسهولة حول شخصي مجموعة أكاذيب وأوهام متشابكة. فتح صناديق الآخرين ليس حرفة فاضلة وللمجتمع حق وواجب الدفاع عن النفس فإذا ألقيت في طريق العفن فإن الشرف يقتضي أن أعترف بأنني كنت مؤهلاً دوماً للوقوع فيه يوماً ما.

وإذا كانت عقوبتي لا تليق بشعب كالشعب الفرنسي، وإذا كان للمجتمع الحق في الدفاع عن نفسه لا في الانتقام على هذا الدرك من الانحطاط، فهذا كله شيء آخر.

فماضي لا يمتحي بجرة اسفنجية، فواجب علي أن أرجع إلى ما كنت عليه من الاعتبار في نظر نفسي أولاً ثم في أعين الآخرين ثانياً. إذن عليك أن تشكر إله الكاثوليك يا بابي وعاهده على شيء مهم. إلهي اغفر لي أن كنت أجهل كيف أصلي ولكن أنظر إلى سري لتعلم أنني لا أملك ما يكفي من القول لأعبر عن جزيل امتناني على ما أوصلتني إليه. وقد

كان الكفاح مرأً، إن تجاوز المحنة التي أذاقني عذابها أولئك الرجال لم يكن يسيراً، وإذا قبضت لي أن أخطئ العقبات. وأن تستمر حياتي في صحة جيدة إلى هذا اليوم المبارك، فذلك لأن يدك فوق يدي، وكنت لي عوناً وسنداً. فما عساني أن أفعل لأقدم الدليل على أنني من الشاكرين على إحسانك؟

— اعدل عن فكرة الانتقام.

هل سمعت هذه العبارة حقاً أم توهمت؟ لا أدري ولكنها صفتني في وجهي صفراً حتى لكأنني سمعتها حقاً.

— لا. لا تطلب مني هذا. هؤلاء الناس قد أذاقوني الويل، كيف تريدني أن أغفر لرجال الشرطة الكائدين، ولشاهد الزور بولان؟ هذا غير ممكن. أنت تطلب مني فوق ما أستطيع إنني آسف على معصية هذا الأمر، ولكنني لن أنتقم بأي ثمن.

خرجت وأنا خائف من أن أضعف لا أريد العدول.

خطوت في البستان بضع خطوات. كان توتو يرتب سوق الفاصولياء المتسلقة لكي تلتف على الأعواد. اقترب مني الثلاثة توتو والباريسي المؤمل بالأماكن المنحطة في حي المومسات وانتراكليا اللص المولود في كورسيكا ولكنه كان يسلب الباريسيين محافظ نقودهم وديبلانك، وهو من ديجون، وكان قد قتل قواداً مثله.

نظروا إلي ووجوههم تطفح بالبشر لرؤيتي حراً وعما قريب سيأتي دورهم ولا شك.

— ألم تحضر معك من القرية زجاجة خمر للاحتفال برحيلك.

— اعذرني فقد كنت في غاية الانفعال فلم أفكر في هذا. اغفروا لي هذا النسيان. قال توتو:

— ليس لنا أن نسامحك أريد أن أصنع لكم جميعاً قهوة طيبة.

— هل أنت مجبور يا بابي، لأنك أخيراً تحررت نهائياً، بعد سنين طويلة من الكفاح.

نحن سعداء من أجلك، سيأتي دوركم قريباً. أمل ذلك.

— هذا أكيد فقد أخبرني النقيب بأنه في كل أسبوعين سيفرج عن واحد منا.

— وماذا تنوي أن تفعل بعد أن تتحرر؟

ترددت دقيقة ثم أجبت في جرأة رغم الخوف من أكون مضحكاً أمام هذا المنفي وذيئك المحكومين: ما الذي سأفعله؟ حسناً ليس الأمر معقداً، سأشتغل وسأكون شريفاً، سأحجل من ارتكاب ذنب في هذا البلد الذي أولاني ثقته.

وبدلاً من أن أسمع جواباً ساخراً فوجئت بالثلاثة يعترفون في وقت واحد إذ يقولون:

— أنا أيضاً قررت العيش مستقيماً، أنت على حق يا بابيون. إن هذا يشق علينا

ولكن الموضوع يستأهل ذلك وهؤلاء الفنزويليون يستحقون أن نجلهم ذلك الإجلال.

لم أصدق أذني. توتو، والداعر في الأماكن المنحطة من الباستيل له مثل هذه

الأفكار؟ إن هذا شيء يحير العقل. وانترناكليا الذي قضى حياته كلها في نبش جيوب الناس يتصرف مثل هذا التصرف؟ شيء عجيب. وديبلانك القواد المحترف ليس في ذهنه أن يجد امرأة يستغلها؟ وهذا أيضاً مدهش. وأغرق الجميع في الضحك.

— لو أنك عدت غداً إلى الساحة البيضاء في مونتمارتر ورويت هذا الكلام فلن يصدقك أحد. وهذا شيء يوازي الذهب.

— الرجال من وسطنا سيصدقون لأنهم يفهمون ويدركون أما الذين لا يريدون أن يصدقوا فهم المنحطون. الغالبية العظمى من الفرنسيين لا يؤمنون بأن رجلاً له ماضينا يستطيع أن يصبح رجلاً خيراً في أية حال من الأحوال. هذا هو الفرق بين شعبنا والشعب الفنزويلي، ولقد حدثتكم عن قضية رجل إيربا الصياد المسكين الذي شرح للمفوض بأن الرجل لا يمكن أن يخرسه المجتمع إذا أعطي الفرصة لكي يصبح إنساناً شريفاً.

هؤلاء الصيادون في خليج باريا والذين يكادون أن يكونوا أميين والضائعون في هذا الخليج الواسع من أورره نوك، لديهم فلسفة إنسانية لا تجدها عند الكثير من مواطنينا.

إن التقدم تقدم ميكانيكي، والحياة حياة مضطربة، والمجتمع ليس له مثل أعلى إلا الابتكارات الميكانيكية الحديثة، وحياة أفضل وأيسر. إن المتنعم بالاكشافات العلمية كمن يلحق الغيبراء لا تزيده إلا تعطشاً لرخاء أفضل وصراعاً دائماً للوصول إليه. كل هذه الأمور تقتل الروح، وقوة الإدراك والرأفة والنبيل، ولا تبقى مجالاً للاهتمام بالآخرين. والاهتمام بأصحاب السوابق أقل بطبيعة الحال.

حتى سلطات هذا البلد تختلف عن سلطات بلدنا لأنهم مسؤولون أيضاً عن الأمن العام ورغم كل شيء فإنهم يغامرون ويقعون في المتاعب. ولكنهم على قناعة بأن ما فعلوه يوازي المخاطرة وخاصة إذا كان في ذلك إنقاذ إنسان، وهذا شيء رائع.

اقتنيت لباساً بحرياً أزرق قدمه لي تلميذي — والذي هو اليوم برتبة عميد — لقد ذهب إلى مدرسة الضباط منذ شهر تقريباً بعد أن دخلها بمسابقة وكان من الأوائل الثلاثة. وكنت سعيداً بمساهمتي في نجاحه إذ علمته دروساً في الرياضيات. وقبل ارتحالي قدم لي أمتعة جديدة تليق بي كثيراً. فخرجت، بفضلته في أحسن هندام. فرنسيسكو بولانجو هذا رئيس الحرس الوطني متزوج ورب أسرة.

هذا الضابط وهو حالياً عميد في الحرس الوطني قد شرفني بصداقته النبيلة بقدر ما هي ثابتة خلال ست وعشرين سنة. إنه يمثل حقاً الاستقامة والنبيل وأسمى ما يملكه رجل من مشاعر. ورغم مركزه في الرتب العسكرية لم يأل جهداً في إظهار صداقته ووفائه، وتقديم المساعدة أياً كانت. فانا مدين بالشيء الكثير للعميد فرنسيسكو بولانجو أوتريرا.

نعم سأحاول قدر المستطاع أن أكون وأن أبقى شريفاً. والعائق الوحيد أنني لم

اشتغل قط، ولا أحسن شيئاً وعلي أن أقوم بأي شيء لاكسب رزقي وليس هذا هيناً. إنما سأبلغ مرادي. هذا مؤكد. وغداً سأكون رجلاً كالآخرين. لقد خسرت الرهان أيها المدعي العام فقد خرجت من طريق العفن نهائياً.

كنت اهتز في سرير الأروحي بتوتر عصبي ففي هذه الليلة سأخرج من ملحمة سجن. نهضت ومشيت في بستاني الذي اعتنيت به خلال الأشهر السابقة. واستحال ضوء القمر إلى نهار، وماء النهر يجري خافتاً إلى المصب، والعصافير نائمة لا تزقزق، والسماء مزدانة بالنجوم ولكن ضياء القمر يحجبها فلا تبدو إذا أدار المرء ظهره نحو القمر. الغابة أمامي وفي وسطها بقعة جرداء تقوم عليها قرية إلدورادو. وهذا السكون العميق في الطبيعة أراحني وبدأ اضطرابي يهدأ شيئاً فشيئاً، وصفاء اللحظة هيا لي سكناً كنت أتوخاه، وأخذت أتصور في وضوح المكان الذي سيطؤه قدمي بعد النزول من المركب على أرض سيمون بوليفار، الرجل الذي حرر هذا البلد من النير الإسباني والذي أورث أبناءه المشاعر الإنسانية والتفاهم التي بفضلها استطعت اليوم أن أعود إلى الحياة. عمري الآن سبع وثلاثون سنة ولا زلت شاباً، وحالي الجسدية جيدة، ولم أمرض مرضاً يستحق الذكر وقواي العقلية حسبها أرى كاملة وطبيعية، ولم يترك طريق العفن في نفسي آثاراً مهينة. في الأسابيع الأولى من الإفراج عني لا ينبغي السعي وراء الرزق وحسب، ولكن علي أيضاً أن أجد العيش لهذا المسكين بيكولينو، إنها تبعة كبرى على عاتقي. ومع ذلك فرغم أنه سيكون عبئاً ثقيلاً علي فسوف أصون العهد الذي قطعته على نفسي للمدير بأن لا أدع هذا التمس إلا حين أضعه في مستشفى بين أيد مختصة.

هل علي أن أعلم والدي بأنني تحررت؟ فهو لا يعرف عني شيئاً منذ سنوات ترى أين هو؟ والأخبار الوحيدة التي تزود بها عني هي زيارات الشرطة له بمناسبة هروبي. يجب أن لا أستعجل الأمور ولا يحق لي أن أنكأ جرحاً ربما كان مندماً. سأكتب عندما يتحسن وضعي، عندما أكون في وضع مستقر بدون متاعب، وحين أستطيع أن أقول له:

يا أبي الصغير! إن ابنك صار طليقاً وأصبح رجلاً طيباً وشريفاً ويعيش بهذه الصورة أو تلك، ولا تحفض رأسك بعد الآن بسببه، لهذا أكتب لك معلناً أنني أحبك وأجلك دوماً.

إنها الحرب. وما يدريني إذا كان الألمان يقيمون في قريتي الصغيرة؟ الأرديش ليس جزءاً مهماً من فرنسا ولا يكون الاحتلال فيها كاملاً. عم يبحثون قرب أشجار الكستناء؟ أجل عندما أغدو فقط في حالة جيدة وجديراً بذلك سأكتب أو بالأحرى سأحاول أن أكتب إلى أهلي.

أين أذهب الآن؟ سأبقى قرب مناجم الذهب في قرية تدعى كآلو، وهناك سأقضي السنة التي فرضت علي الإقامة فيها في مجتمع صغير. وماذا أصنع؟ الله أعلم. قلت

لنفسى: لا تبدأ بوضع العوائق مقدماً، عليك أن تحفر الأرض لتبلغ قوت يومك ويتتهي كل شيء. يجب أولاً أن أتعلم كيف أعيش حراً. ولن يكون ذلك علي هيناً. منذ ثلاثة عشر عاماً، ما عدا بضعة أشهر في جورج تاون لم أفكر في تأمين لقمة العيش ومع ذلك لم أعجز عن الدفاع عن نفسي، فالمغامرة لا تزال مستمرة وعلي أن أخترع وسائل للعيش دون أن ألحق الأذى بأحد. سارى. إذن غداً إلى كآلو. الساعة السابعة صباحاً، أشرقت شمس استوائية جميلة، وساء صافية لا غيوم فيها، والعصافير تزقزق منشدة فرحتها بالحياة. لقد تجمع أصحابي أمام باب حديقتنا. بيكولينو يرتدي ملابس نظيفة وقد خلق لحيته. كل شيء يستنشق الفرحة بحريتي: الطبيعة والحيوانات والناس، وفيهم ملازم ثان سيأتي مع أصدقائي إلى الدورادو.

قال توتو: لتتعاين ثم انصرف هذا أفضل للجميع.
وداعاً يا أصدقائي الأعزاء، إذا مررتم بكآلو مروا علي وإذا كان لي بيت هناك فهو بيتكم.

— وداعاً بابي ونرجو لك حظاً سعيداً، وسرعان ما وصلنا إلى محطة الركوب وصعدنا إلى قارب مسطح. مشى بيكولينو مشياً حثيثاً لأنه مشلول فقط من أعلى وأما ساقاه فسلمتان واجتزنا النهر في أقل من خمس عشرة دقيقة. ها هي ذي أوراق بيكولينو وحظكم سعيد، فأنتم حران منذ هذه اللحظة. وداعاً.

وليس أشق من هذا. ترك السلاسل التي كنا نجرها منذ ثلاث عشرة سنة وأنتم حران منذ هذه اللحظة وأداروا لنا ظهورهم متخلين بهذا عن حراستنا وهذا كل شيء وصعدنا الطريق الحصوية التي تبدأ من النهر، وليس معنا إلا حزمة صغيرة فيها ثلاثة قمصان وبنطال احتياطي. وكنت أرتدي البذلة البحرية الزرقاء وقميصاً أبيض وربطة عنق مناسبة للبذلة وكنانشك. لأن العيش من جديد ليس مثل إعادة تركيب زر مقطوع. وإذا مر اليوم خمس وعشرون سنة على تلك الحادثة، وأنا متزوج سعيد في كراكاس بصفة مواطن فنزويلي، فذلك بعد أن مررت بمغامرات أخرى ومواقف ناجحة وشهرة، ولكن كرجل حر ومواطن مستقيم، وربما سردتها يوماً ما، وحكايات أخرى ليست بذات شأن كبير لم أجد في هذا الكتاب مكاناً لها.

مؤلفات حنا مينة

النجوم تحاكم القمر	المصاييح الزرق
القمر في اخاق	الشراع والعاصفة
المرأة ذات الثوب الأسود	الثلج يأتي من النافذة
حدث في بيتاخو	الشمس في يوم غائم
عروس الموجة السوداء	الياطر
المغامرة الأخيرة	بقايا صور
الرجل الذي يكره نفسه	المستنقع
الفم الكرزي	القطف
حارة الشحادين	الأبنوسة البيضاء
صراع امرأتين	المرصد
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة	حكاية بحار
ناظم حكمت ثائراً	الدقل
هو اجس في التجربة الروائية	المرفأ البعيد
كيف حملت القلم؟	الربيع والخريف
البحر والسفينة... وهي!	مأساة ديمتريو
حين مات النهد	حمامة زرقاء في السحب
شرف قاطع طريق	نهاية رجل شجاع
الذئب الأسود	الولاعة
الغجرية والأرقش	فوق الجبل وتحت الثلج
النار بين أصابع امرأة	الرحيل عند الغروب

BS رواية

S.P425



1 0 3 5 8 6

عالم المعرفة

عالم بقايا صور ج 1

دار الآداب

هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رسم الجندي